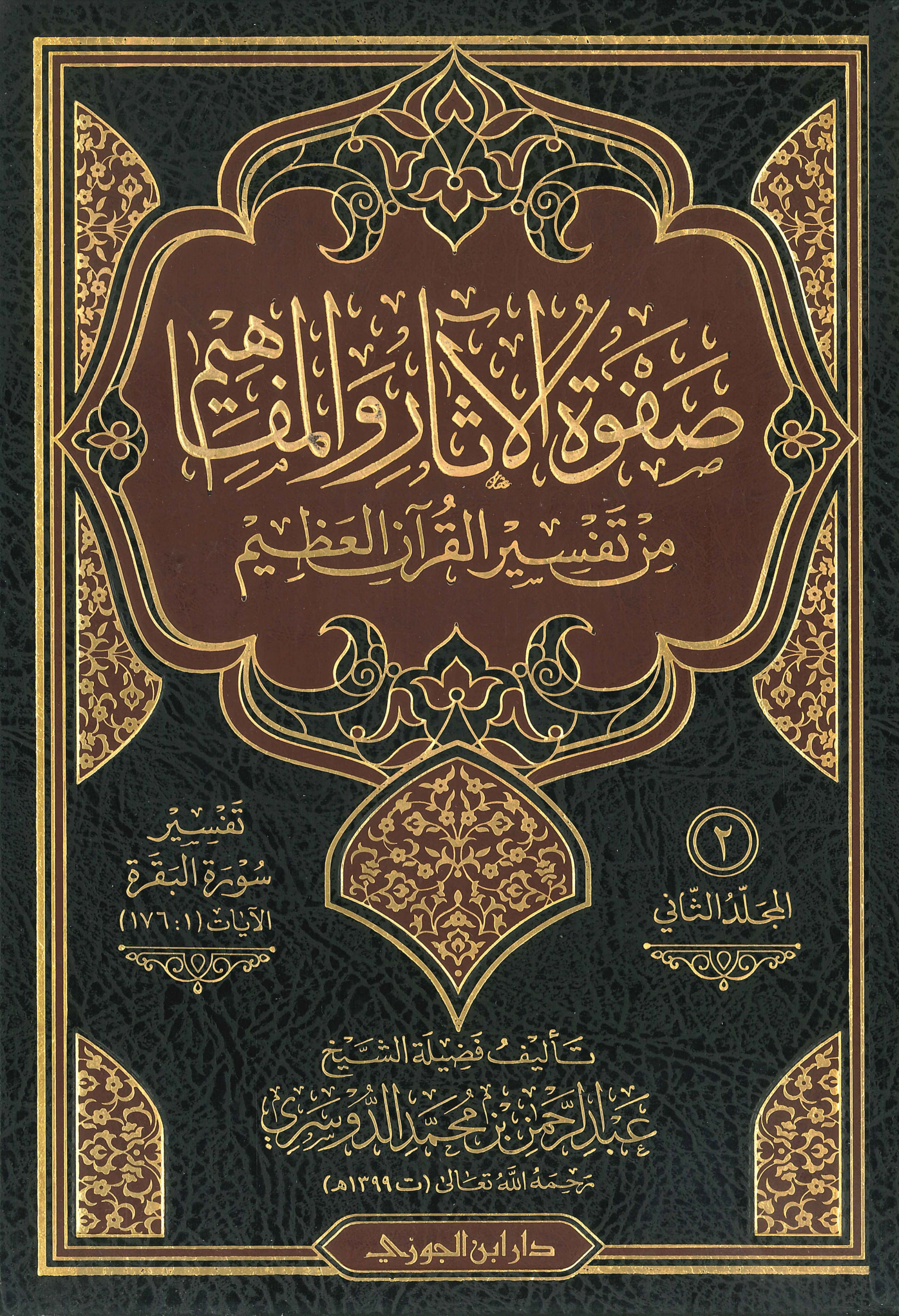
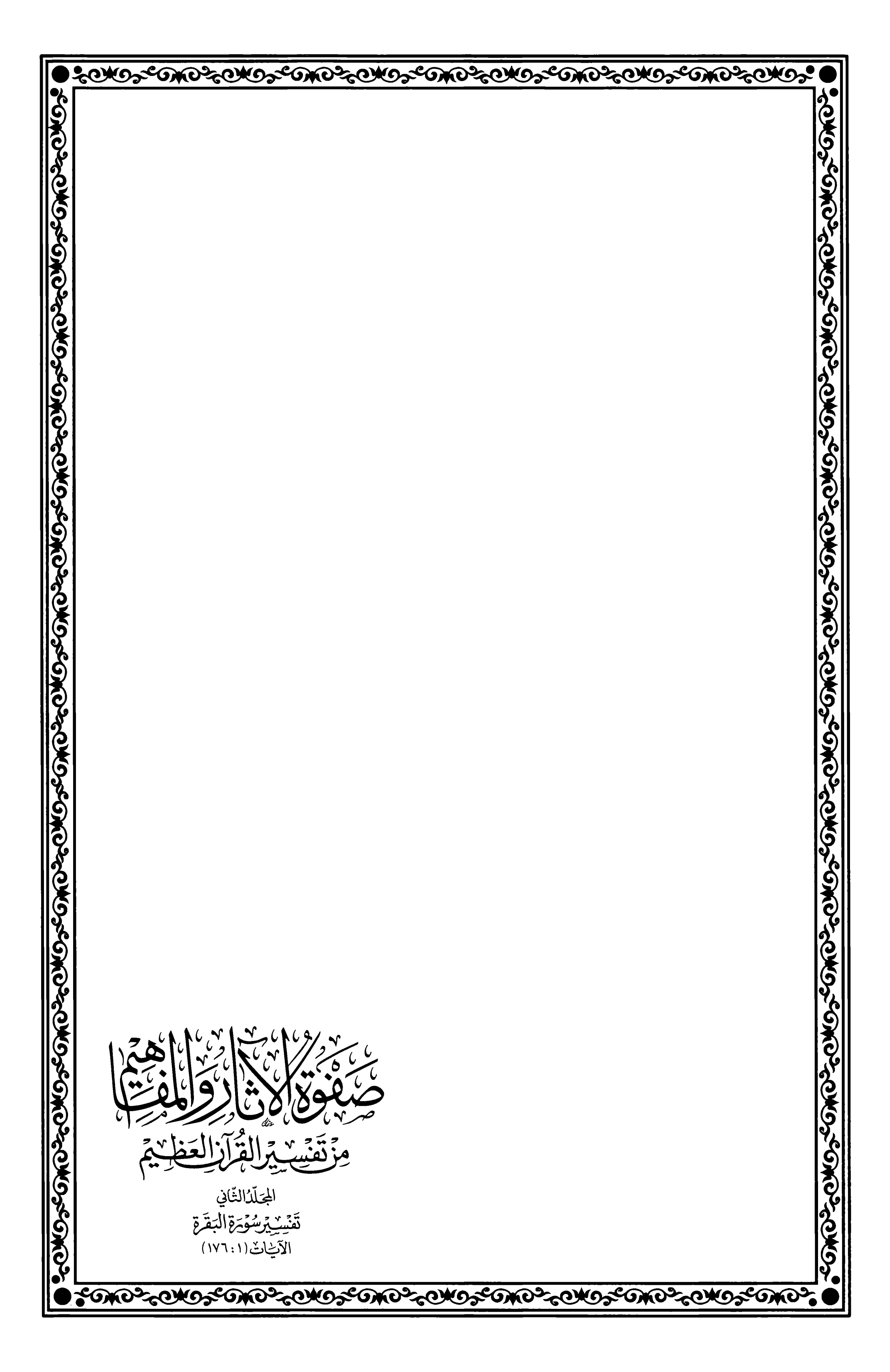

صفوة الآثار والمفاهيم
من تفسير القرآن العظيم
تفسير
سورة البقرة
الآيات (١ : ١٧٦)
٢
المجلد الثاني
تأليف فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن محمد الدوسري
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)
دار ابن الجوزي



صفوة الآثار والمفاهيم

من تفسير القرآن العظيم

المجلد الثاني

تفسير سورة البقرة

الآيات (١ : ١٧٦)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدوسري ، عبد الرحمن محمد
صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم . / عبد الرحمن محمد الدوسري - ط ١ . - الدمام ، ١٤٣٩ هـ
٥٢٣٢ص ؛ .. سم
ردمك : ٥ - ٣٥ - ٨٢٢٢ -٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير بالمأثور أ . العنوان
ديوي ٣٢ , ٢٢٧ ١٤٣٩ / ٩٣٠

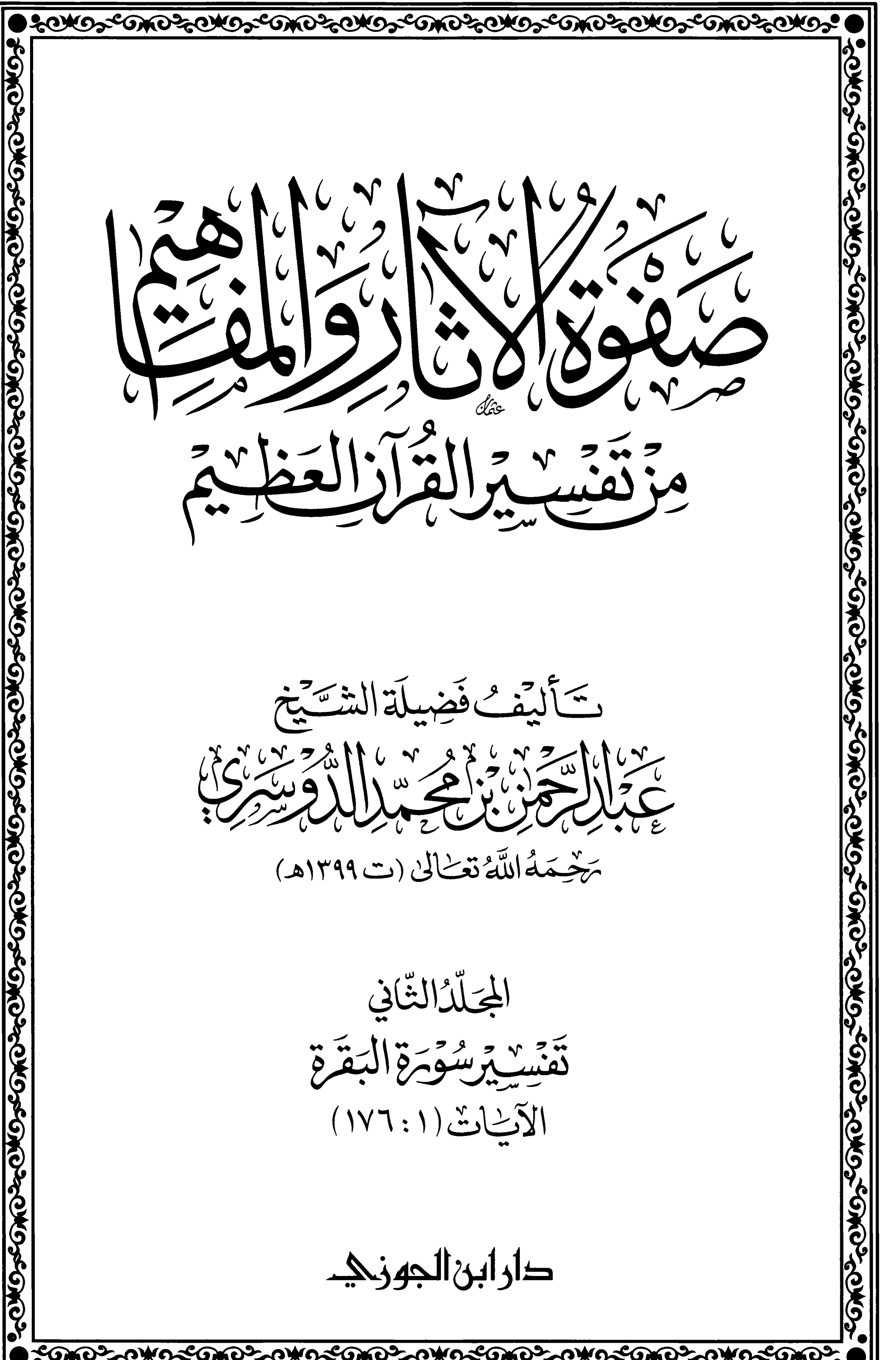
رقم الإيداع : ١٤٣٩/٩٣٠
ردمك : ٥-٣٥-٨٢٢٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة
(١٤٣٩هـ)



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية : الدمام - طريق الملك فهد - ت : ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣ ، ص ب : ٢٩٥٧
الرمز البريدي : ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي : ٨٤٠٦ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس : ٢١٠٧٢٢٨
جوال : ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت : ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت : ٠١٢٦٨١٤٥١٩ - بيروت
هاتف : ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس : ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج٠م٠ع - محمول : ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس : ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني :
aljawzi@hotmail.com-www.aljawzi.com



صفوة الآثار والمفاهيم

من تفسير القرآن العظيم

تأليف فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن محمد الدوسري

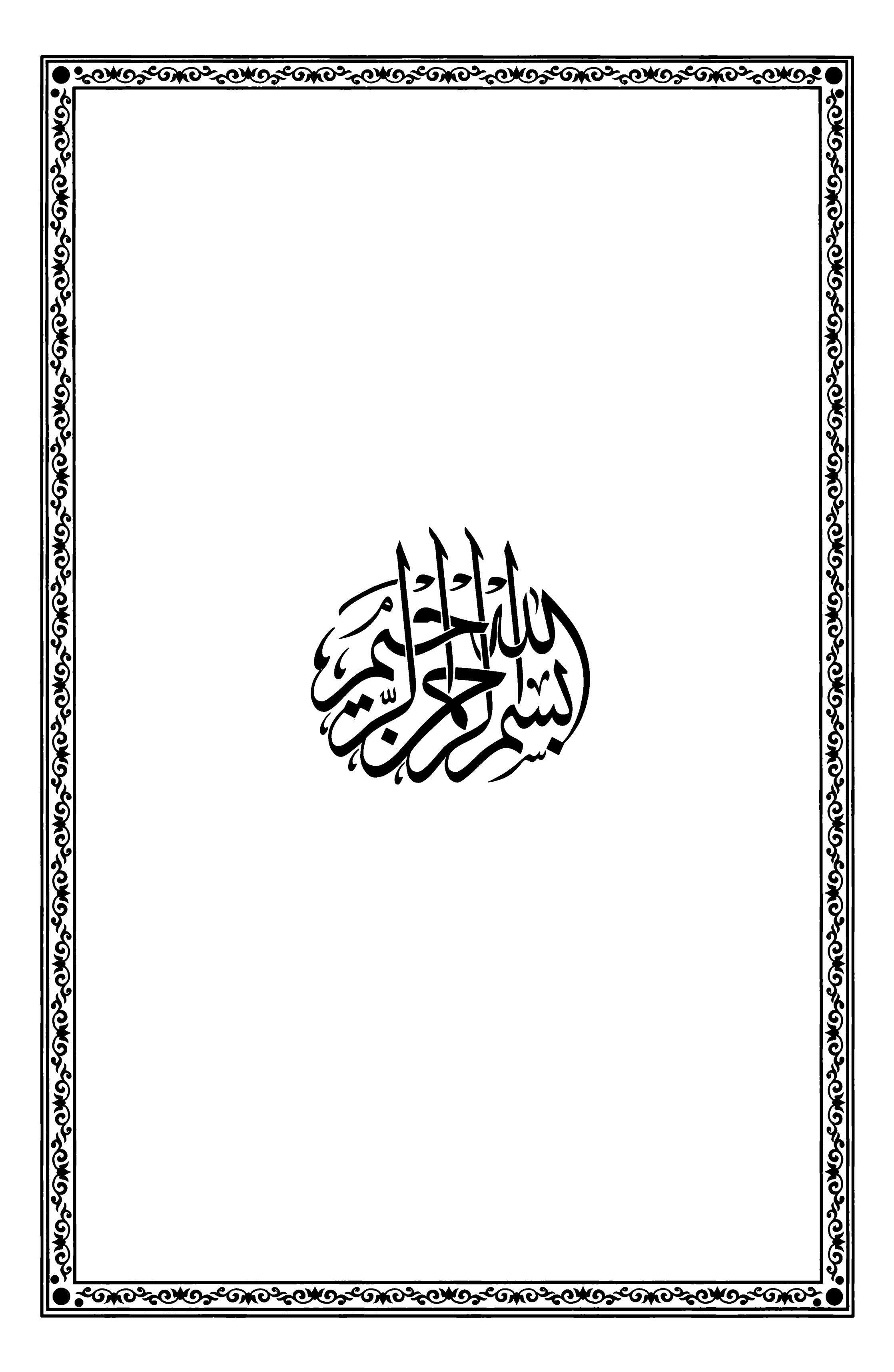
رحمه الله تعالى (ت ١٣٩٩هـ)

المجلد الثاني

تفسير سورة البقرة

الآيات (١ : ١٧٦)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

أما قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١﴾:

فهي من إعجاز القرآن المجيد، كما ذكره العلامة ابن القيم في كتابه: «بدائع الفوائد»، ونبَّهنا إلىٰ أرقام حسابية في كل سورة ابتدأها اللَّه بحروف مقطعة، مما قرره بعض الدكاترة العلميين في هٰذا الزمان، وحسِبه بعضهم فتحًا فُتح عليه، وهو في الحقيقة مسبوق منذ قرون بعيدة إلىٰ مثله.

وقد تكلمت علىٰ هٰذه الحروف في سورة يوسف، وذكرت ما اسحسنته من أقاويل العلماء، ومن أمثلها ما قاله ابن الجوزي في «تفسيره» عن هٰذه الحروف: «إنها معروفة مألوفة وقت نزول الوحي عند العرب، ولذٰلك لم يشغبوا بها ولم يستنكروها، مع شدة جدالهم في القرآن، واستكبارهم عنه، وعداوتهم له ولمن نزل عليه، ولم يَظهر التعجب منها والبحث عنها إلا بعد قرنين فأكثر؛ حيث اختلطت العجمة بألسنة الناس، فأخذوا يتوخَّون لها معانيَ، حتىٰ قال بعضهم: إنها من المتشابه الذي استأثر اللَّه بعلمه، وليس كذٰلك». هٰذا كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والعلامة المودودي وغيرهما، مما لا نطيل بذكره بعد الإحالة عليه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]:

أي: ذٰلك الكتاب الذي أنزلناه علىٰ رسولنا محمد ﷺ كما وعدناه به، إذ قلنا له: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل]، ذٰلك الكتاب العربي المبين، المكون من تلك الحروف المبدوءة بها بعض السور، هو كتاب ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ لا يعتريه الشك أبدًا من كل منصف سلِم قلبه من الضغائن والشبهات.

فكل قلبٍ واع لهٰذا الكتاب المبارك، متابع له، متدبر ما فيه، ملاحظ معانيه؛ من تقديس الخلاق العظيم، وتقرير أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، وإنعامه الشامل علىٰ خلقه، وتقرير ألوهيته في السماء والأرض

بالمنطق العقلي القاطع لكل جدال بما يذكره من الآيات الكونية والنفسية والآفاقية، وما يَضربه من الأمثال، وما يخبر به عن الأمم السابقة البائدة، وما جرىٰ منها، وما أصابها من صنوف النقمة والعذاب، وما يقصُّه من أخبار الأنبياء، وما يكشفه من دفائن النفس الإسرائيلية الخبيثة ـ خاصةً ـ ونفوس البشرية ـ عامة ـ، وما يشرعه من الأحكام التي يشهد لها ألد الأعداء أنها عدل ورحمة، وفي تطبيقها يحصل الأمن والخير والبركة... إلىٰ غير ذٰلك مما يزيد يقينًا يقينًا علىٰ يقين لا يبقىٰ معه مجال للريب أبدًا.

فهو كتاب مبارك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ فمن الضروري انحصار الهداية العامة فيه؛ ولهٰذا قال ﷻ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حاذفًا المتعلَّق، لأن حذف المتعلق يشعر التعميم ـ كما قرره علماء البيان والأصوليون ـ، فاللّٰه العليم الحكيم قرر هدىٰ القرآن دون أن يقصُر هدايته علىٰ ناحية من نواحي الحياة؛ بل جعل تلك الهداية شاملةً لجميع شؤون الحياة: السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والسلمية، وقد تركزت أصول جميع ذٰلك وضوابطه فيه، ولٰكنه ـ سبحانه ـ قيد تلك الهداية الشاملة بالتقوىٰ التي تحصل بها عمارة الضمير وسلامته ونزاهته وحريته علىٰ الوجه الصحيح، ولذا قال سبحانه:

📖 ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

وأصل «التقَوىٰ» في اللغة مشتق من «التوقي»: وهو طلب الوقاية مما يضر أو يؤلم. وبما أن كل مخلوق مفطور علىٰ التوقي من كل ما يؤلمه أو يضره ـ حتىٰ أنه يتوقىٰ من حر الشمس ومن ألم البَرد باللجوء إلىٰ ظل سقف أو حائط أو شجرة أو مغارة وإلىٰ مواقع الكن والدفء، ولبس ما يقيه؛ فاقتضت رحمة اللّٰهِ بخلائقه في الأرض ـ وهم بنو آدم ـ أن يُرشدهم لما يقيهم وقايةً حسيةً ومعنويةً مما يضرهم في الدنيا والآخرة نتيجة عصيانهم له، وتجاوزهم حدوده، بتقريره المصير المترتب علىٰ ذٰلك في الدنيا والآخرة، ليأخذوا لأنفسهم وأهليهم وقايةً من العذاب،

ويُبوِّئوا أنفسهم المنازل العالية في الجنان الباقية، باجتناب ما حرمه اللَّه، والمسارعة فيما يرضيه، فيكونوا من المتقين المنتفعين بهداية القرآن.

وقد حصر اللَّـه عناصر التقوىٰ بالإيمان بالغيب وما يتفرع عنه من جلائل الأعمال:

فقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]:

ذٰلك لأن الإيمان بالغيب يجعل من ضمير الإنسان رقيبًا باطنًا، يراقبه في كل عمل، ويخوفه من عقوبات اللَّه.

فالمؤمن بالغيب ـ علىٰ الحقيقة ـ هو الذي يستشعر دائمًا مشاهد يوم القيامة، وكل ما يرىٰ في الدنيا من صنوف اللذات والنعيم يذكرُ به نعيم الجنة الذي هو خير منه وأبقىٰ؛ فيبادر إلىٰ الأعمال الصالحة، ويكون إنسانًا صالحًا، وكل ما يرىٰ في الدنيا من أصناف الشرور وحر النار يذكر به عذاب جهنم، وشدة حرها، فيرتدع عن الشهو ات، ويكبح نفسه عن جماحها، ولا يطلق لها أنانيتها من أنواع الطمع والشره في مال أو عرض، أو أي نوع من أنواع التسلط والاغتصاب. وكلما رأىٰ جسرًا أو عَبَره ذكر الجسر الممدود علىٰ متن جهنم ـ والذي ليس له طريق إلىٰ الجنة إلا بعبوره ـ، وهو جسر أَحدُّ من السيف وأدق من الشعر؛ لا يُعبَر بالأحذية والأرجل، ولا بوسائط النقل المتطورة، وإنما يُعبر بصالح الأعمال وحسن المقاصد.

فبتذكره ذٰلك يكف عن كل ما تحدِّثه به نفسُه مما يخالف حكم اللَّه، ولهٰذا كان المسلمون المؤمنون الذين تخرجوا في مدرسة محمد ﷺ في مسجد الطين والعريش! منطبعين بالإيمان الصادق بالغيب، منتفعين انتفاعًا كاملًا بهداية القرآن، فكانوا أصلح الخلق، وأنفع الخلق للخلق، وأرحم الخلق بالخلق، ممتثلين قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧﴾ [المائدة]، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ

ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ [الشعراء]، ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، إلىٰ غير ذٰلك من الآيات.

بخلاف من تأثروا بحب الدنيا فاختلط مَعينهم.

بل علىٰ خلاف الماديين الذين شَقي أهل الأرض من جراء أنانياتِهم، وجرُّوا علىٰ الإنسانية ويلات الحروب الفتاكة، والذين بسببهم تجري عدةُ حروبٍ طاحنةٍ في قرن واحد، كالحربين الماضيتين وغيرهما، وكالحرب المقبِلة التي يُصنع لها كل سلاح فتاك ستتجرع الإنسانية ويلاته.

كل هٰذا سببه عبادة المادة، والولوع بالأنانية والشهوات، فإن الإنسان خلق ظلومًا لا يرفعه من جهله، ولا يردعه عن ظلمه إلا التقوىٰ الصحيحة الناشئة عن الإيمان بالغيب، وسيأتي بيان اللَّه لأصناف الناس الثلاثة: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين.

وإن الذين يستحقون الأمن في الدنيا والآخرة، ويحصل بسببهم الأمن في الدنيا، والعدل هم المؤمنون. أما عُبَّاد المادة من الكفار الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس، ولا هدف لهم سوىٰ المادة والأنانية المسعورة، فإنهم هم الذين تشقىٰ بهم الأرض، ويفقد أهلها الأمن والراحة والكرامة والعيشة الراضية.

وبعكس ما يزعمه بعض العلمانيين ممن أبرزته الثقافة الماسونية في ميدان الصحافة في هٰذا الزمان، حيث زعم ـ بكل إفك ووقاحة ـ أن الدين ـ الذي هو سبيل تأمين ما بعد الحياة ـ قد ذهب بأمن الحياة ذاتِها! وزعمه هٰذا أقبح المغالطات، وأفحش أنواع الكذب المفضوح؟ لأن الذي يترسم خُطىٰ الدين ـ طامعًا بتأمين ما بعد الحياة ـ هو الذي يسعىٰ للحصول علىٰ الأمن الصحيح في الدنيا، كي يناله في الآخرة.

فالمتقون للَّه، الواقفون عند حدوده في كل شأن من شؤونهم ـ السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والحربية ـ هم الذين يعملون لتحصيل الأمنَ في الحياة الدنيا، وعلىٰ العكس: من يرفض تعاليم الدين، ويسلم

وجهه لغير اللَّه في كل ما يهواه، فهٰذا هو الذي يسعىٰ لشقائه وشقاء البشرية بما ينتهجه من ضروب الأنانية وقصر النظر علىٰ المادة النفعية ـ كما هي الحال المشاهدة في هٰذه العصور وما قبلها ـ، فإن جميع الخلافات التي أدت إلىٰ الحروب وفساد القلوب سببُها الميل عن الدين إلىٰ الأغراض النفسية المتنوعة التي جنىٰ بعض أهلها علىٰ الدين بالتأويل والتحريف لتسويغ خطئه ومقاصده، حيث ضعفت الركيزة الدينية ـ التي هي الإيمان بالغيب ـ أو انعدمت.

والعجب أن الذين رموا دين اللَّه بما هو منه براءٌ قد عمُوا وصمُّوا عن المجازر والحروب الهائلة التي سببها مجرمو الحرب من الشرق والغرب، فهل يعتبرون حروب التتار ومقدماتِها الخبيثة والحرب العالمية الأولىٰ وحرب القرم قبلها، والمجازر الوحشية في روسيا، والحرب العالمية الثانية التي سببتها النازية، والمخططات الماسونية اليهودية لإقامة الثورات، وبث الإرهاب في الشرق الأوسط... هل يعتبرون جميع هٰذا من وبال الدين؟! أم من وبال الافتيات علىٰ الدين، وانتهاج الأنانية والنفعية والانتهازية؟!.

ما أظلمهم! وما أشد جنايتهم علىٰ العقول، وجراءتَهم علىٰ اللَّه بِهٰذا الإفك الصريح المفضوح! ولٰكنَّ اللَّه غالب علىٰ أمره، جعلهم ينادون علىٰ أنفسهم بالحماقة والكذب، نداءً يقرؤه ويسمعه كل مؤمن.

ثم إنه ﷻ فصل بعض الصفات الرئيسية للمؤمنين بالغيب المنتفعين بالقرآن، الذين لا يجري منهم شر علىٰ الأرض:

فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]:

لم يقل: «يصلُّون»، بل قال: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾؛ تمييزًا منه سبحانه للصلاة الحقيقية عن الصلاة الصورية.

فالصلاة الحقيقية: صلاة القلب والروح، الصلاة الخاشعة، صلاة القانتين الخاشعين.

والصلاة من آكد أركان الاسلام بعد الشهادتين؟ لأنها من أعظم روافد العقيدة ودعائم الإيمان، ولهٰذا تكررت في اليوم خمس مرات، ولم يعذر أي مسلم بالتخلف عن إقامتها حتىٰ حال المرض والخوف. والسر العظيم في تكرارها أنها كحمَّام روحي لغسل الذنوب وتطهير القلوب، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**أرأيتُم لو أن نهرًا غَمْرًا**[١] **بباب أحدكم؛ يَغتسلُ منه كلَّ يوم خمسَ مرات؛ هل يبقىٰ مِن دَرَنِه شيء؟**» قالوا: لا. قال: «**فكذٰلك الصلواتُ الخمسُ؛ يمحو اللَّهُ بهنَّ الخطايا**»[٢].

ثم إن في الصلاة تجمُّلًا ونظافة، كما قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، ففيها يشرع السِّتر ويشرع الوضوء، وقد جعل اللَّه في الوضوء كفارةً للأعضاء المخصوص غسلها في الوضوء من الخطايا؟ لأنها أسرع ما يتحرك في البدن لمخالفة رب العالمين.

ثم إن في الصلاة قوةً روحيةً؛ حيث يتصل صاحبها بالقوة الخفية مرارًا عديدةً في اليوم والليلة، فتُمده هٰذه القوة الروحية بقوةٍ معنويةٍ يجابه بها المتاعب والصعاب، فيكون شجاعًا مقدامًا صبورًا؛ ذا رباطة جأش وصدق عزيمة لا يعرف الانهزامية أبدًا، ومع ذٰلك تورثه قوةً خِلقية تدفعه إلىٰ فعل الخير، وتصرفه عن فعل الشر.

ومع ما قلناه؛ فإن في إقامتها جماعةً مزايا أخرىٰ كبيرة؛ فإن في المسجد رسالةَ الجهاد الصحيحة، والتربية العسكرية، فالمسجد خير مؤسسة عسكرية وخير جامعة علمية شعبية، وخير مجتمع ديني ومعهد للتربية الروحية، وفي المسجد يتحقق الإخاء والمساواة والحرية الحقيقية ـ حرية الضمير العميقة ـ؛ فأعظم روافد العقيدة هي الصلاة، ولذا ثنَّىٰ اللَّه بها في وصف المتقين، ثم ثلَّث بالزكاة وما يتبعها من حقوق الأموال:

---

(١) **الغَمر**: الكثير الفياض.

(٢) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة]:

فيَجُودون ببذل الزكاة الواجبة، والصدقات المندوبة ونحوها من حقوق المال الذي يعتبر إعطاؤه ـ مع حبه ـ من أكبر علامات الإيمان والتقوىٰ.

والزكاة هي الركن الثالث في الإسلام، وهي حق لأربابها المذكورين في القرآن[1]، وليست تفضُّلًا من ذوي الأموال، ولذا كانت المنَّةُ فيها من كبائر الذنوب وماحية للثواب.

وفيها طهارة حسية ومعنوية، فهي طهارة لنفس الغني من الشح البغيض، وطهارة لنفس الفقير من الحسد والضغينة علىٰ الأغنياء الكانزين البخلاء. والشح آفةٌ نفسية خطيرة تحدو بصاحبها إلىٰ سفك الدم، أو بذل العرض، أو بيع العقيدة وإرخاص الوطن، فلن يفلح من كان الشح سجيته.

ومن أوصاف المتقين المؤمنين بالغيب، وسماتِهم العظيمة: أنهم لا يتحيزون لنبي دون نبي من أنبياء اللَّه؛ لأن هٰذا كفر من جهة، ومجلبة للطائفية والشقاق من جهة أخرىٰ. ولذا قال اللَّه في شأنِهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]:

فإن هٰذا الإيمان بالأنبياء السابقين هو:

أولاً: من ضرورات الإيمان بالغيب.

وثانيًا: أنهم في منزلة واحدة من وجوب الإيمان.

فالإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بجميع الكتب السماوية المنزلة من اللَّه علىٰ رسله؛ كما أن الإيمان بمحمد ﷺ يستلزم الإيمان بجميع الأنبياء

---

(١) وهم مذكورون في سورة «التوبة»، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

والمرسلين، وقد أعلن اللَّه كفر من آمن ببعض رسله وكفر ببعضهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء].

فالعليم الحكيم ﷻ يعلم أنه لا يحصل الوفاق والاتفاق مع أي أمة بعض شعوبها يؤمن بنبي ويكفر بما سواه، وبعضهم يؤمن بنبيٍّ آخر ويكفر بغيره، بل ينقلب الوفاق والاتحاد إلىٰ فرقةٍ وشقاقٍ بعيد، هٰذا في حال أمة واحدة، فكيف بحال أمم شتىٰ؟ بل حصر اللَّه الشقاق فيمن لم يسلك مسلكنا حصرًا إجماليًّا؛ حيث قال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ومما ذكرناه يتضح أن وصمة بعض العصريين للدين بأنه مدعاةٌ للطائفية المفرِّقة بين شعوب الأمة، هي وصمةٌ فاجرةٌ معاكسة للحق والحقيقة من واقع دين الإسلام وتاريخ أهله؛ ذٰلك أن دين اللَّه الحق ـ الإسلام ـ دين الأنبياء والمرسلين جميعهم، دين لا يعرفه الطائفية أبدًا، لأنه يوجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وما أنزل إليهم بدون تفريق.

وإنما تتكون الطائفية ويحصل الشقاق ممن لا يؤمن إلَّا بنبيه فقط ويطعن فيمن عداه؛ كاليهود الذين لا يؤمنون إلا بموسىٰ والتوراة! والنصارىٰ الذين لا يؤمنون إلا بعيسىٰ والإنجيل؛ بل يرفعون عيسىٰ فوق منزلته، وغيرهم من أمم الكفر كالمجوس والبوذيين، فمنهم نشأت الطائفية وتفاقم أمر الشقاق.

ولٰكنَّ المتتلمذين علىٰ ملاحدة النصارىٰ اغتروا بإفكهم، وصدقوهم في رمي الدين الحق بدائهم. وما أسفه من تنكب عن وحي اللَّه، وطلب الرشد من غير صراطه المستقيم!!.

ثم وصف اللَّه المتقين المنتفعين حقيقةً بهداية القرآن بكمال إيمانهم بالغيب:

فقال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة]:

ومن توضيح شأن المؤمنين بالغيب: أنهم دائمًا يستشعرون مشاهد يوم القيامة علىٰ الدوام. والإنسان لا ينتفع بسمعه وبصره وقلبه إذا هو فقد الحاسة الدينية التي هي: الإيمان بالغيب والإيقان بالآخرة.

و«الغيب»: هو ما غاب وحجب علمه عن النفوس وخالف المحسوس؛ فلذا كان للمؤمنين به ميزةٌ عمن سواهم، بحصول التقوىٰ والمنفعة بالقرآن والانتفاع بأحاسيسهم الباقية باقتران الحاسة الدينية إليها، ومن عداهم فإنهم أضل من الأنعام؛ بل هم شر الدواب؛ كما وصفهم اللَّه بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف].

وقد وصف اللَّه المتقين بخمس صفات جامعة لخصال الخير كلها، وكفيلة بتحصيل السعادة في الدارين، ولهٰذا حصر اللَّه الفلاح والهداية فيهم؛ حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

وقد قرر الأصوليون واللغويون: أن الإتيان بضمير الفصل بين الوصف والإشارة دليل علىٰ الحصر والاختصاص، وذٰلك بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، لأنهم بإيمانهم بالغيب، وإيقانهم بالدار الآخرة انطلقوا من جدران الحس والتفكير السطحي والأفق الضيق المحدود إلىٰ العالم الرحيب والأفق الواسع الذي يصوِّر لهم تفاهة عيشهم وقصر عمرهم علىٰ هٰذه الأرض، وأنها مزرعة يُجنىٰ حصادها بعد انتهائها، وأنها ابتلاء واختبار.

والفلاح معناه: الفوز بالمطلوب. وأصله في اللغة: شق الأرض. ومنه سمي الحارث «فلاحًا». فالمفلحون هم الفائزون بتحصيل مطالبهم جميعها بما فيه صلاح أحوالهم.

قال ابن الأنباري: ومنه: «حي علىٰ الفلاح»، أي: هلموا إلىٰ سبيل الفوز ودخول الجنة. ثم إن إطلاق الهداية والفلاح لهم معلِن بشمول جميع أنواع الهداية والفلاح في شؤون دنياهم وآخرتِهم، ومقدماتُها: حضور الموت ونعيم البرزخ، ودخول الجنة.

وقال المحققون من المفسرين: إن تكرار اسم الإشارة في هٰذه الآية دلالة علىٰ أن كلًّا من الهدىٰ والفلاح مستقل بتميُّزهم به عن غيرهم؛ بحيث لو انفرد أحدهما لكفىٰ تميزًا علىٰ حدته.

ولما كان الناس ـ في تلقي الهداية ورفضها ـ علىٰ ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، بدأ اللَّه بوصف الصنف الأول وتقرير هدايته والإشادة بشأنه وهم المؤمنون.

ثم ثنىٰ ـ سبحانه ـ بذكر مقابلهم ومعاكسهم؛ وهم الكافرون الذين فقدوا الحاسة الدينية، فبقُوا داخل نطاق أسوار الحس المغلقة، محرومين من التحليق في الأفق الواسع والتفكير العميق، ومن لذة الإيمان بالغيب والانهماك في الآمال الصحيحة، ورجاء الوعد الصادق من اللَّه، فليست لأرواحهم نوافذ مفتوحة كنوافذ أرواح المؤمنين، وليس لهم وشائج تربطهم بخالق الوجود، بل النوافذ مغلقة لتصميمهم علىٰ سدها وعدم رغبتهم حتىٰ في الاقتراب منها، ووشائجهم باللَّه مقطوعة لتصميمهم علىٰ الهروب منه، فلذٰلك استوىٰ فيهم الإنذار وعدمه، فأجمل اللَّه وصفهم في آيتين هما:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾

[البقرة]:

والإنذار: هو الإعلام المشوب بتخويف.

ولانغلاق قلوبهم كان الإنذار لا يُجدي نفعًا، كما قال تعالىٰ في سورة «يونس»: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس].

فوجود الإنذار كعدمه بالنسبة لهٰؤلاء، وقد حكىٰ اللَّه عنهم في كتابه ما يدل علىٰ ذٰلك؛ فقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فهٰذا اعتراف منهم أنهم محبوسون في سجن الماديات المحسوسة؛ لا يقدرون علىٰ الانطلاق للروحانيات، قد تجرعوا من حشائش الأباطيل ما أفسد أدمغتهم، وأزاغ قلوبَهم، وأعمىٰ أبصارهم، وأصم أسماعهم عن قبول الحق، فقضىٰ اللَّه بالختم علىٰ تلك الجوارح والحواس.

وفي إفراد اللَّه ذكر ﴿سَمْعِهِمْ﴾ دون جمعه كأبصارهم اكتفاءٌ بذكر المفرد عن الجمع؛ كما في قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، أي: أطفالًا، كما قال أبو عبيدة والزجاج مستشهدين بقول الشاعر:

كلوا في نصفِ بطنِكم تعيشوا ... فإن زمانَكم زمنٌ خميصُ

وقال بعضهم: إن العرب تذهب بالسمع مذهب المصدر، والمصدر يوحَّد، كقول القائل: «يعجبني حديثكم»، فأما القلب والبصر فإنهما اسمان لا يجريان مجرىٰ المصادر.

و«الغِشاوة» ـ بكسر الغين المعجمة بلغة قريش وأكثر العرب، وبفتحها لبعضهم ـ: هي الغطاء، عبَّر اللَّه بها لاحتجاب بصائرهم عن رؤية الحق.

فإن قال قائل عن هٰذه الآية: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾: إن فيها دليلًا علىٰ الجبر.

قلنا: ليس فيها ـ ولا في غيرها من وحي اللَّه ـ ما يقوم به دليل، وذٰلك من وجوه:

أحدها: أن اللَّه مكنهم من سلوك ما يريدون باختيارهم، فلم تكن أفعالهم كحركات المرتعش أو حركة السعفة من هبوب الريح ـ كما يزعم المبطلون ـ.

ثانيها: أن اللَّه خلق فيهم القدرةَ والإرادة، وجعلهم أحرارًا، ولابد لأفعال العباد من إرادة يعزمون بها علىٰ فعل ما يقصدونه ويهدفون إليه، وقدرةٍ كاملةٍ يقدرون بها علىٰ فعل ما يريدونه من إيمان وكفر وخير وشر.

ثالثها: إن اللَّه بصَّرهم بطريق الهدىٰ والضلال؛ حيث قال عن الإنسان: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد].

رابعها: إرساله ﷻ الرسل، وإنزاله الكتب، وتكرار وعده ووعيده، وتنويع تصويره لمشاهد القيامة تركيزًا للإيمان بالغيب، فلو أنه ـ سبحانه ـ يجبر فئاتٍ من عبيده علىٰ الإيمان، ويُجبر فئات أخرىٰ علىٰ الكفر والعصيان، لما كان لإرسال الرسل وإنزال الكتب فائدة.

خامسها: إخباره ﷻ أنه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد]، فأما غير المنيب من الهاربين عن حصنه الحصين، والمبتعدين عن صراطه المستقيم فإنه يُمدهم في الضلالة، ويزيغ قلوبَهم، ويَزيدها مرضًا جزاء علىٰ زيفها ومرضها، ويسلط عليهم الشياطين تؤزهم أزًّا، ويُقيض لهم قرناء يزينون لهم جزاءً علىٰ انتقاصهم الرسل وتكذيبهم لهم واستهزائهم بآيات اللَّه وتعلقهم بغيرها من وحي الشياطين.

فمن أناب إلىٰ اللَّه، وأقبل علىٰ وحيه؛ زاده هداية ونور بصيرة، ويسر له الوصول إليه، أما من صد عن دعوته وهرب عن حصنه وصراطه نال جزاءه من مزيد الغواية وتسلط الشياطين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم]، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. وقال ـ أيضًا ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف]، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وبعد هٰذه الردود علىٰ شبهة الجبرية والقدرية نقول: إن الصنف الثاني من أصناف البشرية ـ الذين هم الكفار الذين لا يجدي معهم إنذار ولا معجزة ـ، هٰؤلاء كفرهم سببه العناد والكبرياء؛ ليس عن عدم معرفتهم بالحق، ولا عن إجبار يضطرهم إلىٰ الشرود عنه ـ كما يزعم أفراخ اليهود

والمجوس من القدرية ـ؛ إنما سببه المكابرة والعناد القبيح. وقد أرشدنا اللَّه في الآيتين (١٤، ١٥) من سورة «الحِجر» إلىٰ شناعة مكابرتهم المرذولة وإنكارهم حتىٰ للمحسوس ركوبًا لعنادهم؛ فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

ولا عجب في هٰذا التمثيل العجيب من اللَّه لواقعهم، فإن ما جاءهم به محمد ﷺ يعتبر كالمحسوس؛ لمعرفتهم شخصيته الكريمة وصدقه وعفته وأمانته، ولكونه لا يقرأ ولا يكتب، ولكونه لبث فيهم عمرًا طويلًا لم يأتِهم بشيء من عنده، ولأنه جاءهم بكتاب عربيٍّ مبين؛ عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ـ علىٰ قوة فصاحتهم ـ، ولكونه قص عليهم من أخبار الأمم البائدة ما لم يكن يعرفه أحد، ولا يحتويه كتاب أبدًا، ولأنه يضرب لهم الأمثال المحسوسة الملموسة، ويذكِّرهم بآيات ربِّهم النفسية والآفاقية، فلم يبق أمامهم إلا التصديق أو المكابرة المرذولة، وبسلوكهم هٰذه المكابرةَ لا يجدي العروج بهم إلىٰ السماء؟ لأنه من المحتم الذي يعلمه اللَّه أنهم سيقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

ولكل قوم وارث، فهٰذه سجية الكافرين ومن قلدهم في مسالكهم من أقدم العصور إلىٰ أحدثها؛ فإننا نرىٰ عُبَّاد الأشخاص والمبادئ المادية لا يُجدي معهم شيء أبدًا، ولا يثنيهم عن سلوك طرقهم المعوجة فشل تلك المذاهب والمبادئ، ولا خيانة أربابها وفلاسفتها، ولا أخطاؤهم المتكررة المقصودة، ولا هزائمهم الشنيعة؛ بل يطلبون المعاذير الممجوجة هروبًا عن صراط اللَّه، بل تماديًا في الهروب.

هٰذان صنفان من البشر:

ـ صنف مؤمن؛ ابتدأ اللَّه ذكر أوصافه في أول سورة «البقرة»، وفصَّلها في سائر سور القرآن.

ـ وصنف كافر، أجمل اللَّه وصفه في آيتين من هٰذه السورة، وفصلها

في السور الأخرىٰ من القرآن.

وبقي الصنف الثالث وهم المنافقون، وقد أكثر اللَّه في وحيه المبارك من ذكر أوصافهم لخطورتِهم علىٰ كل مجتمع إسلامي، فاقتضت حكمة اللَّه كشف أسرارهم وهتك أستارهم وبيان دفائن نفوسهم، وقد اشتملت أوائل هٰذه السورة علىٰ ذكر ركائز خبثهم في اثنتي عشرة آية؛ حيث قال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة]؛

قال قتادة: هٰذه الآية نعتُ المنافق، يعرف بلسانه، وينكر بقلبه، ويصدق بلسانه ويكذب بعمله، ويصبح علىٰ الحال، ويمسي علىٰ غيرها، ويتكفأ[١] تكفؤ السفينة كلما هبت ريح هب معها[٢].

إن حقيقة المنافقين ـ كما صورها اللَّه، مما يشهد به واقعهم في كل عصر وبلد ـ هي صورةٌ مخالفةٌ لصورة المؤمن الحقيقي والكافر الواضح الصريح، فإن الكفرة ـ علىٰ اختلاف مللهم ونحلهم ـ كُفرهم واضح صريح، متسم بالشجاعة والعناد والمكابرة، سواء من كان كفره بشرك الوسائط والأنداد، أو كان كفره بشرك التعطيل ـ كالمقلدة للجاهلية الأولىٰ والفراعنة ـ، أو كان كفره بالإنكار للَّهِ ـ كالشيوعيين ـ، أو بالافتراء علىٰ اللَّه ـ كأهل الكتاب المحرفين ـ، فكل هٰؤلاء من النوع الثاني قد أراحوا المؤمنين بصراحتهم، وظهور عداوتهم، واتضاح وجوب منابذتهم ومخالفتهم في الدين؛ بحيث لا يجنح إليهم أو يواليهم مَن في قلبه إيمان صحيح.

لٰكنَّ مصيبة المسلمين، ومداخل الشر إليهم هي النوع الثالث المرتدي زي الصديق، والمتملق بلسانه الذي يظهر الإيمان والاعتراف باللَّه

---

(١) يتكفأ: يتقلب.
(٢) ابن كثير (١/٤٩).

وتقديس رسوله والقرآن، وهو يحمل في قلبه من الغيظ للمسلمين ما لا يقل عن غيظ الكفار أو يزيد، فهٰذا كالمرض الفاتك في الجسم، وهم ـ وإن كانوا في الغالب من عِليةِ القوم، إما بعلمهم المادي أو بمكانتهم ـ؛ إلا أنهم لا يملكون الشجاعة التي يجرؤون بها علىٰ مقابلة الدين بالإنكار الصريح؛ فيضطرهم الجبن إلىٰ إظهار خلاف حقيقتهم، وإلىٰ سلوك الحذلقة بإيقاع الدس والتشكيك في بعض النواحي، وفي سِيَر ولاة المسلمين ليشككوا العامة فيهم، وينتقضوا[1] الدين بواسطتهم، وهٰذا شيء أجراه أسلافهم مع رسول اللَّه ﷺ، وهم في الحقيقة مطايا اليهود في كل زمان ومكان؛ منذ ظهورهم علىٰ عهد الرسول ﷺ إلىٰ يومنا هٰذا، وحتىٰ يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

فاليهود هم شياطينهم، وهم الذين يوجهون رؤساءهم بأنواع الفتنة التي تتناسب مع أوضاع كل مجتمع مسلم في كل عصر ومصر؛ فلهٰذا فضحهم اللَّه لعباده المؤمنين في سور كثيرة مبتدئًا بسورة «البقرة»، فكذَّب اللَّه مزاعمهم وفضح أسرارهم، مبينًا أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأنهم ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ باعترافهم الكاذب تزلفًا إلىٰ النبي ﷺ ـ في وقته ـ وإلىٰ من بعده من ولاة المسلمين؛ ليُولُوهم الثقة، وليُطمئِنوا عامة المسلمين إليهم؛ فلا يرتابوا فيهم، وبِهٰذا يطَّلعون علىٰ أسرار المسلمين ودخائلهم، فينقلونها إلىٰ الكفار من اليهود وأعوانهم، ويستفيدون منها لقضاء مآربهم الدنيئة.

وقد اعتبر اللَّه مخادعتهم للمؤمنين مخادعةً له ولهم، وهٰذا تفضل كريم من اللَّه ﷻ نجده يكرره في وحيه المبارك، وهو حقيقة الصلة الكاملة بين اللَّه وعباده المؤمنين، إذ يجعل صفَّهم صفه دائمًا وشأنهم شأنه، فيعتبر المخادع لهم مخادعًا له، والمعادي لهم معاديًا له، والمحارب لهم محاربًا له، إعلامًا منه سبحانه للمؤمنين برفعة مقامهم، وعلو شأنهم

---

(١) **ينتقضوا**: يهدموا.

عنده، لتمتلئ قلوبهم بمحبته والطمأنينة لوعده والثقة بنصره.

وهاهنا فوائد:

الأولى: يحتمل أن تكون مخادعة المنافقين لأنفسهم علىٰ بابها من اثنين: فهم خادعون أنفسهم حيث منَّوها بالأباطيل، وأنفسهم خادعتهم حيث منتهم ذٰلك ـ أيضًا ـ، فكأنها محاورة بين نفسين علىٰ معنىٰ الخاطرين؛ كقول الشاعر:

يؤامرُ نفسَيهِ وفي العيشِ فُسحةٌ أيستربعُ الذوبان أم لا يطورها؟!

الثانية: زعم بعضهم أن المخادعة في آية المنافقين من المقلوب، لأن الإنسان لا يخدع نفسه؛ بل هي التي تخدعه وتسول له وتأمره بالسوء. وبما أن النحويين لا يجيزون القلب إلا في الشعر علىٰ الصحيح بحال الاضطرار، فإنه ينبغي تنزيه كلام اللَّه عنه؛ خصوصًا ما دام معناه واضحًا.

الثالثة: مرض القلب هنا عام في الحسي والمعنوي، ففي قلوبهم مرض الشكوك والشبهات المفسد لعقيدتِهم وأخلاقهم، وفيها أمراض حسية من الغل والحقد الملتهب والغيظ المستعر ـ ونحوه ـ؛ مما يسرع في هلاكهم بإحداث أمراضٍ فتاكة يشهد له المنقول والمحسوس من تقارير الأطباء.

الرابعة: جاء في النصوص ذكر بضع وعشرين مرضًا من أمراض القلب المعنوية وهي: الرين، والزيغ، والطبع، والصرف، والضيق، والحرج، والختم، والإقفال، والإشراب، والرعب، والقساوة، والإصرار، وعدم التطهير، والنفور، والاشمئزاز، والإنكار، والشكوك، والعمىٰ، والإبعاد بصيغة اللعن، والحمية، والبغضاء، والغفلة، والغمرة، واللَّهو، والارتياب، والنفاق... وكل هٰذه تغلبُ عليه، وتجلب أمراضًا حسيةً مهلكةً لصاحبها ـ كما أسلفنا ـ.

الخامسة: سبب النفاق أغراض نفسية تجيش في الصدور، تمنع أهلها من قبول الحق، وتدفعهم إلىٰ معاداة أهله، والذي يبثها ويغذيها في كل

زمان ومكان هو اليهودية العالمية المُفسِدة لكافة المجتمعات.

وأول منشأ النفاق المعادي للإسلام حصل في المدينة المنورة بعد هجرة المصطفىٰ ﷺ، وارتفاع شأن الدين واعتزازه في «بدر»، أظهر أحبار يهود الضغائن للرسول ﷺ، وكان عبداللّٰه بن أُبيٍّ بن سلول من الخزرج مرشحًا للزعامة؛ فلما رأىٰ أن هٰذا الدين قضىٰ علىٰ آماله الخسيسة حمل العداوة ضده، وتمالأ مع يهود فأظهر الإسلام ـ مع رهط من قومه ـ بمشورة يهود ليسلم من مَغِبة الكفر، ويتفيأ من الإسلام وأهله ظلًّا ظليلًا، فأجراهم اللّٰهُ علىٰ ظواهرهم لئلا يشاع أن نبيه ﷺ يَقتل أصحابه، ولٰكنه فضحهم وهتك أستارهم نعمةً منه وفضلًا علىٰ عباده إلىٰ يوم يبعثون، لأنه أوضح أوصاف المنافقين المطردة فيهم.

ومن طبع المنافقين: إثارة الشغب والقلاقل بحجة الإصلاح والعدالة، وهم لا يزيدون الطين إلا بلة، فإياك ـ أيها المسلم المؤمن ـ أن تنسىٰ نعمة اللّٰه عليك، فتغفلَ عن قراءة وحي اللّٰه الذي كشف أوصاف المنافقين فتكون فريسة لهم، يصادرون عقلك، ثم يلعبون بمقدراتك، ويتمالؤون مع اليهود وأعوانهم علىٰ مقدساتك، وارجع إلىٰ التاريخ تجد الغزاة من عهد التتار إلىٰ عهد اليهود في هٰذا اليوم؛ لم يجوسوا خلال الديار إلا بسبب المنافقين أصحاب المزاعم الخداعة.

السادسة: أطلق بعض المفسرين المرض الذي في قلوب المنافقين أنه الظلمة، مستشهدًا بقول الشاعر:

في ليلةٍ مرضت من كل ناحيةٍ فما يُحسُّ بها نجمٌ ولا قمرُ

وهو قريب من الصواب، لأن جميع أسباب النفاق ناشئة:

ـ إما من ظلمة الطبع.

ـ أو ظلمة الشبهة.

ـ أو ظلمة الهوىٰ.

ـ أو ظلمة الطمع.

ـ أو ظلمة حب الرئاسة.

ـ أو ظلمة الشهوة.

ـ أو ظلمة الحقد والحسد والغواية.

أو غير ذٰلك من الظلمات المادية التي تجتمع فتكون ظلمات فوق بعض.

ويشهد لهٰذا التفسير تمثيل اللَّه ـ سبحانه ـ لهم بأنهم في الظلمات لا يبصرون، صمٌّ بكم عمي ـ كما ذكره في هٰذه السورة وفي غيرها ـ، ولذٰلك إذا عرض لهم زاجر الدين دفعه ما في قلوبهم المريضة من ظلمة الغواية والهوىٰ بشتىٰ أنواع التحريفات والتأويلات الباطلة التي تزينها لهم تلك الظلمات الراسخة في قلوبهم.

السابعة: بما أن اللَّه نفىٰ عنهم الإيمان نفيًا قاطًا مؤكدًا بدخول الباء في خبر «ما» فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي بداخلين في جماعة المؤمنين ألبتة، فقد يردُ هنا سؤال، وهو: إن فيهم من يؤمن باللَّه واليوم الآخر ممن هو من أهل الكتاب، أو غيرهم ممن لم ينكر توحيد الربوبية، أو من نشأ في الإسلام، وجرته ضغائنه وأغراضه النفسية إلىٰ النفاق؟.

فالجواب: أن اعتقادهم التقليدي الضعيف ليس له أثر علىٰ سلوكهم؛ فلو مُحِّص ما في قلوبهم، وعرف منشأ الأعمال من نفوسهم لوجد أن ما يقولون به من أعمال صالحة هي رياء وخداع؟ لأن أسباب النفاق التي ذكرنا سابقًا متوفرةٌ في صدورهم، فلذا حصر اللَّه إيمانهم به علىٰ مجرد اللفظ باللسان.

الثامنة: هٰذه الآيات وما بعدها ـ مع كونها نعمةً من اللَّه علىٰ المؤمنين، بإخبارهم عن أحوال المنافقين ـ؛ فإن فيها ـ أيضًا ـ تهديدًا للمؤمنين من سلوك مسالكهم، وأن يفرغوا قلوبهم من الأنانيات وأغراض النفوس مما يغمسهم فيما انغمس فيه المنافقون، لئلا يهبطوا من أرفع المستويات إلىٰ أحطها ـ والعياذ باللَّه ـ ولذا كان السلف الصالح من أشد الناس خوفًا من النفاق.

التاسعة: في هٰذه الآيات حضٌّ للمؤمنين علىٰ الصدق مع اللَّه، وتصفية سرائرهم له في أسلوب قرآني جمع بين توضيح مقام المؤمنين عند اللَّه، وفضيحة أحوال المنافقين وكشفها لهم، والتهديد الشديد المرعب للمنافقين المحاولين خداع المؤمنين وإيذاءهم؛ ففي هٰذه الآية إعلام آخر للمنافقين بأن معركتهم ليست مع المؤمنين فقط، بل هي مع رب العالمين، فهم يتصدون ويتعرضون لبطشه ونقمته بمحاولتهم الخسيسة.

والخداع: من الخديعة، وهي الحيلة والخَتل والمكر، لكونها تفعل في الخفاء.

والمَخْدَع: موضع داخل البيت تختفي فيه المرأة، أو فيه بعض الأشياء.

وانخداع الرجل: استجابته للخداع؛ سواء عن شعور أو عن غير شعور، ويعبَّر ـ أيضًا ـ عن الخداع بالفساد ـ كما في الشواهد ـ، ويقصد به هنا: الحيلة وما في معناها.

وخداع المنافقين للمؤمنين ـ الذي اعتبره اللَّه خداعًا له ـ: هو بإظهارهم الإيمان والمحبة، وإضمارهم الكفر والعداوة.

أما إخبار اللَّه عنهم بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ فذٰلك لأن الخداع يكون مع مَن لا يعرف السرائر، وأما اللَّه الذي يعلم السرائر فالمخادع له إنما يخادع نفسه دون شعور بذٰلك؛ فكل من انخدع لمخادع علىٰ علم فقد خدعه، وأصبح الخادع هو المخدوع، فاللَّه أجرىٰ عليهم حكم الإسلام ظاهرًا حقنًا لدمائهم، ونيلهم ما يناله المسلمون، ولٰكن جعل لهم سوء العاقبة في الدنيا ثم في الآخرة.

فخداعهم لا ينجح إلا في أنفسهم بإهلاكها غيظًا وكمدًا وتوريثها الوبال والنكال؛ بكونها تتخبط في ركام من ظلمات الحقد والغواية، وتضليل الرؤساء بشتىٰ الأوهام، واجتماع أسباب الهلكة، من الشقاق بينهم وانعكاس جميع مقاصدهم عليهم، وجعل بأسهم بينهم، بحيث لو حصل لهم جولة ينتفضون بها تكالبوا علىٰ الحكم والمادة فقتل بعضهم

بعضًا، فحظهم في الدنيا شقاء وتعاسة وسواد تاريخ، وحظهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار.

والسبب في تماديهم وإصرارهم علىٰ النفاق غالبًا هو ما أخبرنا اللَّه عنه أنه:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾:

والمرض لغة: السقم الذي هو نقيض الصحة؛ يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال ويوجب الخلل في أفعاله وأحاسيسه، فاستعير هنا للقلب إذا عرضت له شكوك وشبهات تخرجه عن اليقين والطمأنينة؛ فيتلاشىٰ دين صاحبه أو يضعف أو لا يكون فيه ـ من الأصل ـ قبول للحق، ولٰكنه يجبُن عن إظهار الكفر؛ فينافق بإظهار الإيمان، ليدفع عن نفسه القتل والأسر والجزية وينال ما يناله المسلمون المؤمنون، ويعلم أسرارهم؛ فيكيد لهم بموالاته لأعدائهم.

وقوله تعالى ـ في أوصاف المُنافقين ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾:

معطوف علىٰ قوله: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ** ...﴾؛ لبيان حالهم في ادعاء الإيمان وهم كاذبون أولًا، ثم بيان حالهم في تماديهم بالباطل واستمرائهم له ورؤيتهم الفساد صلاحًا والصلاح فسادًا، لاعتمادهم علىٰ أقوال رؤسائهم من شياطين الإنس، وازدرائهم لوحي اللَّه الحكيم.

وهٰكذا شأن كل مفسد يدعي أنه مصلح ـ سواء كان إفساده عن علم وشعور، لضراوة عداوته للإسلام وأهله، أو كان إفساده عن تقليد لرؤسائه الروحانيين أو السياسيين ـ؛ فهو يدعي الإصلاح في كلتا الحالتين، تغريرًا للمنخدعين بدعايته والمنجذبين إلىٰ خطته، وتبرئةً لنفسه من

وصمة الإفساد بالتمويه والتلبيس والمغالطة.

وقد تقدم أن كل مغرض يسعىٰ لهدم الإسلام، وتفتيت عقيدته، وتحطيم أهله يتذرع دائمًا بدعوىٰ الإصلاح، والعمل علىٰ رفع الظلم، وإزالة البؤس ونشر الحرية ـ يقصد بها الحرية البهيمية ـ، ليصطاد في الماء العكر وليلبس للناس جلود الضأن من اللين، ويفتنهم فيما يبثه عليهم من زخرف القول غرورًا. فالمنافقون الأوائل يرون أفسد الفساد ـ الذي هو الصد عن دين اللَّه ـ إصلاحًا، زاعمين أن هٰذا الدين مخالف لتراث الأجداد، وأنه مفرق للصفوف، ومقيد للنفوس وقاض علىٰ حاجاتها الأصيلة فيها... إلخ، كما يرون الفساد الثاني ـ الذي هو ممالأة الكفار، وموالاتهم من دون المؤمنين ـ إصلاحًا لأحوالهم، وتقويةً لروحهم، ووحدةً وطنيةً لا يجوز لزاعمي الدين أن يتدخلوا فيها!!.

ولكل قوم وارث، فمنافقو هٰذا الزمان يرون أفسد الفساد، وأكفر الكفر ـ الذي هو الطعن في الدين، والعمل علىٰ إقصائه عن الحكم، واستبعاده عن جميع شؤون الحياة، وحصره في المسجد فقط ـ، يرون هٰذا إصلاحًا وصلاحًا للمجتمع، زاعمين ـ من جهة ـ أنه طائفيةٌ ومدعاة للشقاق ـ، ومن جهة أخرىٰ أنه لا يصلح للعصر، ولا يساير التطور! وهٰذا أعظم طعن بجناب اللَّه العظيم، وإلحاد في أسمائه، وتفضيل لخططهم وآرائهم علىٰ حكم اللَّه ومراده؛ ففي قولهم هٰذا إنكار لعلمه الواسع المحيط بكل شيء، وتنديد بحكمته ورحمته، فلم يجعلوا اللَّه عليمًا بما يصلح أحوال الناس في كل عصر، ولا حكيمًا يشرع لهم ما يصلح أحوالهم، بل تمادىٰ ورثةُ المنافقين هٰذا الزمان، فزعموا أن أحكام اللَّه في شرعه قاسيةٌ لا تناسب الإنسانية، وهٰذا يقتضي أن اللَّه ليس رحيمًا، لأن شريعته مبنية علىٰ القسوة والخمول ـ لا علىٰ الحكمة والرحمة ـ، فقد ارتكسوا في أبشع دركات النفاق غاية الارتكاس.

وهم يدرَؤُون الشبهة عن أنفسهم بدعوىٰ الإصلاح، فيسمون الخلاعة،

ومفاسد الأخلاق، وإباحة الخمور، واختلاط الجنسين، والتبرج، والتهتك، والتعري في البلاجاتِ الخليعة، وبث المراقص والمسارح: رقيًّا ومسايرةً لروح العصر والتقدم، ويجعلون إباحة الزنىٰ حال الرضا ـ والذي يعفىٰ ممارسيه من إقامة الحد عليهم ـ وبث سائر أنواع الفحشاء والمنكر: حضارةً وتطورًا، فيَرون أنهم مصلحون بجلب كل مفسدة، واستحسان كل منقصة؛ تمسكًا بما يراه رؤساؤهم، أو تقليدًا لأساتذتهم فاقدي العقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، وهم في الحقيقة مفسدون، ولهٰذا ابتدأ اللَّه الكلام المؤكد لإثبات إفسادهم بكلمة: ﴿أَلَآ﴾ التي هي أداة للتنبيه والإيقاظ وتوجيه الأنظار واهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

ثم أخبرنا عنهم أنهم ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ـ لفساد طبائعهم ـ بما حل فيها من الشبهات الناشئة من ظلمات المرض المتراكمة التي سبق ذكرها، وهم نوعان:

ـ نوع مريض القلب شديد العداوة للإسلام وأهله، نصَّب نفسه طاغوتًا يقترف جميع الشرور والمؤامرات، وهم اليهود ومن انطبع بطبائعهم من المشركين القدامىٰ والمحدَثين الذين شركهم شرك تعطيل فظيع، وهم الذين قرنهم اللَّه مع اليهود في عداوتنا إذ قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

ـ ونوع آخر مسوق إلىٰ الفساد بسوء التقليد الأعمىٰ الناشئ من فساد تصورهم وما حل في قلوبهم من الأمراض والآفات المعنوية.

ثم إن إخبار اللَّه لنا عن سوء فعالهم، وخبث سرائرهم بصيغة السؤال والجواب التي هي من أقوىٰ الأساليب لفهم الكلام.

فائدة:

في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ أتىٰ اللَّه بضمير الفصل بعد «إن» واسمها ليفيد حصر أحوالهم في الفساد؛ فمهما زعموا خلافه فهم

مفسدون في كل شيء، ولا يصدر عنهم إلا الفساد، لخبث ضمائرهم وفساد سرائرهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

فقد سبقهم من آمن بدعوة محمد ﷺ، وكان مثلًا يحتذىٰ، ولهٰذا يجدر بمن يُدعىٰ بعدهم للإيمان أن يكون أسرع استجابة فلا يتلكأ، ولٰكن الكِبرَ والتيه منعهم من الاقتداء بقوم سبقوهم إلىٰ الخير.

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، يعني المنافقين ـ في قول مقاتل وغيره ـ ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: صدقوا بمحمد ﷺ كما صدق المهاجرون والمحققون[1] من أهل يثرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، يعنون أصحاب محمد ﷺ. وهٰذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاءٍ واستهزاء، فأطلع اللَّه نبيه والمؤمنين علىٰ ذٰلك، وقرر أن السفه ورقة الحلوم[2] وفساد البصائر إنما هي في حيِّزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم هم السفهاء، ولٰكن لا يعلمون للرين الذي علىٰ ـ قلوبهم انتهىٰ.

ويقول سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن»: «وواضح أن الدعوة التي كانت موجهة إليهم في المدينة: هي أن يؤمنوا الإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء! إيمان المخلصين الذين دخلوا في السلم كافةً، وأسلموا وجوههم للَّه، وفتحوا صدورهم لرسول اللَّه ﷺ، يوجههم فيستجيبون بكليتهم مخلصين متجردين. وواضح أنهم كانوا يأنفون من هٰذا الاستسلام للرسول ﷺ، ويرونه خاصًا بفقراء الناس، غير لائق

---

(١) المحققون ـ هنا ـ هم الذين يكون إيمانهم مقرونًا بالإخلاص، خالصًا عن شوائب النفاق؛ كما قال الآلوسي.

(٢) **الحلوم**: العقول.

بالعلية ذوي المقام، ومن ثم قالوا قولتهم هٰذه: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾. ومن ثم جاءهم الرد الحاسم، والتقرير الجازم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ومتىٰ علم السفيه أنه سفيه؟! ومتىٰ استشعر المنحرف أنه بعيد عن المسلك القويم؟!».

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة]:

هٰذه الآية الكريمة أزالت ما يلاحظه بعض الناس من شبهة الإشكال في الآية السابقة: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ فإن بعض الناس قد يقول: إنهم رفضوا الإيمان علانيةً بقولهم هٰذا، فكيف يُعد قولهم نفاقًا؟ فنقول: إن هٰذا التساؤل فيما بينهم هو قولُ بعض المغفلين منهم للفريق الآخر، أو يقوله منهم من يتصف بالنفاق، ثم هم يُركسونه في جوابهم ويعمقونه، أو يقوله منهم من غلبت عليه سلامة صدره، وأعجب بالإسلام والمسلمين، فيأتيه الجواب منهم مفسدًا صدرَه مغيِّرًا أفكاره، فالحاصل: أن التساؤل في الآية السابقة ليس واردًا عليهم من خارج محيط النفاق، وإنما هو فيما بينهم.

ويشهد لذٰلك هٰذه الآية التي أوردها اللَّه بعدها: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾؛ فإنها تشهد عليهم بالنفاق الواضح الشنيع، وأن هٰذا دأبُهم في مخادعتهم المؤمنين ومكرهم بهم، يدفعونهم عن أنفسهم كلما استقبلوهم بدعوىٰ الإيمان.

وقد عبَّر اللَّه عنهم بصيغة الماضي ليكون أصرحَ في توبيخهم علىٰ ما بلغوه من التهتك في النفاق؛ حتىٰ صاروا ذوي وجهين، يتكلمون بلسانين، وهٰذه حالة المنافقين في كل وقتٍ يعدمون السلطة فيه، وتكون القوة والسلطة فيه لغيرهم، بل إن منافقي هٰذا الزمان يستمرون علىٰ هٰذه الحالة ـ ولو لم يعترهم الخوف الذي اعترىٰ أولٰئك ـ، إيغالًا منهم

في المخادعة، حتىٰ يفترسوا الحكم فيكشروا عن أنيابِهم بكل قبيح.

أما قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ـ بلفظ مجمل غير مفصل بشيء ـ، ففيه تورية منهم وإيهام للسامع، إذ يحتمل أن يقصدوا به الإيمان بموسىٰ ـ إن كانوا يهودًا ـ، أو بأصنامهم ـ إن كانوا من مشركي الخزرج ـ؛ دون ما سوىٰ ذٰلك من الإيمان الصحيح المطلوب؛ وذٰلك من خبثهم ومهارتهم بالغش والبَهت والتدليس، ويحتمل أن يقصدوا به الإيمان المقيد ذكرُه في أول الآيات.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي: رؤسائهم في الكفر والضلال. سماهم اللَّه «شياطين» لسلوكهم مسلك الشياطين في الابتعاد عن أمر اللَّه، وإضلالهم لعباد اللَّه. فالمنافقون المخادعون للمسلمين بزعمهم الإيمانَ؛ إذا خلوا إلىٰ شياطينهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ علىٰ حالتنا لم ننتقل عنها، ثم إنهم لم يكتفوا بِهٰذا الإخبار المطمئن للشياطين بأنهم معهم في العقيدة والنصرة علىٰ رسول اللَّه ﷺ وأصحابه واطلاعهم علىٰ أسرارهم وتربص الدوائر بهم، وتنفيذ ما يريدونه من صنوف الإيذاء السرية والمكر الخفي؛ بل بيَّنوا سبب زعمهم الإيمان إذا التقوا بالمؤمنين بأنهم يلعبون علىٰ ذقونِهم، ويسخرون منهم ويمكرون؛ حيث يقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ ساخرون بأتباع محمد ﷺ، مستخفون بهم، فنحن نلعب بهم، ونتربص بهم الدوائر.

وحيث إن شأن المؤمنين الصادقين عظيم عند اللَّه، ومنزلتهم لديه عالية، تولىٰ ﷻ مقابلتهم علىٰ استهزائهم بالمؤمنين ليكشف أحوالهم، ويفضح تذبذبَهم، ويتولىٰ الانتقام منهم في ـ الدنيا والآخرة ـ؛ فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

واستهزاء اللَّه بهم ليس كاستهزاء المخلوق بالمخلوق، فإنه تعالىٰ عن مشابهة خلقه، ولٰكنه يُنزل بهم في الدنيا والآخرة ما يجعلهم أضحوكةً وهُزوًا لكل مطلع عليهم، فهو يقابلهم في الدنيا بإجراء

الأحكام الظاهرة ـ التي قصدوا النفاق لأجلها ـ، ولٰكنه يفضحهم بإخبار رسوله ﷺ بكشف سرائرهم، ويفضح مواقفهم السلبية الانهزامية عند الشدة، وتقاعسهم عن الإنفاق، وتكاسلهم عن الصلاة، وتماديهم في الكذب والخيانة، وانحيازهم إلىٰ الكفار موالاةً لهم وممالأة.

ومن مكر اللَّه واستهزائه بالعصاة والكافرين والمنافقين: استدراجهم بإدرار النعم ودفع النقم الدنيوية مدةً من الزمن ليزدادوا بها إثمًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران]، وكما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

فهٰذا ـ علىٰ تأمل البشر ـ كأنه استهزاء ومكر وخداع، وذٰلك لما بين الفعل وجزائه من مشابَهةٍ ومشاكلة في القدر، وملابسةٍ قوية بين ضخامة الجزاء وشناعة الفعل.

وقال قوم: إن في ذكر استهزاء اللَّه بهم استعارةً؛ كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورىٰ: ٤٠]، والجزاء لا يكون سيئة. وكقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والقصاص لا يكون اعتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: يزيدهم في الشر ـ إما بزيادة فعله أو إمهالهم بالإمداد في أعمارهم ـ ليزدادوا طغيانًا.

والشر يجر بعضه بعضًا حتىٰ يُطغي صاحبه فيكون بعيدًا من الهداية؛ وهٰذا كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾:

يعني: هٰؤلاء المنافقين إنما فعلوا ذٰلك لأنهم اختاروا الكفر علىٰ

الإيمان. وجاء التعبير بالشراء لأن فيه حقيقة الاستبدال، فهٰذا هو الذي جرأهم علىٰ خططهم الشنيعة المخالفة للفطرة، والمجانبة للدين، لكونهم اشتَروا الكفر بالإيمان حتىٰ خسرت صفقتهم، وفقدوا الاهتداء إلىٰ صراط اللَّه المستقيم، فأفلسوا من الربح وفقدوا الهداية.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ معنىٰ آخر، وهو أن التاجر قد لا يربح وهو سائر في تجارته علىٰ هدًىٰ وبصيرة، ولٰكنه أخفق في الربح لعوارض أخرىٰ، فلا يستحق الذم علىٰ عدم ربحه في تلك الحال، أما هٰؤلاء فخُطتهم علىٰ عماية، ولذٰلك نفىٰ اللَّه عنهم الأمرين: الربح والهداية، وذٰلك لأنهم عطَّلوا عقولهم التي يتمكنون بها من النظر الصحيح المؤدي إلىٰ نتيجة نفسية ـ وهي معرفة الصواب من الخطأ ـ، فاتبعوا الهوىٰ، واقتفوا آثار الآباء، وقلدوا الأكابر الذين سماهم اللَّه: «الشياطين»، فأصبحوا كالقردة في التقليد.

الأمثال التي ضربها الله للمنافقين:

ضرب اللَّه للمنافقين مثلين في غاية الروعة والتصوير الملائم لأحوالهم:

فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾:

شبه اللَّه حال المنافقين بقوم مسافرين ضلوا عن الطريق، فأوقدوا نارًا ليستضيئُوا بها ويعرفوا الطريق، فلما أضاءت لهم وكادوا أن يعرفوا معالمه؛ انطفأت عنهم أنوارها؛ فعادوا إلىٰ ظلمة أشد وحيرة أفظع، فانسدت عنهم أبواب الهدىٰ الثلاثة: الأذن والعين والقلب، فلم ينتفعوا بأسماعهم ولا أبصارهم ولا قلوبهم؛ فلهٰذا نزلوا منزلة الصم البكم العمي؛ فهم ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ لزيادة تحيرهم وضلالهم بعد انطفاء النور.

ويلاحظ عدة حكم في ضرب المثل لهم بالنار:

الأولى: أن المستضيء بالنار مستضيء من جهة خارجية ـ لا من جهة

نفسه ـ، فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة دامسة، فكأنهم ـ لما أقروا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم ـ كان نورهم كالمستعار.

الثانية: أن ضياء النار يحتاج لدوامه إلىٰ وقود ـ من حطب أو غيره ـ؛ فكذٰلك نور الإيمان يحتاج إلىٰ مادة الاعتقاد الصحيح من صدق وإخلاص.

الثالثة: أن الظلمة الحادثة بعد النور أشد علىٰ الإنسان من الظلمة قبله، فلهٰذا شبه حالهم بذٰلك.

الرابعة: قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: بنارهم، لأن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بإشراقها ـ وهو النور ـ، وأبقىٰ عليهم ما فيها من الإحراق والدخان.

الخامسة: قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾، ولم يقل: بضوئهم، لأنه لو قال ذٰلك لأوهم الذهاب بالزيادة فقط ـ دون الأصل ـ؛ فلما كان النور أصل الضوء كان ذهابه ذهابًا بالشيء وزيادة.

السادسة: إفراد اللَّه للنور في قوله: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾ وجمعه للظلمات في قوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾؛ وذٰلك لأن الحق واحد، وما عداه فهو سبل كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

السابعة: مناسبة هٰذا المثل للمنافقين بإيقاد النار؟ لما يوقدونه من نار الفتنة بين المسلمين.

الثامنة: هٰذا المثل مناسب لانتقالهم من نور المعرفة والبصيرة، إلىٰ ظلمة الشك والكفر، فإن المنافق بعدما أبصر عمي.

التاسعة: مطابقة هٰذا المثل لما تقدم في الآية السابقة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ كيف حصلت المطابقة بين التجارة الخاسرة باختيار الضلالة علىٰ الهدىٰ، واطِّراح الهداية مقابلها، وبين حصول الظلمات التي هي الضلالة بدلًا من النور الذي هو الهدىٰ؛ فيا له من تمثيلٍ بديع!.

العاشرة: إن في هٰذا المثل تنبيهًا علىٰ حالهم في الآخرة، وأنهم يعطَون نورًا ظاهريًّا، كما كان نورهم ظاهريًّا في الدنيا، ثم يطفأ ذٰلك النور ـ وهم أحوج ما يكونون إليه ـ؛ إذ لم تكن له مادة باقية من الإيمان، فيبقون في الظلمة علىٰ الجسر لا يستطيعون العبور، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن عبدالله وقد سئل عن الورود فقال: «نجيء يوم القيامة علىٰ تلٍّ فوق الناس، فتدعىٰ الأمم بأوثانِها وما كانت تعبد ـ الأول فالأول ـ، ثم يأتينا ربنا ﷻ فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربَّنا، فيقول: أنا ربكم! فيقولون: حتىٰ ننظر إليك. فيتجلىٰ لهم يضحك!قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويُعطي كل إنسان منهم ـ منافق أو مؤمن ـ نورًا، ثم يتبعونه، وعلىٰ جسر جهنم كلاليب وحَسَكٌ تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر؛ سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء، ثم كذٰلك، ثم تحل الشفاعة ويشفعون... »[1] إلخ.

فتأمل ـ أيها المسلم المؤمن ـ حال المنافقين إذا انطفأت أنوارهم فبقوا في الظلمة تختطفهم كلاليب جهنم، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربَّهم ﷻ.

قال ابن عباس: «مثل هٰؤلاء ـ في نفاقهم ـ كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمةٍ في مفازة، فاستضاء ورأىٰ ما حوله، فاتقىٰ ما يخاف، ثم انطفات ناره، فبقي في ظلمته خائفًا متحيرًا».

وقال مجاهد: «إضاءة النار لهم: إقبالهم إلىٰ المسلمين والهدىٰ، وذهاب نورهم: إقبالهم إلىٰ المشركين والضلالة».

وقوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾:

---

(١) رواه مسلم (٣١٦)، موقوفًا علىٰ جابر ؓ. ورواه أحمد (٣/٣٨٣) مرفوعًا معظمُه إلىٰ النبي ﷺ. انظر: «تحقيق المسند» (٢٣/ ٦٤).

الصمم: أشد من الطرش، لأنه انسداد منافذ السمع.

والبكم: عيب في اللسان أو الفؤاد يمنع من النطق أو الوعي، فيجمع بين الفساد في محل الفهم ومحل النطق.

والعمىٰ: فقد البصر أو البصيرة.

و﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾: أي: لا يرجعون عن ضلالتهم، أو: لا يرجعون عن الصفات التي أصابتهم من الصمم والبكم والعمىٰ، لأنهم انصرفوا عن الهداية باختيارهم، لغلبة أهوائهم عن تصفح الهدىٰ بِهٰذه الآيات الصالحة للتصفح، والتي قلبها اللَّه عليهم لما أعرضوا عن سماع الخير والنطق به، فكانوا علىٰ هٰذه الحال.

إنهم ليسوا كالكفار الذين أعرضوا عن الهدىٰ أول وهلة، وصموا آذانهم عن السماع، وعيونهم عن الرؤية، وقلوبهم عن الإدراك، قائلين: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت]، لو كانوا كالكفار في موقفهم الجريء لهان أمرهم، ولأراحوا المسلمين من شرهم بالصراحة، ولٰكن هٰؤلاء المنافقين لم يكونوا كذٰلك، بل أظهروا خلاف ما يبطنون، بعدما عرفوا الحق فأنكروه.

بعدما شبَّه اللَّه نصيب المنافقين في المثل الأول الناري مما بعث اللَّه ورسوله ﷺ من النور والحياة بنصيب المستوقد النار التي أطفئت عنه وهو أحوج ما كان إلىٰ نورها، فبقي في الظلمات حائرًا تائهًا: أعقب اللَّه هٰذا المثل الناري بمثل مائي فيه تصوير الهول والرعب والفزع:

فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾:

والصيب: هو المطر الذي يصُوب ـ أي ينزل ـ من علوٍ إلىٰ سُفلٍ،

فشبه الهدىٰ النازل من السماء بِهٰذا المطر، لأن القلوب تحيا بوحي اللَّه حياة الأرض بالمطر، ولٰكنه شبه نصيب المنافقين من هٰذا الوحي بنصيب من لم يحصل له حظ من الصيب إلا ظلمات ورعد وصواعق

وبرق، في ليل داجٍ تراكمت سحبه، وتواترت رعودها المزعجة، وصواعقها النازلة الهائلة المحرقة، يحصل وبروقها الخاطفة المرعبة، فكأنهم في وسطها يزاولون غمرات الموت، لما يحصل لهم من الإفزاع والترويع وهول الرعد وإفزاع الصواعق والبرق، [وهو] مَثَل لما يخوف به المنافقون من العذاب في الدنيا والآخرة، أو لما هم فيه من إشكال الشبهات.

وأما الظلمات فهي مَثَلٌ لعمايتهم عن الحق.

وأما الرعد فهو مثل للزجر والوعيد.

وأما نور البرق فهو مثل للحجج الباهرة التي تكاد تَبهرهم.

وأما الصواعق فهي مثل لما يدعون إليه في القرآن من الجهاد في العاجل والوعيد علىٰ التخلف عنه، أو هي مثل للتكاليف الإسلامية التي لا يفعلونها إلا بخوف ورياء.

وكونهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت: هو في مقابلة وضعهم أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن.

ووجه التشبيه: أن الجاهل المفرط في الجهل لا تنفذ بصيرته إلىٰ الحقائق فيكتفي بالمظاهر مغترًّا بها مفتونًا، فيقتصر علىٰ الإحساس السطحي بما في الصيب من ظلمات ورعدٍ وبرق وصواعق، وما ينشأ عن ذٰلك من برد ووقف سفر وتعطيل عمل؛ دون نفاذ بصيرته إلىٰ المنافع الحاصلة من ذٰلك الصيب، من حياة الأرض والمنفعة العامة، وهٰكذا شأن ضعفاء البصيرة، يرون ما في الجهاد من المشقة والتعرض للقتل والبطش، وإثخان الجراحات، وملامة العُذال، ومعاداة من تخشىٰ عداوته، فلا يقدمون عليه؛ بل يكرهونه، وينفرون منه، لأنهم لم تنفذ بصيرتُهم إلىٰ فوائده العظيمة من العز والسؤدد وقمع الأعداء والظهور عليهم، وكذٰلك كل تكليف شرعي يثقل عليهم.

وكذٰلك حال المنافقين مع القرآن؛ يثقل عليهم، وينفرون منه لما فيه

من الوعد والوعيد، والأوامر والنواهي والزواجر، والتكاليف الشاقة علىٰ نفوسهم.

قال الزمخشري: لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب: لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبيه الكفر بالظلمة وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق: وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنىٰ: أو كمثل ذوي صيب، كمثل قوم أخذتْهم السماء علىٰ هٰذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا!.

إلىٰ أن قال: فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني، لأنه أدل علىٰ فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، وكذٰلك أفرادُهم يتدرجون في مثل هٰذا من الأهون إلىٰ الأغلظ.

وبالجملة، فإن المؤمنين أدركوا ما في وحي اللَّه من حياة القلوب وارتفاع النفوس والرؤوس، مثلَ ما في المطر من الحياة الحسية، فعلموا نفاسة ما يحصل لهم من الحياة الروحية والمعنوية، فلم يمنعهم ما في وحىٰ اللَّه من رِعد الوعيد وبرق التهديد وصواعق العقوبات والمَثُلات، التي حذر اللَّه بها من خالف أمره، وكذَّب رسوله، ولا ما فيه من الأوامر والنواهي الشاقة علىٰ النفوس، المخالفة للأهواء التي هي كالظلمات؛ بل علموا بحسن النتيجة، فلم يستوحشوا؛ بل استأنسوا بصدق الامتثال للَّه، فنالوا منه الحياتين الطيبتين في الدارين.

وأما المنافقون، فقد عميت قلوبُهم. ولم تجاوز أبصارهم الظلمة، ولم يروا إلا ما أخبرنا اللَّه عن رؤيتهم له بقوله:

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾:

فهم خائفون علىٰ أنفسهم، مستوحشون من الرعد العظيم، واضعون

أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الصوت، وليس بنافعهم ذٰلك، وقد بدا لهم البرق الذي يكاد يخطف أبصارهم بسرعة من قوة ضوئه المفاجئ، لأن أبصارهم أضعفُ من في أن تثبت أمامه؛ فكلما أضاء لهم الطريق في الظلمة مشوا في نوره خطوات قليلة، وإذا أظلم عليهم واستتر وقفوا في أماكنهم حائرين ينتظرون فرصةَ إضاءته مرة أخرىٰ... وهٰكذا، لا ملجأ لهم من الهلاك، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾، فهو قدير علىٰ ما هو أعظم من ذٰلك، ولٰكنه لم يشأ ذٰلك لحكم ومصالح هو بها عليم حكيم.

فالوحشة لازمة للمنافقين، والرعب والفزع لا يفارقهم؟ لأن قلوبهم في وحشة من وحي اللّٰه أولًا، ومن عباد اللّٰه القائمين به ثانيًا.

وهٰذه الأمثال التي ضربها اللّٰه في القرآن، تصور لنا الأعاجيب من أحوال المنافقين المحوطة بالظلمات المعنوية المتراكمة، الممثَّلة في مستوقِد النار، والمشوبة بالرعب والأهوال واضطراب الأحوال، المتمثلة في الصيب الذي حظ صاحبه منه وحشةُ الظلمات وهول الرعد، والقلق من البرق، والانزعاج من الصواعق، والفزع والروع والتمادي في الحيرة التي لا يستطيع صاحبها السلوك. فما أروعه من تصوير لحالة المنافقين في تذبذبهم الذي يعيشون فيه بين لقائهم للمؤمنين، ومخادعتهم لهم، واستهزائهم بهم، وبين عودتِهم للشياطين من رؤساء الفتنة والضلال، مؤكدين لهم أنهم معهم علىٰ الكفر! ومتأرجحين بين طلب الهدىٰ والنور وما يرجعون إليه من كفر وضلال.

فهٰذه أربعَ عشرةَ آية من أوائل سورة «البقرة» في المنافقين، وأكثر منها في سورة «آل عمران» و«النساء» و«المائدة» و«الأنفال» و«التوبة» و«النور» و«الأحزاب» وغيرها، فقد أكثر اللّٰه من فضيحتهم، وكشف أحوالهم، وهتك أستارهم، وبيَّن صفاتهم المطردة إلىٰ يوم القيامة، لأنهم شر من الكفار الصرحاء، وأعظم خطرًا.

خذ مثلًا ـ في زماننا ـ: الشيوعية، فكفرها صريح، وأهلها صرحاء بإنكار اللَّه، فكل مسلم يستوحش منهم. ولٰكن هنا من أصحاب المبادئ المادية ونحوها ممن يشتُم الشيوعية ويتبجحون بالاعتراف باللَّه، أو الإيمان باللَّه، وهم لا يرجون للَّهِ وقارًا، ولا يتقيدون بأوامره، ولا يحرِّمون ما حرمه من الخمور، والزنا حالة الرضا، ولا يحكمون بشريعته، ولا يقيمون شيئًا من حدوده... فما قيمة هٰذا الإلٰه عندهم؟.

إن من أعمل النظر في وحي اللَّه، عرف حكمته في الإكثار من كشف أوصاف المنافقين. وقد روىٰ البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي موسىٰ الأشعري عن الرسول ﷺ قال: «**مثلُ ما بعثني اللَّه ﷻ به من الهدىٰ، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادبُ**[1] **أمسكت الماء، فنفع اللَّه بها الناس، فشرِبوا، وسقَوا، وزرعوا، وأصاب طائفةً منها، إنما هي قيعانٌ**[2] **لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذٰلك مثلُ مَن فقُه في دين اللَّه، ونَفعه اللَّه بما بعثني به فعَلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذٰلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ اللَّه الذي أُرسلتُ به**»[3].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **[البقرة]:**

هٰذا نداءٌ من اللَّه إلىٰ الكفار الجاحدين، وإلىٰ المنافقين المتذبذبين، ليخلصهم من أشراك[4] الهلكة إلىٰ من يستحق العبادة وحده لا شريك له، بكامل الحب والتعظيم والذل والانقياد، مبينًا الأسباب الموجبة لذٰلك

---

(١) **الأجادب:** الصلبة.
(٢) **القيعان:** المستوية الملساء.
(٣) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).
(٤) **الأشراك:** الفُخوخ.

عقلًا وشرعًا قائلًا: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ الحقيقي المربي لكم ولغيركم، ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ فليس خلقه مقصورًا عليكم، ولا نداؤه وواجباته مقصورة عليكم فقط، وكذٰلك لم يخلقكم ولاغيركم عبثًا، بل خلقكم لعبادته التي إن سلكتم مسالكها المرضية الموصلة إليه حصلتم علىٰ وقايةٍ من عقوباته الشرعية والقدرية؛ لهٰذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فإن العبادة علىٰ الوجه الصحيح والمطلوب تحصل بها الوقاية من عقاب اللَّه وغضبه.

ولفظ «لعل» يدل علىٰ الترجي، ولا تساق إلا فيما ترجىٰ أسبابه.

وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تنبيه إلىٰ واجبين هما:

١ ـ النظر في أحوال الأمم السابقة، والاعتبار بما أصابها.

٢ ـ دراسة القرآن وفهم معانيه والانطباع به؛ ليتمكن المسلمون من تحقيق عبادتِهم علىٰ الوجه الصحيح والمطلوب.

وكل ما أمَرَنا به القرآن الكريم وجب علينا فهمه؛ ففي قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية؛ فيه أمر بالاعتبار بخَلقنا وخِلقَتِنا، وما فيها من الأسرار والحكم، وذٰلك بالبحث عنها لنشكر اللَّه علىٰ كل عضو وعِرق وحاسة ومِفصل وجارحة، شكرًا عمليًّا صحيحًا باستعماله في طاعته، وأن ندرس أسرار الكائنات لنزداد حبًّا وتعظيمًا للَّه، وأن نتخلص من الجهل والكسل، وأن نعمق الفكر والنظر في واقعنا لنسيره في الحق وإلىٰ الحق.

وعبادة اللَّه مبنية علىٰ قواعد أربع هي: التحقيق بما يحبه اللَّه ورسوله ويرضاه من: قول اللسان، والقلب(١)، وعمل الجوارح، والقلب(٢).

وعبادة اللَّه اسم جامع لهٰذه المراتب.

ومما هو من صميم العقيدة ولباب العبادة: الحكم بما أنزل اللَّه،

---

(١) أي: وقول القلب، وهو التصديق.

(٢) أي: وعمل القلب، كالإخلاص والإنابة والتوكل... ونحو هٰذا.

وإباحة ما أباحه من الطيبات، وتحريم ما حرمه من الخبائث، فمن لم يحكم بما أنزل اللَّه معتقدًا عدم أحقيته، أو عدم صلاحيته لعصره، أو معتقدًا قسوةَ حدوده، أو عدم ملاءمتها للبشرية، فهو كافر حلال الدم والمال، وكذلك من أباح شيئًا مما حرمه اللَّه.

قال الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمعت الأمة على أن من استحل أدنى شيء مما حرمه اللَّه كان كافرًا ووجب قتاله».

وليعلم أن عبادة اللَّه هي أشرف المقامات، وأعظم الأسماء والألقاب، فقد وصف اللَّه تعالى بها أحبابه وأولياءه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأنها لا يسقط شيء منها عن المؤمن حتى يوافيه اليقين ـ وهو الموت ـ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

وهذا أمرٌ من اللَّه لنبيه ﷺ، ويشمل كل فرد من أفراد أمته، ومن فسر اليقين بغير الموت ـ من الوصول لدرجةٍ من مبتدَعات الصوفية ودسائس الماسونية ـ، فهو مبتدع ضالٌّ مضل؛ لأن أول المأمورين بها ـ وهو نبي الهدى والرحمة محمد ﷺ ـ لم يترك عبادة ربه قبل الموت ولا لحظةً من لحظات عمره.

فاللَّه وحده هو الذي يستحق العبادة، لتفرده سبحانه في الخلق، ولتفرده سبحانه في النفع الحسي والمعنوي؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، يعني وِطاءً تفترشونها وتستقرون عليها، وإن كان عليها ما هو غير صالح للافتراش كالجبال؛ فهي من مصالح المفْترِشِ لأنها كالأوتاد، ولأن اللَّه ذللها للإنسان يتخذ منها بيوتًا وحصونًا وملاجئ، ويستخلص منها المعادن.

أما البحر فيمخُر الناس عبابَه، ويستخرجون منه الحليَّ والأسماك.

وسميت الأرض «أرضًا» لسعتها، وقيل: لانحطاطها عن السماء، فكل

ما سفُل أرض، وقيل: لأن الناس يرضُّونَها بأقدامهم[1].

أما السماء فسميت بذلك لارتفاعها، وكلُّ ما علا الأرض فهو سماء.

وقال ابن عباس: «السماء هاهنا السقف».

وله دليل من قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، يعني به إنزال المطر.

وأصل لفظ «ماء»: مَوَهَ؛ قلبت الواو ألفًا لتحركها وما قبلها، فقيل: «ماه»، فالتقىٰ حرفان خفيان، فأبدلت الهاء همزة لأنها أَجلَدُ وبالألف أَشْبَهُ، فقيل: «ماء»، وعند التصغير يقال: «مويهُ» والجمع: أمواه ومياه.

وهٰذه الثمرات التي أجملها اللّٰه ﷻ في هٰذه الآية؛ فصلها في سورة: «الأنعام»، و«الزمر»، و«عبس»، و«الرعد»، وغير ها.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: نتيجة الغرس والزرع من الحبوب والثمرات المختلفة ليست بفعل الناس ـ مهما تعبوا في حراثة الأرض وزرعها وغرسها ـ، فكل الذي يفعلونه أسباب، ولٰكن المسبب الأول هو اللّٰه، والمؤثر الأخير في حصول الإنتاج هو اللّٰه سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وبعد أن عرَّف اللّٰه الناس بأنفسهم وبنعمه عليهم وعلىٰ أسلافهم ـ من التكوين، وبسط الرزق لهم ـ؛ نهاهم بعد هٰذا الإرشاد من أن يجعلوا له أندادًا.

و«الأنداد»: جمع نِدٍّ ـ بكسر النون ـ، وهو المكافئ والمضارع، يقال: فلان ند لفلان: يضارعه ويماثله في الكفاءة.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأنتم تعلمون أنه لا أحد يضارع اللّٰه ويكافئه بأي شيء من الأشياء، فاتخاذكم للّٰه أندادًا ـ مع علمكم أنهم لم يَشرَكوا

---

(١) الرض: الكسر.

اللَّه في خلقكم ولا في خلق الأكوان العلوية ولا السفلية ـ، فاتخاذكم الأنداد وأنتم تعلمون هٰذه الحقيقة لَمِن أسفه السفه وأحمق الحُمق، إذ لا أحمق ممن يرتكب الخطأ علىٰ بصيرة، ولا أسفه ممن يعدلُ الخالق بالمخلوق، والرازق بالمرزوق! ألَا ما أفسد قياس الكافرين والمشركين الذين هم بربِّهم يعدلون!.

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ لا من شهواتكم وأنانيتكم، ولا من محبوبيكم المقبورين المفسدين، أو الأحياء المُرأَّسين المقلَّدين في أي ميدان من ميادين الحياة، فإن اللَّه لا يرضىٰ بالشركاء ولا بالأنداد ـ أيًّا كان نوعهم ـ.

وماذا يُخرج مدعيَ الإسلام عن الضلال إذا كان متخذًا أندادًا له، يطيعهم في معصية اللَّه، ويستحسن قوانينهم وتشريعاتهم المخالفة لشريعة اللَّه، والمعطِّلة لحدوده؟ ويرضىٰ عن إباحتهم واستباحتهم لما حرم اللَّه من الخمور والفواحش وأسبابها؟ فإنَّ من كانت هٰذه حاله فلا يكون عابدًا للَّه، بل هو عابدٌ للهوىٰ والشيطان والطواغيت باتخاذه الأنداد.

ومن تأمل معارضةَ النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء اللَّه وشئتَ، فقال ﷺ: «**أجعلتَني للَّهِ ندًّا؟! قل: ما شاء اللَّه وحده**»(١).

فمن تأمل هٰذا عرف بشاعة ما صار إليه أهل هٰذا الزمان.

قال القرطبي: «قلت: ودلت هٰذه الآية علىٰ أن اللَّه أغنىٰ الإنسان عن كل مخلوق. ولهٰذا قال ﷺ مشيرًا إلىٰ هٰذا المعنىٰ: «**واللَّه لَأَن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتطب علىٰ ظهره؛ خيرٌ له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه**»(٢).

ويدخل في معنىٰ الاحتطاب: جميع الأشغال من الصنائع وغيرها، فمن أحوج نفسه إلىٰ بشر مثله ـ بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا ـ فقد أخذ بطرفِ مَن جعل للَّهِ ندًّا» اهـ.

أقول: رحم اللَّه القرطبي، كأنه شاهدٌ لأهل زماننا ـ والعياذ باللَّه ـ.

---

(١) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٧٥٩)، وابن ماجه (٢١١٧).
(٢) رواه البخاري (١٤٧٠) ومسلم (١٠٤٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة]:

هٰذا الكتاب المبارك المنزَّل من عند اللَّه علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ، والذي يصور للأمة ما غاب عنها كأنه مشاهَد، والذي يدلِّل علىٰ وجوب حصر العبادة له وإخلاصها له بطرق عقلية وجدانية واضحة، فإنه لا يتطرق إليه الريب إلا من مغرضٍ مكابر مغالط يحاول لبس الحق بالباطل. ولٰكنَّ اللَّه تحدىٰ هٰذا النوع من الناس من يوم إنزاله للقرآن إلىٰ قيام الساعة، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولو استعانوا بشهدائهم من الأصنام التي يؤلِّهونها أو كبرائهم في الرئاسة والفصاحة والبلاغة.

وهٰذا التحدي نفسه من معجزات القرآن الخالدة إلىٰ يوم القيامة، لأنه إذا أعجز أهلَ اللسان وفحول البيان وقت نزول القرآن عن الإتيان بسورة من مثله، فإن من سواهم من المتأخرين أولىٰ بالعجز؛ لاستيلاء العجمة علىٰ ألسنتهم.

ولقد تلا رسول اللَّه ﷺ القرآن علىٰ قريش ـ وهو رجل أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف عنه قومه إلَّا ذٰلك ـ، كما أنهم لم يعرفوا عنه الكهانة ولا قول الشعر ولا مجاراتهم في البلاغة؛ لِذٰلك كان تحدي اللَّه لهم مناسبًا للواقع، لأنهم كانوا في أعلىٰ مراتب البيان، يتبارون فيه، ويتنافسون فيما بينهم، ويعقدون لذٰلك المجامع، ويقيمون الأسواق للمسابقة فيه، حتىٰ بلغ الأمر بهم أن عُلِّق شعر الفائزين من شعرائهم البلغاء في الكعبة، في حين أن محمدًا ﷺ جاءهم بِهٰذا القرآن المعجز وتحداهم به، علىٰ الرغم من أنه ﷺ لا يساويهم في الفصاحة والبيان.

وفي هٰذا التحدي عدة فوائد هي:

١ ـ ظهور حجة محمد ﷺ، وأن ما جاء به هو وحي من عند اللَّه.

٢ ـ أنَّ عَجْزَ فحول العرب أهل اللسان والبلاغة عن الإتيان بسورة من مثله يدلُّ علىٰ عجز غيرهم من باب أولىٰ.

٣ ـ أن هٰذا التحدي يبقىٰ سلاحًا بيد المؤمنين؛ يتحدون به كل كافر معاند إلىٰ يوم القيامة.

٤ ـ أن هٰذا القرآن لو كان من قول البشر؛ لكان في ميسورهم الإتيان بمثله،لأن الكفار آنذاك أفصح من غيرهم.

وفي قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ ما يفيد الشك، وذٰلك للإشعار بأنه مشكوك فيه لا يعتريه الريب، فهو للمبالغة في تنزيهه.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعني: في علو الرتبة، وسمو الطبقة، ونظمه الرائق، وبيانه البديع، وحيازة سائر نعوت الإعجاز التي فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ادعوا ـ متجاوزين اللَّه ـ كلَّ من حضركم في مشاهدكم كائنًا من كان، من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم في المُلمَّات، أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم.

ويفيد قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ التصريح بادئ الأمر بعداوتهم للَّهِ، وأنهم في موقف المحادة والمشاقة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعني: إن كنتم صادقين في زعمكم أنه من قول محمد ﷺ أو من قول البشر، لأن صدقكم في هٰذا الزعم يستدعي قدرتكم علىٰ الإتيان بمثله. كيف لا وأنتم تشاركون قائله في البشرية واللغة العربية؛ بل إنكم لتفوقونه بلاغةً وفصاحةً بما تعارفتم عليه.

وهٰذا التحدي من اللَّه سبحانه ما زال قائمًا علىٰ كل كافر وملحد ينال من القرآن أن يوافيَنا بسورة من مثل سوره حاويةٍ معانيه ومشتملةٍ علىٰ الفصاحة والبلاغة والإعجاز، وإلا كان مكابرًا مع العجز الفاضح، وما أخسها من صفة، وما أقبحها من خليقة؛ ولهٰذا قال تعالىٰ:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

يعني: فإن لم تأتوا بما تحديناكم به من سورةٍ معجزة، وما أنتم

بفاعلين ذٰلك لأنه ليس بمقدوركم ولا بمقدور جميع البشر، فإن لم تستطيعوا ذٰلك فاتقوا جزاء المكابرة والمعاندة والمشاقة للَّهِ ورسوله ﷺ، هٰذا الجزاء هو النار التي وَقودُها الناس والحجارة من الأصنام المعبودة التي يتأذىٰ عابدها بتوقدها حوله وعليه يوم القيامة، كما قال سبحانه في سورة «الأنبياء»: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ١٩٨].

وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه، وهي مقصودة هنا في ذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجزهم بما يغريهم علىٰ تكلف المعارضة ويثير حميتهم.

ولما علم اللَّه عجزهم عن ذٰلك ـ مهما حاولوا ـ أتىٰ بقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ لتفيد التأبيد، وحيث عَجَزَ فحُولُ البيان في ذٰلك العصر، فمن سواهم أعجز في هٰذا الأمر.

ومن صراحةِ عرب الجاهلية وخضوعهم لبلاغة القرآن، وأنهم ليسوا كأهل هٰذا الزمان في دفن الإنصاف ما حكاه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن عمرو بن العاص وفد علىٰ مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل علىٰ صاحبكم؟ فقال: أنزل عليه سورةً وجيزةً: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]؛ ففكر مسيلمة ساعةً، ثم رفع رأسه فقال: وقد أُنزل علي مثلها، قال: وما هو؟ قال: يا وبر[١] يا وبر، وإنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفر ونقر. ثم قال: كيف ترىٰ ـ يا عمرو ـ؟ فقال له عمرو: واللَّه إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب»[٢].

وفي أوائل هٰذا القرن الرابع عشر الهجري حاول زعيم المبشرين «زويمر» غمط[٣] القرآن؛ زاعمًا أن فيه تكرارًا، واقترح اختصار سورة

---

(١) **الوبر**: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره، وباقيه دميم.
(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» (١/ ٦٣).
(٣) **غمط**: احتقر.

الفاتحة بقوله: «الحمد للرحمٰن، رب الأكوان، الملك الديان، لك العبادة، وبك المستعان، اهدنا صراط الإيمان»!! وزعم أن هٰذا إيجاز وتخلص من ضعف التأليف، وخروج عن الرويِّ ـ بزعمه المأفون ـ؟ فصار أضحوكةً للعلماء؟ لأنه أعلن عن وقاحته، وبرهَنَ علىٰ جهله وحمقه، وشدة غيظه وحقده! ومع هٰذا فإن زادها ولم يختصرها جنىٰ علىٰ حقيقة معناها.

وقد رد عليه كثير من العلماء، ومن جملتهم صاحب «المنار»، حيث قال: «لقد كان خيرًا لهٰذا المتعصب المأجور لإضلال عوام المسلمين ـ علىٰ شرط أن لا يذكر اسمه في كتبه، ولا يفضح نفسه بين قومه ـ: أن يختصر لمستأجِرِيهِ آلهتهم وكتبهم التي صَدَّت جميع مستقلي الفكر من أقوامهم وشعوبهم عن دينهم؛ بل صدت بعضهم عن كل دين؛ فإن اختصار الدراري السبع في السماء أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع في الأرض... » إلخ.

هٰذا وقد فند رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلمات التي جاء بها مستدلًّا بنصوص السورة تفنيدًا لغويًّا، فليراجعه من شاء في «الجزء الأول» من تفسير «المنار»، من ص (٧٨: ٨٢).

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ تكرير منه تعالىٰ لأمره عباده بالتقوىٰ، فإن المستمر علىٰ ضلاله وعناده لابد من إحراقه بالنار وتعذيبه العذاب الأليم المقيم؛ هو ومن استعبده من الأصنام والشياطين أو أي مادة تعلق بها؛ كما أوضحنا بعض تفصيله.

ولا نجاة من ذٰلك إلا بالإيمان الصحيح الذي تتمثل فيه صنوف العبادة بكل عضو من أعضاء الإنسان وأحاسيسه، فإنَّ رحىٰ العبودية تدور علىٰ خمسَ عشرة قاعدةً من كملها كمل مراتب العبودية ـ كما أوضحها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، وبيانُها:

أن العبودية منقسمة علىٰ: القلب، واللسان، والجوارح. وعلىٰ كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومندوب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

فواجب القلب منها: التصديق الجازم باللَّه، وبما جاء من اللَّه، علىٰ لسان رسوله ﷺ من كتاب وسنة، تصديقًا لا يشوبه شكٌّ ولا ريب، ولا يعترضه تشكيك في أي شيء من معانيه. ثم المحبة الصادقة للَّهِ التي لا تجعل في القلب مكانًا لغير اللَّه وما نزل من الحق، وتجعله لا يحب إلا ما يحبه اللَّه من أي شخص أو عمل، ولا يبغض إلا ما يبغضه اللَّه في كل شخص أو عمل، ولا يميل مع خلاف ذٰلك ـ ولو كان أقرب قريب ـ، ولا يكون فيه محل للهوىٰ والشبهات. ثم التوكل والإنابة والرغبة والرهبة والصبر في ذات اللَّه علىٰ كل مكروه، والخشية والخوف منه فقط دون ما سواه، فلا يخشىٰ أي دولة، ولا تخيفه أي قوة، ويتدرع بالإخلاص الذي ينجيه من الرياء واتخاذ الأنداد، ومن الكبر والفخر والخيلاء والحقد وغيرها من أمراض القلب... إلىٰ غير ذٰلك من الواجبات القلبية، وأهمها ـ بعد الإخلاص ـ النصح في العبودية.

وأما المندوب: فانشغاله بالذكر القلبي، والتفكر في آيات اللَّه، وتدبر وحيه... إلىٰ غير ذٰلك من المستحبات.

وأما المحرمات التي عليه: فالرياء، وتعظيم الأشخاص، والحب لغير اللَّه، والميل لما يبغضه اللَّه، والكبر، والعجب، والحسد، والغفلة، والتعلق بغير اللَّه من أنواع الشهوات والأنانيات، واليأس والقنوط من رَوح اللَّه، والفرح والسرور بما يؤذي المسلمين، والأمن من مكر اللَّه، وبغض المسلمين أو بعضهم[1]، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم علىٰ ما آتاهم اللَّه من فضله، وتمني زواله عنهم، والحزن بعزهم، وما

---

(١) لا شك أن شعيرة الحُب في اللَّه والبغض في اللَّه تحتم علىٰ المسلم أن يكره العاصي ـ ولو كان مسلمًا مثله ـ، وإنما قصد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بغضَ المسلم من أجل تمسُّكِه بدينه، فهٰذا هو المحرم بلا ريب، وهو في الحقيقة بغض للدين الذي جاء من عند رب العالمين، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

أشبه ذٰلك مما لا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة النصوح منها.

وِأما المكرُوه: فالغفلة البسيطة، والخطرات التي يحصل تمني بعض المحرمات من غير عزيمة، والملل في الجلوس في حِلق الذكر أو المساجد... وما أشبه ذٰلك مما هو دون الحرام القطعي، كالركون القليل إلىٰ الأصوات الغنائية ونحوها.

وأما المباح: فما عدا ذٰلك من كل ما لا يشغل القلب كثيرًا عن اللَّه، ولا يزرع فيه النفاق.

* أما عبودية اللسان:

فالواجب منها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما تجب قراءته في الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلىٰ اللَّه، والصرخة بوجه الباطل حسب المستطاع، وتلفُّظه بالأذكار الواجبة في الصلاة، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، ورد السلام، وتشميت العاطس، والرد علىٰ المشمِّت، وأداء الشهادات المتعيِّنة، والصدق في الحديث، والتكبيرات والتسبيحات الواجبة في الصلاة.

وأما المندوب: فتلاوة القرآن، ومداومة ذكر اللَّه، والصلاة علىٰ رسوله خاتَم النبيين ﷺ، والمذاكرة في العلم النافع(١)، والتسبيح، ثم التكبير في المناسبات، والأمر بالصدقة، والحض علىٰ الخير والدعاء.

وأما المحرَّم: فهو النطق بكل ما يبغضه اللَّه ورسوله؛ من قول الزور،

---

(١) مذاكرة العلم النافع منها ما هو واجب، ومنها ما هو مندوب، فالواجب ما لا يسع المسلمَ جهلُه، والذي ورد فيه الحديث الصحيح: «**طلب العلم فريضةٌ علىٰ كل مسلم**»، أما سوىٰ ذٰلك فهو مستحبٌّ في الأصل، لٰكن قد يرتبط بِهٰذا المستحب ما يجعله واجبًا ـ أيضًا ـ، كأن لا يكون في المكان الذي هو فيه أحدٌ يعرِّف الناس دينَهم، فواجبٌ علىٰ العبد ـ حينئذٍ ـ أن يتعلم ما ليس مفروضًا عليه في الأصل، ليعلِّم الناس دينَهم وما أُنزل إليهم من ربِّهم، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

وشهادة الزور[1]، والنطق بالبدع المخالفة لما أنزل علىٰ الرسول ﷺ، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وقذف المسلم وسبابه ـ ذكرًا كان أو أنثىٰ ـ، والكذب، والغيبة، والنميمة، والسخرية، وإفشاء السر، وإيذاء المسلمين بأي وسيلة، والنطق بما يؤيد المنكر وأهله في سائر النطق بالباطل، والقول علىٰ اللّٰه بغير علم ـ وهو أشنعها ـ... إلىٰ غير ذٰلك من دجل إبليس وحِيَلِه.

والمستحبات من الركوب: الركوب إلىٰ كل فعل مستحب.

وأما الحرام منه: فالركوب إلىٰ أي فعل محرم.

والمكروه منه: الركوب إلىٰ اللهو واللعب، وإلىٰ كل ما تركه خير من فعله.

والمباح: الركوب إلىٰ نيل المباحات التي ليس فيها إغضاب للّٰهِ ولا أشر ولا بطر.

فهٰذه قواعد العبادة المترتبة علىٰ جميع الجوارح والأحاسيس في الأحكام الشرعية، بلغت خمسين مرتبةً علىٰ عشرةٍ من الجوارح والأحاسيس هي: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرِّجل، والفرج، وامتطاء أي مركوب.

وعلىٰ الإنسان أن يجاهد نفسه للّٰهِ في ضبط هٰذه الجوارح والأحاسيس، وأن يحفظها من غزو شياطين الجن والإنس؛ ليأخذ لنفسه وقايةً من نار وقودها الناس والحجارة، وينالُ ما وعده اللّٰه من السعادة والحياة الطيبة في الدنيا، والنصر القريب الموعود فيها من رب عظيم لن يخلف وعده، ويكون من أهل البشارة في الدار الآخرة بما تضمنته الآيةُ المقبلة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ويسلم من مرارة

(١) والفرق بين قول الزور وشهادة الزور: أن القول أعم، فلا يلزم منه أن يكون شهادةً علىٰ أحد، وهٰذا كالإشاعات الكاذبة، والافتراءات المختلَقة، والأخبار الملفقة... ونحو ذٰلك.

التحدي ونقمة اللَّه المنصوص عليها فيما قبلها.

وأما إعجاز القرآن فهو أشهر من أن يذكر، وقد صنف العلماء والأدباء فيه كتبًا كثيرةً أنفع العصري منها ما كتبه المرحوم مصطفىٰ صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن» و«تحت راية القرآن».

وقد أوجز صاحب «المنار» في تفسيره قواعد للإعجاز ينبغي مراجعتها لكل طالب، وهي تحت بضع ضوابط:

١ ـ إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه.

٢ ـ إعجازه ببلاغته.

٣ ـ إعجازه بما فيه من علم الغيب.

٤ ـ إعجاز بالعلوم الدينية والتشريع.

٥ ـ إعجازه بعجز الزمان عن إبطال شيء منه.

٦ ـ إعجازه بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر.

٧ ـ إعجازه بسلامته من الاختلاف.

وقد فصَّل رَحِمَهُ اللَّهُ هٰذه الضوابط، وقرر سلامة القرآن من التعارض والاختلاف والتناقض، وأحال علىٰ ردود لمعارضات سخيفة من أعداء الإسلام في تفسيره ومجلته، فليرجع إليهما.

وأقول: إن المؤمن ـ سليمَ الصدر والقصد ـ لا يرىٰ أي تعارض أو تعقيد، وإنما يرىٰ البيان والشفاء. وأما الكافر فكما أسلفت الكلام يرىٰ تعقيدًا وهميًّا من تعقيد دماغه، لأن قلبه وصدره مريض، وكما يقول الشاعر:

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ ... يجد مرًّا به الماء الزلالا

روىٰ الإمام مسلم عن أبي هريرة، وغيرُه عن عبداللَّه بن مسعود قال: كنا مع النبي ﷺ؛ إذ سمع وجبةً[1]، فقال ﷺ: «**تدرُون ما هٰذا؟**»، قال:

---

(١) **الوجبة**: السقطة.

قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**هٰذا حجرٌ رُمي به في النار منذ سبعينَ خريفًا؛ فهو يهوي في النار الآن حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قعرها**»[١].

وأما العبودية في الشم: ففيها وجوب شم ما يحصل به تمييز حلِّه من حرمته، وخبثه من طيبه، وضرره من نفعه، أو التمييز بين ما يملك الانتفاع به وما لا يملك، وشم صاحبِ الخبرة عند تحكيمه علىٰ شيء... ونحو ذٰلك.

والشم الحرام: تعمُّد شم الطيب وقت الإحرام، وشم الطيب المغصوب أو المسروق، وشمه من النساء الأجنبيات.

وأما الشم المستحب: فشمُّ ما يُعين علىٰ طاعة اللَّه، ويقوِّي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل؛ ولذا استحب النبي ﷺ قبول هدية الطيب كما ورد في «صحيح مسلم»[٢].

والمكروه: شم طيب الظَّلَمَةِ وأصحاب الشبهات، وأما المباح فشم ما فيه نفع من اللَّه، وليس فيه مصلحة تجعله واجبًا أو مستحبًا.

وأما العبودية باللمس:

ففيها ما هو واجب: كلمس الزوجة الواجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها.

وفيه ما هو محرم: كلمس الأجنبيات والمردان.

وفيه ما هو مستحب: كلمس ما يحصل به غض البصر، وكف النفس والأهل عن الحرام.

وفيه ما هو مكروه: كلمس الزوجة للمُحرم والمعتكف والشاب الصائم، ولمس بدن الميت لغير غاسله تكريمًا له، ولمس فخذ الرجل.

وفيه ما هو مباح: كلمس ما ليس فيه مفسدة ولا مصلحة.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٢٥٣).

وكذٰلك في البطش باليد عبودية تشمل أحكام الشرع الخمسة.

فالتكسب للنفقة علىٰ النفس والأهل وقضاء الدين، وأداء ما فرضه اللَّه واجب.

وأما البطش بالاعتداء علىٰ الناس وقتلهم وضربِهم بغير حق ـ ونحو ذٰلك من اللعب المحرم، كالنرد والقمار والشطرنج، وكتابة البدع المخالفة للسنة، وكتابة ما فيه ظلم وزور، وكل ما فيه ضرر بالمسلمين، كالسحر مثلًا ـ؛ فإنه محرم.

وأما المكروه من البطش وحركات اليد: فكل لعب وعبث ليس بحرام ولا فيه مصلحة، وكتابة ما لا فائدة فيه.

والمُستحب من حركات اليد: كتابة كل ما فيه منفعة ومصلحة للمسلمين، ويجب ذٰلك فيما يضطر المسلمين إلىٰ معرفته.

والمباح من حركات اليد: ما سوىٰ ذٰلك ـ مما ليس فيه مضرة ولا مصلحة ضرورية.

* وأما حركات الأرجل:

فالواجب منها: المشي إلىٰ الجمع والجماعات ـ علىٰ القول الصحيح الذي يؤيده بضع وعشرون دليلًا ـ، والمشي حول البيت للطواف الواجب والمفروض، والمشي لتحصيل واجب من واجبات الشرع.

والمُحرم من حركات الرجل: المشي إلىٰ المعصية، وذٰلك من رَجِلِ الشيطان.

* والعبودية في الركوب تجري فيه أحكام الشرع الخمسة:

فالواجب منه: الركوب في الحج الواجب، والجهاد، وطلب العلم الواجب، وما يتوقف عليه بر الو الدين، وصلة الأرحام، وأداء الواجبات.

والمركب الحرام: الركوب إلىٰ معصية، وهي من حيل الشيطان، مثلها مثل الرجل الماشية إلىٰ الحرام. قال تعالىٰ عن إبليس: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤].

أما مكروهات اللسان: فالتكلم بما تَركُه خير من النطق به في فضول الكلام، مما لا عقوبة فيه، ولٰكنه يشغل اللسان، ويحرم صاحبه من تحصيل الأجر.

وأما المباح من أعمال اللسان: ففيه خلاف بين العلماء:

أحدها: أنه لا يخلو ما يتكلم به الإنسان: إما أن يكون له، أو عليه، أو ليس في حقه شيء ـ لا له ولا عليه ـ. واحتجوا بالحديث المروي عن رسول اللَّه ﷺ: «**كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له؛ إلا ما كان من ذكر اللَّه، وما والاه**»[١].

ثانيها: أن فيه كلامًا مباحًا ـ لا له وله عليه ـ؛ كالتكلم العادي الذي لا يهدف لخير ولا شر، ولا يمس من كرامة أحد، والأقاصيص غير الهادفة لشيء من ذٰلك، وإنما فيها التفكه والتسلية، فهٰذا ـ مع عدم الإكثار ـ لا بأس به، أما إكثاره فمكروه.

وقد ورد عنه ﷺ: «**أن ابن آدم إذا أصبح فإن أعضاءه تُكفِّرُ اللسان**[٢]؛ **تقول: اتق اللَّه؛ فإنما نحن بك، فإنِ استقمت استقمنا، وإنِ اعوججتَ اعوججنا**»[٣].

وورد عنه ﷺ في حديث معاذٍ رضي الله عنه: «**وهل يَكُبُّ الناسَ في النار علىٰ وجوههم ـ أو علىٰ مناخرهم ـ إلا حصائدُ ألسنتهم**»[٤].

وللعلماء بحث طويل في اللسان ليس هٰذا موضعه فليراجعه من أراده في شروح الأحاديث وكتب السلوك.

وأما العبوديات الخمس علىٰ الجوارح فعلىٰ خمس وعشرين مرتبة؛ لأن الجوارح خمسة، وعلىٰ كل منها خمس عبوديات:

---

(١) رواه التِّرمذي (٢٤١٢)، والحاكم (٢/٥٥٧).

(٢) **تكفِّر**: تخضع له وتذل.

(٣) رواه أحمد (٣/٩٥)، والتِّرمذي (٢٤٠٧).

(٤) رواه أحمد (٥/٢٣١)، والتِّرمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

فعلى السمع: وجوب الإنصات لما أوجبه اللَّه ورسوله عليه؛ من استماع قراءة القرآن، والبحث في فرائض الإسلام والإيمان وحدودهما، واستماع خطبة الإمام في الجمعة، وقراءته في الصلاة ـ علىٰ خلاف في ندبها أو وجوبها ـ. ويجب الإصغاءُ والإنصات إلىٰ دعاة الدين الذين يعلِّمون الناس محاسن الإسلام وطرق الدعوة إليه.

ويُندب الإنصات والاستماع لقراءة التفسير للقرآن والحديث والأذكار المشروعة وشروحها، وكل ما فيه نفعٌ زائد علىٰ الواجب، كما يُندب الاستماع للعلم النافع وكل ما يحبه اللَّه.

ويحرم الإصغاء والاستماع إلىٰ كلمات الكفر والبدع، إلا إذا كان فيه مصلحةٌ راجحة من الرد علىٰ قائله أو الشهادة عليه، وكذٰلك الاستماع إلىٰ حديث قوم وهم له كارهون ـ ما لم يكن في كلامهم ضرر علىٰ المسلمين لا يجوز الجهل به والتغاضي عنه ـ؛ فإنه لا يحرم، أو يكون فيه مؤامرة ضد مسلم يجب نصحه للتخلص من شرهم، وإلا فيحرم كما يحرم أصوات الأجنبيات مع خشية الفتنة ـ دون موجبٍ للرخصة في شهادة أو معاملة أو محاكمة أو سبب مبيح ـ، وكذا استماع المعازف والأغاني الماجنة التي تحدث الفتنة باستماعها، وتغري علىٰ ارتكاب الفاحشة.

ولا يجب عليه سد أذنه عن السماع ـ إذا لم يكن قاصدًا الاستماع ـ إلا عند الخوف الحقيقي الشديد سدًّا للذريعة.

ويُكره الإنصات والاستماع إلىٰ لهو الحديث الذي يَشغل عن استماع الخير بلا فائدة.

ويباح ما عدا ذٰلك.

وأما العبودية على البصر: فالنظر في المصحفِ وكُتب العلم عند تعين الواجب منها، والنظر الذي يحصل به تمييز الحلال من الحرام مما يؤكل أو يشرب أو يستمتع به، والنظر الذي يميز به الأمانات

الواجب أداؤها ونحو ذٰلك.

ويحرم النظر إلىٰ الأجنبياتِ مطلقًا بدون حاجةٍ شرعية.

ويكره النظر إلىٰ كل شيءٍ محرَّم يُغري علىٰ تناوله، وكذٰلك يحرم النظرُ إلىٰ العوراتِ بطريق الأولىٰ.

ويكره استراق النظر من شقوق الأبواب، ومن فُقئت عينه لذٰلك فلا دية فيها[١].

ويجب غض البصر عن كل ما حرم اللَّه.

ويُندب النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها يقينًا وإيمانًا ومعرفة، والنظرُ في آيات اللَّه المشهودة ليقوِّي توحيده.

ويُكره فضول النظر الذي لا مصلحة فيه من الزخارف الفاتنة التي تجعله يحتقر نعمة اللَّه عليه.

ويُباح النظر إلىٰ ما لا ضرر فيه، ونظرة الفجأة الأولىٰ دون الثانية، فإن الثانية محرمة.

وأما التعبُّد في الذوق: فيجب منه تناول الطعام والشراب عند الاضطرار وخوف الموت، لأن للَّهِ حقًّا في نفسه، ولو صام وأضرب عن الطعام والشراب حتىٰ مات؛ فإنه يكون قاتلًا لنفسه؛ كصيام الماديين باسم الوطنية، فإنه مخالف للدين يأثم صاحبه أعظم الإثم. وكذٰلك تناول الدواء الموصوف للمرض واجب عليه، ومع ظن الشفاء مستحب.

ويحرُم عليه تذوق كل مسكر ومخدِّر ومفتِّر[٢] والسموم القاتلة، وما

---

(١) لما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لو أن رجلًا اطلع بغير إذنك، فخذفتَه بحصاةٍ، ففقأت عينه، ما كان عليك جُناح**». رواه البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨). وفي روايةٍ في «المسند» (٢/٣٨٥)، و«سنن النسائي» (٤٨٦٠): «**مَن اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، ففقؤوا عينه، فلا دية له، ولا قصاص**». وانظر: «المسند» (١٤/٥٤٥).

(٢) **المُفتِّر**: الذي يبعث الفتور والخَدَر في الأعضاء.

يفسد صومه الشرعي ـ إن كان صائمًا صومًا واجبًا ـ.

وأما المكروه: فتذوق المشتبهات، والأكل المسرف فوق الحاجة، وطعام الطفيلي(١)، وأطعمة المرائين والمراهنين ونحوهم(٢).

والتذوق المستحب: أكل وشرب ما يعينك علىٰ طاعة من حلال والأكل مع الضيف، وفي طعام صاحب الدعوة المستحب قبولها.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

فيه عدة فوائد:

أحدها: اقتضت حكمتُه ﷻ في وحيه المبارك: أن يقرن الإنذار والوعيد بالوعد والبشارة، ليستحث عباده علىٰ طاعته، والتنافس في نيل وعده، والابتعاد عن وعيده، وليسُد عنهم منافذ القنوط. فبعد إنذاره للكافرين المعاندين بنار وَقودها الناس والحجارة ثنّىٰ ﷻ ببشارة المؤمنين ـ الذين صَدَّقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ـ بِهٰذه البشارة العظيمة.

ثانيها: التبشير في أصل اللغة: هو الإخبار بما يغيِّر البشَرة، ذٰلك أن ظاهر وجه الإنسان يتغير بالخبر، فإن كان الخبر سيئًا اسود وانقبض، وإن كان الخبر طيبًا تَهلَّل وتغيرت أساريره بالحسنىٰ من الاستبشار.

ثالثها: لم يذكر متعلَّق الإيمان لأنه معروف في المصطلح الشرعي الذي نزل الوحي من أجله، ذٰلك أن الإيمان هو الإيمان باللَّه عن صدق ويقين وإخلاص، وحب وتعظيم، ووقاية وخشية، ورهبة ورغبة ورجاء.

---

(١) الذي يتطفل علىٰ موائد الناس، فيدخل مع المدعوين بغير استئذانٍ ليأكل.

(٢) يقصد أن تذوق أطعمة المرائين والمراهنين حرام، وإلا فالمراؤون والمراهنون أنفسهم طعامُهم حرام. واللَّهُ أعلم.

ويستلزم القيام بالأوامر واجتناب النواهي.

رابعها: قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فيه الرد الواضح علىٰ من زعم أن الإيمان مجردُ التصديق، وأن الأعمال ليست داخلةً في مسمىٰ الإيمان وماهيته[١] من كل أفاك أثيم، كذاب لئيم، يزعم أن الإيمان بالقلب، وهو شاردٌ عن اللَّه، مضيع لأوامره، نابذ لوحيه ظهره.

وقد سبق تفنيد هٰذا القول، وأنه لو كان الإيمان مجرد التصديق؛ لكان النمرود الطاغية، وفرعون المتأله مؤمنَين! بل لا يتصور ـ مع هٰذا القول ـ وجود رِدَّةٍ ولا نفاق، والعياذ باللَّه من سوء القول، وفساد التصور.

خامسها: الأعمال الصالحة هي كل ما يحبه اللَّه ويرضاه؛ من أركان الإسلام وشعب الإيمان الصادرة عن صدق وإخلاص وحسن متابعة للمصطفىٰ ﷺ.

سادسها: أمر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ أن يبشر المؤمنين العاملين الصالحات بأفضل الجنات، وهي ما كانت أنهارها جاريةً من تحت أشجارها.

سابعها: قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ يعني: كلما قدَّم لهم الغلمان المخلدون من صنوف الفواكه قالوا: هٰذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، أو: هٰذا الذي وُعدنا به في الدنيا؛ لأن ما في الجنة من الفواكه يتفق مع ما في الدنيا في الأسماء والألوان، لٰكنه يختلف من حيث الطعم واللذة؛ ولذا حسُن تأويل ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: وُعدنا به من قبل في الدنيا.

ثامنها: قوله تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ﴾: إما أن يكون متشابِهًا في اللون مختلفَ الطعوم، أو متشابِهًا في الاسم مختلف الطعوم، أو متشابِهًا في الأسماء والألوان ومختلف الطعوم، أو أنه متشابه فيما وعدوا به من صنوف الثمار والنعيم، فجميع ما سبق يؤدي المعنىٰ المطلوب.

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ: «**يقول اللَّه: أعددتُ لعبادي الصالحين**

---

(١) **الماهية**: الحقيقة.

ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر»[(١)].

تاسعها: ذكر الجنات مشفوعًا بالأنهار الجارية يدل ـ كما بينا سابقًا ـ علىٰ أن أنزه البساتين وأكرمَها ما كانت أشجارها مُظِلَّة والأنهار خلاله مطردة. هٰذا إذا كانت كلها ماءً، فكيف بك إذا كانت الأنهارُ متنوعة، كما ذكر اللَّه عن أنهار الجنة من أنها أربعة:

أحدها: نَهرٌ من ماءٍ غير آسن.

ثانيها: نَهرٌ من لبن لم يتغير طعمه.

ثالثها: من خمر لذةٍ للشاربين بلا سُكرٍ ولا غَول[(٢)].

رابعها: من عسل مصفىٰ.

هٰذه الأنهار النظيفة السليمة جعلها اللَّه لذوي القلوب السليمة.

عاشرها: كون ما يؤتونه من الثمار الشهية متشابِهًا؛ لأنه أجلب للسرور، وأزيدُ في التعجب، وأظهر للمزيَّة والفضل، ولهٰذا كانوا يرددون هٰذا القول كلما رُزقوه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾.

حادي عشرها: أطلق اللَّه الطهارة علىٰ الأزواج في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ لتشمل الطهارةُ كل أنواعها الحسية والمعنوية؛ فهن طاهرات مما ينتاب نساء الدنيا من الحيض ونحوه حتىٰ المخاط والبصاق، وطاهرات من التطلُّع لغير أزواجهن، ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرَّحمٰن]، كما أنَّهن طاهراتٌ الأخلاق، فلا يجري منهن ما يكدِّر الأزواج مما يحصل من نساء الدنيا[(٣)]، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في وصفهن: «نقياتٌ من القذىٰ والأذىٰ».

ثاني عشرها: في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إتمام من اللَّه

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٩، ٤٧٨٥)، ومسلم (٤٢٨٢).

(٣) مثل الصوت العالي، والجدال والخصام، وعدم إطاعة الأوامر، والنظر القبيح... إلخ.

لسعادتِهم، فهم فيها لا يموتون، وما هم منها بمخرَجين، فالخلود هو غاية المطلب الذي يطمئن صاحبه إلىٰ مستقبله، وقد أكرمهم اللَّه بذٰلك.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

المعنىٰ: أنه ليس الحياء بمانع للَّه ﷻ من ضرب الأمثال بهٰذه المخلوقات الصغيرة الحقيرة في نظركم أيها الكفار والمنافقون ـ كالبعوض، والذباب، والعنكبوت ـ؛ فإن فيها من دلائل القدرة، وبدائع الصنعة، ما يحير العقول، ويشهد بحكمة الخالق؛ فإنه كما لم يستنكف عن خلقها، فلا يستنكف عن ضرب المثل بها، كما ضرب بالذباب في الآية (٧٣) من سورة «الحج»، وبالعنكبوت في الآية (٤١) من سورة «العنكبوت».

وذٰلك أن اللَّه سبحانه لما ضرب للمنافقين المثلَين السابقين ـ المثل الناري فيمن استوقد نارًا، والمثل المائي كصيب من السماء ـ، قالوا: اللَّه أعلىٰ وأجل من أن يضرب الأمثال. كما أن الكافرين لما سمعوا بضرب المثل لآلهتهم بالذباب، والعنكبوت قالوا: أي شيء يَصنع في ذكر ذٰلك؟ وهم يقصدون نسبة القرآن ـ الذي تضمن هٰذه الأمثال ـ لمحمد ﷺ لا إلىٰ اللَّه، فأنزل اللَّه هٰذه الآية مبينًا أن ما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء ـ من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل ـ ليس بموضع الاستنكار والاستغراب؛ لأن التمثيل يصار إليه لما فيه من كشف المعنىٰ، ورفع الالتباس، وتقريب البعيد إلىٰ الأذهان.

فإن كان الممثَّل عظيمًا كان الممثَّل به مثله، وإن كان حقيرًا كان

المشبَّهُ به حقيرًا.

ولما كان المعبود من دون اللَّه أحقرَ وأعجز من أن يخلق الذباب، بل لا يستطيع استرجاع ما سلبه الذباب منه، ساغ ضربُ المثل بالذباب، وكذٰلك القول في العنكبوت وغير ذٰلك من التمثيل الصادق في القرآن، ولٰكن القوم ظنوا أنهم وجدوا في ذٰلك حجةً للتشكيك بنزول القرآن علىٰ محمد ﷺ زاعمين أن اللَّه لا يضرب مثل هٰذه الأمثال. وهٰذا من فرط جهلهم، وشدة لعب الشيطان بعقولهم.

وليس في ضرب الأمثال منقصة، بل علىٰ العكس من ذٰلك كما قال تعالىٰ في الآية (٤٣) من سورة العنكبوت: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم إن للَّهِ حكمة في ذٰلك وهي تمييز الخبيث من الطيب، وظهور علمه فيه! واضحًا للمؤمنين، ولذا قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لأن إيمانهم باللَّه يجعلهم يتقبلون كل ما يصدر عنه برحابة صدر وانشراح خاطر، فيسلمون له تسليمًا كاملًا، لاعتقادهم أحقيته وكفايته، وانفتاح قلوبهم المفطورة من اللَّه علىٰ مداركه، وثقتهم بوجود الحكمة في كل ما يصدر من ربِّهم.

وأما الصنف الثاني من الكافرين والمنافقين: وهم الذين غشَّىٰ الجهلُ علىٰ بصائرهم، وانحجب عنهم نورُ اللَّه لانقطاع صلتهم به، يتساءلون عن خبث وتشكيك، فيقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ يقصدون الإنكار والتشكيك بلفظ الاستفهام لقلة أدبهم مع اللَّه ﷻ، وحرصهم علىٰ الصد عن سبيله. وهٰكذا يذهبون إلىٰ إنكار ضرب الأمثلة والقياس في القرآن، في حين لا ينكرونها علىٰ أنفسهم ولا علىٰ الناس.

وفي الآية إشعار بنسبة الحياء إلىٰ اللَّه ﷻ، وقد صح الحديث بذٰلك[1]، ومذهب السلف إمرارُ[2] هٰذا وأمثاله علىٰ ما ورد بدون تأويل

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٦٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٦).

(٢) يقصد الشيخ رحمه الله: الإمرار بعد الإقرار بحقيقتها. ولم يقصد بالإمرار أنها غيرُ =

ولا تعطيل ولا تشبيه ـ بل مع اعتقاد التنزيه ـ؛ لأنهم لا يقيسون صفاتِه علىٰ صفات المخلوقين كشأن الخلَف الذين أضاعوا أوقاتهم فيما لا طائل تحته.

هٰذا؛ وللأمثال شأنٌ عظيم في إحقاق الحق وإظهار زيف الباطل، فهي مشكاة الهداية ونبراسها، وميزان البلاغة وقسطاسها المستقيم.

قال العلامة عبدالقاهر الجُرجاني ـ إمام البلاغة ـ: «اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورتها الأصلية إلىٰ صورته، كساها أُبَّهةً، وأكسبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها.

فإن كان مدحًا، كان أبْهىٰ وأفخم، وأهز للعطف وأجلب للفرح، وأغلب علىٰ الممتدِح، وأوجب شفاعة للمادح، وأولىٰ أن تعلقه القلوب.

وإن كان ذمًّا كان مسه أوجع، وَمِيْسَمُه ألذع[1]، ووقعه أشد.

وإن كان حِجاجًا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانُه أبْهىٰ.

وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد، وشرفه أَجَدَّ، ولسانه ألَد.

وإن كان اعتذارًا كان إلىٰ القبول أَقرب، وللقلوب أَخلَب، وللسخائم أَسل[2]، وللغضب أقل، وعلىٰ حسن الرجوع أَبعَث.

وإن كان وعظًا كان أشفىٰ للصدر، وأدعىٰ إلىٰ الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يبرئ العليل، ويشفي الغليل». انتهىٰ باختصار.

ولذٰلك فالمؤمنون يعلمون أنه الحق، فيؤمنون به، ويذعنون له، فتزداد قلوبُهم نورًا علىٰ نور، ويزدادون أجورًا، وأما الكافرون فيزدادون ريبةً وانحرافًا، وهٰذه حكمة اللّه من ضرب الأمثال، كحكمته من ذكر

= مفهومة المعنىٰ.

(١) **المِيسم**: العلامة. والمراد: الضرب.

(٢) **السَّلُّ**: الإخراج بلطف.

خزنة النار ـ كما سنوضحه إن شاء اللّٰه ـ، ولذا قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾، أي من المنافقين والكافرين ممن يزدادون ضلالًا فوق ضلالهم، ورجسًا إلىٰ رجسهم، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ من المؤمنين المستحقين الهداية، الطالبين ثواب اللّٰه، الخائفين من عقوباته.

فهٰذه الأمثال المضروبة ينتفع بها الذين يقدرون الأشياء بغاياتها، ويزداد المنكرون لها ضلالًا، وما سبب ذٰلك إلا الفسوق الذي يجرُّ صاحبه إلىٰ أفظع دركات الشرك والضلال، ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن هداية اللّٰه وطاعته.

فالفسقُ في اللغة هو الخروج، ويسمىٰ الكافر فاسقًا، لخروجه عما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، وفي ذٰلك إيماءٌ إلىٰ أن علة إضلال الفاسقين خروجُهم عن السنن الكونية التي جعلها اللّٰه عبرةً لمن تذكر، فقد انصرفت أنظارهم عن التدبر في حكمة الأمثال إلىٰ حقارة المُمثَّلِ به، لعمايتهم عن صحة الانطباق الظاهرة، التي لا تخفىٰ إلا علىٰ عُمْيان البصيرة من عبَّاد الهوىٰ.

وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف بالمصطلحات الفقهية من العصاة، فإنها اصطلاحاتٌ حادثة لا يصح تأويلها لمدلول التنزيل، فإن الفاسقين في القرآن هم الكافرون، لرسوخ الضلال في قلوبهم وأعمالهم وأحوالهم، ولذا وصفهم اللّٰه بما يفيد غاية الكفر، من ثلاثة أصول فظيعة قبيحة:

أحدها: قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، والعهد المجمل هنا يشمل العهد الفطري، والعهد الديني الموثَّق من اللّٰه توثيقًا حسيًّا ومعنويًّا:

ـ فعهد اللّٰه الفطري هو ما رُكب فيهم من العقول والأحاسيس، التي يدركون بها السنن الكونية، ويعرفون بها صدق ما جاءت به الرسل.

ـ أما عهده الديني فهو الوحي الذي جاءت به الرسل، مؤيدةً بالحجج

والبراهين، وآخرهم محمد ﷺ.

ونقض العهد الفطري هو سوء استعمال ما وهبهم اللَّه من الأحاسيس والأفئدة، حتىٰ كان لهم قلوب لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها.

ولأهل الكتاب نصيبٌ فظيع من نقض عهد اللَّه بعد ميثاقه، لأنه أخذ عليهم العهد في التوراة علىٰ العمل بها، وعلىٰ الإيمان بمحمد ﷺ، الموصوف فيها بأوصاف جعلتهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فعهد اللَّه الديني مكرر توثيقه علىٰ اليهود، فأصبحوا ناقضين لعهود اللَّه جميعها، وكافرين بالتوراة، لكفرهم بالقرآن.

أما كفار هٰذه الأمة ومنافقوها، فقد نقضوا عهد اللَّه الفطري المشار إليه في الآيتين (١٧٢، ١٧٣) من سورة «الأعراف»، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

وهٰذا العهد الفطري لا يقدرُ كافرٌ علىٰ التهرب منه بأي وسيلة، لأن اللَّه جعله[1] فيما يذكره إياه من آياته الكونية والنفسية، التي تراها عينه، وتسمعها أذنه، ويبصرها قلبه.

ثم نقضوا العهد الديني المدعَّم بوحي عظيم، يصور لهم ما غاب كأنه مشاهَد، ويخبرهم بأحوالِ الأمم الماضية ما كانوا يجهلون قبله تمام الجهل، كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

فهٰذا [هو] العهدُ الذي أقامته الرسل علىٰ أممهم وآخرهم محمد ﷺ.

ثم نقضوا العهد الثالث، عهد القرآن بنبذه وراء ظهورهم، واطراحهم لجميع ما فيه. وقد قال ﷺ: «**إن هٰذا القرآن حبل اللَّه المتين ـ** يعني:

---

(١) في المطبوع: جعل، ولعل الأصح ما أثبتناه.

عهده ـ والنورُ المبين، والصراطُ المستقيم، والعلمُ النافع لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لمن اتبعه»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل اللَّه هو القرآن بلا خلاف، وقد قضىٰ اللَّه بحصول الشِّقاق علىٰ من تولىٰ عنه، كما سيأتي بيانه عند الكلام علىٰ الآية (١٣٨) من هٰذه السورة.

فالكفار والمنافقون ـ في كل وقت ـ قد نقضوا عهود اللَّه جميعها؛ فهٰذا هو سبب إضلالهم، لأن نور الفطرة قد انطفأ من قلوبهم، ومن اتصف بِهٰذه الصفات المذكورة في هٰذه الآية، فإن كل ما ينزله اللَّه عليه من الوحي أو يمتحنه به من ضرب الأمثال أو غيرها، يكون سببًا في إضلاله؛ لأنه لا يتبصر بها فلا يقف علىٰ المقصود، ولا يتفكر في وجه الحكمة فيه، بل يلجأ إلىٰ الشبهات في تقرير المجمل بالباطل، وإلا فليس اللَّه خالقَ الضلال والكفر(٢)، وقد أوضح الإمام الرازي في «تفسيره الكبير» هٰذه الحقيقة، ورد علىٰ القدرية والجبرية، وقرر الحق في ذٰلك بكلام حسن، فليراجع في صفحة (١٣٧ ـ ١٤١).

والثاني من أصول ضلالهم: أنهم: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، فهم أولًا نقضوا حبل اللَّه المحكم الطاقات، الموثَق الفتل بنبذهم وصاياه في وحيه، ورفضهم لتشريعاته، وتفريقهم بين رسله، وهم ثانيًا قطعوا هٰذا الحبل المتين الذي تحصل له الصلة بين الوشائج البشرية، وتحقق به الوحدة الأخوية بين شعوب الأرض جميعها لو لم يقطعوه،

---

(١) **ضعيف**: وقد سلف تخريجه في الجزء الأول.

(٢) لعل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد أنه ليس بخالق الضلال والكفر فيهم منذ مولِدهم! لأنهم وُلدوا علىٰ فطرة التوحيد، وإنما جلبوا لأنفسهم أسبابَ الكفر والضلال لما بلغوا واختاروا الكفر علىٰ الإيمان، وحينها خلق اللَّهُ تعالىٰ هٰذا في قلوبِهم، إذ قد تقرر في العقيدة الصحيحة أنه لا خالق إلَّا اللَّه ﷻ ـ سواءٌ للخير أو للشر ـ، والعلمُ عند العليم الخبير.

فكلمة «ما» هي من أدوات العموم، وتستعمل في الخبر والاستفهام للعاقل وغيره، ولذا عبَّر اللَّه بها لشمول قطعهم جميع أنواع القطيعة، فإنهم قاموا بكل قطيعة لا يرضاها اللَّه، كقطيعة الرحم التي بينهم وبين المصطفىٰ ﷺ، والتي بينهم وبين المؤمنين المجاورين، مع أنه سبحانه وتعالى أوجب علىٰ أتباع الأنبياء أن يكون الحبلُ موصولًا بينهم وبين المؤمنين؛ فقطعه المنافقون وأهل الكتاب عنهم، واتصلوا بكل كافر، فكل من أعرض عن موالاة المسلمين المؤمنين في كل زمان ومكان، فقد قطع ما أمر اللَّه به أن يوصل، من الميثاق الإسلامي، حبل اللَّه الذي يربط العربي بالعجَمي، والمشرقي بالمغربي، والأبيض بالأسود، وبجميع الملوَّنين الذين من نابذ نوعًا منهم فقد قطع ما أمر اللَّه به أن يوصل.

ومما ينبغي معرفته في كل ميدان من ميادين الحياة: هو أن جميع ما فيه رفض خير أو فعل شر؛ فإنه يقطع ما بين اللَّه وبين صاحبه من الصلة التي هي المقصودة بالذات من كل وصل وفصل؛ لأن العامل للخير يجلب الخير علىٰ عباد اللَّه في أي شأن من شؤون الحياة، والعامل علىٰ الشر يجلب عليهم الشر.

وأعظم صلة يأمر اللَّه بوصلها هي صلة العقيدة الإسلامية، والأخوة الإيمانية بين جميع البشر ـ علىٰ اختلاف أجناسهم وألوانِهم وتباعُدِ أقطارِهم ـ، والجناية علىٰ هٰذه الصلة ـ فضلًا عن قطعها ـ تكون أعظم من كل جريمة، والعاملُ علىٰ فتنة المسلمين عن هٰذا المبدأ الأخوي العام إلىٰ أخوة محدودة مقصورة علىٰ عنصر أو بلد؛ فإن جريمته أشد من القتل وأكبر، ويكون عمله قرةَ عين أعداء الإسلام من اليهودية العالمية وأذيالها.

ولهٰذا كانت مهمة الماسونية اليهودية: تركيز النعرات القومية لتفتيت الوحدة الإسلامية بشتىٰ أنواع المكر والدجل، وقلب الحقائق، وتشويه التاريخ باختلاق المفتَريات تارةً، وتجسيم الأخطاء تارةً، وبث الحسد

وإلهاب نيران الحقد. وقد تم لهم ما أرادوا؛ بل تحمس لما يريدونه فئام[(١)] من كل بلد ومن كل جنس.

والعجب أنك إذا أمعنت النظر؛ ترىٰ أغلب رؤساء القوميات ليسوا من أهل القومية التي يدْعون إليها ويتحمسون لها، حتىٰ إننا نرىٰ أعاجم ـ من تركي وقبطي وشركسي وبخاري وفرغاني وقُوقازي وأشكالهم ـ يتحمسون للعروبة، ويصنفون في سبيلها ما يهدم ملة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهم لم يبرزوا إلا علىٰ حساب المسلمين، وقد تفيؤوا من فضل أهله ظلًّا ظليلًا، ولٰكن الأيدي الخفية أو القوة الماسونية الخفية تحركهم وتَعِدُهم وتُمنِّيهم، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء].

فكل من انحرفت فطرته لابد أن يتصف بصفات أسلافه المنحرفين؛ الذين شخَّص اللَّه لنا طبيعتهم، وصور لنا نماذج من أصول سيرتِهم في هٰذه الآية الكريمة.

فكل عهد بين اللَّه وبين هٰذا الصنف من الناس فهو منقوض، وكل ما أمر اللَّه به أن يوصل فهو مقطوع، ولهٰذا تفككت العرىٰ، وانحلت الروابط، وحصل التمزق، وأقيمت حدود اصطناعية حتىٰ بين أرباب القومية الواحدة نتيجة الجريمة الأولىٰ ـ التي هي نقض ميثاق اللَّه ـ، وجرَّت قَطْعَ ما أمر اللَّه به أن يوصل. وهٰكذا الجريمة تجر جريمةً أخرىٰ أو جرائم عديدة.

والأصل الثالث من أصول كفرهم: الإفساد في الأرض بجميع أنواع الإفساد؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وأعظم فساد وأخطره شيئان يقومون بهما دائمًا ـ هم وورثتهم من المنافقين وتلاميذهم[(٢)] ـ إلىٰ يوم القيامة:

---

(١) **الفئام**: الجماعات.

(٢) في المطبوع: «وهم ورثتهم في المنافقين وتلاميذهم». ولعل الأصح ما أثبتناه.

أحدهما: إهمال هداية العقل وهداية الدين، وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج وبين المطالب والأدلة والبراهين.

ثانيهما: صدهم عن سبيل اللَّه إلىٰ ما يريدونه في كل باطل، وما ينتحلونه من مبادئهم العصبية ومذاهبهم المادية، وما يقومون به من الإغراء علىٰ الفواحش، وتحبيب المنكرات باسم التطور والمدنية، وما يقومون به من عداوة الأمر بالمعروف وأهله، فهم الفاسدون بأنفسهم، المفسدون لغيرهم في كل مَن تمكَّنوا من إفساده، سواء في العقيدة أو في الأخلاق.

ولذٰلك قضىٰ اللَّه تعالىٰ عليهم بالخسران، وحصره فيهم حصرًا بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ الذين لهم الخزي في الدنيا: خزي الذل، وخزي الفرقة والشقاق، وخزي البؤس والإرهاب والفتك؛ الذي يحصل عليهم بتقلب الحكَّام والثورات المتلاحقة، وضياع الطاقات، وجميع معاني التعاسة التي دعا عليهم بها الرسول ﷺ، ثم الخزي في الآخرة، يوم يقوم الأشهاد.

فحظوظهم منحصرةٌ في الخسران بجميع أنواعه؛ حكمًا من اللَّه الذي لا مبدل لكلماته، يُبصره ذوو البصائر السليمة، ويخفىٰ علىٰ من يغتر بالمظاهر، يرونهم متمتعين باللذات والشهوات؛ فيحسبون أنهم في سعادة يغبطون عليها، ولو سَبروا الأغوار[1]، وابتلَوا الأخبار؛ لأدركوا ما هم فيه من الإزعاج والإرهاق والحسرات وظلمة النفوس وفساد الأخلاق، ووحشة الصدور والتهابها بأنواع الحقد المتجدد، واستيلاء الأوهام والجشع المسعور، وانعكاس المقاصد عليهم من كل ناحية. فأعمالهم جميعًا هدم لا بناء، وإفساد لا إصلاح، وتخريب متواصلٌ للأرض وللناس.

وبعدُ، فإن بُيِّن سبب ضلال الفاسقين من نقضهم ميثاق اللَّه ـ الذي

---

(١) أي: غاصوا في أعماق الأمور.

هو الحجة القائمة على عباده، والذي يكررونه مع اللَّه؛ حيث حكى عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر]، وبقولهم: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص]، فنقضوا جميع عهود اللَّه الفطرية والشرعية، وأنهم قطعوا ما أمر اللَّه به أن يوصل؛ وخصوصًا وَصلُ حبلهم بحبل المؤمنين؛ فعكسوا الأمر، ووصلوه بحبل الكافرين، وتمادوا بعداء المؤمنين والإفساد في الأرض ـ؛ فلا عجب إذا صاروا يَضلون حتى بما هو سببٌ من أشد أسباب الهداية تأثيرًا؛ وهو القرآن الذي يصرِّفُ اللَّه فيه من أنواع الحكم والأمثال والوعد والوعيد وأنباء الغيب والسنن الكونية لعلهم يذَّكَّرون، ولٰكنْ ـ لرسوخهم في الفسق ونقضهم العهود ـ؛ صاروا كالمنطبعين في الضلال.

واللَّه سبحانه قد وَثَّق العهد الفطري بجعل العقول ـ بعد الرشد ـ قابلة لإدراك السنن الكونية في الخليقة، ووثَّق العهد الديني بما أيد أنبياءه ورسله من الآيات الباهرة الخارقة والتشريعات المحكمة، وقد ربط العهد الأول بالثاني؛ فمن أنكر الرسل، ورفض الاهتداء بهديهم، ولم يحترم أتباعهم: فهو فاسق عن سنن اللَّه في تقويم البنية البشرية وإنمائها بالروحانيات المكمِّلة لإنسانيتها، المفضلة على الملائكة؛ فيصبح ناقضًا لعهد اللَّه، قاطعًا ما أمر اللَّه به أن يوصل، فتنقلب جميع أحواله إلى الفساد والإفساد الذي لا يمكنه الخروج منه؛ لفساد فطرته، ومروج[١] عقله وتصوراته.

ثم إن هاهنا مسائل:

الأولى: قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾:

أشعرت هٰذه الآية الكريمة بمساواة المؤمنين مع الضالين في الكثرة، والمؤمنون قليلون بالنسبة إليهم حسًّا وشرعًا؛ كما قال تعالى:

---

(١) المُروج: الاختلاط والاضطراب.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ]، إلىٰ غير ذٰلك من نصوص الوحي؛ فلِم جُعلوا في هٰذه الآية كالضالين في الكثرة؟.

والجواب ـ علىٰ ما حققه كبار المفسرين ـ: أن الحكمة في التسوية تفيد أن المؤمنين المهتدين ـ علىٰ قلتهم ـ أجلُّ فائدةً وأكثر نفعًا وأحسن آثارًا من أولٰئك الكفار والضالين علىٰ كثرتهم؛ لأن المؤمنين ـ كما قيل ـ:

ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوَتوا ... لدىٰ الفضل حتىٰ عُدَّ ألفٌ بواحدِ

ولذٰلك جعل اللَّه الواحد منهم في القتال مقام عشرةٍ في حال القَوة والعزيمة، ومقام اثنين في حال الضعف. ولقد كان من آثار ذٰلك العدد القليل في المؤمنين الأولين سيادتُهم لجميع العالمين.

الثانية: في تقديم الإضلال علىٰ الهداية في قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

قالوا: لأن سببه ومنشأه من الكفر، وأنه متقدم علىٰ بعثة محمد ﷺ.

وبعضهم قال: متقدمٌ علىٰ نزول القرآن، وإنما جاءت الآيات المبينة بالأمثال لإخراجهم مما كانوا عليه من ظلمات الباطل إلىٰ نور الحق، ولٰكنها زادت الفاسقين رجسًا إلىٰ رجسهم؛ لأن نور الفطرة قد انطفأ من صدورهم بما جنوا عليه من التمادي بالباطل ونقض عهود اللَّه العظيمة، وقطعهم ما أمر اللَّه أن يوصل من التصديق بمحمد ﷺ، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، ومن مخالفة أقوالهم لأعمالهم فلم يصلوه، ومن تكذيبهم بالأنبياء السابقين الذين أُمروا بالإيمان بمحمدٍ ﷺ وصِلته بالإعزاز والنصرة(١)، فقطعوه بالانتقاص والخذلان، ومن صلة الرحم والقرابة بينهم وبين المؤمنين من عشيرتِهم، فقطعوها ببغضهم وعداوتهم علىٰ الإسلام، ومن قطع الصلة الكبرىٰ في الدين الذي يوجب الحب للَّه والموالاة في

(١) كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

اللَّه، فعكسوا الأمر، فهم ـ والعياذ باللَّه ـ يضيعون حق الخلق ـ كما ضيعوا حق الخالق ـ، وهٰذا من ضروب الإفساد في الأرض.

وقال بعض المفسرين: إن في الآية لفًّا ونشرًا؟ لأنه تعالىٰ ذكر الضلال أولًا وهو للفريق الثاني الفاسق، والهدىٰ ذُكر آخرًا وهو للفريق الأول. واللَّه أعلم.

فصل:

وإذا كان النقضُ في اللغة العربية هو «إفساد ما أُبْرِم» ـ سواء كان الإبرام حسيًّا أو معنويًّا؛ فإن نقض عهد اللَّه أو عهوده الفطرية والشرعية نقض لما أبرم إبرامًا معنويًّا وإفساد له ـ، علمنا أنهم بإفساد هٰذا المبرَم إفسادًا معنويًّا قد تسببوا إلىٰ جميع أسباب الفساد والإفساد الحسِّي والمعنوي، فإنه بخروجهم عن سنة اللَّه، وإفسادهم ما أبرمه اللَّه من العهد الفطري فَسَدت عقولهم، ومن فسد عقله فسدت جميع تصوراته، ومن فسدت جميع تصوراته فلا عجب أن يعبد ما ينحت، بل لا عجب أن يصوِّر من التمر تمثالًا يعبده، فإذا جاع أكله دون أي تفكير أو اعتبار ـ كما فعل ذٰلك عمر بن الخطاب حين الجاهلية لما كان مشركًا ـ، وهو عمر المشهور في الجاهلية بشجاعته وفراسته، لٰكن فساد التصور جعله يتردىٰ بعقليته إلىٰ هٰذه الحال المضحكة التي لم يشعر بسخافتها إلا بعد الإسلام الذي استنارت به بصيرته رضي الله عنه.

ولا عجب ممن فسدت جميع تصوراته أن يفقد الاتكال علىٰ اللَّه، وأن يقتل أولاده خشيةَ أن يَطعَموا معه، كما أوضح القرآن ذٰلك ونَهىٰ عنه(١)، وهانحن الآن نرىٰ الذي يتبجحون بالعلم والتنور والمدنية؛ ينادون بتحديد النسل خشيةً من عدم كفاية الأرزاق والأعمال في الأرض، ويروِّجون هٰذه السخافة بين الناس بدون تروٍّ! فيا لها من سخافة أشنع

(١) ومن ذٰلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

من سخافة الأوائل الأميين!!.

ومن أفسد المبرم مِن عهد اللّٰه الشرعي، فأخل بالواجبات، ولم يبال بانتهاك المحرمات، فما هٰذا إلا لفساد عقله وفساد وتصوراته، لأنه في الجملة لا ينكر اللّٰه، ولا ينكر فضله، فكيف يعصيه ويخونُه في عهده الشرعي؟! لٰكن فساد التصور يجعله ـ مع هٰذا ـ يحرم ما أحل اللّٰه، ويبيح ما حرم اللّٰه، فيكون علىٰ أشنع حالةٍ من الكفر ـ والعياذ باللّٰه ـ، ثم ينجر بذٰلك إلىٰ قطع ما أمر اللّٰه به أن يوصل، فيحصل الشر المستطير في الفرقة والشقاق، وموالاة الكَفَرة، ومجانبة المسلمين أو معاداتِهم، فتتفرق الصفوف، وتتبدد الطاقات، ويستعلي أعداء الإسلام علىٰ أهله بسبب المنافقين الذين قطعوا ما أمر اللّٰه به أن يوصل من الميثاق الإسلامي الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض ـ علىٰ اختلاف أممهم وشعوبهم ـ؛ فيجعلهم كالجسد الواحد؛ يتألم بعضهم لبعض، ويساعد بعضهم بعضًا، ويزُور بعضهم بعضًا، ويغضب كلٌّ منهم لغضب الآخر، ويثور لكرامته، ويُرخِصُ النفس والنفيس في سبيله لأجل الحب في اللّٰه والبغض في اللّٰه ـ الذي هو لباب الدين وثمرته.

فما أعظمَ جناية المنافقين علىٰ المجتمع الإسلامي بضلالِهم العظيم وفسقهم المبين، الذي جرَّ علىٰ الأمة جميع أنواع الوبال؛ هٰذا زيادةً علىٰ الإفساد في الأرض!!.

فما أعظمَ نعمةِ اللّٰه علينا في تشخيص طبائع الكافرين والمنافقين وتصوير نماذجهم وتوضيح آثارهم الهدَّامة للمجتمع الإسلامي؛ الذي ما زال يواجه شرهم منذ عهد النبوة إلىٰ زماننا هٰذا، الذي تفاقم فيه شرُّهم، وازداد رجسهم وفسادهم، لٰكن باختلاف في الأسماء والمظاهر.

ولا أعظم من فسادهم في فتنة الناس عن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتوجيههم إلىٰ ما يخالفها من مخططات الماسونية التي تولَّىٰ كِبْرَها طواغيت اليهود والنصارىٰ، والتي برز بسببها من يخدم دولة اليهود ـ من حيث

يشعر أو من حيث لا يشعر ـ؛ ذٰلك أن استباحة ما حرَّم اللَّه كفرٌ صريح يُحرم أهله مدد اللَّه ونصره، زد علىٰ ذٰلك أنواع الشر والفسوق والعصيان الذي لا يمكن معه تحقيق جهاد، ولا ثبات في مواطن الجهاد، واللَّه الهادي إلىٰ سواء السبيل.

وقوله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

هٰذه الآية الكريمة متصلةٌ بما قبلها من الآيات، ومرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا، والتساؤل فيها موجه إلىٰ الفاسقين، ومبني علىٰ ما عدد من قبائحهم السابقة لتزايُد السخط الموجب مشافهتهم بالتقريع والتوبيخ، لضلالهم بالأمثال التي هي من أشد أسباب الهداية تأثيرًا، وبنقضهم العهود الموثَّقة، وقطعهم ما أمر اللَّه به أن يوصل، فيوجه اللَّه هٰذا الاستفهام الإنكاري التعجبي، لأن معهم من الآيات لذوي العقول ما يصرفهم عن الكفر ويدخلهم في الإيمان، فيقول سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؟! يعني: بأي صفةٍ من صفات الكفر تأخذون، وبأي شبهة تعتمدون، وحالكم في تلك الموتتين والحياتين تأبىٰ عليكم ذٰلك، ولا تدعُ لكم عذرًا، ولا لشكواكم مجالًا؛ وذٰلك أنكم كنتم أمواتًا فأحياكم. يعني أنكم كنتم قبل هٰذه النشأة الأولىٰ أمواتًا؛ قد انبثت أجزاؤكم في الأرض وفي سائر طبقاتِها الجامدة والسائلة والغازية الهوائية وغيرها، لا فرق بينها وبين أجزاء سائر النبات والحيوان في ذٰلك، إذ لا حياة فيها ولا روح، فخلقكم أطوارًا من سلالةٍ من طين؛ حتىٰ كنتم بالطور الأخير في أحسن تقويم، وفضَّلكم علىٰ غيركم من المخلوقات بالعقل.

وليس معنىٰ إماتتهم الأولىٰ: خروج أرواحهم من أجسادهم ـ كما زعمه بعض المؤولين ـ؛ لأن هٰذا الخطاب ليس موجهًا إلىٰ أهل القبور بعد إحيائهم في قبورهم؛ لأن التوبيخ هنالك يكون توبيخًا علىٰ ما سلف من إجرامهم، وليس له معنًىٰ هنا، إذ التوبيخ هنا توبيخ استعتاب

واسترجاع.

وقد حكىٰ المفسر الكبير أبو جعفر بن جرير الطبري روايات كثيرة عن الصحابة والتابعين؛ أختار منها روايتين مناسبتين للمقام:

أحدهما: عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة والتابعين ﵃؛ قالوا في قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ إلخ، يقول: «لم تكونوا شيئًا، فخلقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة».

ثانيهما: عن ابن عباس في قول اللَّه عنهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، قال: «كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم؛ فهٰذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم؛ فهٰذه إحياءة، ثم يميتكم فتَرجعون للقبور؛ فهٰذه ميتة أخرىٰ، ثم يبعثكم يوم القيامة؛ فهٰذه إحياءةٌ أخرىٰ. فهما مِيتتان وحياتان، فهو كقوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾» انتهىٰ.

وهٰذا هو الصحيح الذي لا يرد عليه من الإيرادات ما يؤبه له أبدًا.

وهنا قول آخر وجيه يؤيد قول من فسر الميتة الأولىٰ بالنطفة، وهو: أن الموتة الأولىٰ مفارقة نطفة الرجل جسده إلىٰ رحم المرأة، فهي ميتة من حين فراقها للجسد الذي خرجت منه إلىٰ أن يحييها اللَّه بنفخ الروح فيها برحم المرأة، فتخرج بشرًا سويًّا، ثم تموت بعد استيفاء أجلها المقدَّر؛ فهٰذه الموتة الثانية، ثم تُحيا حين النفخ في الصور؛ فهٰذه الحياة الثانية.

ووجه مناسبة القول هٰذا تعليلهم بأن كل شيء من ابن آدم حيٌّ ما لم يفارق جسده الحي، وكل ما فارق جسده الحي مات، فكذٰلك نطفته حيةٌ بحياته، فإذا خرجت منه ماتت، حتىٰ يحييها اللَّه ثانيةً في رحم المرأة.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: يقبض أرواحكم التي فيها قوام حياتكم، فتنحلُّ أبدانكم بمفارقتها إياها، وتعود إلىٰ أصلها ميتةً منبثةً في طبقات الأرض حتىٰ ينعدم وجودها ما عدا «عَجْب الذنب»، ثم إنه ﷻ لمحييكم حياة ثانية ـ كما أحياكم بعد الموتة الأولىٰ ـ حياةً

تكون أرقىٰ وأكمل من الحياة السابقة ـ إن أنتم حققتم طاعة اللّٰه والإيمان به ـ؛ لأنكم في الحياة الثانية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ فينبئكم بما عملتم، ويحاسبكم علىٰ ما اقترفتم.

وإذا كان هٰذا مبدأكم وذٰلك منتهاكم؛ فكيف تكفرون به وتنكرون أن يكون القرآن من عنده؟! وتنكرون أن يضرب لكم أمثالًا تَهتدون بها؟! وتستنكرون أن يبعث فيكم رسولًا منكم؛ مع أنه لو أرسله من غير جنسكم لتغير موقفكم ومنطقكم؟!.

حقًّا؛ إن الكفر باللّٰه ـ مع قيام هٰذه الدلائل الواضحة في أنفسهم وفي الأكوان مما تقدم ـ شيء قبيح يمتنع وجوده من عاقل يحترم نفسه؛ إذ لا حجة له علىٰ مقابلة هٰذه النعم بالكفر والإعراض والمكابرة.

فمن عظيم هداية اللّٰه في وحيه المبارك: أنه يواجه البشر بحقائق واضحة ناصعة لابد لهم من التسليم بها، والاعتراف بأحقيتها، وإسلام وجوههم للخالق الجبار والرزاق الوهاب القهار.

لقد كانوا موتىٰ بين أطباق التُّراب فأحياهم، ويسر لهم معائشهم ـ كما فصلناه ـ، ثم يميتهم أخرىٰ موتةً يشاهدونها في آبائهم وإخوانهم وأقرانهم؛ لا يمكن لهم إنكارها.

أما إحياؤهم ثانيةً وحشرهم إلىٰ اللّٰه؛ فهو أمر واضح حقيقي يدلل اللّٰه ﷻ عليه في آياته الكونية بما لا ينكره إلا المعاندون؟ لأنه إذا تقرر خلق اللّٰه لهٰذه الخليقة ابتداءً؛ فإعادتُها أسهل عليه؛ كما نصَّ علىٰ ذٰلك في الآية (٢٧) من سورة «الروم»: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾، فكيف يكفر باللّٰه من كان وجوده من اللّٰه، وساكن في ملك اللّٰه، يرتعُ في فضل اللّٰه، ويتمتع بضيافة اللّٰه؟!!.

وهاهنا مسائل:

الأولى: قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

ما السر في تراخي الإرجاع إلىٰ اللَّه عن الحياة الثانية ـ حياة البعث ـ[(١)]؟.

الجواب: أن هٰذا التراخي بتقييد النص عبارةٌ عن تأخير الحساب والجزاء، وطول زمن الموقف والانتظار، كما ورد في حديث الشفاعة العظمىٰ وغيره من الأحاديث، فلذا ساغ الإتيان بكلمة «ثم» ـ التي هي للتراخي والترتيب ـ بعد ذكر الحياة الثانية، واللَّه أعلم.

الثانية: لقائل أن يقول: كيف يحتجُّ عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحي ـ الذي هو دليلها ومثبتها ـ؟.

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن تمثيل إحدىٰ الحياتين بعد الموت بالأخرىٰ داحضٌ لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية؟ لأن ما جاز في أحد المِثلَين جاز في الآخر.

وثانيهما: أنه احتجاج علىٰ مجموع الناس بما عليه الكثير منهم، ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث؟ لأن الاحتجاج بالحياة الأولىٰ بعد الموتة الأولىٰ كافٍ للتعجب من كفرهم باللَّه وإنكارهم أن يضربِ الأمثال لهداية الناس؛ زعمًا أن هٰذا لا يليق بعظمته.

ومِن عادة كل مبطل ينكر آيات اللَّه أن يسلكَ مسلك التلبيس في زعمه تعظيم اللَّه؛ تغريرًا للسامعين، وترويجًا لما يريد من باطله، ولٰكن اللَّه سبحانه يدلل لنا في آياته إلىٰ أن من أوجد هٰذا الإنسان وجعله في أحسن تقويم وركَّب صورته من تلك الذرات الصغيرة والنطفة المهينة والعلقة الدموية أو الدودية والمضغة اللحمية: لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضةً فما فوقها.

والكلام مع أنه مسوق لإبطال شبهات منكري الأمثالِ والقرآنِ الذي

---

(١) يقصد رَحِمَهُ اللَّهُ: أن اللَّهَ تعالىٰ ذكر أنهم بعد إحيائهم الحياة الأخرىٰ لا يرجعون إليه مباشرةً؛ بل تكون هناك فترةُ تراخٍ ـ بعد بعثتهم من الموت ـ، ثم يرجعون إليه، وهٰذا التراخي دل عليه حرف العَطف «ثُم». واللَّهُ أعلم.

جاء بها؛ فهو ـ أيضًا ـ محتوٍ علىٰ تقرير التوحيد، وتفنيد أنواع الكفر باللَّه بأحسن عبارة وأفحم حجة وألطف منطق يدخل القلوب، كما أنه يحتوي علىٰ تقرير الإيمان بالبعث وعدم استحالته ـ بل سهولته ـ؛ كما نص الكلام عليه والتذكير بآية الروم رقم (٢٧)؛ تلك الآية المصرح بها أن الإعادة أهون علىٰ اللَّه من البدء ـ يعني: بدء الخليقة ـ.

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

بعد ما ذكَّر اللَّه الناس بآياته النفسية مخبرًا لهم أنه أحياهم وهم أموات، وأنه مميتهم ثانية ومحييهم ثانية للبعث والنشور، أخذ يذكِّرهم بآياته الكونية في الآفاق، ويذكرهم بسوابغ نعمه عليهم، تلك النعم التي لا حصر لها علىٰ الإطلاق ليصور في هٰذه الآية عظيم قدرته وشمول نعمته بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

وأيُّ رب عظيم ومنعم كريم يستحق الحب والتعظيم والإجلال! بل يجب أن تكون محبته ومحبة رسوله ﷺ أعلىٰ وأغلىٰ من محبة الإنسان لنفسه وولده وأهله ووالده والناس أجمعين، وأن يفدي دينه ويفدي رسالته بالأموال والأرواح، وأن يقدم مراده علىٰ مراد النفس ومحبوباتِها أجمعين. إنه يستحق الحمد الصحيح والشكر العملي الصحيح.

صدق اللَّه العظيم: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس]، اللَّه الذي خلق للناس جميع ما في الأرض، وهيأه لهم وأعده لمنافعهم؛ كيف ينصرفون عنه إلىٰ غيره؟!!.

وللانتفاع بما في الأرض عدةُ طرق:

أحدهما: تسخير جميع ما فيها واستثماره.

ثانيها: الانتفاع بجميع ما فيها من الماديات انتفاعًا جسديًّا.

ثالثها: الانتفاع بكل مادة ودابة انتفاعًا حربيًّا يقدرون به علىٰ نيل الغايات وقمع الاعتداءات.

رابعها: الانتفاع العلمي الذي يقدرون به علىٰ تسخير كل دابة ومادة؛ يرتفع بها مستوىٰ حياتهم، وتنتعش اقتصادياتهم، ويعلو مجدهم، ويرتفع شأنهم، ويزول البؤس من محيطهم.

خامسها: الانتفاع الروحي في النظر والاعتبار.

ومن هٰذه الآية الكريمة أخذ علماء الإسلام قاعدة أصولية؛ وهي: «أن الأصل في الأشياء الإباحة حتىٰ يقوم دليل التحريم»، لأن اللَّه أباح لنا الانتفاع بعموم ما في الأرض برِّها وبحرها وما علىٰ ظهرها وما في باطنها من كل دابة ومادة علىٰ الإطلاق، وما لا نقدر علىٰ الانتفاع به حسيًّا ننتفع به معنويًّا.

وقد استدل بعضهم بِهٰذه الآية علىٰ تحريم أكل الطين، لأنه خَلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض، وهٰذا التفريق غير مسلَّم؛ لولا ورود النص عنه ﷺ بتحريم أكل التُّراب لضرره.

وقال الرازي: «إن لقائل أن يقول: إن في جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الأرض؛ فيكون جامعًا للوصفين.

ولا شك أن المعادن داخلة في ذٰلك، وكذٰلك عروق الأرض وما يجري مجرىٰ البعض لها، ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدلُّ علىٰ نفي الحكم عما عداه» اهـ.

وذكر الزمخشري ما هو أوضح من هٰذا؛ فقال: فإن قلت: هل لقول من زعم أن المعنىٰ: خلق لكم الأرض وما فيها وجهٌ صحة؟.

قلت: إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء ـ كما تُذْكر السماء ويراد بها الجهات العلوية ـ جاز ذٰلك؛ فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية. وأما التراب فلو حرِّم أكله ـ كما ورد في السنة ـ؛ فإنه ينتفع به في أمور كثيرة نافعة مباحة غير الأكل.

ويؤخذ مما تقدم عدة فوائد:

أحدها: أنه لا يجوز إهمال تسخير الماديات واستثمارها؛ فإن المسلمين

مسؤولون عن تعطيل مواهبهم في ذٰلك؛ حتىٰ سبقهم المبطلون علىٰ ذٰلك؛ فكانوا كمن سمح للصوص بالسبق إلىٰ الأسلحة، فإن هٰذه أسلحة مادية خطيرة من سبق إليها تحكم في مصير الآخر؛ قال اللَّه تعالىٰ في سورة «الجاثية»: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فما فائدة هٰذا التسخير إذا لم نقم بتصريفه واستثماره؟!.

ثانيها: لا يجوز تحريم شيء مما وهبه اللَّه لنا إلا بدليل مما استثنىٰ اللَّه تحريمه؛ فإن جريمة تحريم الحلال كجريمة إباحة الحرام(١). قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة].

ثالثها: كل ما امتن اللَّه علينا بخلقه وجب علينا [معرفته] فرضَ كفاية؛ كتعلم العلم الذي نستطيع بسببه الانتفاع به؛ من معرفة طريق استخراجه، أو تصفيته، أو تكييفه بغيره؛ ونحو ذٰلك من ضروريات التسخير والاستثمار.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: يخبر ﷻ عن تصرفه بالعوالم العلوية، بعد أن خلق لنا العالم السفلي وهيأه لمصالحنا ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: أقبل إليهن، أو علا عليهن وارتفع(٢)، فدبرهن بعزته، وعدَّل خلقهن بتسوية لا اعوجاج

(١) بل إن تحريم الحلال أشد جُرمًا من تحليل الحرام، لأن الأول تضييق علىٰ الناس وجلب المشقة لهم في حياتِهم القصيرة. واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

(٢) بل المعنىٰ الصحيح ـ الذي لا صحيح غيره هنا ـ أن المقصود: قَصد واتجه ـ كما يليق به ﷻ ـ، لأن لفظ «الاستواء» ـ بمشتقاته ـ له ثلاثةُ استعمالات:
الأول: أن يأتي لازمًا ـ بلا تعدية بأي حرف ـ، فيكون معناه: الاشتداد والاكتمال، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف].
الثاني: أن يأتي الفعل «استوىٰ» متعدِّيًا بـ«إلىٰ»، فيكون معناه: القصد والاتجاه، كما في هذه الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].
الثالث: أن يأتي متعديًا بالحرف «علىٰ»، فيكون معناه العلو والارتفاع، ومنه =

فيها، فهو كقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى]، فإنه هيأهن وخلقهن ودبرهن وقوَّمهن.

والتسوية في كلام العرب: التقديم والإصلاح والتوطئة، كما يقال: سوىٰ فلان لفلان هٰذا الأمر: إذا قومه وأصلحه. فتسوية اللّٰه لسماواتِه تقويمه إياهن علىٰ مشيئته، وتدبيرهن علىٰ إرادته، وتفتيقهن بعد أن كانت رتقًا؛ كما حكاه ابن جرير عن الربيع بن أنس.

والسماء في الحقيقة سبعٌ ـ وإن عُبِّر عنها بواحدة ـ، ولا تعارض بين هٰذه الآية والآية التي في سورة «فُصِّلت»: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت]؛ فإن في آية سورة «البقرة» إجمالًا، وفي آيات سورة «فصلت» تفصيل، والغرض من الجميع تقرير التوحيد بإثبات عظم قدرة اللّٰه الذي خلق الأكوان العلوية والسفلية بما فيها من كل دابة ومادة، وقدَّر فيها أقواتَها وأرزاقها، وأوحىٰ في كل سماء أمرها في ستة أيام ـ الأرض في أربعة أيام والسماء في يومين ـ؛ إذ من المعلوم الحسي والعقلي الذي لا جدال فيه: أن خلق هٰذه الأكوان العظيمة أكبرُ من خلق الناس أولًا، وثانيًا: أن خالقها لا يعجزه إعادة الناس للحشر والمعاد، لأنه لا يعجزه شيء، فسياق الآيات كلها يدور علىٰ تركيز العقيدة وحماية الفطرة من غزو الشياطين الفكري.

واعلم أنه لا يجوز الشرود بمعنىٰ «الاستواء» ـ الذي هو العلو والارتفاع اللائق بجلال اللّٰه والمخالف لعلو المخلوقين وارتفاعهم ـ إلىٰ تأويلات لم يعرفها الرسول المبلغ الناصح الأمين ﷺ ولا أصحابه، ولم يلجأ

= آيات استوائه ﷻ علىٰ عرشه، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وما يشبهها من الآيات. واللّٰهُ تعالىٰ أعلم.

إليها هو أو أصحابه فرارًا مما تخوَّف منه المتأخرون الذين فسدت فطرتُهم، والذين لم يأتوا بتأويل إلا وألزموا فيه بإلزامات محرجة تضطرهم إلىٰ التكلف؛ فيلتزمونها بادئ الأمر بإمرارها علىٰ ظاهرها بدون تأويل ويستريحون.

ولنا عودة طويلة إلىٰ مثل ذٰلك في سورة «الأعراف» عند الكلام علىٰ الاستواء ـ إن شاء اللَّه ـ.

ولو أن السادة الأشعرية والماتُريدية ونحوهم ـ رحمهم اللَّه تعالىٰ ـ عاشوا في مثل هٰذا العصر الذي تكلم فيه الحديد، وأتت الآلات الإلكترونية المسماة بـ«العقول الإلكترونية» بالعجائب والغرائب. أقول: لو أنهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ شاهدوا ذٰلك لما ضاقوا ذرعًا في إثبات صفات اللَّه علىٰ ظاهرها كما يليق بجلاله، لأن مقصدهم شريف ـ وهو التنزيه ـ؛ فصعب علىٰ أذهانهم إثبات سمع بلا جارحة، وعين بلا جارحة، واستواء أو نزول بلا حركة وانتقال، أو كلام بلا لسان ولا شفة، ولم يسعهم ما وسع المصطفىٰ ﷺ وأصحابه، وغفلوا عن كفاية هَديه ﷺ وتبليغه في ذٰلك وكمال نصحه للأمة وإشفاقه عليها، خضوعًا منهم لقواعد يونانية لا يجوز إخضاعُ آيات القرآن لها، ولٰكن يشفع لهم حسنُ القصد ـ إن شاء اللَّه[١] ـ، ولو شاهدوا ما شاهدناه في هٰذا العصر من عجائب ما أقدر اللَّه المخلوق علىٰ صنعته؛ لاستراحوا وأراحوا ـ رحمة اللَّه عليهم ـ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

هٰذه الآية الكريمة من جملة معجزات القرآن والنبوة المحمدية، إذ يخبر اللَّه نبيه ﷺ بما لا يعلمه ولا يعرفه قبل إنزال هٰذا الوحي عليه،

(١) لا سيما وأن فيهم فقهاء ومحدِّثين أبلوا بلاءً حسنًا في خدمةِ دينِهم العظيم.

وهي مما يؤيد أن القران ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، والذي يدعو الناس إليه من التوحيد ليس بدعًا وليس خاصًّا بالمعاصرين، وأن للَّهِ ملائكةً قائمين بواجباتهم نحو اللَّه، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأن اللَّه جلت حكمته اختار بني آدم أن يكونوا له خليفةً[1] في الأرض، وجرىٰ الحوار بينه وبين الملائكة في ذٰلك قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، وهل هٰذا السؤال منهم ناشئ عن قياس علىٰ خلق سكنوا الأرض قبل بني آدم فأفسدوا فأهلكوا؟ أو أنهم علموا أن اللَّه يودع في فطرة بني آدم إرادةً مطلقةً غير محدودة، أو علمًا غير محيط بالمصالح فيفسدون ويسفكون الدماء؟ هٰذان الأمران لا نملك الجزم عليهما، ولٰكن يترجَّحُ الظن من مدلول السياق الأمر الثاني ـ الذي هو ظن الملائكة بحال البشر ـ؛ لأن القول بوجود نوع من الخلق غيرهم ليس له سندٌ إلا من أساطير الوثنيين وخرافاتهم ـ التي لا يجوز الالتفات إليها ـ؛ خصوصًا وسياق الآية واضح في اختيار بني آدم خليفة.

وهٰذه الآية الكريمة أتىٰ بها اللَّه سبحانه بعد الآية التي قبلها؛ التي فيها استنكاره لكفر بني آدم ـ مع إنعامه عليهم بخلق جميع ما في الأرض لهم مالكين لجميع ما فيها من كل دابة ومادة علىٰ وجهها أو في جوفها أو أجوائها ـ فيما عقبها سبحانه بِهٰذه الآية، مقررًا أن ما في الأرض لهم ليس لمجرد الإنعام عليهم به، ولٰكن لسيادتِهم علىٰ ما في الأرض جميعًا، ومنحهم قيمةً أعلىٰ وأغلىٰ من قيم الماديات المذكورة، وهي التكريم بالاستخلاف زيادةً علىٰ نعمة الملك والانتفاع، ليغرس في قلوبهم عنصر الإيمان الأصيل في الوجود من لدن أبيهم آدم عليه السلام.

فالقرآن يوضح لأمة محمد ﷺ موكب الوجود الأول؛ متحدثًا بادئ ذي بدء عن الأرض في معرض الامتنان بآلائه علىٰ بني آدم، فيقرر أنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا، ثم يذكرهم بتكريمه لهم بالاستخلاف

---

(١) كذا في المطبوع.

في الأرض، ومنحهم مقاليدها علىٰ عهد منه وشرط عظيمين هما: اتباع وحيه وتحكيم شريعته، كما قال سبحانهُ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، كما سيأتي تفسيره ـ إن شاء اللّٰه ـ؛ مع العلم أن تذكيرنا بِهٰذه المكرُمة العظمىٰ جاءت تمهيدًا للحديث عن استخلاف بني إسرائيل بعهد منه، وعزلهم عن الخلافة بعد نقضهم العهد وإفسادهم في الأرض، وتسليم مقاليد القيادة للأمة المحمدية ببعثة محمد ﷺ.

ومما ينبغي معرفته: أن من نقض عهد اللّٰه ـ بنبذ وحيه وعزل شريعته عن الحكم ـ لا يستحق شيئًا مما في الأرض ـ فضلًا عن الاستخلاف ـ، وإنما يجب قتاله وانتزاع ما في يده من جميع الماديات؟ لأنها ملك للأوفياء بعهد اللّٰه وأمانته من أيِّ جنس أو عنصر كانوا.

إن هٰذه الآية الكريمة ـ وما بعدها من الآيات التسع التي هٰذه عاشرتُها ـ توضح لنا مبدأ التكوين الإنساني والغاية منه، وتصور لنا واقع الخطيئتين وشؤمهما، ثم ما لهما من نتائج، وفيها عِبرٌ كثيرة:

إحداها: أن اللّٰه ـ جلت حكمته ـ اختار بني آدم أن يكونوا له خليفةً في الأرض، والخليفة بالنسبة إلىٰ اللّٰه ليس كالخليفة بالنسبة إلىٰ الإنسان إلا بما يقتضيه الواجب علىٰ الخليفة، وإلا فليس الخليفة للّٰه بمعنىٰ الوارث كخليفة الإنسان بعد موته، لأن اللّٰه هو الذي يرثُ الأرض ومن عليها، وإنما الخليفة للّٰهِ في أرضه هو المكلَّف بأحكام يطبقها علىٰ نفسه وينفذها علىٰ غيره، كما قال ناظم التفسير:

خلـيفةً مـنفِّذًا أحكامـي ... وهـي لآدمَ أو الحكـامِ
وقـيل: خلـقٌ يخلُفـون خلقـًا ... في الدين سحقًا للكفورِ سُحقًا

ثانيها: ما حكم الخليفة؟ وما واجب الخليفة؟ وما الذي يترتب علىٰ تقصير الخليفة في أمر اللّٰه أو خيانته لعهود اللّٰه؟ خلائف اللّٰه من بني آدم ملزمون بحمد اللّٰه وشكره شكرًا عمليًّا، وبمحبته وذكره ذكرًا قلبيًّا،

وباتباع وحيه، ومتابعةِ رسوله ﷺ علمًا وعملًا، وتحكيم شريعته، وإقامة حدوده، والوقوف عند أمره ونَهيه في كل شيء، فمن رفض هٰذا وأعرض عنه كان خائنًا مستحقًّا عقوبات اللَّه الشرعية والقدرية في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه]، ومن فرَّط في بعضها لغلبة شهوته كان متلبسًا بالخيانة والتقصير بحسب ذٰلك، ومن فعل البعض وترك البعض لشبهات في قلبه ولإيثاره المادة علىٰ الدين؛ كان مؤمنًا ببعض وكافرًا ببعض، يعامله اللَّه معاملة الكافر بالجميع.

ثالثها: تشريف اللَّه تعالىٰ للجنس البشري علىٰ جميع المخلوقات بِهٰذه الخلافة، وتحميله تلك الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال وأبينَ أن يحملنها، فمن صَدَق مع اللَّه في حملها كان أفضل من الملائكة وأعظم حرمةً عند اللَّه تعالىٰ من السماء التي حرسها بالنجوم والشهب من الشياطين، ومن لم يتحملها كان من شر البرية وشر الدواب، وكان أضل من الأنعام، كما وصفه اللَّه بذٰلك، وكان حظه الخيبة ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

رابعها: اقتضت حكمة اللَّه البالغة تصوير خليفته في أشرف صورة وأحسن تقويم، فلم يجعله يمشي علىٰ أربع، ولا يمشي مكبًّا علىٰ وجهه ـ كالقرد والحيوان ـ، ولم يجعل له ذيلًا كذيل الحيوان، ولا علىٰ ظهره صوفًا كصوفه، ولا آذانًا متدلية كآذان الحيوان؛ بل خلقه وصوره في أكمل صورة وأحسن تقويم لائق بمعنىٰ الخلافة، وفي هٰذا ردٌّ قوي دافع لنظرية «دارون» صاحب النشوء والارتقاء التي أولع بدراستها وتدريسها المنهزمون هزيمةً عقليةً دون نظر إلىٰ الحقيقة التي تبطلها؛ ذٰلك أن النشوء والارتقاء يقع في الهيكل لا في الصورة، ويقع في الأخلاق والمعلومات، أما الصورة فكل مخلوق للَّهِ في البر والبحر من إنسان أو حيوان هو باقٍ علىٰ صورته الأصلية لم تتحور صورته، فالإنسان إنسان خلقه اللَّه في أحسن تقويم، والبعير بعير كما كان منذ خلقه اللَّه، والذباب ذباب منذ خلقه، والفيل فيل، وسائر أنواع الطيور

والحيوانات كل منها علىٰ صورته الأصلية؛ لم تتحور ولم تختلف صورته حسب هٰذا المذهب الذي انزلقوا فيه إلىٰ مجاوزة حد العقل والحس.

وقد عارض هٰذه النظرية خلقٌ كثير لمخالفتها العقل والحس والواقع، ويا سبحان اللَّه! كيف يختار اللَّه تعالىٰ خليفته في الأرض من هم علىٰ وصف دارون ـ أخي القردة والخنازير ـ لأنه يهودي؟ وكيف يُسجد اللَّه الملائكة لمن هم علىٰ هٰذه الشاكلة أشباه القردة؟ وكيف يخلق اللَّه آدم بيده وينفخ فيه من روحه، ويسكنه جنته وهو علىٰ هٰذه الحال التي وصفها دارون اليهودي؟ بل كيف يعاقب اللَّه أجداده بني إسرائيل من أصحاب السبت بمسخهم قردة إذا كان أصلهم قردة؟ لا يكون فعله بهم عقوبةً ولا مسخًا، بل يكون إرجاعًا لخلقتهم الأولىٰ.

والعجب أن عمدته وأتباعه العثورَ علىٰ رُفات أموات بِهٰذه الصورة، فلعلهم قردةٌ أصليون أو ممسوخون، لأن الممسوخ ـ وإن كان لا يعيش ـ فإنه تبقىٰ آثاره بعد الموت، وحيث إن مثل هٰذا التفسير لا يتحمل الإطالة بالردود علىٰ أمثال ذٰلك؛ نحيل القارئ والسامع إلىٰ رد قويم جدًّا ينبغي الرجوع إليه والاستفادة منه، فإن فيه العجب العجاب، وهو كتاب: «الإسلام ونظرية دارون».

وإذا كان قد صح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**خلق اللَّه آدم علىٰ صورته؛ طوله ستون ذراعًا في السماء؛ فما زال الخلق ينقُصُ بعده حتىٰ الآن**»(١).

فهٰذا مناقضٌ ومعاكس لتلك النظرية اليهودية، فمن تقبلها ورفض وحي اللَّه، ماذا يبقىٰ عنده من اللَّه والإسلام؟!.

خامسها: في «إذ» و«إذا»: هما للتوقيت في الماضي والمستقبل، وقد توضع إحداهما موضع الأخرىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٢٦، ٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١).

قال المبرد: إذا جاءت «إذ» مع مستقبل كان معناه ماضيًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ليكون معناه: «إذ مكروا» و«إذ قلت». وإذا جاءت «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلًا، كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١]، أي: ويجيء.

والتقدير في هٰذه الآية: وابتداء خلقكم؛ إذ قال ربُّك للملائكة؛ فهٰذا محذوف دل عليه الكلام.

سادسها: الملائكة أجسام نورانية خلقها اللَّه من نور، ووكَّل إلىٰ بعضها مهماتٍ عظيمة، وأقدرها علىٰ التشكيل بغير هيئتها الأصلية، والإيمانُ بهم واجب ومن أصول الدين، لأن منهم السفراء بين اللَّه وبين رسله، ومنهم الموكَّل بالسحاب وبقبض الأرواح وتسجيل الأعمال، إلىٰ غير ذٰلك، ولم يتعبدنا اللَّه بمعرفة أجسامهم وأشكالهم، فالبحث فيها لا يجدي نفعًا، وهم من العالم المستور عنا كالجن، ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، لأن من كفر ببعض وحي اللَّه فقد كفر به جميعه، والوحي المبارك أثبت هٰذا، قد أتىٰ جبريل للنبي ﷺ في صورة دحية الكلبي[1]، ورآه في السماء علىٰ خلقته الأصلية[2].

وقالت النصارىٰ: «إن الملائكة هي أرواح الخير، والشياطين هي أرواح الشر».

ومن هٰذه العقيدة شاع عند الغربيين فكرة تحضير الأرواح، وهي في الحقيقة تحضير الجن المسمىٰ عندنا بـ«علم التعزيم»، وللفلاسفة وغيرهم أقوال أُخر لسنا بصددها.

والحاصل أنه يجب الإيمان بهم، كما وصفهم اللَّه ﷻ بأنهم الصافون والمسبحون، وبأنهم الزاجرات زجرًا، والنازعات غرقًا، والمدبرات أمرًا، والسابحات سبحًا، والناشطات نشطًا، والسابقات سبقًا، والملقيات

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٤، ٤٩٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٧).

أمرًا[١]، عذرًا أو نذرًا، وبأن منهم الراكع والساجد والمسبحين الليل والنهار لا يفتُرون.

سابعها: عبرتنا من هٰذه القصة: أن اللَّه خلق الإنسان مزودًا بقدرة العقل والإدراك، ليس علىٰ ما يزعمه طاغية علم النشوء والارتقاء «دارون»، وأن اللَّه سبحانه جعله مستعدًّا للعلم والانتفاع بما خلق اللَّه في الكون؛ ليكون خليفةً في الأرض يعمرها وينميها، ويكون بعمله مظهرًا واضحًا لرحمة اللَّه بعباده، وليحقق فيه روح المكافحة، جعله اللَّه مستعدًّا ـ أيضًا ـ للتأثر بدعاية الخير والشر، وأوضح له حسن العاقبة بالتأثر بدعاية الخير وسوء العاقبة بضده، وأمده بروح منه؛ وذٰلك وحيه المبارك المحيي لقلبه، والحافظ له من غزو الشيطان وشروره، ومن هنا أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ ليعرف بني الإنسان بغرائز نفوسهم، ويحصنها من شرها بهداه.

ثامنها: إن اللَّه سبحانه يرضىٰ من عباده أن يسألوه عن حكمته في خلقه وما يخفىٰ عليهم من أسراره، سواء كان السؤال بلسان الحال أو المقال، ولهٰذا قالت الملائكة له: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[٢]؟!.

تاسعها: إن اللَّه هدىٰ الملائكة في حيرتِهم، وأجابَهم عن سؤالهم بإقامة الدليل لهم علىٰ تعليم آدم ما عجزوا عن معرفته، وذٰلك بعد الإرشاد إلىٰ الخضوع والتسليم بقوله:﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

عاشرها: إنه إذا كان من أسرار اللَّه وحِكَمه ما يخفىٰ علىٰ الملائكة؛ فنحن أولىٰ بالجهل منهم بذٰلك، فلا مطمع للإنسان بمعرفة جميع أسرار

---

(١) كذا في المطبوع، والأصح: ذِكرًا، تبعًا للفظ الآية الكريمة.

(٢) وهنا تتمة لهٰذا العنصر، وهو أنه ﷻ إذا أطلع عبادَه علىٰ بعض حكمته البالغة في خلقه وأفعاله، فواجبٌ عليهم مقابلتُها بالتعظيم والتسليم، وإذا لم يفهموا الحكمة من أفعاله سبحانه، فليعلموا أن إخفاء ذٰلك في حد ذاتِه لحكمةٍ عظيمةٍ يعلمُها الكبيرُ المتعال ﷻ.

الخليقة وحكمها، لأن اللَّه لم يؤتِه من العلم إلا قليلًا.

حادي عشرها: تسلية النبي ﷺ عن تكذيب الناس ومحاجتهم في النبوة بغير برهان؟ لأنه إذا كان الملأ الأعلىٰ قد طلبوا البيان من اللَّه فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يطلبوا، وأجدر بالأنبياء عليهم السلام أن يعاملوهم كما عامل اللَّه الملائكة المقربين، واللَّه سبحانه أيده مع هٰذا بآيات بينات تقطع الأغاليط، وتكشف الشبهات من كل شيء يثبت لهم أنه ليس من عند محمد ﷺ، وليس يعلم به لولا هٰذا الوحي.

ثاني عشرها: قال القرطبي: هٰذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويطاع، فتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذٰلك بين الأمة ولا بين الأئمة؛ إلا ما روي عن الأَصم؛ حيث كان عن الشريعة أَصَم.

وقد بسط القول فيه، وأبان جواز انعقاد الإمامة بمبايعة عدد ولو قليل من أهل الحل والعقد ـ ولو رجلًا واحدًا ـ، واستشهد بما يكفي ويشفي، وأوضح الحق في جواز نصب المفضول مع وجود الفاضل، وعكس أقوال المبتدعة الغاضبين علىٰ خلافة ما لا يريدونه بأهوائهم؛ قائلًا: إن استدلوا بأحاديث موضوعة أو أخبار صحيحة فيها الإشارةُ إلىٰ خلافة غير أبي بكر، فإنه توجد عندنا أحاديثُ صحيحةٌ وحسنة تنص بعضها وتشير بعضها إلىٰ خلافة أبي بكر وعمر، وذٰلك بعد النقل والنقاش، وذكر أحكام الإمام ووجوب الصبر عليه، وعدم خلعه إلا بكفر بواح فيه من اللَّه سلطان، كما وردت الأحاديث الصحيحة في ذٰلك، فليراجع هٰذا البحث القويم في الجزء الأول من تفسير القرطبي من صفحة (٢٢٤) إلىٰ (٢٧٤)؛ فإنه مفيد ونفيس، ولولا الإطالة الزائدة لنقلناه، فنكتفي بالإشارة[١].

ثالث عشرها: هٰذا الإنسان الذي جعله اللَّه خليفةً في الأرض؛ عليه

---

(١) يراجِعُ من أراد كلام القرطبي رحمه الله بنصه عند هٰذه الآية الكريمة.

أن يرعىٰ خلافة اللَّه حق رعايتها، وأن يعتبر نفسه جنديًّا للَّه منفذًا أوامر اللَّه، مسارعًا في مرضاته، مجتنبًا مساخطه، غيورًا علىٰ حرماته، متوكلًا عليه توكلًا صحيحًا لا شائبة فيه؛ حتىٰ لا يكون من الكافرين لنعمته بمخالفته له.

رابع عشرها: الإنسان الذي جعله اللَّه في هٰذه الأرض خليفةً، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وخلق له ما في الأرض جميعًا، وأذن له بالاستمتاع بخيراتها، وتسخير كنوزها واستثمارها، لا يجوزُ له البخلُ والتقتير علىٰ نفسه، أو علىٰ أهله وذويه، بل لا يجوز البخل ببذل فضول الأموال خشية الفقر، فإن هٰذا من طاعة الشيطان وسوء الظن باللَّه، قال ﷻ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقد تَهلل وجه النبي ﷺ لما قال له بعض الأنصار في قضية عطية: أنفق؛ ولا تخش من ذي العرش إقلالًا»، وتبسم، وقال: «**بهٰذا أُمِرتُ**»(١).

قال المحققون: فخوف الإقلال من سوء الظن باللَّه تعالىٰ؛ لأن اللَّه خلق الأرض بما فيها لبني آدم، وجعل جميع الأشياء مسخرةً لهم، وتعهد برزقهم وإخلاف ما أنفقوه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ].

وروىٰ مسلم في «صحيحه» عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**أنفحِي ـ أو انضحي، أو أنفقي ـ، ولا تُحصي فيحُصي اللَّه عليكِ، ولا توعي فيوعىٰ عليك**»(٢).

والنصوص في هٰذا كثيرة مستفيضة لا نطيل بها المقام، ومنها تعلم ـ أيضًا ـ أن المطالبين بتحديد النسل خشيةَ ضيق المعيشة من كثرة السكان؛ هم في الحقيقة رجعيون تمامًا، قد رجعوا إلىٰ العقليات الجاهلية

---

(١) رواه «البزار» (٢٧٣).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩).

المسيئة الظن بالله، بل الكافرة تمامًا بالله وبوعده الحق.

وقوله ﷻ عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نحن ننزهك عما لا يليق بك.

واختلف العلماء في تسبيحهم: هل هو نفس التسبيح بالكلام أو بالصلاة؟.

١ ـ فقال بعضهم: إنهم يسبحونه بألسنتهم ليلًا ونهارًا لا يفتُرون، استشهادًا منهم بالآية (٢٥) من سورة «الأنبياء». والتسبيح مشتق من السَّبَح ـ بفتح الباء الموحدة ـ، وهو الجري والذهاب، ومنه قوله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل]، فالمسبح جارٍ في تنزيه الله وتبرئته من السوء.

وقولهم: ﴿بِحَمْدِكَ﴾، أي نخلط التسبيح بالحمد، ويسمىٰ رفع الصوت بالذكر: تسبيحًا ـ أيضًا ـ.

٢ ـ وقال بعضهم: إن التسبيح هو الصلاة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ [الصافات]، يعني المصلين.

ولا تعارض بين القولين في الحقيقة؛ لأن الصلاة محتوية علىٰ جميع معاني التسبيح والتقديس، ومشتملة علىٰ تمام الخضوع والتعظيم. وكان ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سبُّوحٌ قدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوح**»؛ كما أخرجه الإمام مسلم عن عائشة[1].

وقولهم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نعظِّمك ونمجِّدك، ونطهر ذِكرَك عما لا يليق بك، وكأن في كلام الملائكة إشارةً إلىٰ الاكتفاء بهم عن سواهم وعدم إشغال الأرض بما يغضبه من الإفساد فيها، ولٰكن الله أجابَهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وقد علم الله أن فيمن يستخلفه في الأرض أنبياءَ وأولياءَ وفضلاء

---

(١) رواه مسلم (٤٨٧).

أفضل من كل مخلوق، فهو عليم بما كان وما يكون وبما هو كائن ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

يخبر ﷻ عن صنيعه بالملائكة القائلين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ أنه أراد إفحامهم بالحق وإخضاعهم لآدم أبي البشر؛ فعلمه الأسماء كلها بأن أودع في نفسه معرفتها: إما بوحي منه سبحانه، أو بإلهام من غير تحديد لمعرفة تلك الأشياء؛ ليتحقق عند الملائكة أن آدم وذريته أجدر منهم بالخلافة.

وحيث إن الفضل التام إنما يبدو بالعلم، وما دونَه فهو فضل ناقص؛ اعتنىٰ اللَّه بادئ ذي بدء بتعليم آدم ليظهر فضله وأحقيته بالخلافة عليهم. وهنالك عرض هٰذه الأسماء علىٰ الملائكة متحديًا لهم أن يعرفوها ـ إن كانوا صادقين في استغرابِهم من جعل غيرهم خليفةً في الأرض ـ، وعند ذٰلك انقطعوا مبتدئين بتنزيه اللَّه وتقديسه من أن يخلق شيئا عبثًا، أو يقصُرَ علمه عن شيء، ومعترفين بعجزهم وعدم علمهم في غير ما يُعَلمهم اللَّه قائلين: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء صغيره وكبيره، دقيقه وجليله، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها؛ فأنت سبحانك علام الغيوب، لا نتقول عليك بغير علم منك، ولا نجاري حكمتك، فسبحانك أنت المعلم والهادي لكل شيء.

حينئذ لما كان جوابُهم يحمل الأدب البالغ والتبرؤ من أي علم ليس من جهته، والثناء علىٰ اللَّه بالعلم الثابت الكامل والحكمة البالغة، أراد إظهار علمه لهم فيما أخبرهم من اتخاذ آدم خليفةً: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ ليعلموا أنه أعلم منهم بما سألهم اللّه عنه؛ ليظهر فضله وعلو شأنه، وتتحقق عندهم ميزته إذا قال لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾، وقد تحقق ذٰلك، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ واندهشوا لحيرتِهم من هٰذا المخلوق الذي فُضل عليهم بالعلم، ﴿قَالَ﴾ اللّه للملائكة: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: من كانت هٰذه إحاطته بالمعلومات الغيبية جميعها؛ فإنه لا يخلق شيئًا عبثا، ولا يترك خليفته في الأرض مهملًا.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، يعني: أعلم ما تبدونه مما يجول في خواطركم، وما تكتمونه في صدوركم بلا إظهار، فعِلْم هٰذا وهٰذا عندي مستويان.

وهٰذه الآيات مع أنها وردت مورد التمثيل للقصة[(١)]؛ فإن فيها حقائق البلاغة متجلية وحدائقها مثمرة؛ تنادي بإعجاز القرآن، وفيها حكمٌ وأحكام:

الأولى: تعليم اللّه لآدم الأسماء ـ يعني العبارات ـ: هل هي جميع المسميات علىٰ العموم ـ مما وجد ومما لم يوجد ـ؟ أو هي أسماء معينات موجودة؟!

ـ فبعضهم قال بالأول؛ مستندًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّهَا﴾.

ـ وبعضهم قال بالثاني؛ مستندًا إلىٰ قوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وأنها تشير إلىٰ مسميات مخصوصة.

ولكل منها وجه، وليس معرفة أصحهما من مهمات الدين، وقد وردت آثار تشعر بالعموم، وخصوصًا حديث الشفاعة الذي فيه: «**وعلمك أسماء كل شيء**»[(٢)]، ولا يستغرب ذٰلك علىٰ اللّه.

الثانية: قول الملائكة في جوابهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾

---

(١) إن كان المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد أنها لم تقع فعليًّا وإنما حكاية بلسان الحال، فهٰذا فيه نظر.

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٦) ـ واللفظ له ـ، ومسلم (٩٣).

هو أصل من أصول الدين يجب الرجوع إليه في كل ما لا سند له؛ اعترافًا بأن اللَّه علام الغيوب، وسدًّا لأبواب الطاغوتية والدجلية ممن يدعي المغيبات أو يخوض فيها كالمنجمين والمشعوذين والكهان والصرافين، ولذا ورد النص عنه ﷺ أنه قال: «**من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا، فصدقه بما قال؛ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ**»[1]؛ وذٰلك لأنه بتصديقه إياه يكون قد أشركه مع اللَّه في علم الغيب، واللَّه سبحانه يقول عن نفسه ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن]، فحصر علم الغيب علىٰ ذاته العلية، ومن ارتضىٰ من رسله فقط، ولهٰذا كان المصدِّق للكاهن ونحوه كالمكذب بوحي اللَّه.

الثالثة: فضيلة العلم، وأن الفضل ليس بمجرد الخلقة ببداعتها أو ضخامة تكوينها، وإنما هو بالعلم، ولهٰذا امتحن اللَّه ملائكته الكرام حيث أشكل عليهم جعلُ الخليفة مِن سواهم؛ حتىٰ ثبت عندهم فضل آدم عليهم بالعلم، فعرفوا استحقاقه به الإجلالَ والتوقير، وقد ثبت أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم[2].

الرابعة: يجب علىٰ الذي مَنَّ اللَّه عليه بالعلم أن يعترف بنعمة اللَّه ولا يفخر ولا يعجب بها، ولا يتطفل علىٰ ما لا يعلم، بل يقول: «لا أدري»، ويكل علمه إلىٰ اللَّه؛ كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾؛ فإن من أعظم الذنوب القول علىٰ اللَّه بغير علم، وقد أثبتت الوقائع في كل زمان ومكان علىٰ أن كل من أحب الرئاسة وجنح إلىٰ الدنيا لابد له من أن يفتريَ علىٰ اللَّه ليتزلف إلىٰ الحكام وينال المراتب والمناصب العالية في الإفتاء حسب الأهواء، أو تتبع الرخص دون الرجوع إلىٰ ما صح دليله، وذٰلك أن الأغراض لا تتم إلا بمخالفة الحق.

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٠٤)، وابن ماجه (٦٣٩).
(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

الخامسة: تسمية أبينا آدم؛ مشتقة من أديم الأرض علىٰ الصحيح؛ لا من لون الأديم الأسمر ـ كما قال بعضهم ـ، و«أديمُ الأرض» هو وجهُها، فسمي ممَّا خُلق منه.

وروىٰ التِّرمذي عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن اللَّه عز وجل خَلق آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم قدرَ الأرض، منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ، وبين ذٰلك، والسَّهلُ والحَزْنُ[1] والخبيث والطيب**».

قال التِّرمذي: «هٰذا حديث حسن صحيح»[2].

فآدم مشتق من الأديم والأَدم؛ لا من الأُدْمة.

قال الشاعر:

الناس أخيافٌ وشتَّىٰ في الشِّيَم ... وكلُّهم يجمعُهم وجهُ الأدَمْ

السادسة: أول من تكلم بالعربية وباللغات عامةً هو أبونا آدم عليه السلام؛ كما يشهد بذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾؛ فلا حاجة إلىٰ التقول من غير وحي اللَّه في هٰذا الشأن من أخبار لا يعتمد عليها.

السابعة: الحكمة للَّهِ التي خفيت علىٰ الملائكة تجلت لنا بعضُ معانيها من ناحيتين:

إحداهما: أنه خفي عليهم ما للَّهِ من حكمةٍ عظيمة في عمارة الأرض ببني آدم، وتحقيقِ إرادته فيما يعملون، وأن ما يجري منهم من فسادٍ وسفكِ دماء هو في حقيقته وظاهره شر، ولٰكن من ورائه خير كثير يقدره اللَّه بأسبابه من جهة، ومن جهة أخرىٰ تظهر آثار أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا؛ مما لو لم يحصل ذٰلك لما ظهرت ـ كما سنفصله عن قريب إن شاء اللَّه ـ.

---

(١) **الحَزْن** ـ بسكون الزاي ـ: القاسي الشديد.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والتِّرمذي (٢٩٥٥).

ثانيهما: حكمة اللَّه في إبليس خفيت علىٰ الملائكة، ذٰلك أن اللَّه سبحانه يعلم ما في قلب إبليس من الكبر والحسد ـ اللذين سيكونان السبب في كفره وشقائه ـ، ولا يظهر علم اللَّه لملائكته في شأن إبليس إلا بالامتحان الكبير مع أبينا آدم، فلما أمرهم اللَّه بالسجود له ظهر ما يعلمه اللَّه في قلوبهم من السمع والطاعة والمحبة للَّهِ، وخشيته والانقياد لأمره؛ حيث بادروا إلىٰ الامتثال، وظهر لهم ما يعلمه اللَّه في قلب إبليس من الكبر والغش والحسد حيث أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، واللَّه أعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

هنا يجيء من اللَّه دور التكريم في أعلىٰ صوره ومظاهره الحقيقية لآدم، هٰذا المخلوق الذي استصغره الملائكة، وزعموا أنه هو وذريته يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، هٰذا المخلوق الذي استصغروه وعيَّروه، ولم يعرفوا خصائص الصنع به، أمرهم اللَّه بالسجود له مراغمةً لهم وتكريمًا له[١].

وهنا يجيء الامتحان الأول للملائكة ولإبليس أبي الجن، ويظهر الفرق العظيم بين مَن خلقه اللَّه من نور ومن خلقه اللَّه من مارجٍ من نار، فالنور من طبيعته الإنارة والهدوء والنزول والهبوط، والنار من طبيعتها الإحراق والدخان والاستعلاء[٢]، ولهٰذا أثرت طبيعة النور في الملائكة، وأثرت طبيعة النار في إبليس، فالملائكة آمنوا بحكمة اللَّه، وانقادوا لأمره سبحانه في تعظيم آدم، وسجدوا له كما أمروا. وأما

---

(١) في هٰذا الكلام نظرٌ بيِّن، فليس في كلام الملائكة عليهم السلام انتقاص لآدم وذريته، ولم يؤمروا بالسجود له إذلالًا، نعم أراد تبارك وتعالى أن يبين عظمته وتقدُّمَه عليهم بالعلم، لٰكن ليس لأجل احتقارهم له أو إذلالهم بذٰلك، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

(٢) وكذٰلك من طبيعة النار الطيش والظلم، بأن تنال كل شيءٍ حولها.

إبليس فأبىٰ واستكبر وكان من الكافرين، لأنه جره أصله الشرير فعتا عن أمر ربه، وجره الاستكبار والغرور من خبث طبعه إلىٰ أن يقيس قياسًا فاسدًا قائلًا: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]، ووجه فساد قياسه أنه عكس الأمر لفساد تصوره، ذٰلك أن الطين خير من النار بكثير، فالطين فيه خير وبركات عظيمة لا تحصىٰ، وفيه من صنوف المواد النافعة للبشرية ما عرفوه وما لم يعرفوه حتىٰ الآن، وقد جعل اللَّه فيه مكتنزًا[١] للزروع والنباتات المختلفة؛ تنمو به جذورها، وتتشعب فيه خلاياها، وجعل فيه مستودعًا للمياه ومصفاةً للمالح منها، وجعله معقِّمًا ومطهرًا لجميع الجراثيم، حتىٰ أثبت العلمُ الحديث أن في لسان الكلب جراثيمَ لا يطهُرُ الإناء من ولوغه فيها إلا التراب؛ علىٰ رغم ما استحدث في هٰذا العصر من أنواع المطهرات العجيبة.

وبالجملة فمنافع الطين لا تحصىٰ، فهو خير لا شر فيه، وقد أشبعت الكلام عليه عند قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥][٢]، والنار فيها خير ولٰكن شرها أكثر، ولٰكن من غرور إبليس أعماه الكبر عن الحقيقة، والأعمال بالخواتيم؛ حتىٰ كان من الكافرين.

وقد قيل: إنه عبد اللَّه ثمانين سنة أو أضعاف أضعاف ذٰلك، وقد صح الحديث عن النبي ﷺ أنه قال في آخر حديث الولد[٣] الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه: «**فوالذي نفسي بيده إنَّ أحدكم ليَعملُ بعمل أهل الجنة؛ حتىٰ لا يكونَ بينه وبينها إلا ذراعٌ؛ فيسبقُ عليه الكتابُ**[٤]**، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**»[٥].

---

(١) أي: منبعًا للكنوز.

(٢) لعل المؤلف رحمه الله كان له رسالةٌ أو مؤلَّفٌ مستقل حول هٰذه الآية.

(٣) سماه المصنف رحمه الله بِهٰذا لأن أوَّله بدأ بحال ولادة الإنسان في بطن أمه من نطفة، ثم علقة... إلخ الحديث.

(٤) يعني القدر الأول.

(٥) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

قال المحققون: هٰذا النوع من العاملين فيه آفةٌ كامنة وداهيةٌ باطنة في قلبه من كِبْر وعُجب وإدلالٍ[١] علىٰ اللَّه أو حقدٍ علىٰ بعض خلقه، ونحو ذٰلك من أمراض القلب التي تجعل صاحبه لم يؤسِّس عمله علىٰ تقوىٰ من اللَّه ورضوان؛ بل أسسه علىٰ شفَا جُرُفٍ هَار فانهار به في نار جهنم[٢]، وأول هٰذا النوع من الخليقة إبليس الذي لم ينفعه عمله الطويل؛ لِما حَل في قلبه من المرض الذي أورثه سوء العاقبة.

والعَجَب أن كل من يطغىٰ ويتعالىٰ علىٰ غيره يرضىٰ لنفسه أن يكون في أخس حالة، لأنه بطغيانه وانحرافه يحبب الرذيلة إلىٰ الناس، ويعتبرها فضيلةً باسم الحرية والتَّرقي، ويحبب الفواحش والخمور أو يبيحها ـ إن كان قادرًا ـ؛ فيكون بذٰلك كالقوَّاد أو كالديُّوث؛ لأن فيه شبهًا من رئيسه إبليس وداعية الخبث والضلال الذي استكبر عن السجود لآدم، ثم جره الغيظ والحسد والتمادي في الإغواء إلىٰ أن يكون قوَّادًا لأسافل ذرية آدم، كما قال الشاعر وأحسن فيما قال:

عجبتُ من إبليس في كِبْرِهِ ... وفي الذي أظهره من نخوتِه

تاهَ علىٰ آدمَ في سجدةٍ ... وصار قوَّادًا لذريَّتِه

يعني: يقودهم لكل عمل خبيث.

وهاهنا فوائد:

الأولى: اسم «إبليس» مشتق من الإبلاس، وهو الافلاس والإعدام من كل خير؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤]، أي أُعدموا

---

(١) في المطبوع: «إدلاء»، ولعل الأصح ما أثبتناه.

(٢) وكلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن الحديث يدلُّ علىٰ أن هٰؤلاء الذين سبق عليهم الكتاب كان في قلوبِهم دواخلُ سوء، دل عليه ما ثبت في بعض روايات الحديث: «**إن أحدكم ليعملُ بعملِ أهل الجنة ـ فيما يبدو للناس ـ...**» إلخ، فهٰذه إشارةٌ إلىٰ أن الباطن كان يختلف عن الظاهر، وأن هٰؤلاء لم يكونوا صادقين مع اللَّهِ تعالىٰ، بل منافقون فاسقون، نعوذ باللَّهِ من الفضيحة الكبرىٰ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

الخير إعدامًا يحل معه اليأس والقنوط؛ بحيث كان الشر والبؤس صفةً ملازمةً لهم، وكنية إبليس: «أبو مُرَّة».

الثانية: علىٰ المؤمن أن يعتبر ويتعقل ويكون دائمًا علىٰ خوف وخشية، مكثرًا من سؤال اللّٰه الثبات والاستقامة، كما أرشد المصطفىٰ ﷺ إلىٰ هٰذين الدعاءين النفيسين: «**اللهم أعنِّي علىٰ شُكرك، وعلىٰ ذِكرك، وعلىٰ حسن عبادتك**»[1]، «**اللهم يا مقلبَ القلوب والأبصار؛ ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»[2].

ودعاء ثالث: «**اللهم ألهمني رشدي، وقِني شر نفسي**»[3].

الثالثة: اختلف في كيفية السجود لآدم عليه السلام ـ بعد اتفاقِهم علىٰ أنه ليس سجود عبادة ـ:

ـ فقال الجمهور: إنه السجود المعروف؛ كالسجود في الصلاة؛ وأنه تكريم لآدم وإظهار لفضله وطاعة للّٰه في ذٰلك.

ـ وقال بعضهم: إنه عبارة عن التذلل والانحناء.

وهٰذا مخالف لظاهر القرآن[4].

ثم اختلفوا: هل كان ذٰلك السجود خاصًا بآدم عليه السلام؛ فلا يجوز السجود لغيره؟ أم جائزٌ بعده إلىٰ زمان يعقوب عليه السلام؟.

والذي عليه الأكثر: أنه كان مباحًا إلىٰ عصر النبي ﷺ؛ حيث قال: «**لا ينبغي أن يسجدَ لأحدٍ إلا للّٰهِ رب العالمين**»[5].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

(٢) رواه التِّرمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٨٣).

(٤) قلتُ: ولعل الآية التي تفصل النزاع وتحسم الأمر تمامًا قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحِجْر]، فقد قطع اللّٰهُ تعالىٰ الأمر لملائكة بأن «يقعوا» لآدم ساجدين، وهٰذا بيِّنٌ في أنه سجود علىٰ الأرض. واللّٰهُ تعالىٰ أعلم.

(٥) رواه ابن ماجه (١٨٥٣).

وروىٰ ابن ماجه في «سننه»، والبُستي[١] في «صحيحه» عن أبي واقد قال: لما قدم معاذ بن جبل رضي الله عنه من الشام سجد لرسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما هٰذا؟**»، قال: يا رسول اللَّه، قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذٰلك بك. قال: «**فلا تفعل، فإني لو أمرتُ أحدًا أن يسجد لأحد؛ لأمرتُ الزوجةَ أن تسجدَ لزوجها، لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتىٰ تؤديَ حق زوجها...**» الحديث.

وفي بعض طرق معاذ: «ونَهىٰ عن السجود للبشر، وأمر بالمصافحة»[٢].

قال القرطبي رحمه الله: وهٰذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم علىٰ المشايخ واستغفارهم، فيرىٰ الواحد منهم إذا أخذه الحالُ ـ بزعمه ـ يسجد للأقدام لجهله، سواء كانت للقبلة أم لغيره جهالةً منه، ضل سعيهم وخاب عملهم. ونَهىٰ الإمام مالك رحمه الله عن تقبيل اليد مع الانحناء للشيخ أو المعلم، وسماها: «السجدة الصغيرة»، ومع هٰذا فأكثر طلاب العلم في هٰذا الزمان ينحنون لمشايخهم، ولا ينكرون عليهم ذٰلك لما انغرس في قلوبهم من حب خضوع الناس لهم.

الرابعة: نصت الآية علىٰ أمر الملائكة في السجود، وإبليسُ من الجن ليس منهم، فالاستثناء يعتبر منقطعًا عند جماعة، ولٰكن ينبغي ألَّا يعزُب[٣] عن البال أن هناك أمرًا يشمله، وذٰلك لقوله تعالىٰ في الآية (٥٠) من سورة الكهف: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ فهٰذا دليل علىٰ أنه مأمور بالسجود بنص آخر، وحينئذٍ لا يكون الاستثناء منقطعًا ـ وهو الصحيح ـ، أو أن هناك اشتراكًا بين الملائكة والجن، لكون هٰؤلاء خُلقوا من نور، وهٰؤلاء من نار، ومشتركون ـ أيضًا ـ في الاستتار عن رؤيةِ غيرهم، فالأمر من اللَّه بالسجود يعمهم.

---

(١) يعني ابن حبان رحمه الله.

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) **يعزُب**: يغيب.

وقد حكىٰ المفسرون عن إبليس حكايات أعرضنا عنها لأنها لم ترد عن المعصوم ﷺ.

الخامسة: قال القرطبي: قال علماؤنا ـ رحمة اللَّه عليهم ـ: ومن أظهر اللَّه علىٰ يديه ـ ممَّن ليس بنبي ـ كراماتٍ وخوارقَ العادات؛ فليس ذٰلك دالًّا علىٰ ولايته، خلافًا لبعض الصوفية. ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا وليٌّ للَّهِ لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنًا، ولهٰذا لا يمكن القطع بولايته. انتهىٰ باختصار[1].

وذهب ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أن اللَّه تعالىٰ أراد بقصة إبليس تقريعَ أشباهه من بني آدم؛ وهم اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ مع علمهم بنبوته ومع قدم نعم اللَّه عليهم وعلىٰ أسلافهم.

السادسة: ورد في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا يدخُلُ الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ حبةٍ مِن خردلٍ مِن كِبْر**»، فقال له رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حسنًا ونعله حسنةً، فقال: «**إن اللَّهَ جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس**». أخرجه مسلم[2].

و«**بطر الحق**»: تسفيهه وإبطاله، كما يفعله أهل المذاهب المادية.

و«**غمط الناس**»: احتقارهم والازدراء بهم.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾:

هنا يجيء التكريم الثاني والتكريم الثالث لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم يجيء

---

(١) وأقوىٰ الأدلة في ذٰلك أمر المسيح الدجال ـ عافنا اللَّهُ من فتنته ـ؛ حيث ثبت بالأدلة القطعية أن اللَّهَ تعالىٰ يُظهر علىٰ يديه خوارق عظيمة، تفتن الكثيرين عن دينِهم، وتُلقي بهم في هاويات الجحيم، نعوذ باللَّهِ من سوء المنقلب.

(٢) رواه مسلم (٩١)؛ من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الامتحان الذي هو دورُ آدم بعد دور الملائكة.

أما التكريم الثاني: فهو إنعامُ اللَّه عليه بزوجة يسكن إليها، وزوج آدم عليه السلام هي «حواء»، وهو أول من سماها بذٰلك حين خلقت من ضلعه من غير إحساس منه بذٰلك[١]، ولو تألم بذٰلك لم يعطف رجل علىٰ امرأته.

وقال ابن مسعود وابن عباس: «لما أسكن آدم الجنة مشىٰ فيها مستوحشًا، فلما نام خُلقت حواء من ضلعه القصير من شِقه الأيسر؛ ليسكن إليها ويأنس بها، فلما قام وجدها، فقال: من أنت؟ قالت: امرأةٌ خلقت من ضلعك لتسكن إليَّ»[٢].

وهي معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

قال العلماء: ولهٰذا كانت المرأةُ عوجاء؛ لأنها خلقت من أعوج، وهو الضِّلع.

وروىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: **«إن المرأةَ خُلقتْ من ضِلعٍ، وإن أعوجَ شيءٍ في الضِّلعِ أعلاه، لن تستقيمَ لك علىٰ طريقةٍ واحدة، فإنِ استمتعتَ بها استمتعتَ بها وبها عِوَجٌ، وإن ذهبتَ تُقيمُها كسرتَها، وكسرُها طلاقُها»**[٣].

وقال الشاعر:

هي الضِّلعُ العوجاءُ لستَ تُقيمُها ... ألا إن تقويمَ الضلوعِ انكسارُها
أتجمعُ ضعفًا واقتدارًا علىٰ الفتىٰ ... أليس عجيبًا ضعفُها واقتدارُها؟!

التكريم الثالث[٤]: إسكانه الجنة مع زوجته؛ لإتمام النعمة ومنحه

---

(١) لا أعلمُ في هٰذا دليلًا عن المعصوم صلى الله عليه وسلم.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٢٣٠)، وفي التاريخ (١/ ٦٩).
(٣) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).
(٤) في المطبوع: «الثاني»، والأصح ما أثبتناه علىٰ طريقة المصنف، كما تقدم غير بعيد.

جميع ما فيها من المآكل والمشارب الأطايب التي يكون مكتفيًا بها عما سواها، فتقوم عليهما الحجة إذا تجاوزا ما أحل اللَّه لهما منها، وقد أحل اللَّه لهما كل شيء فيها إلا شجرةً واحدةً؛ امتحنهما اللَّه بها ليظهر ما في استعدادهما وبنيهما من قوة الإرادة والثبات أو الميل إلىٰ المحظور لمعرفته واختياره أو الشغف به.

وهنا يأتي دور الإنسان في الامتحان؛ ذٰلك أن اللَّه سبحانه أباح للأبوين جميع نعم الجنة سوىٰ شجرة واحدة ـ قد يكون فيها ضرر، وقد تكون رمزًا للمحظور وسابقة من سوابق التكليف الذي لابد من حصوله في الأرض ـ، لأن الاختبار والامتحان لا يحصل بدون أمر أو نَهْي.

فالأمر الذي يحصل بامتثاله تعظيم الأمر وإجلاله، ويكون علمًا علىٰ الصدق في محبته والرغبة إليه، وقد كان للملائكة والجن، فنجح فيه الملائكة، وسقط فيه إبليس أبو الجن راسبًا.

وأما النهي الذي يحصل فيه الثبات، وتتحقق فيه قوة الإرادة ورباطه الجأش؛ فإنه كان من حظ الأبوين آدم وحواء اللذين زودهما اللَّه بكل ما يغنيهما عن تلك الشجرة، وحذرهما من قربانها ـ فضلًا عن الأكل منها ـ؛ لأن القربان يحصل فيه الميل إلىٰ الأكل، كما حذرهما عن عدوهما الأكبر إبليس قائلًا: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف]، وقائلًا لهما: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] بأبلغ أنواع التحذير، وأبشع أنواع التهديد.

فهو سبحانه لم يقل: «فتكونا ظالمَينِ»؛ بل قال: «فتكونا من الظالِمِين»؛ يعني من العريقِينَ في الظلم، وهٰذا ـ علىٰ ما ذكره اللغويون ـ: إن قولك: زيد من العالمين، أبلغ من قول: زيد عالم، لأن كونه من العالمين يشعر أنه عريق في العلم أبًا عن جد، وكونُهما يكونان من الظالمين يعني الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية، فنقصت حظوظهم من اللَّه بمباشرة ما نهاهم عنه؛ لأنهم بمعصيتِهم قد تعدوا حدود اللَّه.

وقد انحسر الامتحان الثاني ـ الذي هو النهي بسقوط الأبوين ـ في ذٰلك الامتحان وعدم انتفاعهما بتحذير اللَّه لهما من عدوهما حتىٰ وقعا فريسةً له لولا رحمة اللَّه بهما، لأنه خفي عليهما مكر الشيطان حتىٰ أزلهما عما كانا فيه من النعيم، فاستزلهما بالوسوسة والإغراء اللذين يؤثرانِ أعظم التأثير في القلوب؛ فإن اللَّه سبحانه أخبرنا عن طريقة إغواء إبليس للأبوين بالكلام المعسول الذي يدخل القلوب، غزاهما بدغدغةِ العواطف وتحريك الأنانية الكامنة في القلوب؛ قائلًا لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ تتشكلان بكل صورة، ولا يُعجزكما شيء، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ يعني: حلف لهما الأيمان المكررة: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢٢].

وقد قلت في منظومتي «الميمية» ـ في الرد علىٰ الشاعر القروي وأضرابه ـ:

أنانـــيةٌ في الآدمـــيِّ أصـــيلةٌ ... بها يصطدُ الشيطانُ كل مُطَرْهَمِ

والمطرهم في اللغة: هو الصعب العسير الانقياد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: نحَّاهما عن الجنة بأن حَملهما علىٰ الزلة الموجبة للتنحية، أو أنه أزلهما بمعنىٰ أزلقهما فأبعدهما عن الجنة بغروره لهما، لأنه كما قال تعالىٰ في سورة «الأعراف»: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢٢]، أي: أنزلهما عن رتبة الطاعة والمقام الرفيع الذي يتحولان عنه باستقامتهما، ونزل بهما من أعلىٰ إلىٰ أسفل بسبب المعصية التي جَرت منهما بغروره.

والغُرور: إظهار النصح وإبطان الغش، ولا غرور أعظم من غروره لهما بِهٰذه الخديعة والمكيدة التي تنطلي علىٰ القلوب والأفهام غالبًا، ولهٰذا رحمهما اللَّه، ووفقهما للتوبة، وقبلها منهما بفضله ورحمته.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي: من نعيم الجنة الذي حسدهما عليه جاهلًا عدو اللَّه بأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، وأن اللَّه قد هيأهما

لأمر عظيم ينالون به ـ مع صالحي ذريتهما ـ أسمىٰ الدرجات وأفضل أنواع النعيم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وهٰذه الآية الكريمة تصوِّر لنا بدء المعركة بين الأبوين وعدوهما اللدود الحاقد الحاسد، وتبين لنا ضعفهما أمام الغواية والإغراء، ونسيانَهما لعهد اللَّه الذي عهد به إليهما من التحذير الشديد عن إبليس العدو المضل المبين، ومن التحذير عن سوء العاقبة بالعصيان في قربان الشجرة، كما قال سبحانه في سورة «طه»: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾.

ثم تصور لنا هٰذه بَدءَ المعركة التي يريدها اللَّه منذ إهباط الأبوين إلىٰ يوم القيامة في محيطها الذي اختاره اللَّه بين الشيطان والإنسان؛ حيث قال: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾.

والمأمور بالهبوط هو آدم وزوجه وإبليس، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف، ويؤيده قوله: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾. والعداوة قد استعَرَتْ[1] بين الشيطان والإنسان: جنس الشيطان وجنس الإنسان، ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ يعني استقراركم في هٰذه الأرض بحكم اللَّه ليس لكم بديل عنها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ [المرسلات]، ففيها مستقركم ومتاعكم الذي تتمتعون فيه كلٌّ منكم إلىٰ حين أجله، رِزْقكم فيها موفور من جميع أنواع المتاع أكلًا وشربًا وزينةً ومتعةً حسبما تتطور أحوالكم؛ لا ينقصكم شيء فيها.

وهٰذا إعلام من اللَّه بكفاية وكفالة بني آدم في جميع ما يتمتعون به من طيبات الحياة مهما كثروا، لا تضيق بهم المعائش؛ كما يزعمه بعض الملاحدة ويروجه طالبًا تحديد النسل والمنع من تعدُّد الزوجات؛ خلافًا لسنة اللَّه في أرضه، وقد راج هٰذا علىٰ ضعفاء البصائر ممن أظلمت

---

(١) **استعرت**: حميت والتهبت.

قلوبهم لهجرهم وحي اللَّه، وأما المؤمنون الذين يتدبرون وحي اللَّه وتطمئن قلوبهم إليه، فهم واثقون بوعده، ولا ينطلي عليهم هٰذا الدجل والسخافات.

❁ ❁ ❁

فوائدُ وحِكَمٌ وأحكام في قصةِ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الملائكة ومع إبليس

الفائدة الأولى: أن اللَّه لما أخبر ملائكته بأنه جاعلٌ في الأرض خليفة، وتساءلت معه الملائكة في هٰذا الشأن حَجَّهُمْ بعلمه المحيط الذي لا يعلمون مداه، ولم يكتف بذٰلك؛ بل عمل علىٰ إظهار فضل آدم، فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضها علىٰ الملائكة طالبًا منهم معرفتها، فسبحوا بحمده متبرئين من القول عليه بلا علم، ومنزِّهين جنابه عن مقابلتهم له بذٰلك ـ كما مضىٰ توضيح هٰذا ـ؛ مرشدًا لنا إلىٰ الأدب معه وأنه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأن المحدود يجب عليه أن يقف عند حده.

الفائدة الثانية: أصول المعاصي ثلاثة: الكبر والحرص والحسد.

فالكبر: أول معصية عُصي اللَّه بها من إبليس، ثم تلاه كل من تكبَّر عن وحيه وعتا عن أمره من جميع الأفراد والأمم التي نفخ إبليس فيها من الكبر.

أما الحرص: فهو ـ أيضًا ـ أول معصية عُصي اللَّه بها من الأبوين حين الأكل من الشجرة، ثم تلاهما كلٌّ من تجاوز حدود اللَّه في نَهيه من بني آدم إلىٰ قيام الساعة.

وأما الحسد: فهو أول ذنب عصىٰ اللَّه به في الأرض من جهة قابيل؛ حيث قتل هابيل حسدًا[١]، وجميع الفتن والجحود الحاصلة بين أهل الأرض منشؤها الحسد.

الفائدة الثالثة: معصيةُ إبليس معصيةٌ عظيمةٌ خطيرة، ولهٰذا كررها اللَّه في القرآن الكريم، وأعادها بضع مرات لنعتبر ونكون منها علىٰ غاية الحذر، ذٰلك أن المعاصي نوعان: إما مخالفة أمر، أو مخالفة نَهْي.

---

(١) ومن الجدير بالذكر أن أسماء ولدي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرد فيها حديث صحيح عن المعصوم ﷺ، والأمر يسير ـ إن شاء اللَّه ـ.

والشنيعُ الفظيع هو مخالفة الأمر؛ لأنه في الغالب لا يجري إلا من استخفاف بالآمر وانتقاص لجنابه وعدم مبالاة به، ولذا كان منشؤه الاستكبار والغطرسة؛ كما جرىٰ من ذنب إبليس الذي أرداه(١) وأكسبه الشقاوة في الدارين؟ لأن عصيانه عن تكبُّر من خبث في نفسه جره إلىٰ الكفر، لأن منشأ الكفر في الغالب من الكبر، وعلىٰ الإطلاق فتركُ الأوامر أعظم عند اللَّه من ارتكاب المنهيات، وذٰلك:

أولًا: أن ترك الأمر منشؤه العزة والكبر.

وثانيًا: أن فعل المأمور أحب إلىٰ اللَّه من اجتناب المحظور، كما دلت النصوص علىٰ ذٰلك.

فكل تاركٍ لأمر من أوامر اللَّه فهو وارث لإبليس، كتارك الصلاة؛ فإنه من جند إبليس الذي قيل له: «اسجد» فلم يسجد، ولهٰذا ـ وردت النصوص بكفره ووجوب قتله(٢)؛ كما في حديث عليٍّ وجابر وغيرهما عن النبي ﷺ.

وقد قال الناظم الفقيه العُمري المقدسي:

وتاركُ الصلاةِ حتىٰ كسلا ... يقتل كفرًا إن دُعي وقال: لا
وما له فَيء ولا يغسلُ ... وصحح الشيخان حدًّا يُقتلُ

وقوله: «وماله فيء»: يعني لبيت المال لأنه لا يرث ولا يورث، وأصل الفيء مشتق من فاء إذا رجع.

قال الشيخ ابن تيمية: لما كان جميع ما في الأرض حلالًا ومِلكًا للمسلم المؤمن، ولا يستحقه الكافر ـ لعدم قيامه بشكر النعمة ـ، لذٰلك وجب جهاده ليلتزم حكم اللَّه، أو يدخل في دينه، وحَلَّ ما عنده من المال والنساء والمتاع؛ فإنه لها كالمغتصب، لعدم شكره، فسُمي ما

---

(١) **أرداه**: أهلكه.

(٢) يعني تارك الصلاة.

يغنمه المسلمون من الكافرين «فيئًا» لأنه ملك لهم رجع إليهم بعد استغلال الغير له. هٰذا معنىٰ كلامه باختصار.

والمقصود التنبيه علىٰ خطيئة واحدة استحق صاحبُها اللعنة إلىٰ يوم الدين، وكتب اللَّه عليه الشقاء في الدارين، لأنها مخالفة أمر ولا تجري مخالفة الأمر إلا من عزة واستكبار عنه واستخفاف بالآمر كما قدمنا.

فينبغي للمسلم المؤمن التوقي من ذٰلك، والمبادرة بفعل المأمورات وعدم التراخي في تنفيذها، وبغض كل تارك لأوامر اللَّه، معرض عنها، وعداوته للَّهِ وفي اللَّه ـ ولو كان أقرب قريب ـ؛ لأنه تابع لإبليس وشريك له في سلوكه.

فينبغي ألَّا تسيطر العاطفة علىٰ الدين، واللَّه يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]، والفتنة هي الشرك ـ كما فسرها الإمام أحمد ـ؛ لأن المصر علىٰ ترك الأمر مشرك باللَّه، متخذ إلٰهه هواه، كما سيأتي تفصيل ذٰلك ـ إن شاء اللَّه ـ.

الفائدة الرابعة: مخالفة النهي معصية لا يستهان بها، ولذٰلك نال الأبوين ما نالهما من شؤمها، ولٰكنها أهون من مخالفة الأمر الذي فيه استهانة بالآمر واستخفاف به، وإنما كانت أهون لأن مخالفة النهي لا تجري عن كبر واستخفافٍ واستهانة، وإنما تجري من ثورة شهوة يطمع بها صاحبها أو من غلبةِ وسوسةٍ وقوة إغراء أو مِنِ تأثير قرناء السوء؛ ولهٰذا يكون في الغالب صاحبها أوابًا رَجُوعًا إلىٰ اللَّه ـ وإن سَوَّفَ بالتوبة علىٰ مَهَل ـ، وهي معصية آدم وحواء، جرهما إليها الطمع بشهوة الأكل من شجرة ممنوعة بإغراء وخداع لا مثيل له من عدوهما، فينبغي التفريق بين المعصيتين واجتنابُهما جميعًا في ذات اللَّه[1].

---

(١) ومما يؤيد كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفقرة السابقة ما ورد عن سفيانَ بنِ عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن كانت معصيتُه في شهوةٍ فارْجُ له؛ ومَن كانت معصيتُه في الكِبْرِ فاخْشَ عليه اللعنةَ؛ فإنَّ آدمَ عَصَىٰ مُشتهِيًا فغُفر له؛ وإنَّ إبليسَ عَصَىٰ متكبِّرًا =

الفائدة الخامسة: يجب علىٰ من تلبس بشيء من معصية اللَّه أن يبادر إلىٰ التوبة حالًا بدون تمهل؛ لأنه:

أولًا: لا يدري في أي لحظة يموت.

وثانيًا: أن السيئات تجر أخواتِها.

وثالثًا: إن الإصرار علىٰ المعصية ـ وإن كانت صغيرة ـ يجعلها كبيرةً حتىٰ تكون كمعصية إبليس.

فعلىٰ المسلم المؤمن أن يبادر بالتوبة عن هفواته مقتديًا بالأبوين؛ ليتوب اللَّه عليه كما تاب عليهما، ويرفع درجاته مثلهما.

الفائدة السادسة: تارك أوامر اللَّه لا يكون مطيعًا ولا ممدوحًا باجتنابه ما نَهىٰ اللَّه عنه، وهٰذه قاعدة زلت بها أقدام كثير من الناس بتلبيس إبليس وتسويله لهم، فتجد أحدهم يقول: «أنا لا أصلي ولا أصوم؛ لٰكني خير ممن يصلي ويفعل المحرمات، وأنا لا أصلي، ولٰكني لا أسرق ولا أكذب ولا أفعل المحرمات»، فيكون مَثَلُه أسخفَ من مثل «شَبكةٍ تَهزأُ بالمَنخُل»، وهٰذا لفرط جهله وحماقته وغروره، إذ يشابه إبليسَ في ترك الأمر، ويهزأ بمَن شابه أباه آدم.

الفائدة السابعة ـ وهي قاعدة مهمة ـ: هي أن إيجاد ما طلب اللَّه من المسلم إيجاده أحب إلىٰ اللَّه مما طلب تركه، فعدم إيجاد ما يحبه اللَّه أعظم ذنبًا وأكره إلىٰ اللَّه من إيجاد ما يبغضه، ذٰلك أن إيجاد ما يحبه اللَّه جالب لرحمته ونصره ومدده، وإيجاد ما يبغضه اللَّه جالب لغضبه، والرحمةُ تغلب الغضب. وأيضًا فإن آثار إيجاد ما يبغضه اللَّه أسرع زوالًا من آثار ترك ما يحبه اللَّه من الأوامر؛ فإن السيئات تزول بالتوبة والاستغفار والصدقة والدعاء والشفاعة بإذن اللَّه، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة ـ ولو بلغت عَنان السماء[1]، ولٰكن ترك الأوامر ـ التي

= فلُعن» اهـ. «حلية الأولياء» (٧/ ٣٢١)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٦١).

(١) **العَنان:** السحاب.

فيها إعدام ما يحبه اللّٰه من الوجود ـ جريمة خطيرة جدًّا؛ تُدخل صاحبها في الكفر والشرك، فلْيَتنبَهْ لذٰلك المخدوعون الذين وقعوا في مصائد الشياطين.

وأيضًا فإن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سَبعِمئة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة بحسب موقعها وقوة إخلاص صاحبها للّٰهِ وصدقه مع اللّٰه، فهٰذه موهبات ودرجات لا يجوز التفريط فيها، وأما السيئة فجزاؤها سيئةٌ واحدة.

الفائدة الثامنة: هٰذه القصة العظيمة من أمر إبليس بالسجود ونَهْي الأبوين عن الأكل من الشجرة؛ يُعلم منها يقينًا أن الأمر المطلق للوجوب ـ لاستحقاق تاركه الذم والعقوبة شرعًا وعقلًا ـ، وأن النهي للتحريم ـ خصوصًا إذا شفع بتهديد كقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ـ لاستحقاق فاعله الذم والعقوبة شرعًا وعقلًا، خلافًا لما ذهب إليه بعض الأصوليين المتأثرين بعلم الكلام، فالصواب عند الأكثرين كما تدل عليه هٰذه القصة.

الفائدة التاسعة: في الجنة التي أسكنها اللّٰه الأبوين: هل هي جنة الخلد، أم جنة غيرها جعلها اللّٰه لهما امتحانًا، ولم تكن جنة المأوىٰ؟.

والصحيح القول الأخير، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة وبعض المحققين، ويؤيده أمور:

منها: أن اللّٰه خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأرض ليكون خليفةً، ولم يرد نص برفعه إلىٰ السماء. وهٰذا شيء مهم لا يترك اللّٰه ذكره لكرامة آدم.

ومنها: أن جنة المأوىٰ للمؤمنين، وإبليس رأس الكفر؛ فكيف يدخلها؟!.

ومنها: أنها ليست محلًّا للتكليف، وأنه ليس فيها شيءٌ ممنوع.

ومنها: أنه لا يقع فيها العصيان.

إلىٰ آخر دلائلهم المبسوطة في كتاب «حادي الأرواح» لابن القيم، وقد رجح كثير من المفسرين ذٰلك كابن عيينة وابن قتيبة وغيرهما، واللّٰه أعلم.

📖 **قوله تعالى:** ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾:

تُدرك آدمَ رحمةُ اللَّه الذي يحب التوابين، فينهض آدم من عثرته ويتوب من زلته بما ركَّب اللَّه فيه من فطرة الخير والتوحيد، فيلهمه اللَّه لقبول توبته كلماتٍ حبيباتٍ إليه؛ فيهن الاعتراف بالذنب والتقصير واللجوء الكامل إلىٰ فضله وطلب العفو والرحمة له ولزوجه، حاصرًا فلاحه في جهته سبحانه، ومن جهته معترفًا بخسرانه هو وزوجته إن تخلىٰ عنهما. وحينئذ قال هٰذه الكلمات المباركات: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف]، وعند ذٰلك تاب عليه لأنه ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الذي ييسر لعبده وسائل التوبة، ثم يتوب عليه؛ فهو التواب لعباده مهما أذنبوا إذا ذكروا اللَّه وأنابوا إليه، ولم يصروا علىٰ ما فعلوا، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي يرحم عباده مهما أساؤوا فيقبل توبتهم ويبدل سيئاتهم حسنات.

وقد وردت أحاديث في الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، وردت أحاديث، منها الحسن، ومنها الضعيف، ومنها الموضوع المكذوب باتفاق أهل الحديث، وقد أعرضنا عن ذكرها لأنها ليس لها وزن مع نص القرآن الذي ورد في سورة «الأعراف» ـ كما ذكرناه ـ، وإذا وجد الماء بطل التيمم.

إننا نستفيد من هٰذه القصة طبيعة ابن آدم وموقفه أمام التكليف وما ركب اللَّه فيه من الطبائع، طبيعة الحرص والطمع والتطلع والشغف بما لم ينله، خصوصًا ما منع منه وحرم عليه، والكُنود(١) والهلع والغرور والانخداع والعجلة والإعراض عن اللَّه، والابتعاد عنه إذا نال من نعمه ما نال، وما يقابل به النعم من كفر وفخر وجدال وعجب وغضب وأحوال متقلبة وحُمق وملل وهمز ولمز وسماع تكلم وغيرها

---

(١) الكنود: الكفران.

مما يقارب أربعين صفةً نظمتها في ردي علىٰ الشاعر القروي، وآخرها الأنانية المتأصلة في نفسه.

أقول: هٰذا الإنسان الذي رَكَّب اللَّه فيه هٰذه الطبائع لعمارة الكون جعلته يشرقُ بالتكاليف ولا يهضم الدين، ولا يتقبل الدعوة إليه لجنوحه إلىٰ الهوىٰ والشهوات وتعلقه بالأنانية وحبه للرئاسة، ولهٰذا نجد اللَّه يقص علينا تمرد بني الإنسان علىٰ أنبيائهم منذ عهد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقول الملاحدة في زماننا: «إن الدين لا يصلح لهٰذا العصر ولا يساير التطور»؛ قول كاذب من جهة حصره علىٰ هٰذا العصر، ومن زعمهم عدم صلاحيته أو مسايرته التطور، فالدين الإسلامي الصحيح هو صالح مصلح لكل عصر وزمان، وهو يساير التطور الصحيح: التطور في الصنائع والاختراعات، والتطور بأنواع الزينة والجمال الذي هو مظهر من مظاهر نعم اللَّه، والتطور في المسابقة إلىٰ العلم النافع واستعمال العقل والقوىٰ والمواهب، والتطور بأنواع القوة الحربية الرادعة للأعداء.

أما الدين المكذوب المفتَرىٰ علىٰ اللَّه ـ دين الكنيسة والكهنوت الذي هو من غش الماسونية اليهودية ومكرها ـ، فهو الذي لا يصلح لهٰذا العصر ولا لكل عصر، لأنه يُحرم علىٰ أهله العلم ويَحجر علىٰ عقولهم حتىٰ ثاروا عليه طبقًا لما خططته الماسونية ضد الأديان، ليست قاصرةً مقاصدها علىٰ النصارىٰ ونحوهم، بل هدفها الثاني هو الإسلام والمسلمون.

فنقول للمنخدعين بتلبيسات الماسونيين: إن الدين الإسلامي الحق هو ـ كما ذكرناه ـ صالح مصلح للبشرية، مساير لجميع تطوراتها الصحيحة لا الفاسدة التي تريدون، ولٰكن الدين الرباني منذ البداية لا يساير الأغراض الشخصية والشهوات البهيمية والنزعات العصبية والمطالب الأنانية، وليس لعصر من العصور طبائعُ ما ضد الدين، فالعصور واحدة، ولٰكنها الطبائع البشرية التي تضيق ذرعًا بالتكاليف مهما كانت صغيرة،

فقد قص اللَّه علينا نبأ الأبوين كيف لم يكتفيا بما أعطاهما في الجنة من صنوف النعيم، وجرهما طبعهما إلىٰ الأكل من الشجرة الممنوعة منقادين إلىٰ وسوسةِ عدوٍّ مبين، قد حذرهما اللَّه منه، فحالة أبنائه كحالتِهم حتىٰ يقفوا عند حدود اللَّه، وإلا فهم يتمردون علىٰ الدين بحجة عدم صلاحه ـ أي موافقته لأهوائهم ـ.

فقوم نوح ومن بعده موقفهم معروف من الدين إلىٰ عهد كفار قريش الذين قالوا لمحمد ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، قرآنك هٰذا لا يوافق أهواءنا ولا يساير شهواتِنا ورغباتِنا، قرآنك هٰذا يقضي علىٰ رئاستنا وتسلط بعضنا علىٰ بعض. قرآنك هٰذا لا يتفق مع أنانياتنا، فلابد أن تأتينا بغيره أو تبدله، فأرشده اللَّه أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس].

فهٰذه سمة البشر وليست سمة العصر، هٰذا طبعٌ أصيل للابتلاء والامتحان ولحصول الجهاد، ولتمييز الخبيث من الطيب منذ عهد الأبوين في الأقدمين، إلىٰ عصر كفار قريش في الآخِرين، إلىٰ ورثتهم في هٰذا الزمان من أفراخ الماسونية المنادين بعدم صلاحية الدين، متبجحين بدعوىٰ التقدمية، وهم سلكوا مسلك الرجعية من كفار قريش، ولٰكن كفار قريش أشرف؛ لأنهم يحملون عقولًا استقلالية اهتدوا بها ـ فيما بعد ـ إلىٰ الحق، وصاروا أعوانًا للحق انتفع بهم الدين ـ كما سجله التاريخ ـ، أما هٰؤلاء فلم ينتفع بهم إلا الماسونية التي أبرزتْهم لصالح الدولة اليهودية، فهنيئًا لبني إسرائيل بكل فرخ للماسونية ينادي ضد الدين ويعمل علىٰ فساد الأخلاق.

ومن تدبر قصة آدم الذي اختاره اللَّه وذريته خليفة في الأرض، وكيف رفع من شأنه وأسجد الملائكة له، ثم امتحنه امتحانًا سلط عليه الشيطان العدو المضل المبين، وجعله يسقط في هٰذا الامتحان بتقبله الغواية،

ويتجرع مرارة الحزن والندامة ثم يؤويه إلىٰ حصنه الحصين بالتوبة، ويعلمه في سبيلها ما لم يكن يعلمه؛ كل هٰذا تربية إلٰهيَّة من عليم حكيم لخليفته في الأرض؛ حيث اقتضت حكمته ألَّا يسلم إليه عهدة الخلافة حتىٰ يمر بِهٰذا الامتحان القاسي والتجربة المريرة التي نسي فيها العهدَ بالتحذير من الشيطان بسبب الأنانية التي جرته إلىٰ معصيةٍ ضحك عليه الشيطان لكي يستلم العهد الدائم في الأرض، وهو مزود بِهٰذه التجربة التي يتفطن فيها لمواصلة الجهاد بكل صدق وقوة هو وأولاده مع عدوهم الشيطان؛ ليقيم في الأرض جميع الفضائل التي يريدها اللَّه سبحانه، ويطهر الأرض مما يخالفها بغاية المستطاع، وهنا يجيء دوره الحقيقي متجليًا في قول اللَّه سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾.

وأعظم الاعتبارات في هٰذا الدور هو أن الإنسان سيد هٰذه الأرض، ومن أجله خلق اللَّه له كل شيءٍ فيها، وهو إذا أحسن التصرف في الخلافة الإلٰهية باتباعه وحيَ اللَّه، فهو أعزُّ وأكبرُ وأغلىٰ عند اللَّه من جميعِ الدنيا وما فيها، وقيمته عند اللَّه أعظم؛ فلا يجوز له أن يستعبد نفسه ويستذلها لغايةٍ مادية أو رغبة في شهوة حيوانية يخون بها عهد اللَّه أولًا، وينزل بنفسه ثانيًا إلىٰ غاية السقوط وهو لا يشعر؛ لما ران علىٰ قلبه من ظلمات المادة والشهوة والهوىٰ، فدوره في هٰذه الأرض دورُ القيادة والتوجيه التي يستلهم أنظمتها من السماء لا من أي مصدر آخر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فمالكُ الملك رب السماوات والأرض يمنح الإنسان جميع ما في الأرض، ويوجب عليه قيادتَها جميعًا بشرط ارتباطه بالسماء، وذٰلك باتباع وحي اللَّه يكون له الاستخلاف والقيادة العالمية علىٰ جميع الأرض، فأي مبدأ مادي أو مبدأ قومي عصبي يمنحه عشر معشار ذٰلك، ولو منحه ما قدر علىٰ ذٰلك، ولا تم له ذٰلك، لأنه لا يقدر علىٰ رفع الخوف والحزن

إلا اللّٰه الذي تعهد لأوليائه الصادقين في حمل رسالته، والمخلصين في العمل بهدايته وتوزيعها أن ينصرهم ويستخلفهم في الأرض ويحييهم حياةً طيبةً لا يجري فيها عليهم خوف يزعجهم، ولا حزن يغمهم؛ كما في هٰذه الآية، وفي الآية (٩٧) من سورة «النحل»، والآية (٥٥) من سورة «النور».

وما أبعد الفرق بين ما وهبه اللّٰه للإنسان من عموم الملك والاستخلاف والتمكين، وبين ما قيدته المبادئ القومية والمذاهب المادية في حدود اصطناعية لا يملك فيها حقيقة التصرف كما يريد اللّٰه منه، إنه لفرقٌ عظيم، ولٰكن الانحطاط العقلي والخلقي جعل الكثير في عماية عن ذٰلك.

إن ارتباطات خلائف اللّٰه في أرضه ارتباطات سماوية في جميع أحوالهم وشؤونهم السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ارتباطات الخليفة بمن استخلفه، لا يلتفت إلىٰ غير مراد اللّٰه في جميع شؤون حياته ولا يستسلم لشيءٍ من الأوهام والمغريات.

إن علىٰ الإنسانية ألَّا تجرِّب ما جربه أبوها؛ فتنتابها الحوادث الجسام وتحل بها الندامة. إن الأبوين انكشفت عوراتُهما، وبدت لهما سوءاتُهما من خطيئة واحدة؛ فكيف بآلاف الخطايا والذنوب؟!.

نصل الذنوب إلىٰ الذنوب ونرتجي   درج الجنان إلىٰ النعيمِ الخالدِ
ولقد علمنا أخرج الأبوين من   ملكوتِه الأعلىٰ بذنبٍ واحدِ

إن أشنع ما يُردي الإنسانية ويهويها في كفر إبليس أو ما هو أعظمُ من كفر إبليس ـ والعياذ باللّٰه ـ هو تنكرها لحقيقتها الأصلية وواجبها في الأرض، واتجاهها نحو المادة والأنانية وتعلقها بالشهوات. إنه مسخ لحقيقتها، وطمس لشرفها، وقضاء علىٰ جميع مقوماتها، وطبع علىٰ قلوبها، وخراب لضمائرها، وذهاب بحريتها؛ فإن اللّٰه ﷻ أعطىٰ الإنسانية قيمتها الكبرىٰ في الأرض، تلك القيمة التي يجب علىٰ المسلم أن ينطبع بها ويندفع، وأن تكون جميع تصوراته نابعة منها، وأن يقيم

الوزن لحقيقته في الوجود الذي أوجب اللَّه عليه أن يرتبط بعهده الذي أوجده من أجله ليكون خليفةً في الأرض، ولا يحصل له ذٰلك إلا إذا حصر التلقي للهداية والسير في الحياة علىٰ وحي ربه الذي استخلفه وأوجب عليه أن يسير علىٰ نَهجه الذي اختاره له ﷻ، فلا يجعل لنفسه الخيرة في أي شأن من شؤون الحياة، ولا يتخذ أندادًا من دون اللَّه يستلهم منهم الرشد والمعلومات، فإن هٰذا هو مفرقُ الطرق بين حزبية الرَّحمٰن وحزبية الشيطان.

إنه ليس في الوجود طريق ثالث ولا حزب ثالث، وإنما هما حزبان فقط:

ـ حزب متبع لهداية اللَّه، مرتبط بعهد اللَّه، متمسك بوحيه، سائر علىٰ صراطه وإلىٰ صراطه، مجاهد نفسه في سبيله، موثوق الصلة به، معتمد عليه، غير مبال بما سواه، فهٰذا هو حزب اللَّه.

ـ وحزب آخر متبع لهواه، تابع لما يقدسه ويرتضيه من البشر في ميدان السياسة، أو ميدان الثقافة أو الاقتصاد أو الاجتماع، يتلقىٰ الرشد والثقافة من نظريات وزُبالة الأفكار اليهودية التي تروجها في سائر الطبقات البشرية مما هو مخالف لوحي اللَّه، وشارد بصاحبه عن الصراط المستقيم، ومزهِّد له أو مبغِّض لكل ما هو من طريق النبي محمد ﷺ، ويعلق آماله في نواحي حياته السياسية علىٰ أشخاص قد وهبهم ثقته من دون اللَّه، وسلم لهم رقبته بدون حبل نخاسة، قد أوقع نفسه في رق معنوي لا يمكن التحرر منه؛ لأنه لا يتصور الرق فيسعىٰ لإزالته، وإنما يتصور الحرية الكاذبة بعقليته الفاسدة. وفي ميدان الاقتصاد والاجتماع والتشريع يستحسن ما يشرعه أولٰئك، ويستهجن شرائع اللَّه وحدوده لمُروج عقله، وفساد تصوراته، وانعكاس مفاهيمه، وتنكُّرِه لنفسه وحقيقته.

فهٰذا الحزب ـ أو هٰذا النوع من الناس ـ اختلفت أسماؤه، وتنوعت

ألقابه، وتشعبت نظرياته ومبادئه ومذاهبه؛ فهو حزب الشيطان ما بين كافر أصيل أو منافق عميل دخيل.

فاللَّه العليم الحكيم ـ إذ يقص علينا قصة آدم والملائكة، ثم قصة إبليس مع آدم، ثم قصة آدم وحواء مع إبليس، ويكررها في بضع سور من كتابه العزيز ـ؛ لم يقصها للتفكه والتسلي، وإنما قصها للاعتبار أولًا، وللتعريف بحقيقتها العظيمة ثانيًا، ثم للتعريف بواجبنا المقدس ثالثًا.

حقًّا إن واجبنا المقدَّس هو تسيير هٰذا الكون حسب منهج اللَّه الذي أوجبه علىٰ البشر فيما أنزله من وحيه المبارك، فاللَّه ﷻ يرفع بني آدم، ويرتفع بنفوسهم إلىٰ ما لا نهاية له إلىٰ جنات عدن في غرف من فوقها غرف، والماديةُ الهوجاء ـ التي هي من ألعن مصائد الشياطين ـ تتسفل بهم إلىٰ أسفل السافلين مما لا نهاية له إلَّا الخزي في الحياة الدنيا، ثم الانهيار الأخير في نيران الجحيم. فما أعظم الفرق بين المنزلتين!!.

إن في أطراف هٰذه القصة وأبعادها تصوراتٍ عظيمةً؛ فيها إعلاء من شأن إرادة الإنسان وحريته الواسعة في جميع مجالات الحياة؛ التي لا يلتفت لشيء فيها، ولا يخضع لشيء منها سوىٰ رب العالمين، ليس بينه وبين البشر واسطة ولا كهنوت ـ كما في العرف النصراني ـ، ولا أحزاب أو تقيد بدساتيرها ـ كما في العرف المادي المتقلب بين هوايات الأشخاص ورغباتهم والخاضع لبطشهم وإرهابهم ـ، بل الإنسان إذا انحصرت تصوراته علىٰ وحي اللَّه، ولم يتأثر بشيء من التيارات الإلحادية؛ فإنه يملك الارتفاع بنفسه إذا شمخ برأسه نحو الوفاء بعهد اللَّه فقط، ولم يخضع لشهواته ويتسفل بأنانياته التي تنسيه عهد اللَّه. فقصة الأبوين مع إبليس فيها إيحاء دائم لإيقاظ بني آدم وتحريك مشاعرهم، وإلهاب عواطفهم، وتحميسهم نحو واجبهم المقدس أمام اللَّه ـ مع التحذير الشديد من الشيطان وجنوده ـ؛ ليحاربوا كل إغراء يَرِدُ عليهم ويصدهم عن الوفاء بعهد اللَّه.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إعلام منه سبحانه لعباده أنهم إذا التزموا وحيه وقاموا بعهده؛ فإنهم لا يخافون من أي أحد، ولا ترهبهم أية قوة، ولا يحزنون علىٰ ما يفوتهم من مصلحة أو يصيبهم من تكاليف باهظة، فإن اللَّه ناصرهم وخالفٌ عليهم، ومن كان مع اللَّه كان اللَّه معه، ومن هو في معية اللَّه لا يغلب ولا يحزن؛ فما عليهم إلا حسن الإخلاص للَّه والصدق معه في أخذ وحيه بقوة، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء].

وفي هٰذه الآية والتي بعدها ـ وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ـ تحقيق للمصير المحتوم، وأن الجزاء علىٰ حسب الأعمال، وأن الناس أمام عهد اللَّه فريقان:

ـ فريق مؤمن قد أوفىٰ بعهد اللَّه، وأخذ ما آتاه اللَّه بقوة؛ فهو المنصور المعزوز الذي لا خوف عليه ولا حَزَن.

ـ وفريق كافر كفرًا أصليًّا أو كفر نفاق وردة؛ فهٰذا له الشقاء في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالىٰ في الآية (١٢٣، ١٢٤) من سورة «طه»: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾. ولا ريب أن المعرض عن اللَّه حياتُه ضنكٌ محفوفة بجميع الإرهاصات والمخاوف، وإن كان متنعمًا فحقيقة حياته في بؤس وشقاء.

ثم إن هٰذه الآيات ـ وما قبلها من قبول اللَّه لتوبة آدم ـ فيها دحض لشبهات النصارىٰ المدسوسة عليهم من شياطين الإنس ـ من ماسونية وغيرها ـ من كونِ خطيئة آدم يتحملها بنوه البشر جميعًا، وأن صلب عيسىٰ ـ بزعمهم الكاذب ـ لتكفيرها عنه، فاللَّه يقرر لنا أن الخطيئة فردية، خطيئة إبليس ناشئة عن كبر وعجب وعزة، فتحمَّلها بنفسه، ونال اللعنة الدائمة وحده، وخطيئة آدم ناشئة من حرص وشهوة وقوة إغراء وتلبيس من عدوه، فوفَّقه اللَّه للتوبة وتاب منها فتاب اللَّه عليه، كما

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه]، فلم يبق لخطيئته أثر لا على نفسه ولا على أحد من ذريته أبدًا؛ كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر]، وكما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

فآدم تخلص من خطيئته بالتوبة المباشرة، واصطفاه اللَّه بعدها لحسن توبته وقبولها، وطريق التوبة مفتوح لكل مذنب من بني آدم ـ إذا تاب اللَّه عليه ـ، ولٰكنها الخرافات والضلالات.

وليت شعري إذا كان صلب عيسىٰ ـ علىٰ زعمهم ـ للتخلص من خطيئة آدم، فكيف يُجعل عيسىٰ كبش الفداء من سائر الأنبياء والمرسلين وبني آدم أجمعين؟!!.

في هٰذه الحادثة من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها والألسنة عن صفتها، فنقتصر علىٰ ذكر بعضها كإتمام للفائدة؛ فنقول:

أولاً: إن اللَّه خلق الخلق لعبادته، وهي الغاية من خلقهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات]. ومن المعلوم أن العبودية المطلوبة من الخلق لا تحصل في الجنة ـ أيَّ جنة كانت ـ، وإنما تحصل في الأرض موقع الابتلاء والامتحان، فهي في الحقيقة دار التكليف.

ثانيًا: إن اللَّه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب ممتزِج بداعي الشهوة والفتنة وداعي العقل والعلم، فقد خلق فيهم العقل والشهوة وجعلهما يتنازعان بمقتضياتهما ليتم مراده ﷻ، وليظهر لعباده عزته في حكمته ورحمته ولطفه في سلطانه وملكه؛ ولهٰذا اقتضت حكمته ورحمته أن يذيق أباهم وبال مخالفته، ويُعرفه ما خفي عليه من عواقب إجابة الشهوة والهوىٰ؛ ليكون بعد الهبوط أعظم حذرًا وأحسن مرونة وأشد هروبًا من الهوىٰ.

ثالثًا: إن اللَّه سبحانه أنزلهم إلىٰ دار يكون فيها إيمانهم بالغيب، وذٰلك هو الإيمان النافع ـ كما تقدم شرح فوائده في أوائل السورة ـ،

وأما الإيمان بالشهادة ـ الذي هو الإيمان بالمحسوس ـ؛ فهٰذا لا ميزة فيه؛ بل لا يقع إلا حين لا ينفع نفسًا إيمانُها، كالإيمان عند النزع، أو عند طلوع الشمس من مغربها، أو عند مشاهدة أهوال يوم القيامة، فلو أبقاهم اللَّه في الجنة ـ أيَّ جنة ـ لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب.

رابعًا: إن اللَّه سبحانه أراد أن يبتليهم بالأمر والنهي ليختبرهم بالطاعة والانقياد وعكسهما، وبالإخلاص من الشرك، وبالصدق من النفاق، وليست الجنة دار تكليف.

خامسًا: إن اللَّه أراد أن يتخذ منهم رسلًا وأنبياء وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه، فخلىٰ بينهم وبين عدوهم الشيطان وجنوده في هٰذه الحياة وامتحنهم بهم، فمن راغَم الشياطين منهم ـ بإيثار مراد اللَّه علىٰ مراده وببذله نفسه وماله في سبيل مرضاة ربه ـ، نال من محبته ورضوانه والفوز بجواره في جنانه ما ليس ممكنًا أن يناله لولا ذٰلك أبدًا، فإن تحقيق حصر الحب في اللَّه والبغض في اللَّه والموالاة والمعاداة في اللَّه وبذل النفس والنفيس في ذات اللَّه أمرٌ لا يحصل من بعض البشر لولا إهباطهم إلىٰ الأرض بمشيئته وحكمته.

سادسًا: إنه سبحانه هو اللَّه الملك الآمر الناهي المشرع والمثيب المعاقب والمعز المذل، فاقتضت حكمته إنزال آدم وذريته إلىٰ الأرض؛ لتظهر آثار ألوهيته وملوكيته بإجراء تلك الأحكام المُلْكية عليهم التي يستحقون ـ بطاعته وتنفيذ شريعته وإقامة حكمه ـ مثوبته العاجلة في الدنيا من العز والنصر والتمكين والعيشة الراضية، ثم مثوبته الآجلة في جنان الخلد والنعيم، كما يستحقون عقوباته الشرعية والقدرية في الدنيا علىٰ مخالفة أوامره والإعراض عن حكمه ونبذ هدايته، ثم يُسحبون إلىٰ نار الجحيم في الآخرة.

سابعًا: إنه لما كان سبحانه يحبُّ الصابرين ويحب الشاكرين والتوابين والمتطهرين والمحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا؛ اقتضت

حكمته أن يجعل في الأرض من يعمل بمحابّه ليجازيهم عليها، وذٰلك نعمة منه وفضلًا.

ثامنًا: إنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم؛ وذريته من يواليهم ويوالونه ويحبهم ويحبونه، إذ محبتهم له غاية كمالهم وشرفهم، ولا يحصل تحقيقها إلا بالمسابقة في مرضاته والصدق معه في بيع النفس والمال، وترك ما يكرهه من الشهوة المحرمة، وهٰذا لا يحصل إلا في الأرض.

تاسعًا: إن اللَّه سبحانه أراد أن يعرِّف عباده الذين أنعم عليهم بتمام نعمته عليهم، وقدرها ليكونوا أعظم محبةً وأكثر شكرًا وأعظم التذاذًا بما أعطاهم من النعمة، فأراهم فعله بأعدائهم وما أعد لهم من العذاب، وأشهدهم تخليصهم من ذٰلك، وتخصيصه لهم جنات النعيم، ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعرفوا تمام النعمة، ولا يحصل هٰذا إلا في الأرض.

عاشرًا: إنه لما خلق خلقه أصنافًا، وقضىٰ بتفضيل آدم وذريته علىٰ كثير من خلقه، وجعل عبوديته الشرعية الاختيارية أفضل الدرجات، اقتضت حكمته إسكان آدم وذريته الأرض؛ لينالوا فيها تلك العبودية الشريفة التي لا يخرج منها إلا الذي يدخل في عبودية لشيطان، فيفوز من قام بعبودية اللَّه مجاهدًا نفسه وهواه مراغمًا لأعدائه الشياطين، وكان من السعداء في الدنيا والآخرة من نال رضوان اللَّه ووعوده التي لا تتخلف في الدارين.

الحادي عشر: إن اللَّه سبحانه اختار أن يذيق آدم وذريته من نَصَبِ الدنيا وغمومها وأوصابها[1] وهمومها؛ ما يعظم عندهم به مقدار دخول الجنة المحفوفة بالمكاره، والتي لا تُنال بدون ذٰلك، فيعودوا إلىٰ الجنة علىٰ أحسن حالة وأرفع درجة، والشيء يُعرف حسنُه بضده.

الثاني عشر: إن اللَّه خلق آدم؛ من قبضة قبضها من جميع الأرض،

---

(١) **الأوصاب**: المتاعب والآلام.

والأرض؛ فيها الطيب والخبيث والسهل والحَزْن، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمجاورته في داره، فأنزله إلىٰ دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه، ثم ميزهم بعد ذٰلك بدارين ـ بعدما أقام عليهم الحجة ـ، فجعل الطيبين أهلًا لجواره، والخبيثين في النارِ دار الخبثاء.

الثالث عشر: إنه سبحانه له الأسماء الحسنىٰ، ولابد من ظهور آثار هٰذه الأسماء، فاقتضت حكمته إنزال بني آدم[1] دارًا يظهر عليهم فيها آثار أسمائه الحسنىٰ، فيغفر فيها لمن يشاء، ويرحم من يشاء، ويستُر علىٰ من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، وينتقم ممن يشاء، ويعطي ويمنع من يشاء، ويسلط من يشاء علىٰ من يشاء، ويقبض ويبسط لمن يشاء وعلىٰ من يشاء... إلىٰ غير ذٰلك من ظهور آثار أسمائه التي من أجلها ـ أيضًا ـ قدَّر المقادير.

الرابع عشر: إنه سبحانه لما قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، ثم أظهر سبحانه علمه لعباده وملائكته بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه، ومن يبذل نفسه في محبته ومرضاته، ويجاهد أهواءه وشهواته في ذاته سبحانه، فكأنه يقول للملائكة: انظروا كيف جعلتُ في الأرض من يبذل نفسه في محبتي، ويُفني أوقاته في طاعتي، ويترك شهواته ومحبوباته في مرضاتي، ويعبدُني حق العبادة مع معارضات النفس والهوىٰ والشيطان، وأنتم تعبدونني من غير معارضٍ يعارضكم، ولا شهوةٍ تنازعكم، ولا عدوٍّ سُلط عليكم، ففرق عظيم بين عبادتكم وعبادتهم.

الخامس عشر: كأن اللَّه يقول للملائكة ـ مجيبًا لهم علىٰ استفهامهم الأول ـ: انظروا كيف أظهرت ما خفي عليكم من أمر عدوي إبليس، وتكبُّره عن أمري، وسعيه في خلاف مرضاتي، وهٰذا وهٰذا كانا كامنينِ

---

(١) في المطبوع: «آدم»، ولعل الأصح ما أثبته.

في أبي البشر وأبي الجن، فأنزلتهم دارًا أظهرت فيها ما كنتُ منفردًا بعلمه، وأظهرت حكمتي وتم أمري، وبدا لكم ـ أيها الملائكة ـ ما لم تكونوا تعلمون.

السادس عشر: إنه لما كانت محبة اللَّه وحده هي غاية الكمال والسعادة للعبد، ولا كمال ولا سعادة له بدونها، وكانت المحبة الصادقة لا تتحقق إلا بإيثار المحبوب علىٰ غيره من محبوبات النفس، واحتمال كل مشقة في طاعته ومرضاته، اقتضت حكمته سبحانه إنزالهم في الأرض المحفوفة بالشهوات التي بإيثار اللَّه عليها والإعراض عنها تتحقق محبتهم له، ولهٰذا يتحمل العبد المشاقَّ الشديدة، وركوب الأخطار في هٰذا السبيل، ولولا ذٰلك الإنزال ما عمل بمحبة اللَّه.

السابع عشر: إنه بإنزال آدم وذريته تظهر الأسباب التي يُحمد اللَّه عليها، وله الحمد المطلق الذي لولا ذٰلك لما ظهر.

الثامن عشر: إنه سبحانه لا شيء أحب إليه من التذلل، تذلل العبد بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه، ومعلوم أن هٰذا لا يحصل إلا بالأسباب التي اقتضتها حكمته سبحانه من إسكان بني آدم في الأرض.

التاسع عشر: إنه سبحانه له الخلقُ والأمر، فأمره شرعه ودينه الذي جاءت به الرسل، وكله تكاليف يمتحن اللَّه بها العباد ليظهر المؤمن ويتميز عن الكافر ونحوه، وليست الجنة دار تكليف.

العشرون: إنه يحب من عباده أمورًا لا تحصل منهم إلا بحصول أسباب لا تكون إلا في الأرض ولا تكون في الجنة.

الحادي والعشرون: إن اللَّه جعل الجنة دار جزاء وثواب، وقسم منازلها علىٰ قدر أعمال أهلها، ولهٰذا خلقها، وجعل النار دار جزاء أخرىٰ للعصاة وقسمها علىٰ قدر خطيئات أهلها وكفرهم، فلابد لكل دار من ساكن، فلهٰذا جعل بني آدم في الأرض ليعمل كلٌّ منهم ما يوصِّله إلىٰ منزله في

الدار الآخرة، من جنان النعيم، أو نيران الجحيم.

الثاني والعشرون: إن اللَّه سبحانه لما اختاره خليفةً في الأرض، وعلم بسابق علمه أنه يطمع فيما لا يعرف عاقبته ـ لأنه خُلق من عَجَل ـ؛ فأراد تربيته بالامتحان الذي تجرع مرارة العجلة فيه؛ هٰذا من جهة. ومن جهةٍ أخرىٰ أراد اللَّه أن يريَه النعيم في الجنة حتىٰ لا يؤثر الدنيا علىٰ الآخرة، هٰذا قليل من كثير في الحكم. واللَّه أعلم.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾:

من بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة ـ التي لن يُبلغ شأوها أبدًا ـ: هو تفننه بانتظام مسائل مختلفة في سلك موضوع واحد؛ فإنه سبحانه قرر عدم الريبة في القرآن، ثم ذكر أصناف الناس فيه، من مؤمن وكافر ومنافق، ثم ضرب الأمثال للمنافقين، ثم طالب الناس بعبادتهم له، وأقام الدليل علىٰ أن القرآن من عنده، وتحدىٰ المرتابين بما يعجزهم. ثم حاجج الكافرين بأنصع البراهين، من إحيائهم مرتين وإماتتهم مرتين وخلق السماوات والأرض لمنافعهم، ثم ذكَّرهم بأصل الخليقة واقتضاء حكمته استخلافَ بني آدم في الأرض، وذكرهم بالامتحان المرير لأبيهم آدم، وإهباطه إلىٰ الأرض لابتداء دور القيام بعهد اللَّه، متعهدًا للمتبعين هدايته ـ قولًا وعملًا ودعوةً ـ بحياةٍ طيبةٍ في الدارين، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس]، لا يخافون مما هو آت، ولا يبالون بأي قوة مهما عظمت، لقوة اعتمادهم علىٰ اللَّه الذي يصرفها عنهم أو ينصرهم عليها، ولا يحزنون علىٰ ما فات، لجزمهم أن اللَّه يخلفه عليهم، ومتوعدًا الكافرين بالعذاب الأليم علىٰ اختلاف أنواعهم.

بعد هٰذا كله وجه الخطاب إلىٰ اليهود لمجاورتِهم المؤمنين في المدينة وشرقتهم بالرسالة المحمدية، مع علمهم بها في التوراة، ومع

ما أنعم اللَّه عليهم من نعمٍ ليس لها مثيل، وحمَّلهم عهده أحقابًا من السنين، فلم يرعوه حق رعايته، ففضح دفائن أنفسهم الخبيثة في مِئتين وأربع وستين آيةً من وحيه المبارك، منها أربع وثمانون آيةً في هٰذه السورة، وسبع وستون آيةً في سورة «آل عمران»، وتسع وعشرون آية في سورة «النساء»، وثلاث وأربعون آية من سورة «المائدة»، وإحدىٰ وأربعون آية من سورة «الأعراف»؛ هٰذا عدا ما جاء في قصة موسىٰ المكررة في سبع سور من القرآن الكريم، وعدا آيات أخرىٰ قليلة في سورة «الإسراء» وغيرها تعرضت لذكرهم.

وقد ابتدأ اللَّه التحدث معهم وختمه بندائهم ونسبتهم إلىٰ أبيهم[1]، وتذكيرهم بنعمته وعهده بكل لطافة، ليفتح قلوبَهم، ويحرك عواطفهم، ويستحثهم علىٰ الإيمان قائلًا: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وإسرائيل لقب ليعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرَّحمٰن عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ فقد أُنعم عليهم بعشر نعمٍ عظيمة لم تتوفر كاملة لغيرهم من الأمم ـ سيأتي تفصيلها ـ، والمقصود من تذكيرهم أن يشكروها شكرًا عمليًّا، فيؤمنوا إيمانًا صحيحًا كاملًا برسله جميعًا، وبوحيه من التوراة التي فيها ذكرُ خاتم أنبيائه محمد ﷺ وذكر أوصافه التي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم؛ لأنهم إن لم يقوموا بذٰلك لم يشكروا نعمته، بل كانوا بها من الكافرين.

وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، هٰذا العهد المطلق الذي جاء بلفظ المفرد يُراد به جميع العهود، الشرعي منها والفطري:

فالعهد الفطري: هو التدبر والتَّروي بآيات اللَّه الكونية، ووزن كل شيء بميزان العقل؛ فإنها[2] شاهدة علىٰ اللَّه وعلىٰ كمال قدرته وإحاطة علمه، وشمول حكمته وعظيم رحمته، بحيث لا يعذر معها المشرك

---

(١) يقصد إسرائيل، وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) يعني آياته جَلَّ جَلَالُهُ.

المعطل عقله وتفكيره تقليدًا للآباء، أو انجرافًا مع تيار الإلحاد،أو خضوعًا للبيئة.

والعهد الشرعي: بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقد اختص بنو إسرائيل بنصيب كبير من ذٰلك، فعندهم التوراة من أمهات الكتب السماوية، فيها التوحيد، وفيها التشريعات والحدود، وفيها ذكر العهد علىٰ النبيين وأممهم: لئن جاءهم محمد ﷺ ليؤمنُن به ولينصرنه، وفيها ذكر أوصافه تمامًا ـ كما تقدم ـ، وفيها وعد اللَّه لهم إذا حققوا الإيمان وأخذوا وحيه بقوةٍ أن يمكِّنهم من بيت المقدس، ولٰكنهم نكثوا جميع ذٰلك، فلهٰذا يذكرهم اللَّه بِهٰذا العهد المتشعِّب قائلًا: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، أي: أُنجزْ لكم ما وعدتكم به تحت قيادة هٰذا النبي الذي تعرفونه في التوراة.

ولما كان سبب مخالفتهم لوحي اللَّه تعالىٰ ونقضهم عهود اللَّه الخوف والطمع[1]، قال لهم سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾، أي: لا تخشوا مِن غيري أبدًا، لينحصر خوفكم منِّي دون ما سواي، فإن الخوف من غيري شرك، والطمع في غير مرضاتي إفلاس من الخير الصحيح.

فإن كنتم تخافون فواتَ بعضِ المنافع، أو نزول الأضرار بكم ـ إذا خالفتم جماهيركم واتبعتم الوحي ـ، فالأجدرُ بكم ألَّا تخافوا ولا ترهبوا إلَّا ممَّن بيده أزمَّةُ الأمور، لا يحصل نفعٌ أو يحل ضررٌ إلا بأمره وتدبيره، فهو المالك لكل شيء، وهو المنعم عليكم بكل شيء، وهو القادر علىٰ إنزال أفدح العقوبات بكم إذا استمررتم علىٰ ترك شكره وعدم الوفاء بعهده.

ولقد كان من المنتظر أن يسارع يهودُ المدينة إلىٰ الإسلام، ويكونوا دعاةً لمن وراءهم إليه، لأنهم يعرفون رسول الإسلام، وقد جاءهم بما يعرفون، ولأنهم كانوا يهددون مشركي العرب ـ كما سيأتي بيانه[2]ـ؛

(١) يعني الخوف ممَّن قد يتسلطون عليهم، أو الخوف من ضياع متاع الدنيا وزينتها ونحو ذٰلك، كما سيبين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قريبًا.

(٢) أي: يهددونهم بأنهم سيحاربونَهم مع الرسول الآتي في آخر الزمان، وهٰذا =

ولذا يقول اللّه لهم:

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

ذٰلك أن القرآن جاء مصدقًا بالتوراة وآمرًا بالإيمان بها، وهٰذا من أكبر الحوافز لهم علىٰ الإيمان بمحمد ﷺ والقرآنِ الذي أنزل إليه ـ لو كانت صدورهم سليمة ومقاصدهم حسنة ـ؛ لأنه لو كان علىٰ العكس[١] لانجرح[٢] شعورُهم، وأخذهم الكِبرُ والإعجاب بما أوتوا، لٰكن لما كان هٰذا القرآن قد أعطىٰ التوراة وبنيها حقهما؛ فالواجب العقلي الوجداني ـ فضلًا عن الديني ـ يوجب عليهم الفرح والمبادرة بالإيمان، لينالوا أجر السبق ومفخرته، ولهٰذا يوجههم اللّه إلىٰ ما فيه خيرهم وعزهم، ويحذرهم من انعكاس الأمر قائلًا: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾؛ لأن الكافر الأول ينال مساوئ وجرائم كل من تبعه وقلده علىٰ الكفر، فله نصيبٌ كبير من آثامهم دون أن ينقص عليهم شيء من الأوزار، وهٰذا إثم متواصل إلىٰ يوم القيامة، كما وردت النصوص بذٰلك؛ لأن المعجب بطريقةٍ ما لابد أن يحبِّذها[٣] ويدعو إليها، فإن كانت طريقة حسنةً كان له أجرها وأجر من تبعه عليها إلىٰ يوم القيامة، وإن كانت سيئةً كان عليه وزرها وأوزار من تبعه عليها إلىٰ يوم القيامة.

فلهٰذا نهاهم اللّه أن يكونوا أول كافر بالقرآن، وكفرهم به جُحودهم أنه من عند اللّه، وأولية الكفر هنا لبني جنسهم، فكأنه يقول لهم: يا معشر أحبار أهل الكتاب، صدقوا بما أنزلت علىٰ رسولي محمد ﷺ من القرآن المصدِّقِ لكتابكم، والذي عندكم ـ من التوراة والإنجيل المعهود

= قبيل مبعثه ﷺ.

(١) أي: ولو كان القرآن لا يصدق التوراة النازلة من عند اللّه تعالىٰ.

(٢) في المطبوع: «لا يجرح»! ولا أدري ما وجهُها، ولعل الأصح ما أثبتنه، واللّهُ أعلم.

(٣) **يحبِّذها**: يفضِّلها.

إليكم فيهما ـ أنه رسولي ونبيي، ذٰلك الرسول النبي الأمي الذي تجدونه مكتوبًا عندكم فيهما، ولا تكونوا أول من كذب به من الأمم وجحده، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم، فيكون عليكم إثمُ الجميع، وتتحملون ضلال من ضل من أمتكم إلىٰ يوم القيامة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يعني: لا تستبدلوا بآياتي ما تأخذون من عرض الدنيا علىٰ تعليم الدين، وما تريدون [من] بقاء رئاستكم وفرض نفوذكم علىٰ عامتكم، ذٰلك أن أكثر ما يَصرف العارفين عن الحق هو الطمع ـ إما بالمال الذي يأخذونه بالدجل والشعوذة، أو الطمع بالرئاسة والجاه ونفوذ الكلمة ـ، وجميع هٰذا يُعتبر قليلًا ـ مهما عظُم وكثر ـ بالنسبة إلىٰ ما عند اللَّه، فإن الملتزم لآيات اللَّه ينال من فضل اللَّه العاجل والآجل ما لا تعدله الدنيا جميعها، ولذا صار الجاحدُ لآيات اللَّه والمعرض عنها طمعًا بمالٍ أو جاه قد اشترىٰ بها ثمنًا قليلًا، فهو مغبون وصفقته خاسرة.

ولذا قال ﷻ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾، يعني: اتقوا سخطي في بيعكم آياتي بالثمن الخسيس ـ الذي هو طمعكم بمال أو جاه ـ أن أنزل بكم ما أنزلته بأسلافكم من العقوبة والنقمة، وخذوا لأنفسكم وقايةً منها باتباعكم هٰذا الوحيَ، وتصديقِكم بِهٰذا الرسول ﷺ.

تنبيه: جاء في هٰذه الآية صيغة خطاب الجمع في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾، وقد أفرد لفظ ﴿كَافِرٍ﴾، فلم يقل: «أول الكافرين».

ووجه الجمع بينهما في شيء واحد؛ هو أن ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ أي: أول فريق كافر، فاللفظ مفرد والمعنىٰ جمع، فيجوز مراعاةُ كلٍّ منهما، وقد جمع اللغتين قولُ الشاعر:

فإذا هُمُ طَعِموا فألْأَمُ طاعمٍ   وإذا همو جاعوا فشرُّ جِياعِ

وقيل: هو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع، كقول الشاعر:

وكان بنو فزارةَ شرَّ عمٍّ وكنتُ لهم كشرِّ بني الأخينا

وقوله ﷻ ـ في آخر الآية الثانية ـ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾، وفي آخر الآية الأولىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ ليس بينهما تعارض؛ بل هما في غاية التناسب:

ففي الآية الأولىٰ ـ التي فيها الأمرُ بوفاء عهد اللَّه ورعاية نعمة الرسالة ـ لمَّا كان من جملة الموانع عن الوفاء خوفَ بعضهم من بعض، أمرهم اللَّه أن يحصروا خوفهم ورهبتهم من اللَّه فقط، فهو الذي بيده مقاليد الأمور، وهو القادر وحده علىٰ عقوبتكم وعلىٰ سلب النعمة منكم.

وفي الآية التي تليها قال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾؛ لأن تركهم الحق واستمرارهم علىٰ الباطل كان بسبب اتقاء المرؤوس غضب الرئيس، واتقاء الرئيس فوات منافعه من المرؤوسين، فطلب اللَّه منهم اتقاءه وحده، وعدم المبالاة بما سواه، فالتناسب بينهما واضح بديع.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ تحذير من اللَّه لهم من أن يَلبسوا ـ أي: يخلطوا ـ الحق بالباطل حتىٰ يشتبه علىٰ عوام الناس، وذٰلك أن أكثر الضلالات لا ترُوج علىٰ الناس ويتفاقم شرها إلا بسبب هٰذا الخلط الذي يَضيعُ به وجه الحق، وقد كان من تلبيس أحبار اليهود: أنهم يُلبِّسون الأمر علىٰ العامة في شأن محمد ﷺ بأنه من الكذابين، استنادًا لما جاء في التوراة من نبوغ[1] أنبياءَ كذابين، ومن بعث رسولٍ من بني إسماعيل موصوفٍ بأوصافه الحسية الصحيحة التي يعرفونها، فهم يكتمون ما في التوراة من الحق ـ الذي هو الإخبار ببعثة محمد ﷺ ـ، ويزعمون أنه من الكذابين، الذين جرىٰ التحذير عنهم في التوراة، وهٰذا من أشنع أنواع الخلط والتلبيس؛ ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهم يكتمون الحق بطريقة الخلط الذي يحصل فيه الالتباس، وبعضهم يلبس الحق بطريق النفاق، فيُظهر الإيمان بمحمد ﷺ، ولٰكن يزعم أنه نبي العرب خاصةً؛ تلبيسًا

---

(١) نبوغ: ظهور.

منه على العامة لئلا يشكوا في التوراة.

ومن معنى «اللبس» المذكور: قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام].

وقول الشاعر:

لمَّا لَبَسْنَ الحقَّ بالتجنِّي غنينَ واستبدلْنَ زيدًا منِّي

فزعمهم أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى غيرهم ـ وهو مبعوث إلى الناس كافةً ـ هو من لبسهم الحق بالباطل ليخلط الأمر.

وقيل: إن الحق هو التوراة، والباطل هو ما كتبوه بأيديهم ودسُّوه فيها، فخلطوا الحق بالباطل، وليس هذا ببعيد، لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

والسبب الحادي[1] لهم على شن المعركة ضد الإسلام: هو ما يعرفونه ويتحققونه من زوال سيادتِهم وانتقال القيادة العالمية عنهم إلى بني إسماعيل، ولكنهم لم يلوموا أنفسهم لسوء تصرفاتهم وفساد أعمالهم وأخلاقهم التي بسببها قضى اللّٰه سبحانه بنقل القيادة عنهم إلينا؛ بل أبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يحاربوا الحق بكل لؤم وخسة، ولا يزالون على هذه الحال، لأنهم ضربوا بوحي اللّٰه عَرَضَ الحائط.

ولذا فاللّٰه سبحانه يواجههم بِهذه النداءات والتذكيرات والوصايا النافعة، والتفريعات المؤثرة في القلوب، فنجده ﷻ بعد تلك النواهي يأمرهم بما يَعْمُر الضمائر قائلًا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾، فأوصاهم بإقامة الصلاة؛ لأنها إذا أقيمت على وجهها كانت أفضل ما يعبِّر عن الشعور بعظمة المعبود وشديد الحاجة إليه، ولها أعظم تأثير في تهذيب النفوس والسمو بها إلى الملكوت الأعلى، ولذا

---

(١) **الحادي**: السائق والدافع.

أبان اللَّه أثرها بأنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر[١]، فلو أقامتها يهودُ حق إقامتها لارتدعوا عما يقومون به من صنوف المنكر ضد الإسلام والمسلمين، خصوصًا إذا قرنوها بالزكاة المرققة للقلوب، فاللَّه يرشدهم إلىٰ فعل ما تصلح به أخلاقهم وترتفع به نفوسهم عن المطالب الخسيسة والمقاصد الدنيئة إلىٰ المطالب العالية التي يوجبها عليهم في وحيه المبارك من التوراة والقرآن.

ومن انطبع بالتكبير الصادق شمخ برأسه إلىٰ السماء قاصرًا همته علىٰ حمل بضاعة السماء، وترفَّع عن المقاصد الأرضية المادية، ولذا طلب اللَّه منهم أن تكون صلاتهم جماعةً قائلًا سبحانه: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، يريد منهم أن يكونوا في جماعة المسلمين يصلون معهم؛ لِمَا في صلاة الجماعة من تظاهُر[٢] النفوس عند مناجاة اللَّه، وإيجاد الألفة والتعارف والتكاتف بين المؤمنين، إذ باجتماعهم يتدارسون مشاكلهم، ويتشاورون فيما بينهم علىٰ مهمات الأمور.

وتعبيره سبحانه عن الصلاة بالركوع ليُبعدهم عن صلاتهم المألوفة الخاليةِ من الركوع؛ فهو ﷻ بعد ما أمرهم بالقيام بشكر نعمته العظيمة والوفاء بعهده ـ اللذين هما أصل الإيمان ـ، أمرهم بالأعمال الصالحة، مقتصرًا علىٰ مهماتها من الصلاة ـ التي هي من أعظم دعائم العقيدة وروافد الإيمان ـ، والزكاة التي فيها تزكية للنفس ووقاية لها من شرور الشح، وفيها مظهرٌ من مظاهر شكر اللَّه علىٰ نعمه، وفيها نماءٌ للمال، وفيها صلةٌ عظيمة بين الناس بالبذل المحبَّب بين النفوس، فهي وشيجةٌ[٣] اجتماعيةٌ عظيمة يحصل بها التكافل العام في هٰذه الحياة، فطلب اللَّه منهم إيجاد هٰذه المقاصدِ الأربعة التي فيها جماع الخير؛ ليتحولوا بتحقيقها عما هم عليه من سوء الطباع وخبث الطوية؛ ولهٰذا أخذ

---

(١) كما في سورة «العنكبوت»، الآية (٤٥).

(٢) **التظاهر**: التعاضد والتعاون.

(٣) **الوشيجة**: الصلة المترابطة.

يقرعهم ويوبخهم ـ بعد هٰذه الوصايا ـ بقوله ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وهٰذا الخطاب موجهٌ إلىٰ أحبار يهود وعلمائهم الكبار والصغار ـ من كل من يقرؤون التوراة ويخالفونها ـ باعوجاج طريقتهم وفساد أعمالهم، وهم يأمرون غيرهم بالبر، إذ ينصحون بعض الناس بالإيمان بمحمد ﷺ[1]، وهم لا يؤمنون به؛ بل يسعون ضده بكل مؤامرة ودسيسة.

وقال السُّدِّي: «كانوا يأمرون الناس بطاعة اللّٰه، وينهونهم عن معصيته، وهم يفعلون ما يَنهَون عنه»[2].

ونسيانُ النفس هو تركها مفلسةً من الهداية، ويعبَّر عنه للمبالغة في عدم المبالاة فيما يجره الهوىٰ عليهم من وبال وشرور، يعني: إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب علىٰ البِر وبوعيده علىٰ تركه، فكيف نسيتم أنفسكم فحرمتموها حظوظها العالية التي تنالها لو اتبعتم محمدًا ﷺ ودعوتم إلىٰ دينه؟! ولٰكنكم سلكتم مسلك الغش والتلبيس الذي يضرُّ أنفسكم علىٰ حسب ما تقومون به ضد محمد ﷺ، وأنتم تزعمون الإيمان بالتوراة وتلاوتَها[3] والمحافظة عليها، ولٰكنكم ما كنتم تتلونها حق تلاوتِها، لأن حق تلاوتِها هو العمل بها، وقد جاء فيها الإخبار بنبوة محمد ﷺ وأوصافه في مواضع كثيرة من أسفارها، حتىٰ جاء في «سِفرِ الاشتراع» (١٩) ما معناه: «إن اللّٰه ينتقم ممَّن لا يسمع لما يتكلم به محمد ﷺ باسم اللّٰه».

ولٰكن الأحبار والرهبان لا يذكرون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم، ويرفضون كل ما يتعارض مع شهواتِهم، ومن هنا كانت قلوبُهم قاسية، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ [المائدة: ١٣].

---

(١) يقصد قبل بعثته ﷺ.
(٢) فهم أئمةٌ وقادةٌ لعلماء السوء عبر الأجيال.
(٣) **التلاوة**: الاتباع.

وقد جاءت هٰذه الآية بأسلوب التقريع والتأنيب الكافي لإخراسهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: إن مما يزيد في إجرامكم كونكم علماء ﴿تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مجردَ قراءةٍ خالية عن العمل والتطبيق، فلو جرىٰ مثل عملكم من جهال أميين لكان أسهل ذنبًا وأخف جريمة، فالفرق عظيم بين من يفعل علىٰ جهل، وبين من يفعل أشنع المنكر من الافتراء علىٰ اللَّه عن علم وبصيرة، أو يترك المأمور علىٰ علم ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفلا يحبسكم عقلكم عن هٰذه الجرائم الوخيمة التي تستنزلُ سخط اللَّه؟ فإن من عنده ذرةٌ من العقل لا يدعي كمال العلم بالتوراة وينصب نفسه للهداية وهو مخالف لما يقول.

وهٰذا الخطاب ـ وإن كان موجهًا لبني إسرائيل ـ فهو عام لجميع الأمم، وعلىٰ الأخص أمة القرآن، فينبغي للمسلمين ألَّا يتشبهوا بأولٰئك من سائر الطبقات.

ففي الآية تحذير للحكام أن[1] يلبسوا الحق بالباطل تبريرًا لمقاصدهم، وفيها تحذير للقضاة أن[2] يفتنهم الطمع، فيلبسوا الحق بالباطل، ليغيروا وجه الحق أو يبطلوه بأخذ الرِّشوة، وتحذير للعلماء والمفتين أن[3] يلبسوا الحق بالباطل أو يسكتوا عن النطق بالحق أو يلزموه لطمع في مال أو رئاسة، وأن[4] يشتريَ الكلُّ من أولٰئك بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا.

ذٰلك أن كل عالِمٍ مادي أو متميع؛ فإنه لابد أن يلبس الحق بالباطل في فتواه أو في حكمه، لأن المادي لا تتم له أغراضه إلا بمخالفة الشرع

---

(١) في المطبوع: «ألَّا»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه. والمقصود من «الحكام» كلُّ من كان له كلمة في رقاب العباد، من حكام الدول وعلماء الملة وأمثالهم، وسوف يتضح هٰذا من كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قريبًا.

(٢) في المطبوع: «ألَّا»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه.

(٣) في المطبوع: «ألَّا»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه.

(٤) في المطبوع: «ألَّا»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه.

ودفع الحق بأنواع الشبهات، ولذا تجد الاستعماريين ـ حتىٰ الشيوعيين ـ يتزلف عندهم[١] علماءُ المادة ويُزلفونهم[٢] لخدمة أغراضهم؛ فيصبحون كعلماء اليهود.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

يوصيهم اللَّه سبحانه أن يستعينوا بالصبر والصلاة علىٰ تحقيق الوفاء بعهده والقيام بأمره، والتزام ما وصاهم به في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ والقيام بنصرته، لأن انتقالهم من موقفهم المشين إلىٰ الموقف الذي يرضاه اللَّه يحتاج إلىٰ قوة وشجاعة، لأنه طغىٰ عليهم حب المادة والرئاسة وتسويل الشيطان، ووجدوا في ذٰلك مرتعًا خصيبًا لمَّا نسُوا حظهم في الآخرة، فانتقالهم من تلك الأطماع والغرور صعب يحتاج إلىٰ رِفد عظيم، وليس هنا رفد أعظم من الصبر والصلاة، فالصبر هو احتمال المكروه بكامل الرضا والتسليم، وأركانه ثلاثة:

١ ـ حبس النفس علىٰ مكروهاتها تسليمًا لأمر اللَّه.

٢ ـ تحمُّل المشقة والأذىٰ في سبيله إيثارًا لمراد اللَّه ورضاء به.

٣ ـ انتظار الفرج ثقةً بوعد اللَّه، واستمطارًا لمدده الروحي وتأييده علىٰ المثابرة.

وبتكامل أركان الصبر المؤدية إلىٰ المقصود ينجو بنو الإنسان من الخسران في كل شأن من شؤون حياتِهم، ويحفهم الخير في كل منها، كما قضىٰ اللَّه علىٰ ذٰلك في سورة «العصر». ولا تتحقق الاستعانة بالصبر إلا برفض كل شيء وكل سبب يصرف عن صراط اللَّه وشرعه، من اتباع الشهوات والولوع بالأنانية والملذات، والبعد عن كل ما

(١) أي: يتقرب إليهم.

(٢) **يُزلفونَهم:** يُقرِّبونهم.

يزلف فيها، ثم بالقياس بينها وبين ما عند اللَّه من نعيم دائم أو عذاب مقيم، فإن الصبر الحقيقي لا يكون إلا بتذكر وعد اللَّه بالجزاء الحسن العظيم للصابرين عن الشهوات المحرمة والعاملين بالطاعات المرضية للَّه، وأن الاستعانة باللَّه تكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

وأما الاستعانة بالصلاة؛ فلكونها أنفع الوسائل إلىٰ حصول المأمول وإرجاع النفس إلىٰ اللَّه؛ لما لها من التأثير المعنوي والروحي؛ لأن فيها معارج روحيةً للمصلين الصادقين ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون]، فهي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، لما يحصل فيها من مراقبة اللَّه في السر والنجوىٰ، وحسبُك بعبادة يناجي صاحبها ربَّه في اليوم بضع مرات أو أضعافها نافلة.

وقد روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» أن النبي ﷺ كان إذا حَزَبَه[1] أمرٌ فزع إلىٰ الصلاة[2].

وكان فيها راحة معنوية، ولهٰذا كان يقول: «**يا بلال، أرحنا بالصلاة**»[3]، ولم يقل: أرحنا من الصلاة ـ كما هو منطق المفلسين في روح الدين ـ.

وكان يقول: «**جُعلت قرَّةُ عيني في الصلاة**»[4].

ومن خواصها: الصبر وطرد الهلع، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج].

ومن خواصها: الجود والسخاء والشجاعة وحُسن مراقبة اللَّه، ولذا تجد المصلي الحقيقي لا يترك الحق لشهوة نفس أو خوفٍ من أحد، بل لا يبالي بما يلاقيه من المشاق والمتاعب؛ ذٰلك أن الصلاة فيها

(١) حَزَبه: كَرَبَه وأهمَّه.
(٢) رواه أبو داود (١٣١٩).
(٣) رواه أبو داود (٤٩٨٥).
(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩).

صلة عظيمة بالقوة الخفية، صلة بين العبد وربه، يستمد منها قلبُه قوةً معنويةً، وتجد فيها نفسه زادًا أحسن وأغلىٰ من جميع أغراض الدنيا، وتحس فيها روحه بطمأنينة ويقين، فهي ينبوع في متناول المؤمنين، يؤمن لهم زاد الطريق، ويسهل عليهم ظمأ الهواجر، وهي المدد الروحي حين ينقطع المدد المادي فيكون للمؤمنين خير عوض ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

وقد تكرر الأمر في القرآن بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ لأن الصبر زاد معنوي لا ينضب معينه، ولا يستغنىٰ عنه لمواجهة الشدائد، خصوصًا ما يطلب من بني إسرائيل من النزول عن القيادة والسيادة والنفع والمكاسب المادية، خصوصًا للحق الذي كتبه اللَّه علىٰ غير أيديهم، وإن كثيرًا من الناس يعادي الحق إذا أُخذ علىٰ غير يديه، فكيف إذا كان يأخذ ما في يديه؟ ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وهل الضمير[1] راجع إلىٰ الجملة الأخيرة التي هي الاستعانة بالصبر والصلاة؟ أو راجع إلىٰ الصلاة فقط؟ أو هي ضمير الشأن راجعٌ إلىٰ جميع الجمل المتعاقبة منذ ابتداء نداء اللَّه لهم ومطالبتهم بوفاء العهد وشكر النعمة والإيمان بالقرآن، وغير ذٰلك مما يجمعه الاعتراف بالحق والعمل به؟.

وقد جاء في «قواعد التفسير» مراعاة جميع الضمائر في القرآن، فعلىٰ هٰذا تكون هٰذه الأوامر المطلوبةُ منهم كبيرةً شاقةً وصعبةً إلا علىٰ الخاشعين الخاضعين المخبتين للَّه، الخائفين من أليم عذابه وشديدِ عقابه، لأنهم مترقبون ما ادخر اللَّه لهم من الثواب، فتهون عليهم الصعاب، لأنهم يتوقعون لقاء اللَّه يوم الحشر والحساب، وإن مرجعهم إلىٰ اللَّه لا مرجع لهم غيره، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) يعني الهاء في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾.

وعبر اللَّه بالظن للإشارة إلىٰ أن من ظن لقاء اللَّه لا تصعب ولا تشق عليه التكاليف ـ وخصوصًا الصلاة ـ؛ فما ظنك بمن يتيقن لقاء اللَّه؟ وهنا كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ، كأنَّ بني إسرائيل الذين يلبسون الحق بالباطل ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، لم يصل إيمانهم باللَّه وبكتابه ولقائه إلىٰ درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالأحوط فيما يقول ويعمل، وإنما إيمانهم تقليدي موروث لا ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد فَسرت «الظنَّ» كثيرٌ من المفسرين هنا باليقين؛ لأن استعمال «ظن» ومشتقاته في معنىٰ اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب، ولا شك أن اليقين بالرجعة إلىٰ اللَّه وحده هو الباعث علىٰ تحمل التكاليف والصبر عليها من فعل وترك، وهو مناطُ التقوىٰ للإحساس العميق الذي يحصل به الوزن الصحيح لجميع القيم، التي متىٰ استقام ميزانُها بدت جميع الدنيا بخزائنها ومعادنها وخيراتها وثرواتها وزينتها ثمنًا قليلًا جدًّا بالنسبة إلىٰ ما عند اللَّه للمؤمنين في الدار الآخرة.

ومما جاء في القرآن من استعمال الظن بمعنىٰ اليقين قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة]، أي: أيقنت. وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] أي: أيقنوا.

ومن كلام العرب قول دُريد بن الصِّمَّة:

فقلت لهم: ظنوا بألفَيْ مدجَّج ... سَراتهمُ في الفارسي المُسرَّدِ(١)

فقوله: «ظنوا»، أي: أيقنو

وقول عُمير بن طارق:

---

(١) وقع تحريف في بيت الشعر في المطبوع، وتم تصحيحه من عدة مصادر.

فإن يعبروا قومي وأقعدُ فيكمو وأجعلُ مني الظنَّ غيبًا مرجَّمَا

أي: أجعل مني اليقين غيبًا[١].

وعلىٰ كل حال فلو لم يجعل الظن بمعنىٰ اليقين في هٰذه الآية؛ لكان له مساغٌ قوي لواقع بني إسرائيل، خاصةً لأنه مشعر بذٰلك. ولا يَرِدُ عليها كون الظن لا يغني من الحق شيئًا؛ لكونهم متلبسين بذٰلك.

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

يعيدُ اللَّه نداءه لليهود بنفس اللقب الذي يحبونه، وبأسلوب آخر في التذكير، يهز مشاعرهم ويفتح قلوبهم لو كان عندهم وجدان، وذٰلك لخطورة موقفهم من الإسلام والمسلمين، وتنكُّرهم لنعمة اللَّه ونقضهم لعهده ـ بل لعهوده جميعها ـ بمناصبتهم العداوة للإسلام والمسلمين، وجنايتهم علىٰ التوراة بالتحريف والتلبيس، وقيامهم بالمؤمرات المتواصلة منذ فجر الإسلام حتىٰ الآن لم تنقطع، ولم تفتر ولم تتغير إلا في الشكل دون الحقيقة، علىٰ الرغم من أنهم مطارَدون في جميع بقاع الأرض، لا يجدون الظل الظليل إلا في الإسلام وبين أهله، لأنه مفتوح ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية التي لا تزال قائمةً في غير المجتمع الإسلامي حتىٰ هٰذا العصر المسمىٰ بـ«عصر النور والحرية» إفكًا وزورًا، فلم يشفع للمسلمين رحابة صدورهم وسماحة دينهم وسعة عدلهم.

واليهود ـ هٰذا الزمانَ ـ تفاقم شرهم بسبب ما أحدثوه من الخَواء الروحي والإفلاس في الدين بواسطة الثقافة التي ركزها كل مستعمر

---

(١) في المطبوع: «أي: أجعل مني الظن غيبًا»! والظاهر أنه سبق قلم من المصنف رحمه الله، ولعل الأصح ما أثبتُّه.

من الغرب والشرق بتعليم منهم وتصميم، حتىٰ أقاموا في الشعوب التي فسروا لها معنىٰ الحرية تفسيرًا ملتويًا، وزرع[١] بذور الخلاف وتجسيمه باسم الأحزاب إلىٰ مذاهب متطاحنة ومبادئ متنافرة؛ أقامت فيما بينها أندية الإباحية والتعري والفوضىٰ؛ لكي يَحرِفوا[٢] العالم عامةً والعرب والإسلام خاصةً، ليضمنوا لأنفسهم من هٰذا الاستصباحَ بلهيب تلك النار؛ بل استخدموا جميع الوسائل الدينية لشراء الضمائر وتأديب أمةٍ بيد أمة أخرىٰ، بل لتأديب الشعب الواحد ببعض أبنائه العاقين الحاقدين. وما هٰذه الثورات والانقلابات التي ابتدأت في بريطانيا وفرنسا وضربت خيامها الآن في أفريقيا والشرق الأوسط إلا تنفيذًا لخططهم التي أوصت بها حاخاماتُهم ومحافل ماسونيتهم.

ومن العجب أنهم يوحون لعملائهم التفريقَ بين الصهيونية واليهودية، فخدعوا الجهال المتعلمين، وجعلوهم يرمون الصهيونية بكل نقيصة وجريمة، ويربطون أفواههم وأقلامهم بسلسلة احترام اليهود؛ حتىٰ زعموا أن اليهود إخوانهم، وأنهم لا يعادون إلا الصهيونية[٣]، وهٰذا من فرط جهلهم بوحي اللَّه الذي فضحهم بدون تفريق وكشف لنا حقيقة اليهود.

إنها صهيونيةٌ منذ العهد القديم ـ كما سيراه القارئ والمستمع، من توضيح مئات الآيات نصًّا وشرحًا ـ، وإن كل يهودي هو صهيوني ـ مهما تقنَّع بشتم الصهيونية إفكًا وخداعًا ـ، وإن كل صهيوني هو يهودي، واسمع كلام رب العزة كيف يفضحهم ـ زيادةً علىٰ الآيات المتقدمة ـ مبتدئًا الكلام معهم بما يفتح قلوبهم ـ لو كان عندهم ضمير ـ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾؛ ففي هٰذه

---

(١) هٰذا معطوف علىٰ قوله قبل سطرين: «الخواء الروحي...».
(٢) يَحرِفونَهم: يُبعدونَهم.
(٣) راجع تفاصيل الفرق بين اليهودية والصهيونية في «دعوة التقريب بين الأديان»، للشيخ أحمد بن عثمان القاضي.

الآية تأكيد لما تقدم، وتمهيد لما عُطف عليه من التفضيل الذي هو من أجلِّ النعم؛ فإن في هٰذا التذكير مطالب وتهديدًا:

منها: أن هٰذه المَكرُمة وهٰذه النعمة التي أكرمهم وخصهم بها من تفضيلهم علىٰ أمم زمانهم وإكرامهم بنعم لم تحصل لغيرهم؛ ينبغي ذكرها وشكرها، فمِن شكرها الإيمان بكل نبي يرسله اللَّه ـ وعلىٰ الأخص خاتم النبيين محمد ﷺ ـ لهداية جميع البشر، ومن لم ينكر هٰذه النعمة ـ بل جعلها حجةً للإعراض عنه والازدراء بما جاء به ـ فقد كفر بِهٰذه النعمة، وكان مستحقًّا لمزيد الخزي والنكال الذي كتبه اللَّه عليهم لما حرَّفوا وبدلوا، خصوصًا لما زعموا أن فضل اللَّه محصور فيهم، وأن اللَّه وقفٌ عليهم!.

وثانيًا: إن اللَّه الذي فضلكم علىٰ غيركم ـ فيما فضَّل ـ له أن يفضل غيركم عليكم؛ خصوصًا إذا تجاهلتم سبب التفضيل، ولم تشكروا نعمة اللَّه عليكم فيه، لأن العقل ـ فضلًا عن الدين ـ يقضي بأن يكون المفضَّل أولىٰ بالسبق إلىٰ الفضائل ممن فُضِّلَ عليه، وإلا فما قيمةُ التفضيل؟! لابد من انعكاس الأمر إذا لم يغلب هو المفضَّل عليه بكل فِعلِ فضيلةٍ.

وثالثًا: إن كان هٰذا الفضل بسبب كثرة الأنبياء، فلا مزاحم لهم فيه، لٰكنه فضلٌ إجمالي بحيث لا تقتضي تلك الفضيلةُ أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم؛ بل ولا تمنع أن يفضَلَهم أخس الشعوب إذا انحرفوا عن هدي أنبيائهم واهتدىٰ بهديهم غيرهم.

ورابعًا: إن كان تفضيلهم بالقرب من اللَّه باتباع شرائعه، فالفضل مقصور علىٰ المستقيمينَ منهم علىٰ ذٰلك، وأما المنحرف فله نصيب من المثل السيئ الذي ضربه اللَّه لهم من التشبه بالكلب والحمار، ومن اللعنة علىٰ لسان داود وعيسىٰ ابن مريم عليهما السلام.

خامسًا: إنهم ليسوا بأفضل من أمةِ محمد ﷺ علىٰ الإطلاق؛ لورود النصوص بفضل هٰذه الأمة وخيريتها ما دامت مستقيمةً علىٰ عناصر

الفضل والخير.

وهٰكذا نداء اللَّه لبني إسرائيل؛ فإنه ناداهم باسم أبيهم الذي هو منشأ فخرهم وأصل عزهم، وأسند النعمة والفضل إليه لشمولهما إياهم، والتفضيل لم يأتهم لمجرد نسبهم أو سوادِ عيونهم؛ وإنما جاءهم لتمسكهم بالفضائل واجتنابهم الرذائل لما كانوا متمسكين بالتوراة، عارفين أن من كان مفضلًا شريفًا يترفع عن الدنايا والرذائل، فلما خلف منهم خلوفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وأساؤوا التصرف بالكتاب، فأخذوا يقولون علىٰ اللَّه غير الحق، لأنهم أخذوا العرض الأدنىٰ من المال أو الشهوة ـ مع علمهم بتحريمه عليهم ـ، وقالوا: «سيغفر لنا»! وإنْ عَرَضَ لهم عَرَضٌ آخر أخذوه، فهم مصرُّون علىٰ ذٰلك حتىٰ أهدروا كرامتهم بأطماعهم وأغراضهم، وانحطوا من جميع مراتب الفضل.

واللَّه ﷻ يناديهم مذكِّرًا لهم بمفخرتِهم، وطالبًا منهم تجديد شكرهم له، مؤكدًا حجته عليهم، ومحذرًا لهم من التمادي في الشرود عن اتباع محمد ﷺ، ثم قَرَن ذٰلك بالوعيد؛ حيث قال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾، كأنه يقول: إن لم تطيعوني لأجل إنعاماتي القديمة، فأطيعوني للخوف من عقابي في المستقبل، وخصوصًا في يوم يقعُ فيه من الأهوال ما لا طاقةَ بكم علىٰ دفعه، ولا منجاة لكم فيه إلا بتقوىٰ اللَّه في السر والعلانية، فاتقوني لهٰذا اليوم الذي تنقطع فيه الأسباب، وتبطُل منفعة الأنساب والأحباب، وتتحول فيه سُنَّةُ الحياة الدنيا مِن دفع المكروه عن النفس بالفداء، أو بنصرة الأخلاء، أو بشفاعة الشفعاء، بل لا يقبل من أي نفس عدل، يعني لا يؤخذ عنها فداء مهما كثر ـ لو قدِّر استطاعتها علىٰ ذٰلك ـ، ولا يُقبل منها شفاعة مهما جاءت بشفيع، لأنه يوم ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه]، ولأنه يوم لا يُنصر المجرمون فيه، ولا يجدون أحدًا يمنعهم من العذاب، فهو يوم تضمحلُّ فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص في المقاصد ومتابعة للمصطفىٰ ﷺ في الأعمال، ودون ذٰلك لا ينجي شيئًا.

فقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ يعني: لا تنوب نفس عن نفس، ولا تتحمل عنها شيئًا مما أصابها.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، فيه نفي كامل للتناصر، لأنه لا يكون إلا في الدنيا بالمخالطة والقرابة والمحالفة وملاحظة المصالح، وأما يوم القيامة فينقطع النصرُ والخُلة والشفاعة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون]، بل ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس]، ولا يبقىٰ شفاعة إلا لمحمد ﷺ ـ فيما يأذن اللَّه له ويحد له ـ، كما ورد في حديث الشفاعة، وأولىٰ النالس بشفاعته من أخلص التوحيد للَّهِ، متبرئًا من كل طاغوت.

وفي هٰذه الآية أعظم تحذير من المعاصىٰ ـ لأنها بريد الشرك ـ، وأقوىٰ ترغيب في الإسراع بالتوبة، لأنه إذا تُصوِّر أن ليس بعد الموت ـ استدراك ولا فداء ولا نصر ولا شفاعة، بادر في التوبة دون تسويف، واللَّه المستعان.

📖 **وقال تعالى:** ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾:

امتن اللَّه تعالىٰ علىٰ اليهود المعاصرين لفجر الدعوة المحمدية بنعمة أنعمها علىٰ آبائهم، لأن الإنعام علىٰ أمةٍ يكون شاملًا لجميع أفرادها مدىٰ الدهر؛ لما له من أثر المفخرة التي يرثها الخلفُ عن السلف، ولأن صنوفَ البلاء التي قاساها أسلافهم نتيجةً لجرائم جرَت من مجموعهم، فيذكرهم اللَّه بما جرىٰ من عقوبة أسلافهم، وبنعمة اللَّه عليهم في إنقاذهم من جحيم فرعون وآل فرعون، ليشكروه شكرًا عمليًّا باطراح فسادِهم والإيمانِ الصحيح بمحمد ﷺ وما أُنزل إليه.

وكان اللَّه ﷻ في الآية السابقة قطع دابرَ آمالِهم وأوهامِهم فيما

يعتقدونه من التخلص يوم القيامة بشفاعة أنبيائهم ووجاهة أتقيائهم ومناداتهم بغيرهم، فنفىٰ اللَّه جميع ذٰلك نفيًا قاطعًا، موضحًا أنه في ذٰلك اليوم ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم عرَّج علىٰ تذكيرهم بِهٰذه النعمة العظيمة وما بعدها من النعم العشر التي لم يحظ بها غيرهم، والتي أولها: تفريجهم من هٰذا البلاء العظيم، بلاء فرعون الذي اقتضت سياسته الخرقاءُ تقتيلَ أبنائهم، والاستحياءَ ـ يعني: الامتناع ـ عن نسائهم لأنهم لم يندمجوا مع المصريين وقتًا طويلًا، فقد كان أول دخولهم لمصر مع يوسف الصدِّيق وإخوانه وأهاليهم، فتناسلوا تناسلًا عظيمًا حتىٰ بلغوا مئات الألوف، فتبسَّطوا في البلاد وزاحموا أهلها، وكانوا ذوي مهارة في الكسب والاستغلال ـ مما أحنق المصريين عليهم ـ، حتىٰ خططوا خطوطًا للتنكيل بهم وإيقافهم عند حدهم.

والعجب أنهم منذ القدم لم يشابهوا غيرهم من الأقليات التي تندمج مع الكثرة؛ بل هم ـ وبعض المبتدعة من هٰذه الأمة ـ تجد لهم موقفًا خاصًّا عن غيرهم مهما كانت الظروف.

والذي يبدو لنا من واقع الفراعنة أن فتنةَ اليهود في إفساد الأخلاق لم تنفع معهم، فإما أن يكونوا في ذٰلك علىٰ مستوًىٰ عالٍ من الحزم واليقظة وصلاح الأخلاق، وإما أن تكون بنو إسرائيل علىٰ صلاح وغيرة نفس من آثار نبوات أجدادهم، ولم يعرفوا المكر في إفساد الأمم إلا بعد حيلة «بلعم ابن باعورا» الذي انسلخ من آيات اللَّه ـ كما سيأتي قصته إن شاء اللَّه[1] ـ، ولقد تسلطت الفراعنة عليهم بأنواع البطش؛ حتىٰ قرروا العمل علىٰ انقراضهم بتقتيل كل ذكر مولود لهم؛ حتىٰ أنجاهم اللَّه بما فصَّله في سورتَي «طه» و«القصص»، حتىٰ ذكر ستة

(١) يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصته التي في سورة «الأعراف» آية (١٧٥).

أوصافٍ مجملةٍ من معاملة فرعون لهم، وست خطط أنجاهم اللّٰه بها منهم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

والحاصل أن آل فرعون جنَوا علىٰ أنفسهم وعلىٰ جميع البشرية بمعاملتهم الحمقاء الخرقاء لبني إسرائيل، إذ يسومونهم سوء العذاب حتىٰ أذكَوا فيهم روحَ النقمة ومرارة العداوة لغيرهم، إلىٰ أن بلغت غاية الضراوةِ بالدم الإنساني ـ حتىٰ دماء الأنبياء ـ، ولو وفقوا لعملوا مخططًا آخر لتفتيت عقيدتِهم وإزالتها حتىٰ ينصهروا في محيطهم، وتحصل سلامتهم وسلامة أهل الأرض جميعًا من شرهم.

وبِهٰذه المناسبة أذكر معنىٰ حكمة للفيلسوف الهندي «أكبر إلٰه آبادي» لا أضبط نصها، ولٰكن معناها: «إن فرعون مصر أخطأ ولم يصب الغرض؛ حيث سلك ببني إسرائيل مسلك الإرهاب والتنكيل فانتصروا عليه، وسجل التاريخ عليه لعنات ما اقترفه، ولٰكن لو أنشأ مدارس وجامعات يقلب فيها أفكارهم، ويبلور فيها صدورهم، ويقتل رَومهم[1] قتلًا معنويًّا لا يجعلهم ينحرفون عن هدفهم الأصيل؛ فيعيشون عالةً علىٰ غيرهم بلا هدفٍ يتفانون في تحصيله، لو عمل هٰذا لاستراح وأراح غيره منهم، وسجل له التاريخ مفخرةَ خدمةِ العلم بدلًا من لعنات البطش والإرهاب». هٰذا معنىٰ كلامه ومدلول قوله بإيضاح.

وأقول ـ وأنا الأقل الحقير ـ: إن الكفر في السابق كفرٌ بسيطٌ[2] بجميع أنواعه واختلاف زمانه إلىٰ زمن كفر قريش، ولهٰذا نجد كفار قريش ساوموا نبينا محمدًا ﷺ مساومةً علميةً علىٰ رسالته، فرفض بكل صراحة قائلًا: «**واللّٰه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمرَ في شمالي؛ لا**

---

(١) رَومَهم: مرادهم وأحلامهم.

(٢) كثيرٌ من أهل العلم يستخدمون كلمة «بسيط»، ويقصدون بها البدائي اليسير، لٰكن كلمة «بسيط» ـ بِهٰذا المعنىٰ الذي يقصدونه ـ خطأٌ لغوي، لأن «البسيط» لغةً هو الواسع الكبير.

أترك هٰذا الأمر حتىٰ يُنفِذَهُ اللَّه أو أهلِكَ دونه»(١)، وتبعه علىٰ هٰذا المنهج الواضح كثيرٌ من الرعيل الأول، ولا يزال يتبعه كثير من بعدهم، متىٰ استفحل مكر الكفر الجديد بما خططته الماسونية اليهودية من تعاليمها الجديدة وإغرائها المادي والشهواني، وتفتيتها للعقيدة، وإفسادها للضمائر بغزو فكري بدعوىٰ «العلم، والمدنية، والحرية، والتطور» ـ وما إلىٰ ذٰلك ـ؛ مما جعل المسلم وأولادَ المسلم يبيعون دينهم ورسالتهم بدون مساومةٍ عن شعور وعن غير شعور في الغالب، لقوة مكرهم في ذٰلك الغزو الفكري الذي اكتوينا الآن بنيران آثاره السيئة.

وكأن بني إسرائيل أخذوا درسًا من حماقات الفراعنة، فعملوا علىٰ التخطيط الذي وضعه الفيلسوف الهندي، لأنه اقتبس كلامه من واقع أعمالهم بالشعوب، فهم الذين خططوا ـ علىٰ أيدي ماسونيتهم ـ ذٰلك الغزو الفكري المفسد للقلوب والمفتِّت للعقيدة، والذي يهدم الكيان الصحيح لكل شعب وأمة، ويمسخ شخصيتها ويُحَوِّرها عن هدفها الأصيل، ويجعل كل شعب يتخبط في ظلمات المبادئ والمذاهب المستوردة الغريبة عنه كل الغرابة، وقد نفذ المستعمر ـ أيًّا كان نوعُه ـ مخططات أولٰئك؛ بحيث أصبحت كل بلاد تتحرر منه بكل أسلوب لا تعود إلىٰ حمل رسالتها وتحكيم شريعة ربها؛ بل تظل سائرةً علىٰ ما رسمته تلك الثقافة الماسونية التي ركزها الاستعمار. فيا له من مسخ معنوي وقتل روحي اهتدىٰ إليه فرعون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، المقصود بهم أتباعه السالكون طريقته، لأنه عقيم ليس له نسل، و«الآل» في اللغة والشرع: هم الأتباع، ولهٰذا كان المتبعون لمحمد ﷺ هم آله ـ بعكس الكافرين كأبي جهل وأضرابه ـ، قال الشاعر:

آل النبيِّ هُمُ أتباعُ سنته ... بين البريَّةِ من عُجمٍ ومن عَرَبِ

---

(١) تقدم في الجزء الأول.

لــو لــم يكــنْ آلُــه إلّا قــرابتَه صلَّىٰ المصلِّي علىٰ الطاغي أبي لهبِ

و«فرعون» اسم لمن مَلَكَ مصر قبل البطالسة.

وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، أي: يبالغون في ظلمكم، و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: صعبه وقبيحه، وقد كان يكلفهم الأعمال الشاقة والقذرة، ويقتل الأولاد الذكور الذين هم أحبُّ حبيب ـ خصوصًا بعد آلام الحمل وصعوبة الوضع ـ، وهٰذا إفناء للرجال وهتكٌ لمستقبل النساء، فتخليص اللَّه لهم من فرعون نعمةٌ عظيمة تستحق الشكر العملي الصحيح، لو كان عندهم ذمة ووجدان.

وهٰذه النعمة ـ وإن كانت ليست للمخاطبين ـ فهي نعمة ومنة عليهم، إذ لولاها ما خُلقوا وما حصل تناسلهم، ولأنهم إذا عرفوا هٰذه النعم دفعتهم إلىٰ الإيمان وترك الجحود، إذ لا توجد نعمة أعظم من معاينتهم هلاك من حاول إهلاكهم، وذُلِّ من بالغ في إذلالهم. وتعظيمُ النعمة يوجب الانقياد والطاعة، ويقضي بنهاية قبح المخالفة والمعاندة، فلهٰذا السبب ذكَّرهم اللَّه بِهٰذه النعمة مبالغةً في إلزام الحجة عليهم، وقطعًا لعذرهم أولًا، ولكونهم يعرفون أن ذل الحق وعز المبطل لا يدوم ثانيًا، بل ينقلب عزُّ المبطل ذلاً وذلُّ الحق عزًّا، فكأن اللَّه قال لهم: لا تنخدعوا بفقر رسولي محمدٍ ﷺ وأصحابه وقلةِ أنصارهم؛ فإن أجدادكم صاروا في أتعس حالة عرفها التاريخ، فالذي جعل العاقبة لهم سيجعلها لرسوله محمد ﷺ ثالثًا، ورابعًا أن في هٰذا تنبيهًا علىٰ أن الملك بيد اللَّه، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء.

وقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أي: محنة شديدة يجب ألا تعزُب عن بالكم، لتعرفوا نعمة اللَّه فتقابلوها شكرًا.

ثم إن في إخبارهم بذٰلك علىٰ لسان محمد ﷺ ـ وهو الأمي الذي لا يعرف شيئًا عن ذٰلك ولا غيره ـ دليل علىٰ صدق نبوته، ففيه إقامة الحجة الدامغة عليهم، كما فيه تحذير لأمة محمد أن يصيبها علىٰ كفر النعم باطِّراحِ الرسالة ما يسومها سوء العذاب، وقد حصل عليها ذٰلك

من التتار فمَن بعدهم إلىٰ الآن؛ مما لا يمكن أن ينجو منه إلا من عاد لحمل الرسالة ورعاها حق رعايتها.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾:

إن هاتين النعمتين من خوارق العادات، وفيها تنبيهٌ لعظم الهول الذي فصَّله في غير هٰذه السورة وأجمله هنا، وهو من أعظم النعم التي لم تحصل لأحدٍ قبلهم ولا بعدهم، ذٰلك أن اللَّه لما أمر موسىٰ أن يخرج ببني إسرائيل ليلًا ليغادر بهم محل الظلم والهوان، فسرىٰ بهم تحت رعاية اللَّه. ومن الغد أرعد فرعون وأزبد، وحشر قومه من كل بلد؛ حتىٰ تبعهم ـ بانتفاخةِ غروره ـ قائلًا ما قصه اللَّه عنه في سورة «الشعراء»: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۝٥٦﴾.

وقد قال مثل هٰذا المنطق ـ أو يزيد عليه ـ فراعنةُ القرن العشرين الميلادي في (حزيران ١٩٦٧م)، تشابَهت قلوبهم، فحاقت بهم الذلة لإصرارهم علىٰ عدم تحكيم الشريعة، وطلب غير إعلاء كلمة اللَّه في القتال، إلىٰ أن قال: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ [الشعراء].

يصوِّرُ اللَّه لنا ما أجمله من قصة إغراق فرعون وإهلاكه مع قومه ـ عن آخرهم ـ بمعجزةٍ من أعظم المعجزات الخارقة للعادات، وأنهم بعدما خرجوا للانتقام من موسىٰ وبني إسرائيل وشاهدوهم وقد لُحقوا، قالوا لموسىٰ ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فطمأنهم موسىٰ لثقته بوعد ربه

قائلًا: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢].

وحينئذٍ أمره اللَّه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه كما أمره اللَّه، فانفلق حتىٰ صار جانباه كالطود العظيم، فلما استكمل بنو إسرائيل العبور منه بطريق يابس، وأنجاهم اللَّه فيه من إدراك عدوِّهم لهم، دخل فيه آل فرعون حتىٰ استُكملوا في وسطه، فانطبق عليهم، وأغرقهم اللَّه فيه بأجمعهم، وموسىٰ وقومه ينظرون.

فالإغراق ـ بِهٰذه المعجزة ـ نعمة، ونظرهم إلىٰ هلاك عدوهم ـ الذي يحاول إهلاكهم ـ، ومشاهدتُهم من يُذلهم قد أذله اللَّه ذلًّا أمامهم، وأراه من حسرة الهلاك قبل الهلاك الفظيع: نِعمةٌ أخرىٰ، ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، أي: تشاهدون عدوكم قد أحاط اللَّه به، ونفذ فيه أعظم مما يريد تنفيذه بكم، فأوقعه في شراك هلكة لا يمكنه التخلص منها أبدًا، فذاق الخزي الذي لا يريد أن تروه به ـ لو قدر علىٰ الخلاص منه بكل وسيلة ـ.

فرؤية أجدادكم للخزي العظيم الذي حاق بعدوهم نعمةٌ كبرىٰ يعتز بها كل إسرائيلي إلىٰ يوم القيامة اعتزازًا يجعله يشكر هٰذه النعمة بوفاء عهد اللَّه من الإيمان بمحمد ﷺ.

إن إهلاكَ اللَّه لعدوكم ـ وأنتم تنظرون ـ فيه نعمة أخرىٰ يحصل بها الاطمئنان الكامل علىٰ زواله، والسرور العظيم الذي ليس له مثيل، والذي يجب شكرُه إلىٰ يوم الدين، ولٰكنها النفس اليهودية التي سيقص اللَّه علينا من دفائن خبثها ما يوجب الابتعاد عن جميع هِزَّاتِها وخططها الملعونة، وألَّا نلتقي معها في أي ميدان من ميادين الحياة.

وقد زعم بعض المنكرين للمعجزات وبعض المتأثرين بهم إلىٰ أنهم عبروا البحر في وقت الجَزْرِ، وأنهم تمكنوا من العبور أثناءه، ولم يتمكن عدوهم كما تمكنوا، بل أدركه الماءُ فأغرقه!!.

وهٰذا القول باطل من وجوه عقلية ونقلية.

[أ] أما العقلية:

فأولًا: أنه لا يكون الجَزرُ من جميع الجوانب، بل من جانب واحد.

ثانيًا: لو حصل الجزرُ في بعض البحار من الجانبين؛ فإن تأثيره في الضحضاح ـ الذي يكون علىٰ السواحل[1] ـ؛ بحيث لا يتجاوز في بعضها ميلًا واحدًا، وأما وسط البحر فهو عميقٌ بطبيعة الحال.

ثالثًا: لو فرضنا أن بقعة ما في وسط البحر ضحضاحٌ يؤثر فيها الجزر، فإن مدَّة الجزر ليست كافية لعبور مئات الألوف مشيًا علىٰ الأقدام أو علىٰ الدواب ـ فضلًا عن عبور غيرهم وراءهم بعد استكمالهم خارجين ـ، هٰذا شيء مخالف للواقع المعروف.

رابعًا: أنه لو كان عبورهم ونجاتهم بسبب الجزر، وكان هلاك عدوهم بسبب المد، لما كان فيها معجزة تقطع الدعاوَىٰ، بل يجوز لبني إسرائيل ـ أمَّةِ البَهْت والجحود ـ أن يقولوا: «لقد مَهَر آباؤنا بفضل معرفتهم وحِنكتهم في انتهاز وقت الجَزْر والإسراع قبل طغيان المد»، ونحو ذٰلك مما يقوله المتبجحون المعجبون بمهارتِهم، والزاعمون التفوق بعلمهم؛ فإن اليهود أطيشُ من غيرهم في ذٰلك، ومن هٰذا لم يزعموا ما قاله أولٰئك؛ لأنها معجزة خارقة شوهدت في وقتها بالعيان.

خامسًا: نطالبهم أن يدلونا علىٰ موقع من البحر عرضُه دقيق يمكن عبوره في وقت الجزر، وهٰذا من المحال؛ لأن البحر من الشرق إلىٰ الغرب عرضه بعيد ـ خصوصًا بحر القُلزُم[2] ـ؛ فإن عرضه يبلغ أيامًا بوسائط النقل الحديثة.

[ب] وأما الأدلة النقلية:

فمِن وحي اللَّه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

فإنه قال ما ذكرناه في سورة «الشعراء»: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب

(١) **والضَّحضاح** ـ لغةً ـ: قليل الماء ويسيره.

(٢) وهو ما يُعرف اليوم بـ«البحر الأحمر».

بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وهٰذا نصٌّ صريح في كونها معجزةً لموسىٰ ونعمةً علىٰ بني إسرائيل، فهي معجزةٌ من جملة معجزات الأنبياء التي يُظهرها اللَّه علىٰ أيديهم؛ إرشادًا للناس إلىٰ أن السنن الكونية لا تحكم علىٰ واضعها ومدبرها، ولا تتعسر عليه جريًا علىٰ ما وضعها له، بل هو سبحانه الحاكم المتصرف فيها كما يريد، وأنها خاضعة لسلطانه، مدبَّرةٌ بأمره، تجري علىٰ ما يريد ـ لا كما هي تريد ـ، وأن ما يعمله من المعجزة الخارقة للعادة هي سنةٌ أخرىٰ في مُلكه من الأكوان العلوية والسفلية، يخلقها متىٰ يشاء علىٰ يد من يختاره من عباده، إظهارًا لحجته علىٰ خلقه، وانتصارًا لمن يشاء من عباده وأوليائه علىٰ أعدائه الذين اقتضت حكمته تنكيلهم.

والعجب من عالِمٍ مفسرٍ ـ في هٰذا العصر ـ ينجرف لقولهم، وهو مؤمن بالمعجزات، ويؤول قوله تعالىٰ: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾: أنه المقصود حال الجزر؛ قائلًا: «إنه لم يقل: فرقنا لكم». ثم يزعم أن قوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أنه للمبالغة!!.

يا سبحان اللَّه!! وهل يكون في الجزر شيءٌ مما وصفه اللَّه بأنه كالطود العظيم؟! ويذهب في تأويله إلىٰ أنه لاستعجالهم جعلوا الماء فرقين عظيمين ممتدين كالطود!! فهل الطود يكونُ ممتدًّا كالحبل، أو يكون شامخًا مرتفعًا كالجبل؟! ثم ما الذي ألجأه إلىٰ هٰذا التصرف السيئ بنص القرآن؛ ما دام يعترف بالمعجزات؟! إذ يقول: «ومثل هٰذا التأويل ليس بضائر؛ إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات».

أقول:

أولًا: ما الحاصل علىٰ المثبِت للمعجزات أن يجني علىٰ النص القاطع بالتأويل؛ سوىٰ الإرضاء والتوافق مع من لا يؤمن بها من الملاحدة وأفراخ الإفرنج علىٰ حساب القرآن؛ وقد لا يشعر بذٰلك.

وثانيًا: إن التأويل بعد البيان تحريف وتزييف لا يستساغ علىٰ الأقل،

إذ المستساغ تأويلُ المجمل والمتشابه، خصوصًا وهٰذه الحادثة ثابتة بشواهد الأحوال التي حصل الإجماع علىٰ حصولها بسببها.

وقد قال ابن القيم في «الكافية الشافية»:

فسياقةُ الألفاظِ مثلُ شواهدِ الأ ... حوال إنهما لنا صنوانِ
إحداهُما للعينِ مشهودٌ بها ... لٰكنَّ ذاكَ لمسمَعِ الإنسانِ
فإذا أتىٰ التأويلُ بعد سياقةٍ ... تُبدِي المرادَ أتىٰ علىٰ استهجانِ
وإذا أتىٰ الكتمانُ بعد شواهدِ الأ ... حوالِ كان كأقبحِ الكتمانِ

وإذا كان قوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ـ وهو الدليل النقلي الثاني الذي لا يقبل تأويل المتهوِّكين[1] ـ، وأنهم مشوا في فَلْقِ البحر، وحافتاه عن أيمانهم وشمائلهم كالطود العظيم من الجبال، جبال ماء قد حبسها اللّٰه بقدرته، فالدليل الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه]، فهٰذا نصٌّ واضح علىٰ المعجزة الخارقة التي جعلتهم يمشون في مَضْرِب عصا موسىٰ بطريقٍ يابس يمشون فيه مطمئنين، لا يخافون أن يدركهم عدوهم، ولا يخشون مما يمشون عليه؛ حيث إنه طريق يابس بقدرة مَن أمره بين الكاف والنون.

فالنصوص القرآنية تأبىٰ جميع التأويلات لوضوحها، والذي يمشي في الجَزْر يخالجه الخوف من اختلاف الأرض في الانخفاض الذي يكثُر فيه الماء، والارتفاع الذي يقل فيه.

وفي هٰذه الآية من تركيز[2] التوحيد في قلب الإنسان شيءٌ عظيم؛ يجعل المسلم يستمطر مددَ اللّٰه في كل أزمةٍ بعد ما يحقق الصدق والإخلاص له، وباللّٰه التوفيق.

إن العليم الحكيم الذي أجرىٰ خوارق العادات ليس ليدلل علىٰ

---

(١) **المتهوِّكون**: المتحيِّرون الشاكُّون.

(٢) **تركيز**: تثبيت.

وجوده وعظيم قدرته فقط، ولا لتصديق أنبيائه فقط، وإنما هو فوق ذٰلك لتقوية معنوية عباده تقويةً روحيةً جبارة، يعظُم فيها توكلهم واعتمادهم عليه وثقتهم بنصره، مستيقنين أنه سبحانه يجعل الحزن سهلًا والمستحيل واقعًا، وأنه لن يعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض، وأنه يخلق أعظم شيء من لا شيء، وأنه يخلق بلا سبب، وأن الأكوان العلوية والسفلية لا يتعسر عليه منها شيء أو يتحكم في قدرته منها شيء؛ بل هو الذي يجريها علىٰ خلاف سيرها وسننهما العادية، ويتحكم فيها علىٰ ما يريده من نصرة أوليائه المخلصين له، الصادقين معه، فيفلق البحر شطرين، يشق بينهما طريقًا يبسًا، كأن الماء لم يمر عليه أبدًا،كما فعل ذٰلك لموسىٰ وقومه، ويشق القمر نصفين، إرغامًا لقريش وتصديقًا لمحمد ﷺ، ويوقف سير الشمس ليوشع بن نون خليفة موسىٰ، ويجمد نهر دجلة لجيش سعد بن أبي وقاص فيعبُرونه لم تبتل أقدامهم، ويذلل البحر لخيل أبي العلاء بن الحضرمي، ويسيل الماء لهم في رمال الدهناء لما عطشوا، ويهزم الكفار يوم بدر بقبضة تراب يلقيها عليهم الرسول ﷺ قائلًا: «**شاهتِ الوجوه**»[٢]، ويقول سبحانه له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وهو الذي يُمد عباده المؤمنين بالملائكة وبالريح والرعب وغير ذٰلك؛ ممَّا يدحض أعداءهم، فالإيمان بالمعجزات ينفع المؤمنين، والكفر بها يدحض الكافرين، إذ يأتيهم العذابُ من حيث لم يحتسبوا، ولقوة إيمان عباده سبحانه بمدده زَلزلوا الحصون بالتكبير الصادق، وأي معجزة أعظمُ من تقطيع أفئدة الكافرين وزلزلةِ حصونهم بالتكبير الصحيح، ذٰلك التكبير الصادر من أدمغة لا تعرف اللهو واللغو، بل بقوة إيمانهم حاربوا أعظم دول العالم في وقتهم ـ فارس والروم ـ دون أن يستعينوا بدولة علىٰ حساب دولة، أو يتملقوا دولةً ويهادنوها، ليتفرغوا للدولة الأخرىٰ؛ بل حاربوهم في وقت واحد، حاصرين استعانتهم بالله الذي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، واستمروا هم وأولادهم

في الزحف المقدس؛ حتىٰ فتح اللَّه عليهم أكثر المعمورة، وطبقت لغتهم ما بين الخافقين.

أما الملاحدة الذين لا يؤمنون بالمعجزات ـ علىٰ اختلاف طرائقهم ـ، فحياتهم علىٰ خطر كلما جدد اللَّه الزحف المقدس علىٰ أيدي من شاء من عباده، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

ثم إن في هٰذه المعجزة ـ من فلق البحر التي نجىٰ اللَّه فيها موسىٰ وقومه وأهلك آل فرعون ـ نعمًا عظيمةً في الدنيا والدين:

أما نعم الدنيا في حق موسى وقومه: فإنهم بعدما وقعوا في أحرج المضائق، حيث كان عدوهم وراءهم يشاهدونه بالعيان، والبحر أمامهم قد سُد عليهم كل طريق ومخرج، وأصبح هلاكهم عند عدوهم وعندهم مستيقنًا، فمن لم يهلكه عدوه أهلكه البحر ـ الذي يفر إليه ـ شر هلكة، فلا خوف أعظم من خوفهم، بل ولا يأس أعظم من يأسهم، فلطف اللَّه بهم في أحرج الشدائد، ونجاهم مما يخافون، وأبدل خوفهم أمنا، وحزنَهم وكربتهم فرحًا وسرورًا.

ومن جهة ثانية: طمأنهم وأكمل أمنهم بإهلاك عدوهم، وهم ينظرونه مشاهدة العين ـ إذ لو أخبروا بهلاكه ما صدقوا، ولعب عليهم الشيطان بتخويفه ـ؛ فأكمل اللَّه عليهم نعمته بإشهادهم لهلاكه؛ حتىٰ لا يبقىٰ فيهم شيء من الخوف أبدًا، فيستيقنوا الخلاص من ورطته إذن بإغراق اللَّه لآل فرعون وهٰؤلاء ينظرون، إلىٰ أن انحسمت(١) مادة الخوف بتاتًا، وهٰذه أعظم نعمة.

ثم من جهة ثالثة: أن اللَّه أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وكنوزهم ونعمتهم التي كانوا فيها فاكهين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص]، وهٰذا من تمام النعمة وظهور الكرامة لو أنهم يَقدِرون اللَّه حق قدره، ولٰكن اللَّه سيقصُّ علينا العجائب الغرائب من خبث

(١) **انحسمت:** انقطعت.

سريرتهم وسوء طباعهم وقبح جهلهم.

وأما نعم الدين: فإنهم لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة المنقطعة النظير، زالت عنهم الشكوك وتذكروا جواب موسىٰ لهم، إذ قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف]، وزالت عنهم كل شبهة، واستيقنوا بوجود الخلاق العظيم الذي هٰذه آثار بعض قدرته، وعرفوا صدق موسىٰ بعلم ضروري لا يحتاج إلىٰ نظر واستنباط.

ومنها: أنهم لما عاينوا ذٰلك صار داعيًا لهم إلىٰ الثبات علىٰ تصديق موسىٰ والانقياد له، كما صار داعيًا لمن بقي من قوم فرعون إلىٰ تكذيبه والكفر به والإيمان بموسىٰ.

ومنها: أنهم عرفوا أن الأمور بيد اللَّه، حيث لا يوجد عز ولا تسلط أعظم مما عند فرعون، ولا ذلة ولا هوان أعظم مما أصاب بني إسرائيل، فقلب اللَّه حالة فرعون إلىٰ أشنع ذلة وهلاك، وحالة بني إسرائيل إلىٰ عز وسعادة، وهٰذا يوجب انقطاع قلب المؤمن عن بَهْرَج الحياة الدنيا وتعلقه باللَّه.

وأما النعم الحاصلة لأمة محمد ﷺ من هٰذه الحادثة فكثيرة:

منها: أنها كالحجة لمحمد ﷺ علىٰ أهل الكتاب لإخباره إياهم بها دون أن يكون له بها أدنىٰ علم لولا وحي اللَّه إليه، لأنه أمي لا يعرف الكتب، ولأنه لم يخالط أهل الكتاب أبدًا، فإخباره إياهم بها دليل علىٰ صدقه.

ومنها: أننا إذا رأينا قدرة اللَّه العظيمة في إهلاك هٰذا الطاغوت ذي القوة والبطش هلاكًا تصحبه الذلة والحسرة أخلصنا الضراعة إلىٰ اللَّه فيما يمسنا من نوائب الدهر، وما تبرزه الماسونية اليهودية من أنواع الطواغيت، فنحسن علاقتنا باللَّه، ونضرع إليه ضراعةً صادقةً ينجينا بها من شر كل ملحد وطاغوت في مشارق الأرض ومغاربها.

ومنها: أننا نحذر من مخالفة أوامر اللَّه والاعتداء علىٰ حدوده؛ حتىٰ لا نكون محرومين من رحمته ونصره، بل نعاكس بني إسرائيل في معاملتهم لموسىٰ، ولا نؤذي محمدًا ﷺ كما آذوا نبيهم، بل نحقق الإيمان به باتباع طريقته وحصر التلقي عنه في ميادين الثقافة والتربية دون ما سواه، ونقتدي به اقتداءً صحيحًا كاملًا، خصوصًا في حمل رسالة اللَّه وتوزيع هدايته، لنحيا حياةً طيبةً لا نضل فيها ولا نشقىٰ، ولا تحيق بنا اللعنة التي حلت ببني إسرائيل لما تمردوا علىٰ أنبيائهم، فضربت عليهم ذِلَّةٌ لا ينجون منها إلا بحبل من اللَّه إن رجعوا إلىٰ طاعته، أو حبل من الناس؛ بحيث يمدهم غيرهم حسب مصالحه معهم كما هو الآن حاصل فيهم وفيمن سلك مسالكهم بالشرود عن دين اللَّه، لا يسلم من شرهم إلا بحبل آخر من ناس آخرين.

ثم إنه يُعلم من سرد الآيات المقبلة فضيلة أصحاب محمد ﷺ علىٰ أصحاب موسىٰ؛ لصدق انقياد أصحاب محمد ﷺ وطاعتهم له بدون معجزات، وكثرة تمرد أصحاب موسىٰ مع تلك المعجزات والنعم العظيمة، واللَّه يؤتي فضله من يشاء.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

هٰذه النعمة الثالثة علىٰ بني إسرائيل، وهي إكرامهم وإكرام نبيهم بِهٰذا الموعد الشريف لمناجاة ربه وتكليمه بالوحي بلا واسطة، بل قربه اللَّه نجيًّا من وراء حجاب، وذٰلك أن موسىٰ وعدهم بعد الخروج من مصر بكتاب من اللَّه، أو أنهم طلبوا منه ذٰلك بعد عبور البحر، فضرب اللَّه لموسىٰ موعدَ أربعين ليلة ـ قيل: إنها شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة ـ، فلما ذهب موسىٰ لميقات ربه لعب عليهم دجالٌ من شياطين الإنس الذين هم جنود إبليس، وفتنتهم أفظع من فتنته، فزعم

أن موسىٰ يستعمل طلاسمَ استطاع بواسطتها إخراجكم وعبوركم البحر، وأنه ظفر بشيء منها يستطيع أن يصنع لهم منها هيكل آلهتهم وإله موسىٰ! وهٰذا هو السامري الذي ذكره اللَّه في سورة «طه»، وأنه قبض قبضة من أثر فرس جبريل في البحر لما جاء يُطمئن موسىٰ، أو يباشر إهلاك فرعون علىٰ بعض الأقوال، وكان عندهم حُلِيٌّ كثير مستعار من الأقباط، فأمرهم هارون بإحراقه، واستعمل السامري تلك الفرصة؛ فأخرج لهم منه عجلًا جسدًا له خوار من التراب الذي أخذ من حافر فرس جبريل، أو أنه ركزه علىٰ القطب الشمالي، فأخذ الهواء يدخل من دبره ويخرج من فيه، فيسمع له صوت يشبه الخوار.

وكل هٰذا فتنة من اللَّه يختبر بها ثبات إيمانهم وصدقهم في شكره، ولٰكنهم رسبوا في هٰذا الامتحان؛ لأنهم لا يرجون للَّه وقارًا، لا يعظمونه ولا يعاملونه معاملة من يوقرونه، لأن الذي يوقر اللَّه لا يعدل به شيئًا من خلقه، وهٰؤلاء عدلوا به عجلًا صنعه دجال، فلم يبق للَّهِ مكانة في قلوبهم، ولهٰذا كان تكفيرهم لهٰذا الشرك تكفيرًا قاسيًا جدًّا وهو قتل نفوسهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، الظلم في اللغة: النقص والانتقاص، قال تعالىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تنقص منه شيئًا، وكل من نقص من حق أحد كان ظالمًا، وإذا أُطلق الظلم في القرآن كان معناه الشرك؛ لأن المشرك ينتقص للَّهِ بنقصه أي حق من حقوق اللَّه، وصرفه إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، وفسر النبي ﷺ هٰذا الظلم بالشرك، وذٰلك في أحاديث صحيحة، مستشهدًا بالآية التي ذكرنا قبلها من سورة «لقمان».

فبنو إسرائيل انتقصوا اللَّه انتقاصًا لا مثيل له بعبادتهم العجل،

خصوصًا بعدما شاهدوا معجزات باهرات تدل علىٰ ألوهية اللَّه وتبطل ألوهية ما سواه؛ بحيث لا يجوز حصول شبهة في قلب أي عاقل بعد وقوع تلك المعجزات القاهرة، فقد ظلموا باتخاذ العجل ظلمًا عظيمًا.

وحيث إن ضرر الكفر والشرك ونحوهما لا يضر اللَّه ـ لأنه نَزِهٌ[١] عن الاستكمال بطاعة الطائعين، وعن الانتقاص بمعصية العاصين وكفر الكافرين ـ؛ فإن ظلم أولٰئك يعود عليهم بالضرر، ولهٰذا قال اللَّه لهم: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ وذٰلك بعد التطهير العظيم الخطير البليغ في القسوة والبطش، وذٰلك أن اللَّه رتب عفوه عنهم علىٰ توبتهم من هٰذا الشرك الفظيع، وإن صدق توبتهم لا يكون إلا بقتلهم أنفسهم، يعني: أن المطيع الذي لم يعبد العجل يقتل المشرك الذي عبد العجل، كما قال تعالىٰ في الآية (٥٤): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وذٰلك تطهير للمشركين وغيرهم من العصاة المشركين؛ لأن الذي لم يعبد العجل لم ينكر علىٰ من عبده، فصارت عاقبة ترك الإنكار والمقاطعة إعمالَ السيف فيما بينهم، ولذا قال لهم موسىٰ مخاطبًا لجميعهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ توبوا إلىٰ اللَّه الذي هو خالقكم وبارئكم من العدم؛ إذ لا يستحق العبادة سواه ولا الرجوع إلَّا إليه.

ومن تأمل حقيقة التوبة وغايتها لا يستنكر ما رتبه عليها من ذٰلك التكليف الشاق، خصوصًا للنفوس الخوَّارة المنهارة سريعة التنكر والإيغال في المنكر؛ ذٰلك أن محو أثر الذنب من خلايا القلب لا يحصل إلا بالتوبة النصوح، والباعثُ علىٰ التوبة النصوح هو شعور التائب بعظمة من عصاه وقوة سلطانه واستيقانه بأن مصيره إليه في الآخرة وأنه

---

(١) نَزِهٌ: متنزِّهٌ.

لا منزلة[١] من عقوباته المتنوعة في الدنيا عاجلًا.

فلا جرم أن هٰذا الشعور يبعث في القلب الهيبة والخشية، ويحدث في روحه انفعالًا مما حصل وندمًا علىٰ حصوله، وتذكرًا لعقوبات اللَّه العاجلة والآجلة، فهٰذه آثار تزعج التائب وتدفعه إلىٰ القيام بأعمال مضادة لما أذنب وماحية له.

ومن هنا لما رجع موسىٰ من الميقات، ورآهم علىٰ هٰذه الحال، وطاش غضبه عليهم وعلىٰ أخيه هارون، وألقىٰ الألواح، وأخذ برأس هارون يجره إليه، وحصل بينه وبينهم وبينه وبين أخيه ما قصه اللَّه مجملًا في سورتَي «طه» و«الأعراف»، فأسقط في نفوس الإسرائيليين هٰذا الصنيع، ورأوا حقيقة ضلالهم، وساورهمَ الخوف والقلق: أخبرهم[٢] موسىٰ بالطريقة التي يحصل بها قبول توبتهم من هٰذا الإشراك الفظيع الذي وقعوا فيه، وليس من طبيعتهم تقديس البقر ولا عبادتها، وإنما هو من طبيعة قدماء المصريين الوثنيين، ولهٰذا أحرقه موسىٰ إحراقًا وذرَّه في البحر تربية لهم، ليعلموا أنه لا يدفع الضرر عن نفسه ولا يجلب لها نفعًا، فكيف يدفع الضرر عن غيره أو يجلب له نفعًا؟!.

وطريقة توبتهم هو أن يقتل بعضهم بعضًا، لا يحنو والد علىٰ ولده، ولا قريب علىٰ قريبه، وهٰذا من جملة الآصار التي حمَّلهم اللَّه إياها ورفعها عن أمة محمد ﷺ عفوًا منه وفضلًا، فإنه علم المحمديين دعاءً ونادىٰ بقبوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال ابن عباس: «إنهم قالوا لموسىٰ: كيف يقتل الآباء الأبناء أو الإخوة الإخوة؟ فأنزل اللَّه عليهم ظلمةً لا يرىٰ فيها بعضهم بعضًا، فقالوا: من آية توبتنا أن يقوم السلاح فلا يقتل وترفع الظلمة، فاقتتلوا

(١) كذا في المطبوع.

(٢) هٰذا جواب قوله: «ومن هنا لما رجع موسىٰ...» أول الفقرة.

حتىٰ خاضوا في الدماء، وصاح الصبيان: يا موسىٰ العفو العفو، فبَكَىٰ موسىٰ، فنزلت التوبة، وقام السلاح وارتفعت الظلمة».

قال مجاهد: «بلغت القتلىٰ سبعين ألفًا».

قال قتادة: «جعل القتل للقتيل شهادة وللحي توبة».

وهٰذه العقوبة مناسبة لواقعهم من جهة ضخامة خطيئتهم وقبح شركهم بربٍّ أنجاهم ممَّن يسومهم سوء العذاب، وأقر عينهم برؤيتهم هلاكه، ثم تكون عاقبتهم معه أن يعبدوا عجلًا، زاعمين ألوهيته عليهم وعلىٰ موسىٰ، ثم ترك الأمر بالمعروف ممن لم يعبده، فترك الأمر بالمعروف استهانةٌ شنيعة بجناب اللَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، التواب: هو دائم التوبة بخلاف المخلوق؛ فإنه إن تاب عن المذنب مرةً أو مرتين لا يواصل توبته عليه مرارًا عديدة، أما اللَّه سبحانه فإنه ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ للمنيب من عباده ـ مهما تكرر ذنبه ـ إذا عاود التوبة ولم يصر؛ لأنه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين الذين لا يصرون علىٰ ذنوبهم.

ثم انظروا ـ معشر المسلمين ـ إلىٰ دفائن أنفس اليهود الخبيثة، هل استمروا علىٰ هٰذه التوبة إلا بالثمن الغالي الفظيع القاسي الشنيع، ستُريكم الآية (٥٥) سوء طباعهم وخبث سريرتِهم، وقانا اللَّه من ذٰلك.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

تكرر في الآيات التي فيها تذكير بالنعم حرف «إذ»، وهي اسم للوقت الماضي، كما أن «إذا» اسم للمستقبل، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقصد به التوراة، كما قال في سورة «المائدة»: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وأما «الفرقان» المذكور في هٰذه الآية فهو ما أمد اللَّه به موسىٰ من المعجزات التي فيها فرقانٌ بين الحق والباطل.

وقد غلط في الإعراب والمعنىٰ من زعم أنه الفرقان المنزل علىٰ محمد ﷺ؛ لأنه من شروط العطف أن يكون المعطوف علىٰ الشيء مثله، وعلىٰ هٰذا القول يكون المعطوف علىٰ الشيء خلافه. هٰذا في اللغة من جهة الإعراب.

وأما المعنىٰ فليس لمحمد ﷺ ذكر في السياق أولًا، ثم إن اللَّه قال في سورة «الأنبياء»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء]، فإما أن يكون «الفرقان» في كلتا الآيتين هو المعجزات الفارقة، وإما أن يكون المقصود به صفة للكتاب ـ الذي هو التوراة ـ وتأكيدًا له، ولٰكن ظاهر السياق هنا وفي سورة «الأنبياء»: أن «الفرقان» هو المعجزات الخارقة المؤيدة لموسىٰ من اللَّه، من العصا التي تنقلب ثعبانًا وتلقف ما يأفكون، ومن انفلاق البحر، ومن الحَجَرِ التي إذا ضربها بعصاه انفجرت اثنتا عشرة عينًا بعدد أسباط بني إسرائيل. فهٰذه المعجزات جعلها اللَّه فرقانًا لموسىٰ بين الحق والباطل.

وأما الكتاب في هٰذه الآية فهو التوراة، وعبر عنه في سورة «الأنبياء» بأوصافه دون اسمه قائلًا: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي سورة «المائدة» قال عنها ما ذكرناه، فهٰذا ظاهر سياق القرآن.

وأما قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، تقدم الكلام علىٰ معنىٰ «لعل»، وأنها لا تستعمل إلا فيما يُرجىٰ أسبابه، والأسباب هنا هي الهداية العامة، وقد وصفها(١) في سورة «المائدة» بأن فيها ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾، وقد أشبعنا الكلام في أوائل سورة «البقرة» علىٰ المحل القابل للهداية، وهو القلب المنحشي بالإيمان بالغيب.

وقد قال سبحانه عنها في سورة «الأنبياء»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء]، يعني خائفون؛ لأن الإنسان لا يدري في أي لحظة

---

(١) يعني التوراة.

يموت فتقوم ساعته الدنيا القريبة ولا يدري ـ أيضًا ـ عن قيام الساعة الكبرىٰ التي لا تأتينا إلا بغتة.

فالمحل القابل كهداية هو الذي يصحب إيمانه بالغيب خوفًا ووجلًا من قيام إحدىٰ الساعتين، وقد ذكرتُ طرفًا من ذكر المحل القابل والسبب والشرط وعدم المانع في أواخر بحث المنافقين في هٰذه السورة أيضًا، وأن المؤثر المقتضي هو وحي اللَّه، والمحل القابل هو القلب الحي بالإيمان بالغيب، والإشفاقِ من إحدىٰ الساعتين، وشهود القلب الذي يحصل به التأثر، وهٰذا هو الشرط، وانتفاء الموانع في حصول التأثير وهي اشتغال القلب عن اللَّه إلىٰ غيره بأي شيء من المؤثرات المادية والشهوانية وأغراض النفس الأنانية، ووحي اللَّه زاخر بما يعالج هٰذه الأمراض المانعة من الهداية.

والحاصل: أن إنزال التوراة علىٰ موسىٰ ﵇ هي النعمة الرابعة علىٰ بني إسرائيل؛ لأن فيها أكبر نعمةٍ من نعم اللَّه تعالىٰ، وهي الهداية التي من حصل عليها فقد نال السعادتين في الدنيا والآخرة، ومن حُرمها ـ بعدما جاءته ـ تعرض للشقاوتين في الدنيا والآخرة.

وكل من سلك مسالك الهداية من بني إسرائيل أو من أمة محمد ﷺ فاللَّه يعينه علىٰ تحصيلها، أما من هرب منها وسد أذنيه منها، وأشغلهما بلهو الحديث المتنوع فلا يلومن إلا نفسه.

والنعمة الخامسة علىٰ بني إسرائيل هي نعمة العفو الأول عن شركهم باللَّه وعبادة بعضهم العجل، وسكوت بعضهم الآخر عن الإنكار والواجب الرادع؛ بحيث عمتهم العقوبة التي تقضي إفناءهم بأيديهم لولا عفو اللَّه عنهم وتوبته عليهم، كما جاء في الآية الرابعة والخمسين ـ التي قدمت تفسيرها علىٰ هٰذه الآية ـ لقوة علاقتها بسابقتها ـ التي هي الآية الثانية والخمسين ـ.

وفي قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ دليل من جملة الدلائل القرآنية علىٰ

أنه يريد من الهداية جميع بني الإنسان إرادةً شرعيةً، وهي إرادة الأمر التي يعاقب علىٰ تركها كل من تركها؛ خلافًا لكثير من المبتدعة الذي قولهم مضاد لمقصود اللَّه من إرسال الرسل وإنزال الكتب، بل قولهم يتضمن الدفاع عن إبليس وعن جميع أعداء الأنبياء والمرسلين، والدفاع عن الرافضين لوحي اللَّه ـ كما أوضحت هٰذا في القصيدة القدرية ـ، ولٰكن ما في التوراة من الهدىٰ والنور لم يُقنع بني إسرائيل، ولم يُلن قسوة قلوبهم لما عندهم من الغرور والزعنفة[1]، فهٰذه الآية (٥٥) يعلمنا اللَّه فيها عن سوء تمردهم وقبح زعنفتهم ويذكرهم أنفسهم بذٰلك قائلًا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

وتذكير اللَّه لهم بذٰلك فيه عدة فوائد:

أحدها: تشبيههم ـ أعني اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ـ في جحودهم معجزاته بأسلافهم في جحودهم نبوة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع مشاهدتِهم عظائم المعجزات الباهرة؛ بحيث رفضوا الإيمان به حتىٰ يروا اللَّه جهرة.

ثانيها: أنه لا يُظهر علىٰ محمد ﷺ مثل تلك المعجزات؛ لعلمه بأنه لو أظهرها لجحدوها فاستحقوا من العذاب مثلما حل بأسلافهم.

ثالثها: تحذير اللَّه تعالىٰ لمن كان في زمن محمد ﷺ عن سلوك مسلك هٰؤلاء مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لئلا تأخذهم مثل هٰذه الصاعقة المهلكة.

رابعها: فيه تسليةٌ للنبي محمد ﷺ عما كان يلاقيه منهم، وسيأتي

---

(١) **الزعنفة**: الرداءة والقباحة.

توكيد مثل هٰذه التسلية في الآية (١٥٣) من سورة «النساء»: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

ففي ذٰلك تثبيت من اللَّه لقلب نبيه محمد ﷺ علىٰ الصبر كما صبر أخوه موسىٰ؛ من قبله.

خامسها: تذكير اللَّه لهم بالإنعام السادس؛ حيث أحياهم بعد ما أهلكتهم الصاعقة وهم ينظرون بسبب تمردهم، وقولهم: لن نؤمن لك وننقاد حتىٰ نرىٰ اللَّه عيانًا ويكلمنا مثلما كلمك، فليس لك ميزة علينا، ونحن قد أكرمنا اللَّه بسبب إبراهيم وإسحاق ويعقوب لا بسببك أنت.

سادسها: أن في إخبار محمد ﷺ لهم عن مخالفتهم لموسىٰ وتحكمهم به دليل مفحم علىٰ صدقه ونبوته لأنه أمي.

وهٰذا التمرد منهم جرىٰ بعد توبتهم من عبادتِهم العجل وتقتيلهم لأنفسهم، فأمرهم عجيب! لا تؤثر في نفوسهم الخبيثة توبةٌ مشروط قبولها بتقتيل أنفسهم؛ بل إنهم بعد هٰذا ازداد تمردهم حتىٰ قالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، لن نعترف بنبوتك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عيانًا لا لبس فيه.

والذي قال هٰذا مجموعهم أو سوادهم الأعظم أو قاله نُخبتهم.

قال السُّدي ـ ما معناه ـ: «إن موسىٰ اختار من قومه سبعين رجلًا يذهب بهم إلىٰ الطور للاعتذار مما حصل، وأنهم لما أتوا الطور قالوا هٰذه الكلمة البشعة، فأماتَهم اللَّه بالصاعقة، فقام موسىٰ يبكي ويناشد ربه في قومه: بماذا أرجع ببني إسرائيل؛ فإني أمرتُهم بالاقتتال، ثم اخترت من بقيتهم هٰؤلاء، فكيف أرجع بدونهم؟ ومن يصدقني أنهم ماتوا؟ فلم يزل يتودد إلىٰ اللَّه بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، حتىٰ أحياهم ونظر كل واحد منهم إلىٰ الآخر.

أقول: لعل هٰذه واقعة مستقلة كما ذكرها اللَّه في الآية (١٥٦) من

سورة «الأعراف»؛ أراد اللَّه تأديبهم إكرامًا لموسىٰ وتربية لنفوسهم، وليسوا هم المقصودون بالآية السابقة؛ لأنها ليس لها صلةٌ بمسألة عبادة العجل وهي معروفة عند اليهود، ومنصوص عليها في كتابهم بأن طائفة منهم قالوا: لماذا اختص موسىٰ وهارون بكلام اللَّه من دوننا؛ فانتشر هٰذا القول في الجميع، فتجرأ طوائف منهم بعد موت هارون، وهاجوا علىٰ موسىٰ، حتىٰ قالوا ما قالوا فأهلكهم اللَّه بالصاعقة وهم ينظرون، ثم يتوب عليهم ويحييهم بعد موتهم لعلهم يشكرونه شكرًا عمليًّا، ولٰكنها النفس الإسرائيلية التي لا تتغير، فالطبيعة السيئة لا يجدي فيها التأديب ولا التربية الحسنة، طبيعة تعقدت في نفوسهم من آثار الإرهاب والبطش الفرعوني القالب سجايا الأحرار إلىٰ سجايا العبيد، والذنب الأصيل ذنب فرعون عليهم وعلىٰ جميع الناس الذين ابتُلوا بشرهم.

وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

هٰذا هو الإنعام السابع والثامن علىٰ بني إسرائيل، ذكره اللَّه هنا وفي سورة «الأعراف»:

فالإنعام السابع: نعمة الإظلال بالغمام ـ وذٰلك في أرض التيه ـ؛ سخر اللَّه لهم السحاب يظلهم من الشمس حتىٰ لا تلفح وجوههم وتؤلم أبدانهم، بل أكرمهم اللَّه بِهٰذا الظل الظليل الذي ذكرهم به للامتنان، وتعظم هٰذه المنة لأنها جاءتهم وهم متلبسون بمعصية اللَّه في عدم دخول الأرض المقدسة، وتحريمها أربعين سنة كتب اللَّه عليهم أن يتيهوا في الأرض، ومع هٰذا لطف بهم فظللهم بالغمام حتىٰ لا ينالهم شيء من حر الظاهر أو حر الباطن، فألطاف اللَّه بِهٰذه الأمة ألطاف عظيمة باهرة، ومقابلتهم لها مقابلة كافرة.

أما النعمة الثامنة: فهي إنزال المن والسلوىٰ ليتنعموا بأكلهما ويتفكهوا بلذاذتِهما.

و«المن»: مادة فيها بعض الحلاوة واللزوجة القليلة، تنزل كالندىٰ أو كخفيف الجليد حتىٰ تكون إذا تكاثفت تشبه الإسفنج الأبيض إذا كانت واقعة علىٰ مدرٍ أو حجارة، أما إذا وقعت علىٰ أشجار أو ورود فإنها تتأثر بلون ما وقعت عليه منها.

وبعضهم فسر المنَّ بالتَّرنجُبين(١)، وبعضهم جعله من صنوف المن، وللناس في استعماله الآن طرق عديدة، ولٰكن اللَّه جعله في أصله لذيذ المأكل قليل الحلاوة حتىٰ لا يمله الآكل، فتبارك اللَّه أرحم الراحمين.

وأما «السلوىٰ»: فطائر معروف يسمىٰ «السماني»، فالتعبير بالإنزال لكل منهما علىٰ حقيقته، وهٰذه النعمة زيادة علىٰ ما عندهم من لحوم المواشي.

وقد أباح اللَّه لهم ما أنزله قائلًا: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فقد أبحت لكم التنعم زيادةً علىٰ ما وقيتكم من جحيم الشمس في الهاجرة، ولطفت لكم الجو فجعلته رخيًّا نديًّا من السحاب، صحةً لأجسامكم ونعيمًا لبالكم.

ومع هٰذا فاللَّه يسجل خطيئةً قابلوا بها هاتين النعمتين العظيمتين دون أن يفصلها، فيجوز أنها قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] ـ كما سيأتي ـ، ويجوز أنها غيرها مما لا نتكلفه، بل نكتفي بقول اللَّه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقد كرر اللَّه هٰذا التعبير في بني إسرائيل ـ وفي غيرهم من أنواع الكفر والفسق ـ؛ ليقرر قاعدةً هامةً في سنة اللَّه الشرعية، وهي: أن جميع ما يطلبه اللَّه من العبد فعلًا أو تركًا إيجادًا أو إعدامًا؛ فهو لمصلحة نفسه من جلب الخير والمنافع بامتثال الأوامر، ودفع الأضرار والشرور باجتناب المنهيات، وإن اللَّه لا تنفعه طاعة الطائعين جميعًا، ولا تضره معصية العاصين جميعًا مهما كثروا، وإنما يجلب العصاة

---

(١) **الترنجُبين**: سائل حلو ينزل بعد الفجر كالندىٰ علىٰ الأشجار.

الضرر علىٰ أنفسهم، فهم قد ظلموا أنفسهم ونقصوها حقوقها التي ترتفع بها وتزكو، ولم ينقصوا من اللَّه شيئًا، فالظلم هنا بمعنىٰ النقص.

وقد ورد عن النبي ﷺ في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضُرِّي فتضروني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسَكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجلٍ منكم؛ ما زاد ذٰلك في ملكي شيئًا، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجرِ قلب رجلٍ منكم؛ ما نَقَص ذٰلك من مُلكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد وسألوني، فأعطيت كل واحد منهم مسألته؛ ما نقص ذٰلك مما عندي إلا كما يَنقص المخيطُ من البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذٰلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»(١).

وهٰذا حديث قدسي شريف؛ رواه أبو ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه، وهو حديث طويل مفيد، وقد بدأته من نصفه تقريبًا اقتصارًا علىٰ مدلول الآية منه، وله شروح نافعة، وهو من أمهات العقيدة ومن جملة ما أفرده بالشرح شيخ الإسلام ابن تيمية فليرجع إليه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

هٰذا هو الإنعام التاسع علىٰ بني إسرائيل، فقد كتب اللَّه لهم دخول هٰذه القرية وأن يأكلوا منها حيث شاؤوا رغدًا، وذٰلك بعد تحريمها عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض لقاء تمردهم عن أمر ربهم، وجبنهم عن قتال عدوهم، وقولهم لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

[المائدة: ٢٤]، كما سيأتي الكلام عليه في سورة «المائدة».

و«القرية» اسم لمجتمع الناس من بلدٍ صغير أو كبير، وشاع استعمالها في البلد الصغير، ولٰكن هنا يقصد بها المدينة، لأن القرية لا يتيسر فيها رغد العيش، وهي علىٰ الأصح بيت المقدس قلب فلسطين؛ ذات العيش الرغد.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، وهٰذا الباب لم يذكر اسمه ولا جهته، وقد قال بعض المفسرين: إنه المسمىٰ «باب الحطة»، والظاهر أن الباب المقصود في الآية هو مدخل المدينة، وأما كونُهم يدخلونه سجدًا فالمراد به ـ واللَّه أعلم ـ: سجود الخضوع للَّه والخشوع، وليس السجود المعروف ـ الذي هو وضع الجباه علىٰ الأرض ـ؛ لأن ظاهر الأمر يقتضي وجوب الدخول حالة السجود، وقيل: هو الركوع انحناءً، ولٰكن الخضوع هو الأقرب، إظهارًا للتواضع الذي يحصل به طاطأة الرأس إعظامًا للَّه الذي مكنهم من دخوله، فأصبح دخولهم بحول اللَّه وقوته، لا بسبب جهادهم وتفوقهم وانكسار عدوهم أمام قوتهم، فإن لمثل هٰذا شأنًا في الدخول غير شأنهم؛ فإن الظافر بدخول البلد ظفرًا عسكريًّا يدخل مرفوع الرأس بتعاظم وعنجهِيَّة، أما هٰؤلاء فعلىٰ العكس، بل أمرهم اللَّه ـ مع هٰذا ـ أن يعلنوا توبتهم أمام بعضهم وأمام الناس؛ حيث قال لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾؛ ليقرنوا خضوعِ القلب بنطق اللسان، ملتمسين من اللَّه حط الذنوب.

وكلمة ﴿حِطَّةٞ﴾ فِعْلة من الحَط، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتُنا حطةٌ.

هٰكذا يرشدهم اللَّه سبحانه إلىٰ ما ينفعهم في دينهم ودنياهم من جلب مرضاته وعفوه، وأخبرهم أنه يغفر لهم خطاياهم إذا امتثلوا، ويزيد المحسنين ـ الذين يراقبونه كما يريد ـ مزيدًا من الثواب والإحسان، ولذا قال: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾؛ لأن المحسن الذي

يراقب اللَّه يسارع في المزيد من الأعمال الصالحة، فيزيده اللَّه بإحسانه إحسانًا.

ولٰكن الطبع اليهودي يستعصي علىٰ أحسن ضروب التربية، فقد عصىٰ بعضهم ـ أو أكثرهم ـ وكابر حتىٰ اعتبرهم اللَّه مبدلين للقول الذي قيل لهم، وذٰلك أن مخالفتهم لأوامر اللَّه ليست عن جهل يستوعب مزيد تفصيل[1]، ولا عن اشتباه يحتمل التأويل، ولٰكنه مجرد عنادٍ ومشاقة، فكأنهم بِهٰذه الحالة قيل لهم عكس ما قيل في الحقيقة، ولذا قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾، وفي سورة «الأعراف»: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، وهٰذا يدل علىٰ أن المخالفة لم تصدر من الجميع.

قال أكثر المفسرين: إنهم لم يدخلوا الباب سجدًا ـ كما أمرهم اللَّه ـ؛ بل دخلوه زاحفين علىٰ أستاههم قائلين: حبة في شعيرة[2]، أو: حنطة. يقصدون بِهٰذا أنهم يريدون الأكل، وهٰذا القول يؤيده أثرٌ صحيح، وإلا فللمفسرين أقاويل أخرىٰ مستمدة من الإسرائيليات التي ينبغي تطهير التفاسير منها.

وقد أصاب اللَّه تعالىٰ الظالمين منهم بعذاب أبْهَمَ اسمه وحقيقته قائلًا: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وفسره البعض بأنه الطاعون، والأولىٰ أن نسكت ونقف حيث أوقفنا اللَّه، بل نؤمن بأنه عاقبهم برجز ملائم لمعصيتهم وحالتهم.

وفي إقامته سبحانه للمُظْهَرِ مقامَ المضْمَرِ في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تأكيد لما نص عليه في سورة «الأعراف» من التبعيض، وأن المخالفين ليسوا جميع القوم، بل منهم من لم يخالف، ومن خالف

---

(١) أي: ليس ناتجًا من أن أوامره سبحانه كليَّةٌ تحتاج إلىٰ تفصيل لم يفهموه، فيكون لهم بعض العذر، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٩) ومسلم (٣٥١٥).

نال جزاءه علىٰ فسقه، أي: خروجه من طاعة اللَّه، واللَّه أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

هٰذا هو الإنعام العاشر علىٰ بني إسرائيل، وهو من أعظم الإنعامات عليهم في دينهم ودنياهم:

ـ أما الدين: فلأن في هٰذا معجزةً عظيمةً شاهدة علىٰ وجود الإلٰه الخالق وعظيم قدرته وسعة رحمته ﷻ، حيث فجر لهم ماءً كافيًا لجميع أسباطهم من صخرة صماء يابسة، ولو كانت رطبة لما صح في الحسبان أن يُعتصر منها قدر قارورة، فكيف وهي يابسة للغاية، ففي هٰذا أعظم دليل علىٰ قدرة اللَّه لا يشك في وجوده إلا الذي هو أضل من البهائم.

ـ وأما كون هٰذا من أعظم نعم اللَّه عليهم في الدنيا: فلأن حياة كل شيء متوقفة علىٰ الماء ـ خصوصًا البشر ـ؛ بل علىٰ الخصوص بني إسرائيل الذين عطشوا في التيه، وساورهم الهلع والقلق، وأخذوا يتذكرون مياه مصر المتدفقة، ويلومون موسىٰ علىٰ إخراجهم، ويتمنون حالة الذلة والإرهاب؛ لأنهم قد ألفوها، فماتت منهم الشهامة والرجولة الصحيحة، وليس عندهم شيء أعز من الماء، ولا أفرح لهم بحصوله منه، فكانت هٰذه النعمة عظيمة جدًّا بالنسبة إلىٰ حالتهم المذهلة المخيفة.

ومن تأمل جميع النعم العشر التي أكرم اللَّه بها بني إسرائيل وجد فيها تربيةً روحيةً ومعنوية، شاء اللَّه أن يرفع رؤوسهم من حضيض الذل والمهانة، وأن يطهر نفوسهم من رواسب الوثنية التي تأثروا بها في مصر، وأن يقتلع منها جذور الشرك المتأصلة فيها لطول إقامتهم، ولما جبل الضعيف عليه من تقليد القوي؛ فإنك تجد في أخبارهم مع موسىٰ غرائب الأعاجيب مع ما يتخللهم اللَّه من سوابغ نعمه المترادفة التي لم تتوافر لغيرهم؛ فتجدهم لا يعملون حسنة إلا ويُتبعونها بسيئة ـ مع

أن هٰذا خلاف الواقع الإنساني المعروف ـ، وتجدهم يتنكرون للنعمة أسرع ما كان، كما جرىٰ منهم بعد إنعام اللّٰه عليهم بمجاوزتهم البحر وإهلاك عدوهم وهم ينظرون، يسألون موسىٰ أن يجعل لهم إلٰهًا غير اللّٰه ـ كما سيأتي تفسيره في الآيات (١٣٨ ـ ١٣٩) فما بعدهما من سورة «الأعراف» ـ، وأحيانًا يعبدون عجلًا مصنوعًا من حليهم، وأحيانًا يقولون لموسىٰ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، وتارةً يبدلون قولًا غير الذي قيل لهم، وأحيانًا يعتدون في السبت، ويتحيلون علىٰ اللّٰه... إلىٰ غير ذٰلك من أنواع شرودهم عن الحق، وتهافتهم علىٰ الباطل.

ولذا تجد اللّٰه ﷻ لم يراع الترتيب في سرد أحوالهم ومواقفهم وتنويع نعمه عليهم؛ لأنه لما كان يريد العظة والاعتبار جعل بيانه لنعمه عليهم متصلًا بأسبابها، منفصلًا عن أوقاتها، وقد اعترض بعض أعداء القرآن عليه بعدم ترتيب ما فيه من القصص، كتأخيره ـ مثلًا ـ لذكر الاستسقاء وضرب الحجر، مع أنه كان متقدمًا علىٰ دخول القرية، فأجابهم علماؤنا بما تقدم وبأن القرآن لم يقصد التاريخ وسرد الوقائع بمواقيتها مرتبة، لأن هٰذا قد يخالف لوازم الهداية ومواقع العظة والاعتبار، والقرآن كتاب هداية لا كتاب تاريخ وأقاصيص؛ فهو يُعنىٰ ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب منها، وببيان النقم بعللها ليحذر منها، فكانت طريقة القرآن أبلغ في التذكير والتأثير.

كان من عناية اللّٰه ببني إسرائيل في مُهَاجَرِهِم من مصر أنه لا يدع لليأس عندهم مجالًا؛ بل يبادرهم بإغاثته لهم، فإنهم لما عطشوا في التيه واستسقىٰ لهم موسىٰ؛ أكرمهم اللّٰه سبحانه وأغاثهم بالماء، لٰكن بطريقة فيها زيادة تركيز للعقيدة وتثبيت للإيمان، فهو سبحانه قادر علىٰ إنباع الماء من الأرض وتشعيبه لهم اثنتي عشرة عينًا، ولٰكنه أغاثهم بطريقة فيها معجزة أبلغ بكثير من ذٰلك، قال تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾.

والعصا هي عصاه المعروفة التي يُتوكأ عليها، والتي لما شاء اللَّه انقلبت ثعبانًا مبينًا، فلا يجوز الالتفات إلىٰ ما قيل في طولها ما دام القرآن نص علىٰ أنه يتوكأ عليها؛ لأن ما يتوكأ عليه الإنسان فهو أصغر من قامته، فعلىٰ المفسر الوقوف عند حدود العقل والنقل، وألا يظلم التعبير القرآني خضوعًا لأخبار إسرائيلية تصادم النقل ولا يهضمها العقل.

وكذٰلك الحجر المضروب لم يعينه القرآن، فلا يجوز لنا أن نعتمد علىٰ روايات إسرائيلية في وصفها أو بتعدادها أو منشئها المزعوم من الجنة، وإنما يلاحظ من نظم القرآن الكريم أن «اللام» في ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ إما للعهد أو للإشارة إلىٰ شيء معلوم يعرفه موسىٰ، وليس لدينا ما يدلنا علىٰ معرفته. ولٰكن بما أنه يجوز أن تكون اللام هنا للجنس فالتفسير بها أولىٰ لأنه أبين في الحجة وأظهر لقدرة اللَّه، فكأنه ﷻ قال لموسىٰ: اضرب بعصاك الحجر ـ أيَّ حجر تراه ـ، ذٰلك أن موسىٰ لو خصص حجرًا معينًا لاعتقدوا أن له مزيةً وتأثيرًا، لأنهم حديثو عهد بجاهلية شنيعة، وكلما كان أبلغ في الإعجاز، وأبعد عن سوء الاعتقاد في التأثير فهو أولىٰ بالتفسير، لأن المقام مقام تركيز إيمان وعقيدة، ومقام تجريد كامل للتوحيد.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ متعلقة بمحذوف، أي فضربه فانفجرت، ولا يمتنع علىٰ قدرة اللَّه أن ينفجر الماء من الحجر بدون ضرب، ولٰكن اللَّه اختار لموسىٰ أن يضربه كرامةً له بين قومه.

واعلم أنه لا تناقض بين قوله سبحانه هنا ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، وفي سورة «الأعراف» ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، لأنه من اختلاف العام والخاص الذي لا يوجب التناقض خصوصًا وفي كلا الآيتين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾، مع الاتفاق علىٰ نبع اثنتي عشرة عينًا، لكل سبط من أسباطهم عينٌ خاصة يشرب منها دون موازاة السبط الآخر.

والحكمة في تقسيم هٰذا الماء عليهم ـ لكل سبط عين خاصة ـ هي

أنهم كثيرون، ومن عادة الكثير في الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلىٰ الماء ثم وجدوه أن يقع بينهم زحام يوجب التشاجر والتناحر المفضي إلىٰ التطاحن في القتال، فأكمل اللّٰه نعمته بِهٰذا التقسيم الذي جعل لكل بطن من بطونهم عينًا خاصة لا يختلط معه غيره، وبِهٰذا لا يحصل من أثر الزحام فتنة، بل قد لا يحصل بينهم ما يعتبر زحامًا.

فاللّٰه ـ الذي يعلم ما بينهم من التشاحن ـ وقاهم بِهٰذا التقسيم للماء شر فتنةٍ مستطيرة، فضلًا منه ورحمة، ومع هٰذا فالقوم هم القوم!.

واعلم أن هٰذه الحادثة ليست معجزةً واحدةً؛ بل هي خمس معجزات:

ـ إحداها: أن نفس ظهور الماء معجزة.

ـ وكون خروجه من حجر صغير معجزة ثانية.

ـ وكون خروج الماء علىٰ قدر حاجتهم معجزة ثالثة.

ـ وكون خروجه عند ضرب الحجر بالعصا معجزة رابعة.

ـ ثم انقطاع الماء عند الاستغناء عنه معجزة خامسة.

فهٰذه معجزات حصلت بقدرة اللّٰه التامة، ومشيئته النافذة في الكائنات، وحكمته العالية علىٰ الأزمان والدهور، ومع هٰذا فإن معجزة نبينا ﷺ في نبوع الماء من بين أصابعه أقوىٰ[1]؛ لأن نبع الماء من الحجر معهود في الجملة، أما نبعه من بين الأصابع فغير معتاد ولا معهود. وقد ضاق الماء بأصحابه في بعض الغزوات، فوضع يده الشريفة في متَوَضَّئِهِ، ففار الماء من بين أصابعه حتىٰ توضؤوا جميعًا، فلا شك أن معجزته ﷺ أكبر.

فإن قال قائل: كيف يعقل خروج الماء الكثير من حجر صغير، أو إنباعه من بين أصابع الإنسان؟!.

قلنا له: أولًا: هل تسلم بوجود الرب الفاعل المختار القادر علىٰ كل

---

(١) هٰذا ثابتٌ في عدةِ أحاديث صحيحة.

شيء، والذي لا يستعصي عليه أي شيء؟ فإن اعترف بوجوده وبعظيم قدرته فقد زال ما عنده من الإشكال، وإن لم يعترف فلا فائدة في جدال كافر استحب العماية عن رؤية الحق، وإلا فلو أرجع بصره، وأعمل تفكيره في الكائنات لاهتدىٰ إلىٰ خالقها وموجدها الذي لا يصعب عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فهٰذا بتعيين من اللَّه تعالىٰ علىٰ يد موسىٰ لكل سبط عينًا من العيون الاثنتي عشرة يختص بها دون ما سواه؛ حتىٰ لا تقع المزاحمة المفضية إلىٰ التشاحن والفتنة. وهٰذه من بعض رحمات اللَّه ولطفه بهم ـ كما أسلفناه ـ.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾، امتنان عليهم، وإباحة لهم أن يأكلوا من المن والسلوىٰ، ويشربوا من هٰذا النبع المتشعب بعدد أسباطهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعثي: شدة الفساد، فكأنه قال: لا تتمادوا في الفساد. وفي نَهيه سبحانه لهم عن الإفساد تخللت كلمة ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾؛ لأن ما يجري منهم من الفساد ليس عن اجتهاد وحسن نية، بل هو فساد مقصود عن رغبة وتصميم.

والعبرةُ من تذكير اللَّه لهم بِهٰذه النعم العشر العظيمة وسردها، هي أن يبين اللَّه لهم ولأحفادهم طبيعة أنفسهم الهابطة وخستها في مقابلة النعم، وكون الحرية التي وهبهم اللَّه ليس لها عندهم وزن، والرسالة التي أكرمهم اللَّه بها ليس لها قيمة؛ لأنهم أنفوا تكاليف العزة، وبخلوا بدفع ثمن الحرية والكرامة، ولم تشمخ رؤوسهم بحمل رسالة اللَّه؛ بل لم يستطيعوا ترك مألوفاتهم البهيمية، كما يقص علينا خبرهم في الآية المقبلة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا

فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾:

هٰذه الآية تصور لنا جُرمًا آخر من إجراماتهم تدل علىٰ كفرانهم بنعم اللَّه، وأنهم دأبوا علىٰ إعنات موسىٰ بكل وسيلة، بطلب ما يستطاع وما لا يستطاع، وأنهم قد تسفلوا بأنفسهم إلىٰ أحط المستويات، إلىٰ مستوىً لا يليق بأمة رعاها اللَّه بعنايته العظيمة، ولٰكن كما قال الشاعر:

.... وتأبىٰ الطباعُ علىٰ الناقلِ

ولعل طلبهم هٰذا لقصد إحناق موسىٰ وتأييسه حتىٰ يرجع بهم إلىٰ مصر التي ألفوها، ولم ييئسوا بما حصل لهم فيها من الذلة والإرهاب.

وإن العليم الخبير ﷻ قال: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ لأن مجرىٰ سؤالهم لا يوجب شيئًا من عصيانهم الشديد المفضي إلىٰ ضرب الذلة والغضب، ولٰكن هناك ملابسات أخرىٰ أبْهمها القرآن.

ولا شك أن تحكمهم المتكرر علىٰ موسىٰ؛ مخالف لما يحبه اللَّه، ومعاكس لمقابلة نعم اللَّه المتوالية بالشكر العملي الصحيح، خصوصًا وقد وُعدوا بالتمكين من دخول الأرض المقدسة أن يرفع عنهم الخسف الذي وقع بهم بسبب عصيانهم في التيه، وعدم تأثرهم بما شاهدوه من الآيات الواضحة الباهرة، والنعم العظيمة التي لا مثيل لها في جميع أدوار التاريخ.

فهٰذا التلون منهم مع موسىٰ دليل علىٰ أنهم يريدون إفهامه بأن لا بقاء لهم معه علىٰ هٰذه الحال، وأي حال أحسن من حالتهم ـ قبحهم اللَّه ـ، وهم يأكلون المن والسلوىٰ ـ العسل والطيور ـ، ويشربون من اثنتي عشرة عينًا، بدون كلفة ولا زحام من صخرة سخرها اللَّه!.

لذا قال لهم موسىٰ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾؟

وأصل معنىٰ «الأدنىٰ» في اللغة الأقرب، ثم استعمل للأخس الدون؛ فجعل طلبهم للبقول والقثاء والبصل والثوم بدلًا من المن والسلوىٰ استبدالًا للطيب الأعلىٰ لذةً وعاقبةً بالأخس الأدنىٰ لذة وعاقبة.

وقولهم: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ توكيد منهم لنفي صبرهم في المستقبل.

و«البقل»: هو النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام من سائر البقول؛ كالخَسِّ، والرجلةِ، و ا لهندِباء... وغيرها.

و«القِثَّاء»: يشمل جميع أنواع البطيخ، والطروح، والخيار، وقد يختص باسمه الطروح الملتوية.

و«الفُوم»: هو الثوم ـ كما في قراءة ابن عباس وابن مسعود ـ، وتفسيره به أولىٰ من تفسيره بالحنطة؛ لأن الحنطة من أطايب الطعام، لا من أدناه.

فهٰذه الآية تذكر بني إسرائيل ببطر أسلافهم، وإعناتِهم لنبيهم، وتفضيلهم الأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ، أشرًا وبطرًا، وسوء مقابلة للنعم العظيمة.

وقولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولم يقولوا: «ادع لنا ربنا» يعبر عن سوء أدبهم مع اللَّه وتعاظمهم علىٰ موسىٰ، وكأن اللَّه رب له من دونهم، أو كأنه محسَن إليه لا محسِن إليهم، فخطيئتهم هٰذه مركبةٌ من عدة أمور يسخط اللَّه عليهم بها؛ لأنه يعلم خبايا نفوسهم.

ولو أن طعامهم غير هٰذا الطعام، ومنطقهم غير هٰذا المنطق؛ لكان لهم عذر وشأن غير هٰذا الشأن، ولٰكن طعامهم من أشهىٰ الأطعمة وألذها وأحلاها وأحسنها عاقبة: «المن» الذي تحبه كل الطباع السليمة، و«السلوىٰ» التي هي من أحسن الطيور، وفيهما غذاء كامل ولذة خارقة لا يحصل عشر معشارها فيما طلبوه من البقول والقثاء.

وكذٰلك منطقهم مع موسىٰ، ذٰلك المنطق القاسي المتعالي، والذي لا يشعر بأدنىٰ وقار للّٰه، بل إن منطقهم يشابه منطق آل فرعون، إذ

قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. بل إن قوم فرعون يسوغ لهم هٰذا التعبير حيث لم يؤمنوا بالله رب موسىٰ.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ يعني فرضت ووضعت عليهم الذلة، وألزموها إلزامًا حسيًّا بالطبع، وإلزامًا شرعيًّا بالحكم، كما أوجب الله علينا قتالهم وعدم إقرارهم علىٰ دينهم الذي لم يلتزموه حقًّا إلا بدفع الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فلا يجوز لنا قبول الجزية منهم إرسالًا ولا مناولة بواسطة، لانتفاء الصغار الموجب للذلة المفروضة عليهم شرعًا كما هي سجيةٌ لهم وطبعًا، حتىٰ إن من أبىٰ منهم الصغار ـ بعد عقد أمانه ـ انتقض عقده ووجب قتله، كما قرر الفقهاء ذٰلك استنادًا علىٰ الآية (٢٩) من سورة «التوبة»، ووقوفًا عند الغاية التي حدها الله، فأصبحت الذلة مفروضةً عليهم شرعًا، ومحيطةً بهم ومشتملةً عليهم طبعًا، كمن هو داخل قبةٍ مبنية عليه ومسوَّر بها من جميع الجوانب.

وأما المسكنة فهي الفاقة والحاجة وشديد المحنة، وليس المراد بها فقر المال وفاقته، وإنما هو فقر العزة والاستقلال الشخصي، فاليهود عندهم ثروة العالم ويتحكمون في أسواقه و«بورصته» بالمصطلح العصري، ولٰكن لا يرفعون رؤوسهم أو يمدون أعينهم بدون سند ومؤازر من ضُلَّال النصارىٰ أو منافقي المسلمين، أو المحسوبين علىٰ الإسلام ـ وهم أبعد الناس عنه ـ؛ كالدروز والنُّصيرية والقرامطة ونحوهم ـ مهما اختلفت أسماؤهم وألقابهم وشعاراتُهم ـ.

والذل يُهوِّنُ علىٰ صاحبه قبولُ الضيم ـ أيًّا كان نوعه ـ في سبيل استبقاء الحياة، والمسكنة تُلزم صاحبها الاستكانة والخضوع الكامل في القول والعمل، ولٰكن قد يُظهر الذليلُ المسكين مظهر العزيز الجبار المفاخر بتاريخه وبما لديه ـ إذا خلا له الجو وصار في مأمن من أسود الشرىٰ ـ كحالتهم اليوم؛ حيث هيؤوا ظروفًا من مكر جمعياتهم الماسونية

وتربيتهم الإلحادية التي تولىٰ كِبْرَها الاستعمار بجميع أنواعه؛ حتىٰ قفزوا إلىٰ محمل الصدارة من يثقون فيه ويطمئنون إليه باطنًا ـ وإن شتموه ظاهرًا للخداع والتضليل ـ.

قال الشاعر:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ … طلب الطِّعْنَ وحدهَ والنِّزالا

وقال الآخر:

وكذا الديارُ إذا خلت من قائدٍ … فالفأرُ في عرصاتِها يستأسدُ

ولٰكن في الوقت الذي ينبري لهم المؤمنون الصادقون ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون]، المؤمنون الصادقون ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]، المؤمنون الذين يتمسكون بالكتاب لا المعرضون عن الكتاب، المؤمنون الصادقون الذين يقاتلونهم أذيالهم لقصد إعلاء كلمة اللَّه وإقامة شريعته في الأرض، لا إقامة حكم علماني من وضع اليهود يبيح ما حرم اللَّه ويحمي المفتري عليه ـ؛ أقول: إذا قابلهم المؤمنون الذين علىٰ هٰذه الصفات والمقاصد؛ فإن اليهود لا يثبتون أمامهم، ولا تنفعهم ـ أيضًا ـ جميع الفئات المناصرة لهم من دول الشرق والغرب أبدًا، كما قال سبحانه في الآية (١٩) من سورة «الأنفال»: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾.

لا ينخدع أحد بما حصل اليهود عليه من تكوين دولة أو جولة، لأنهم:

أولاً: لم يحصلوا علىٰ ذٰلك إلا بحبل من الناس، وبعض الدول الشرقية تمدهم بالرجال العسكريين والفنيين المهرة بكثرة بلغت مئات الألوف، وبعض الدول الغربية تمدهم بالأسلحة الفتاكة، وهٰذا شيءٌ نص اللَّه عليه: أنه لا تقومُ لهم قائمة إلا بحبل من اللَّه ـ إذا عادوا إلىٰ طاعته ـ، أو حبل من الناس، كما في الآية (١١٢) من سورة «آل عمران»،

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء].

ثانيًا: أنه لم يقف في وجوههم أحد ممن يتعجل بضاعة السماء ويستمطر مدد السماء فتحفه حصانة السماء، وقد أوضحت هٰذا في مواضيع خاصةٍ بهم خارج ذٰلك التفسير المبارك، ولٰكن اضطررت اضطرارًا استطراديًّا هنا إلىٰ قليل من الكلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يعني انصرفوا ورجعوا متحملين غضب اللَّه قد استحقوه؛ فلابد أن يصيبهم من صنوف البلايا والرزايا في الدنيا والآخرة ما يذوقون به وبال أمرهم، فقد أخبر اللَّه سبحانه أنه يبدلهم بالعز ذلًّا وبالنعمة بؤسًا، وبالرضا عنهم غضبًا، جزاءَ مواقفهم السيئةِ والتنكرِ لما هيأهم اللَّه له؛ فقد حل بهم الغضب، ونزل بهم السخط؛ لأن من استحق الغضب من اللَّه فقد أصابه.

وفي تنكير «الغضب» دلالة علىٰ أنه نوع فظيع من غضبه ﷻ، وقد ظهرت آثاره عليهم في جميع أدوار حياتهم، لأن الغضب ملازم لهم لا ينفك عنهم. ولٰكن ينبغي أن يُعلم أن جميع ما كتبه اللَّه عليهم من الذل والمسكنة والغضب الشديد ولوازمه يحيق بهم، كما كتبه اللَّه عليهم وعلىٰ من تشبه بهم أو سلك مسالكهم من هٰذه الأمة، أو تلقىٰ عنهم أو عن أفراخهم من تلاميذ الماسونية شيئًا في ميدان التربية والتعليم أو سائر نواحي الحياة الأخرىٰ، فإنه لابد أن يناله ما كتبه اللَّه علىٰ من قلدهم من اليهود وتلاميذهم.

وما هٰذه الفتن ـ التي يتبجح بإثارتها المغرضون الحاقدون والمقلدون المنصبغون ـ إلا من بعض العقوبات؛ لأن فيها إرهابًا وتنكيلًا يفضي إلىٰ الذلة والمسكنة، وفيها تقتيل لكهول وشباب بارعين في العلوم العسكرية والفنية، تخسرهم الأوطان والمجتمعات لقاء تشفي عُصبةٍ أو فرد؛ فإن في ذٰلك إعلامًا بغضب اللَّه.

فعلىٰ المسلمين عمومًا أن يعتبروا بما قص اللَّه علينا من أخبار

اليهود وما قضىٰ بسوء حالهم ومآلهم، بالابتعاد عن أعمالهم، ومحاربة جميع تقاليدهم، ورفض كل ما يرد من طريقهم ـ في أي ميدان من ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ـ، وألَّا يعوِّلوا في علم النفس أو الاجتماع أو الطبيعة أو غير ذٰلك علىٰ أحد منهم، كما هي الحال الآن.

ثم ذكر اللَّه أسباب شقائهم وبلائهم؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهم دلوا بأفعالهم القبيحة من إعناتهم لموسىٰ في المطالب؛ مع ما يحوطهم اللَّه بالنعم العظيمة التي أغلبها معجزات باهرة علىٰ ألَّا أثر لها في قلوبهم، وأنها لم تزِدْهم إلا قسوةً ونفورًا، فكانوا بها من الكافرين، وقد زاد طغيانهم إلىٰ طغيان آخر؛ وهو أنهم ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وقتل غير النبيين جريمة كبيرة فكيف بالنبيين؟! وقوله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تنبيه علىٰ أن فعلهم ليس عن سوء فهم أو فساد تأويل؛ وإنما هو عن خبث قصد وتصميم.

فأعمالهم تدلُّ علىٰ لؤم طباعهم وقسوة قلوبهم ولذا قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾، أي أن ما فرضناه عليهم من الذلة والخسف المعنوي والغضب المحتم: لعصيانهم الأوامر في الأحكام واعتدائهم حدود اللَّه التي حدَّها لهم في شريعته، ونهاهم عن تجاوزها وتخطيها؛ فاعتدوا بتجاوزها، وقد كانت هي الوسيلة لإعزازهم ورفع سلطانهم وحفظ كيانهم، فلما أهملوا انعكست أحوالهم؛ لأن اللَّه اعتبرهم بتركها كافرين.

وهنا عودة أخرىٰ للكلام علىٰ ما نالوه في هٰذا العصر من نصر مؤقت وكيانٍ، خشية الاستهانة بكلام اللَّه، فأقول ـ وباللَّه التوفيق ـ:

إن النصر علىٰ الأعداء في الحرب ـ أيًّا كانوا ـ يحتاج إلىٰ أخذ القوتين: المادية والروحية، والجمع بينهما هو المأمور به؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ونحن أضعنا القوة الروحية

بالكلية، وتبجحنا بقوةٍ ماديةٍ مكشوفة غير مكتومة، فتفوق العدو علينا بها، وأصبحنا محرومين من القوة الروحية؛ بل إنه أحدث ـ بمكره الماسوني ـ انقلابات في محيطنا، قلبت مجتمعنا إلىٰ مجتمع كراهية وشقاق، وهٰذا شيء خططته الماسونية في محافلها منذ نصف قرن فأكثر، ونحن سادرون، كما خططت ـ أيضًا ـ أحداث الخواء الروحي في مجتمعاتنا، فمن أين ننتصر؟!.

إن اللَّه قضىٰ سنته الكونية التي لا تتغير ـ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح] ـ أنه إذا استوىٰ الفريقان المتحاربان في طاعة الهوىٰ والشيطان؛ فإن النصر يكون بالقوة المادية أو بالمكر الحربي، ويرتفع مدد اللَّه.

أما إذا كان أحد المتحاربين مطيعًا للَّه ومخلصًا مقاصده لإعلاء كلمته فقط فإنه ينصر بالرعب وبالريح وبالملائكة، وينصره ـ أيضًا ـ بشل حركة عدوه أو إفساد بعضها لصنعته ومكره؛ كما جرىٰ جميع ذٰلك لعباده المخلصين، أو ينصره ـ أيضًا ـ بإشغال عدوه وتسليط عدو آخر عليه، كما نصت الآية (٢٥١) من سورة «البقرة»، فليعرف الإنسان هٰذا، ولا يلوي لسانه بالشغب الباطل.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

هٰذه الآية لها ارتباط قوي بالآية قبلها من ناحيتين:

إحداهما: أن الآية السابقة قضىٰ اللَّه فيها بالذِّلة والمسكنة والغضب منه علىٰ اليهود، وحكم بكفرهم بآياته، وذَكَّر أحفادهم بجرائمهم البغيضة التي منها قتل الأنبياء، فاستثنىٰ بِهٰذه الآية من حَقَّقَ الإيمان المطلوب، وقام بالأعمال الصالحة المرضية ليبين أن حكمه ليس شاملًا للجميع بلا تفريق.

وثانيهما: أنهم مع ما جرىٰ منهم من التعنت والمخالفات المغضبة لرب العالمين؛ فإن لهم دعاوىٰ عجيبة غريبة، فهم دائمًا يزعمون أنهم المهتدون، وأنهم شعب اللَّه المختار، وأن الدار الآخرة خالصةٌ لهم من دون الناس، وأنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وأن النار لا تمسهم إلَّا قليلًا... إلىٰ غير ذٰلك مما أبطل اللَّه كلًّا منها في موضعه، فجاءت هٰذه الآية مكذِّبةً لجميع مزاعمهم، ومبينةً وحدة العقيدة لجميع الطوائف ـ علىٰ اختلاف أسمائهم ـ باللباب الصحيح ـ لا بقشور الدعاوىٰ الزائفة ـ، وأن كل ملة من الملل إذا وصل بها إيمانُها إلىٰ إسلام الوجه للَّهِ، والتصديق بجميع رسله وكتبه، والوفاء بعهده الفطري، من استعمال كل الجوارح والأحاسيس في طاعة اللَّه ومرضاته، ثم الوفاء بعهده الديني الشرعي من الإيمان بمحمد ﷺ، ونصرته حيًّا بالجهاد معه والسير في طاعته، ونصرته ميتًا باتباع سنته وتحقيق جميع أنواع الفداء في حمل رسالته، والإيقان باليوم الآخر بالاستعداد الصحيح له؛ فإن ألقابهم حينئذٍ لا تبعدهم عن اللَّه؛ بل تصبح كالقشور.

إن فضل اللَّه وعفوه ليس محجورًا علىٰ جنس من الناس دون جنس، أو لون دون لون، وإنما هو للذين آمنوا وعملوا الصالحات جميعًا في كل زمان ومكان.

وقد استشكل معنىٰ هٰذه الآية علىٰ بعض المفسرين؛ حتىٰ زعموا أنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]! وليس فيها استشكال ولا نسخ، بل معناها لمن عرف الوحدة الدينية بجميع الأنبياء والمرسلين، وأنهم جاؤوا من اللَّه بدين الإسلام، وأن كل يهودي لا يدين بالإسلام، ولا يؤمن برسول الإسلام ﷺ فهو مكذب لموسىٰ وكافر بالجميع، وكل نصراني لا يؤمن بمحمد ﷺ، ولا يدين بدين الإسلام، فهو كافر بعيسىٰ وبمحمد عليهما الصلاة والسلام.

فكل من أدرك هٰذا زال عنده الإشكال؛ ولهٰذا لما أخبر اللَّه باللائمة

علىٰ اليهود في الآيات السابقة؛ جاء بِهٰذه الآية مخصصة للمؤمنين من كل صنف اهتدىٰ بهدي نبي سابق وانتسب إلىٰ شريعته، مؤمنًا باللَّه واليوم الآخر، لاستلزام الإيمان لما قلناه.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني بهم المسلمين ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود، إما بمعنىٰ نسبتهم إلىٰ يهوذا، وإما بنسبتهم إلىٰ التوبة والعودة إلىٰ اللَّه بقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو أصح؛ لأن اليهود ليس جميعهم منسوبًا إلىٰ يهوذا، وإنما المنسوب إلىٰ يهوذا سبط واحد من اثني عشر سبطًا.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم أتباع عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ نسبةً إلىٰ قولهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢](١)، أو إلىٰ قرية تدعىٰ «الناصرة».

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: هم علىٰ الأصح طائفة من المشركين قبل البعثة؛ ساورهم الشك في تلك الجاهلية، فبحثوا عن عقيدة يطمئنون إليها، فاهتدوا إلىٰ ملة إبراهيم، واعتزلوا ما كان عليه قومهم دون أن تكون لهم دعوة، وإنما اهتدوا إليها لأنه كان في العرب من يدين بها؛ لأنها هي الملة الأصيلة في العرب سدنة البيت الحرام وسكان مكة ومن حولها مما لا يعلم مداه إلَّا اللَّه، فإن الإسلام فيهم أصيل، والوثنية دخيلة عليهم جاءت في عهد «خزاعة» بمكر من اليهود، سيأتي تفصيله.

فالعرب مسلمون قبل أن يكونوا عربًا، علىٰ الرغم مما يزعمه المصريون المنخدعون بأقوال النصارىٰ ـ دعاة القومية العلمانية الوثنية ـ. والعرب تسمي المنتقل من دين إلىٰ دين غيره: «صابئًا»، حتىٰ إنهم في عهد قريش يسمون المسلمين «صابئين».

وفي الصابئين أقوال أخرىٰ:

منها: أنهم لا دين لهم.

---

(١) وجاء التصريح بلفظ «النصارىٰ» في موضع آخر، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ ...﴾ [المائدة: ١٤] الآية.

ومنها: أنهم بين اليهود والمجوس.

ومنها: أنهم فرقة موحدة، ولٰكنها تعتقد التأثير بالنجوم.

ولكل من الأقوال وجه، والصحيح الأول.

ولٰكن يوجد فرقة انفصلت من اليهود بعد قتلهم يحيىٰ، وانتحلوا أشياء من بعض الأديان، وفيهم رواسب من اليهودية، وشعارهم لبس «الشماغ» الأحمر تذكارًا لدم يحيىٰ، ولا يأخذون شيئًا من شعورهم أبدًا حزنًا علىٰ مأساته، وهم سريعو الاقتناع للدخول في الإسلام ـ لو كان هناك دعوة قائمة إليه ـ، وأكثر مساكنهم في العراق.

والمقصود من هٰذه الآية الكريمة: أن العبرة بصحة العقيدة وحسن المعاملة للّٰه سبحانه بالصدق والإخلاص لا بالأسماء والدعاوىٰ، فإن الذين آمنوا من هٰذه الأمة وثبتوا علىٰ إيمانهم ولم يتغيروا ولم يبدلوا أبدًا، وإن كلًّا من اليهود والنصارىٰ والصابئين، من آمن منهم باللّٰه واليوم الآخر، والإيمان باللّٰه يستلزم بالضرورة الإيمان بجميع كتبه ورسله وخاتمهم محمد ﷺ، والقرآن، وصدَّق دعوىٰ إيمانه بالأعمال الصالحة الدالة علىٰ ما في ضميره من الإخلاص و الصدق: فإن الجميع منهم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني ثابت متيقن الحصول، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لدوام أجرهم بدون انقطاع هٰذا في الدنيا، فلا خوف عليهم مما فرض اللّٰه علي اليهود من الذلة والمسكنة وصنوف العقوبات الحاصلة لهم بسبب غضب اللّٰه، فإن المؤمن الصحيح منهم ـ ومن غيرهم ـ لا خوف عليه من ذٰلك، لتحصنه بالإيمان الصادق المدعم بالأعمال الصالحات، لأن مدار الفلاح هو الإيمان الصحيح الذي له سلطان علىٰ النفوس يردعها عن المساوئ، ويدفعها إلىٰ العمل الطيب المرضي للّٰه، والذي تتم به السعادة في الدنيا والآخرة.

فإن اللّٰه تعالىٰ أراد تبيين حال هٰذه الملة الإسلامية الصحيحة، وحال من قبلها من الملل المنحرفة عن حقيقة الإسلام، دين اللّٰه الأصيل،

وأنه يرجع إلىٰ شيء واحد هو صحة الإيمان منهم باللّٰه واليوم الآخر، وقيامهم بالأعمال الصالحة المنبئة عن صدق إيمانهم ومراقبتهم للّٰهِ، بحيث انحصرت أعمالهم في الصالحات المرضية له ﷻ، وأن من قام بِهٰذا فله الأجر الكامل والأمن مما فرضه اللّٰه علىٰ كفرة بني إسرائيل، ومن فاته ذٰلك فاته الخير والأجر، وكان له نصيب مما لبني إسرائيل المحرفين من الذلة والغضب الدائمَين.

وهٰذه الآية تقطع دعاوىٰ الإسرائيليين العريضة، وتوضح أن ثواب اللّٰه علىٰ الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة لا يختص بأمة، وأنه حتىٰ من ثبت علىٰ التوراة والإنجيل ونحوهما بدون تحريف ـ بحيث لو لحق بمحمد ﷺ بَرَّ وقام بنصرته ـ، فإن هٰذا النوع ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وأيضًا ففي هٰذه الآية تكذيب لليهود الذين يقولون ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ويعتقدون أنهم مأمورون بقتل من عداهم؛ فهٰذه الآية تكذبهم وتوضح أن المدار في عصمة الدم والمال في الدنيا والفوز في الآخرة إنما هو علىٰ الإيمان الصحيح ليس علىٰ الانتساب والدعاوىٰ، فمناسبة ذكر هٰذه الآية في سورة «البقرة» و«المائدة» متخللة قصص بني إسرائيل مناسبة واضحة لتكذبهم.

✍ تنبيهات:

أحدها: إن للعلماء بحثًا طويلًا في الصابئة؛ يتضح منه أنهم أصناف، فليرجع من يريد المزيد إلىٰ كتاب الشهرستاني في «الملل والنحل»، وإلىٰ أقوال الشيخ ابن تيمية في «الرد علىٰ المنطقيين» وغيره، فإني أكتفي بالإحالة عن الإطالة، مقتصرًا علىٰ ما قارب المعنىٰ، واللّٰه أعلم.

ثانيها: هٰذه الآية محكمة غير منسوخة، ومعناها واضح غير متشابه، كما يُفهم من الكلام السابق، والذين قالوا بالنسخ اشتبه عليهم ما يرونه من حال أهل هٰذه الأديان التي مخالفتها للإسلام ظاهرة، وفاتهم

أن حالة هٰؤلاء سببها التحريف الطارئ الذي من سار عليه فليس من أتباع نبيه حقيقة.

ولهم عذر آخر؛ وهو أنه اشتبه عليهم كون هٰذه الشريعة نسخت ما قبلها بجميع ما نصت عليه، وليس الأمر كذٰلك؛ لأن ما جاء به محمد ﷺ موافق لما جاء به موسىٰ وعيسىٰ وغيرهم في الأصول ـ أصول التوحيد ـ؛ ليس فيها خلاف إذا سلمت من التحريف.

وأما النسخ الكامل فهو فيما نصت عليه من الفروع، وما لم تنص عليه فهو شرع لنا ـ كما تقرر في علم «الأصول»: أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه ـ، وجميع الكتب السماوية التي عند أولٰئك تنص علىٰ الإيمان بمحمد ﷺ وفيها ذكر أوصافه الشريفة إذا سلمت من التحريف؛ ولذا قال ﷺ: «**نحن ـ معشر الأنبياء ـ إخوة عَّلات؛ ودينا واحد**»(١).

و«إخوة علات»: هم الذين من أمهات عديدات وأبوهم واحد، وهٰذا من بعض تمثيلاته ﷺ للناس بما كانوا يعرفونه تقريبًا لأذهانهم، فالعامل من أمم الأنبياء بما أنزل إليهم ـ من غير تحريف ـ هو مؤمن باللّٰه وجميع رسله وبمحمد ﷺ، ولذا كان حظه الأجر ورفع الخوف والحزن، وأما السالك علىٰ ما حصل فيها من التحريف فليس بمؤمن، ولا تشمله هٰذه الآية الكريمة المحكمة. واللّٰه أعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

بعد ما ذَكر اللّٰه اليهود المعاصرين لنزول القرآن بعدة جرائم أعنتوا فيها موسىٰ؛ حتىٰ حصل لهم التقريع والتوبيخ ـ يعني أسلافهم ـ، وأن اللّٰه ضرب عليهم الذلة والمسكنة، وجعل عاقبتهم انصباب غضبه

(١) رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

عليهم، ثم أوضح لهم في الآية (٦٢) أنه لا أثر لأنساب الشعوب ولا ألقاب مذاهبهم في رضاء اللّٰه وغضبه، وإنما الأثر في حصول الرضوان والفوز بسعادة الدنيا والآخرة هو صدق الإيمان باللّٰه واليوم الآخر، ذٰلك الإيمان المنير للصدور الجياش في القلوب جيشانًا يدفعها بحقيقة الوجدان إلىٰ العمل بمرضاة اللّٰه واجتناب مساخطه، إيمانًا يحرك الجوارح ويفجر الطاقات للعمل المتواصل في سبيل اللّٰه، إيمانًا يجعل صاحبه كلما رفع رأسه إلىٰ السماء أطرق هيبةً ممَّن في السماء، فطأطأ رأسه إلىٰ أرض العبودية، إيمانًا يجعل صاحبه وقَّافًا عند حدود اللّٰه في كل شأن من شؤون حياته، لا إيمانًا مزدوجًا بالأنانيات الإسرائيلية.

بعد هٰذا أخذ اللّٰه يذكِّر أولٰئك اليهود المعاصرين للنبوة بجريمة أخرىٰ من جرائم أسلافهم قائلًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾، وهٰذا العهد والميثاق الذي أخذه اللّٰه عليهم هو ما سيأتي تفصيله في الآية (٨٣) من هٰذه السورة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

هٰذا الميثاق الذي أخذه اللّٰه علىٰ بني إسرائيل لأجل الانقياد والطاعة، وقد روىٰ أبو مسلم عن عبدالرَّحمٰن بن زيد بن أسلم، وروىٰ ابن جرير، عن يونس بن عبدالأعلىٰ، عن ابن زيد، قال: «لما رجع موسىٰ من عند ربه بالألواح قال لقومه: إن هٰذه الألواح فيها كتاب اللّٰه، فقالوا: لن نأخذ بقولك حتىٰ نرىٰ اللّٰه جهرةً فيقول: «هٰذا كتابي فخذوه»، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت؟ فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فأحياهم، ثم قال لهم بعد ذٰلك: خذوا كتاب اللّٰه، فأبوا، فرفع فوقهم الطور، وقيل لهم: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، فأخذوا بالميثاق».

واقرأ قوله تعالىٰ في الآية (٨٣ ـ ٨٥) من هٰذه السورة، فرفعُ الطور آية عظيمة عجيبة تبهر العقول، وترد المكذب إلىٰ التصديق، والشاك

إلىٰ اليقين، فلما رأوا ذٰلك، وعرفوا أنه من اللَّه، وأنه زيادة في معجزات موسىٰ السابقة، أقروا له بالصدق فيما جاء به، وأظهروا التوبة، وأعطوا العهد والميثاق ألَّا يعودوا إلىٰ ما كان منهم من أنواع التمرد.

قال ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف]، يعني: خذوا ما آتيناكم بجد كامل، وعزيمة صادقة، وعدول عن التغافل والتكاسل، فإنما رفعنا فوقكم الطور وسلطناه للانقضاض عليكم إذا توانيتم في الأمر لعلكم تتقون شر التواني، فإن أمر العقيدة أمر عظيم لا رخاوة فيه ولا تساهل ولا تميع، ولا يقبل الحلول ولا أنصاف الحلول، ولا الهزل ولا التراخي ولا التردد أو التشكيك، إنه أمر أعظم من كل الوجود، فلابد من أن يسخِّر اللَّه الكائنات لتنفيذه إذا لم تقبل النفوس عن طواعية وإيمان.

فالنفوس اللئيمة المتمردة يقتلع اللَّه عليها هٰذا الجبل العظيم، وينتقه حتىٰ يرفعه عليها كظُلةٍ لتخضع للحق وتنقاد خشية وقوعه ـ هٰذا في زمن موسىٰ ـ علىٰ أسلافكم أيها اليهود.

وأما في زمن محمد ﷺ، فيسلط اللَّه السيوف علىٰ الرقاب اللئيمة من طوائفكم، كما أجرىٰ ذٰلك علىٰ بني قينقاع والنضير وبني قريظة، إنه ميثاق الإيمان والرسالة، لا هوادة فيه ولا رخاوة، وكل من تهاون فيه أو طرحه أسقطه اللَّه من الاعتبار، وصار من شر الدواب الواجب قتلها وإزالتها من الوجود، وفرض اللَّه عليه السيف بلا استثناء، أو السيف حتىٰ يخضع للذلة والصغار. هٰذا حكم اللَّه فيمن تنكر لنعمة الخلافة في الأرض.

انظروا حكم اللَّه وقضاءه في بني إسرائيل ـ الذين فضلهم علىٰ عالمي زمانهم، وتولىٰ رعايتهم في إنقاذهم من مخطط الفراعنة الرهيب، واصطفاهم لحمل رسالته، وتولاهم بإسباغ نعم لم تتوفر لغيرهم، ورباهم بالمعجزات الباهرة ـ، كيف يصب عليهم العقوبات الفظيعة

كلما توقفوا عن الأخذ بالعقيدة، فتارةً يربط قبول توبتهم بقتل بعضهم بعضًا، وتارةً تأخذهم الرجفة، وتارةً تأخذهم الصاعقة وهم ينظرون، وأخيرًا ـ وليس آخرًا ـ يرفع الطور عليهم كأنه ظلة، ويهددهم بإيقاعه عليهم إن لم يأخذوا التوراة بقوة العمل والتنفيذ؛ لأن العقيدة لا هوادة فيها ولا رخاوة، ولا تتفق مع أهواء النفوس وأنانياتها أبدًا.

ولهٰذا قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١]، أي تذكروه جيدًا بالمواظبة علىٰ دراسته وتدبر معانيه والعمل به، فإن العلم به دون عمل لا يجدي، بل يكون مدعاةً لنسيانه والكفر به؛ فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخًا مستقرًّا في النفس، وذٰلك أن العلم يستحضره صاحبه في النفس مجملًا غير سالم من غموض أو إبهام، فإذا أبرزه بالعمل للوجود صار تفصيليًّا جليًّا واضحًا، وبكثرة التكرار للتلاوة ومداومة العمل يكون النظري منه بديهيًّا ضروريًّا، فيثبت وحي اللّٰه بالقلب فلا ينسىٰ، وأما مع هجران العمل به فإن صاحبه يصل به النسيان إلىٰ حالة يساوي فيها من لا يعرفه بتاتًا ـ والعياذ باللّٰه ـ.

ويُروىٰ عن الإمام عليٍّ ـ كرم اللّٰه وجهه[١]ـ أنه قال: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

وهٰذا أمر محقق، ولهٰذا شدد اللّٰه سبحانه في أمر العمل، حتىٰ جعل تارك العمل كافرًا به، بل جعل العامل ببعض دون بعض كافرًا بالجميع، كما سيأتي توضيحه في تفسير الآية (٨٣). وفي هٰذه الآية التي نحن بصددها الآن حجة قاطعة علىٰ الذين يقرؤون القرآن وليس لهم حظ منه إلا التغني بألفاظه وهز رؤوسهم وأبدانهم دون أفئدتهم؛ فإن قلوبهم

---

(١) تخصيص عليٍّ رضي الله عنه بهذا الوصف لم يُعلم عن الصحابة الكرام ـ الذين هم ميزان الأعمال ـ، بل صار من شعار الرافضة ـ قاتلهم اللّٰه ـ، ولذا؛ لا يجوز هٰذا الإطلاق علىٰ عليٍّ رضي الله عنه دون غيره من الصحابة رضي الله عنهم، وانظر ما قاله العلَّامة بكر أبو زيد رحمه الله في «معجم المناهي اللفظية» (٣٥٠ ـ ٤٥٤).

خالية منه، ولذا كانت أعمالهم لا تنطبق عليه، فهم أشر ممن لم يقرؤوا القرآن. وقد أخبر النبي ﷺ بحدوثهم آخر الزمان، وأنهم يجعلون القرآن مزامير(١)، وأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم(٢)، وأنهم يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه(٣)، يعني يأخذون الأجرة العاجلة عليه في الدنيا، لأنهم لا يريدون به وجه اللَّه في الدار الآخرة.

وقد بلغ بهم الأمر ـ في أكبر الأقطار العربية ـ أن المقرئين للقراء يعلِّمونهم تلحين القرآن علىٰ أوتار العود ذي الاثني عشر وترًا، وأن طالب التجويد لا يمكن أن يحصل علىٰ شهادة إلا بِهٰذه الطريقة ـ والعياذ باللَّه ـ، وهٰذا أمر محقق لا يمكن إنكاره، وهو من علامات نبوته ﷺ، حيث أخبر به قبل أن يقع بثلاثة عشر قرنًا ونصف القرن تقريبًا.

وما القصد من إنزال الكتب الإلٰهيَّة إلا العمل بها؛ فتعطيل العمل بكتاب اللَّه تعطيل لألوهيته في الأرض، وهٰذا شرك تعطيل أفظع من شرك التحريف ـ كما سنوضحه في مناسبات عديدة إن شاء اللَّه ـ.

والمقصود هنا أن اللَّه أمر بني إسرائيل بذكر ما في الكتاب ليصدقوه بالعمل، ووصل الذكر بالتذكير بفائدته التي هي إعداد النفس للتقوىٰ؛ حيث قال: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لأن المواظبة علىٰ العمل به تطبع في النفس ملكةَ مراقبة اللَّه وخشيته، فتكون بذٰلك طاهرةً تقيةً، فإن الصدق في العمل يورث الخشوع للَّه الموجب لرقة القلب وصفائه، والدافع إلىٰ المزيد من حبه وتعظيمه. وعلىٰ العكس ترك العمل ـ ولو مع القراءة ـ فإنه تكون به القلوب قاسيةً حتىٰ يطبع عليها ـ والعياذ باللَّه ـ.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩٤).

(٢) أي: لا يؤثر في قلوبهم، وإنما يجري علىٰ ألسنتهم فحسب. والحديث في هٰذا رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) أي: يتعجلون أجره في الدنيا، ولا يبتغون به وجه اللَّه ﷻ وينتظرون ثوابه في الآخرة، وهٰذا كقراء السوء ونحوهم. والحديث في هٰذا رواه أبو داود (٨٣٠).

فلابد لصحة التلاوة من التدبر والعمل المتواصلين، فالتالي لكتاب اللَّه بصدق يذكر ما فيه من الأوامر والنواهي، وما فيه من الوعد العظيم والوعيد الشديد والترغيب والترهيب، وبِهٰذا لا يبقىٰ علىٰ ضلال، ولا يصر علىٰ معصية، بل يسلك مسالك الطاعة، ويكون من المتقين؛ وذٰلك إذا استقر وحي اللَّه في القلب تصورًا وشعورًا، وفي الحياة وضعًا ونظامًا، وفي السلوك عملًا وتطبيقًا، فإن التقوىٰ تكون غايته لقوة رقابة اللَّه وخشيته، فلينتبه أهل القرآن لذٰلك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

يخبر ﷻ عن سوء طباع بني إسرائيل، وخبث سريرتهم، ونزقة أخلاقهم[1]، وأن اللَّه أخافهم وأرجف بهم حيث نتق الجبل ـ الذي يسمىٰ بالسريانية «الطور» ـ، ورفعه فوقهم كأنه ظُلة، وهددهم بسقوطه عليهم حتىٰ أذعنوا وانقادوا، ولٰكنه انقياد مؤقت قضت عليه الطباع اللئيمة، فتولوا عن أوامر اللَّه في التوراة، ولهٰذا يقول: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، يعني بعد الانقياد ﴿تَوَلَّيْتُم﴾، والتولي: الإعراض وإدارة الظهر عن الآمر أو المقابل، بل تقول العرب: وَلَّىٰ دُبره: إذا استدبر وتركه خلف ظهره، ويستعمل هٰذا اللفظ في كل تارك طاعة أُمر بها، يقال: «قد تولىٰ فلان عن طاعة فلان». وفي القرآن من أمثال هٰذه الاستعارة كثير، ومن الشواهد علىٰ هٰذا في كلام العرب قول خراش في مرثيته لصديقه زهير بن العجوة لما قتله جميل بن معمر:

وإنك لو واجهتَه إذ لقيتَه ... فنازلته أو كنت ممَّن ينازلُ
لظل جميلٌ أسوأ القومِ تلَّةً ... ولٰكن قرنُ الظهر للمرءِ شاغلُ
فليس كعهد الدار يا أم مالكٍ ... ولٰكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ

---

(١) النزق: الخفة والطيش.

وعاد المرء كالكهل ليس بقائلٍ سوىٰ الحق شيئًا واستراح العواذلُ

فقوله: «أحاطت بالرِّقاب السلاسل»: استعارة عن الإسلام أنه صار في منعهم عما يفعلونه في الجاهلية بمثابة السلاسل المحيطة برقابهم، وهٰذه الأبيات ذكرتُها لنفاستها، وإلا فلست أعنىٰ بالشواهد اللغوية في هٰذا التفسير المبارك؛ لأن غيري قد كفاني إياها، ولأني منشغل بالمهمات الروحية ومقتصر عليها.

فقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، يعني أنكم تركتم العمل بما أخذنا عليه مواثيقكم وعهودكم أن تعملوه بجد واجتهاد بعد إعطائكم العهود والمواثيق علىٰ العمل به كما نريد، توليتم عنه ونبذتموه وراء ظهوركم، ومع هٰذا فقد شملهم لطف اللَّه وعفوه عن ذنبهم العظيم أو كفرهم الجسيم الذي يستحقون به أفدح العقوبات، حكمةً منه سبحانه، وعلمًا بأن سيَخرج من أصلابهم من يكون صالحًا لحمل أعباء الرسالة والقيام بالجهاد المطلوب الذي ينتزعون به بيت المقدس وغيره من الجبابرة.

أما هٰؤلاء فقد أفسدتهم التربية المصرية(١) الطويلة المدىٰ التي أكسبتهم ذلًّا وخنوعًا وتسفُّلًا لا يقبلون معه الارتفاع، كما أكسبتهم نَزاقة الأخلاق وسوء الطباع، ولٰكن العليم الحكيم ـ الذي يعلم ما كان وما سيكون ـ يقول لهم: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي الخاسرين أنفسكم وأهليكم في الدنيا ـ إما بالهلاك، أو بالحرمان من الفوز والفلاح ـ، وكنتم خاسرين في الآخرة منازلكم من الجنة، ومتحولين منها إلىٰ النار، فالخسران هو نقص النفس حظها من الفوز والسعادة.

ثم هل هٰذا الخطاب هو للسامعين من اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ، أو هو إخبار لهم عن فعل أسلافهم؟ مدلول السياق واضح في أن

---

(١) أي: أيام الفراعنة.

هٰذه الآيات موجَّهةٌ إلىٰ المخاطبين بها ممن عاصروا محمدًا ﷺ، وإنما أضاف اللَّه فعل أسلافهم إليهم بالذات، لأنهم متولُّون لهم وسائرون علىٰ منهاجهم، فصيرهم اللَّه منهم لأجل ولايتهم لهم دون التبرؤ مما صنعوا، فأصبحوا شركاء لهم في كل جريمة، لتقديسهم إياهم، وازدرائهم ما أنزل علىٰ محمد ﷺ.

فليحذرِ الذين يؤاخون النصاري ونحوهم باسم «الوطن» أو «العروبة»، ويضربون بملة إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عرض الحائط أن يحمِّلهم اللَّه كفرهم لموالاتهم إياهم، خصوصًا إذا اعتبروا أن ما هم عليه دين اللَّه، واللَّه بريء منه. ليحذر المنخدعون بالأفكار الماسونية في كل من لا يتبرأ من الكفر وأهله، بل يوالونهم ويؤاخونهم؛ أن يحمِّلهم اللَّه كفر كل يهودي وكل نصراني وكل دُرزي وكل نصيري وملحد جعلوه أخًا لهم في العروبة أو الوطنية.

إن هٰذه الآية صريحة في تحميل اللاحق أوزار السابق ـ إذا تولاه لرابطة دينية ـ؛ فكيف إذا كان لغير رابطة دينية؟! حقًّا إن جريمته تكون أكبر.

فما أعظم جريمة المسلم المؤاخي أو الموالي لغير أهل الإسلام من سائر الفرق التي لا ترتبط بالدين الإسلامي ـ بل يعتقدون ما يناقضه ويعاديه ـ! ما أعظمها من جريمة ركزتها الماسونية في قلوب الناشئة لتجلب عليهم غضب اللَّه وتحرمهم مدده الذي لا يغلبه غالب، يقول اللَّه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المجادلة].

والنصوص في وحي اللَّه كثيرة مستفيضة، نكتفي منها بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد].

ولكل قوم وارث، فانظروا ـ يا معشر المسلمين ـ مصير الذين قالوا للكفرة: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦]، وقارنوهم بمن أطاعوا الكفرة في كل الأمر؛ بل في جميع الأمور، فهدموا ملة إبراهيم ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ بمؤاخاتهم وموالاتهم، وطرحوا رسالة اللَّه، وتركوا الدعوة إليه، زاعمين أن الدين «طائفية»، وأن الدعوة إلىٰ الإسلام مغضبة لإخوانهم النصارىٰ، ورفضوا ألوهية اللَّه برفضهم الحكم بشريعته وتعطيلِ حدوده، إرضاءً للأقليات الكافرة علىٰ زعمهم.

وهم ـ في تنفيذهم لما يريدونه من المذاهب المادية المستوردة ـ لم يبالوا بتلك الأقليات، بل نفَّذوها عليهم بادئ ذي بدء بكل قوة، مما برهنوا به علىٰ أن موالاتهم للكفار من دون المسلمين عن سوء عقيدة وعدم اقتناع لصلاحية الإسلام للحياة، كما يصرحون به جهارًا مِن فصلِ الدين عن الدولة ـ بل عن جميع واقعيات الحياة ـ، مما أصبحوا به قد بدلوه قولًا غير الذي قيل لهم. فما أعظم جريمةَ وأوزار الذين عادوا إلىٰ الرجعيات الكافرة من العصبيات القومية والنعرات الوطنية والمسالك المادية، ورفضوا الدين الإسلامي المجدد لحياتِهم!.

يسأل القارئ: كيف حَمَّل اللَّه اليهود المعاصرين لنزول القرآن جرائم أسلافهم وكفر أسلافهم؟ لأنهم ساروا علىٰ منوالِهم ولم ينقادوا للوحي المحمدي.

يسأل القارئ والسامع: كيف ساوىٰ اللَّه بينهم موالاة اللاحق للسابق في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ مخاطبًا للمعاصرين خطابًا مباشرًا؛ لارتباطهم بهم واجتنابهم الوحي المحمدي.

كيف لم يحملهم جريمة «أصحاب السبت» الفرعية لعدم ارتباطهم بمجرميها، بل قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؟.

ليلاحظ القارئ والسامع هٰذا التحميل في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾، وعدم التحميل في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾.

فما أجمل الفقه في نصوص القرآن ومعانيه لتقويم العقيدة والأخلاق، ومن لم يتدبر المعاني المقصودة من سرد اللّٰه لقصص الماضين في القرآن، ومقارعة شبهات المبطلين من كل ملة ونِحلة؛ فإنه لابد من أن ينزلق في مزالقهم، ولهٰذا قال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يوشك أن تنتقض عُرىٰ الإسلام عروة عروة. قيل: وكيف ذٰلك؛ قال: إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وليس مراده من لا يعرف الجاهلية ممن لم يشاهدها، بل مراده من لم يعرف أحوالها من القرآن الكريم، وفي قصص بني إسرائيل عبرة لمن اعتبر، وأعطىٰ القرآنَ كل قلبه. واللّٰه الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

يذكِّر اللّٰه اليهود بجريمةٍ عظيمةٍ من جرائم بعض أسلافهم ـ دون أن يحملهم إياها كما حملهم جريمة التولي عن التوراة كتاب اللّٰه ـ، وهٰذا ـ أيضًا ـ من جملة أعلام نبوته ومعجزاته ﷺ؛ حيث أخبرهم بما لم يعلمه هو ولا قومه قبل نزول القرآن، ولا يعلمه سوىٰ اليهود علمًا سريًّا يتكتمونه[1] فيما بينهم، لما فيه من الخزي العظيم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، ولم يقل: «ولقد اعتديتم في السبت»، لأنهم لم يكونوا متولِّين أصحاب السبت، ولٰكن لما كانوا متولين الذين نقضوا الميثاق يوم رفع الطور أسند اللّٰه الفعل إليهم، ووجه اللوم عليهم؛ حيث قال في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ تحذيرًا لعباده أن يتولوا

(١) في المطبوع: «يتكلمونه»، ولعل الأصح ما أثبتُّه.

قومًا غضب اللَّه عليهم من أي ملة أو نِحلة؛ خصوصًا من زعم أن للَّه ولدًا أو افترىٰ علىٰ اللَّه بأي شيء يخالف دينه ـ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

والاعتداء: هو مجاوزة حد اللَّه أو حدود اللَّه وأوامره التي حددها في شريعته من حرام وحلال ومكروه، فكل من تجاوز حد شيء إلىٰ غيره فقد تعداه إلىٰ ما جاوزه إليه من سواه، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]. وهٰذا من بعض تحذير اللَّه لبني إسرائيل المعاصرين لمحمد ﷺ، والمصرين علىٰ تجاهل رسالته، وكفرهم بما أنزل إليه، أن يحيق بهم ما حاق بأسلافهم من أنواع العقوبات التي عددها اللَّه فيما مضىٰ، من قتل النفوس والإهلاك بالصاعقة والرجفة وغير ذٰلك، حتىٰ ذكرهم بأصحاب السبِت، وتسمية السبت مأخوذة من القطع؛ يعني أن الأشياء سبَتَتْ وتَمت.

والسبت: هو أول أيام الأسبوع، تعظمه اليهود، زاعمةً أن اللَّه استراح فيه بعد خلقه السماوات والأرض، فكذبهم اللَّه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق]، أي تعب، وألزمهم اللَّه عقوبة لهم، كما وردت آثار كثيرة نقتصر منها علىٰ بعض ما نقله ابن جرير قال:

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة عن ابن عباس قال: «إن اللَّه إنما افترض علىٰ بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عهدكم يوم الجمعة، فخالفوا إلىٰ السبت، فعظموه وتركوا ما أمروا به، فلما أبوا إلَّا لزوم السبت ابتلاهم اللَّه به، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلةَ والطور، يقال لها «مدين»، فحرَّم اللَّه عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها».

وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت عليهم شرعًا إلىٰ ساحل بحرهم،

حتىٰ إذا ذهب السبت ذهبت، فلم يروا حوتًا صغيرًا ولا كبيرًا، فكانوا كذٰلك حتىٰ إذا طال الأمد وقرِمُوا إلىٰ الحيتان ـ يعني اشتدت شهوتهم ـ عهِدَ رجل منهم فأخذ حوتًا سرًّا يوم السبت، فحزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتدًا في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتىٰ إذا كان الغد جاء فأخذه ـ أي أنه لم يأخذه في السبت ـ، ثم انطلق به فأكله، حتىٰ إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذٰلك، ووجد الناس ريح الحيتان، وعثروا علىٰ صنيع ذٰلك الرجل، ففعلوا كما فعل، وأكلوا سرًّا زمانًا طويلًا، لم يعجل اللَّه عليهم بعقوبة حتىٰ صادوها علانية وباعوها بالأسواق.

وقالت طائفة منهم من أهل البقية ـ يعني أهل التمييز والفهم يبقون علىٰ أنفسهم بطاعة اللَّه والتمسك بدينه ـ: وَيْحَكم، اتقوا اللَّه! ونهوهم عما كانوا يصنعون.

وقالت طائفة أخرىٰ: لم نأكل الحيتان، ولم ننه القوم عما صنعوا، [وقالوا لمن نَهوهم]: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ولسُخْطِنا أعمالَهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

قال ابن عباس: «فبينما هم علىٰ ذٰلك أصبحت تلك البقيةُ في أنديتهم ومساجدهم، وفقدوا الناس فلا يرونهم، فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأنًا؛ فانظروا ما هو؛ فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوا ليلًا، فغلَّقوها علىٰ أنفسهم ـ كما يغلق الناس علىٰ أنفسهم ـ، فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليَعرفون الرجل بعينه، وإنه لقرد، والمرأة بعينها، وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد».

قال: قال ابن عباس: «فلولا ما ذكر اللَّه أنه أنجىٰ الذين ينهون عن السوء لقلنا: أهلك الجميع منهم».

قالوا: وهي القرية التي قال اللَّه لمحمد ﷺ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية (١٦٢) من سورة «الأعراف».

وقال قتادة ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ ـ، قال: «حُرمت عليهم الحيتان يوم السبت، فكانت تشرع إليهم فيه فقط بلاءً من اللَّه ليظهر علمه فيمن يطيعه ممن يعصيه، فصار القوم ثلاثة أصناف: صنف أمسك وانتهىٰ عن المعصية، وصنف أمسك عن حرمة اللَّه، وصنف انتهكها ومَرَد علىٰ المعصية. فلما أبوا إلَّا الاعتداء إلىٰ ما نُهوا عنه قال اللَّه لهم: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، فصاروا قردةً لها أذناب بعد أن كانوا رجالًا ونساءً». انتهىٰ بتصرف.

والآثار في ذٰلك كثيرة، سنذكر بعضها مع مهمات القصة في سورة «الأعراف» عند موضوعها ـ إن شاء اللَّه ـ.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، يعني: فقلنا لهم: صِيروا قردةً صاغرين مبعَدين عن مجتمعكم ذليلين بتنكيس خلقتكم، فالخَسَءُ: هو الإبعاد والطرد، كقول الراجز: «كالكلب إن قُلتَ له اخْسَإِ انْخسأ»، يعني إن طردته طُرد ذليلًا صاغرًا.

وهٰذه العقوبة الفظيعة الشنيعة مناسبة لخبث نفوسهم، وسوء طريقتهم الملتوية، واستخفافهم بحساب اللَّه سبحانه، وإلحادهم في أسمائه تعالىٰ، فإن معصيتَهم تضخَّمت جدًّا؛ لكونها مشوبةً بالحيلة علىٰ اللَّه، كأن اللَّه غَمْر[1] جاهلٌ تنطلي عليه الحيل والتلبيسات! ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة]، ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [القصص].

إن معصيتَهم ـ وإن كانت في الفروع ـ، فإن لها أعظم المساس في الأصول بادئ ذي بدء؛ لارتكازها علىٰ الحيلة. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ: إصرارهم عليها، وعدم انصياعهم لنصح الآمرين بالمعروف، اعتمادًا علىٰ الاحتيال علىٰ اللَّه استخفافًا بجنابه، وإلحادًا في بعض أسمائه، من العليم والخبير، والمحيط والبصير والرقيب

---

(١) الغَمر: الجاهل.

والحفيظ، فكأنهم قالوا ـ بلسان الحال أو المقال ـ: إننا أمهر من اللَّه وأحكم! إنه لا يعلم بحيلتنا، وليس خبيرًا بغايتنا، ولا محيطًا بكل ما نعمل، وليس يبصر ما نفعله بالسمك من اصطياده واحتباسه يوم السبت، وعدم إمساكه إلَّا في يوم الأحد وما بعده، وليس رقيبًا أو حفيظًا يلاحظنا في كل شيء!!.

لقد جمعوا في خطيئتهم النكولَ[1] عن عهد اللَّه، والنكوص عن مقام الإنسانية، والنزول بشرفها إلىٰ مستوىٰ البهائم التي لا ترتفع عن حاجة البطون وشهوات النفوس، ثم الانتقاص للَّه بإلحاد في أسمائه حيث جرىٰ ارتكابهم للخطيئة بوسيلةِ «الحيلة» التي فيها هدم للعقيدة والضمير، فلما وصلت بهم طبيعتهم اليهودية إلىٰ هٰذا الحد؛ استحقوا من اللَّه تلك العقوبة الشنيعة، هم ومن سكت عن أمرهم بالمعروف، وعن نَهيهم عن المنكر، لأن سكوته صادر عن إلحاد في أسماء اللَّه، وتبديل للقول الذي قيل لهم؛ فإن السكوت لا يصدر إلا عن عدم شعور بالمسؤولية أو افتراء علىٰ اللَّه؛ بأن يزعم الساكت أنه ليس مسؤولًا عن خطيئة غيره ـ كما يزعمه العصريون المعطلون لهٰذه الشعيرة، كغيرها من شعائر الإسلام ـ، وكما يزعمه كثير من المسلمين المغفلين أو المتهربين عن واجبهم، والسالكين مسلك الانعزالية، فإنهم يضيفون إلىٰ خطيئة تركهم الأمر والنهي افتراءً علىٰ اللَّه لا يشعر به أحدهم، إذ يقول: «أنا في عافية»، ومن أعطاك صكَّ العافية؛ إن اللَّه لم يقل: «والعصر إن الإنسان لفي عافية»، بل قال قوله العظيم الذي لا يتركه إلا خاطئ أو ملحد.

✍ وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: هٰؤلاء الممسوخون قردةً: هل يبقىٰ لهم فهم وعقل يبصرون به ما حل عليهم من العذاب أم لا؟

---

(١) **النكول:** الإعراض والانحراف.

والجواب علىٰ كل حال: أنه من مقتضيات العقوبة ولوازمها إبقاء أفهامهم ليعرفوا ما نزل بهم من العذاب، وينظر بعضهم إلىٰ بعض بنظر التعارف الكامل، فيحسوا بشؤم المعصية وسوء عاقبة الفعل الذميم المركب من الخطيئة والحيلة، وإلا لما بقي للعقوبة فائدة.

المسألة الثانية: هل يكونون متألمين بِهٰذا المسخ، أو يكونون بمجرد المسخ غير متألمين، كالقرود الأصلية، لا تحس بألم ولا ترىٰ بصورتها من بأس؟.

والجواب: إن حالتهم ليست كحال القرود الأصلية، فإن الأصلية لا تتألم حال سلامتها، أما هٰؤلاء فإنه لابد من تألمهم في تغير خلقتهم تألمًا حسيًّا وتألمًا معنويًّا؛ عقوبةً من اللَّه، فهم لما تغيرت خلقتهم وصورتهم أنالهم اللَّه آلامًا حين تغيُّرها، ثم أعقب هٰذه الآلام الحسية بآلام معنوية فيما يشهده كل واحد منهم بنفسه وبرفقائه وأقاربه وذويه، فتتقطع نفوسهم حسرات علىٰ سوء مصيرهم وما شاهدوه من ثمار خطيئتهم، إلَّا أنهم لا يقدرون علىٰ النطق والأفعال الإنسانية؛ فهم في حالة ذعر وخجل وحسرة، يتذوقون منها صنوف الآلام التي ربما جعلها اللَّه سببًا في كون الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، ولا يجوز أبدًا أن يقاس عدم تألم القرود الأصلية علىٰ أولٰئك، فهٰذا قياس فاسد؛ لأن القرد الأصلي لا يذكر له صورة غير صورته أو خلقة غير خلقته، أما هٰؤلاء فمن مقتضيات الحال ولوازمها أن يكونوا علىٰ حالة تُبقي جميع أحاسيسهم الإنسانية ليبصروا صنيع اللَّه بهم، ويتذوقوا صنوف العذاب الحسي والمعنوي، وإلا فما الفائدة في مسخهم إذا كانوا لا يميزون ولا يتعارفون ولا يتألمون؟.

المسألة الثالثة: قوله ﷻ: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ ليس هٰذا أمرًا لهم؛ لأنهم ما كانوا أبدًا قادرين علىٰ أن يقلبوا أنفسهم قردة، فتتغير بها صورتُهم الإنسانية إلىٰ صورة قِرَدية، وإنما المراد من ذٰلك سرعة التكوين

منه ﷻ؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، والمعنىٰ أنه ﷻ لن يعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بِهٰؤلاء، بل لما قال لهم ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ صاروا كما أراد اللَّه بهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء]، ولا يمتنع أن يخاطبهم اللَّه بذٰلك، وأن يصيروا قردةً كما أراد ذٰلك، لٰكن المؤثر في هٰذا التكوين الجديد هو قدرة اللَّه وإرادته.

المسألة الرابعة: روي عن مجاهد رحمه الله: «أن المسخ لقلوبهم بالطبع والختم، وليس لصورهم».

وهٰذا القول مخالف لما عليه الجمهور بالإجماع، كما أنه مخالف لمنصوص القرآن مما سنوضحه، وقد تشبث بقوله بعض المفسرين في هٰذا القرن ممن حاولوا إخضاع نصوص القرآن لعقول الغربيين ومفاهيمهم الفاسدة، وقد استدل مجاهدٌ علىٰ امتناع المسخ الحسي بشبهة: أن المسخ يكون فيه إيجاد وإعدام، أي إعدام لهيكل الإنسان، وإيجاد لهيكل قردي مكانه، وهٰذه الشبهة مردودة بعدة أمور:

أولًا: أن الإنسان ليس هو تمام هٰذا الهيكل؛ لأنه قد يكون سمينًا أو هزيلًا، سمينًا بعد هزاله، أو هزيلًا بعد سِمَنِه؛ فالأجزاء حينئذٍ مستبدلة.

ثانيًا: أن الإنسان أمر وراء هٰذا الهيكل المحسوس علىٰ ما قَدَّره النُّظَّار؛ وعلىٰ كل حال فلا مانع من تطرق التغير إلىٰ هيكله.

ثالثًا: إن المسخ لا يكون إعدامًا بالكلية للجسم الأصلي، وإيجادًا بالكلية للجسم الممسوخ الثاني، وإنما هو تغيير في الصورة وانكماش ببعض الجوارح، وعلىٰ كل حال حتىٰ لو نزلنا إلىٰ ما يقوله فلا يمتنع من قدرة اللَّه ولا علىٰ حكمته أن يغير بعض الصورة أو جميعها، أو يغير الهيكل بتمامه، ويُوجِد هيكلًا آخر مكانه، فالمسخ الحسي جائز علىٰ كل تقدير، بل ينبغي اعتقاده، ولا يجوز العدولُ عنه بضروب التأويل؛ لأن هٰذا من الظلم بتعبير القرآن، وضرب بعضه ببعض، ولا

يجوز قطعًا تأويل مسخهم بالطبع والختم علىٰ القلوب، كما قاله مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن الطبع والختم عام شامل لجميع الكفار من أقدم العصور إلىٰ أحدثها، كما قال تعالىٰ في شأن الكفار أجمعين: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وكما قال في بني إسرائيل: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

رابعًا: قوله ـ إن جوزنا ذٰلك لما أَمِنَّا في كل ما نراه قردًا أنه كان إنسانًا عاقلًا ـ، فنقول: يحصل الأمان بإجماع الأمة استنادًا علىٰ الأحاديث الصحيحة: أن الممسوخ لا يعيش، فضلًا عن أن يتناسل[1].

خامسًا: إن القرآن يفسر بعضه بعضًا، فمهما حاول المتأول تأويل جملة منه نازعته الجملة الأخرىٰ ووقفت دون ما يريد، كأنها تقول للمتأول: «لا تظلم سياقتي[2] بتأويل لا يريده اللَّه»؛ فمن نظر إلىٰ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ جزم غاية الجزم أن المسخ حسي لا معنوي؛ لأن المسخ المعنوي لا يكون فيه عبرة ولا نكال ولا موعظة، حيث إنه لا يبصره كل أحد، ولا يحس به أكثر المبصرين، وذٰلك أن عقوبة القلوب عامةٌ في جميع الكفار والمنافقين وبعض الفاسقين وأكثر المبتدعة من أهل القبلة، لٰكن لا يُحس بِهٰذا المسخ إلا النادر، فلا يكون فيه موعظة ولا نكال أبدًا لعدم إبصار الأكثرين له، بخلاف المسخ الحسي الذي حل بأصحاب السبت، فإنه شيء شاهده قومهم ومجاوروهم، وأجمعت كتبهم علىٰ نقله، وانتشرت أخباره من الأقدمين إلىٰ الآخرين، فلهٰذا قال اللَّه سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ ممن حضرها، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن لم يحضرها ولٰكن تواترت أخبارها عنده، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتعظون به،

---

(١) كما ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لم يهلك قومًا ـ أو يعذِّب قومًا ـ، فيجعلَ لهم نسلًا. وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذٰلك**». رواه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) في المطبوع: «سابقتي»، ولعل الأصح ما أثبتناه.

فلا يعملون مثل عملهم؛ خوفًا من أن يصيبهم ما أصابهم من هٰذا المسخ الحسي الشنيع.

وتخصيص المتقين بالاتعاظ، لقوة إيمانهم بالغيب، وخشيتهم من اللَّه، فهم يتعظون بالحوادث، ويعظ بعضهم بعضًا.

فهٰذه الآية تدل بكل جلاء ووضوح علىٰ أن هٰذا المسخ حسي لا معنوي، وأن ما قاله مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ يعتبر هفوةً كبيرة منه علىٰ قدر كِبَره ـ تغمده اللَّه بعفوه ـ.

فقوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾: جعلنا هٰذه الأمة الممسوخة زجرًا وقيودًا ولجامًا ينكل، يعني يمنع غيرهم من ارتكاب خطيئتهم، يمنع ما ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ ممن حضرها وشاهدها، ويمنع ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الأمم اللاحقين ممن سمعوا بخبرهم الشنيع وعقوبتهم الفظيعة.

المسألة الخامسة: أشكل علىٰ بعض الناس ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**فُقدت أمةٌ من بني إسرائيل لا يُدرىٰ ما فعلت، ولا أراها إلَّا الفأر**»(١)، وأنه امتنع ﷺ عن أكل الضب خائفًا كونه مما مسخ(٢)، وما رواه البخاري في تاريخه ـ لا في صحيحه ـ عن عمرو بن ميمون أنه رأىٰ في الجاهلية قِردةً قد زنت فَرَجَمَتْهَا القِرَدة فرجمتُها معهم(٣)، مما استشهد ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأحكام» علىٰ تناسل ـ الممسوخين.

وقد محَّص العلماءُ الأعلامُ هٰذه الأخبارَ؛ فقالوا عن تخوُّفِه ﷺ من الفأر والضب: إن هٰذا كان بادئ الأمر، قبل أن ينزل الوحيُ عليه بأن اللَّه لم يجعل للمسيخ نسلًا، فهٰذا حدسٌ منه قبل نزول الوحي، أما بعده فقد أخبرنا بقوله ﷺ لمن سأله عن القردة والخنازير: هي مما مسخ؟ فقال: «**إن اللَّه لم يُهلك قومًا ـ أو يعذب قومًا ـ فيجعل لهم نسلًا،**

---

(١) رواه البخاري (٣٣٠٥)، ومسلم (٢٩٩٧).

(٢) رواه مسلم (١٩٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤٩).

وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذٰلك»(١).

وهٰذا نص صريح صحيح أخرجه الإمام مسلم في كتاب «القدر» عن عبداللَّه بن مسعود، وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلىٰ مائدته ولم ينكر.

أما خبر القردة المرجومة من القرود فلا يصح، وكلها تدور علىٰ عباد بن العوام عن حصين، وعلىٰ عبدالملك بن مسلم، عن عيسىٰ بن حطان، وكلاهما لا يحتج بهما، فيعتبر الخبر ساقطًا من أساسه، ولو صح علىٰ سبيل الفرض والجدل، لكانت تلك القرود من الجن المتشكِّلة؛ لأن الحيوان لا تكليف عليه.

المسألة السادسة: هناك دليل من القرآن ـ في سورة «المائدة» ـ علىٰ أن مسخ أصحاب السبت مسخ حسي لا معنوي، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٥]. قال المفسرون: مُسخت شيوخهم خنازير، وشبابُهم قردة، فلما شاهدهم الذين يناصحونهم أخذوا يكلمونهم ويذكرونهم بالنصيحة، فلا يستطيعون جوابًا إلَّا البكاء، وهٰذا مما يرد قول مجاهد.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قول مجاهد خلاف قول جميع الحجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعًا عليه، وكفىٰ دليلًا علىٰ فساد قوله إجماعها علىٰ تخطئته».

المسألة السابعة: في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾؛ تحذير لبني إسرائيل المعاصرين لدعوة محمد ﷺ من تماديهم في الجحود والعناد، أو تحايلهم علىٰ النصوص، أن يصيبهم مثلما أصاب أصحاب السبت من المسخ، الذي يذوقون به الخزي في الحياة الدنيا، خصوصًا، وهٰذه الواقعة معلومة عندهم ومشهورة، لا يجادل فيها اثنان، ويعلمون أن مسخهم كان مسخًا حسيًّا فظيعًا شنيعًا.

---

(١) تقدم غير بعيد، وهو في «صحيح مسلم».

المسألة الثامنة: في ابتلاء اللّٰه لهم وإمهاله حتىٰ تمادوا في المعصية وجاهروا بها، قال تعالىٰ في سورة «الأعراف»: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، قال بعض الجدليين: وهٰذا منه إثارة للفتنة وإرادةٌ للإضلال.

والجواب: ليس كذٰلك؛ وإنما الابتلاء هو الامتحان والاختبار، فابتلاهم اللّٰه بجعل السمك يتوارد عليهم يوم السبت، ويذهب عنهم بالكلية في غيره، ليمتحنهم في الثبات علىٰ الإيمان، والتمسك بأداء حق اللّٰه، والوقوف عند حدوده، وليَميز بين خبيثهم وطيبهم، ومؤمنهم وفاسقهم، وليظهر علىٰ الخفي فيما بينهم، فيصرف الطيب منهم للخبيث، ويزجره حتىٰ ينفصل عنه، فيسلم من العقوبة. وليس في هٰذا إثارة للفتنة، ولا إرادة للإضلال ـ كما يزعمه أهل الجدل والمشاغبات من ذوي المذاهب الضالة ـ؛ بل في هٰذا تحقيق للجهاد النفسي ـ الذي هو لباب الدين والإيمان ـ، فالذين جاهدوا أنفسهم للّٰه صبروا علىٰ هٰذه المحنة التي لا يأتيهم فيها السمك المحبوب إلا في اليوم المحرم عليه صيده، فصبروا أنفسهم علىٰ طاعة اللّٰه، وأوقفوها عند حدود اللّٰه، فسلموا من تلك العقوبة، وأقاموا حجة اللّٰه علىٰ قومهم الذين انهزموا هزيمةً نفسية، سقطوا بها في ذٰلك الا متحان.

فهٰذا فيه تمحيص للقلوب وتقوية للإرادة النفسية، وهو من أسباب الرشد والهداية لا الإضلال كما زعموا، ثم إنه كيف تحصل ثمرات التكليف إلَّا بمثل ذٰلك لو كانوا يعقلون؟!.

المسألة التاسعة: هٰذه القصة التي أجملها اللّٰه هنا وفصلها في سورة «الأعراف» في احتيال أصحاب السبت علىٰ اللّٰه في صيد السمك وإجراء العقوبة الصارمة الشنيعة عليهم: فيها وعيد وتحذير لهٰذه الأمة المحمدية من سلوك شيء من مسالك الحيل، يتخذونه ذريعةً إلىٰ ارتكاب الحرام أو فعل الحرام، خصوصًا وقد قال ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا

خَلْفَهَا ﴾، يعني: تنكل من ورائهم فلا يعملون بعدهم مثل هٰذا الذنب الممزوج بالحيلة ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، الموعظة: هي ما يرقق القلب ويلينه، والمتقون: الخائفون عذاب اللَّه، المبتعدون عن مساخطه، الطالبون لأنفسهم وقايةً من عقوباته بحسن مراقبته، والتزام أوامره، وحفظ حدوده، دون تجاوز لها.

فجميع الحيل محرمة في دين اللَّه تحريمًا شديدًا قاطعًا، وقد عقد الشيخ موفق الدين أبو محمد عبداللَّه بن قدامة المقدسي في كتابه «المغني» بابًا طويلًا مفيدًا شافيًا في تحريم جميع الحيل والتمثيل لها، سواء في النكاح أو الطلاق أو أكل الربا أو في سائر المعاملات، وذكر عقوبة اللَّه لأصحاب السبت من الفاعلين، ومن لم ينكر عليهم من قومهم، وسلامة من لم يفعل وأنكر واعتزل، فليراجعه كل راغب في العلم والخير فإنه لا يستغني عنه.

والآن كثر المتحايلون علىٰ اللَّه في مسائل النكاح والطلاق وأكل الربا، فتجدهم في النكاح يعمدون إلىٰ الشِّغار(١) بحيلة دفع الصداق مع وجود الغرض النفسي المجحف بالمولِّية مما لا يصح معه نكاح، ويتحيلون في الطلاق بالتيس المستعار وغيره(٢)، و[يتحيَّلون] علىٰ التخلص من الأيمان، ويتحيلون علىٰ أكل الربا بما يجمعون به بين العِينةِ والربا، يأتي أحدهم إلىٰ الآخر دراهم، فيتفق معه علىٰ مرابحة عشرية معلومة، ثم يقول له: أشتري لك سكَّرًا أو أرزًّا، فيقبل ويشتري له ما لم يكن في حوزته، ثم يقول له: اقبض، ويوقفه علىٰ باب مخزن أو مستودع، فيلمس ما يقدر علىٰ لمسه من المال، ويعدونه قابضًا، ثم يقول له: إنك ستبيعه، فراجعني عليه، فيراجعه بالمساومة حتىٰ يبيعه

---

(١) وهو أن يزوج الرجل موليته لرجل، علىٰ أن يزوجه الآخر موليته، وليس بينهما صداقٌ.

(٢) والتيس المستعار هو المُحلِّل.

عليه، ويستلم الثمن ببيع صوري لم يربح منه حامل ولا وازن ولا خازن! وليت شعري[1] لو زاد سعر السلعة المبيعة علىٰ المستدين قبل أن تتم حكاية بيعها علىٰ الدائن، ماذا يكون الحال؟ لقد وقع هٰذا فعلًا، فأبىٰ البائع الدائن تسليم المبيع للمشتري المستدين المسكين، مدعيًا أنه باع ما ليس عنده، ووجد له بعض المشايخ خلاصًا، بل في بعض البلاد الصغيرة التي يتعاطىٰ أهلها تلك المعاملة، يتبايعون الآلاف من أكياس السكر، وليس في بلدهم كلها إلا الربع أو الخمس مما يتبايعونه.

هٰذه نماذج يسيرة من الحيل التي ورث أربابُها أصحابَ السبت، وقد ذكر ابن القيم عددًا كبيرًا من الحيل في كتابه «إعلام الموقعين» جرت في زمنه، وأغلبها مستعمل في زماننا، ولكل قوم وارث. ولا يتحمل هٰذا التفسير أكثر من تلك الإشارة، فليتقوا اللّٰه، ويبتعدوا عن موجبات سخطه من عقوباته الهائلة المتنوعة التي لا تحيط بها العقول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

هٰذا هو النوع الثاني مما وجه اللّٰه إليهم من التشديدات؛ لأن الأول هو ما حصل علىٰ أصحاب السبت، والثاني ما حصل علىٰ أصحاب البقرة.

والأمر بالذبح جاء مقدمًا علىٰ سببه ـ الذي هو قتل النفس وعلىٰ الخلاص منها ـ؛ فإنه سبحانه قدَّم ذكر وسيلة الخلاص التي هي ذبح البقرة.

والقرآن الكريم لا يراعي الترتيب والتنسيق كالمؤرخين، إنما يراعي التأثير بالسامعين؛ لأنه كتاب هداية، وأسلوبه هٰذا أدعىٰ لتشويق السامع، وبعث همته علىٰ البحث عن معرفة السبب في الذبح، ومفاجأته بحكاية

---

(١) تعبير عربي معناه: ليتني أعلم.

ما دار بين موسىٰ وقومه من الجدل، فإن الحكمة في أمر اللَّه بذبح بقرة إذا خفيت يحرص السامع علىٰ طلبها، فطريقة اللَّه في وحيه المبارك تأخذ بمجامع القلوب، وتحرك الفكر تحريكًا إلىٰ تدقيق النظر، وتَهُزُّ النفس هزًّا قويًّا إلىٰ الاعتبار.

وهٰذه القصة من جملة القصص التي اقتضت حكمة اللَّه أن يقصها علينا للاعتبار بها والابتعاد عن مشابَهتهم، وفيها من المواعظ والعِبَر عدة أمور:

أحدها: أن التنطع في الدين وكثرة الأسئلة مضرةٌ فعلًا، محرمة شرعًا، لكونها تُفضِي إلىٰ تشديد قد يؤول أمره إلىٰ التعطيل فيكفر صاحبه، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾ [المائدة]، وقال ﷺ: «**ذروني ما تركتكم؛ فإنما هَلَك مَن كان قبلكم بكثرةِ مسائلهم واختلافِهم علىٰ أنبيائهم**»(١).

وقال ـ ما معناه ـ: «**إنَّ أشد الناس جُرمًا علىٰ هٰذه الأمة مَن سأل عن شيء، فحُرِّم عليهم من أجل مسألته**»(٢).

ثانيها: أن اللَّه أمرهم بذبح بقرة ـ دون غيرها من سائر الحيوان ـ ليقتلع من نفوسهم كل تقديس للبقر؛ لأنها من جنس ما عبدوه ـ وهو العجل ـ، فينقلب التقديس إلىٰ إهانة واحتقار بدلًا من الحب والتعظيم، وبِهٰذا امتحان كبير لنفوسهم، فبعد أن أحرق موسىٰ العجل الذهبي وذراه في البحر جاءهم هٰذا الأمر الذي يقضي علىٰ ما تبقىٰ في نفوسهم من تقديسه قضاء مبرمًا.

ثالثها: استهزاؤهم بأوامر نبيهم، ووصمهم له بخلقهم الشنيعِ حيث قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾، وهٰذا من قلب الحقائق ورمي البريء بما الرامي

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).
(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

به ألصق، كقول المثل: «رمتني بدائها وانسلَّت».

رابعها: إظهار عجائب قدرة اللَّه ﷻ في اختراع الأشياء من أضدادها، حيث أحيا اللَّه القتيل بمجرد ضربه بجزء منها ـ كما سيأتي بيانه ـ.

خامسها: زيادة الإعلام من اللَّه لهٰذه الأمة بما جرىٰ من بني إسرائيل من أنواع اللجاجة والتلكؤ في الاستجابة، وانتحال المعاذير للتخلص من التنفيذ، مما يدلنا علىٰ جوانب جديدة من طبيعتهم الذميمة وسلاطة ألسنتهم، وقلة إيمانهم بالغيب، مما ستكشفه الآيات القادمة؛ وهو أنهم ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة]، عادوا مرةً ثالثةً يسألون عن الماهية، ماهية البقرة المأمورين بذبحها، متعللين بأن وجوه البقر تتشابه عليهم، وحينئذٍ كلفهم اللَّه بقيود صعبة المنال، فأجابهم موسىٰ عن ربه ﷻ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة]، فشددوا، فشدد اللَّه عليهم بأنهم كلما زادوا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أذًىٰ وتعنتًا، زادهم اللَّه عقوبة وتشديدًا في الأوصاف والقيود؛ قائلًا: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني صعبة لم تذلَّل بالعمل لإثارة الأرض بأظلافها، ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ لا يسنىٰ عليها لإخراج الماء للحرث، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من كل عيب وأذًىٰ؛ فهي سليمة من العيوب كافة، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ يعني ليس فيها لون آخر يخالف لون جلدها أبدًا، وأصل «الوشي»: تحسين عيوب الثوب بضروب مختلفة من الألوان، ثم استعير للواشي يأخذ [الخبر] إلىٰ السلطان؛ لأنه عند سعيه بإضراره يعمل علىٰ تحسين قوله بالأباطيل، وأقوال الشعراء الوشاة كثيرة.

ثم قال اللَّه عن بني إسرائيل في شأن البقرة: ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾. وفي قوله سبحانه: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ شروح وتفاريع للمفسرين، أعدلهم من قال: يعنون ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾: بينت لنا الحق فاتضح وعرفنا أيَّ بقرة عنيت، وبعضهم قال: إن قولهم يوجب الردة عن الدين لاقتضائه أن موسىٰ لم يأتِهم بالحق قبل ذٰلك،

ولٰكن إذعانهم وانقيادهم للتنفيذ يبطل هٰذا القول ولا يكون كفرًا؛ إلا إذا اعتقدوا أن ما تقدم من الأوامر ما كانت حقًّا. أما والحالة هٰذه فقولهم يحتمل أنه: الآن ظهرت لهم حقيقة ما أمروا به بذٰلك التمييز في الأوصاف.

وقال بعض المفسرين: إن قول بني إسرائيل ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ هراء من القول وخطأ وجهل من الأمر، لأن نبي اللّٰه موسىٰ كان مبينًا لهم في كل مسألة سألوها في أمر البقرة، وإنما يقال ذٰلك لمن لم يكن مبيِّنًا ذٰلك، فأما من كان جميع قوله فيما بلغه عن اللّٰه حقًّا وبيانًا، فغير جائزٍ أن يقال له في بعضه دون بعض: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ كأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذٰلك. وعلىٰ كل حال فقولهم هٰذا جهالة من بعض جهالاتهم، وهفوة من بعض هفواتِهم.

وقوله ﷻ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ يعني ذبح قوم موسىٰ تلك البقرة التي وصفناها لهم وما كادوا يذبحونها، لقد قاربوا من ترك ذبحها المفروضَ عليهم.

قال بعض المفسرين: إنه لغلاء ثمنها؛ لأنهم لم يجدوا بقرةً علىٰ هٰذه الأوصاف إلا عند رجل واحد، فأبىٰ أن يبيعها، إما طمعًا أو إرضاءً لوالديه، كما في بعض الروايات: أنه أبىٰ أن يبيعها إلا بملء جلدها ذهبًا.

وقيل: إنهم لم يكادوا يفعلون لخوف الفضيحة أن يبين اللّٰه قاتل القتيل الذي اختصموا فيه إلىٰ موسىٰ عليه السلام.

والأولىٰ أن يكون السبب في كونهم لم يكادوا يفعلون: هو جميع الأمرين، غلاء الثمن والفضيحة. ولا ريب أن مجتمعهم قد فشا فيه الشغب والدجل من عصبة القاتل في جميع ملابسات شأن البقرة وحوارهم مع موسىٰ في صفاتها؛ لأن للدعاية تأثيرًا كبيرًا في اللف والدوران.

وقد روىٰ بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس ـ في

قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ـ، يقول: «كادوا لا يفعلون، ولم يكن الذي أرادوا؛ لأنهم أرادوا ألَّا يذبحوها».

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل شيء في القرآن: «كاد» أو «كادوا» أو «لو»؛ فإنه لا يكون، وهو مثل قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]».

أقول: ومن تتبع سيرة القوم الملتوية وطباعهم الخسيسة؛ جزم من حرف «كاد» الذي اختاره اللَّه أنهم كادوا لا يفعلون؛ لأن الشروط قد تضاعفت بتضاعف تلكئهم، والأمر قد تعقد عليهم وضاق مجال الاختيار حيث ضيقوا علىٰ أنفسهم، ولولا حاجتهم الملحة الشديدة لكشف الغمة التي حلت بهم من القتيل الذي سيجري بسببه مجزرة عظيمة، فلولا خوف التفاني ما ذبحوها لصعوبتها عليهم، ولهٰذا قال العليم الخبير: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾: هٰذه الآية مما وبخ اللَّه أحفاد بني إسرائيل بسوء أعمال أجدادهم، والسبب في هٰذا الأمر أنه كان فيهم رجلٌ غني عقيم لا ولد له، فقام قريب له يريد إرثه، فقتله واحتمله حتىٰ وضعه في حي سبط غير سبطه، ولما أصبح أخذ يسأل عنه ويصيح بالويل والثبور، فلما وجده أخذ يطالب أهل ذٰلك الحي بقَوَده ـ أو ديته ـ، فلم يقبلوا، وطال نزاعهم حتىٰ كادوا يقتتلون، فقال أولو الرأي والنهىٰ منهم: كيف تقتتلون، وفيكم رسول اللَّه؟! وكان كل فريق منهم يدفع التهمة عن نفسه ويلقيها علىٰ غيره؛ فذٰلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾، فلما شكوا الأمر إلىٰ موسىٰ، واستلهَمَ وحي اللَّه في هٰذه الحادثة أوحىٰ اللَّه إليه أن يذبحوا بقرة، وذٰلك لما قدمنا من الأسباب، وحينئذٍ قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فظنوا به أنه هازئٌ لاعب! ولا يجوز لهم أن يظنوا ذٰلك بنبي اللَّه وهو يخبرهم أن اللَّه أمرهم بذبح البقرة، ولٰكنها النفس اليهودية الخبيثة التي عجزت أنبياءُ اللَّه عن تربيتها ـ فضلًا عن تصفيتها ـ.

و«الهزء»: هو السخرية واللعب، وحيث إنه لاينبغي لنبي من أنبياء اللَّه الهزء واللعب فيما يخبر به عن اللَّه، فإن هٰذا من الجهل المخالف لمقام الأفاضل، فكيف بمقام الأنبياء؟! لهٰذا برأ موسىٰ نفسه من ذٰلك أعظم تبرئة، حيث لاذ باللَّه والتجأ إليه من هٰذه الوصمة الشنيعة، قائلًا: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، يعني من السفهاء الذين يروون عن اللَّه الكذب والباطل.

ثم هل اكتفت بنو إسرائيل بِهٰذا، فنفذوا بدون تلكؤ ولا مماحلة بالسؤال؟! لا؛ إنهم لم يكتفوا، ولو اكتفوا وذبحوا أي بقرة لأجزأتْهم، وقضىٰ اللَّه بها أمره فيما بينهم، ولٰكن علىٰ العكس عادوا إلىٰ طباعهم اللئيمة، وللَّه در موسىٰ، كيف أجابهم بكل أدب ولطافة، نافيًا عن نفسه ما اتَّهموه به علىٰ أبلغ وجه وأوكده بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه، استعظامًا له واستفظاعًا لما شافهوه به وما قابلوه من الفظاظة وسوء الأدب، ولو كان عندهم مسحةٌ من ضمير ما قابلوه بِهٰذا، وهم يعلمون أنه زعيمهم، بل نبيهم الذي أنقذهم اللَّه به من العذاب المهين، وأجرىٰ عليهم من النعم ما لم يحصل لغيرهم من العالمين.

ثم هل خالجهم الحياء، ودب إليهم شيءٌ من الوجدان؛ ففعلوا ما يؤمرون؟ كلا، بل هي طبيعتهم الملتوية جعلتهم يعودون الىٰ السؤال عن ماهية البقرة وهي بقرة، وسؤال بطريقة بشعة: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولم يقولوا: «ادعُ اللَّه» أو «ادعُ ربَّنا». ولٰكن تشابَهت قلوبهم مع الفراعنة، ثم إن تكرار السؤال ينبئ عن موقف الإنكار والاستهزاء، لا عن موقف الإيمان والتسليم، ولٰكن موسىٰ يقابلهم بكل لطف لمَّا قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾، يعني أنها ليست كبيرةً عجوزًا وليست بكرًا صغيرةً لم يَنْزُ عليها الفحل، ولٰكن هي ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾، متوسطة في السن.

وفي هٰذا الجواب الرقيق البليغ كفاية لمن يريد الهداية، ولٰكن تأبىٰ

عليهم نفوسهم إلا الشغب والإلحاح في السؤال: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾، وأي حاجة لكم في لونها؟ لقد أرشدكم اللَّه إلىٰ ماهيتها، وأنها بقرة متوسطة السن، ومتوسط السن من الخيار، فهلا يكفيكم ذٰلك؛ إنه لا يكفيهم ذٰلك؛ بل تأبىٰ عليهم طباعهم.

وهناك يشدد اللَّه عليهم قائلًا لهم علىٰ لسان موسىٰ: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾، والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض، فلونُها فاقع الصفرة ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ يعني تعجب الناظرين في خلقها ومنظرها وهيئتها، وقد قيدها اللَّه بِهٰذا اللون النادر الوجود لعدم استجابتهم لأمره، حيث قال في بيان هيئتها الأولىٰ: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾، افعلوا ما أمرتكم به تدركوا حاجتكم ومطلبكم، وتحصلوا بطاعتي علىٰ العلم بقاتل قتيلكم، ولٰكنهم أبوا فجاءهم تشديد جديد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

ذكرنا فيما مضىٰ أن السبب في أمر اللَّه لهم بذبح البقرة هو حادثة القتل التي اتُّهم بعضهم فيها البعض الآخر، وكل فريق منهم يدفع التهمة عن نفسه ويلصقها بغيره لشدة ما بينهم من الإحَن والعداوات، حتىٰ كادوا أن يقتتلوا جميعًا، ولما سألوا موسىٰ الكشف عن الحقيقة قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾، وجرىٰ منهم من التعنت علىٰ موسىٰ واتهامه وكثرة الإلحاح معه في السؤال عن صفات البقرة؛ مما جلب عليهم التشديد وتعقيد الأمور المناسب لنفوسهم المعقدة.

وقد ورد أثر موقوف علىٰ ابن جُريج وابن عباس: «إنهم لو ذبحوا أي بقرة لأجزأتهم، ولٰكنهم شددوا، فشدد اللَّه عليهم».

وزعم بعضهم رفعه إلىٰ الرسول ﷺ، ولٰكنه مرسل علىٰ التحقيق،

وقد روىٰ ابن جرير عن بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قال: ذُكر لنا أن نبي اللَّه ﷺ كان يقول: «**إنما أُمر القوم بأدنىٰ بقرة، ولٰكنهم لما شدَّدوا علىٰ أنفسهم شدَّد اللَّه عليهم، والذي نفس محمدٍ بيده لو لم يستثنوا لمَا بُيِّنَتْ لهم آخرَ الأبد**»[1]، يعني لو لم يقولوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾.

وقد أضاف اللَّه الجريمة إلىٰ الجميع بقوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ﴾؛ لأنهم مسؤولون عنها جميعًا حتىٰ يجتهدوا بنصح وإخلاص خالٍ من الحمية والعصبية في كشف المجرم ليلقىٰ جزاءه، فالأمة كالجسد الواحد، وقد سبق القول في معنىٰ ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾، يعني تدافعتم وتخاصمتم في شأنها، كل سبط يدرأ الجريمة عن حزِبه ويتهم بها الآخرين.

قال رؤبة بن العجاج[2]:

أدركتُها قدَّامَ كلِّ مِدْرَهِ ... بالدفع عني درءَ كل عُنجُهي

ولقد انكشفت حكمة اللَّه لبني إسرائيل من ذبح البقرة، وأخرج اللَّه ما كانوا يكتمونه من أمر القتيل الذي بسببه كادت تعمُّهم الفتنة والنقمة، فصار ذبح البقرة وسيلة إلىٰ إحيائه، ليخبرهم بنفسه عمن قتله، لقد جعلها اللَّه وسيلة، وهو سبحانه قادر علىٰ إحيائه بغير وسيلة، ولٰكن اقتضت حكمته أن لا يحيا إلا بعد جَهدٍ وامتحان وثمن باهظ كادوا بسببه ألَّا يفعلوا.

هٰذا التكليف الذي كلفهم اللَّه به دون أن يعرفوا غايته فيه امتحان لذي الانقياد والتسليم، وقد علمت ما قابلوا به موسىٰ من التعنت والأمر المريب، وما ألجأهم في النهاية إلىٰ التنفيذ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، وهنا يوبخهم اللَّه ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ من أمر القتيل حَمِيَّةً علىٰ القاتل، وعدم رحمة بالمقتول، ومن يبكيه ومن يحزن عليه،

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١/ ٣٤٧).
(٢) تحرفت في المطبوع إلىٰ: «الحجاج».

وعدم مبالاة بتهمة الأبرياء الذين تضطرهم الحالة إلىٰ الدفاع عن أنفسهم ورفض عار الجريمة وشناعتها، ثم عدم المبالاة بفتنة لا يعلم أيان مرساها إلا اللَّه.

ما أقسىٰ هٰذه القلوب التي تريد لها معجزة فاضحة، تدفع أربابَها علىٰ رؤوسهم، وتُخسِئُهم بين باقي الأسباط، وتبين للجميع مدىٰ قدرة اللَّه وعظيم حكمته ورحمته؛ ولذا قال لهم بعد ما ذبحوا البقرة ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾؛ بجزء منها غير معين، بل اختاروا أنتم قطعةً منها واضربوه بها، وجعلهم يتولون أمر الضرب هم بأنفسهم ويباشرونه دون موسىٰ عليه السلام؛ لأن اللَّه يعرف دفائن أنفسهم الخبيثة، وأنه لو ضربه موسىٰ ببعضها من دونهم لرموه بالسحر والشعوذة، أو زعموا أن هٰذا من خصائصه ـ كاليد والعصا والصخرة ـ؛ ولٰكن جاء قدر اللَّه وأمره بوسيلة هم يباشرونها بأنفسهم لينقطعوا أمام حجة اللَّه البالغة وآياته التي هي فوق مستوىٰ أي بشر، ولذا قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هنالك شاهدوا من قدرة اللَّه وتأثيره في الكائنات مشهدًا لا يعرفون كنهه، وليس لديهم أمامه إلا الاعتراف والتسليم، قطعة لحم من حيوان مذبوح يضرب بها ميت قد صار جيفةً فينهض حيًّا ناطقًا، يخاطبهم ويخبرهم بالذي قتله، هٰكذا القدرة الإلٰهيَّة، لا يستعصي عليها شيء.

إن هٰذه الحادثة العظيمة والمعجزة الباهرة المخضعة للرقاب ـ طوعًا أو كرهًا ـ قد شاهدها القوم مشاهدة عيان لا يمكن إنكارها، وهي ـ أيضًا ـ من معجزات محمد ﷺ، حيث أخبر بها أمته، وذكَّر بها أحفاد بني إسرائيل، ولم يجرؤ أحد منهم علىٰ إنكارها، مع أنهم أمة البَهت والفجور، وقد أرىٰ اللَّه بها بني إسرائيل سرًّا من أسرار ألوهيته، وأعجوبةً عظيمة من عجائب قدرته، لا سبيل إليهما في عالم الماديين؛ بل ولا في طاقة العقول البشرية جميعًا، كيف باغت اللَّه بِهٰذه الحادثة

خصومًا لؤماء ألدَّاءَ كتموا الجريمة لحاجات وأهواء في صدورهم، لتكون النكاية بغيرهم من دونهم، ففضحهم اللَّه بانتفاضة المقتول لما ضربوه ببعض لحم البقرة أو أجزائها، فقام حيًّا يكلمهم ويهتك أستار المجرمين، وصَدَقهم اللَّه قوله بإنجاز هٰذه القدرة ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾. لقد دفع اللَّه الباطل وأظهر الحق، وهلهل[1] أستار التلبيس، وبرهن لهم علىٰ قدرته في إحياء الموتىٰ إحياءً حسيًّا وإحياءً معنويًّا.

فقوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أراهم اللَّه بالعيان نوعي الإحياء: الحسي والمعنوي، فالحسي إحياء القتيل وقيامه من بينهم وهم ينظرون، وأما الإحياء الثاني فهو إنجاؤه للفريقين المتخاصمين، بل لعدة فِرقٍ وأسباط، أو لكل الأسباط الذين تجرهم الفتنة إلىٰ قتال يَفنَون فيه، فاللَّه أنقذهم من الموت المحقق الشنيع الذي سيجري عليهم بالتقاتل، وذٰلك بإحياء القتيل وإخباره إياهم بالذي قتله، وهنالك خمدت الفتنة وحَيَتْ نفوسهم جميعًا.

فيا لها من آيات باهرة نزلت عليهم فيها رحمة اللَّه! ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، لعلكم تفهمون مدىٰ قدرة اللَّه التي لا تقف عند حد ولا تحيط بها العقول، وتفهمون أسرار شريعته في أمره ونَهيه، وتدركون فائدة الخضوع لها، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها، وتكبحونها عن جماحها، وتؤمنون بجميع آيات اللَّه التي جاء بها موسىٰ، والتي جاء بها محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، ولا تجحدون شيئًا منها لأغراض في نفوسم، فإنه لا يستقيم لكم الإيمان بموسىٰ حتىٰ تؤمنوا بكل نبي ورسول بعده، وعلىٰ الأخص خاتمهم محمد ﷺ؛ فإن لم تحققوا هٰذا فإنكم لم تعُوا آيات اللَّه ولم ترعَوها حق رعايتها. فهٰذا الخطاب منه ﷻ عام في جميع بني إسرائيل الأقدمين والآخرين.

إن من لم يستفد من هٰذه القصة بمشهدها الأخير زيادة عقل وتفكر،

---

(١) هلهل: هتك وعرَّىٰ.

وقوة إيمان، ولين قلب، وصفاء نفس، فبأي شيء يستفيد؛ إن بني إسرائيل بهٰذا المشهد الهائل العجيب يجب أن تنحشي قلوبهم بالتقوىٰ والخشية والمراقبة للّٰهِ، وأن تجيش بجميع أنواع الحساسية، فتخشع وتلين لما شاهدت من الحق، ولٰكن اللّٰه سبحانه يخبرنا عن انعكاس أحوالهم في الآية (٧٤) من قسوة القلوب التي ليس لها نظير.

ثم إن هاهنا فوائد:

الأولى: في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ تدل علىٰ إحاطة علمه بجميع المعلومات العلنية والسرية والفعلية واللفظية والنفسية، فهو عالم بجميع ذٰلك، وقادر علىٰ إظهار المكتوم منه.

الثانية: تدل هٰذه الآية علىٰ أن ما يُسرُّه العبد ويُكنُّه من خير أو شر؛ فإن اللّٰه سيظهره. قال ﷺ: «**لو أن عبدًا أطاع اللّٰه من وراء سبعين حجابًا لأظهر اللّٰه ذٰلك علىٰ ألسنة الناس**»(١). وكذٰلك المعصية.

الثالثة: هٰذه الآية من العام المراد به الخصوص، لأن قوله: ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ عام في كل مكتوم، ولٰكن اللّٰه يريد إظهار ما كتموه في هٰذه الواقعة فقط.

الرابعة والخامسة: الأمر المطلق يقتضي الوجوب ويقتضي الفورية، لأن اللّٰه ذمَّ المتثاقلين في تنفيذه، مع اشتغالهم بطلب مقتضاه والسؤال عن ماهيته، كما ذمهم علىٰ التراخي في الفعل عند ورود الأمر المجرد من هاتين القاعدتين من قواعد الأصول.

السادسة: قال الحسن عن رسول اللّٰه ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لو لم يقولوا: إن شاء اللّٰه؛ لحِيلَ بينهم وبينها أبدًا**»(٢).

فهٰذه اللفظة المباركة مستحبة في كل عمل يراد تحصيله، وقد قال اللّٰه سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن

(١) أورده أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٧) ـ بنحوه ـ.
(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (رقم: ٧٢٧).

يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف]، لأن في هٰذه ـ الكلمة استعانةً باللَّه، وتفويضَ الأمر إليه، وتجديد الاعتراف بقدرته ونفاذ مشيئته.

السابعة: تساءلوا عن تخصيص الأمر بذبح بقرة دون غيرها من الأنعام، وأجابوا بعدة أشياء:

منها: أن الكلام في غيرها ـ لو أُمروا به ـ لا ينقطع كالكلام فيها.

ومنها: أنها مما جرت العادة بجعلها قربانًا إلىٰ اللَّه.

ومنها: عكس ذٰلك، وهو أن اللَّه يريد أن يمسح تقديس البقر من قلوبهم، لأنه شيء طارئ عليهم من تقليدهم لعادات المصريين.

ومنها: أن اللَّه يريد منهم تحمُّل الكلفة في تحصيلها، ودفع الثمن الباهظ فيها، لينتفع صاحبها البارُّ بوالديه، وليثبت منهم من حسُنت نيته.

ومنها: أنه تعلق بذبحها مصلحة لا تحصل إلا بذبحها، واللَّه أعلم بمراده وأسرار حكمته.

الثامنة: تساءلوا عن الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة، مع أن اللَّه سبحانه قادر علىٰ أن يحييه ابتداء ـ بل يحييه بدونها ـ.

والجواب: أن الفائدة فيه لتأكيد الحجة علىٰ الناظرين، وقطع دابر تُهمة الحيلة علىٰ المتهوِّكين والملحدين، ذٰلك أنه يحصل بإحياء القتيل دون ذٰلك مجال لأولٰئك، فيقولون: هٰذا ضرب من السحر، ولذٰلك لم يباشر هٰذا الفعل موسىٰ خشية من القيل والقال؛ بل وجه اللَّه الأمر إليهم لتكون حياته بفعل فعلوه، واللَّه أجرىٰ حياته علىٰ أيديهم بما باشروه من الضرب، ليدلل علىٰ أن المعجزات لا تكون إلَّا من اللَّه ـ دون أي تمويه من الناس ـ، وأن الأنبياء كغيرهم لا تأثير لهم فيها.

التاسعة: وردت حكايات إسرائيلية في اسم البقرة وصاحبها، واسم الجزء الذي ضُرب به[1] القتيل، أعرضتُ عن ذكرها؛ لأني أرىٰ وجوب

---

(١) في المطبوع: «فيه»، ولعل الأصح ما أثبتناه.

تنزيه تفسير كلام اللَّه عن هٰذه النقول التي لا تقوم بها حجة، ولعدم صدورها عن الصادق المصدوق ﷺ(١).

العاشرة: في قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تدليل حسي واضح علىٰ الأمر الغيبي الذي تتطرق الشكوك إليه، ليدلل للمستيقنينَ علىٰ أن الإعادة ـ في قدرته سبحانه ـ أهونُ عليه من الابتداء في صنعته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٢٧]، فيزيد اللَّه في هٰذه الحادثة من إيمان المؤمنين بالبعث، فتطمئن قلوبُهم، كما فعل بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويقيم الحجة علىٰ الكافرين؛ لأن هٰذه القصة قد شوهدت بالعيان وتواترت أخبارها؛ فهي من بعض حجج اللَّه الكبيرة.

الحادية عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، قد يقول بعض الجهلة والمشاغبين: هي آية واحدة ـ إحياء القتيل بجزء من مذبوح ـ!.

والحق أن هٰذه المعجزة يتفرع منها آيات كثيرة:

منها: الدلالة علىٰ وجود الخالق القادر علىٰ كل شيء، والعالم بكل شيء، والمختار ما يشاء في إيجاده وإعدامه.

ومنها: الدلالة علىٰ صدق موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والدلالة علىٰ حقيقة المجرم، وتبرئة ساحة الأبرياء.

ومنها: الدلالة العظيمة علىٰ إحياء الموتىٰ بشيء واضح حسي لا يقبل الجدل.

حقًّا إنها آيات كبيرة يرينا اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ إياها.

الثانية عشرة: جواز الاجتهاد حتىٰ في عصر النبوة، لأن اللَّه أمرهم بذبح بقرةٍ وسط بين الكبير والصغير ـ دون تعيين سنها ـ، وقال لهم: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾، وهو أمرٌ منه سبحانه لهم أن يجتهدوا فيما بين ذٰلك.

الثالثة عشرة: حصلت تساؤلاتٌ كثيرة علىٰ تقديم ذكر الأمر بذبح

---

(١) وفضلًا عن ذٰلك، فلا فائدة ولا منفعة تذكر إذا علمت مثل هٰذه الأشياء.

البقرة قبل ذِكر السبب ـ الذي هو قتلهم للنفس ـ.

ومن أحسن ما أجيب: أنهما قصتان، كل واحدة منها مستقلةٌ بنوع من التقريع ـ وإن كانتا في الحقيقة متصلتين ـ، فالأولىٰ لتقريعهم علىٰ الاستهزاء وترك المسارعة للامتثال، والثانية للتقريع علىٰ قتل النفس المحرمة وإخفاء الجريمة. ولو قُدم ذكر القتل علىٰ ذكر البقرة لكانت قصةً واحدةً، وذهب الغرض في تثنية التقريع.

وقال الحرالي(١): قدم نبأ قول موسىٰ عليه السلام علىٰ ذكر ندائهم في القتيل ابتداءً بأشرف المقصدين(٢) من معنىٰ التشريع؛ الذي هو القائم علىٰ أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة.

الرابعة عشرة: من لم يؤمن بِهٰذه القصة أو يهضمها؛ فهو ملحد لا يؤمن بالبعث والنشور، ومن لا يؤمن بالبعث لا يؤمن بالله وقدرته الغالبة وحكمته البالغة.

الخامسة عشرة: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱدَّٰرَءۡتُمۡ﴾ أصلها: «تدارأتم»، ولٰكن لقرب مخرج التاء من مخرج الدال أُدغمت التاء في الدال فجعلت دالًا مشدَّدةً، كما في قول الشاعر:

تولي الضجيعَ إذا ما استافها خَصِرًا ... عذبَ المذاقِ إذا ما اتَّابعَ القُبَلُ

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾:

القسوة: هي شدة الصلابة والغلظة، وهي منبئةٌ عن ذهاب اللين والرحمة والخشوع، وهو قوله سبحانه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، يعني من بعد

(١) في المطبوع: «الحراني»، والتصويب من «محاسن التأويل» للقاسمي (١/ ٣٢٩).

(٢) في المطبوع: «القصتين»، والتصويب من المصدر السابق.

هٰذه الآيات، سواء إحياء القتيل وما نجم عنه، أو جميع الآيات التي مر ذكرها: من تظليل الغمام، وإنزال المن والسلوىٰ، وتفجير اثنتي عشرة عينًا من صخرة صغيرة، ورفع الطور فوقهم، ومسخهم قردةً وخنازير ـ يعني مسخ بعضهم ـ، ورحمة اللَّه بهم في أمر القتيل بإحيائه في تلك الأعجوبة؛ بعد جميع هٰذه الآيات صارت النتيجة قسوة القلوب، وهٰذه الآيات تلين القلوب، وتصقل النفوس، وتَهُزُّ العواطف والشعور، وتكسب اليقين، وتؤنب الضمائر، ولٰكن قلوب هٰؤلاء بلغت من القساوة ما يزيد عن قساوة الجماد.

وقد قال بعض المفسرين: إن المقصود بهم سبط القاتل ومن علىٰ شاكلته.

وبعضهم قال: المقصود به جميعهم؛ حيث تمادوا في التمرد علىٰ موسىٰ.

وبعضهم قال: إن ذٰلك حصل في خلفٍ لهم بعد موسىٰ، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ﴾ علىٰ أن العطف بها يفيد أن أولهم قد خشع، وأن القسوة حصلت فيمن بعدهم.

والصحيح ـ أيضًا ـ [أن] العطف بـ«ثم» يقصد به الترتيب، يعني: ثم من بعد ما رأوا تلك الآيات الملينة للقلوب والمحركة للشعور، قست قلوبُهم، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ فقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني بعد ذٰلك الآيات ـ لا من بعد ذٰلك الخشوع ـ؛ لأنه ليس للخشوع ذكر في السياق، ولا له دليل أبدًا.

والصحيح ـ الذي تدل عليه الآيات التي في غير هٰذه السورة ـ أن قسوة القلوب من صفات بني إسرائيل جميعًا وسماتِهم، حتىٰ المخاطبين في عصر النبوة؛ فإنهم برهنوا لنا ـ بجحودهم وعنادهم واشتداد عداوتهم للحق ـ علىٰ قسوة قلوبهم التي وصفها اللَّه في هٰذه الآية الكريمة، ذٰلك أن قوارع القرآن تنزل علىٰ محمد ﷺ بأخبارهم ويتلوها عليهم،

وفيها من التقريع والتوبيخ وسرد الآيات والنعم والعقوبات والنذر ما فيه عظاتٌ ومزدجر، بل الأسلوب القرآني يخاطب قلوبهم بالمثُلات التي لا يبقىٰ معها أي تريث عن الإيمان ـ لو كانت عندهم قلوب حيوانية[١] ـ، ولٰكن قلوبهم أصبحت جمادية لا تتأثر بالعبر والعظات، ولم تستطع تلك النذر والمثلات أن تشقها وتنفذ إلىٰ أعماق الوجدان فيها، وصارت لا تَهُزُّها الآيات الكونية الرهيبة التي ذكرهم بها علىٰ لسان رسوله ﷺ لتكون أعظم معجزةٍ علىٰ صدقه.

لقد قرأ ﷺ أوائل سورة «فصلت» علىٰ بعض صناديد قريش، فلما وصل إلىٰ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت]، صرخ قائلًا: «ناشدتك اللَّه والرحم أن تمسك»[٢]، هٰكذا القلوب الحيوانية تتأثر من الآيات، مع أن تلك الآيات في تلك لا تساوي واحدًا من الألف مما تلاه رسول اللَّه ﷺ علىٰ بني إسرائيل، ولٰكن قلوبهم جمادية ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقوله ﷻ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ يعني: بل أشد قسوة، فحرف[٣] «أو» هنا ليس للشك والتردد، وإنما هو بمعنىٰ الواو أو بمعنىٰ «بل»؛ فالواو كقوله[٤] تعالىٰ: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات]، وقوله: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان]، وبمعنىٰ «بل»، كقول الشاعر:

بدتْ مثلَ قرنِ الشمسِ في رونق الضحىٰ
وصورتُها أو أنتِ في العين أملحُ

وكقول الآخر:

أحبُّ محمدًا حبًّا شديدًا   وعباسًا وحمزةَ أو عليًّا

---

(١) حيوانية: فيها حياة.
(٢) رواه الحاكم (٢/٢٧٨).
(٣) تحرفت في المطبوع إلىٰ: «فحذف».
(٤) في المطبوع: «لقوله»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه.

وتشبيه اللَّه قلوبهم بالحجارة ـ دون الحديد والصُّفْر[(١)] ونحوهما مما هو أقسىٰ ـ لأمرين:

الأول: أن الحديد ونحوه يذوب إذا أحمي بالنار، ولهيب المواعظ للقلوب أعظم من النار.

والثاني: لأنهم شاهدوا الحجارة يتفجر منها الأنهار، وشاهدوا الجبل يندك من خشية اللَّه، ويخر موسىٰ صعقًا، فلهٰذا أجرىٰ التشبيه لهم، مبينًا لهم أن قلوبهم لا تنبض بخشية ولا تقوىٰ، ومذكرًا لهم بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ﴾. وقد شاهدتم ـ يا بني إسرائيل ـ نوعًا من ذٰلك، حجارة صغيرة ـ بأمر اللَّه، ومن خشية اللَّه ـ تتفجر عيونًا لكم حيث شاء اللَّه، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ كما شاهدتموه حين مواعدة موسىٰ لربه، شاهده بعضكم وأخبر البعض الآخر، فأمثلة القرآن حسية تورث اليقين للقلوب الحية، واللَّه أعلم.

روىٰ الترمذي عن عبداللَّه بن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تُكثروا الكلامَ بغير ذكر اللَّه؛ فإن كثرةَ الكلام بغير ذكر اللَّه قسوةٌ للقلب، وإن أبعدَ الناس من اللَّه القلب القاسي**»[(٢)].

وما قسوةُ قلوب بني إسرائيل إلَّا بسبب عدم ذكر اللَّه الذكر الصحيح، ذكر المحب لحبيبه، ذكر المربوب للرب، ذكر المتأله الصادق للمألوه الحق، ذٰلك الذكر الدائم الذي يورث المراقبة والخشوع، فيسلم صاحبه من جحود النعمة والإعراض عن الآيات، والتنكر للمنعم المحبوب ﷻ.

فإن هٰذه هي أمراض قلوب الإسرائيليين التي أورثتها القسوة الموصوفة في القرآن بأنها أشدُّ من قسوة الحجارة؛ لأنهم كانوا علىٰ ما وصفهم اللَّه به من التكذيب برسله والجحود لآياته بعد ما أراهم

---

(١) **الصُّفر**: النحاس.

(٢) رواه الترمذي (٢٤١١).

من الآيات والعبر، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج، مع ما أعطاهم من الأرواح والعقول التي لم يعطها الحجر ونحوه من الجماد. ومع هٰذا فالجماد يتأثر وقلوبهم لا تتأثر، خصوصًا ما آتاهم من آيات وعظات تَهُزُّ الوجدان وتنفذ إلىٰ أعماق الجنان، وقد ثبت أن الجذع الذي كان يستند إليه المصطفىٰ ﷺ إذا خطب حن إليه بعد ما تحول عنه[١]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ حجرًا كان يسلِّمُ عليَّ في الجاهلية، إني لأعرفه الآن**»[٢].

وروي أن النبي ﷺ قال: «**قال لي ثَبير[٣]: اهبط؛ فإني أخافُ أن يقتلوك علىٰ ظهري فيعذبني اللَّه، فناداه حراء: إليَّ يا رسول اللَّه**»[٤].

هٰكذا شأن الجماد، فأين قلوب بني إسرائيل التي جاءها من النعم والآيات والنقم ما فيه مزدجر؟! ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: معشر اليهود المكذبين بآيات اللَّه، والمؤذين لأنبيائهم، والجاحدين نبوة محمد ﷺ، والناقلين عليه الأباطيل، ما اللَّه بغافل ولا ساهٍ عن أعمالكم؛ بل هو لكم بالمرصاد، سيواصل عليكم أنواع عقوباته، وفي هذه الآية تهديد شديد لهم.

قال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

لما بين اللَّه سبحانه قساوة قلوبهم المنبئةَ عن بُعدهم من الإيمان، التفت إلىٰ المؤمنين يؤيِّسُهم من إيمان هٰؤلاء وفلاحهم، تسليةً منه سبحانه للنبي ﷺ، عندما كان يشتد حرصه عليهم من طلب إيمانهم؛ في معرض التنكيت عليهم والتبكيت لهم، منكرًا طمع النبي ﷺ وأصحابه في إيمانهم

---

(١) رواه البخاري (٣٥٨٣).
(٢) رواه مسلم (٢٢٧٧).
(٣) ثبير: اسم جبل.
(٤) ذكره القرطبي في «التفسير» (١/٤٦٦).

قائلًا: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ ـ أيها المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ـ ﴿أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾، أي: يؤمن بنو إسرائيل لكم بعدما علمتم من تفاصيل أحوال أسلافهم المؤيسة عنهم، وهم متماثلون في طبائعهم الذميمة، وأخلاقهم الفاسدة، وقلوبهم القاسية؛ لا يصدر منهم إلا مثلُ ما صدر من أسلافهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ سماعًا واضحًا ليس فيه التباس، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، يحرفونه من بعد ما ضبطوه وفهموه، ولم تشتبه عليهم صحته، بل تحريفهم لكلام اللّه عن عمدٍ وسوءِ قصد، ممَّا لا يصح أن يكون لهم فيه عذر ـ من سوء الفهم ونحوه ـ، ولذا قال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني يعلمون المعنىٰ المقصود تمامًا ـ بلا إشكال ولا نسيان ولا ذهول ـ، وإنما لمقاصد نفسية وأغراض مادية نفعية، وهٰذا فسوق عميق لا يرجىٰ معه إيمان، وهٰذا إخبارٌ من اللّه عن إقدامهم علىٰ البَهْت ومناصبتهم العداوة للأنبياء، وأن بقاياهم في العصر المحمدي لا يزالون علىٰ مثل ما كان عليه أسلافهم.

وقد كان أصحاب محمد ﷺ يطمعون في إيمان اليهود أكثر مما يطمعون في إسلام المشركين؛ وذٰلك لما عندهم من أصل التوحيد، ولما ورثوه من الكتاب الذي فيه ذكرُ نبي الإسلام وأوصافه، والذي جاءهم بكتاب مصدِّق لما معهم في الجملة، وفيه تجلية للشبهات وحلول للمشكلات، وفيه إباحة لبعض ما حرم عليهم من الطيبات، فكان طمع أسلافنا في إيمان اليهود منبئًا علىٰ وجهٍ نظري معقول، ولٰكن اللّه العليم بالسرائر يعلم ألَّا وجه لهٰذا الطمع وليس فيه جدوىٰ، لأنهم انحرفوا بحقيقةِ الدين ـ الذي هو رابطة روحية قوية بين الأمم، وهداية للقلوب الفطرية ـ؛ فجعلوه رابطةً جنسيةً عصبيةً يريدون به الانفصال عن غيرهم والاستعلاء عليهم، ويتصرفون بالنصوص علىٰ حسب أهوائهم ومصالحهم الشخصية، ويريدون أن يجعلوا من دينهم أداةَ تسلُّطٍ علىٰ الأمم والشعوب في النواحي السياسية والاقتصادية بضروب من أنواع الافتراء علىٰ اللّه ـ كما سنبين طرفًا منه عند الكلام علىٰ الآية (٧٩) قريبًا ـ.

فاللَّه ﷻ لم يؤيس أمة محمد ﷺ من هداية هٰؤلاء؛ إلا بعد أن قص عليهم نماذج منتنةً من قبائح أفعالهم، وسوء أخلاقهم، وخبث دفائن أنفسهم، واستعصاء تربيتهم، والعجبُ العجاب أن القِرد الأصلي فيه قابليةٌ للتربية والتعليم، وهٰذه الأمة الخبيثة ليس فيها قابلية لذٰلك! أمة اللعنة والغضب؛ خصص اللَّه من وحيه المبارك مئتين وستًّا وستين آيةً لكشف أستارها، وبيان مخازيها، وخبث قلوبها، وفساد مقاصدها وأعمالها، وخيبةَ جميع وسائل التربية فيها، آياتٌ كثيرات عظيمات بينت لنا كيف اجتبىٰ اللَّه هٰذه الأمة وتولاها بعظيم ألطافه ورعايته، وبوأها مبوَّأَ صدق، ونجاها ممن عمل علىٰ إفنائها ورزقها من صنوف الخيرات، وأولاها من نعمه وآلائه ما لم يحظ به غيرها، وآتاها بينات من الأمر، وفضلها علىٰ عالمي زمانها، وربَّاها بسياط المواعظ وقوارع العقوبات، من تقتيل النفوس، وإنزال الصاعقة، وأخذ الرجفة، ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة، ومسخ بعضهم قردةً وخنازير... إلىٰ غير ذٰلك مما في مقابلته معجزات باهرة وإنعامات فاخرة، كتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوىٰ، وتفجير العيون من صخرةٍ صغيرةٍ لا يمكن ـ في المحسوس ـ أن يخرج منها أصغر قارورة... إلىٰ غير ذٰلك من صنوف التربية والإكرام مما لم يكن لها تأثير كبير.

أقول: بعد سرد اللَّه علىٰ نبيه محمد ﷺ وأمته لأحوال هٰؤلاء وسوء مقابلتهم للنعم، يقول لنا سبحانه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾؟! حقًّا إن هٰذا مستحيل، إنهم علىٰ عِرق راسخ في العناد والجحود، إنهم من أشد الناس استكبارًا عن الإسلام، وإيذاءً لمحمد ﷺ وأمته إلىٰ يوم القيامة.

إن الطمع في هدايتهم طمع في غير مَطمع، ولذا نرىٰ اللَّه سبحانه يملي علىٰ رسوله والمؤمنين، ويقنعهم بألَّا يطمعوا في هداية هٰؤلاء. وقد جمع اللَّه بين رسوله ﷺ والمؤمنين في استنكاره الطمع في هدايتهم لمشاركة المؤمنين رسول اللَّه ﷺ في آماله وآلامه، وأوضح لهم بطريقةٍ واضحة استحالةَ الإيمان، مخبرًا لهم عن حقيقة واضحة جارية منهم،

وهي أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ بعدما اختار سبعين رجلًا ممَّن يتوسم فيهم الخير والصلاح، أو ممَّن لم يعبدوا العجل ـ، واقترب من الطور، وأوحىٰ اللَّه إليه التوراة، قالوا: لن نؤمنَ لك حتىٰ نرىٰ اللَّه جهرةً، ويكلمنا كما كلمك؛ إذ ليس لك ميزة علينا، وما قيمتك إلا بنا، فأخذتْهمُ الرجفة، ثم إن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضرع إلىٰ اللَّه قائلًا: كيف أرجعُ إلىٰ بني إسرائيل وقد أهلكتَ خيارَهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ـ إلىٰ آخر القصة ـ، ثم بعد ما أنجاهم اللَّه تاب عليهم وقبل توبتهم، حيث قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ورجعوا مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد سمعوا كلام اللَّه من موسىٰ، وعقلوه غاية الفهم، وصدَّقوا به أنه وحي اللَّه، ثم أخذوا في تحريفه بأن حرفوه عن وجه الحق إلىٰ ما يريدون مما يوافق أغراضهم الشخصية ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لم يلتبس عليهم شيء يوجب التأويل والتحريف، ولٰكنها المقاصد السيئة في نفوس خبيثة لا تذعن للحق أبدًا.

وكما أن هدايتهم مستعصيةٌ ولا مطمع فيها؛ فإن هداية أصحاب المبادئ العنصرية والمذاهب المادية من الشيوعية والبعثية وذيولها مستصعبٌ جدًّا؛ لأنها كلها من التعاليم اليهودية المعقدة، والمركز فيها حب المادة والأشخاص، وتقديس المادة والأشخاص، وفيها تعاليمُ حزبيةٌ سياسية هادفة إلىٰ الاستعلاء علىٰ الناس، وافتراسهم، ونَهب أموالهم، وإهلاك الحرث والنسل، تعاليم يهودية تذوقت شعوب الأرض منها الأَمرَّين، وأمة الفساد تتفكه علىٰ قول أفراخها بهم.

تنبيه: قد يَتوهم متوهِّمٌ من قوله تعالىٰ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ أنهم سمعوه مشافهة، وقد أوضحت أنهم سمعوه من موسىٰ؛ لأن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي اختصه اللَّه بالتكليم.

وأما ما رواه ابن مروان عنِ الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: «أنهم سمعوه، سمعوا صوتًا كصوت الشبُّور ـ يعني: البرق ـ»؛ فهٰذا حديث باطل لا يصح من جهة سنده؛ لأن فيه مناكير، ولا من جهة متنه؛ لأنه

مخالف للقرآن من اختصاص بالتكليم [بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

يخبر اللَّه سبحانه عن فريق منهم [أنهم] ينافقون أصحاب محمد ﷺ من الأنصار ـ لما بينهم وبين اليهود من المحالفة ـ، وأنهم إذا التقوا بهٰؤلاء المؤمنين قالوا لهم: آمنَّا بنبيكم أنه الحق، وأنه المذكور عندنا في التوراة، ولٰكنهم إذا خلا بعضهم إلىٰ بعض أخذوا يتلاومون، ويناقش بعضهم بعضًا، ويقول للفريق المتكلم: كيف تحدثونهم بما بيَّن اللَّه في التوراة وفتح عليكم من العلم؟ ألا تخشون أنهم يقيمون عليكم الحجة بالإيمان بنبيهم ما دمتم قد اعترفتم لهم أنه حق مذكور في كتابكم؟.

والعجب من قولهم: ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: تكون الحجة لهم عليكم عند ربكم في الدار الآخرة، غير مبالين بتلاعبهم في الحياة الدنيا، وإنما تلاومهم ومناقشتهم فيما بينهم أنهم كيف يعترفون للمؤمنين بما يقيمون به عليهم الحجة يوم القيامة؟ لأنهم اعترفوا لهم بأن نبيهم هو الحق المذكور في التوراة، ثم لم يؤمنوا به، وقد أخذ عليهم العهد في التوراة أن يؤمنوا به. ولذا قال اللَّه متسائلًا ومفنِّدًا خطتهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة]؟! هل يجهلون علم اللَّه بحالهم؟! وهل يجهلون أن اللَّه مقيمٌ عليهم الحجة في الدنيا والآخرة؛ لأنه أوضح لهم نعوت النبي ﷺ وأوصافه في التوراة؛ وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وأن الحجة عليهم قائمة بدون هٰذا الحوار؟!.

نعم، الحجة قائمة عليهم لو لم يتفوهوا مع المؤمنين بأي كلمة، الحجة قائمة عليهم من اللَّه سبحانه، قائمة عليهم وعلىٰ النصارىٰ ـ أيضًا ـ؛ لأن اللَّه أخبرهم بصفاته، وأخذ عليهم الميثاق بالإيمان به، فهم مطالبون بذٰلك جميعًا، والحجة قائمة عليهم لو كانوا يعقلون، ولٰكن

أين لهم من العقل الفطري الصحيح؟! ومع هٰذا يقول بعضهم لبعض: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾! يا للسخرية من هٰذا التعقل الذي يريدونه ويتحدثون به ويتساءلون عنه! إنه لا عجب إذا حصل النفاق من بعضهم، فأفضىٰ إلىٰ المسلمين بما أفضىٰ، ولٰكن العجب ممن لم ينافق؛ كيف يكون منطقه كذٰلك؟!.

وأصل «الفتح» في كلام العرب: الحكم والقضاء، ومنه قوله تعالىٰ حكايةً عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف]، فالمعنىٰ: كيف تحدثونهم بما حكم اللَّه به عليكم وقضىٰ فيكم؟ ومن حكمه عليهم أخذُه الميثاق منهم علىٰ الإيمان بمحمد ﷺ؛ فهم يقولون لهم: إن الذي تحدثونهم به موافق لما في القرآن؛ فلهم الحق أن يقولوا: لولا أن محمدًا نبيٌّ لما علم هٰؤلاء به من كتابهم، فيمسكون كلامكم حجةً عليكم!.

وكلامهم هٰذا كلام ساقط؛ لأن الحجة قائمةٌ عليهم حتىٰ لو أجمعوا علىٰ الإنكار. وأيضًا ففي هٰذا إلحاد في أسماء اللَّه ﷻ؛ كأنهم لا يعترفون بعلمه المحيط بالسر والإعلان، فموقفهم هٰذا زيادة في جريمتهم. ثم إن خطتهم خطة ضعف وخسة، والرجولة الصحيحة تقضي عليهم بخلاف ذٰلك من الثبات وعدم التذبذب، ولٰكن هٰذه طبيعة الذي يعلن خلاف ما يبطن، ويضطر إلىٰ المجاملة أو المداهنة والنفاق، فإذا صفا له الجوُّ مع رفاقه أخذ يحمِّسهم ويؤنبهم علىٰ شيء لو وقف موقفهم لقال مثلما قالوه.

والذي أخبرنا اللَّه به في هٰذه الآية من بعض فضائحهم؛ إنما هو ليقطع جميع آمالنا في هدايتهم؛ لأن قلوبهم مجدبةٌ جافة قاسية، أشد من قسوة الحجارة التي لا يلين لها ملمس.

ومما يجدر بالذكر أن الفريق المشار إليه في الآيات الثلاث السابقة هم العلماء العارفون بحقائق ما أنزل إليهم من ربِّهم، ويَعمدون إلىٰ تحريفها بدافع من أهوائهم وأغراضهم الشخصية، واحتكارهم للسيادة

والنفوذ، ومن كان منطبعًا بِهٰذا الطبع حول التوراة، فانحرافه عنَ القرآن أولىٰ، وعناده له أشد، بل يسلكون مع أهل القرآن مسلك الرياء والنفاق والمراوغة والمخادعة، وفي هٰذا من خراب الضمير والإصرار علىٰ الباطل والإلحاد في أسماء اللَّه ما اللَّه به عليم، ولذا يذكرهم اللَّه بقاعدةٍ من قواعد التوحيد: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾؟ لأن عملهم هٰذا عمل المحجوب عن معرفة اللَّه، ومعاملته حسب صفاته؛ لأن من عامل اللَّه معاملة العليم، مراقبًا اطلاعه، يستحي منه أن يفقده حيث أمره، أو يجده حيث نهاه، ولٰكن هٰؤلاء من عماء بصيرتهم يظنون أن اللَّه لا يقيم عليهم الحجة حتىٰ يقولوها بأفواههم للمسلمين، أما إذا اتفقوا علىٰ كتمان الحقيقة والسكوت عن ذكرها فلن يؤاخذهم اللَّه.

وهٰذا من عقوبات القلوب من مرضىٰ القلوب الذين اطرحوا رسالة اللَّه، وفرطوا في واجبه، يصيبهم اللَّه بمرض في قلوبهم، وكل من شابَهَهم من أمة محمد ﷺ فاللَّه يبتليه بما ابتلاهم من مرض القلوب وعمىٰ البصيرة، ويجعلهم كسبًا لأعدائهم ـ كما هي الحال المشاهدة ـ.

ثم إن اللَّه لما بين مساوئ العلماء منهم والعارفين؛ أخبرنا عن الفريق الثاني ـ الذين هم الجهلة ـ:

فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾:

يخبر ﷻ عن النوع الثاني من بني إسرائيل أنهم ﴿أُمِّيُّونَ﴾؛ ليسوا من أحبارهم وعلمائهم، ولٰكنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، و«الأماني» هي القراءة المجردة عن التفهم والتدبر، كقراءة أكثر الناس في هٰذا الزمان للقرآن، فإنهم شابهوا اليهود، فموقفهم من القرآن كموقف اليهود من التوراة.

وبعضهم فسر «الأماني» بالأمنيات التي عندهم، فإن عندهم من الدعاوىٰ العريضة والأمانيِّ الباطلة ما جرأهم علىٰ كل فعل شنيع وخطة أثيمة؛

لأنهم يعتقدون أنهم شعبُ اللَّه المختار، وأن الدار الآخرة خالصةٌ لهم من دون الناس، وأنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وأنه لن تمسَّهم النار إلا أيامًا معدودات لعظم مكانتهم عند اللَّه، وأنه لا حرج عليهم فيما يفعلون، وأنهم ليسوا مكلفين إلَّا بالإيمان بما أُنزل إليهم، إلىٰ غير ذٰلك من الأمنيات التي كذبها اللَّه، وأخبر نبيه ﷺ بالإجابات الدامغة لهم والمبطلة لجميع أمانيهم.

وعلىٰ التفسير الثاني للأماني: يكون الاستثناء منقطعًا في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾؛ إذا فُسرت «الأماني» بالتمنيات والتخرصات والأكاذيب، وأما إذا فسرت «الأماني» بالقراءة المجردة؛ فإن الاستثناء غير منقطع، وهو الصحيح ـ إن شاء اللَّه ـ؛ لأن القراءة المجردة عن الفهم والتدبر تجر أصحابَها إلىٰ التقليد من غير دراية ولا روية، والمقلد الذي علىٰ هٰذه الحال ينخدع بالأمنيات الأخرىٰ التي يُمليها عليه الدجاجلة المغرضون، وتغرهم تلك الأمنيات، فتفسير «الأماني» بالقراءة المجردة جامع لكل المساوئ التي وقع فيها بنو إسرائيل.

قال الشيخ الإمام محمد عبده: «هٰذه الأمانِيُّ توجد في كل الأممِ حالَ الضعف والانحطاط، يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة، وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها، وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية، وتسول لهم الأمانِيُّ أن ذٰلك كافٍ في نجاتهم وسعادتهم وفضلِهم علىٰ سائر الناس، وهٰكذا كان اليهودُ في زمن التنزيل، وقد اتبعنا سنتهم، وتلونا تَلْوَهم[1]، فظهر فينا تأويلُ الحديث الصحيح: «**لتتبعن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**»[2]، وإننا نقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا، ونعجب لهم كيف رضُوا بالأماني ونحن غارقون فيها» انتهىٰ.

---

(١) أي: اقتفينا آثارهم.

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

لمَّا وصف اللَّه الأميين منهم بـ«الظن»؛ لأنهم يظنون أنهم محقُّون ـ وهم مبطلون متخرِّصون ـ؛ لأن الذي لا[1] يحسن فهم معاني الكتاب يقلد غيره، فكلما سمع من الأحبار والرهبان شيئًا [من الافتراءات] ظن أنها من كتاب اللَّه فصدقها ـ وهي ليست من الكتاب ـ، فيصدِّقون قومهم فيما هو كذب علىٰ اللَّه، ويتركون التصديق بمحمد ﷺ فيما هو متيقَّنٌ أنه من عند اللَّه، فهم علىٰ هٰذه الحال متبعون لأهوائهم باتباعهم لأحبارهم ورؤسائهم المفترين علىٰ اللَّه الذين أتوا[2] بوصف «رجال الكهنوت»، رجال الشعوذة والدجل، ورجال الانتهازية والمراء، الذين يستغلون جهل أولٰئك الأميين، فيزوِّرون الكذب علىٰ كتاب اللَّه، ويُدخلون فيه ما ليس منه، ويكتمون منه ما شاؤوا، ويحرِّفون ما لا يوافق أهواءهم بالتأويلات الفاسدة الموافقة لأهوائهم وأغراضهم، ويكتبون كلامًا من عند أنفسهم، كالاستدراك علىٰ اللَّه، ويزعمون أنه من عند اللَّه، وما هو من عند اللَّه، كما قاله سبحانه في الآية (٧٨) من سورة آل عمران، وذٰلك أنه لما دَرَس[3] الأمرُ فيهم، وساءت رعاية علمائهم لعامتهم، ورغبوا في الدنيا، وتعلَّقوا بها حرصًا وطمعًا، عملوا علىٰ ما يصرف وجوه العامة إليهم، فبدَّلوا بعض شريعة اللَّه، وأحدثوا فيها ما ليس منها، ثم ألحقوه بها وقالوا لعوامهم: «هٰذا من عند اللَّه»، ليتقبلوها ويذعنوا لها، فتقوىٰ رئاستهم عليهم بها، وينالوا بسببها السحت الحرام من حطام الدنيا، مما هو بيع للذمم والضمائر، كما ينالون بها عزًّا

---

(١) «لا» ساقطة من المطبوع، وإثباتُها أصح لصحة المراد، واللَّهُ أعلم.

(٢) في المطبوع: «الذي أتىٰ»، ولا أدري لها وجهًا، ولعل الأصح ما أثبتناه.

(٣) دَرَس: مُحيَ وزال.

ووجاهة وشرفًا عند العامة.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: «من شاء أن يرىٰ نسخةً مما كان عليه أولٰئك اليهود؛ فلينظر فيما بين يديه، فإنه يراها واضحةً جليةً، يرىٰ كتبًا ألفت في عقائد الدين وأحكامه، حرَّفوا فيها مقاصده، وحولوها إلىٰ ما يغرُّ الناس، ويمنِّيهم ويفسد عليهم دينهم، ويقولون: «هي من عند اللَّه»، وما هي من عند اللَّه، وإنما هي صادَّةٌ عن النظر في كتاب اللَّه والاهتداء به.

ولا يعمل هٰذا إلا أحد رجلين:

رجل مارق من الدين، يتعمد إفساده ويتوخىٰ إضلال أهله، فيلبس لباس الدين، ويَظهر بمظهر أهل الصلاح، يخادع بذٰلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول.

ورجل يتحرىٰ التأويل[1] ويستنبط الحيل، ليسهِّل علىٰ الناس مخالفة الشريعة، ابتغاء المال والجاه».

قال صاحب «المنار»: «ثم ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبلُ، وما عليه المسلمون الآن، ذكر وقائع للقضاة والمأذونين وللعلماء والواعظين، فَسَقوا فيها عن أمر ربِّهم، فمنهم من يتأول ويغترُّ[2] بأنه يقصد نفع أمته، كما كان أحبار اليهود يُفتون بأكل الربا أضعافًا مضاعفة ليستغني شعب إسرائيل! ومنهم من يفعل ما يفعل عامدًا عالمًا أنه مبطل، ولٰكن تغرُّه أمانِيُّ الشفاعات والمكفرات».

أقول: لقد كثر الدس والتلبيس علىٰ هٰذه الأمة منذ القرن الثالث وعصر المأمون؛ حتىٰ تفاقمت الشرور في القرون الوسطىٰ، وكل هٰذا جرىٰ بحكم دقيق من الماسونية اليهودية، فاليهود هم أمةُ الخبث والإفساد، ولا تجد مذهبًا شاردًا عن صراط اللَّه، أو منفردًا للناس عن وحي اللَّه، إلا ووراءه يهودي أو تلاميذ يهود، انظر إلىٰ جعد بن درهم وجهم بن

---

(١) يقصد التأويل الفاسد ـ خاصةً ـ.

(٢) في المطبوع: «يغيِّر»، والتصحيح من «المنار».

صفوان ـ طواغيت أكثر المذاهب المبتدعة ـ، معلمهم يهودي اسمه «طالوت» حفيد لابن الأعصم ساحر النبي ﷺ[١]. وانظر إلىٰ من قبله، كعبدالله بن سبأ اليهودي ـ مؤسس المذاهب الغالية في عليٍّ رضي الله عنه وبنيه ـ، وانظر إلىٰ جد العبيد بن عبدالله بن ميمون بن القداح وذريته من منتحلي النسب الفاطمي والمذهب الباطني الهدام، أساسهم من اليهود، وانظر إلىٰ الطوائف الأخرىٰ والطرائق الضالة، كيف عملوا علىٰ تبديل حسنها[٢] وتكدير مشاربها الصافية حتىٰ أحدثوا فيها طوائف الاتحادية المتفقة مع النصارىٰ في اعتقاد اتحاد اللاهوت بالناسوت، وطوائف الحلولية الذين يزعمون أن الله يتجلىٰ في المظاهر الحسنة، ولا سيما في الأمرد الجميل، مما جعلهم يدينون الله بالرقص حوله، وبتقبيله أو بشيء آخر! وبما فتنوا به الناس من تقديس الأضرحة[٣] ـ حتىٰ ولو كان المقبور فيها مجهولًا أو حيوانًا ـ.

وقد وضعوا أوضاعًا مختلفة من ضروب الصور[٤] تُقعد الأمة عن الجهاد، وتجعل بعضهم يهيمون في الفلوات، ويألفون المزابل والمغارات، وأحدثوا بدعة الزوايا بدلًا من المساجد[٥]، وكما عبثوا في المتدينين[٦] عبثوا في العلماء والمتكلمين، فأنشؤوا الخلافات المذهبية فيما بينهم، حتىٰ جعلوهم أحزابًا متناحرة، وأضاعوا طاقاتهم، كما غزَوا الطبقات العالية بأنواع الترف والميوعة واللهو والسُّكر، وركزوا من يحتل الصدارة عند الحاكمين ليخدم أغراضهم... إلىٰ غير ذٰلك من

---

(١) يقصد الذي سحر النبيَّ ﷺ.

(٢) يقصد حُسنَ الأمة ـ الذي بيَّنه في أول الفقرة قبل تسعة أسطر ـ.

(٣) تحرفت في المطبوع إلىٰ «الأصرخة»!.

(٤) كذا في المطبوع، ولعله يقصد: من صور الفساد والإفساد.

(٥) يقصد الزوايا التي يمارسون فيها طقوسهم المبتدعة، كالرقص والطواف حول القبر، وغير ذٰلك من خرافاتِ الصوفية.

(٦) يقصد عوام المؤمنين.

مكر الماسونية اليهودية في تلك العصور التي هيأت الفرصة لغزو التتار ثم الصليبيين.

ولٰكن مع كلِّ هٰذا فالأمة المحمدية أمةٌ مرحومة ـ مهما ابتليت بمشابَهةِ اليهود والنصارىٰ، ومهما عبثت الماسونية بعقائدها وأخلاقها؛ فإن اللَّه ﷻ حباها بمكرُمتين:

إحداهما: أنها لا يزال فيها طائفةٌ منصورة قائمةٌ بالحق، لا يضرها من خذلها، ولا من خالفها، حتىٰ يأتي أمر اللَّه، وهم علىٰ ذٰلك ـ كما نص علىٰ هٰذا الصادق المصدوق ﷺ[(١)] ـ.

وثانيتهما: أن اللَّه تعالىٰ قيَّض لدينه من يذُبُّ عنه تحريف الغالين[(٢)]، وانتحال المبطلين[(٣)]، وتأويل الجاهلين ـ كما ورد الحديث الصحيح المشهور بذٰلك[(٤)] ـ.

هٰذا زيادةً علىٰ حفظ اللَّه للقرآن؛ فكل هٰذه الأمور من معجزات نبينا ﷺ؛ فحفظ القرآن لنا من أعظم النعم، خصوصًا إذا أضيفت إليه هاتان المكرمتان.

والمقصود التنبيه علىٰ ما حصل، وعلىٰ ما يعمله أعداؤنا ضدنا، لنكون علىٰ حذر، ولا نغترَّ بالأماني، ولا نسلك مسالك المغضوب عليهم، فيكون لنا نصيب من ويلاتهم؛ فإنهم يستخدمون الدين ويخلقون في إطاره البدع.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الويل في اللغة العربية: الهلاك وشدة العذاب، سواء كان في قعر جهنم أو في وادٍ عمقه أربعون خريفًا ـ كما ورد به الأثر[(٥)] ـ، أو هو

---

(١) رواه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢١).
(٢) **الغالين**: أهل الغلو والضلال.
(٣) **المُبطِلين**: المكذِّبين.
(٤) رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (ح١٣٢).
(٥) رواه التِّرمذي (٣١٦٤).

الوادي الذي يسيلُ فيه صديد أهل النار؛ فإن للمفسرين عدةَ وجوه في ذٰلك، ويجمعها شدة العذاب، مهما كان نوعه أو موقعه. وإنما استحقوا ذٰلك لافترائهم علىٰ اللَّه بكل إصرار فيما يكتبونه بأيديهم حسب أهوائهم ومطابقةِ مصالحهم، ثم ينسبونه إلىٰ اللَّه، لأغراض نفسية وأطماع مادية، ولذا يقول اللَّه سبحانه: ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، والثمن القليل: هو أغراض الدنيا وأعراضها ـ مهما كثرت أو تضخمت ـ؛ فإنهم مهما حصلوا علىٰ ذٰلك من وجاهة عند العامة، أو نالوا من المال الكثير والهدايا والتحف الثمينة، فإنها شيء قليل بالنسبة لما أضاعوا من حظوظهم العالية عند اللَّه؛ فإن أدنىٰ حظ يحصل عليه الإنسان من اللَّه تعالىٰ لا تعدله الدنيا قيمةً، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

فهم ـ والعياذ باللَّه ـ باستبدالهم أغراضَ الدنيا وأعراضها بحظوظهم من اللَّه، خسروا أنفسهم، وكان حظُّهم الويل المضاعف، حظهم الويل الذي هو شدة العذاب ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكذب والبهتان، ولهم الويل مرةً أخرىٰ ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من مال ووجاهة ورئاسة، يتذوقون شدة العذاب علىٰ هٰذا وعلىٰ هٰذا، فالويل والهلاك محيطٌ بهم ونازل عليهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد، وتأكيده سبحانه لتهديهم في أول الآية وآخرها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لإفادة أنهم تولَّوا الكتابة بأنفسهم ولم يأمروا غيرهم من روادهم بها، بل باشروا كتابة الكذب والافتراء علىٰ اللَّه بأيديهم علىٰ علم منهم وتعمد وإصرار، بكتابة الباطل وإخفاء الحق ونسبة ذٰلك إلىٰ اللَّه، ولهٰذا استحقوا مضاعفة الويل من صديد أهل النار في أسفل جهة، علىٰ ما كتبت أيديهم من ذٰلك، وعلىٰ ما يكسبونه من الخطايا من جميع ما يعمل بأسباب تحريفهم وكتابتها من كل ظلم وكفر وفسق وجور إلىٰ يوم القيامة، ولهٰذا عبر اللَّه بلفظ المضارع في الاكتساب دون الكتاب قائلًا: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، لأن الكتابة مضت وانتهت، ولٰكن

آثارها السيئة باقية؛ لأنه يُعمل بها، ويعتمد عليها، ويساء إلىٰ اللَّه، وإلىٰ صالحي خلقه بسببه، فمساوئ الاكتساب بسببها باقية خالدة، وهٰذا كما قال ﷺ: **«مَن سَنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَن عمل بها إلىٰ يوم القيامة، ومَن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً فعليه وزرُها ووزرُ من عمل بها إلىٰ يوم القيامة»**(١).

ومما حرفوه ضد التوراة، وافتروا به علىٰ اللَّه: كتمانهم لذكر النبي محمد ﷺ وصفاته، وإبقائهم ذكرَ الدجال، وتكرير قصته، وطمسهم لآية الرجم، وتقييدهم النواهي فيما بينهم دون الناس؛ كقولهم: «لا تسرق من يهودي، لا تقتل إسرائيليًّا، لا تأخذ الربا عليه»، إلىٰ غير ذٰلك ممَّا سنوضح بعضه، فقد وضعوا في التلمود إباحة الكذب والأيمان لمصلحة اليهود ـ ولو كانت زهيدة ـ، كما ذكروا: «اقسم عشرين يمينًا كاذبًا كي تنفع يهوديًّا بفِلس». وفي «سِفر يشوع»: «أن يشوعًا عاهد أهل «أريحا»، وما كان اللَّه يرىٰ هٰذا العهد ـ إن صح هٰذا التعبير ـ حتىٰ أرغىٰ وأزبد وأمرهم بالنقض؛ لأن أهل «أريحا» من الأمميين ـ أي غير اليهود ـ، وليسوا جديرين بمعاهدة أبناء اللَّه وأحبائه، وصفوة خلقه، أمرهم بالنقض وشفعه بقوله: اقتل صغيرًا كبيرًا، بقرًا جِمالًا حميرًا اجعل المدينة تلًّا...»، وحرفوا الوصايا بقيود كاذبة افتروها علىٰ اللَّه كمثل: «لا تقتل ـ يعني يهوديًّا ـ، لا تسرق ـ يعني من يهودي ـ، لا تزن ـ يعني بيهودية ـ، لا تشهد بالزور ـ يعني علىٰ يهودي ـ...»، وأباحوا لليهودي أموال وأعراض وديار وكرامات غير اليهود من الأمم الذين يطلقون عليهم اسم: «الأمميين».

واليهود منذ فارقهم موسىٰ أخذوا يزعمون أن لديهم وحيًا مكتوبًا ووحيًا غير مكتوب، كي يلصقوا جميع خرافاتِهم وأغراضهم الملعونة ومفاهيمهم الملتوية بالوحي الموسوي، ومن جملة افترائهم علىٰ اللَّه

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

كتابتهم: «مباح لإسرائيل ـ بل يفرض عليه ـ قتل من أمكنه من الجوييم (ويراد بِهٰذه الكلمة كل شخص غير يهودي)، ويباح ـ بل يفرض ـ اغتصاب ماله وسرقته، وليكن مبدؤكم أولًا: المساواة في المذاهب والأديان والوحدة، ثم تُشن غارة علىٰ الكنيسة، فكل حزب وكل ثورة تقرب لنا الطريق وتوصلنا بعد أوان لغايتنا القصوىٰ. إن أملاك غير اليهود تعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهودي أن يمتلكه، إن اللَّه قد منح اليهود السلطة علىٰ مقتضيات الشعوب. إن لآدم زوجة شيطانية اسمها «ليليت» تزوجها (١٢) سنة، فولدت له الشياطنة «غير اليهود»، ولذا فجسمهم جسم إنسان، وروحهم روح حيوان، لا تُشفق علىٰ الشياطين ولا ترحم، غشهم، سلم عليهم، واهزأ بهم في قلبك، السرقة منهم هي استرداد لمالك الذي سلبوه، أموالهم مباحة، سفك دمهم قربان لإلٰه إسرائيل، اللَّه يكافئ علىٰ قتلهم، احلف واشهد زورًا لتسلب مالهم وممتلكاتِهم، فرقنا اللَّه بينهم لنسخرهم كحيوان إنساني».

هٰذه النصوص الخبيثة الخطيرة كثيرة جدًّا في أسفار التلمود، لا سيما أسفار «مجيلا، وشؤبين، وجياموت». وهناك أبشع منها كقولهم: «من رأىٰ أن يجامع أمه فسيؤتىٰ الحكمة، ومن رأىٰ أن يجامع أخته فمن نصيب نور العقل، ازنِ بالذكور والإناث من غير اليهود؛ لأنهم حيوانات. واليهود أحب إلىٰ اللَّه من الملائكة، واليهود من عنصر اللَّه، كالولد من عنصر أبيه، ومن صفع اليهودي كأنه يصفع اللَّه، ولولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض، واحتجبت الشمس، وانقطع المطر، وما سوىٰ اليهود فهم كلاب وخنازير، يحرم علىٰ اليهودي العطفُ عليهم، وكل شر يفعله بهم فهو قُربىٰ إلىٰ اللَّه».

وقد أعرضتُ عن ذكرِ شيءٍ كثير خجلًا من كتابته، طهَّر اللَّه طروسنا من هٰذا الرجس، ومما تقرؤه ـ أيها القارئ ـ وتسمعه ـ أيها السامع ـ من إباحة اللواط والزنا بغير اليهود، تلمس أن مذهب الشيوعية الماركسية اليهودية منبثق من ذٰلك.

هٰذا وإن تلك الافتراءات التي ذكرنا النزر اليسير منها من كتاب «المشنا والجمارا والتلمود» وتفاسيرها الفضيحة المشبعة بالتعالي والأنانية، والصلف والجرأة علىٰ اللّٰه، قد حدت بالماسونية اليهودية إلىٰ سبك تقاريرها في محافلها المختلفة منذ عشرات القرون إلىٰ هٰذا القرن، ضد جميع الأمم والشعوب عامةً والمسلمين خاصةً، من عرب وعجم، لقد عملت علىٰ بث بذور التفرقة والشقاق في كل ناحية، وخصصت رجالًا يدخلون في الدين ليفسدوه ويخلطوه علىٰ أهله، إما بالإفراط أو بالتفريط، وبث البدع والخرافات ونشر المنطق والفلسفة، لتعميق الزندقة والإلحاد، واختلاق عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة علىٰ رسول اللّٰه ﷺ، في مدح بعض الأطعمة والبلدان والقبائل والأعمال والمكان، وغير ذٰلك من الطرائق المحدثة، ومدح بعض الأشخاص والقبور والأعمال المحدثة.

وقد كسبوا أدمغةً وأقلامًا تعمل لحسابهم ومصالحهم من حيث نشعر أو من حيث لا نشعر. وقد أقاموا الفتنة علىٰ عثمان رضي الله عنه، ولعبوا دورًا كبيرًا في عهد عليٍّ رضي الله عنه، مع كثرة ما اختلقوا له من الأحاديث بإيحاء التلمود كقولهم: قال رسول اللّٰه ﷺ لعليٍّ: «إذا مت فغسلني وحنطني، وألبسني وأجلسني، أخبرك بما يكونُ إلىٰ يومِ القيامة».

وأنشؤوا بدعة القدرية والاعتزال وغيرها من فرق الجهمية المتشعبة، وعملوا علىٰ الإطاحة بالدولة الأموية ـ حامية الدين والعروبة، وقامعة كل بدعة ـ، وكسبوا أبا مسلم الخراساني الذي قام علىٰ أساس: «إن استطعت ألَّا تترك بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل». حتىٰ قيل: إنه قتل مِئة ألف بيده ومئات الألوف بسببه، وأقام دولة عجيبة حصل في عهدها من الشرور ما اللّٰه به عليم، وأقاموا دولًا أخرىٰ من الفاطميين الكاذبين الباطنيين الشيوعيين والقرامطة الذين هدفهم إفناء العرب، والذين قال الأصمعي في أمثالهم:

لو كنتَ سائلهم عن أصل دينهمُ فـإن ديـنهمُ أن يُقـتلَ العـربُ

ثم عملوا علىٰ إغراء التتار من جهة، والصليبيين من جهة علىٰ غزونا، وأجروا من الفضائح ما يندىٰ له الجبين، وأغروا نصارىٰ العرب علىٰ خيانة المسلمين ومساعدة الغزاة، فجرىٰ علينا من خيانتهم فجائع وفضائح سجلها واعترف بها قادة الغزو ـ كاعتزاز بهم وافتخار ـ. وأفراخ الإفرنج والماسونية في هٰذا الزمان يقلبون الحقائق زاعمين أن إخوانهم النصارىٰ قد شاركوهم المآسي، ولٰكن فضحهم اللّٰه من تقارير قادة الغزو.

ثم ركزوا مهمتهم في «الغزو الثقافي» حسب وصايا المحافل الماسونية الناجمة من أكاذيب أسلافهم، سبكوا الجيل الجديد بطريق التربية والتعليم، كما أوصىٰ بذٰلك المحفل الثالث عشر الماسوني قائلًا: «تجب تربية الأطفال وفق منهاج مقرر من قِبَلنا، إن السيطرة علىٰ الشبيبة من أولىٰ غايات الماسونية وأهدافها، دع الكهول والشيوخ جانبًا، وتفرغوا للشباب، بل تفرغوا حتىٰ للأطفال، إذ الانطباعات الأولىٰ لا تنسىٰ، وعليه يجب أن تبنىٰ هٰذه الانطباعات علىٰ أساس أفكارنا، ولابد من تربية للأطفال بعيدة عن الدين».

إن الماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية والجمعيات الموسيقية والدورات لإدامة نفوذها في أوساط الشبيبة، وتصر مضابط المؤتمر الماسوني عام (١٩٠٠م) علىٰ ما نصه: «إننا لا نكتفي بالانتصار علىٰ المتدينين ومعابدهم، إنما غايتنا الأساسية هي إبادتُهم من الوجود، وإن النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة».

وقد جُعل لهم ما أرادوا، وكسبوا أغلب شباب الأمة، كما قرروا ـ أيضًا ـ عام (١٩٢٣م) في محفلهم بأن الجمعيات الرياضية والفرق الموسيقية التي تربي الناشئة هي المرتع الخصيب لنمو الماسونية فيها، ويمكن إضافة المكتبات والدورات وغيرها لجلب الكبار. وكما قرروا في بروتوكولاتهم أنهم كسبوا ـ بواسطة المربيات المتخرجات علىٰ

أفكارهم في بيوت الحكام والطبقات العالية ـ إنشاء أولاد في تلك البيوت قد أضلتهم الحسرة والمجون المبكر الذي غرتهم به تلك المربيات وغيرهن من وكلائنا الشرعيين. وكما قالوا فيها: لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره بنشر التعصبات الدينية... إلىٰ كلام لا ينبغي ذكره وهو موجود فيها، حتىٰ قالوا: لقد فصلنا بين قوة الدولة والشعب، فجعلنا كلًّا في خوف من الآخر، لهٰذا لا يتحد علينا شعب وحكومة... إلخ.

ونصوصهم في محافل الماسونية علىٰ إقامة الثورات المتواصلة معروف لا نطيل بذكره، خصوصًا في مقام التفسير، والوقائع شهدت بحصول جميع ما قرروه تمامًا من إفساد الشباب، وتلقينه مبادئ خاطئة، وإحداث الاضطرابات والفوضىٰ، وإحداث مجتمعات الكراهية فيمن حولهم من الشعوب، بحيث انعدمت المحبة الصحيحة، وفقدت الثقة بين كل واحد والآخر، والعجب أنه مع اتضاح فسادهم وتخريبهم للعالم تجدهم المسيطرين علىٰ أزمَّة الأمور في أغلب دول العالم الراقية، فكيف بغيرها! لأن لهم ركائز في جميع المرافق الدولية والميادين، كما اعترف بذٰلك كبار الحكام في أوروبا حتىٰ قبل هٰذا القرن، وبواسطة تفوقهم في الثروة واستيلائهم علىٰ أغلب ذهب العالم يقومون بأزمات يسيطرون بها علىٰ الرأي العام في جهة، وباحتكارات عظيمة للمواد الغذائية والضرورية يتحكمون بأسعارها وفقًا لوصايا الحاخام الأكبر، وكل هٰذا نتيجة قسوة القلوب وخبث الضمائر.

ومن عجيب أمر أمة الخبث والفساد قوتُهم وسرعة تصميمهم علىٰ تنفيذ مخططات طواغيتهم من الحاخامات ومقررات محافل ماسونيتهم، وكسبهم أعظم رجال المعمورة في التنفيذ والتأييد، مع تمردهم علىٰ نصوص التوراة وتحريفها ـ وهي من عند اللّٰه ـ، وهٰكذا شأن المتتلمذين عليهم ممن تخرج في المدارس الاستعمارية وجامعاتها، التي مشت علىٰ ما خططته اليهود في الميدان الثقافي بكامله؛ فإن موقفهم من القرآن أفضح من موقف أولٰئك من التوراة، فتجدهم كأنهم أبعد الناس

عنه؛ بل أعظم سخرية به ـ والعياذ باللَّه ـ. وأعجب من هٰذا أن الكثير ممَّن يشتم اليهود ويعاديهم قد سلك مسلكهم في نبذ الكتاب ظهريًّا برفض الاحتكام إليه، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، والمسارعة في الإثم والعدوان، وأكل السحت، فما قيمةُ شتمِهم لهم؟! بل إنهم أصبحوا لا يشتمون اليهود وإنما يشتمون الصهيونية والصهاينة، ويصرِّحون بمؤاخاة اليهود ومسالمتهم، وهٰذا من أكبر المغالطات ـ بل من أجهل الجهالات ـ؛ فإن كل يهودي لابد له أن يكون صهيونيًّا بطبيعة حاله؛ فالصهيونية من ضروريات دينهم، ولٰكنهم يخادعون جميع الشعوب بالتفريق بين الصهيونية واليهودية، ليعيشوا بأمان، وليصطادوا في الماء العَكِر ما يريدون، وليعبثوا في الظلام بجميع مقدرات العالم تحت هٰذا الستار، إيهامًا وتضليلًا لأطفال العقول ـ وما أكثر أطفال العقول مع كِبَر سِنِّه وتضخم شعره ـ؛ بل ما أكثرَ الشعْرَ بلا شعور، وأكثر الأجسام بلا أذهان ـ! ألا فاعلموا أن التفريق بين «الصهيونية» و«اليهود» خداع صادر من مكر اليهود.

ومن المستحيل أن يوجد يهودي لا يعمل لصالح دولة إسرائيل المزعومة، ولٰكن يا للعقول وزيغة الأذهان! إن اليهودية سرطان قد صنعت بيدها جمعيات سرية وجواسيس محنكين، يتقمصون أسماءً وأعمالًا ووظائف شتىٰ في أغلب ربوع العالم، ليستعينوا بواسطتهم ببعض الناس علىٰ بعض، ويضربوا بعضهم ببعض، ويتخذوا منهم دروعًا زمنية، أو مسوحًا دينية، أو دثارًا إنسانيًّا ولفيفًا من وكلائهم وعملائهم، في كل بلد منهم جماعة، لا تدين بالولاء إلا لهم، وتتنكر لمن سواهم ـ مهما تفيئوا من ظليل النعمة ـ.

إن اليهودي يردد في كل عام دعواته الملعونة المأفونة في أعياده السنوية ـ كعيد الحاقوكا، وعيد الغور ـ، قائلًا: «يا إلٰه إسرائيل كما أعنتني علىٰ إلحاق الأذىٰ بالحيوانات الناطقة في العام الماضي، أكمل نعمتك علي وألحق بيدي الأذىٰ لتلك الحيوانات في العام الآتي».

فأي فرق بين اليهودي والصهيوني بعد هٰذا؟!.

📖 **قال تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةًۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

هٰذا من بعض مفتريات اليهود وأمانيِّهم الباطلة، أن النار لن تمسهم إلَّا أيامًا معدودة، قالوا: إنها سبعة أيام بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل علىٰ الخلاف فيها ـ هل هي سبعة أيام أو أربعين يومًا؟ ـ.

وروىٰ محمد بن إسحاق عن سيف بن سليمان، عن مجاهد، عن ابن عباس: «أن اليهود كانوا يقولون: إن عمْر الدنيا سبعة آلاف سنة، وإننا نعذب بكل ألف يومًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة».

وقد روىٰ الحافظ أبو بكر بن مردويه حديثًا موصولًا إلىٰ أبي هريرة قال: لما فُتحت خيبر أُهدي لرسول اللَّه ﷺ شاةٌ فيها سم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اجمعوا إلي مَن كان من اليهود هاهنا**»، فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: «**من أبوكم؟**»؛ قالوا: فلان. قال: «**كذبتم، بل أبوكم فلان**». قالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «**هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتكم عنه؟**»، قالوا: نعم ـ يا أبا القاسم ـ، وإن كذَبْناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: «**من أهل النار؟**»، فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: «**اخسئوا، واللَّه لا نَخلُفكم فيها أبدًا**»، ثم قال لهم رسول اللَّه ﷺ: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**» قالوا: نعم قال: «**هل جعلتم في هٰذه الشَّاة سُمًّا؟**»! قالوا: نعم. قال: «**فما حملكم علىٰ ذٰلك؟**» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[1]. ورواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٧٧).

فمن أكاذيب اليهود وغرورهم: زعمهم أن من لم تدركه السعادة فإنه لن يدخل النار إلا أيامًا معدودة، أشهر الأقوال فيها: إنها سبعة أيام، وظاهر الآية تدل عليه.

وقد أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يرد عليهم برد مفحم دامغ، فقاله له: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. والمعنىٰ: هل أنتم جاءكم عهد من اللَّه بذٰلك؛ فاتخذتموه أمانًا لكم من الخلود في النار أو طول المكث فيها، هل عهد اللَّه إليكم بنجاتكم منها بأمر خاص بوحي خاص ومنحةٍ خاصةٍ خالصة؟ أو هل عندكم عهدٌ عام من عهود اللَّه الشرعية بإنجائكم من النار، وإدخالكم الجنة باتباعكم شريعته وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، وحمل رسالته والوقوف عند حدوده.

لابد من هٰذا أو هٰذا، فإما أن يكون هٰذا القولُ صادرًا منكم عن ثقةٍ بوعد اللَّه الذي قمتم بطاعته وسارعتم إلىٰ مرضاته، أو أن يكون عندكم عهدٌ من اللَّه بالعفو الخاص عن مساوئكم التي لا تحصىٰ، والعفو عن تقصيركم في طاعته واطراح وحيه، فإن كان عندكم أحد العهدين اللذين ترتكزون عليهما في دعواكم؛ فإن اللَّه لن يخلف عهده، وإن لم يكن عندكم شيء من ذٰلك فأنتم مفترون علىٰ اللَّه؛ لأن كل من يقول علىٰ اللَّه بغير علم ولا برهان فإنه مفترٍ علىٰ اللَّه ﷻ، فما قولكم هٰذا إلا استخفافٌ بجناب اللَّه، ومحاولة لتبديل كلماته من عقوبة المسيئ المخالف بالنار، وتنعيم المطيع المحسن للأعمال بالجنة.

هٰذه كلمات اللَّه التي حقت علىٰ الفريقين: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام]. فقولكم هٰذا ـ يا بني إسرائيل ـ مجرد افتراء علىٰ اللَّه، ومحاولة لتبديل كلماته، ولا مبدل لها، يقول اللَّه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية].

فما أعظم هٰذا التلقين من اللَّه لنبيه محمد ﷺ! إذ يقول له: قل لهم: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ ذٰلك أن قولهم لا يجوز صدوره بتاتًا إلا من أحد أمرين:

ـ إما اتخاذ عهد صادر من اللَّه، سواء كان العهد خاصًّا بالعفو عن مساوئهم، أو العهد عامًّا بمجازاتهم علىٰ إحسانهم ـ كما وعده ـ، ووَعْدُه الحق.

ـ وإما أن يكون صدوره مجرد افتراء علىٰ اللَّه، وهٰذا من أفضح أنواع الكفر، فهو أعظم من الشرك الذي لا يغفره اللَّه ـ كما سيأتي توضيحه في سورة الأعراف ـ، خصوصًا إذا كان الافتراء فيه محاولة لتبديل كلمات اللَّه في حكمه علىٰ المُعرضين عن وحيه بالخلود في النار إلا ما شاء اللَّه، وعلىٰ المطيعين المخلصين بدخول الجنة ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وإنما هو افتراء منهم يزيد في إجرامهم وذنوبهم، ولهٰذا لقَّن اللَّه نبيه ﷺ حجةً دامغةً تقمعُهم علىٰ رؤوسهم.

ثم أتاهم بالجواب القاطع والقول الفصل في هٰذه الدعاوىٰ ببيان الحقيقة الكلية ـ التي عليها مدار العقيدة الإسلامية، وتنبثق منها أغلب التصورات الصحيحة ـ، وهي أن الجزاء من جنس العمل ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ]، كما نص عليه في الآيتين (٨١، ٨٢).

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

هٰذه الآية الكريمة فيها رد لأكاذيب الإسرائيليين وتمنياتهم الباطلة، ومحاولتهم تبديل كلمات اللَّه، أو وصفهم له بالمحاباة، وأن نسبهم يشفع لهم عنده، فلا يعذبهم إلا أيامًا معدودات. وقد تقدم ذكر ما يدفع مفترياتِهم ويدحضها بأوضح منطق وأتم بيان، وأن اللَّه سبحانه لقن نبيه ﷺ الحجة القاطعة الدامغة باستفهام فيه معنىٰ الإنكار والتوبيخ،

ثم ثَنَّىٰ بذكر هٰذا الجواب القاطع والحقيقة الفاصلة الشاملة التي ليس فيها محسوبيةٌ ولا محاباة، وإنما فيها تقريرُ الجزاء علىٰ جنس العمل ـ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ـ، فقال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، فقوله ﴿بَلَىٰ﴾ ـ إلىٰ آخر الآية ـ فيها إبطال لدعواهم، وقوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ يعني: طوَّقته الخطايا من كل جانب، وحصرته وأخذت بأحاسيسه وجوانب وجدانه، كأنه محبوس فيها، لا يجد لنفسه مخرجًا منها، قد رانت علىٰ قلبه وجعلته غلفًا مظلمًا محشوًّا بالباطل، فكان بنفسه لها أسيرًا سجينًا، وهو يحسب أنه حرٌّ طليق، هٰذه حقيقةُ معنىٰ إحاطة الخطايا بالإنسان وبالناس، وسبب إحاطتها ـ علىٰ ما وصفنا ـ هو الإصرار علىٰ الخطيئة والاسترسال فيها.

وقد أشكلت هٰذه الآية علىٰ بعض المفسرين؛ بحيث فسروا معنىٰ الخطيئة بالشرك، وبعضهم اضطروا إلىٰ تأويل الخلود بالنار بطول المكث فيها، خوفًا من الالتقاء مع الخوارج القائلين بخلود أهل الكبائر في النار، ولم يفطنوا أن فتحهم باب التأويل خطيئة؛ لأنهم إذا فتحوا باب التأويل للمغرضين والمتهوكين والمسلِّطين عقولهم الفاسدة علىٰ النصوص، لم يبق نص فيه وعيد إلا تأولوه، وقد فعل ذٰلك بعض من لا خلاق له.

وهٰذه الآية ـ بحمد اللَّه ـ ليس فيها إشكال ولا غموض لمن عرف اللغة العربية، وقارن هٰذه الآية مع مدلول اللغة بالنصوص الأخرىٰ في الكتاب والسنة؛ ذٰلك أن الخطيئة مهما كبرت إذا أُتبعت بالتوبة النصوح محاها اللَّه، خصوصًا إذا أعقب التوبةَ أعمالٌ صالحة بدَّل اللَّه سيئات صاحبها حسنات، ولٰكن إذا أصر علىٰ الخطيئة حتىٰ يتبعها خطايا أخرىٰ إلىٰ أن يستحسنها فتكون له سجية، ثم يقسو عليها حتىٰ تورثه الاستهزاء بضدها والتكذيب لتحريمها، فإنها تكون شركًا وكفرًا، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وروىٰ الإمام أحمد والتِّرمذي والحاكم ـ وصححاه ـ، والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا نُكت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن تاب ونَزع صُقِل قلبه، وإن عاد زادت حتىٰ تعلو قلبَه، فذٰلك الران الذي ذكره اللَّه تعالىٰ في القرآن**: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]»[1].

ولهٰذا السبب كان السلف يقولون: المعاصي بريد الكفر.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وعلىٰ قوله في الحديث القدسي: «**لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئًا؛ لأتيتُك بقرابها مغفرةً**»[2]، قال: «إن هٰذا الحديث لا يدل علىٰ أن ما عدا الشرك كله صغائر؛ بل يدل علىٰ أن من لم يشرك باللَّه شيئًا فذنوبه مغفورة ـ كائنةً ما كانت ـ، ولٰكن ينبغي أن يعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح وتعلقها بها، وإلا لم يفهم مراد الرسول ﷺ، ويقع الخلط والتخبيط. فاعلم أن هٰذا النفي العام للشرك ألا يشرك باللَّه شيئًا البتة، لا يصدر من مصرٍّ علىٰ معصية أبدًا، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر علىٰ الصغيرة أن يصفو له التوحيد حتىٰ لا يشرك باللَّه شيئًا، هٰذا من أعظم المُحال.

ولا يلتفت إلىٰ جدليٍّ لا حظ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر ـ أو أقسىٰ ـ، يقول: وما المانع؟ وما وجه الإحالة؟ ولو فرض ذٰلك واقفًا لم يلزم منه محال لذاته، فدع هٰذا القلب المفتون بجدله وجهله.

---

(١) رواه التِّرمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٧).

واعلم أن الإصرار علىٰ المعصية يوجب من خوف القلب من غير اللَّه، ورجائه لغير اللَّه، وحبه لغير اللَّه، وتوكله علىٰ غير اللَّه، ما يصير به منغمسًا في بحار الشرك، والحاكم في هٰذا ما يعلمه الإنسان من نفسه ـ إن كان له عقل ـ؛ فإن ذلَّ المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير اللَّه، وذٰلك شرك، ويورثه محبة لغير اللَّه، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلىٰ غرضه، فيكون عمله لا باللَّه ولا للَّهِ، وهٰذه حقيقة الشرك».

إلىٰ أن قال: «وليس التوحيد مجرد إقرار العبد؛ بل التوحيد يتضمن من محبة اللَّه والخضوع له والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة، وإرادة وجهه الأعلىٰ بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلىٰ المعاصي والإصرار عليها».

حتىٰ قال: «وإذا أردت زيادة الإيضاح لهٰذا المعنىٰ؛ فانظر إلىٰ ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك، غافل ساهٍ مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلىٰ محبة غيرك وإيثاره؛ هل يكون ذكرهما واحدًا؛ أم هل يكون ولداك اللذان هما بِهٰذه المثابة، أو عبداك أو زوجتاك عندك سواء». انتهىٰ ما أردت نقله لعظيم فائدته.

وأقول: إن اللَّه سبحانه لم يقل: «ولا تشركوا به صنمًا»؛ بل قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، لأن الشرك ليس مقصورًا علىٰ عبادة صنمٍ ونحوه، وإنما هو عام في انصراف القلب عن اللَّه إلىٰ غيره، فمن انصرف قلبها إلىٰ غير اللَّه بحب أو إجلال أو تعظيم أو خوف أو رجاء أو رغبة ونحو ذٰلك، فقد أشرك مع اللَّه غيره، واتخذ للَّه أندادًا من محبوبات نفسه ورغباتها. وهٰذا النوع من الناس هو الذي إذا أذنب لم ينزع من الذنب، بل يسوف بالتوبة علىٰ الأقل حتىٰ تتراكم عليه الذنوب، وتحيط به، لوقوعه في حالة من الشرك التي صورها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هٰذا إذا لم

يتعلق قلبه بحب الطواغيت أو بعضهم، فيستحسن ما يُصدرون من مخالفة ما أنزل اللَّه تعالىٰ في أي ميدان، أو يتمنىٰ عزهم أو تفوق بعضهم علىٰ المسلمين، ونحو ذٰلك مما هو هدم لأصل التوحيد.

ولا شك أن التائب من الخطايا قبل الموت ـ في وقت تقبل فيه توبته ـ، فإنها لا تحيط به [خطيئته] ولا تطوقه فتحبسَه عن الانطلاق في مجال التوحيد والأعمال الصالحة، وإنما هي تكون كذٰلك مع عدم التوبة؛ لأن صاحبها استساغها ورضي بها، واطمأن إليها والتذ بها، ورضيها كسبًا له حتىٰ تحيط به وتأخذ بجوانب وجدانه وأحاسيسه؛ فإن في قوله سبحانه: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ تجسيمًا لهٰذا المعنىٰ، وهٰذا من خواص التعبير القرآني ليجعل له وقعًا في النفس؛ لأنه لو أحس بخسارة المعاصي ما أقدم عليها متحمسًا، ولا يسمح لنفسه أن تحبس[1] فيها، وتنغمس في أَتُونها، ولٰكنه علىٰ ما وصفنا حاله من الالتذاذ بها والاطمئنان بها، فلهٰذا أحاطت به، وكان حظه الخلود في النار لإخلاله بالتوحيد المنجي من الخلود.

فهٰذا مصير الشطر الأول في حكم اللَّه، الشطر الذي حظه الخلود في النار أبدًا، ليس مكثه أيامًا معدودة ـ كما زعمت اليهود ـ، فالشطر الأول الذي اختار لنفسه تطويق المعاصي بمواصلة الرغبة فيها وعدم التوبة منها فهو الخالد في النار.

والشطر الثاني هو من عكس الأمر، فحقق إيمانه، وصدَّقه بالأعمال الصالحة، وراقب اللَّه فيما يأتي ويذر، ولم يصر علىٰ معصية دفعته إليها شهوته أو وسوسة شيطانه، بل يذكر اللَّه، ويبادر بالتوبة؛ فهٰذا الصنف هم المؤمنون حقًّا، وهم في حكم اللَّه أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

وهٰذه الآية كغيرها من الآيات التي تؤكد للمسلمين أنه ليس للإيمان

---

(١) في المطبوع: «تنجس»، ولعل الأصح ما أثبتناه، لأنه لو قصد تنجس، لقال: تنجس بها. واللَّهُ أعلم.

وجودٌ صحيح بدون الأعمال الصالحة، وإن وجود الأعمال الصالحة دليل علىٰ وجود الإيمان، وانتفاؤها دليل علىٰ انتفائه، وإن دعوىٰ الإيمان بالقلب دعوىٰ فاسدة كاذبة يكذِّبُها[1] واقع صاحبها من حركاته وسكناته، واللَّه أعلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

وكانت الآياتِ السابقات تذكيرًا لبني إسرائيل بالنعم التاريخية والمِلية؛ وذٰلك كتفضيلهم الذي يوجب عليهم الشموخ برؤوسهم عن المعاصي، وإنجاءهم من آل فرعون ومن الغرق، وإيتاء موسىٰ الكتاب لهدايتهم، وتيسير معيشتهم، والترفيه عليهم في التيه بتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوىٰ، والآيات البينات في إحيائهم من الصاعقة، وتفجير عيون الماء من صخرة صغيرةٍ تُحمل باليد، ورفع الطور فوقهم كالظلة ليأخذوا الكتاب بقوة، ومقابلتهم لتلك النعم والآيات بالتمرد والجحود، والتعنت علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أما هٰذه الآية ـ وما بعدها ـ ففيها التذكير بأمهات الأحكام في العبادات التي هي من روافد العقيدة والإيمان، وفي المعاملات السياسية والاجتماعية مما هي من ضروريات الحضارة والاجتماع، كما فيها ـ وما بعدها ـ بيانُ ما عليه اليهود من غلظ القلوب وقسوتها، وكثرة المراء والمشاغبة، فلذا جاء اللَّه تعالىٰ بها علىٰ سبيل الإطناب؛ لما شُحنت به أذهانهم مما يسمىٰ «علمًا» خاليًا من الإيمان الصحيح والتقوىٰ، وكل علم خالٍ من ذٰلك يحجب قلوب أهله عن دخول شعاع الحق، والركون إلىٰ ذكر اللَّه، فيحصل من أهلها التعنت علىٰ الدعاة، والشرود

---

(١) في المطبوع: «يكتبها»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه.

عن طرق الخير والهداية؛ كالعلم المادي الذي يتلقاه أكثر الناس في هٰذا الزمان، مما هو من تخطيط اليهود بمكر دقيق، فالعلم الذي لا يكون مشبعًا بروح التوحيد والإيمان يكون ضرره أكثرَ من نفعه ـ إن لم يكن كله ضررًا ـ، ولذا قال تعالىٰ عنهم: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية].

كرر اللَّه تعليل اختلافهم، وإصرارهم علىٰ فعل الشرور، في سور «البقرة وآل عمران ويونس والجاثية»، وعلىٰ العكس سلف هٰذه الأمة الذين كان علمهم روحانيًّا صحيحًا، كانوا مضربَ المثل في الصلاح والإصلاح وفتح القلوب، وتطهير كل بلد تطؤها أقدامهم من الفساد والأنانية، فما أبعد الفرق بينهم وبين الإسرائيليين للاختلاف الشاسع في أصل العلم!.

واللَّه يذكر رسوله بالدور الثاني من أدوار بني إسرائيل قائلًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهٰذا النهي عن عبادة غير اللَّه مستلزم للأمر بعبادته، لأنها الأصل الأول لدين اللَّه ﷻ علىٰ ألسنة جميع الأنبياء والمرسلين أن تحصر جميع أنواع العبادة للَّه، ولا يشرَك بها غيره مهما كان، لا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، أو زعيم محبوب، أو متحكم، سواء كان من الزعماء الروحانيين أو السياسيين.

ومن مهمات العبادة: الوقوف عند حدود اللَّه تعالىٰ فيما أباحه أو حرمه أو أوجب الاحتكام إليه، فمن حرم شيئًا مما أباح اللَّه، أو أباح شيئًا مما حرم اللَّه، أو حكم بغير ما أنزل اللَّه، معتقدًا أحقيته علىٰ حكم اللَّه، فهو مشرك ـ مهما عمل من الأعمال ـ، فوصية اللَّه الأولىٰ في خلقه أجمعين: ألَّا يعبدوا إلا اللَّه، ولا يشركوا به شيئًا، ثم توثيق الصلة بين وشائج الإنسانية التي منها بر الوالدين، والإحسان إلىٰ الأقارب، والعطف والحنان علىٰ اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل؛ ولذا ابتدأ اللَّه بالأهم منها قائلًا: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، بتعظيمهما وتوقيرهما، والعطف عليهما، وطاعة

أمرهما ـ فيما لا يخالف أوامر اللَّه ـ، وعدم الشح عليهما، لأنهما قد بذلا له غاية الرعاية والشفقة، وقاما بشؤونه، وتألما لآلامه، وسهرا لسهره، وفضَّلا شهوته[1] علىٰ شهوتِهما، وراحته علىٰ راحتهما، وخصوصًا الأم؛ فإنها تمتاز بمزيد من البر والإحسان، لزيادة شفقتها وعظيم كلفتها. وقد ورد في التوراة الحكم بقتل من سب والديه، وسيأتي المزيد والمزيد من ذكر الإحسان إلىٰ الوالدين ـ إن شاء اللَّه تعالىٰ ـ.

وقوله: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ مما هم من جهة الآباء أو الأمهات؛ لأن الإحسان إليهم يقوي الروابط، فتتأصل الوشائج، فبالتعاطف والإحسان للأقربين يبلغ الاتحاد والتكاتف والتساند أعلىٰ درجات الكمال، والأمة تتألف من أُسر وعائلات، ومن ليس له بيت صالح ليس له أمة، وصلاح البيوت بالعطف والحنان والبذل والإحسان، وجميع بيوت القرابة تكون بيتًا واحدًا بحصول ذٰلك، فبحصول التراحم والتعاون بين سائر القريبين تشتد الأواصر، وتقوىٰ الروابط حتىٰ يكون أبعد الأقارب نسبًا مثل أقربهما.

فهٰذه الأوامر الشرعية هي من الضروريات الفطرية لبني الإنسان، ومن فسدت فطرته ـ فقسا علىٰ أقاربه وأعرض عنهم وابتعد بخيره منهم ـ؛ فإنه لا يرجىٰ فيه خير للأمة، ويكون محرومًا من نصرة عصبته وأقاربه، وإذا خذله القريب فالبعيد أولىٰ بالازدراء والحرمان، ومن لم تنفع فيه لُحمة النسب ـ التي هي أقوىٰ صلة بين الناس ـ، فأيُّ لحمة بعدها تصله بغيرهم من الناس، فتجعله جزءًا منهم؛ لا يمكن أن ينتفع الإنسان بغير أقاربه؛ الذين يسرُّه ما يسرهم، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسوؤهم ما يسوؤه، ويرىٰ منفعتهم منفعة له، ومضرتَهم مضرة عليه ـ وهم كذٰلك ـ؛ فإن بِهٰذا الترابط بين الأسر قوامُ المجتمعات وتكاتفها، وبانعكاس ذٰلك يحصل التفكك والانحلال وتكثر النفرة.

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: واليتيم: هو من مات أبوه حال الصغر؛

---

(١) أي: رغباته.

ولذلك قدم حقه على المسكين في جميع الوصايا الآتية ـ دون تقييد بفقر أو مسكنة ـ؛ لأن الوصية مقصودة لذاتها، لكون اليتيم قد فقد حنان والده ونصرته وعزه، ففي قلبه انقهار أصيل ينبغي من كل أفراد المجتمع اجتثاثه[١] بإسباغ العطف والإحسان والمواساة، والقيام بحفظ حقوقه، حتى لا يشعر بقهر ولا ذلة، ولا يكون فيه تعقيد؛ فإن أغلب أدواء المجتمع من الأشخاص المعقدين، واليتيم وإن كان له أم فإنها عاجزة عما يقوم به أبوه، خصوصًا إذا تزوجت وأنسلت[٢] غيره من محبوبها الأخير، فأراد اللَّه أرحم الراحمين من عباده أن يكونوا كلهم آباء للأيتام حتى لا يَفسُدُوا وتتعقد نفوسهم، وهٰذا من جملة الدلائل على عظم صلاحية دين اللَّه للناس، وموافقته لنظريتهم، وقوامته على إنسانيتهم.

أما المساكين: فهم جمع «مسكين»، وهو الذي يعجز عن تحصيل ما يكفيه؛ فينبغي الإحسان إليهم، ورفع مستواهم، وليس المساكين هٰؤلاء الشحاذين محترفي السؤال ممَّن قد يجمع أضعاف كفايته، أو يكون له رصيد، وإنما هم الذين لا يسألون الناس إلحافًا، وسيأتي في سورة «النساء» بعض التوضيح لرفعة مستواهم ـ إن شاء اللَّه ـ.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ هٰذه وصية عامة بعد الوصايا الخاصة بما يُصلح البيوت من الإحسان إلى الوالدين والأقارب، وما يصلح بعض العامة من معونة اليتامى ورفد المساكين، أوصى بِهٰذه الوصية العامة لسائر الناس، فكأنه يقول: يا بني إسرائيل، عاملوا الناس بمثل ما تحبون أن يعاملوكم به، انصحوا لهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحسن التوجيه، والقيام بالإصلاح، فليس معنى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ مجرد اللطف بالقول والمجاملة، وإنما هو ما يريده اللَّه من النصيحة بكامل أنواعها، لتسود المحبة ويعم الوئام، فتحصل

---

(١) **اجتثاثه**: استئصاله.

(٢) **أنسلت**: أنجبت.

الوحدة الروحية الكفيلة بحصول جميع أنواع الوحدة.

وبعض الناس يحرِّف الكلم عن مواضعه، ويطلب من المسلمين أن يجبنوا عن تنفيذ الأمر بالمعروف ومطالبتهم بِهٰذه الآية: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

والقول الحسن: يَحسُن في مواضعه؛ من تذكير الناسي، وتعريف الجاهل، أما المعاند الذي يسمع نداء الأذان ـ نداء اللَّه تعالىٰ ـ، ويصمُّ أذنيه ـ معرضًا أو متهكمًا ـ، فهٰذا ينبغي معاملته حسب النصوص الشرعية إلىٰ ما يقتضيه الحال.

وقوله تعالىٰ لهم: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أمر اللَّه أولًا بعبادته مجملًا؛ ليعلم كلُّ فرد منهم ومن غيرهم أنه مكلَّف بنوع من أنواع العبادة، يقيمون وجههم فيه للَّهِ وحده لا شريك له، وحيث إن بعض العبادات لا يُهتَدىٰ إليها إلَّا بهداية اللَّه ﷻ ـ وأعظم ذٰلك الصلاة ـ، اختصها بالذكر قائلًا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإقامتها بصدق التوجه إليه والخشوع التام لعظمته وجلالته، والاستكانة لسلطانه، واستشعار جنابه العزيز. وليست الصلاة مجرد الإتيان بصورتها؛ فإن الإتيان بصورتها فقط لا يؤدي الثمرة المقصودة من إصلاح النفوس وتنقيتها من أدران الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، ولهٰذا لما كانت صلاتُهم خاليةً من روحها فقدوا ثمارها، فكان نصيبهم التولي عن أمر اللَّه ونكث عهده، وهم يصلون من عهد موسىٰ إلىٰ عهد النبوة.

ولما كانت الزكاة قرينةَ الصلاة في الفرضية، وقرينتَها في التأثير، من تليين القلب، ومراقبة اللَّه بالدفع، وتطهير القلب وصيانة المال، قال اللَّه لهم: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لما فيها من إصلاح المجتمع، وبذر المودة فيما بينهم، وحسن التصرف في المال.

وقد كان لهم ضروب في دفع الزكاة، منها ما يدفعونه لآل هارون الذين يسمونهم الآن بـ«الأيوبيين»، ومنها ما يدفعونه للمساكين، ومنها

زكاة ثمرات الأرض، ومنها زكاة السبت في كل سنة سابعة يتصدقون بما يخرج فيها، ولٰكنهم لما قصروا في إقامة الصلاة قست قلوبهم عن تحقيق واجب الزكاة، واستمر أكثرهم علىٰ التمرد، ونقض العهود، والتولي عن أمر اللَّه، فلهٰذا قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾، يعني: ثم كان عاقبة أمركم ـ بعد هٰذا الميثاق الذي فيه سعادتكم وصلاح مجتمعكم، وفوزكم برضوان اللَّه الذي يعزكم، وينجز لكم وعده العاجل والآجل ـ، كانت عاقبتكم التولي عن العمل بما أمر اللَّه عن إعراض عنه وعدم اكتراث به.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ يفيد ـ بكل جلاءٍ ووضوح ـ أنهم قد انصرفوا عن أوامر اللَّه وعهده إلىٰ غير رجعة، قد صمموا العزم علىٰ عدم العودة إلىٰ ما انصرفوا عنه، ذٰلك أن الإنسان قد ينصرفُ عن الشيء وهو عازم علىٰ أن يعود إليه ويوفيه حقه، إذ ليس كل متولٍّ عن شيء معرضًا عنه ومهملٍ له بالكلية إلىٰ الأبد إلَّا بنو إسرائيل، فإنهم انصرفوا وتولوا عن أمر اللَّه، عازمين علىٰ عدم العودة أبدًا، فلهٰذا وصف اللَّه حالهم بكامل الانصراف والإعراض المستديم قائلًا: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ فليست هٰذه الكلمة تكرارًا، وإنما هي تتميم للمعنىٰ الذي هو من لوازم حالهم!.

والسبب الأصيل في ذٰلك التولي والإعراض: أن اللَّه سبحانه أمرهم ـ كما أمر من قبلهم، وكما أمر من بعدهم ـ بقَصْر أخذ الدين علىٰ وحيه المبارك، نعم؛ أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من جهة الوحي ـ لا يكون مشوبًا بمصدر آخر ـ، فخالفوا أمر اللَّه، واتخذوا أحبارهم أربابًا من دون اللَّه، يُحلون برأيهم، ويحرمون برأيهم، ويسقطون عنهم من واجب المال علىٰ رأيهم، بل يسقطون من فرائض الصلاة علىٰ حسب أذواقهم وما يرونه مصلحةً، ويُنيطون الإباحة والتحريم باجتهادهم، ويزيدون في التشريعات وينقصون، ويصنعون ما شاؤوا من الأعياد والاحتفالات والشعائر؛ مما صدق عليهم أنهم اتخذوا من دون اللَّه شركاء شرعوا

لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه؛ لأن اللَّه ﷻ هو الذي يضع الدين وحده بجميع أصوله وفروعه، وليس ذٰلك لأحد سواه ـ كائنًا ما كان ـ، حتىٰ الرسول الأمين محمد ﷺ قال اللَّه فيه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وإن العلماء كالدليل علىٰ الطريق، مستعان بهم علىٰ فهم الوحي، والحكامُ ينفِّذُونَ ذٰلك، فلا يملك أحد منهم حق التشريع في أي ناحيةٍ من نواحي الحياة، سواء كانت سياسيةً أو ثقافيةً أو اقتصاديةً أو اجتماعية؛ بل يجب حصر الاتجاه والتشريع في جميع هٰذه الشؤون للَّه وحده، وألا يجعل أحد لنفسه الخِيَرَةَ في شيء من ذٰلك دون الرجوع إلىٰ حكم اللَّه فيه والتزامه؛ لأن المشرِّع في شيء من ذٰلك يكون منازعًا للَّه في ألوهيته وملوكيته، فيخرج عن دينه وعبوديته إلىٰ عبودية الهوىٰ والشيطان، ويكون المُتبع له ولأمثاله متخذًا من دون اللَّه شركاء، يشرعون لهم ما لم يأذن به اللَّه.

وهٰذا الداء العُضال هو سرطان بني إسرائيل من قديم الزمان، ولهٰذا اعتنىٰ اللَّه بنشر مخازيهم رحمة بِهٰذه الأمة وتوعية لها، وتحذيرًا من سلوك مسالكهم، ولقد عمل اليهود علىٰ إضلال جميع العالم، وركَّزوا جهودهم في إضلال هٰذه الأمة بشتىٰ ضروب الإضلال وأساليبه، وبثوا عملاءهم ووكلاءهم في كل ناحية وميدان، وحرصوا علىٰ إضلال المتمركزين في المراكز الدينية والدنيوية، وأحدثوا من البدع والخرافات أولًا، ثم من المبادئ العصبية والمذاهب المادية آخرًا، لأنهم يلبسون لكل عصر لباسًا، فأولعُوا المتمركزين في النواحي الدينية سابقًا علىٰ تقديس المقبورين واعتقاد أقطاب وأوتاد تتصرف في الكون، وتحمي اللائذ بها من عقوبات اللَّه، وجعلوا تحت هٰؤلاء ما يسمىٰ بـ«الكبريت الأحمر» زيارته نفعها مجرب[1]؛ إلىٰ غير ذٰلك. وأَولعوا المتمركزين

---

(١) هٰكذا يزعمون؛ بل هٰكذا يكذبون.

في المراكز الدنيوية علىٰ اللهو والمجون والسكر والعربدة وإشباع الغرائز واتباع الشهوات وازدراء الدين.

ثم تفاقم شرهم إلىٰ أبعد من ذٰلك، حتىٰ عملوا علىٰ فصل الدين عن الدولة، تنفيذًا لقرارات الماسونية ـ كما تقدم ذكره ـ، وجَعلِ الحكم للمصنوعين من خلق اللَّه ـ لا للَّه ـ، إيغالًا في نقضهم لمواثيق اللَّه وعهوده.

قال صاحب «المنار»: «وقد اتبع سَنَنَ اليهود في هٰذا التشريع ـ المخالف لحكم اللَّه ـ جميعُ من بعدهم من أهل الملل، وحكم الجميع عند اللَّه واحد لا يختلف، فهو لا يخالف أحدًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]».

إلىٰ أن قال: «لو تدبر جهَّالُنا هٰذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالأقطاب والأوتاد والأبدال في تحمل البلاء عنهم ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركتهم، ولو فُرض أن هٰؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة، فإن وجودهم لا يغني عن الأمة شيئًا ـ وقد عصىٰ اللَّه جماهيرُها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به ـ؛ فقد جرت سنته في خلقه بأن بقاء الأمم عزيزةً إنما يكون بمحافظة الجماهير فيها علىٰ الأخلاق والأعمال التي تكون بها العزة، ويحفظ بها المجد والشرف، ومن لم يعتبر بآيات اللَّه في كتابه لا يعتبر بآياته وسننه في خلقه، فقدُ فتن المسلمون في دينهم ودنياهم، وحلَّ بجميع بلادهم ما حل من البلاء، وهم لا يعتبرون».

والمقصود أنه يجب علينا أخذ الحذر والحيطة من اليهود، بالابتعاد التام عن كل ما خططوه، وأن نعرف مراد اللَّه من هٰذه الآية الكريمة التي ذكرتُ بعض تفسيرها، وأختمه بأنها تنص علىٰ وحدة دين اللَّه لموسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام وغيرهما من الأنبياء، وأنها تنص علىٰ تصديق هٰذا الدين المحمدي لما قبله في أصوله، أما تعنت اليهود فقد نصت عليه كسابقاتها، وسنرىٰ في الآيات المقبلة أمرًا عجبًا من تعنتهم ومتناقضاتهم، وباللَّه التوفيق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

هٰذا الشطر الثاني مما أخذ اللَّه به العهد والميثاق علىٰ بني إسرائيل، وهو مختص بالمنهيات المحرمات عليهم، والأول مختص بالأوامر الواجبة عليهم وصبغته اجتماعيةٌ واقتصادية، وأما هٰذا الشطر الثاني فصبغته سياسية، وهو مما يدحض شبهتهم وشبهة أفراخهم من النصارىٰ وتلاميذهم من أبنائنا المصدِّقين لهم، بزعمهم أن الدين ليس له دخل في السياسة!! ووحي اللَّه مملوء من دحض شبهتهم هٰذه سوىٰ ما نحن بصدده.

ولعلك تذكر ـ أيها القارئ الكريم ـ أن اللَّه قال في الآية الأولىٰ التي تضمنت مهمات المأمورات: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقصد الذين نزلت عليهم التوراة في أول عهدهم، ثم التفت إلىٰ الحاضرين المعاصرين لمحمد ﷺ والمجاورين له في المدينة قائلًا: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، ومضىٰ الآن علىٰ هٰذه الالتفاتة قائلًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، ولا شك أن هٰذا إعلام بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد؛ يصيب خَلَفَها ما أصاب سَلَفَها من خير وشر، ما دام الخلف مستنًّا بسنة السلف ومرتبطًا به، وجاريًا علىٰ طريقته؛ كما تؤثر أعمال الشخص السابقة علىٰ بدنه في آخر عمره، فإنها تؤثر علىٰ قواه النفسية.

فالأمة الواحدة في العقيدة يستوي أولها ـ منذ بدء كيانها ـ مع آخرها إلىٰ الأبد، ما دام الآخر مرتبطًا بعقيدة الأول، ومستنًّا بسنته لم ينحرف عنها، فإذا انحرف بعقيدته وأخلاقه انفصل عن أمته وسلفه، هٰذه قاعدة مطردة لا تقبل الجدل، فلهٰذا يخاطب اللَّه يهود المدينة وقت نزول القرآن، مخاطبًا أسلافهم الذين تعنتوا علىٰ موسىٰ، ويوجه إليهم التوبيخ والتقريع والتسفيه والتهديد، كأنهم هم بأشخاصهم.

ثم إن اللَّه أكد هٰذه الوحدة في جميع الكلمات من نصوص هٰذه

الآية والتي بعدها، قائلًا ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾، فهٰذه الآيات السياسية أوضح اللَّه فيها وحدة الأمة وتضامنها بقوله: ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾، فجعل غير الرجل كأنه نفسُه، ودمه كأنه دمه، وذٰلك لاتحاد العقيدة والنسب، أما إذا اختلفا فإن العقيدة ـ أي عقيدة ـ تبطل النسب، وتقضي عليه حتىٰ تربطه تلك العقيدة التي حالف بها قومه بقوم آخرين، وهٰذا من الضروريات التي لا جدال فيها.

وكذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾، فالمعنىٰ: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يخرج بعضكم بعضًا من ديارهم، ولٰكن الواجب الوحدة السياسية المرتبطة بالعقيدة جاء خطاب اللَّه للجميع مؤكدًا تضامنهم فيما يفعلون، وإن إساءة الواحد منهم إلىٰ أخيه إساءة منه لنفسه، ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾، يشعر كل فرد من الأمة أن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم، وأن الروح التي يحيا بها والدم الذي ينبض في عرقه، هو كأرواح الآخرين ودمائهم، لا فرق بينهم في الشريعة التي وحَّدت صفوفهم وجعلت أقدامهم متساويةً في الخير والشر.

وقد خاطب اللَّه الأمة المحمدية في القرآن بمثل هٰذا الخطاب حيث قال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩]. وقال: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]؛ فأمة العقيدة الواحدة متساوية في الوجدان والشعور والأحكام والمسؤولية، ولذا يوجه اللَّه الخطاب للجميع، وعند اختلاف العقيدة تتغير هٰذه الوحدة ويرخص دم صاحبها، كما قال ﷺ: «**من بدَّل دينَه فاقتلوه**»[1]، وكما فَصَل اللَّه ابن نوح عن أهله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ يعني: أقررتم بالميثاق الذي أخذناه عليكم بقتل بعضكم بعضًا، ولا يسترقُّه، ولا ينفيه، ولا يُلجئه إلىٰ السرقة بتضييق العيش عليه. وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ خطاب من

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

اللَّه سبحانه لليهود الذين كانوا حول المدينة أحلافًا للأنصار، مؤنبًا لهم علىٰ خيانة عهد اللَّه بتضييعهم أحكام التوراة التي بأيديهم ويقرون بحكمها، فلهٰذا قال لهم اللَّه: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، يعني: إقرار أوائلكم وأسلافكم وأنتم تشهدون علىٰ إقرارهم بأخذ الميثاق عليهم، كما أنكم مثلهم بالارتباط بِهٰذا العهد والميثاق، وقد ورثتم التوراة وتحملتموها بعدهم، فأنتم معهم في المسؤولية سواء، فماذا كان منكم بعد إقراركم بِهٰذا الميثاق وشهادتكم عليه؟!.

يخبرنا اللَّه بقوله:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

فاللَّه سبحانه فضحهم، وأوضح نقضهم للعهد، مؤنبًا لهم علىٰ ذٰلك، ومتوعدًا بأعظم الوعيد قائلًا: ثم أنتم ـ يا هٰؤلاء الحاضرون ورثة السالفين ـ تقتلون أنفسكم، يعني: يقتل بعضكم بعضًا، كما كان يفعله سلفكم، مع أنكم معترفون بأن الميثاق مأخوذ علىٰ الجميع، ويخرج الآن بعضكم بعضًا من ديارهم، وذٰلك في الحروب التي جرت بين الأوس والخزرج أيام الجاهلية الوثنية؛ لأن بني قينقاع والنضير حلفاء للخزرج، وبني قريظة حلفاء للأوس، وكل فريق ينحاز إلىٰ حليفه حالة الحرب والقتال، يتظاهر هٰؤلاء علىٰ هٰؤلاء بالإعانة؛ فقوله: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ يعني: تتعاونون لتقوية بعضكم ظهر بعض، فهو تَفَاعُل من «الظهر»، وهو مساندة بعضهم ظهره إلىٰ ظهر البعض الآخر.

قال ابن جرير: وحدثني موسىٰ بن هارون قال: حدثني عمرو بن حماد

قال: حدثنا أسباط عن السدي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾، قال: «إن اللَّه أخذ علىٰ بني إسرائيل في التوراة ألَّا يقتل بعضهم بعضًا، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروا بما قام ثمنًا فأعتقوه، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب «سُمير»، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضيرَ وحلفاءَها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، فيغلبونها، فيخربون بيوتَهم، ويخرجونهم منها، فإذا أُسر الرجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتىٰ يفْدُوه، فتعيِّره العرب بذٰلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟! قالوا: إنا أمرنا أن نفديَهم، وحَرُم علينا قتالهم. قالوا: فلِم تقاتلونهم؟! قالوا: إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا، فذٰلك حين عيرهم اللَّه ﷻ فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾».

فالخطاب واضح في توجيهه إلىٰ الحاضرين المعاصرين لمحمد ﷺ.

و«الإثم»: هو الذي يستحق صاحبه الذم عليه والعقوبة، أما «العدوان» فهو الإفراط في الظلم والتجاوز فيه، ولا شك أن ما حرم علىٰ بني إسرائيل من ذٰلك فهو محرم علينا، وقد وقع منا كما وقع منهم، إلا أن بيننا وبينهم فوارق، وهي أن ما جرىٰ من بين الأمة أمر اضطراري ألجأتهم إليه الفتن التي هي من عقوبات هٰذه الأمة بدلًا من الخسف والمسخ والإهلاك العام الذي جرىٰ علىٰ من قبلهم، وقد أشار اللَّه تعالىٰ إليه بقوله في الآية (٦٥) من سورة «الأنعام»: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام]، يعني: يجعلكم أحزابًا متناحرة، يفتكُ بعضكم ببعض، عقوبةً لنا كلما فرطنا في جنب اللَّه.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾: لما بين اللَّه جريمتهم الأولىٰ، من تظاهر بعضهم علىٰ بعض في الإثم والعدوان، من القتل والسلب والإخراج من الديار، أخذ ﷻ يخبرنا عن

جريمتهم الثانية وتناقضاتهم البشعة، من فدائهم للأسرىٰ الذين حرم اللَّه عليهم بادئ الأمر إخراجهم، وهٰذا من مثارات العجب، وفيه من الاستهزاء بآيات اللَّه، وضرب بعضها ببعض، ذٰلك أنهم كانوا يتفقون علىٰ فداء الأسرىٰ، كل فريق من اليهود يفدي أسرىٰ أبناء جنسه ـ وإن كانوا من أعدائه ـ، ويعتذرون عن هٰذا بأنهم مأمورون في التوراة ـ كتاب اللَّه ـ بفداء أسرىٰ بني إسرائيل، فإن كانوا متمسكين بالكتاب، فلأي شيء قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم ـ وهم منهيون عن ذٰلك في التوراة ـ؟! فهل الأسر عندهم أعظم من القتل والإخراجِ من الديار؟! فكيف تستجيزون قتلهم إلىٰ جانب حلفائكم الوثنيين وأَنتم أهل كتاب، ولا تستبيحون تركهم أسرىٰ بدون فداء، وحكم اللَّه في الجميع سواء؟! لأن الذي حُرِّم عليهم من قتلهم وإخراجهم من دورهم نظير[1] الذي حرم عليهم من تركهم أسرىٰ بلا فداء، فما هٰذا التلاعب فيما فرض اللَّه عليهم؟! وما هٰذا الإخلال بحدود اللَّه؟! أم لا تصدقون التوراة إلَّا بفداء الأسير فقط؟! إن الميثاق السياسي الذي واثقكم اللَّه به، وشهدتم عليه، واعترفتم به، هو أربعة أمور: «ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء الأسرىٰ»، فرفضتم التصديق العملي إلا في رُبعه، وكفرتم بثلاثة أرباعه، فأيُّ ذمة تبقىٰ لكم عند اللَّه؛ والإيمان الصحيح والتصديق العملي هو التنفيذ. ألا ترىٰ قوَّتهم في تنفيذ فكاك الأسرىٰ! لهٰذا اعتبرهم اللَّه مؤمنين ببعض الكتاب وكافرين ببعض؛ لأن عدم التنفيذ لا يصدر من مؤمن، فكيف إذا نفذ ما يخالف الأوامر؟!.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾، يعني: لا جزاء عند اللَّه مقابلًا وموافقًا لمن ينقض عهده السياسي منكم، فيَعمِد إلىٰ قتل النفوس وإخراجها من ديارها، والتظاهر بالإثم والعدوان مع الوثنيين الذين ليس لهم عهد ولا

---

(١) أي: ذٰلك التحريم نظير هٰذا.

كتاب؛ ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ عند اللَّه الذي يوفي كل عامل جزاء عمله وفاقًا ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقد عبَّر اللَّه سبحانه بصيغة النكرة في سياق النفي ليعم جميع أنواع الخزي مدىٰ الحياة، و«الخزي»: هو الذل المتنوِّع المتجدِّد، والصَّغار المتجدد المتنوع، والفضيحة المتنوعة، وشماتة الأعداء، والامتهان التام، كل هٰذا عوض لهم وجزاء علىٰ ما قاموا به مما اعتبره العليم الحكيم أنه إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وكتاب اللَّه لا يتجزأ حكمه في وجوب الإيمان ـ الذي هو صِدقُ التنفيذ ـ؛ بل حكمه واحد، يجب أن يعمل به جميعًا، وأن تنفذ تشريعاته وحدوده جميعًا، لا أن يعمل ببعضه ويطرح بعضه كما فعلت يهود. وقد لاقوا جزاءهم جميعًا هم وأسلافهم، فأسلافهم لاقوا من صنوف الخزي في الحياة الدنيا بحيث لم تقم لهم قائمة، وكان حظهم الذل والصَّغار، أما خَلَفُهم المعاصرون لمحمد ﷺ، فقد لاقوا الخزي اللائق بهم علىٰ يد رسول اللَّه ﷺ، حيث أجلىٰ بني النضير وبني قينقاع ـ بعدما زلزل اللَّه حصونهم العظيمة المنيعة ذات الأسوار المتكررة ـ، وأخرجهم منها، كما أخبر اللَّه عنهم في الآية الثانية من سورة «الحشر» بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]، وحيث قتل مقاتِلة «بني قريظة»، وسبىٰ ذراريَّهم ونساءهم وأخذ أموالهم، فهٰذا خزيٌ عاجل في الحياة الدنيا، بل هٰذا من بعض أنواع الخزي الذي تذوقوه، ونال أسلافَهم أعظمُ من ذٰلك علىٰ يد «ذي القرنين المقدوني» وعلىٰ يد «بُخْتُنَصَّر» وغيرهم من جلادي النصارىٰ وسفاحيهم، ولا يزالون يتذوقون أنواع الخزي علىٰ يد حكام أوروبَّا المختلفين، إلىٰ حكام روسيا القيصريين وألمانيا النازيين، ولهم مكر عميق لم يحصل عليه غيرهم في شيئين:

أحدهما: حِذقُهم في كسب ود بعض الدول والشعوب بأحابيلَ لا يقدر عليها سواهم.

وثانيهما: تخطيطهم الدقيق لإقامة ثورات وانقلابات في ربوع العالم، يكون فرسان ميادينها عملاءَ وتلاميذ لهم صنعوهم علىٰ أعينهم بتربية خاصةٍ أو توجيهٍ خاص.

كما أن لديهم شيئًا لا يجاريهم فيه سواهم، وهو أنهم عندهم حنكة في تسخير الأموال لأهدافهم بشكل منقطع النظير؛ حتىٰ أصبحوا يتحكمون في الانتخابات العالمية، فلا يبرز رئيس في البلاد الدستورية إلا بأصواتهم.

أما العسكرية؛ فلهم ميدان السبق فيها من أصل التكوين ـ كما هو ظاهر من وصايا محافل ماسونيتهم ووصايا حاخاماتِهم وبروتوكولاتِهم الملعونة ـ، ولٰكن اللَّه من ورائهم محيط، ومن كان اللَّه خصمه فإنه ولو حصل علىٰ نصر مؤقت أو جولة إفساد؛ فإن اللَّه يجعل هٰذا سبيلًا ووسيلة لهلاكه المحتوم، وخزيه المحقق فيهم في الدنيا مهما تفوقوا في المكر والحيلة وصرف المال وكسب الأصدقاء وتربية التلاميذ والعملاء؛ فلابد أن تكون عاقبتهم الخزي بجميع أنواعه، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ من عقوبات اللَّه المتنوعة التي أولها في البرزخ في قبورهم، وثانيها بعد نشرهم مما يلاقونه من فظائع الهول التي تتضاعف عليهم قبل الحساب.

وثالثها: شدة الحساب الذي مصيرهم فيه الخسارة الكبرىٰ في نيران الجحيم خالدين مخلدين فيها أبدًا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، وهي القراءة المشهورة، وهناك قراءة أخرىٰ بالياء رجحها ابن جرير، زاعمًا أن فيها قرابةً من نصوص الآية ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ و﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

والمعنىٰ: أن اللَّه سبحانه قائم بالقسط، ولا يحابيكم كما تزعمون، وأنه ليس بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بل هو محصٍ لها ومجازيهم عليها

في الدنيا وفي الآخرة، وفي هٰذا تهديدٌ لهم ولجميع أمةَ محمد ﷺ من سلوك هٰذه المسالك المنحرفة بمعاملتهم كتاب اللَّه وفق أهوائهم، يؤمنون بما يناسبهم ويوافق أهواءهم ومصالحهم الشخصية، فيعملون به وينفذونه، ويطرحون ما سواه، كأنه ليس من وحي اللَّه في شيء، كأن الوحي المنزل صادرٌ من إلٰهين: إلٰه معظم مرهوب يعمل بما أصدره فيه، وإلٰه غير معظم ولا مرهوب فيرفض ما هو من جهته! فعلىٰ أمتنا المحمدية أن تغير موقفها من القرآن، فتعمل به جميعًا في غاية التنفيذ والتطبيق، ولا تشابه اليهود في العمل ببعض التوراة وترك البعض الآخر؛ فإن هٰذا كفر يوجب الخزي في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾:

يصف اللَّه سبحانه حقيقة أمرهم، ويبين السبب الوحيد الذي من أجله طرحوا العمل بما في كتابهم من مهمات السياسة والاجتماع، قائلًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القوم إنما عملوا ما عملوا، لأنهم فضلوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، فباعوا آخرتَهم النفيسة بأغراضهم الدنيوية الخسيسة، فتركوا أوامر اللَّه في الكتاب من أجلها، وأقدموا علىٰ منهيات اللَّه فاجترحوها لغايات يظنونها سياسية نافعة، وهي مخالفة للسياسة الحقيقة النافعة التي أرشدهم اللَّه إليها في التوراة؛ من عدم موالاة الكافر المشرك ومعاونتِه علىٰ أهل دينهم، ومن عدم إخراج أهل دينهم من ديارهم[(١)] إرضاءً لحلفائهم المشركين؛ إنه كان بوسعهم أن يلتزموا من الفريقين المشركين المتحاربين موقفًا محايدًا تامًّا لو كان عندهم للَّه ذرةٌ من تعظيم، ولٰكن تأبىٰ نفوسهم اللئيمة أن يعظموا اللَّه حق التعظيم، أو ينفذوا أوامره حق التنفيذ، أو يتقوا مساخطه حق الاتقاء، أو يثقوا بوعده الذي لا

---

(١) في المطبوع: «من دينهم»، ولعل الأصح ما أثبتناه، كما تقدم في الآيات السابقة.

يتخلف عمن صدق معه، إنهم لا يتمسكون بميثاق اللّٰه الذي أنجاهم من مخطط الإبادة عند الفراعنة، وأهلك من يريد إهلاكهم وهم ينظرون، وأنعم عليهم بنعم عَشرٍ لم تتوفر لغيرهم من العالمين، ولٰكنهم يتمسكون بميثاق أعداء اللّٰه من الكفرة الوثنيين المتحاربين، ذٰلك الميثاق الذي يجبرهم علىٰ قتال أهل دينهم، وإخراجهم من ديارهم، وتخريب حرثهم ونسلهم في سبيل من هو مخالف لهم في الدين، ومُعادٍ للّٰه ربهم ورب العالمين.

هٰكذا اللؤم اليهودي، ولؤم كل من سلك مسلك اليهود، أو تتلمذ عليهم من أهل المبادئ المادية، يسلكون ما يرونه في الظاهر ملائمًا لمصلحتهم ضد أهل دينهم، وإن كان في حقيقة الأمر غير صالح، وهٰكذا كل من غلبت عليه الأنانية يوالي الكفرة ويحالفهم، ليحاربوا معه ويحارب معهم أهل دينه ـ والعياذ باللّٰه ـ، وهٰذا من شطط السياسة التي حذرت منه كتبُ اللّٰه جميعها، وقد جرىٰ هٰذا من حكام الأندلس في آخر عهدهم، حيث حالفوا الكفار ضد بعضهم البعض، ومن العرب القوميين الذين حالفوا أغدر الكفرة ضد مسلمي الأتراك ـ مسلمي شعبها المقاتل ـ ظنًّا منهم بحسن النتيجة حتىٰ ظهرت حقيقةُ الأمر بخلافه؛ لأن اللّٰه علام الغيوب لا ينهىٰ عن شيء وفيه خير أبدًا، إذ دينه مبني علىٰ جلب الخير والمصلحة ودفع الشر والمفسدة، وهو سبحانه يعلم ضغائن الكفرة، وما يبطنونه من خبث السريرة؛ فلذٰلك جاءت أوامره ـ في التوراة والقرآن ـ بالابتعاد عنهم والتميز منهم في الشؤون الاجتماعية والثقافية، وعدم التشبه بهم ـ أو الالتقاء معهم ـ لا في الشؤون الثقافية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية، والانحياز عنهم تمامًا في الشؤون السياسية، وعدم الارتباط بهم في أي حلف ضد من تربطنا بهم رابطة الدين، كما كان الإسرائيليون يفعلون ذٰلك ـ وهم منهيون عنه في التوراة ـ طمعًا في أغراض موهومة، ورفضًا لدين اللّٰه؛ فإن اليهود ـ عليهم لعائن اللّٰه ـ من قديم الزمان ينقسمون إلىٰ فريقين، وينضمون إلىٰ حلفين أو معسكرين،

ليمسكوا العصا من وسطها كالميزان، ويلعبوا علىٰ الحبلين أو علىٰ حبال كثيرة، ويضمنوا مصالحهم ـ إن انتصر هٰذا المعسكر أو ذاك ـ، فموقف اليهود المعاصرين للبعثة المحمدية من محالفة الأوس والخزرج صورةٌ مصغرة لمواقف أسلافهم من دول النصارىٰ والفرس وغيرهم في أوائل الزمان، وموقف خلائفهم الآن من الدول المتطاحنة، وتمركزهم في كلا المعسكرين، واستغلالهم جميع الفرص، وكسبهم جميع الزعامات، وتحايلهم علىٰ كل دولة، حتىٰ وصلوا إلىٰ حالتهم المشاهدة، ليس بالحق والشجاعة والصدق والرجولة التي تلبس بها المسلمون في غابر الزمان، ولٰكن بالمكر والخديعة؛ ومع هٰذا فكل ما حصلوا عليه في «فلسطين» لا يعتبر في الحقيقة نصرًا لهم، وإنما هو تأديب من اللَّه للمفرِّط في رسالته، والمخالف لوحيه، والرافض لألوهيته سبحانه، باستباحة ما حرمه من الخمور والقمار والربا والفواحش، وإيقاظ لمن غشَّهم اليهود بسلوك هٰذا المسلك أن يتلقوا الضربات من اليهود الجبناء؛ هٰذا من جهة. ومن جهة أخرىٰ يستدرجهم اللَّه بِهٰذا النصر المؤقت المزيف كي يتجمعوا ويهاجروا من جميع أطراف الأرض، لتأتيهم ـ عند استكمال هجرتهم وسيلان أموالهم ـ ضربة عباد اللَّه القاصمة القاضية علىٰ يد من شاء اللَّه أن يستلم قيادتَها في سابق علمه، واللَّه يحكم لا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، ولا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم.

فهٰؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، وخالفوا ما أمرهم اللَّه به، وما نهاهم عنه في النواحي السياسية، وحالفوا أعداءهم في الدين ـ عن رغبة وشعور ـ ضد إخوانهم في الدين، لما كان فعلهم هٰذا عن عدم ثقةٍ باللَّه، وتفضيل لأغراضهم الشخصية علىٰ مراد اللَّه، وزهد في الآخرة وركونٍ إلىٰ الدنيا وحطامها الفاني ومنالها القصير، كان حظهم من اللَّه مناسبًا وموافقًا لحقيقة حالهم، ولذا قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

وقد أطلق اللَّه سبحانه العذاب ليعم جميع صنوف العذاب في الدنيا

والآخرة، وليفهم القارئ والسامع أن هٰذا العذاب ليس مقصورًا علىٰ عذاب الآخرة، كيف وقد قال تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور].

وما زال اليهود يتنقلون ـ من قديم الزمان ـ في صنوف العذاب في الحياة الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، وإنهم الآن يرقصون في أنواع من الخزي، فحياتُهم في قلق وخوف وانزعاج ـ مهما حصلوا علىٰ نصر وتأييد من المؤيدين ـ؛ فإن الخزي بجميع أنواعه سمةٌ لهم ومكتوبٌ من اللَّه عليهم، وكذٰلك مكتوب وحاصل علىٰ كل من تشبَّه بهم من المسلمين، فكل من عمل عملهم من مسلمي الأندلس نالوا الخزي والذلة حتىٰ الإبادة ـ والعياذ باللَّه ـ، وكل من شابَهَهم من المسلمين نال حظه من الخزي، كما حصل حتىٰ في الشرق الأقصىٰ، حيث سلط اللَّه مجوس الهند علىٰ الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهو من أعيان القرن السابع ـ: «قلت: ولعَمْرُ اللَّه لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن، فتظاهر بعضنا علىٰ بعض ليست بالمسلمين بل بالكافرين؛ حتىٰ تركنا إخواننا أذلَّاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم». انتهىٰ كلامه.

وأقول: منذ أن تعاون المحسوبون علىٰ الإسلام مع الكفار ضد دولة الوحدة الإسلامية، والمسلمون أذلاء تجري عليهم أحكام المشركين وقوانينهم الديوثية، وحتىٰ بعدما رحلوا عن البلاد لا تزال محكومة من خلفائهم بِهٰذه الأحكام، لأنهم صنعوا من أولادنا علىٰ أعينهم من يستحسن أنظمتهم ولا يستحسن حكم اللَّه، وصرنا نتخبط في فرقةٍ وشقاق بعيد، وركام من الدجل المغمىٰ عن كل حقيقة، وهٰذا من بعض عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ذٰلك العذاب الذي لا يخفف عنهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ومن ينصرهم من اللَّه؟!.

وهٰذه الآية شأنها عظيم، وهي من الآيات الدالة علىٰ أن الاسترسال

في الذنوب كفر ـ والعياذ بالله ـ.

قال الإمام محمد عبده: «في التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل علىٰ أن من يقدم علىٰ الذنوب ـ لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه؛ بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهي الله عنه وتحريمه له ـ فهو كافر به، وهٰذا هو الوجه في الأحاديث الصحيحة نحو: «**لا يزني الزاني ـ حين يزني ـ وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر ـ حين يشربها ـ وهو مؤمن**»[(١)] انتهىٰ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

يكرر الله امتنانه علىٰ بني إسرائيل بإرساله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وإيتائه الكتاب، موضحًا مواقفهم المشينة تجاه النبوات، والحقيقة التي يجب معرفتها والاعتبار بها هي إرسال موسىٰ إلىٰ فرعون، موسىٰ الذي نشأ وليدًا في بيت فرعون، وتربىٰ علىٰ النعمة والترف والدلال؛ كيف يقف أمام فرعون ـ أعظم الطواغيت وأبطش الفجرة ـ مخاطبًا له بمنطق التسفيه والتهديد!! نعم لقد تربىٰ موسىٰ تربيتين: تربية مادية مائعة في بيت فرعون، لو بقي عليها ما صلح لحمل رسالة الله ولا للصمود أمام هٰذا الطاغية، ولٰكنه حصل علىٰ تربية ثانية روحية هيأ الله لها أسبابًا جعلته يهرب من فرعون خائفًا يترقب، ويذهب إلىٰ «مدين» فيعيش عيشةَ الخفض والخشونة أجيرًا عند شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ يرعىٰ الأنعام، ويتلقىٰ المفاهيم الطيبة والتربية الروحية التي صنعه الله بها علىٰ عينه عند نبيه شعيب، يمكثُ عشر سنين، حتىٰ إذا سار بأهله فاجأته المواهب الإلٰهيَّة ـ بعد الإعداد الذي أعده الله لها ـ، فيناديه من جانب الطور الأيمن الغربي: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه]، ثم يأمره بإلقاء عصاه، فيلقيها فتكون حيةً تسعىٰ ثعبانًا مبينًا مرعبًا، ويأمره أن يأخذها

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

بلا خوفٍ مطمئنًا له أنه سيعيدها كما كانت ليقوِّي رباطة جأشه، ثم يأمره بالذهاب إلىٰ فرعون: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه]، وفرعون بطشه معروف عتيد في ملكه، قوي في جنده، عنود[1] في كفره، ظلوم غشوم متسلط، ولٰكن فوق هٰذا سلطان اللَّه، وقوة اللَّه، وحصانة اللَّه.

يقول موسىٰ لربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾ [القصص].

والسلطان مشترك بين الحجة الباهرة والقوة القاهرة، وكلاهما حصلت لموسىٰ وهارون أمام أعظم الطواغيت وأفظع الجبابرة. هنالك تأتي ثمرة الدور الثاني من حياة موسىٰ وتربيته الروحية، موسىٰ الذي بتربيته المادية يهرب من فرعون خائفًا يترقب، يعود إليه بالتربية الروحية مخاطبًا له بأصرح خطاب وأبشع تهديد قائلًا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢﴾ [الإسراء]، يجري بينه وبين موسىٰ حوار عظيم ينكر فيه ربَّ العالمين، ويقرعه موسىٰ بالقوارع العظيمة، ويريه الآيات الكبرىٰ، فلا يستطيع حراكًا أمام هٰذا التحدي، ذٰلك أن اللَّه ﷻ شل حركته وأبطل كيده، ولم يجعله يقدر إلا علىٰ التكذيب ورمي موسىٰ بالسحر ثم الاستعانة عليه بالسحرة.

انظروا ـ أيها المسلمون ـ كيف شل اللَّه حركة هٰذا الطاغوت أمام موسىٰ؛ فلم يستعمل معه حتىٰ غليظ الكلام ـ فضلًا عن التهديد ـ؛ أين ذهب بطشه؟ أين ذهبت غطرسته؟ أين ذهبت قوته وجبروته أمام موسىٰ وهارون؟ إنه سلطان اللَّه الذي خسأه وأرهبه وكبته وجمَّده، إنها حصانةُ اللَّه التي لا يغلبها غالب، والتي جعلته يتسول السحرةَ ويخضع لهم لما قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾ [الأعراف]؛ فيقول: ﴿نَعَمْ

---

(١) عنود: عنيد صلب.

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف]، يتنازل فرعون ـ بسلطته وسلطانه ـ طالبًا دحض موسىٰ علىٰ يد السحرة والمشعوذين؛ كأنه لا يملك سوىٰ ذٰلك، بل تردىٰ إلىٰ ما هو أسفل من ذٰلك؛ حيث قال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [الشعراء].

الذي يزعم أنه ربهم الأعلىٰ يعلن أنه يتبع السحرة! فهل يصبح الرب تابعًا للمربوب؟! نعم إن هٰذا الطاغية القائل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، والقائل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات]، قد أعلن علىٰ رؤوس الأشهاد استعداده لاتباع المنحطين من أراذل قومه ـ أو مربوبيه علىٰ زعمه ـ.

انظروا ـ معشر المسلمين ـ إلىٰ اضطراب هٰذا الطاغوت وتناقضه، وكيف شل اللَّه حركته عن أنبيائه: موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ورد كيده إلىٰ مسابقةٍ فاشلة بينهما وبين السحرة ـ وهو ذو البطش والظلم الشديد ـ! إن موقفه مع موسىٰ وأخيه ليس موقف المختار الطاغي، لا؛ هو موقف عكسي أرغمه اللَّه عليه واضطره إليه، ولهٰذا اتجه موقفه مع السحرة ـ لما آمنوا ـ موقفَ الجبار العنيد، وموقفه مع موسىٰ؛ موقفَ الخوار الرعديد، وكل هٰذا من حصانة اللَّه علىٰ أنبيائه وأهل طاعته الداعين إليه، ودفاعه عنهم؛ فهٰذا رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ليدافع عن موسىٰ من جهة، ويدعو قومه من جهة أخرىٰ ـ كما قص اللَّه علينا خبره في سورة «المؤمن» ـ، وقد حفته حصانة اللَّه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]، كما وقىٰ موسىٰ من قبل، فإن الطاغوت فرعون كان حريصًا علىٰ قتل موسىٰ والفتك به من أول وهلة، وكان صدره يطيش بالغيظ والغضب، ولٰكن اللَّه رد كيده في نحره، وجعله أضحوكة للعارفين؛ لٰكن الجماهير ـ التي لا عقل لها في المحسوس والمنقول ـ لم تشعر بذلة فرعون أمام موسىٰ، ولا باضطرابه وتناقضاته، ولو كان عندها إحساس ـ ولو كإحساس الحيوان ـ لشعرت؛ وكيف لا تشعر بتناقض طاغوت يزعم أنه ربهم الأعلىٰ وإلٰههم الوحيد، ثم يعلن أنه من أتباع السحرة؟!

لو كان عند الجماهير عقولٌ صحيحة، لشعروا بواقع الأمر الظاهر، ولٰكن الجماهير ـ من قديم الزمان ـ لعبة للدجالين، وطعمة للأكالين، وعبيد للطواغيت، ولذا تجد أصنام اليهود من طواغيت الشيوعية الثوريين ـ في عهد مزدك وما قبله وما بعده إلىٰ يوم القيامة ـ أنهم كبش الفداء، دائمًا يؤخذ كل شيء باسمهم، ويقتل البريء بحجة مصالحهم، وتخرب البلاد وتفقر العباد تحت شعارهم، وليس لهم سوىٰ المقامع والسياط.

لندع جماهير فرعون ومن بعده، ونرجع إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فقد كرر اللَّه تبارك وتعالى قصته في القرآن في أكثر من سبعة مواضع، ليعتبر المؤمنون الدعاة إلىٰ اللَّه ـ وعلىٰ رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم والصالحون من أمته، الداعون إلىٰ اللَّه ـ؛ فلا تخيفهم أية قوة، ولا يُرهبهم أي طاغوت، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

إن في قصة إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام عبرًا عظيمة، ولهٰذا كررها اللَّه في القرآن الكريم بضع مرات، لتنشحن قلوب الدعاة إلىٰ اللَّه بالقوة المعنوية التي تَهزأُ بالقوىٰ المادية مهما تضخمت، فيسيروا في طريق اللَّه قدُمًا غير هيابين ولا وجلين، واثقين بأن الحصانة الإلٰهيَّة التي حفت بإبراهيم وموسىٰ ستحفهم، وأن الإلٰه العظيم الذي لطف بهما ودافع عنهما؛ سيلطف بكل سالك مسلكهما إليه، ويدافع عنه ـ وهو العلي العظيم، الرؤوف الرحيم ـ، سيدفع عن الدعاة كيد الطغاة ـ حسبما اقتضته حكمته ـ، وقد تقضي حكمة اللَّه بتسليط بعض الطواغيت علىٰ بعض المؤمنين، ليرفع من شأنهم في الدنيا، مع رفعة درجاتِهم في الآخرة؛ كما جرىٰ لأناس في الأولين، وللشهيد(١) سيد قطب في الآخرين؛ فإن عدوَّه اختار قتله والإساءةَ إلىٰ سمعته، ولٰكن اللَّه رفع شأنه، وجعل له الذكر الحسن، فانتشرت كتبُه بعد قتله انتشارًا لا يمكنُ حصوله لو بقي

(١) لا يجوز إطلاق لفظ «الشهيد» علىٰ شخص بعينه إلَّا من شهد له الشرع المطهر، ونحن نسأل اللَّهَ تعالىٰ أن يتقبله في عِداد الشهداء.

حيًّا، ولٰكن حكمةُ اللَّه البالغة، ورحمته الواسعة اقتضت تسليط الطاغوت عليه ليعرفه من لا يعرفه، وليصليَ عليه جماعات المسلمين ـ مئاتِ الملايين ـ في مشارق الأرض ومغاربها، ويدعوا له، ويشفعوا له، وتنكشفَ لهم حقيقة الطواغيت وخبث سريرتهم وإفكهم في دعايتهم، ولتُشترىٰ كتبه وتصانيفه وتنتشر في جميع الآفاق، وقد انتشرت ـ بفضل اللَّه ـ حتىٰ تكرر طبعها بشكل منقطع النظير، وتُرجمت إلىٰ عدة لغات وانتفع بها خلق كثير، انكشف لهم بها حقائقُ لم تكن لتنكشف لولا قتله، ولا يبعد أن يكون قاتلُه قد ندم علىٰ قتله ـ إن كان قد أحس بأنه أحياه من حيث يقصد إماتته ـ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء].

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: أعطيناه و«الكتاب» هو التوراة، وهو من أمهات الكتب السماوية.

وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يعني: وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض، كما يقفو الرجلُ الرجلَ إذا سار في إثره من ورائه، يقال: «قفوت فلانًا» إذا صار خلف قفاه، فصار اشتقاق «قفَّينا» من القفا.

و«الرسل» جمع رسول، وهم أنبياء اللَّه المرسلون، وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ ما يفيد أنه أتبع بعضَهم بعضًا علىٰ منهاج واحد وشريعة واحدة؛ لأن كل من بعثه اللَّه نبيًّا بعد موسىٰ عليه السلام إلىٰ ـ زمن عيسىٰ عليه السلام بعثه بالأمر لبني إسرائيل أن يقيموا التوراة بالعمل بما فيها، والدعوة إليه والعمل بما كان يعمله، فلهٰذا عبَّر اللَّه بِهٰذا التعبير.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، يعني: آتيناه المعجزات البينات الواضحات من إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذٰلك من الشواهد علىٰ صدق نبوته، وزدناه بتأييدنا له بروح القدس، وهو جبريل، أو الإنجيل، أو الروح الذي يُحمىٰ به الموتىٰ؛ ذلك أن «الروح» مشترك بين روح الوحي وبين مَلكٍ يقال له «الروح»[1]، وبين جبريل، والروح التي في الإنسان وغيره، والأصح أنه

(١) لا أعلمُ في هٰذا دليلًا صحيحًا عن المعصوم ﷺ، وهو أمرٌ غيبي لابد له من =

جبريل؛ لأن الإنجيل وإن كان روحًا تحيا به القلوب، لٰكن ليس هو المقصود من روح القدس، بل روح القدس معنًىٰ زائد علىٰ الإنجيل.

والحاصل أن اليهود يحتجون علىٰ إعراضهم عن القرآن وعدم الإيمان بمحمد ﷺ وعنادهم له: بأن لديهم كفايةً من الهداية والنبوات، وأنهم ليسوا بحاجة إلىٰ دين جديد ووحي جديد، هٰكذا يحتجون بِهٰذا الكلام ويتبجحون، ولٰكنَّ اللَّه فضحهم في هٰذه الآية الكريمة وأوضح سوء تصرفاتهم مع أنبيائهم المنبئةَ عن خبث سرائرهم وقبح طباعهم، فأبان اللَّه سبحانه أنه أردف عليهم إرسال الرسل بعد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كيوشع، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيىٰ، وغيرهم ـ، إلىٰ دَور عيسىٰ الذي زوده بمعجزاتٍ باهرة قاهرة، تشهد علىٰ نبوته، فماذا كان منهم لقاء تلك النبوات؟! هل انصقلت قلوبُهم؟! هل صفا وجدانُهم؟! هل حسُنت سريرتُهم؟! هل تغيرت أحوالهم من سيئ إلىٰ أحسن؟! أو من سيئ إلىٰ أسوأ؟!.

إن اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفضحهم ويبين موقفهم المشين من أولٰئك الأنبياء بيانًا لا يقدرون علىٰ إنكاره، وهو أنه كلما جاءهم رسولٌ من رسل اللَّه ـ بغير الذي تهواه أنفسهم ـ استكبروا عليهم تجسرًا وبغيًا وعنادًا وإصرارًا علىٰ الأنانية، واتباعُ الأهواء استكبارًا يزيد عن استكبار إمامهم إبليس، فكذبوا البعض منهم، وقتلوا البعض، فلهٰذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؟! إذن ما فائدة إرسال الرسل إذا لم يوقَّروا ويطاعوا وينصروا؛ ثم ما معنىٰ تبجحاتهم باكتفائهم بهداية أنبيائهم وهم لها رافضون؟!.

إن محاولة إخضاع هداية النبواتِ لأهواء البشرية المختلفة المتجددة لا تكون إلا في قلوب فاسدة، قد فسدت فطرتُها، فاتجهت إلىٰ غير اللَّه من عبادة الأهواء والشياطين؛ ذٰلك أن الأنبياء الذين

= ثبوت قاطع.

يحملون رسالة اللَّه يجب أن يطاعوا، وأن يُخضع لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، لا أن يَخضع الدعاة وما جاؤوا به من الحق للأهواء البشرية والنزوات الأنانية؛ فإن ما جاءت به رسل اللَّه يجب أن يكون هو المرجع للبشرية، وأن تتكيف به في جميع شؤونها ـ تصورًا وقولًا وعملًا ـ؛ يعني: تكون جميع تصوراتها نابعةً منه، وأقوالها مستندةً إليه، وأفعالها مرتكزةً عليه، لا أن تعكس الأمر فتكيفه علىٰ حسب الأهواء المتقلبة وحاجات النفوس المتجددة؛ فإنها حينئذٍ تخرج به عن حقيقة الهداية التي جاءت رسل اللَّه من أجلها، ولا يمكن للإنسانية أن تَهتدي بأهوائها، أو تقليد آبائها أو زعمائها وسادتها المتقلبين؛ بل الإنسانية لا تَهتدي إلا بوحي السماء الذي لا يعرف الميل مع الهوىٰ، فهو الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الغضب والفقر والغنىٰ والعز والذل والصحة والمرض، أما غيره من المصادر الإنسانية، فهي عمايةٌ وضلال؛ لأنها تتقلب وتتأرجح مع الشهوة والهوىٰ، والغضب والرضا، والأطماع والنزوات، وسائر أغراض النفس التي تريد إخضاع الحق للهوىٰ، واللَّه يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]

آفة بني إسرائيل منذ القدم هي تحكيم الأنانيات والهوىٰ والشهوات، وجعلها تتحكم في وحي اللَّه تعالىٰ ورسالته، ولهٰذا قص اللَّه علينا ـ معشر المسلمين ـ من أخبار بني إسرائيل تمردهم علىٰ وحي اللَّه ورسله، ليفضحهم من جهة، ويحذِّرَنا من سلوك شيءٍ من مسالكهم من جهة أخرىٰ. لقد كشف اللَّه باطلهم، وأوهىٰ حججهم، وبين موقفهم السيئ من أنبيائهم، نعم لقد كان في بعض أوائلهم خير، حيث اتبعوا الأنبياء، وجاهدوا معهم لنشر دين اللَّه ـ الإسلام ـ، وإقامة حكمه علىٰ المتمردين منه، كما جرىٰ من أصحاب يوشع بن نون، والصادقين من قوم داود، ولٰكن خلف فيهم خلوف، صاروا مَثَلَ السوء وأئمة السوء إلىٰ يوم القيامة، مما قضىٰ اللَّه بسلب الإمامة والقيادة منهم،

وتسليمها لبني إسماعيل.

واللَّه سبحانه ـ إذ يوبخهم في هٰذه الآية الكريمة، ويفضح أكاذيبَهم فيما يزعمون ـ؛ ليعلِّم أمة الرسالة الجديدة والتوحيد أن ليس عند هٰؤلاء إلَّا المزاعم الباطلة، وأنهم قد قابلوا أنبياءهم أسوأ المقابلة، من التكذيب والقتل ـ لما بلغت قلوبهم من شديد القساوة التي وصفها أقسىٰ من الحجر ـ، وكما أن في هٰذه الآية تبكيتًا لهم وتكذيبًا وفضيحة؛ فإن فيها تحذيرًا لأمة محمد ﷺ من سلوك ما يوجب قسوة القلب، وهو عدم الخشوع لذكر اللَّه ووحيه، وعدم الانطباع والتأثر به، كما قال تعالىٰ في الآية (١٦) من سورة «الحديد»: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ فإن هٰذه سنةٌ اجتماعية في سيرة البشر المعهودة من قديم الزمان؛ ذٰلك أنهم بادئ الأمر يتعظون بالمواعظ، ويحسن تدبرهم للوحي، فإذا طال عليهم الأمد أو ازداد عليهم الرغد، قست قلوبُهم وذهبت منها آثار المواعظ، ففسقوا عن أمر اللَّه.

وقد عمل اللَّه علىٰ حماية هٰذه الأمة المحمدية من مجموع ذٰلك ـ لا من بعضه ـ؛ وذٰلك بحفظ القرآن عن التحريف، وإقامة طائفة علىٰ الحق داعية إليه؛ لأن تحريف الأوائل يضر جدًّا بقدسية الأواخر وسيرتهم، فأصلح اللَّه سلف هٰذه الأمة، وعصمها من التحريف، فلم يبق من قسوة القلوب سوىٰ التمادي في الشهوات أو التكالب علىٰ الحكم والأنانية الذي يحصل بسببه الاعتداء علىٰ ورثة الأنبياء، وهم الدعاة الصادقون، فأجرىٰ اللَّه تحذيره لهٰذه الأمة من تقليد اليهود في قتل الدعاة؛ سواء كان قتلًا حسيًّا بإزهاق الروح والدم، أم قتلًا معنويًّا بإخراسهم وكَبْتهم، وفرض الرقابة علىٰ منابرهم ومؤلفاتِهم، أو الجناية علىٰ ضمائرهم في شرائها بثمن أو توظيف؛ لتكون «نجوة» للمفرخين، فإن القتل المعنوي أفتك في المجتمع من القتل الحسي.

وفي قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، ملاحظة عظيمة في نظم القرآن للتفريق بين الجريمتين ـ جريمة التكذيب، وجريمة القتل ـ؛ فقد أتى بجريمة التكذيب بصيغة الماضي: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، وأتى بجريمة القتل بصيغة المضارع: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل: «وفريقًا قتلتم»؛ وذلك لأمرين:

أحدهما: لاستحضار صورة هذه الجريمة الفظيعة في النفوس، وتصويرها في القلوب، وتمثيلها في المسامع وتجسيمها، حتى تبقى متمثلةً في الخيالات، وإن مرت عليها القرون الطويلة؛ لأنها جريمة لا تتلاشى سمعتها، ولا تفنى آثارها، فجِدتُها لا تَخلَقُ ولا تبلى، وشَخبُ[١] دمها لا يزول عن الأبصار، فالتعبير القرآني يجسِّم صورة هذه الجريمةَ البشعةَ لتبقى كنكتةٍ في قلوب المتأخرين إلى يوم القيامة.

وثانيهما: أن تعبير اللَّه عن هذه الجريمة بصيغه المضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لما يعلمه في سابق علمه من استمرارهم على قتل الأنبياء ـ إذ لم يكتفوا بالجحود ـ، وقد عملوا فعلًا على قتل نبينا محمد ﷺ حيث وضعوا السم في الشاة[٢]، ولكنَّ اللَّه عصمه ممَّا يريدون، وأبقى حياته مدة استكمال وحيه، المتمم لرسالته، والمُبقي لها خالدةً إلى يوم القيامة، ثم توفاه اللَّه وهو يتذوق ألم السم؛ حيث قال ﷺ عند موته: «**ما زالت أكلةُ خيبر تُعاودني، فهذا أوانُ انقطاع أَبهَرِي**[٣]»[٤]. وهذا نصٌّ صريح في أن نبينا قتيل لليهود، ولكن اللَّه عصمه وأبقاه إلى انقطاع الوحي.

فيا ويح من يزعم مؤاخاة اليهود ويقول: إنهم إخوان لنا في العروبة

---

(١) **الشخب**: الامتداد.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) **الأَبْهَر**: عِرقٌ إذا انقطع مات صاحبُه.
(٤) رواه البخاري (٤٤٨٢) ـ معلَّقًا بصيغة الجزم ـ، والحاكم (٥٨/٣).

والمواطنة، وإننا لا نعاديْ إلا الصهاينة! من قال هٰذا أو يقوله، فهو محادٌّ للَّه ورسوله، لا يبقىٰ معه من الإسلام حبةُ خردل؛ كذٰلك من يزعم مؤاخاة أعوان اليهود، من النصارىٰ والدروز والنُّصَيرية؛ فإن الجميع منهم قد ثبتت معاونته لليهود ـ معاوناتٍ معنوية، وتشجيعية، وأدبية ـ؛ فكثير من كنائس النصارىٰ ضبطت أوكارًا للتجسس الإسرائيلي، كما أن معظم الدروز في طليعة جيشهم، ومعروف ما قام به «حي القصَّاع» في دمشق من إقامة الزينة، وحشد الأنوار، وإظهار الفرح، باحتلال «الجولان» والاستعداد لاستقبالهم، هٰذا أمرٌ واقع مشهود، لا ينكره إلا المغالط المكابر، والكفر ملة واحدة.

وقوله ﷻ عن اعتذار بني إسرائيل الفاسد:

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

لما كانت الآية السابقة في بيان مواقفهم السيئة من أنبيائهم، وتكذيب مزاعمهم من الاستغناء بهدايتهم، جاءت هٰذه الآية الكريمة في بيان موقفهم من الدعوة المحمدية، وأنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، و«الغُلف» ـ بضم اللام أو إسكانها، علىٰ قراءتين ـ: وهو ما يحيط به غلاف يمنع من الاتصال به، فالمعنىٰ أنها مغلَّفة، لا ينفذ إليها شيء مما تقول يا محمد. وقد كذَّبهم اللَّه بذٰلك؛ لأن دعواهم مخالِفةٌ للحس والنقل، ذٰلك أن الكفر والجريمة لا يولدان مع الإنسان، وإنما هما من الأمور العارضة، الناشئة عن غلبة شهوة، أو نزوة هوىٰ، أو وسوسة شيطان، أو تأثير قرين سيئ، وإلا فاللَّه تعالىٰ يقول في الحديث القدسي: «**إني خلقتُ عبادي حنفاءَ، وإن الشياطين اجتالتهم**[1]**؛ فأخرجتهم عن دينهم**»[2]. ويقول رسول اللَّه ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولدُ علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانِهِ، أو يُنصِّرانه، أو يمجِّسانه**»[3].

(١) **اجتالتهم**: خدعوهم وذهبوا بهم.
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٣) رواه البخاري (١٣٥٨).

فاتضح بِهٰذا أن القلوب جميعها ليس عليها غلاف في الأصل، ولٰكن يطرأ عليها من رينِ الإصرار علىٰ المخالفات ما يقسِّيها ويطبع عليها حتىٰ لا تنتفع بالخير، ولا تتأثر بالمواعظ، ولا تَهُزها العِبَر، أو توقظها الأحداث؛ فكأن الفسق أو الكفر طبعٌ لهم وسجية، لما ران علىٰ قلوبهم من زيغ المخالفات التي لم يفكروا ـ ولا لحظةً واحدةً ـ في شيء منها، والإنابةِ إلىٰ اللَّه[1]، فقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ كقول كفار قريش: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فردَّ اللَّه علىٰ اليهود مكذبًا لهم بأن قلوبهم ليست غلفًا لا تفهم الحق بطبعها ـ فهٰذا خلاف فطرة اللَّه ـ، وإنما أبعدهم اللَّه من رحمتِه بسبب قتلهم الأنبياء، وتعنتهم علىٰ رسالات اللَّه، فلقد حباهم اللَّه بكثير من الأنبياء تسُوسهم بعد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كيوشع، وشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وأشعياء، وأرمياء، وعُزير، وحسقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيىٰ... وغيرهم ممَّن كذبوا ببعضهم، وقتلوا البعض الآخر، موهمين عامَّتَهم أنهم دجاجلة كذابون، ويحتجون علىٰ تكذيبهم وقتلهم بتحريفات وتأويلات باطلة من عند أنفسهم، لأنهم لا تستقيم لهم الرفعة في الدنيا، وطلب ملذاتها والترؤس علىٰ الناس فيها مع وجود الأنبياء، فكان بعضهم يستكبر عليهم أشد من استكبار إبليس علىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذا قال تعالىٰ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وحرف «بل» للإضراب عما قبلها، وصرف الحكم إلىٰ ما بعدها، يعني: ليست قلوبهم غلفًا[2] أصيلةً كما يزعمون، ولٰكن لسوء أفعالهم، وشناعة مقابلتهم للأنبياء وقبح كفرِهم لعنهم اللَّه.

و«اللعن» هو الطرد والإبعاد عن الرحمة، والمطرود عن رحمة اللَّه

---

(١) أي: ولم يفكروا ـ أيضًا ـ في الإنابة إلىٰ اللَّه تعالىٰ.
(٢) في المطبوع: «غلف»، ولعل الأصح ما أثبتُّه.

لا ينتفع بهداية الأنبياء، ولا خلائفهم من المرشدين؛ ذٰلك أنهم لما كفروا بالكتاب بتركهم العمل به والجناية عليه بتحريفه وفق أهوائهم وأغراضهم، أصبحوا قد أنِسوا بالكفر، ورضوا به، وانطبعوا عليه، واطمأنوا إليه، فكان ذٰلك سببًا في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرىٰ بإجابة خاتم المرسلين ﷺ؛ فهٰذا هو معنىٰ اللعن الذي حاق بهم، وجعل قلوبَهم لا تصلح مقرًّا للهداية، وهٰذه من سنن اللَّه الكونية؛ فإنه العليمُ الحكيم يعلمُ معادن الناس، والناس معادن تبعًا للتراب الذي خلقوا منه، والتراب الأرضي يخرج منه الذهب الإبريز والألماس الثمين، وغيره من سائر الجواهر والأحجار الكريمة، وفيه من الخير والنفع ما اللَّه به عليم، وفيه ما لا يصلح إلا للقاذورات، وفيه السبخ الذي لا ينبت ولا يمسك ماء، بل في بقاع الأرض ما لا ينبت فيه إلا المُر، كالحنظل والحرمل والجثجاث، وفيه ما ينبت الفواكه والورود.

فهٰكذا بنو الإنسان الذين خلق اللَّه أباهم من قبضة قبضها من جميع بقاع الأرض(١)؛ ولعل اليهود غلب عليهم طبع السبخة التي لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، أو بعض المواقع التي هي أخسُّ منها، والحقيقة أن خطرهم علىٰ العالم يزيد علىٰ خطر البراكين المحرقة؛ لأنهم يحرقون من جميع الناس مواهب الخير، فهم شياطين الإنس أخدان(٢) إبليس، بل هم ـ ورب الكعبة ـ قد أراحوا إبليس وذريته بما وضعوا للناس من أخطبوط المبادئ والمذاهب المادية، والنعرات الجنسية(٣)، واللَّه أجرىٰ سنته بعدم هداية من ليس فيه قابلية للهداية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، فجاءت لعنة اللَّه معلَّلة بكفرهم؛ حيث قال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ يعني: أن كفرهم هو السبب في لعنهم،

---

(١) تقدم الحديث الوارد في هٰذا المعنىٰ.
(٢) **أخدان**: أصحاب وعشاق.
(٣) يقصد تقديس الوطنيات والقوميات ونحوها.

واللعن نتيجة لإعراضهم وتماديهم في الكفر العملي والاعتقادي، ذٰلك أن التوراة لم يكن لها سلطان علىٰ نفوسهم، ولم تكن هي المحركة لقلوبهم وجوارحهم، وإنما المحرك أهواؤهم وشهواتُهم، ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن الإيمان عندهم لا يزيد علىٰ قول باللسان، أو رسم بالخيال كإيمان أفراخ الإفرنج الذين هم جزء ممَّن صُنعوا علىٰ أيديهم بالثقافة الماسونية.

يزعم بعض المفسرين في قوله تعالىٰ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾: أن حرف «ما» زائد! وقد حقق كبيرهم الإمام ابن جرير أنها ليست زائدة، وهو الأليق بمقام القرآن؛ إذ ينزه كلام اللَّه عن الزيادة، ولٰكن اللَّه أتىٰ بِهٰذه الكلمة لإفادة العموم تارةً، ولتفخيم الشيء تارة.

ويقول ابن جرير: إنما يؤتىٰ بها في مثل هٰذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم، كأنه قال: إيمانًا قليلًا ذٰلك الذي يؤمنون به.

ولابن جرير وجه آخر في تفسيره، وهو أنه لا يؤمن بالنبي ﷺ وما جاء به إلَّا قليل منهم.

والظاهر من سياق الآية أنها من العام المخصوص؛ بمعنىٰ أن الكفر لم يستغرق جميع أفرادِهم، وإنما غمر الأكثرين، ويجوز إيمان القلة، واللَّه أعلم.

ثم إن انتصاب «قليلًا» كان بنزع الخافض(١)، أي: بقليل يؤمنون، أو: فصاروا قليلًا ما يؤمنون.

وعلىٰ أهل القرآن أن يحسنوا موقفهم من القرآن، وألَّا يشابهوا أهل الكتاب في موقفهم من كتابهم، وألَّا يستمروا في غفلتهم عن القرآن، وعدم اعتبارهم بحججه الدامغة، وتأثرهم بأساليبه العظيمة المؤثرة، فإن الاستمرار علىٰ ذٰلك جالبٌ للعنة اللَّه التي حلت باليهود.

---

(١) **الخافض**: حرف الجر.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾:

إن اليهود ـ عليهم لعائن اللَّه ـ لما يأَّسوا نبينا محمدًا ﷺ من قبول دعوته بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، أخبرهم اللَّـه بلعنته لهم علىٰ كفرهم السابق، لعنةً تحرمهم من الهداية اللاحقة، وتحول بينهم وبينها، جزاء لهم علىٰ ضلالهم القديم، ثم أخذ يزيد في تعنيفهم ويجابِهُهم بصواعق وحيه، مجابهةً شديدةً علىٰ ما قالوا وما فعلوا، ويُهلهل شبهاتِهم التي يحتجون بها، ويجرِّدهم من كل معذرة، كي لا يبقىٰ لهم ستر، موضحًا ﷻ قبح كفرهم وأسبابه الخبيثة، وأنهم كفروا بالنبي الذي كانوا يرتقبونه، ويستفتحون به علىٰ مشركي العرب الكافرين الوثنيين.

ومعنىٰ «يستفتحون»: يستنصرون، فالفتح في اللغة هو الحكم والفصل، ويعبَّر عنه بالنصر؛ لأن النصر يحصل به ذٰلك، فلقد كانوا يرتقبون مبعث النبي محمد ﷺ، ويستنصرون به علىٰ الذين كفروا، ويقولون: سيُبعث من قريب نبيٌّ ننتصر به عليكم، وهٰذا شيء معروفٌ شائع من كلامهم، لا يقدرون علىٰ إنكاره، ومع هٰذا لما جاءهم هٰذا النبي ـ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ممَّا ذكر اللَّه أوصافه في التوراة، و[كانوا] يستنصرون به علىٰ أعدائهم ـ، كفروا به بعد مجيئه، وناصبوه العداوة، فكُفرُهم في غاية القبح والحماقة، بل من أشد أنواع الكفر؛ لأنه ليس ناشئًا عن جهلٍ أو تقليد للآباء، أو تأثرٍ بالبيئة، وإنما هو ناشئ عن سوء سريرة، وخبث طوية، إنه كفر يخرج عن طور العقل، ولا يجيزه العقل[1] الصريح أبدًا؛ لأنهم كفروا بما جاء مصدقًا لما معهم،

---

(١) في المطبوع: «الفعل»، وهو تحريف.

ولأنه معروف لديهم غايةَ العرفان، ولأنهم يستفتحون به قبل مجيئه علىٰ الكافرين المحاربين لهم، فلو لم يكونوا يعرفونه ولم يستفتحوا به لهان الأمر، ولو لم يكن مصدقًا لما معهم ـ بل معاكسًا ـ؛ لكان لهم مساغٌ طائفي أن تأخذهم العزة بالإثم، ولٰكن الذي حصل خلاف ذٰلك، كل الذي حصل يدينهم ويرغم أنوفهم، لو كانوا يقصدون الحق أو يلتفتن إليه، ولٰكن موقفهم موقف العناد والاستكبار؛ بل موقفهم موقف المضادة للّٰه، إنهم يطالبون اللّٰه أن يكون هٰذا النبي منهم ليس من العرب، وإنهم ناقمون من اللّٰه أن يختار لرسالته ما يريده ـ دون ما يريدون ـ! إن خطتهم خطيرة، وكفرهم من أشد أنواع الكفر وأقبحه، إن موقفهم شنيع، يستحق الغضب واللعنة، إنه تطاول علىٰ اللّٰه، واستدراك علىٰ اللّٰه، وانتقاد لمشيئته، وطعن في حكمته، وحسد لمن اصطفاه من عباده.

عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار قال: «إن هٰذا نزل فيهم وفي يهود المدينة، قالوا: كنا قد عاونَّاهم قهرًا دهرًا في الجاهلية ـ ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ـ، وهم يقولون: إن نبيًّا سيُبعثُ الآن نتبعه، قد أظل زمانُه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ذات العماد».

والنصوص في مثل هٰذا المعنىٰ كثيرة مستفيضة مشهورة، وهٰذه الآيات الكريمات أوضح اللّٰه فيها إغلاق قلوبهم عن الهداية بالدعوة الجديدة، كما أوضح السبب الذي من أجله كفروا بالنبي محمد ﷺ؛ وهم كانوا من قبل يستنصرون به علىٰ المشركين، ويبشرون بقرب زمانه، ويعلنون لهم أنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه حتىٰ يبيدوهم، ويقول اللّٰه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ويبين اللّٰه سبحانه السبب الذي من أجله كفروا واستحقوا اللعنة، فيقول: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾، «بئس» للمبالغة

في الذم والرداءة، كما عكسها «نَعمَ» للمبالغة في المدح والطيب، فاللَّه يقول لليهود ﴿بِئْسَمَا﴾ أي: بئس الذي ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾، أي باعوها؛ فإنه يستعمل: «أشرىٰ الشيء واشتراه» بمعنىٰ: «باعه وابتاعه»، يعني: أنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بأسوأ ثمن، لقد باعوها باللعنة والغضب من اللَّه، بما حرصوا عليه من الكفر بمحمد ﷺ بغيًا وحسدًا له ﷺ، وحبًّا للرئاسة، واعتزازًا بالجنسية، وطمعًا في المنافع المتبادلة بين الرؤساء والمرؤوسين، وحفاظًا عليها، فهٰذا هو ثمن أنفسهم التي خسروها بالكفر وفقدوها، كما يفقد البائع المبيع، فبئس الثمن لمبيع لا يقوَّم[1] لو عرف أهله قيمته، لٰكن الحسد والأغراض الدنيئة يعميان القلوب، ولو كان عندهم أدنىٰ بصيرة، لحسبوا أضخم الحساب لقيمة أنفسهم التي خسروها بالكفر، وخسروا عزتها بالذلة، حيث لم ينضموا إلىٰ الموكب المحمدي العزيز الكريم علىٰ اللَّه ومن اللَّه، لقد خسروها في الدنيا قبل الآخرة، وخسارة الآخرة أفظع وأشنع، لقد دخلوا بالكفر وقد خرجوا به، وهو الذي كسبوه، وبئسما كسبوا.

والذي حملهم علىٰ هٰذا الكفر الفظيع ـ الذي هو من أعظم أنواع الكفر كما قدمناه ـ هو البغي الذي جرهم إليه الحسد، حسدهم لرسول اللَّه ﷺ أن يختاره اللَّه للرسالة التي ينتظرونها فيهم، وكرهًا وحقدًا منهم أن ينزل اللَّه فضله علىٰ من يشاء من عباده، وهٰذا بغيٌ منهم وظلم، وأي بغي أقبح من بغي من يريد تحجير فضل اللَّه، وتقييد رحمته بما يهواه هو، لا بما يريد اللَّه؛ فلا يرضىٰ من اللَّه أن يجعل الوحي في آل إسماعيل، كما جعله قرونًا متطاولةً في آل أخيه إسحاق، ولهٰذا عادوا من هٰذا البغي والحسد بغضب علىٰ غضب، كما قال تعالىٰ: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، يعني: عادوا بالغضب الذي استحقوه بكفرهم بمحمد ﷺ علىٰ الغضب الذي استحقوه من إعناتهم لموسىٰ عليه السلام،

---

(١) أي: لا قيمة له، واللَّهُ أعلم.

ومن تحريفهم للتوراة، ورفضهم الإيمان بها جميعًا، وكونهم يعملون منها بما يوافق أهواءهم ومصالحهم؛ حتىٰ حكم اللَّه عليهم بعذاب الخزي في الحياة الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

ثم توعدهم في هٰذه الآية بأن يعذبَهم عذابًا آخر؛ فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، يعني: مقرونًا بالإهانة والإذلال.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾:

رد اللَّه اعتذار اليهود وأبطله في الآيات السابقات، حيث زعموا أن قلوبَهم غلف ـ لا تفهم الدعوة ولا تعقل الخطاب ـ، ففضح اعتذارهم ببيان السبب الحقيقي الذي استحقوا به اللعنة الحارمة لهم من الهداية، والغضبَ والعذاب المهين، علىٰ ما يحملونه من لؤم الحسد والحقد، الذي جعلهم يبغون التطاول علىٰ اللَّه، وتصريف مشيئته كما يريدون، والآن في هٰذه الآية ذكر لهم اعتذارًا آخر متصديًا له بالرد والإبطال، ومقيمًا عليهم حجةً دامغةً بما كسبت أيديهم، لا يمكنهم التملص منها، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، أي: لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ محمد ﷺ، صدِّقوا ما أنزل إليه، بالقلب وباللسان والتنفيذ العملي، ﴿قَالُوا۟﴾ في جوابهم الملتوي، واعتذارهم الباطل: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من التوراة، ولم يذكر اللَّه محمدًا ﷺ في سياق الإيمان بما أنزل اللَّه؛ لأن الواجب هو الإيمان بالوحي علىٰ يد أي شخص كان؛ لأن الإيمان بالوحي المنزَّل مقصود لذاته، لا لذات من أنزل عليه، هٰذا من جهة، ومن جهةٍ أخرىٰ فاللَّه يريد قمع تحكمهم بقصرهم الإيمان علىٰ ما أنزل عليهم بواسطة موسىٰ عليه السلام؛ ذٰلك أن هٰذا التحكم هو تحكمٌ علىٰ اللَّه، وقضاءٌ عليه سبحانه بأن تكون رحمته مقيدةً بأهواء فريق من خلقه، لا ينزل الوحي

علىٰ من هو من غير جنسهم ـ والعياذ بالله ـ، فهٰذه هي الحكمة في ذكره سبحانه الإنزال مطلقًا، وتقييد جوابهم بقيد، وهو قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وهٰذا الأسلوب مشعرٌ بقوة حجة الدعوة المحمدية، ووهن ما بنىٰ عليه خصومها اليهود شبهتهم في جوابهم، فإن قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، جواب منهم في غاية السقوط، لأن الذي أُنزل عليهم ـ إن كانوا يعتبرونه منزَّلًا من الله ـ، فليس له ميزة علىٰ ما أنزله الله من جديد علىٰ محمد ﷺ، وطبعًا يعتبرونه منزَّلًا من الله، فتلزمهم الحجة بالإيمان بكل ما أنزل الله، دون ملاحظة من أنزل عليه، لا سيما ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، فكيف يكفرون به؟! ألا إنهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت بنفسه، فإن كون ما ثبتت به نبوة محمد ﷺ مساويًا لما ثبتت به نبوة موسىٰ عليه السلام يستلزم وجوب اتباع محمد ﷺ كما اتبع موسىٰ عليه السلام؛ لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وكل موضوع.

فمدلول الإيمان ولازمه حاصل في كلتا الحالتين، خصوصًا وقد جاء ما أنزل علىٰ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وهٰذا يستوجب منهم الإيمان به؛ لأنه مؤيد عندهم بالعقل والنقل، فعدم الإيمان به ـ مكابرةً وعنادًا أو تطاولًا الله ـ تحكم في سلطانه ومشيئته كما مضىٰ توضيحه، فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اجترحوه من المخالفة القبيحة التي هي من أفحش الفواحش، فقد ضربهم الله في هٰذه الآية بضربتين قاصمتين:

إحداهما: أنهم كفروا بالحق الذي جاء مصدقًا لما معهم، والواجب يقضي عليهم بالمبادرة إلىٰ الإيمان به، والاعتزاز به، والتشرف بالمسارعة إليه.

وثانيهما: فضيحة الله بالتساؤل معهم عن قتل أنبيائه؛ لأن هٰذا من أكبر الدلائل علىٰ كفرهم، وعدم صدقهم في دعوىٰ الإيمان، ولذا قال تعالىٰ آمرًا نبيه ﷺ بالتساؤل معهم: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما أنزل إليكم إيمانًا حقيقيًّا صادقًا؟! فإن إنزاله

إليكم يوجب عليكم محبة الأنبياء، وتصديقهم، وتوقيرهم، والقيام بنصرتهم، والدفع عنهم، والجهاد معهم، وليس فيه الأمر بقتال الأنبياء؛ بل فيه النهي عن قتل بعضكم بعضًا، فكيف بالأنبياء؟ فلو أن عندكم شيئًا من الإيمان بما أنزل عليكم لَمَا قتلتم الأنبياء، وهم قد جاؤوكم بما تزعمون أنكم مؤمنون به، وجاؤوكم بتأييده والتصديق به.

فهٰذا التلقين من اللَّه ـ جل شأنه ـ لنبيه ﷺ بالتساؤل معهم عن قتلهم أنبياءهم؛ هو لتكذيب دعواهم، وفضيحة مخازيهم.

فإن قيل: لم ابتدأ اللَّه الخبر بلفظ المستقبل في قوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾، ثم أخبر أنه قد مضىٰ بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾؟.

قيل: قد اختلف النحاة:

فقال بعضهم: المعنىٰ: فلِم قتلتم أنبياء اللَّه من قبل؟ كما قال اللَّه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما تلت، كما قال الشاعر:

ولقد أمرُّ علىٰ اللئيمِ يَسُبُّني ... فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ[١]: لا يعنيني

يريد بقوله: ولقد أمر: لقد مررت، ولم يقل: فأمضىٰ عنه.

وقال الطرماح:

وإني لآتيكم تشكرُ ما مضىٰ ... من الأمر واستيجاب ما كان في غد

يعني بذٰلك. ما يكون في غد.

وقال بعض الكوفيين: إنما قيل: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾: خاطبهم بالمستقبل، ومعناه الماضي، كما يعنف الرجلُ الرجلَ علىٰ ما سلف منه فيقول له: ويحك لم تكذب؟! ولم تفعل كذا؟! وهو يقصد الماضي بكل جلاء ووضوح، كما قال الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ ... ولم تجدِي من أن تقري[٢] به بُدَّا

(١) في المطبوع: فمضيت عنه وقلت. والأصح ما أثبتناه.
(٢) تحرفت في المطبوع إلىٰ «تعزي»، والتصويب من مصادر كثيرة.

فالجزاء للمستقبل، والولادة قد مضت.

وعند علماء المعاني والبيان أن هٰذا التصرف ـ الذي هو التعبير عن الماضي بالمستقبل ـ يكون فيما علم القائل استمراره، والقائل هنا: هو اللَّه العليم الخبير، مد في الماضي بالمستقبل؛ لأنه يعلم أسرارهم واستمرارهم علىٰ قتل كل نبي أو داعيةٍ يوافق أهواءهم، وقد حرصوا علىٰ قتل النبي محمد ﷺ حتىٰ سمُّوه وعملوا علىٰ قتل أكثر خلفائه بمكرهم السيئ؛ مستغلين الموتورين من الفرس والسذج من طَغام الناس، ولا يزالون يحيكون للمسلمين الدسائس، ويروجون الإشاعات الكاذبة، ويجسمون الأخطاء ويضخمونها، ويشيعون الأباطيل ضد قادة الفتح؛ لينزلوا بهم التنكيل، أو يسقطوهم من الأعين، كما جرىٰ لأعظم قادة الإسلام في عهد سليمان بن عبدالملك، ويعملون علىٰ إثارة الفتن، حتىٰ بين الأسرة الواحدة، كما فعلوا بحكام الأندلس، ويقتلون كل عظيم لا يستجيب لمطالبهم، ولا يبالي بذهبهم الكثير وفتنتهم، كما فعلوا بمحمد الفاتح، وكما قتلوا السلطان عبدالحميد قتلًا معنويًّا بخلعه في أبشع صورة، مما أزالوا به دولة الوحدة الإسلامية، التي لا تزال ترويجاتُهم ضدها تُدرَّس حتىٰ لتسميم الأفكار، بل يتحمس لتدريسها من لا يفرق بين الدولة الماسونية التي أقامها اليهود، وبين دولة الوحدة السابقة، والدولةُ التي أقامها اليهود من وراء الكواليس هي التي أساءت للعرب وغيرهم، لأجل بث النعرات التي يريدها اليهود.

وبالجملة: فكل ما جرىٰ من بني إسرائيل من فظائع الجرائم المتكررة، والمخطط لوقوعها، ليست من باب المصادفة، وإنما صدورها كان عن أخلاق سيئة راسخة فيهم، ابتدأ بها أوائلهم، وتبعهم عليها خلائفهم بكل عزم وتصميم، ولم يُحمِّل اللَّه الأواخر جرائم الأوائل إلا لإقرارهم بها، ومباركتهم لها، وعزمهم السعي علىٰ منوالها،

لأن الجميع منهم لا يتناهَون عن منكر فعلوه، وقد تقدم أن قتل الداعية إلىٰ اللَّه ـ علىٰ ضوء وحيه ـ شبيه بقتل أنبيائه، وأن القتل المعنوي قد يكون أقوىٰ من القتل الحسي، وباللَّه المستعان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

هٰذه الآية من جملة الآيات الفاضحة لليهود، والمبطلة لدعاويهم الطويلة العريضة، والمكذِّبة لهم في زعمهم الإيمان، وقصرهم له علىٰ ما أنزل إليهم، واحتكارهم رسالات اللَّه علىٰ شعبهم؛ فإن اللَّه يقول لهم: يا معشر يهود الذين رفضتم الإيمان بما أنزل علىٰ محمد ﷺ، متبجِّحين بأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فقط، وتكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقًا لما معكم، إنكم كاذبون في زعمكم، وكافرون بما أنزل إليكم قبل كفركم بمحمد ﷺ؛ فاذكروا إذ جاءكم موسىٰ بالبينات، بالآيات القاهرة، والمعجزات الباهرة، جاءكم بما لم يأت به نبيٌّ في العالمين، جاءكم بمعجزاتٍ تبهر العقول، وتخضع الرقاب، من اليد والعصا، وفلق البحر، وإخراج عيون الماء من الحجر الصغير، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوىٰ، كما جاء بسلطان مبين، شلَّ حركة فرعون وطاغوتيته المتسلطة، وجعله يشحذ السحرة، معلنًا اتباعهم إن كانوا هم الغالبين، كما جاء بآياتٍ زاجرات من الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، آياتٍ مفصلاتٍ أرهبت آل فرعون، ورفعت من شأن بني إسرائيل ثم بعد ذٰلك حصل إنجاؤهم من آل فرعون وإغراقهم، وأنتم ـ يا بني إسرائيل ـ تنظرون إليهم.

بعد هٰذه الآيات الباهرات، وهٰذه النعم العظيمة يأتيكم موسىٰ بالبينات، فما كان موقفكم منها؟ كان موقفكم هو أنِ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾! يا عجبًا من أمة هٰذه أفعالها، وحصيلة عقولها، وغاية تربيتها، وفساد ضمائرها، كيف لا يستحون من

الدعاوىٰ الباطلة؟ إنهم إن يكذبوا علىٰ محمد ﷺ فهل يعتبرونه كرجل عادي لا يخبره اللَّه بما يفضحهم ويهتكُ سرائرهم؟! إنهم لا يكذبون علىٰ رجل عادي تنطلي عليه أوهامهم وأباطيلهم، بل كذبوا ـ والحمد للَّه ـ علىٰ أشرف رسولٍ مؤيدٍ من ربه ﷻ بالوحي الذي يفضحهم، وينقد زيفهم، ولهٰذا تعقبهم سبحانه بكشف حقيقتهم، لينصر نبيه ﷺ بالحجج التي تُدينهم من أفعالهم وأقوالهم.

وقد جاء ذكر عبادتهم العجل قبل هٰذه الآية؛ جاء في سياق تعداد النعم عليهم، وفي هٰذه الآية، وسيأتي بعدها ذكر له، ولكل محل منها فائدة، فذكر العجل قبل هٰذه الآية جاء في سياق تعداد النعم عليهم، تلك النعم العظيمة التي لم يكن لها من الشكر عندهم إلَّا اتخاذُ عجل يعبدونه من دون اللَّه المنعم المتفضل، أما ذكر العجل هنا فهو للتدليل علىٰ أن جميع الآيات البينات المؤيدة لنبوة موسىٰ عليه السلام، والشاهدة علىٰ وحدانية اللَّه وعظيم قدرته وقوة قهره وسلطانه؛ لم تزدهم ـ والعياذ باللَّه ـ إلَّا تعمقًا في الشرك، وانهماكًا في الوثنية.

ووجه الارتباط بين هٰذه الآية والتي قبلها: هو المقابلة بين معاملتهم لموسىٰ عليه السلام وبين معاملتهم لمحمد ﷺ؛ ليكشف اللَّه حقيقتهم، ويهلهل شبهاتهم في دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم، والاكتفاءِ به دون ما أنزل علىٰ محمد ﷺ، وأنهم عاملوا موسىٰ أفظع ممَّا عاملوا محمدًا ﷺ، وأنهم لم يؤمنوا بما أنزل إليهم من قبل، وذٰلك لأن من آمن بالبعض وكفر بالبعض؛ صار كافرًا بالجميع، كما أن من آمن ببعض رسل اللَّه وكفر ببعضهم؛ كان كافرًا بجميع الأنبياء والمرسلين، فلا يستقيم لليهود دعوىٰ الإيمان بموسىٰ حتىٰ يؤمنوا بمحمد ﷺ وما أنزل إليه؛ لأن كلًّا منهما جاء مصدقًا للآخر. وفيما نزل علىٰ موسىٰ ذكر مبعث محمد ﷺ وصفاته الكاملة، والأمر بالإيمان به.

وفيما أنزل علىٰ محمد ﷺ تكرار ذكر موسىٰ عليه السلام، وما أيده اللَّه به

من الآيات، ووجوب الإيمان به وبجميع إخوته من الأنبياء والمرسلين، كما لا يستقيم الإيمان بعيسىٰ ممَّن يزعم النصرانية ـ أو المسيحية ـ حتىٰ يؤمن بجميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين عمومًا، وبمحمد ﷺ خصوصًا؛ لأن عيسىٰ عليه السلام جاء مبشرًا به، فكل من لم يؤمن به من زاعمي المسيحية كافر بعيسىٰ، ولا يقبل منه دعوىٰ الإيمان أبدًا.

وقد قدمنا الكلام في أن تحميل [المخاطَبين] ما جرىٰ من أسلافهم إنما هو لارتباطهم بهم، وتقليدهم لهم، وتكافلهم معهم[١]، واشتراكهم في تلك الأخلاق والسجايا التي عابها القرآن، وأنهم كالشخص الواحد في المسؤولية، وأن ما تبلىٰ به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو بسبب الأخلاق الغالبة عليها والأعمالِ المنبعثةِ منها، وأن ما جرىٰ من بني إسرائيل من صنوف المنكرات، وضروب التمرد ليس صادرًا من مصادفة، وإنما هو عن خبثٍ سريرة وفسوقٍ عميق، وأن مشاركة بعضهم بعضًا في الإثم سببه الإقرار من جهة، وعدم الإنكار من جهة أخرىٰ؛ لأن من أنكر المنكر فقد سلم، ولٰكنَّ البليةَ فيمن رضي وتابع ـ كما قاله ﷺ[٢] ـ، ولو أنكر بعضُهم ما جرىٰ من البعض الآخر لما أشركهم اللّٰه جميعًا في الجريمة، فليتنبهِ المسلمون لإنكار المنكر من أي فئة أو موطن، حتىٰ لا يعمهم العذاب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٩٣﴾:

---

(١) **التكافل**: التعاون.

(٢) كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ستكون أمراءُ فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولٰكن من رضي وتابع**». قالوا أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا؛ ما صلَّوْا**». رواه مسلم (١٨٥٤).

بعد ما ذكَّرهم اللَّه بظلمهم الشنيع الفظيع باتخاذهم العجل إلٰهًا من دون اللَّه كإنكار لهم في زعمهم الإيمان بما أنزل إليهم، أعاد تذكيرهم بأخذ الميثاق عليهم، ورفع الطور فوقهم، وقد قال فيما مضىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ يعني: احفظوه، وقال هنا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ﴾، يعني: افهموا وأطيعوا؛ لأن من لم يحقق الطاعةَ لم يحقق الاستماع، وعبارة الأولىٰ والثانية تلتقيان المعنىٰ الذي هو للحث علىٰ الفهم والعمل، وحفظ حدود ما أنزل إليهم من ربهم بالتطبيقي العملي.

وقد التفت اللَّه في هٰذه الآية عن خطاب الحاضرين، إلىٰ الحكاية عن أسلافهم الأولين، حيث أخبر عنهم أنهم ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، يعني: أنهم قبلوا الميثاق وفهموه، ولٰكنهم لم يعملوا به؛ بل خالفوه بالتأويل تارةً، وبالتعنت والهجران تارةً، والتأويل للنصوص القاطعة يعتبر تحريفًا وتزييفًا.

ثم إنهم هل قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ بلسان الحال أو بلسان المقال؟.

قال بعض المفسرين: إن هٰذا خبر عن لسان حالهم، بإصرارهم علىٰ المخالفة وعدم انفتاح قلوبهم للأوامر، فموقفهم من التمادي في الإعراض تعلن عن حالهم أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وبعض المفسرين حمل النص علىٰ ظاهره؛ إذ لا يجوز العدول عن الظاهر إلَّا بدليل، فقالوا: إن بني إسرائيل نطقوا بِهٰذه الكلمة البشعة بأفواههم فقالوا: سمعنا قولك: «خذوا واسمعوا»، وعصينا أمرك، فلا نأخذ ولا نسمع سماع الطاعة. قال ابن عباس: «كانوا إذا نظروا إلىٰ الجبل قالوا: سمعنا وأطعنا، وإذا نظروا إلىٰ الكتاب، قالوا: سمعنا وعصينا».

وفي هٰذا دليل علىٰ قوة لجاجتهم وبشاعتها، وأن أعظم المخيفات لا تؤثر في قلوبهم القاسية؛ لأن رفع الجبل فوقهم كأنه ظلةٌ من أعظم المخيفات، ومع هٰذا فقد أصرُّوا علىٰ كفرهم وعنادهم حتىٰ صرحوا

بقولهم: «سمعنا وعصينا»، فكيف هٰذا التخويف والإرهاق[1] لا يجرُّهم إلىٰ الانقياد؟ إن قلوبهم مريضة وضمائرهم فاسدة.

وقوله ﷻ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ الإشراب: هو مخالطة المائع للجامد، وتوسعوا فيه حتىٰ صار لِلَّونين يقال: بياض مُشرب بحمرة، وإشرابُ الشيء بالشيء مخالطته إياه وامتزاجه به. أو هو من الشُّرب، كأن الشيء المحبوب شرابٌ مستساغٌ يسري في قلب المحب ويمازجه، قال الشاعر:

إذا ما القلبُ أُشْرِبَ حُبَّ شَيءٍ فلا تَأمُلْ لَهُ عَنْه انصِرَافَا

وهٰذه الاستعارة من فرائد الاستعارات التي يُتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن. وفي هٰذه الآية حذف مضاف؛ يعني: وأُشربوا في قلوبِهم حب العجل، وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب يفيد المبالغة في إثباته، والمعنىٰ داخلهم حب العجل ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يداخل الصبغ الثوب، ومن عادة العرب أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب؛ لأنه أبلغُ مستساغ في البدن.

وذهب بعض الجامدين علىٰ الظواهر إلىٰ أن المراد به الشُّربُ حقيقةً! وغفلوا عن قوله تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ والشراب الحقيقي لا يكون في القلب، وأيضًا فإن الإشراب غير الشرب، فالإشراب يعبر عنه بالمخالطة والامتزاج في الصَّرف اللغوي الذي لا يقبل الجدل، فما أبعدهم عن الصواب! وقد عبَّر اللَّه عن إشراب قلوبهم حب العجل بكفرهم، ليصور لنا أقبح أمثلة عصيانهم، بعبارة مدهشة في بلاغتها.

وقوله سبحانه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ الباء هناء للسببية، أي سبب هٰذا الحب الشديد بعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية السابقة في مصر؛ لأن الكفر قد رسخ في قلوبهم علىٰ طول الزمن، وورثوه كابرًا عن كابر، بحيث لم تنفع فيهم تربيةُ النبوة في وقتٍ قصير.

---

(١) **الإرهاق**: الدفع.

وهٰذه الآية فيها تذكيرٌ لبني إسرائيل، تذكير آخر بأسلوب آخر، بما أخذ اللَّه عليهم عهدَه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا من الأشياء أبدًا، وأن يعملوا بشريعته، ويتقبَّلوا وصاياه، ويأخذوها بقوة، وكان أخذُ هٰذا العهد عليهم في موقف رهيب مدهش مخشِّع يعينهم علىٰ أخذه بالجد والعزيمة؛ لأن الجبل كان مرفوعًا فوقهم بصفةٍ خارقةٍ للعادة غير معهودة، بحيث يظنون أنه واقع بهم، ومع هٰذا لم يلبثوا أن نقضوا هٰذا الميثاق، وتركوا العمل به، وعبدوا عجلًا صاغوه بأيديهم من حُليهم بأيديهم عن حبٍّ متعمق في قلوبهم، قد خالط نفوسهم، وغلب علىٰ عقولهم وأحاسيسهم، لما فيها من الخَواء الروحي ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقد ذكر اللَّه في غير هٰذه الآية ـ وذٰلك في الآية (٦٣) قبلها ـ أنهم تولوا عن الأخذ بالميثاق بعد الأمر بالتزامه وحفظه رجاء التقوىٰ وسيأتي في الآية (١٧٢) من سورة «الأعراف» تكرار لذٰلك بزيادة، والآية التي نحن في تفسيرها ـ مع ما فيها من المخالفة للآية (٦٣) في الأسلوب ـ؛ فإنها متحدة معها في المعنىٰ؛ إذ هي لإقامة الحجة علىٰ اليهود الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ محتجين أنهم يؤمنون بشريعة لا يطالبهم اللَّه بالإيمان بغيرها، فجاء اللَّه بِهٰذه الآية تكذيبًا لهم، مخبرًا أنهم قد تمردوا علىٰ موسىٰ من قبل، وأنه لم تُجْدِ معهم المواقف الرهيبة، مع[1] رفع الجبل فوق رؤوسهم، ولذا ختم اللَّه هٰذه الآية بالأمر لنبيه محمد ﷺ أن يجيبهم ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يعني: إن صح ما تزعمونه من الإيمان ـ والإيمان الحقيقي يستلزم العمل بما له من السلطان علىٰ النفوس ـ؛ فبئسما يأمركم به ذٰلك الإيمان من عبادة العجل، ونقض ميثاق اللَّه، وقتل الأنبياء، هٰذا في أوائلكم، فما عملتموه من الكفر ببعض الكتاب ـ الذي يعتبرِ كفرًا بجميعه ـ، ومن إعراضكم عما أنزل علىٰ محمد ﷺ فبئسما

---

(١) فى المطبوع: «من»، ولعل الأصح ما أثبتناه.

يأمركم به إيمانكم حسبما تزعمون.

وإسنادُ الأمر إلىٰ الإيمان وإضافته إلىٰ ضميرهم للتهكم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧]، والمخصوص بالذم محذوف أكثره في هٰذه الآية، لم يُذكر منه إلَّا قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ولٰكن ذكر فيما مضىٰ، وقد أشرنا إليه في تفسيرها بالذات من قتلهم الأنبياء وغيره.

وقوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قدحٌ في دعواهم الإيمان بالتوراة، وإبطالٌ لتلك الدعوىٰ الكاذبة، يعني: إن كنتم مؤمنين فإن إيمانكم لم يرخص لكم في القبائح التي فعلتم، فإن كنتم مؤمنين فقد أمركم إيمانكم بالباطل، فبئسما يأمركم به ذٰلك الإيمان، لٰكنكم في الحقيقة غير مؤمنين؛ لأن الإيمان لا يأمر بالباطل، فهٰذه حجة عليهم بطبيعة الإيمان وأثره في النفوس، إذ أي إيمان يبقىٰ معهم بعد قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؟! سواء قالوه بأفواههم أو بسوء فعالهم، لأن المبدأ الكلي في دين اللَّه أنه لا قيمة للأقوال ما لم تصدقها الأعمال؛ لأن الدعاوىٰ لا تتعذر علىٰ أحد، لٰكنَّ المَحكَّ الذي يظهر به صدق الدعاوىٰ والأقوال هو صلاح الأعمال ومطابقتها لحكم اللَّه ومرضاته.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

هٰذا دحضٌ من اللَّه ورد قامع قاطع لدعاويهم الطويلة العريضة، وأمانيِّهم المفتراة، فإنهم يزعمون أنهم شعب اللَّه المختار، وأنهم أحباب اللَّه، وأنهم الفائزون في الدار الآخرة وحدهم، ليس لسواهم فيها نصيب، واللَّه سبحانه لا يعبأ بِهٰذه الدعاوىٰ والمفتريات، لٰكن لما كان هدفهم من ترويج هٰذه الدعاوىٰ والأباطيل زعزعة ثقة المسلمين بدينهم وبوعود ربهم؛ تصدىٰ اللَّه سبحانه لدحضهم وكشف مخازيهم وأباطيلهم بِهٰذا التحدي القاطع الدامغ، آمرًا نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ

ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ الذي يوصلكم إلىٰ ذٰلك النعيم العظيم الذي لا مثيل له، والذي يصفو لكم وحدكم، ولا يَشركُكم فيه أحد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم؛ لأن التمتع بنعيم الآخرة ساعةً واحدةً أفضل من التمتع بنعيم الدنيا آلاف السنين؛ لأن نعيم الدنيا مشوب بالمصائب والأحزان والأكدار وأنواع الشقاء والنصب؛ بخلاف دار النعيم في الآخرة؛ فإن أهلها ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر]، فإن المؤمل لنعيم الآخرة لا يفضِّل عليه شقاء الدنيا وأحزانها، إذ لا يفضِّل حياة الدنيا علىٰ نعيم الآخرة إلَّا من ليس مؤمنًا به أو لا يرجوه، بل يخشىٰ من جحيم الآخرة، لما يعرف من مساوئه وقبيح أفعاله التي تجعله مستوحشًا من ربه، كما قال الشاعر:

أَسَأْتَ إليَّ فاستوحشْتَ منِّي ... ولو أحسنْتَ أنَّسَكَ الجميلُ

ولقد كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يسارعون إلىٰ الجهاد تعشقًا للموت، وحرصًا عليه، وشراءً للجنة رغبةً في نعيمها، فلقد ألقىٰ عمرو بن الحُمَام يوم بدر تمرات في يده يأكل منها دفعًا للجوع قائلًا: «لئن بقيت إلىٰ أن آكل هٰذه التمرات إنها لحياة طويلة»[1]، وأمثال هٰذا كثير؛ كالشهيد عبدالله ابن رواحة لما أتاه ابن عمه بعِرقٍ من لحم، وقال له: أقم صلبك؛ فقد لبثت أيامًا في المعركة لم تأكل، فلما نَهشها سمع الحَطْمَة في جانب الجيش، فقال لنفسه: أتأكل اللحمة، وأنت تسمع الحَطمة؟! فرمىٰ بها، وشد حملته علىٰ الروم حتىٰ قتل وهو يرتجل:

يا حبذا الجنةُ واقترابُها ... طيِّبةٌ وباردٌ شرابُها

وأمثال هٰؤلاء كثير في تاريخ المسلمين قد ملأ الطروس، وذٰلك لصدقهم في رجاء الجنة، وثقتهم القوية بوعد ربهم، الذي أحسنوا معه المعاملة. أما اليهود فعلىٰ النقيض من ذٰلك، يتبجحون بالدعاوىٰ

---

(١) رواه مسلم (١٩٠١)؛ من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكاذبة التي هي افتراء علىٰ اللَّه، وهم أحرص الناس علىٰ الحياة ـ كما سنفصِّله ـ.

نعم؛ إن اليهود علىٰ النقيض مما يزعمون، وإنهم يعرفون أنهم كاذبون في زعم اختصاصهم بنعيم الدار الآخرة، وكونها خالصةً لهم من دون الناس، ولهٰذا تحداهم اللَّه بِهٰذا التحدي القاطع الدامغ، قائلًا: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأن الصادق لا يكتفي بمجرد تمني الموت؛ بل يحرص عليه، ويقذف بنفسه في المعمعة، ويكون في طليعة المجاهدين، ويَضرَعُ إلىٰ اللَّه بطلب الشهادة صادقًا، ويسأله أن يلحقه بالصالحين.

وهٰذا التحدي الإلٰهي القاطع يقمع رؤوس اليهود، ويُخرس ألسنتهم، ويجعل المسلم يُشْهر عليهم هٰذا السلاح الداحض، لأنهم يقصدون بتلك الدعاوىٰ زعزعةَ إيمان المسلمين وتغفيلهم، فاللَّه العليم الحكيمُ واسع العطاء أعطىٰ المسلمين هٰذا السلاح يشهرونه أمام دعاويهم، متحدين لهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين، وبِهٰذا التحدي يظهر زيفهم؛ لأن الصادق يتمنىٰ الموت ـ بل يحرص عليه غاية الحرص ـ إذا كان صادقًا في دعواه من اختصاصه برضوان اللَّه من دون الناس، ولٰكن لما لم يحصل ذٰلك ـ بل حصل نقيضه ـ؛ صاروا كاذبين كذبًا مفضوحًا مكشوفًا لا ينطلي علىٰ أحد، ولذا قال ﷻ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة].

يعني: أنه لن يقع منهم هٰذا التمني أبدًا بأي حال، فإنهم لن يقولوا: «يا ليتنا نموت»، بل ولا يحركون شفاههم بكلمة تعطي هٰذا المعنىٰ؛ لأنهم يعرفون ما اجترحوا من الكفر والسيئات ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من تحريف كلام اللَّه بعد ما عقلوه وفهموه، ومن كفرهم ببعضه، وتصميمهم علىٰ قتل كل نبي يأتيهم بما لا تهواه أنفسهم، فهم لا ينطقون بأي كلمة تدل علىٰ تمني الموت حتىٰ ولو كذبًا ـ مع عدم اكتراثهم بالكذب ـ، ولٰكن

يخافون قبول الدعوة من اللَّه وهم يوقنون بسوء مصيرهم.

وقد أسند اللَّه العمل إلىٰ الأيدي، ولذا جرىٰ العرف اللغوي علىٰ جعل اليد كنايةً عن الشخص، فهٰذه الآية أوضحت لنا مراد اللَّه من فتح باب التحدي لهم بتمني الموت، وأنه للتعجيز الذي سَببُه عرفانهم بسوء فعالهم، وشدة وحشتهم من اللَّه، فالآية تدل علىٰ أن الذي أعجزهم عن النطق بالتمني ليس مجرد النطق، وإنما هو خوفهم ممَّا يستقبلهم من العذاب بما عملته أيديهم، فإن مجرد النطق لا يُعجِزُ أحدًا، بل كما تفوهوا بتلك الدعاوىٰ كان يمكنهم أن يتفوهوا[1] بتمني الموت تمنيًا كاذبًا، لولا ما يعرفونه من قبيح أعمالهم، وشنيع كفرهم؛ فإنهم لن يقبلوا هٰذه المباهلة أبدًا، خشية أن يستجيب اللَّه دعاءهم فيها، فيخسروا الدنيا التي هي غاية مطلبهم، ويخسروا الآخرة التي ليس لهم فيها نصيبٌ بما قدمت أيديهم.

فيا له من سلاح أعطاه اللَّه لعباده المسلمين المؤمنين، يقمعون به دعاوىٰ المبطلين الذي يتمنون علىٰ اللَّه [الأماني]، ولذا ختم اللَّه هٰذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ ليوضح لنا سوء طريقتهم، وأنهم ظالمون في إصدار الحكم لأنفسهم علىٰ اللَّه، بأن الدار الآخرة لهم وحدهم خالصةً من دون الناس. إنهم ظالمون ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ علمًا كاملًا محيطًا لا يخفىٰ عليه شيء مما ينطقونه أو يخفونه في أنفسهم، فإنه سبحانه يعلمُ خطرات القلوب ونقراتها.

وفي ختام هٰذه الآية ـ بأن اللَّه عليمٌ بالظالمين ـ تخويف وتهديد لهم، ولكل من سلك مسالكهم في التمني علىٰ اللَّه، وإصدار الحكم لأحدٍ أو فئة أو أمة بجنة أو نار، إلَّا ما ورد النص به علىٰ الإطلاق أو التقييد، ككون الجنة للمتقين، والنار للكافرين علىٰ الإطلاق، أو ما

---

(١) في المطبوع: «بل كما تفوَّهوا بتلك الدعاوىٰ يتفوهون»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه، فهو الأنسب لسياق الكلام، واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

ورد النص بأنه من أهل الجنة، أو من أهل النار، وما عدا ذٰلك فلا يجوز إصدار حكم لأحد، أو علىٰ أحد بلا برهان من اللَّه، فإن مثل هٰذا من عمل اليهود الظالمين.

ثم أخبر اللَّه عباده المؤمنين عن الطبيعة الأصيلة المتأصلة في اليهود والمشركين في كونهم أحرص الناس علىٰ الحياة، فكيف يُباهلون المسلمين علىٰ الموت وهٰذه طبيعتهم؟ فقال تعالىٰ:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

يُخبرنا اللَّه ﷻ عن طبيعتهم المتأصلة فيهم منذ القدم، وإلىٰ أن يرث اللَّه الأرض ومَن عليها، وذٰلك بعد ما أرشدنا إلىٰ مباهلتهم لنكولهم وإخراسهم، وعدم السماح لهم بإطلاق الكلِم علىٰ عواهنه، يخبرنا عن طبيعتهم المشابهة لطبيعة الوثنيين: إنهم أحرص الناس علىٰ حياة، وذٰلك لعدم تقديمهم ما يرجون ثوابه، ولكثرة مساوئهم التي لا تحصىٰ، فإنهم مهما كابدوا في حياتهم من أنواع العقوبات لا يزهدون بها، ولا يسأمون منها، لعدم رجائهم ربَّ العرش العظيم من ورائها؛ لأنهم قد أخربوا آخرتهم بدنياهم، فهم يرتضون عيشةَ الذل والمهانةِ والإرهاق والإرهاب، ويألفونها ويحبونها، دون أن يتطلعوا إلىٰ ما سواها، أو يعملوا علىٰ عمارة آخرتهم التي هم واردون عليها ـ ولابد لهم منها وهم راغمون[1] ـ، هٰكذا ديدنُ اليهود، وهٰكذا رغبتهم في الحياة، وحرصهم عليها، وصبرهم علىٰ ما يَلقَون فيها، وإن كانوا لا يرفعون رؤوسهم حتىٰ تختفي الهراواتُ عنها، فهم لا يبالون بما يلاقونه في سبيل الإبقاء علىٰ تلك الحياة الرخيصة.

---

(١) راغمون: أذلاء.

فقد شابهوا الوثنيين المشركين، وشاركوهم في الحرص علىٰ الحياة ـ أي حياة كانت ـ، ولٰكن بينهما فارق؛ لأن المشركين الوثنيين لا يؤمنون بما وراء هٰذه الحياة من الدار الآخرة؛ فيحق لهم الحرص عليها، وقَصرُ النظر إليها، وأما اليهود فهم أهلُ كتاب يؤمنون بالدار الآخرة، ويستنصرون علىٰ جميع الناس فيها، زاعمين أنها خالصةٌ لهم من دون الناس، وأنهم أحباب اللَّه وأبناؤه وشعبه المختار، فكيف يشابِهون الوثنيين في الحرص الشديد علىٰ الحياة الدنيا، مع ما يدَّعونه من اختصاصهم بالفوز في الدار الآخرة؟! حتىٰ صاروا كالمشركين الذين ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، بل كانت تحية الوثنيين ومخاطبة بعضهم بعضًا في العُطاس: (عش عشرة آلاف سنة)، من شدة حرصهم علىٰ الحياة ـ دون التفات إلىٰ ما وراءها ـ، وما هٰذا إلَّا من بعض عقوبات اللَّه القدرية عليهم؛ فإن الإيمان بالآخرة نعمةٌ عظيمةٌ، يُفيضها اللَّه علىٰ قلوب المؤمنين الذين يرجون لقاءه، فتسكن نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، ويقلُّ جشعُهم وهلعُهم، ويَسلَمون من شرور الحيرة والقلق، وتنتعش أرواحهم بالآمال الصحيحة، وانبعاث الفرحات بين الحين والحين، مما يدفع به عنهم شرورَ الغم والهم والحزن، لأنهم موصولون باللَّه، بخلاف الكفرة الوثنيين؛ فإن عدم إيمانهم بالآخرة هو من أفظع عقوبات اللَّه لهم؛ لتضاعف أحزانهم وهمومهم وغمومهم بالمصائب والأحداث، وتزايد وقعها عليهم، مما يجعل بعضهم ينتحر من شدة الجزع والقلق.

ثم هل حرصهم علىٰ الحياة ـ لو طالت أعمارهم ـ يجديهم نفعًا؟ لا. كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي ما هو بمُبعِده من العذاب ولا منجيه، بل علىٰ العكس يكون زيادةُ عمره زيادةً في سيئاته، ومضاعفةً لعقوباته في الدنيا والآخرة.

و«التزحزح» في اللغة: الابتعاد؛ كما قال الشاعر:

فقالتْ تَزَحْزَحْ ما بنا كُبْرُ حاجةٍ ... إليك وما منا لفقْرِكَ رافعُ

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لا تخفي عليه خافية من أمرهم، ولو عرفوه تمامًا لعلموا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته.

وأصل «بصير»: مبصر، ولٰكن صُرف إلىٰ «فَعِيل»، كما صرف «مُسْمِع» إلىٰ سميع، و«مُبْدع» إلىٰ بديع، فالمعنىٰ أنه ذو إبصار بما يعملون، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم، بل هو محيطٌ بجميعها، وحافظٌ لها وذاكر، حتىٰ يذيقهم جزاءهم عليها، كيف وهو يبصر النملة الشهباء، علىٰ الصخرة الصماء[1]، في الليلة الظلماء، ويُبصر جناح البعوض في ظلمة الليل البهيم، ويبصر نياطَ عروقها في جسمها، بل يبصر مخَّها في ذٰلك الجسم الحقير النحيل.

فلو أن المسلمين عاملوا اللَّه بمقتضىٰ هٰذا الاسم، لاستحَوا من إبصاره لهم واطلاعه عليهم في فعل ما لا يرتضيه، أو ترك ما يوجبه، فحسنت أحوالهم، ونالوا درجاتِ المحسنين.

ووجهُ ذِكره تعالىٰ المشركين بعد ذِكر الناس في قوله: ﴿أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ أنهم داخلون فيهم للدلالة علىٰ مزيدِ حرص المشركين علىٰ الحياة، ولٰكنَّ اليهود أحرص منهم؛ لأنهم يعلمون ما يَحُلُّ بهم من العذاب في الآخرة ـ بخلاف المشركين المنكرين لها ـ.

وقد أخرج البخاري وغيره ـ من حديث ابن عباس مرفوعًا ـ: «**لو أن اليهود تمنَّوُا الموت لماتوا عن آخرهم، ولرأوا مقاعدَهم من النار**»[2].

قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

مدلول هٰذه الآية متصلٌ بما قبلها، من مدلولات الآيات السابقة؛ لأن فيها ذكر شبهات اليهود وتعلُّلاتهم عن الإيمان بما أنزل علىٰ محمد ﷺ،

---

(١) **الصماء**: الممتلئة من الداخل.

(٢) رواه النسائي في «الكبرىٰ» (٦/٣٠٨).

زعموا تارةً أنهم مؤمنون بكتاب عندهم لا حاجة بهم إلىٰ سواه، فاحتج اللَّه عليهم بما ينقض دعواهم ويبين أكاذيبهم، وزعموا أنهم ناجون في الدار الآخرة، مختصون بسعادتها من دون الناس، فأبطل اللَّه زعمهم، وأرشد نبيه ﷺ إلىٰ مباهلتهم علىٰ الموت؛ لأن المُعتَقِدَ بأنه السعيد الوحيد في الآخرة لا يفضِّل الدنيا عليها، بل يطلب الموت ليرتاح من شقاء الدنيا، ويَنعَم بسعادة الآخرة، فخسئوا وانقطعوا، وأخبر اللَّه عنهم لن يتمنوا الموت أبدًا لما يعلمون في الحقيقة من سوء مصيرهم علىٰ خبث أعمالهم.

ثم جاؤوا بتعلل آخر أغرب من سابقه، وهو أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينزل علىٰ محمدٍ ﷺ بالوحي هو عدوُّهم من الملائكة، فلا نؤمن بوحي يجيء به، ولو كان الذي يجيء به غيره ـ كميكائيل ـ لآمنا.

وقد أخرج الإمام أحمد، وعبد بن حميد، والإمام ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي، عن ابن عباس قال: حضرت عصابةٌ من اليهود عند النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حَدِّثْنا عن خِلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهن إلَّا نبي، قال ﷺ: «**سلُوني عما شئتم**»، فسألوه وأجابهم: ثم قالوا: فحدثنا عن وليِّك من الملائكة، فعندها نجامعك[1] أو نفارقك، فقال: «**وليي جبريل، ولم يبعث اللَّه نبيًّا إلَّا وهو وليه**»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك، قال: «**فما يمنعكم أن تصدِّقوه**»؟ قالوا: هٰذا عدونا، فعند ذٰلك أنزل اللَّه هٰذه الآية[2].

وجاءت أخبار في أسباب النزول:

منها: أن عبداللَّه بن صُورِيا ـ من علماء اليهود ـ سأل النبي ﷺ عن الملَك الذي ينزل عليه بالوحي، فقال: هو جبريل: فزعم أنه عدوٌّ

---

(١) أي: نجتمع معك علىٰ دينك.

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٧٨).

اليهود، وذكر من عداوته أنه أنذرهم بخراب بيت المقدس فكان ذٰلك.

ومنها: أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل مِدراسهم[١] فذكر جبريل، فقالوا: ذاك عدوُّنا يُطلِع محمَّدًا علىٰ أسرارنا، وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسِّلم... إلىٰ آخر مهاتراتهم الدالة علىٰ لؤمهم وقبيح أفعالهم، وسوء منطقهم، وأنهم فقدوا العقل الفطري الروحي الذي يبصرون به الحقائق، وانطمست بصيرتهم بالعقل المادي المضطرب، وإلَّا فكيف يعادون ملكًا مأمورًا من اللَّه؛ لا يعمل شيئًا من تلقاء نفسه، فإن أمره اللَّه بإنزال الرحمة كالوحي المبارك وغيره نزل به علىٰ من شاء اللَّه من عباده، وإن أمره بإهلاك قرىٰ أو مدن أهلكها كما يريد اللَّه ـ لا كما يريد هو ـ.

إذن فالمعادي له معادٍ لمن أرسله، ولما نزل به من الرحمة، وهو قد شارك في إهلاك فرعون بإذن ربه، وهو الذي أنزل القرآن علىٰ قلب سيدنا ونبينا محمد ﷺ بإذن اللَّه عالم الخفيات والجليات، وهٰذا القرآن الذي نزل به جبريلُ مصدقًا لما بين يديه من التوراة موافقًا لها، وللكتب التي قبلها في أصول التوحيد، ومطابقًا لما في التوراة من شأن موسىٰ، ومن البشارات بمحمدٍ ﷺ وفيه ما يُعلي شأنكم، ويحقق أمانيكم في الآخرة إذا عملتم به عمل المؤمن الصادق، فمن واجبكم تصديقُه لذاته، مع ضرب الذكر صفحًا عمن نزل به، فعداوة اليهود لجبريل لا يصح أن تصدَّهم عن الإيمان بِهٰذا الوحي:

أولًا: لكونه لم ينزل به إلَّا بإذن اللَّه ليس افتئاتًا عليه.

ثانيًا: لكونه مصدقًا للتوراة، فمن واجبكم الفرح والإيمان بما يصدقها.

ثالثًا: أن الذي نزل به جبريل عليه السلام هدىٰ، أي فيه هداية عظيمة من البدع والخرافات التي طرأت علىٰ الأديان بالتحريف والتأويلات، التي

---

(١) **المِدراس** ـ بتقديم الدال علىٰ الراء ـ: مدرستهم ومحل تعليمهم.

هي من تلبيس شياطين الجن والإنس، حتىٰ ألقت أهلها في الذلة والهوان، فالعاقل ـ عقلًا فطريًّا ـ لا يرفض الهداية التي تُنقذه من الضلال، وتشمخ برأسه نحو السماء، لكون الواسطة فيها عدوًّا له في زعمه الكاذب، فإنا لو فرضنا صدقهم في عداوته، لكان رفضهم للحق والهدىٰ الذي جاء به سفاهةً وحماقةً، لا يصدران إلَّا من الجاهل الذي لا يعرف الحق لذاته، وإنما يعرفه بمن كان سببًا في حصوله.

رابعًا: أنه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: إن كان قد أنذركم بخراب بيت المقدس، فإنما أنذر المفسدين الذين هم السبب في خراب الدار، والآن أتىٰ بالبشرىٰ للمؤمنين، فكيف تتركون هٰذه البشرىٰ إن كنتم من أهل الإيمان؟ فما بالكم لا تحقِّقون الإيمان حتىٰ تَظفَروا بِهٰذه البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ ثم إن هٰذه العداوة المزعومة عداوةٌ وهميَّة، لا صحة لها ولا أثر، ولا يدعيها من له أدنىٰ مُسكةٍ من عقل، وتعليلاتهم لها تعليلات واهية، لا يجوز النطق بها ـ فضلًا عن اعتقادها ـ؛ لأنه[1] ـ كما قدمنا ـ لا يعمل عملًا من تلقاء نفسه، كما قال اللَّه تعالىٰ حكايةً عنه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، مسألتان:

أحداهما: قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ يعني: القرآن، وهو لم يسبق له ذكر، فكيف جرىٰ هٰذا الإضمار.

والجواب: إن قرينة الحال هي التي عينته، وذٰلك يدل علىٰ فخامة شأنه، وعلو مجده، فكأنه لشهرته استُغني عن ذكره.

ثانيتهما: قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ولم يقل: «علىٰ قلبي»؛ لأن المأمور في إجابتهم هو محمد ﷺ، فمقتضىٰ الأمر أن يقول: «نزله علىٰ قلبي»؛ فما هٰذا الالتفات عن التكلم إلىٰ الخطاب؟.

أجابوا: إن هذا جاء حكاية عن كلام اللَّه كما تكلم به؛ كأنه قيل:

---

(١) أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قل ما تكلمتُ به من قول. والله أعلم.

وقوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾:

ردٌّ قامع لما زعمته اليهود من عداوة جبريل، وبيان لحقيقة حالهم، وذٰلك بعدما أقام الحجج في الآية السابقة علىٰ حماقتهم في دعواهم لعداوة جبريل، وأن تلك العداوة لا تمنع من قبول الهداية التي كان فيها واسطة بين الله ورسوله محمد ﷺ، فلا يجوز لهم ولا يصح منهم ـ أبدًا ـ أن يمتنعوا من الإيمان بالقرآن الذي أنزله الله بتلك الصفات المفصَّلة في الآية السابقة. وهنا بيَّن حقيقة حالهم، وهي أنهم أعداء للَّهِ ولجميع ملائكته ورسله، فليست عداوتهم محصورةً بجبريل كما يزعمون، وإنما هم أعداء للَّه الذي أرسل جبريل، بإنزال وحيه إلىٰ الأنبياء، فجبريل سفير، لا يعاديه إلَّا الذي يعادي من أرسله، فعداوتهم لجبريل ناشئة من عداوتهم للَّهِ بجنابه الكريم، وتمردهم علىٰ وحيه ورسالاته، ومحاولتهم تبديل كلماته ـ كما مضىٰ تفصيل ذٰلك ـ.

فالله أرشد محمدًا وأمة محمد لبيان حقيقة حالهم، وأنهم أعداءُ للَّه قبل كل شيء، وأن عداوتهم لجبريل تستلزم عداوتهم لميكائيلَ وغيره من الملائكة؛ لأن وظيفتهما واحدة، وفطرتهما واحدة، وحقيقتهما واحدة، مَن مَقَتَ أحدهما فقد مقت الآخر، بل مقت جميع الملائكة والمرسلين، فعداوة جبريل لا تستلزم عداوة الملائكة فقط، ولٰكن تستلزم عداوة جميع المرسلين ـ أيضًا ـ مع الملائكة، ومنشأ هٰذا كلِّه عداوتهم للَّه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعني: من عادىٰ الله وعادىٰ هٰؤلاء المقربين منه ـ الذي جعلهم رحمةً لخلقه ـ؛ فإنه كافر، والله عدو للكافرين، فهٰذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاؤوا بها، وهم لم يَدَّعُوا عداوةَ هٰؤلاء كلهم، ولٰكن هٰذا حكمهم عند الله في نفس الأمر، فأراد ﷻ أن يبين لنا حقيقة حالهم في الواقع بأنهم أعداء للحق، وأعداء

لكل من يمثله، أو يصدر علىٰ يديه، أو ينقله، أو يدعو إليه، وأن التصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل، الذي يزعمون محبته، ويزعمون أنهم سيؤمنون بمحمد ﷺ لو كان الذي نزل عليه بالوحي هو ـ أي: «ميكال» ـ!.

وكذٰلك معاداة القرآن معاداةٌ لجميع الكتب السماوية ـ حتىٰ التوراة التي يفتخرون بها ـ؛ لأن الغرض من الجميع واحد، فأقوالهم وأحوالهم تدل علىٰ معاداة كل من ذكر اللَّه في هٰذه الآية، وهٰذا من ضروب إيجاز القرآن وإعجازه، وفي قوله سبحانه: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، وضع للمُظهَر مكان المضمر ليبين سبحانه أن سبب عداوته لهم هو الكفر؛ لأن اللَّه لا يعادي قومًا لذواتهم ولا لأنسابهم، ولا يوالي قومًا لذواتهم وأنسابهم، وإنما هو سبحانه يبغض الكفر، ويعادي أهله، ويعاقبهم عليه، ويحب الإيمان، ويوالي أهله، ويزينه في صدورهم، ويزيدهم منه تقوىٰ، ويجزيهم عليه أحسن الجزاء.

تنبيه: «جبريل» معناه: قوة الإلٰه، أو عبداللَّه؛ لأنه اسم مركب من «جَبْر» أي القوة، و«إِيل»، أي الإلٰه، وفيه ثمان لغات قرئ بِهن، والمشهور منهن أربع:

أحدها: جَبْرَئِيلُ ـ كسلسبيل ـ، قرأ بها حمزة والكسائي.

وثانيها: جَبْرِيلُ ـ بفتح الجيم وحذف الهمزة ـ، قرأ بها يحيىٰ بن كثير والحسن وابن محيصن.

وثالثها: جِبْرِيلُ ـ بكسر الجيم والراء ـ، وهي لغة أهل الحجاز.

ورابعها: جَبْرَئِلّ ـ علىٰ وزن جَبْرَعِلَ ـ، بفتح الجيم والراء، وهي قراءة أبي بكر بن أبي عياش عن عاصم، وهناك أربع أو ست قراءات أعرضنا عنها لعدم شهرتها.

تنبيه آخر: وهو أنه سبحانه لما ذكر الملائكة في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾؛ فلمَ أعاد ذكر جبريل وميكال ـ مع اندراجهما في

مسمىٰ الملائكة ـ؟!

والجوابُ من وجهين:

أحدهما: أنه لفضلهما أفردهما بالذكر، كأنهما ـ لكمال فضلهما ـ صارت لهما ميزة تخرجهما من الجنس.

ثانيهما: أن الذي جرىٰ بين الرسول واليهود هو ذكرهما، والآية إنما نزلت بسببهما، فَحُقَّ التنصيص علىٰ اسمهما، ولا ريب أن هٰذا يقتضي كونهما أشرف من جميع الملائكة، وإلَّا لم يصح هٰذا التأويل.

وإذا ثبت هٰذا فيجب أن يكون جبريل عليه السلام أفضل من ميكائيل عليه السلام لعدة وجوه:

أحدها: أنه تعالى قدم ذكر جبريل، وتقديم المفضول علىٰ الفاضل في الذكر مستقبحٌ عرفًا، فوجب استقباحه شرعًا، ولذا قدَّمه اللَّه؛ لأنه فاضل علىٰ مفضوله ميكائيل.

ثانيها: أن جبريل ينزل بالقرآن علىٰ محمد ﷺ، ووحي اللَّه هو غيث القلوب ومادةُ بقاء الأرواح، وميكائيل ينزل بالخَصب والأمطار التي هي قوت الأبدان والحيوان، فلما كان الغذاء الروحي أشرف وأعلىٰ من الغذاء البدني كان النازل بالغذاء الروحي أفضل من المأمور بتصريف الغذاء البدني.

ثالثها: أن اللَّه وصفه في القرآن بأوصاف لم يصف بها ميكائيل ولا غيره، فوصفه بأنه ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير]، وأنه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم]، إلىٰ غير ذٰلك.

تنبيه ثالث: في قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إنذارٌ شديد لمن زعم عداوة جبريل من اليهود ـ وأشكالهم المبتدعة ـ المتهمين لجبريل بصرف الرسالة عما يريدون، كما اتهم اليهودُ جبريل بصرف الرسالة من بني إسرائيل إلىٰ بني إسماعيل، فكأنَّ اللَّه عز وجل يقول: يا من يعادي جبريل، إنكم لن تضروه، فعداوتكم له غير مجديةٍ بكم ولا ضارةٍ به، ولٰكنكم

كسبتم بعداوته عداوة اللَّه، ومن عاداه اللَّه فلن يُفلح ولن ينجح.

إن من عاداه اللَّه صار متعرضًا لعقوبات اللَّه القدرية الهائلة المتنوعة التي لا تحيط بها العقول، هٰذا في الدنيا؛ زيادةً علىٰ ما ادخر اللَّه لهم من العذاب في الدار الآخرة، مما لو ملكوا أضعاف ما في الأرض لافتدوا به من سوء ذٰلك العذاب، ولن يُتقبَّلَ منهم، وقد اقتضىٰ عدل اللَّه في خلقه أن يكون لكل عمل يعملُه الإنسان في ظاهره مما تقترفه جوارحه أو في نفسه وضميره أثرٌ في نفس العامل يزكيها أو يدنسها. وسعادة الإنسان أو شقاؤه تابع لآثار اعتقاداته وأعماله في نفسه، ولذٰلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل].

تنبيه رابع: كيف استقام قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أن يكون جوابًا للشرط؟.

وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن اللَّه بيَّن فساد عداوة اليهود لجبريل؛ لأنه لم يعمل إلَّا ما أمره اللَّه به، بإنزال القرآن كتاب الهداية والبشارة، فحيث إنه مأمور ممتثلٌ، وجب أنه يكون معذورًا ـ بل مشكورًا ـ، فلا وجه لعداوة اليهود له.

ثانيهما: أنهم إن كانوا يعادونه، فيَحِقُّ لهم ذٰلك؛ لأنه نزل عليك الكتاب مؤيدًا نبوتك ومصدقًا، وهم يكرهون ذٰلك، فلهٰذا عادوا جبريل لما جاءك بالأمر الذي يكرهونه.

تنبيه خامس: في قوله سبحانه: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وهو منزل علىٰ ذاته ﷺ لا علىٰ قلبه، لٰكنه خص القلب بالذكر لأنه وعاء الحفظ، فالذي أداه جبريل إلىٰ مسامعه ثبت في قلبه، حتىٰ أداه إلىٰ أمته تمامًا، فلذٰلك جاز التعبير بالإنزال علىٰ القلب، واللَّه أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

بعدما فضح اللَّه تعللات اليهود الكاذبة، وفندها، وأعلن عداوته للكافرين جميعًا، مِن كلِّ مَن هم علىٰ شاكلة اليهود؛ أتىٰ بِهٰذه الآية الكريمة مصرحًا فيها بأن القرآن منزل من عنده وحده، وأنه في نفسه آيات بينات، علامات واضحات، لا يحتاج شيء منه إلىٰ آية أخرىٰ تبينه وتشهد له، بل هو ـ بحمد اللَّه ـ يتلوه شاهدٌ منه، لا يحتاج إلىٰ دليل من خارج ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، ولا شك أن ما كان بيّنًا في نفسه، فهو أولىٰ بالقبول مما يَحتاج في بيانه إلىٰ غيره.

واعلم أن هٰذه الآية ونحوها ـ ممَّا نصت علىٰ نزول القرآن وتنزيله ـ هي من جملة الشواهد والأدلة لأهل السنة الحقيقيين ـ أتباع السلف الصالح ـ علىٰ علو اللَّه علىٰ جميع خلقه، ومباينته لهم، وعلوُّ اللَّه علىٰ خلقه حقيقةٌ واضحة، أثبتها لنفسه في وحيه من كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، ولا يلزم منها تجسيمٌ ولا تحيُّز[1]، ولا حَصْرٌ في[2] جهة ـ كما توهَّمه الخاضعون لمصطلحات المنطق اليوناني الذي كله يعتبر افتراءً علىٰ اللَّه، يَحرُم الرجوع إليه والتعويل عليه ـ، ولٰكن هٰذا كله من غش اليهود ومكرهم بِهٰذه الأمة، فإن جعد بن درهم وجهم بن صفوان اللذينِ أخذ كل طائفةٍ من مذاهبهم علىٰ حسب قربه أو بعده من مذهب أهلِ السنة، هٰذان الخبيثان أخذا معلوماتهما من يهودي اسمه «طالوت» حفيد ابن الأعصم الذي سحر رسول اللَّه ﷺ.

وقد عَلِق بأذهان رجال صالحين أشياء من تلك الشبهات والأراجيف؛ لأنهم يصبونها في قالب التنزيه للَّه مما يجعل بعض العلماء ينحرف إليها بحسن نيةٍ وسلامة صدر، وانطباعًا بتلك

---

(١) **التحيُّز**: المحاط بالجهات الست.
(٢) في المطبوع: «من»، والأصح ـ إن شاء اللَّه ـ ما أثبتناه.

الأراجيف التي يرجفون بها علىٰ المثبتين بأنهم حشوية، ومجسمة، ومشبهة، وفرعونية، وخوارج، إلىٰ غير ذٰلك من الألقاب المنفرة، حتىٰ إنهم اضطروا في تفسير مثل هٰذه الآية التي تنص علىٰ الإنزال أنه ليس إنزالًا حسيًّا، وإنما هو لبيان علو الربوبية علىٰ مرتبة المخلوقين، هروبًا مما توهموه من استلزام الحصر والتحيز من جهة واحدة! وفاتهم ـ علىٰ عظم شأنهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ـ أن التنزيه القطعي يبطل اللزوم، كما فاتهم أن مسألة الجهات نسبية ـ لا حقيقية ـ، يعني أن تصور الجهات بالنسبة إلىٰ المخلوق، لا بالنسبة إلىٰ الخالق؛ فإنها تكون عنده عدميةً لا وجود لها أمام عظمته وذاته العلية. وكيف يكون للجهات وجودٌ وقد وسع كرسيه السماوات والأرض، بل جاء النص الصحيح ـ في البخاري وغيره ـ عنه ﷺ أنه قال: «**ما السماواتُ والأرض في الكرسيِّ إلَّا كحلْقةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ من الأرض، والكرسيُّ لا يَقْدُرُ أحدٌ قَدْرَهُ**»[١]، وفي نص آخر زيادة: «**وما الكرسيُّ في العرش ـ أو بالنسبة إلىٰ العرش ـ إلَّا كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ من الأرض**»[٢] ـ أو كما قال ـ، ولنا عودة إلىٰ سردِ النصوص المهمة في تفسير «آية الكرسيِّ» ـ إن شاء اللَّه تعالىٰ ـ

وإذا كان اللَّه بائنًا من خلقه وهو من ورائهم محيط، فهم أينما كانوا لا يتوجهون إلَّا إليه؛ لأنه فوقهم يعني من جهة العلو بالنسبة إليهم لا إليه سبحانه، وإذا كان الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، فماذا يقال فيمن دونهم؟ وتوجُّهُ البشر إلىٰ ربهم في جهة العلو من قِبَل السماء شيءٌ فطري معروف عند جميع أهل الملل، فهو فوق الخلق، وفوق العباد، حيثما كانوا في أرض أو سماء، وهناك مقامُ الإطلاق الذي لا يقيَّد بقيد، ولا يُحصر في حيِّز، وإنما الحيز والحصر من الأمور النسبية المعتبرة في داخل دائرة الخلق، يعني أن الجهات الست التي أرادوا تنزيه الخالق عنها لا وجود لها بالنسبة إليه سبحانه بتاتًا، وإنما

(١) رواه ابن حبان (٢/٧٦).
(٢) انظر الحديث السابق.

وجودها بالنسبة إلىٰ المخلوقين، وحتىٰ إثبات جهته الفوقية فهي بالنسبة إلىٰ المخلوقين لا إليه سبحانه قطعًا، فهو فوق خلقه، ولا جهةَ تحويه أبدًا؛ بل كل الجهات حديثة قطعًا.

وأما كون آيات اللَّه «بينات» فلإعجازها البشر أولًا، ولقَرنِ[١] المسائل الاعتقادية ببراهينها ثانيًا، ولقرنها الأحكام الشرعية الفرعية بوجوه منافعها وحكمتها المقنعة للمؤمنين ثالثًا.

فآياتُه بينات واضحات، يشهد بعضها لبعض، بحيث لا تحتاج إلىٰ دليل آخر يدل علىٰ أنها هداية جديرة بالاتباع، بل تدل بنفسها علىٰ نفسها عند أصحاب الفطر السليمة، والعقول الصريحة المستقيمة.

ولهٰذا قال ﷻ: ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الذين أخرجوا نفوسهم من نور الفطرة، وانغمسوا في ظلمات التقليد[٢]، تاركين طلب الحق، لإدراكهم عدم الاستعداد لمعرفته، فهم لا يطلبون الحق إلَّا من زعمائهم، ومقلديهم، **وهٰذا نوع من أنواع الفسقة.**

والنوع الثاني: قوم استحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، بعد أن ظهر لهم الحق حسدًا وعنادًا.

و«الفسق» في اللغة: خروج الإنسان عما حَدَّ اللَّه له من عبوديته وطاعته والتزام أمره، وتحكيم شريعته، فكل من خرج عن هٰذا الحد الإلٰهي كان فاسقًا.

وأول الفسقة إبليس؛ كما قال تعالىٰ عنه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. والعرب تقول: فسقت النواةُ: إذا خرجت عن الرُّطَبةِ عند سقوطها.

وهٰذه الآية ممَّا قبح اللَّه به اليهود، وفضح أكاذيبهم، فإنهم كانوا

---

(١) القَرْن: الاقتران.

(٢) في المطبوع: «التقييد»، ولعل الأصح ما أثبته، والمقصود: تقليد الآباء والسفهاء.

يستفتحون علىٰ الأوس والخزرج برسول اللَّه ﷺ قبل مبعثه، فلما بُعث ـ وكان من العرب لا من بني إسرائيل ـ، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ ابن جبل: «يا معشر اليهود، اتقوا اللَّه وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفون لنا صفته! فقال بعضهم: ما جاءنا بشيء من البينات، وما هو بالذي كنا نذكره لكم، فأنزل اللَّه هٰذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾» اهـ.

ومعنىٰ «تستفتحون»: تستنصرون علينا به. ولقد كذبوا كذبًا شنيعًا، لا يستحسن صدوره من عاقل جاهل، فكيف إذا كان من صاحب كتاب؟.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

الهمزة همزة استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ علىٰ ما يقومون به من الفسق، وقد أراد اللَّه سبحانه أن يسلي رسوله ﷺ عند كفرهم بما أنزل اللَّه عليه من الآيات، ليخبره أن هٰذا ليس ببِدْع منهم، بل هو سجيتهم وعادتهم، ورثوها من أسلافهم القدماء.

وتلك العهود التي نقضوها كثيرةٌ متوالية:

منها ما هو عهد ضمني نبذوه.

ومنها ما هو ميثاق نقضوه.

فالضمني كإظهار الدلائل الواضحة الدالة علىٰ نبوة محمد ﷺ؛ فإن ظهور تلك الدلائل كعهدٍ ضمنيٍّ يوجب عليهم الإيمان به، والالتزام الكامل بما جاء به من الوحي.

ومنها العهد القوليُّ الذي كانوا يكررونه للمشركين من الاستفتاح بمحمد ﷺ.

ومنها أنهم كانوا يعاهدون اللَّه كثيرًا، وينقضون العهود، كما كانوا ينقضونها مع النبي ﷺ.

وقوله سبحانه: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، هٰذا التبعيض للاحتراز من قليل منهم قد آمن، ولهٰذا ختم اللَّه الآية بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفيه قولان:

أحدهما: أن أكثر الفساق لا يصدقون بمحمدٍ ﷺ أبدًا؛ لشدة بغيهم وحسدهم.

الثاني: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يصدقون بكتابهم المنزل عليهم من قبل، لأنهم لو آمنوا بكتابهم ـ التوراة ـ لاهتدوا بإيمانهم هٰذا إلىٰ الإيمان بمحمد ﷺ، ولٰكن موقفهم مُعْلِنٌ عن كفرهم بالتوراة، وليس عندهم من الإيمان بها إلَّا مجرد المزاعم.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾:

في هٰذه الآية الكريمة بيان لحال جديدة من أحوال اليهود ـ عليهم لعائن اللَّه ـ؛ وهي أنهم لما جاءهم رسول من عند اللَّه ـ وهو محمد ﷺ ـ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ حيث كان معترفًا بنبوة موسىٰ، وبالتوراة التي تلقاها من اللَّه هٰذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ فإن التوراة بشرت بمجيء محمد ﷺ، فكان هٰذا تصديقًا للتوراة، لٰكنهم مع هٰذا كله وقفوا منه أبشع موقف وأقبحه، حيث نبذ فريقٌ منهم كتاب اللَّه الذي يفاخرون به، ويزعمون أنهم مكتفون بالهداية به، نبذوه وأعرضوا عنه بمثل ما يُرمىٰ به من وراء الظهر زهدًا به، وعدم التفات إليه أو مبالاة.

وقد اعتبرهم اللَّه نابذين لكل الكتاب، وخارجين عنه في الجملة، وهم لم ينبذوا إلَّا بعضه، وذٰلك لأن الكفر ببعضه، أو الجناية علىٰ بعضه بالتحريف، أو العمل ببعضه دون البعض الآخر، يُعتبرُ في حكم اللَّه نبذًا للجميع، وكفرًا بالجميع، وطرحًا للجميع.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ تشبيه منه سبحانه لتركهم إياه بمن يلقي الشيء وراء ظهره، حتىٰ لا يراه ولا يتذكره، وأما كون ترك الجزء منه كتركه بالكلية؛ فلأن ترك بعضه يذهب بحرمة الوحي من النفوس، ثم يجرئها علىٰ ترك الباقي، ولهٰذا كان قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعًا، فيما كتبه اللَّه علىٰ بني إسرائيل، كما نصت عليه الآية (٣٢) من سورة المائدة.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني أنهم بالغوا في ترك الكتاب وإهماله حتىٰ صاروا كأنهم لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾:

يخبر اللَّه سبحانه عن بني إسرائيل: أنهم لما نبذوا كتاب اللَّه المنزل علىٰ محمد ﷺ؛ لم يلتزموا الكتاب المنزل علىٰ موسىٰ قبله ـ كما يتبجحون إفكًا وزورًا ـ؛ بل نبذوا الجميع ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ يعني: ما كانت تتلوه ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي في ملك سليمان، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ عليه السلام، وحاشاه من الكفر، ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾، وهم الذين يعلمون الناس السحر، وينسبونه إلىٰ سليمان زاعمين أنه لم يتسلط علىٰ الجن والطير والوحوش إلَّا بما يعلِّمه من السحر، منكرين ما وهبه اللَّه من الكرامة والملك، الذي لا ينبغي لأحد من بعده.

✍ **وهاهنا مسائل عظيمة:**

أحدها: ما قاله السُّدي وغيره من أن الشياطين تصعد إلىٰ السماء، فيستمعون كلام الملائكة ـ فيما يكون في الأرض من موت وغيره ـ، فيبثُّونه علىٰ الكهنة ويخبرون به، فلما رأوا صدقه أخذوا يزيدون علىٰ الكلمة الواحدة سبعين كذبةً، ليروِّجوا علىٰ الناس الأباطيل، فيَلبِسوا عليهم أمورهم، فحصل من ذٰلك خبطٌ كثير وشعوذة، وأن نبي اللَّه سليمان أخذ ما كتبوه من ذٰلك كله، ودفنه مع ما كتبوه من أنواع السحر الأخرىٰ تحت كرسيه، فلما مات ﷺ دلهم عليه بعض الشياطين، وقال لهم: هٰذا الذي كان سليمان يسيطر بواسطته علىٰ الناس، وقد أخبر اللَّه سبحانه عن صعود الشياطين إلىٰ السماء لاستراقهم السمع، وأنهم كانوا علىٰ هٰذه الطريقة حتىٰ مبعث محمد ﷺ، فسلط اللَّه عليهم الرجم بالشهب، وأما اليهود فإنهم مولَعون بكل رذيلة، ولهٰذا كان السحر من طبيعتهم.

ثانيها: «السحر» معناه في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفىٰ سببه، ويتخيل علىٰ غير حقيقته، وعند العرب: كل ما لطُف مأخذه، ودقَّ وخفي، ويقولون: سَحَره، وسحَّره، بمعنىٰ: خدعه وعلَّله، ويقولون: عين ساحرة، وعيون سواحر، وفي الحديث: «**إن من البيان لسِحرًا**»[1]، فكل ما لطف مأخذه، ودق صنعه ـ بحيث لا يعرفه غير أهله ـ فهو سحر، لكونه خفي باطني، ولهٰذا يقال للخداع: ساحر، لخفاء الخداع ودقته، ومتىٰ أطلق ولم يُعْتَدْ فهو مذموم وفاعله مذموم.

ثالثها: جزم كثير من الناس بأن السحر لا حقيقة له، وأنه مجرد تخييل وتمويه، وقد دللوا علىٰ رأيهم هٰذا بآيات قرآنية، كقوله تعالىٰ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وكقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه]، ولٰكن الحق الذي لا مرية فيه هو أن السحر له حقيقةٌ صحيحة

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٦).

ثابتة، وليس تأثيره في صحة الإنسان ـ بل في حياته ـ، وكثيرًا ما سقموا سقمًا شديدًا من المسحر[(١)]. وتأثيره على القلب والبدن، وأحيانًا على الأحاسيس، وأحيانًا على بعض القوى، وأحيانًا يصل تأثيره إلى الموت والهلاك المحتَّم، وكم شاهدنا وشاهد غيرنا من مات بسبب السحر، حتى إن العلماء قالوا بوجوب القصاص على الساحر إذا بلغ سحرُه بالمسحور إلى الموت.

والسبب في إنكارهم لحقيقة السحر بالكلية: هو كثرة الكذابين ممَّن يزاولون السحر وهم لا يحسنونه؛ بل يدَّعونه دعوى، وليس عندهم منه شيء سوى الشعوذة والأكاذيب، التي يلبسون بها على الناس، وهم عن السحر الحقيقي بمكان بعيد، ونحن نذكر الأقسام المشهورة من السحر الرائج على اختلافه ـ مما هو حقيقي، وغير حقيقي ـ، وهي ثمانية:

أحدها: سحر الكلدانيين والكسدانيين، وهم الصابئة القدامى عبَّاد الكواكب، والذين يعتقدون تأثيرها في الكائنات، ويربطون سحرهم بها، وهم الذين أرسل اللَّه إليهم خليله إبراهيم ﷺ، وسحرُ هٰؤلاء من أنواع الشرك، لاعتقادهم التأثير فيما سوى اللَّه.

ثانيها: سحر أصحاب الأوهام والقوى النفسية، ولا شك أن للنفوس والهمم آثارًا غير مختصة بمسألة معينة، وأن للتصورات مباديَ قريبةً لحدوث الكيفيات في الأبدان، على ما جبلها اللَّه ﷻ، وقد قالوا: إن النفس إذا كانت مستعليةً على البدن، شديدة الانجذاب إلى عالم السماء؛ كانت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قويةَ على التأثير في مواد هٰذا العالم ـ بإذن اللَّه ـ، أما إذا كانت ضعيفةً شديدةَ التعلق بالملذات البدنية؛ فإنها لا تنصرف بغير بدنها أبدًا.

---

(١) كذا في المطبوع، ولعلها: «السحر». اللهم إلَّا إذا جاء فعل السحر رباعيًّا: «أسحر»، فيكون اسم الفاعل منه «مُسحِر»، وإلا فالأصل أن فعل السحر ثلاثي: «سَحَر»، وعليه فيكون اسم الفاعل المشهور: «ساحر»، واللَّهُ أعلم.

ثالثها: سحر المستعينين بالجن، ولهم ضروبٌ في تحضيرهم وتسخيرهم، قد يفسُق صاحبها أو يكفر علىٰ حسب الوسيلة التي يستعملها لتحصيل ذٰلك.

رابعها: التخييلات والأخذ بالعيون، وذٰلك بجعل القوة الساحرة قد تُبصر الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه لوسائل يعملونها.

خامسها: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات علىٰ خطط هندسية مناسبة لها، ومنها الحركات العجيبة السريعة التي يعملها أهلُ الروم والهند، مما لا نطيل بذكره.

سادسها: الاستعانة بخواص الأدوية المبلِّدة ـ كدماغ الحمار ـ، أو المفتِّرة والمسكرة المزيلة للعقل، وكالتفنن في استعمال الزئبق والمغناطيس، مما يحدث بهما من العجائب.

سابعها: سحر يُنفَثُ في العقد، ويجعل في أمشاط وقِحفٍ وشعر ونحوه، ويوضع في مكان يحصل به مرض قلبي وبدني، حتىٰ يكشف وينقض أو يموت صاحبه، فهٰذا سحرٌ حقيقي، وفي مقابلته سحرٌ وهمي ينشأ من الخوف وضعف القلب.

ثامنها: السعي بالتميمة والتضرب من وجوه خفيفةٍ لطفية، وذٰلك شائع في الناس.

وللسحرة طرق وضروب كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو تخييل وتزييف، ولهٰذا التبس علىٰ كثير من الناس حقيقةُ السحر، حتىٰ أنكروه، ولو لم يكن له حقيقة ولا تأثير لما كان بعضُ تناوله كفرًا، ولما تعبدنا اللَّه في كتابه الكريم بالاستعاذة من النفاثات في العقد ـ وذٰلك في سورة الفلق ـ؛ لأن الاستعاذة من روح التوحيد[1]، ولا يستعاذ باللَّه مما ليس له حقيقة، وكذٰلك الذي ليس له حقيقة؛ لا يكون صاحبُه كافرًا يجب قتله، ولا يكون تعلمه كفرًا، لٰكن لما كان للسحر حقيقةٌ

---

(١) يعني من لُبِّه وأصله.

أخرىٰ غير الشعوذة والتخييل كان صاحبه كافرًا واجب القتل، وكان المتعلم له كافرًا ـ كما سيأتي توضيحه ـ، واللَّه المستعان.

✍ **وهاهنا مسائل:**

أحدها: أن الساحر يستطيع أن يطير في الهواء علىٰ جريدٍ أو غيره، كما هو معروف مشهور في كل زمان، يعرف فيه أناس من هٰذا النوع، وهٰذا بقدرة اللَّه وتدبيره، فهو الذي أقدرهم ومكَّنهم، وكذٰلك يستطيع الساحر أن يقلب الحيوان إنسانًا، وبالعكس، ولٰكن هٰذا ـ أيضًا ـ بقضاء اللَّه وقدره، فهو الذي أقدرهم وسلطهم، وهٰذا معروف في بعض البلدان التي يحصل بها السحر الحقيقي، وأعاجيب السحر كثيرة مشهورة ـ وإن حصل من ينكرها من المكابرين ـ، ولٰكن اللَّه سبحانه في هٰذه الآية الكريمة ركز دعائم التوحيد بقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فهم لا يقدرون أبدًا علىٰ ما لم يُقدرهم اللَّه عليه، ويسلطهم عليه لحكمة، ولهٰذا تجد الذي يبتلىٰ بأضرار السحرة في الغالب هم الفاسقون، ذوو الأغراض الشهوانية الدنيئة.

ثانيها: هل يكفر الساحر علىٰ الإطلاق؟ أو لا يكفر إلَّا بانضمام اعتقاد آخر؟ ظاهر الآية يدل علىٰ كفره مطلقًا، لقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، ولٰكن بما أن السحر أنواع كثيرة، وفيه ما هو من الشعوذة والتخييل، وفيه ما هو حقيقي، فينبغي التفريق بين الساحر الحقيقي فيكفُر، وغيره لا يكفر، بل هو فاسق، وكذٰلك الساحر الذي يدعي لنفسه التأثير في الكائنات، فإنه يكفر بلا نزاع ولا خلاف.

ثالثها: هل يقتل الساحر أم لا؟ الصحيح أن الساحر الحقيقي إذا حصل منه الإضرارُ بأحدٍ فإنه يقتل، سواء كان القتل حدًّا أو ردةً، ولإمام المسلمين أو نائبه أن يقتل من حصل الافتتان به، ولو لم يُنزل ضررًا يستحق القتل، إذا رأىٰ أنه من المفسدين في الأرض، وكذٰلك يُقتل

الساحر وجوبًا محتمًا إذا ادعىٰ لنفسه التأثير في الكائنات، ونحو ذٰلك من الدعاوىٰ الباطلة، التي يحصل بها زعزعة عقائد العامة.

رابعها: أنكر بعض العلماء المتأخرين أن يكون الرسول ﷺ قد سحره يهوديٌّ ـ أو يهودية ـ، وهٰذا الإنكار لا ينبغي صدوره؛ لاقتضائه إنكارَ واقعة محسوسة لا يجوز إنكارها، وقد ثبتت الأحاديث الصحيحة بها، وأن جبريل عليه السلام نزل إليه فرقاه بالمعوِّذتين[1].

وشبهة أولٰئك المنكرين لسحره أمران:

أحدهما: أن اللَّه قد عصمه من الناس، فكيف يتسلط عليه ساحر؟.

ثانيهما: أن المعوذتين من السور المكية[2].

والجواب عن الأول: أن عصمة اللَّه له من الناس لا تنفي حصول السحر؛ بل تنفي قوة تأثيره، وقد عصمه اللَّه من تأثير السحر علىٰ جسمه أو عقله، لٰكن هٰؤلاء لم يتفطنوا لمعنىٰ قوله: «**يُخيل إليَّ أني قد فعلت الشيء ولم أفعله**»[3]، وهٰذا واضح في عدم نفوذ السحر إلىٰ أحاسيسه، فأصبح تفكيره صحيحًا سليمًا يعلم به فساد التخييل، وأنه لم يفعل شيئًا، فأصبح معصومًا من نفاذ السحر إلىٰ عقله.

وأما المعوِّذتين[4]: فلا ينافي رقيةَ جبريل كونُهما من السور المكية، واللَّه أعلم.

خامسها: قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، فيه رد علىٰ اليهود الخبثاء الذين نبذوا وحي اللَّه وراء ظهورهم، واتبعوا الشياطين في مسالك السحر وأنواعه التي ينسبونها إلىٰ نبي اللَّه سليمان عليه السلام، زاعمين أن ما حصل عليه من الملك

---

(١) تقدم تخريج حديث السحر. وأما رقية جبريل؛ فرواه مسلم (٣٩).
(٢) يقصدون أن قصة السحر ـ التي ينكرونها ـ حدثت له في المدينة.
(٣) رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩).
(٤) وهٰذا هو الجواب عن الثاني.

والتسلط علىٰ الجن والطير والريح ـ التي تطير به في الفضاء غدوها شهر ورواحها شهر ـ، وإسالة الحديد له، كله من السحر الذي تفوق به واحتكره عن غيره، ففي هٰذه الجملة من الآية فائدتان:

أحدهما: تبرئة ساحة سليمان؛ من السحر الذي نسبه اليهود إليه زورًا، وبيان أنه نبي معصوم من الكفر؛ لأن السحر الذي يصل إلىٰ هٰذا الحد لا شك في كفر صاحبه، ولٰكن اللّٰه وهب لسليمان هٰذه المواهبَ كمعجزات باهرات قاهرات.

ثانيهما: أن ظاهر الآية يقتضي أنهم إنما كفروا لأنهم كانوا يعلمون الناس السحر؛ لأن ترتيب الحكم علىٰ الوصف مشعرٌ بالعِلَّة، وتعليم ما لا يكون كفرًا لا يوجب الكفر، فصارت الآية دالةً علىٰ أن تعليم السحر كفر، وعلىٰ أن السحر الحقيقي ـ أيضًا ـ كفر، أما أنواعه الأخرىٰ فليست كفرًا، بل فسقًا حتىٰ ينضم إليها دعاوٍ تُخِل بالعقيدة كما أسلفنا بيانه.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن «ما» بمعنىٰ الذي، وللمفسرين فيها ثلاثة أقوال: أصحها أنه عطف علىٰ السحر، أي يعلِّمون الناس السحر، ويعلمونهم ما أنزل علىٰ الملكين ـ أيضًا ـ، وإنما كان هٰذا أصح الأقوال؛ لأن عطف قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ علىٰ ما يليه أولىٰ من عطفه علىٰ ما بعُد عنه، إلَّا لدليل خارجي.

وقوله ﷻ: ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ عطفُ بيانٍ للملكين، وعَلَمانِ لهما، وهما اسمان أعجميان ممنوعان من الصرف، ولو كانا علىٰ ما زعمه بعضهم من «الهَرْت والمَرت» ـ الذي هو الكسر ـ لانصرفا.

وقرأ الزهريُّ بالرفع[1]، ولٰكن المتواتر قراءة النصب.

(١) أي: «هاروتُ وماروتُ». ولها وجهٌ صحيح في العربية.

وقرأ الحسن «مَلِكين» ـ بكسر اللام ـ، وروي عن ابن عباس والضحاك مثل هٰذه القراءة، وبها يزول عن بعض الناس إشكال، ولٰكن القراءة المشهورة المتواترة بفتح اللام، وهما ملكان نزلا من السماء بصورة رجلين، وقد ورد في سبب نزولهما أثرٌ تناقله أكثر المفسرين، والظاهر أنه من الموقوف علىٰ كعب الأحبار، فلهٰذا أعرضت عن ذكره؛ لأني ملتزمٌ بعدم رواية الضعيف، فكيف بالموقوف علىٰ أمثال هٰذا؛ خصوصًا وفي متنه ـ فضلًا عن سنده ـ ما يخالف المعقول والمنقول؟!.

أما قوله سبحانه عنهما: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ فذٰلك إيضاح من اللّٰه لحالهما أنهما لا يعلمان السحر إلّا بعد التحذير الشديد من العمل به المقتضي للكفر، وهو قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، والمراد بالفتنة هنا: المحنة التي يتميز بها المطيع من العاصي، والمؤمن من الكافر أو الفاسق، كقول القائل: فتنتُ الذهبَ بالنار إذا عرضه علىٰ النار ليتميز خالصه من مغشوشه، فهما لا يعلِّمان أحدًا السحر، ولا يصفانه لأحد، ولا يكشفان له من أسراره حتىٰ يبذلا له النصيحة، فيقولان له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، أي: هٰذا الذي نعلمك إياه يمكنك أن تتوصل به إلىٰ المعاصي والمفاسد التي توقعك في الكفر، فحاذر منه واترك تعلمه.

والحكمة من إنزال الملكين عدة أمور:

أحدها: أن السَّحَرة كثرت في ذٰلك الزمان، واستنبطت أمورًا غريبة في السحر، فتجرأ السحرة بواسطتها علىٰ ادعاء النبوة، وتحدي الناس بها، فأنزل اللّٰه هٰذين الملكين، ليعلما الناس السحر وأبوابه، حتىٰ يتمكنوا من معارضة الفَجَرةِ الذين يدَّعون النبوة، وهٰذا من أحسن المقاصد، لصيانة مقام النبوة عن الشعوذة.

ثانيها: أن العلم بمخالفة المعجزة للسحر متوقف علىٰ العلم بماهية المعجزة، وبماهية السحر، وقد كان الناس يجهلون ماهية

السحر؛ فتعذر عليهم معرفة حقيقة المعجزة، فبعث اللَّه هٰذين الملكين لتعريف الناس بماهية السحر، ليميزوا بينه وبين المعجزة.

ثالثها: أن الجن كان عندهم أنواعٌ من السحر لا يعرفها البشر، فبعث اللَّه هٰذين الملكين ليعلما الناس هٰذه الأنواع التي يعارضان بها الجن.

رابعها: أن السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء اللَّه، والألفةَ بين أوليائه هو مستحب أو مندوب(١)، ولهٰذا الغرض بعث اللَّه الملكين، ولٰكن الناس استعملوا ذٰلك في الشر.

خامسها: أنه يجوز أن يكون ذٰلك تشديدًا في التكليف، حيث تعلَّم الناس السحر من الملكين، وبه يمكنهم الحصول علىٰ لذاتهم، لٰكن اللَّه منعهم من استعماله فكان في ذٰلك مشقة كبيرة، تستوجب الثواب المضاعف.

وهٰذا كله علىٰ قراءة «المَلَكين» ـ بفتح اللام ـ، وهي المتواترة المشهورة.

وأما علىٰ قراءة «المَلِكين» ـ بكسر اللام ـ، فقد قال من جنح إليها: إنهما رجلان متظاهران بالتقوىٰ والصلاح في «بابل» ـ مدينة بالعراق علىٰ نهر الفرات ـ، وكانا يعلمان الناس السحر، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما، إلىٰ أن ما يعلمونه هو وحي من اللَّه، وبلغ من مكرهما ومحافظتهما علىٰ سمعتهما أن يقولا للمتعلم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، يقولان هٰذا بصيغة النصح، ليوهما الناس أن علومهما إلٰهيَّة، وأنهما لا يقصدان إلَّا الخير، كما يفعل هٰذا دجاجلةُ كل زمان ومكان، إيهامًا للناس، وتضليلًا لهم.

وهناك رواية أعرضت عن ذكرها لمخالفتها العقل والنقل.

ومنهم من فسر «المَلِكين» ـ بكسر اللام ـ بأنهما ملكان كافران ببابل، ولٰكن سياق الآية الكريمة يأبىٰ ذٰلك، لأن اللَّه أخبرنا فيها أنهما

---

(١) إن صح هٰذا فيقصد الشيخ في شرع من قبلنا.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، والكافر لا ينصح غيره بترك الكفر، وزعم بعضهم أن قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أن حرف «ما» نافية، والصحيح أنها موصولة ومعطوفة علىٰ ما قبلها، وأنها علىٰ القراءة المتواترة المشهورة بفتح لام ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ من الملائكة الذين أنزلهم اللَّه صيانةً لمقام النبوة من افتراءات المفترين، وفتنةً يمتحن اللَّه بها عباده، ولِلَّهِ أن يمتحن عباده بما شاء كما يشاء، وأما علىٰ القراءة المرجوحة بكسر اللام ـ كما جنح إليها بعض المفسرين ـ فقد قدمنا إيضاحه.

وفي قوله ﷻ حكايةً عن الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ نكتة حلوة أشار إليها الرسول ﷺ بقوله: «**اتقوا الدنيا؛ فو الذي نفسي بيده إنها لأسْحَرُ مِن هاروت وماروت**»(١)؛ وذٰلك أن هاروت وماروت قد صرحا بفتنتهما، ولٰكن الدنيا كَتمت فكانت أسحر منهما، فهي تسحرُ الناس بخداعها، وتكتمهم فتنتها، فتدعوهم إلىٰ التكالب عليها، والتنافس فيها، والجمع لها والمنع حتىٰ تفرق بينهم وبين طاعة اللَّه، وتفرق بينهم وبين معرفة الحق ورعايته، وتطمس بصائرهم بشهواتها، وتَشردُ بقلوبهم عن اللَّه، وعن القيام بحقوقه، وتجسم فيها عدم المبالاة بوعده ووعيده، وتمنيهم الأماني الكاذبة، وتُعمي قلوبهم وتُصمُّها بمحبة الشهوات العاجلة.

حقًّا إنها أسحر من هاروت وماروت؛ لأن سحر أولٰئك يجري منه التفريق بين المرء وزوجه، وسحر الدنيا يجري منه التفريق بين الإنسان وخالقه العظيم.

قال القرطبي: «قال علماؤنا: لا يُنكَر أن يَظهر علىٰ يد الساحر خرق العادات ممَّا ليس في مقدور البشر، من مرض، وتفريق، وزوال عقل، وتعويج عضو، إلىٰ غير ذٰلك، ممَّا قام الدليل علىٰ استحالة كونه من

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٧/٣٣٩).

مقدورات العباد. قالوا: ولا يبعد في السحر أن يَستدِقَّ[١] جسم الساحر حتىٰ يتولَّج في الكُوَّات والخوْخَات[٢] والانتصاب علىٰ رأس قَصَبَةٍ[٣]، والجري علىٰ خيط مستدق، والطيران في الهواء، والمشي علىٰ الماء، وركوب كلب، وغير ذٰلك، ومع ذٰلك فلا يكون السحر موجبًا لذٰلك، ولا علة لوقوعه، ولا سببًا مولدًا[٤]، ولا يكون الساحر مستقلًّا به، وإنما يخلق اللَّه هٰذه الأشياء ويُحدثها عند وجود السحر، كما يخلق الشبع عند الأكل، والري عند شرب الماء.

روىٰ سفيان عن عمار الدُّهني: أن ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة يمشي علىٰ الحبل، ويدخل في إست الحمار، ويخرج من فيه، فاشتمل له جندب علىٰ السيف فقتله، وهٰذا هو جُندَب بن كعب الأزدي[٥] ـ ويقال: البجلي ـ، وهو الذي قال في حقه النبيُّ ﷺ: «**يكون في أمتي رجلٌ يقال له: جندَب، يضرب ضربةً بالسيف يفرق بين الحق والباطل**»، فكانوا يرونه جُنْدَبًا هٰذا قاتل الساحر[٦]». انتهىٰ.

ولهٰذا ينبغي الحذر واليقظة عند صدور خوارق العادات حتىٰ لا يلتبس علىٰ المسلم معرفةُ أولياء الشيطان من أولياء الرَّحمٰن، وذٰلك بالنظر في أحوال من صدرت علىٰ يديه خارقةٌ أو خوارق، فيسبر المسلم أحواله، فإن رآه عامرًا مساجدَ اللَّه، قائمًا بطاعة اللَّه، ملتزمًا شريعته، مراعيًا لأمانات اللَّه حق رعايتها، محبًّا للطِّيب والنظافة، فإنه يكون من أولياء اللَّه، ويكون ما صدر علىٰ يديه من الخوارق كرامةً من

---

(١) **يستدقَّ**: يصغُر ويتضاءل.
(٢) **الخَوخات**: الفتحات الصغيرة.
(٣) **القصبة**: الخشبة.
(٤) هٰذا نفي للسببية الذاتية، وليس للسببية القدرية التي يقدرها اللَّه تعالىٰ بوجود السحر.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٥٦١).
(٦) أورده ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (١/ ٢٥٩).

اللَّه، أما إن وجده علىٰ العكس، يهرب من المساجد، ويألف المغارات والمزابل، ويقصر في طاعة اللَّه، أو يترك عبادته بأي دعوىٰ من دعاوىٰ المبطلين، فإنه شيطان من شياطين الإنس، وما صدر عنه من الخوارق فهو ضرب من السحر والشعوذة، فالسحر من استخراج الشياطين، للطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم، ويوحون به إلىٰ أوليائهم من شياطين الإنس، ويفضلون به النساء خصوصًا وقت الطمث.

وقد خرج في زمن الضحاك دجال من شياطين الإنس، يجعل الحصىٰ يسبِّح بيده، تغريرًا للناس، أما هو عدوُّ اللَّه فلا يسبح للَّه، وحصلت منه أعاجيبُ عبث فيها بعقول الطغام في وقت تلك الفتنة، فلما صار الأمر إلىٰ عبدالملك بن مروان أمر بقتله، فعجز السياف عن نسف رقبته، وراجع فيه الأمير عبد الملك، فضحك منه وقال: إنك لم تعتد التسميةَ عند قتل الرجال، فارجع إليه واذكر اسم اللَّه عند ضربتك إياه، فإنك ستقتله ـ بإذن اللَّه ـ، فلما رجع إليه وذكر اسم اللَّه عند هزِّه للسيف، صرخ الدجال، فما كانت إلَّا ضربةً واحدة نسفت رأسه. وفي كتاب «الفرقان بين أولياء الرَّحمٰن وأولياء الشيطان» فوائد فرائد، لا يستغني المسلم عن مراجعتها.

وقد أجمع المسلمون علىٰ أنه ليس في السحر ما يشبه معجزات الأنبياء، كإنزال الطوفان، أو الجراد، أو القُمَّل والضفادع، وفلق البحر، وقلب العصا حيةً، وإحياء الموتىٰ، وإنطاق العجماء، وأمثال ذٰلك من معجزات المرسلين؛ فهٰذا ونحوه ممَّا يجب القطع بأنه لا يكون، ولا يفعله اللَّه عند إرادة الساحر، فالفرق بين السحر والمعجزة هو أن السحر يوجد من الساحر وغيره من كل مشعوذ، وقد يكون جماعةٌ يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد، وأما المعجزة لايُمَكِّن اللَّه أحدًا أن يأتي بمثلها أو بمعارضتها، ثم إن الساحر لم يدع النبوة، فالذي يصدر منه متميزٌ[١] عن المعجزة؛ ذٰلك أن من شرط

---

(١) متميِّز: مختلف.

المعجزات اقترانَها بدعوىٰ النبوة، والتحدي بها ـ كما تقدم الكلام علىٰ طرف من ذٰلك ـ.

هٰذا وإن الساحر إذا اعتقد لفعله تأثيرًا في روح الإنسان أو قوته أو غير ذٰلك ـ ممَّا هو من خصائص الربوبية ـ فإنه يكفر، ويجب قتله بدون استتابة، ورُوي عن مالك وأبي حنيفة أنه لا تقبل توبته. وروىٰ الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال: يُقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب، ولا يقبل قوله: «إني أترك السحر وأتوب منه»، فإذا أقر أنه ساحر فقد حل دمه، وإن شهد شاهدان علىٰ أنه ساحر، أو وصفوه بصفة يُعلم بها أنه ساحر، قُتل بدون استتابة، وإن أقر بأنه سحر مرةً واحدةً، وترك السحر منذ زمان، قُبل قوله ولم يقتل.

والمنصوص عن الإمام مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي ثور، وإسحاق أن المسلم إذا سَحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يقتل ولا يستتاب، ولا تقبل توبته، لأنه أمرٌ يَسْتَسِر به ـ كالزنديق ـ. وروي قتل الساحر عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وأبي موسىٰ، وقيس بن سعد، وعن سبعة من مجتهدي التابعين، وإنما أوجبوا قتله ورفضوا منه دعوىٰ التوبة، لجنايته علىٰ العقول والأجسام، فإن الجاني علىٰ الجسم يقتص منه بلا نزاع، فكيف إذا اجتمعت جنايته علىٰ العقل والجسم.

وقد جاءت الشريعة المطهرة بصيانة العقول، وحرمت الجناية عليها بأي مسِكر أو مخدر أو مفتِّر، وأوجبت الحد في ذٰلك، فكيف بجناية السحر، ـ والعياذ باللَّه ـ.

ورُوي عن الشافعي: أن الساحر لا يقتل إلَّا إذا قتل بسحره، فإن لم يقتل سحرُه، يعزر بمقدار الضرر، وقد أبطله ابن العربي من وجهين قويين:

أحدهما: أن حقيقة السحر: كلام مؤلف يعظَّم به غير اللَّه، وتنسب إليه المقادير والكائنات، وهٰذا كفرٌ بعينه.

ثانيهما: أن اللَّه قد صرح في كتابه العزيز بأنه كفر، فقال: ﴿وَمَا

﴿كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، حتىٰ قال عن هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وهٰذا تأكيد للبيان، ولا شك أن السحر لا يتم إلَّا مع الكفر والاستكبار، أو تعظيم الشيطان والاستخفاف بجناب اللَّه.

واختلفوا: هل يُسأل الساحر حل السحر عن المسحور؟.

فروىٰ البخاري جوازه عن سعيد بن المسيب، وإليه مال المزني والشعبي.

وقواعد الشرع تؤيد ذٰلك لرفع الضرر ودفع الأذىٰ عن النفس.

وقوله سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

هٰذا نص من اللَّه علىٰ حقيقة السحر وسوء تأثيره، وليس مقصورًا علىٰ هٰذه التفرقة، وإنما ذكرها اللَّه في معرض الذم للسحر، تخريجًا علىٰ الأغلب، لا تنصيصًا علىٰ الغاية، كما زعمه بعضهم مما هو مخالف للمحسوس.

ولا ينكَرُ أن للسحر تأثيرًا في القلوب، بالحب والبغض، والألفة والنفرة، وبإلقاء الشرور، حتىٰ يحول بين المرء وقلبه بإدخال الآلام وعظيم الأسقام، وقد قال ﷺ لما حل سحره: «**إن اللَّه شفاني**»[(١)]، والشفاء لا يكون إلَّا برفع العلة وزوال المرض، فدل علىٰ أن له حقًّا وحقيقة، فأضراره الحسية مقطوع بها بإخبار اللَّه ورسوله علىٰ وجوده ووقوعه، وعلىٰ هٰذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة ـ مع اتفاقهم ـ بخلاف حثالة المعتزلة المخالفين للحق.

قال القرطبي: «وقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان، وتكلم الناس فيه، ولم يظهر من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله.

وروىٰ سفيان عن أبي الأعور[(٢)]، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال:

---

(١) قد تقدم في تخريج أحاديث السحر.

(٢) انظر «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٧٦ ـ الرسالة). ووقع في «الاستذكار» لابن عبدالبر (٢٥/ ٢٤٠): «عن أبي سعيد الأعور».

عُلم السحر في قرية من قرىٰ مصر يقال لها «الفَرْمَا»، فمن كذب به فهو كافر، مكذب للّٰه ورسوله، منكر لما علم مشاهدة وعيانًا.

حتىٰ قال القرطبي: وكل ذٰلك مدرك بالمشاهدة وإنكاره معاندة، وباللّٰه التوفيق».

فعلم مما تقدم أن تنصيص اللّٰه علىٰ تفريق السحرة بين المرء وزوجه ليس للحصر ولا للقصر، وإنما ذكر اللّٰه هٰذه الصورة تنبيهًا علىٰ سائر الصور؛ لأن استكانة كل من الزوجين إلىٰ صاحبه، وركونه إليه، ومودته الآخذة بشغاف قلبه، أمرٌ معروف لا جدال فيه، فإذا كان الساحر يبلغ به سحره إلىٰ التفريقِ بينهما ـ علىٰ شدة المودة، وعظيم الاستكانة ـ؛ فإن شره يتفاقم في غير ذٰلك أضعافًا مضاعفة؛ ولٰكن اللّٰه ﷻ حمىٰ جانب التوحيد وصان حوزة العقيدة من الريب والارتباك، موضحًا أن السحرة وغيرهم من كل دجال، ليس لهم تأثير في الكائنات دون إرادته وقضائه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. أي أنهم مهما بَرَعُوا في السحر، فإنه ليس لهم قوةٌ غيبيةٌ وراء الأسباب التي يتعاطونها، وإنما هم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنهم فوق استعداد البشر، وفوق ما منحوا من القُوَىٰ والقُدَر، فاللّٰه ينفي هٰذا الإيهام الذي يضللون به، ويُثبت أن ما يجري علىٰ أيديهم من أضرار فإنما هو بإذن اللّٰه الذي ربط الأسباب بالمسبَّبات، وجعل لكل شيء سببًا، وأن اللّٰه إن شاء عصمة المسحور من الساحر نجاه من ضرره، ووقاه منه بعنايته ﷻ، وإن شاء إنزال الضرر به ـ عقوبةً أو حكمةً ـ خلىٰ بين المسحور والساحر، وجعل السبب يؤثر في المُسببِ بخلقه سبحانه وإيجاده، لا بقوة الساحر ولا بفعله ولا بتأثيره، ففي هٰذه الجملة من الآية فائدتان:

إحداهما: إطلاق الضرر دون قَصْره علىٰ التفريق بين المرء وزوجه؛ لأن مضارَّ السحر كثيرة.

ثانيهما: الحكم التوحيدي الذي هو المقصد الأول من مقاصد الدين، فإن القرآن لا يترك بيانه عند أدنىٰ حاجة، بل يعيده ويكرره لتركيز التعلق بالله في كل شيء، وأنه هو المؤثِّر وحده في الكائنات، دقيقها وجليلها، فليعتمدوا عليه، ويتوكلوا عليه، ويستعينوا به، ويستعيذوا به، دون ما سواه، ولا يخافوا من غيره أبدًا، ويستيقنوا أن سحر الساحر مهما عظم، وصنعة الصانع مهما تضخمت وصارت خطيرة، فإنهما لا يضران أحدًا بذاتهما، أو بإرادة فاعلهما قطعًا، حتىٰ يشاء الله إنزال الضرر به، وحصول البلاء عليه.

فصانعو القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ ومالكوها؛ لا يقدرون علىٰ أكثر من استعمالها، والقذف بها، أو الحذق بالإصابة فقط، أما سريان مفعولهما من الفتك والإهلاك؛ فهٰذا مقيد بمشيئة الله، الذي ما من دابة إلَّا هو آخذ بناصيتها، فهو الذي يهبُ المخلوق القدرة، ويزوده بالفكر علىٰ الإبداع والاختراع، ويسخِّر له الماديات، ويعمق تفكيره في صنعتها وتكييفها، ويخلق فيه الإرادة علىٰ استعمالها، ثم إنه يقضي بفشلها وفساد مفعولها أو بنجاحها وإضرار قوم آخرين، فهو ﷻ واهب القدرة والإرادة للمخلوقين، وهو الذي يسلِّط بعضهم علىٰ بعض حسبما تقتضيه حكمتُه الكونية، ثم هو الذي يشاء ثانيًا أن يعزَّ الظالم المعتدي علىٰ المظلوم المعتدىٰ عليه، أو يقمع المعتدي الباغي وينصر المظلوم المعتدىٰ عليه، حسب مشيئته سبحانه، لا حسب مشيئة هٰذا أو ذاك.

فمن أكبر دعائم العقيدة الإسلامية صحةُ الإيمان بالقضاء والقدر، وقوته في القلوب، وبسبب قوة إيمان المسلمين بذٰلك هانت أمامهم عظائم الأمور ولم يبالوا بأي قوة، ولم يُرهبهم أي طاغوت، ولم يُخِفْهم أي ساحر؛ لقوة اعتمادهم علىٰ الله الذي بيده مقاليدُ كل شيء، وأما من ضعف إيمانه بالله وبقضائه وقدره، فإنه يكون ألعوبةً للدجاجلة والسحرة وكل مشعوذ، وذٰلك لضعف جنانه بسبب ضعف

إيمانه، أو عدم إيقانه.

فالمسلم المؤمن يجبُ عليه أن يكون قوي الإيمان باللَّه، جازمًا حقًّا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعالج أقدار اللَّه بضدها من أقداره الأخرىٰ التي أوجب اللَّه مقاومتها به دون استسلام.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، أما كونه يضرهم؛ فلأنه سبب في الإضرار بالناس، وهو محرم يعاقِب اللَّه عليه في الآخرة، وقد يعجِّل العقوبة في الدنيا، أو يجمع للمضر بالناس بين عقوبات الدنيا والآخرة، زد علىٰ هٰذا أن من عرفه الناس بالإيذاء يمقتونه، ويكونون عليه أعداء. فقد أثبت اللَّه الضرر في تعلم السحر وتعاطيه، ونفي منه المنفعة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، وذٰلك أن بعض المضار ـ وإن كانت ضارةً من جهة ـ يكون فيها نفعٌ من جهة أخرىٰ، بخلاف السحر ـ علىٰ اختلاف ضروبه ـ؛ فإنه ضرر بلا نفع، فمضرته ثابتة، ونفعه منتفٍ، فما أروع البلاغةَ في كلام اللَّه بِهٰذه الجملة القصيرة التي احتوت علىٰ نفيٍ واجب في قانون البلاغة لابد منه!.

وصدق اللَّه ـ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء] ـ؛ فإننا نرىٰ المتعاطين للسحر ـ بجميع صنوفه ـ من أفقر الناس وأحقر الناس[1]، ولو أن المغفلين الذين يراجعونهم لالتماس المنافع لأنفسهم، أو إيقاع الضرر بأعدائهم، أقول: لو أنهم نظروا في حالهم نظرةً عقليةً صحيحةً، لعرفوا أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن الشقي في نفسه لا يَهَبُ السعادة لغيره، وأنه لو كان يقدر علىٰ إنزال ضرر بأحد، لَنفَعَ نفسه ليسعد بشقاء من يضره، أو يَنْعَم ببؤس من يضره، ولٰكنها الجهالة العمياء التي حلت بالدهماء لحرمان قلوبهم من نور وحي اللَّه، فكانت مظلمة بأنواع الخرافات، ويسيرها الطمع الأعمىٰ بدون بصيرة ولا جدوىٰ.

---

(١) يقصد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان عجز السحرة وضعفهم المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ يعني: وقد علم اليهود الذين فضلوا السحر ـ سحر الشياطين ـ، علىٰ وحي رب العالمين، واشتروه بضياع أنفسهم ـ حيث أضاعوا بسببه وحي اللّٰه ـ أن خطتهم في هٰذا الاختيار الخسيس هي خطةُ المفلس من اللّٰه، خطة المفلس الذي ليس له في الآخرة من نصيب، فالخَلَاقُ هو النصيب من الخير، فاللّٰه أخبرنا عن اليهود أنهم أضاعوا نصيبهم في الآخرة، وارتضوا بالإفلاس فيها، لما اختاروا سحر الشياطين طمعًا في حطام الدنيا، ونبذوا وحي اللّٰه علىٰ علم منهم، ليس عن جهل ولا تفضيل، وإنما هو اختيار للضلالة، ليفسدوا علىٰ الناس دنياهم بأنواع السحر، ويلعبوا عليهم ويبتزوا أموالهم، وهم يعلمون أن التوراة حرمت عليهم السحر ـ علمًا وعملًا وتعليمًا ـ، وجعلته كعبادة الأوثان، وشددت العقوبة علىٰ فاعله، وعلىٰ متبعي الجن والشياطين، ولٰكنهم كفروا علىٰ علم منهم.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، «بئس» من حروف المبالغة في الذم لسوء حالهم ومآلهم؛ لأنهم باعوا أنفسهم بالعذاب المتنوع في الدنيا، وبنيران الجحيم في الدار الآخرة، إنهم ـ والعياذ باللّٰه ـ باعوا الدين والرسالة التي أورثهم اللّٰه من أنبيائهم، والتي بها مناط عزهم، وتحقيق شخصيتهم في الحياة بين الأمم؛ إذ لا قيمة لهم بتاتًا إذا تجردوا من رسالة اللّٰه، وشردوا عن صراطه، ونبذوا وحيه، واطرحوا دينه، فقد تفتخر عليهم أصغر أمةٍ ـ أو أحقر أمة ـ متفوقةً بقوتها، أو بحضارتها وتستعلي عليهم، بخلاف ما لو كانوا للرسالة حاملين، وبدين اللّٰه زاحفين؛ فبئست هٰذه البيعة التي باعوا بها رسالة اللّٰه ودينه القويم، بسحر الشياطين، لقد هبطوا بأنفسهم من أعلىٰ طَود شامخ، إلىٰ أسفل سافلين، وقد عملوا هٰذا وارتضوه عن علم، ولٰكن اللّٰه نفىٰ عنهم العلم أخيرًا، مع إثباته لهم أولًا، وذٰلك أن العلم علمان:

أما العلم الأول: فهو علم تفصيلي روحي متمكن من النفس، له سلطان علىٰ توجيه إرادتها وتحريكها إلىٰ الأعمال الطيبة، وتهذيب فطرتها، وكبح جماحها، وتسييرها إلىٰ اللَّه وفق شرعه، فهٰذا هو العلم الذي فقده بنو إسرائيل، ونعىٰ اللَّه عليهم في ختام هٰذه الآية الكريمة.

وأما العلم الثاني: فهو علم إجمالي خيالي مادي، لا روحانية فيه، يلوح في ذهن صاحبه عندما يُعرض عليه شيء أو سؤال، فهو علم يدرك به حقائق الأشياء عند الحاجة، لٰكنه ليس روحيًّا متشبعًا بتقوىٰ اللَّه وخشيته ليعمر الضمير، بل هو علىٰ العكس، علم يعرف صاحبه به الخير والشر، لٰكن عندما يصطدم مع أغراض نفسه وشهواتها يكون وبالًا عليها؛ لأنه يعين علىٰ التأويل والتحريف حسب مطامع النفوس.

فهٰذا هو العلم الذي أثبته اللَّه لبني إسرائيل بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

والعلم الأول الروحي النافع، هو الذي نفاه عنهم في آخر الآية بقوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، و«لو» حرف امتناع لامتناع، فالعلم المنفي عنهم هو العلم الذي ليس له سلطانٌ علىٰ النفوس، ولا منفذ إلىٰ الإرادة، ولذا كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسُوا حظًّا مما ذكروا به، وكانوا يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت بالتأويلات الفاسدة والتخصيصات التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وهٰذا العلم العديم النفع، والذي فيه مجلبة للضرر كثيرًا ما يحمله كثير من أدعياء العلم عندنا، بحيث تميعوا فكانوا عن صلاتهم ساهين، ولحرمات اللَّه غير معظمين، وكانت فتاويهم مضطربةً حسبما يسنح لهم وقت كتابتها، من خيالات أو منافع.

وقد ذكر الإمام محمد عبده أمثلةً من هٰؤلاء العلماء، لهم أقبح التأثير في إفساد العامة، باستباحة المحظور والإقدام علىٰ شهادة الزور بمجرد تظلم الخصم وصيحاته، وهو لو يسمعُ تظلم الطرف

الآخر لعض علىٰ يديه بما جنىٰ، حتىٰ ذكر رجالًا صالحين يفترون بما يسمعون من أهازيج[1] الخصم، ولا يذكرون أن إخوة يوسف رموه في البئر علىٰ أبشع وحشية، ثم جاؤوا أباهم عشاء يبكون!.

إن الذي يراقب اللَّه لا يجرؤ علىٰ مخالفة شيء من أمره أو ارتكاب أدنىٰ شيء من نواهيه، استعظامًا لجنابه، ووقوفًا عند حدوده، واستشعارًا لمحاسبته وعقابه في يوم لا ريب فيه، بل خوفًا من عقوباته العاجلة وبطشه الشديد، وحياءً من اطلاعه سبحانه علىٰ مخالفته بالغيب، وأن ما وقع فيه بعض العلماء أو أكثرهم في أمصار المسلمين هو ناشئ من عدم تصور ذٰلك، فعدم تصور عظمة جناب اللَّه وهيمنته علىٰ الخلق واطلاعه علىٰ خفايا النفوس ووساوسها، وعدم استشعار مشاهد يوم القيامة وأهوالها هو السبب في غفلة القلوب، ونقص الإيمان، وكون العلم لا ينفع صاحبه ـ والعياذ باللَّه ـ؛ بل يحصل بسبب ذٰلك قسوة القلوب، ولهٰذا يحصل التشابه بين أعمال أكثر علماء أمصار المسلمين وبين علماء بني إسرائيل، فلينتبه المسلم المؤمن لتحصيل أي نصيب من العلم الروحي الذي يُكسبه خشية اللَّه، ويوقفه عند حدوده، ويجعل شخصيته شخصيةً مسلمةً متميزةً عما سواها من الذين بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وإلَّا فما قيمته إذا لم يحصل إلَّا علىٰ مجرد الاسم؟!

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

يعني لو أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بكتابهم الذي يهديهم إلىٰ الإيمان بمحمد ﷺ وما جاء به، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ربهم حق تقاته في أخذ التوراة بقوة، وعدم الجناية عليها بالتأويلات، لتركوا السحر الخادع الذي هو من نزغات الشياطين، والتزموا الوحي المنزلَ عليهم من ربهم، والذي يصدق

(١) **أهازيج**: ترانيم.

الوحي الأخير المنزل علىٰ محمد ﷺ لكانت مثوبةً من عند اللَّه، أي ثوابه العظيم لهم علىٰ الإيمان الصحيح، والعمل الصالح خيرًا لهم مما اختاروه من شرور السحر وكفره، وافترائهم علىٰ اللَّه بنسبتهم السحر إلىٰ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإن جريمتهم عظيم وزرها، متراكمٌ شرها، لجمعها بين الكفر والافتراء علىٰ اللَّه، ممَّا لا يصدر من أي عالم فاهم للعلم الصحيح ـ كما قدمنا ـ.

فلقد باعوا أنفسهم بأخس بيعة، صفقتُها من أخسر الصفقات، ولو أنهم عكسوا الأمر لنالوا المثوبة من اللَّه التي هي خير مما يحصلون عليه من حطام الدنيا، الذي يكون سببًا لتسعير نار جهنم عليهم بما عملوا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؛ فإنهم في جميع ما هم عليه من أنواع السحر والأباطيل وزعمهم أنها ترجع إلىٰ الكتاب بضروب من التأويلات الفاسدة، واتباع الظنون والتقليد الأعمىٰ: ليسوا علىٰ شيء من العلم الصحيح، فاللَّه يكرر نفي العلم الصحيح عنهم، مع أنهم عندهم علم لا ينتفعون به، جعله اللَّه كالعدم؛ لأن العلم الذي لا يجعل صاحبَه يعظم حرمات اللَّه، ولا يوقفه عند حدوده، ولا يجعله ملتزمًا لخشيته ومراقبته، بحيث يكون له سلطان علىٰ القلب والجوارح يوجهها به إلىٰ اللَّه، قولًا وقصدًا وعملًا؛ فالعلم الذي لا يسلك بهم هٰذا السبيل يكون وجوده كالعدم، ويحلُّ محله علمٌ مادي لا روح فيه، ويزين لهم استباحة المحرمات، والافتراء علىٰ اللَّه، وأكل أموال الناس بالباطل من الربا، والرشوة، وبيع الضمير بالفتيا التي تناسب حال المستفتي، وتُرضي أنانيته، وتشبع شهوته، ويوهمهم أن السحر الذي يتعاطون نافع غير ضار، أو أن ضرره يكون موجهًا إلىٰ غير اليهود... ونحو ذٰلك مما تجره التصورات الفاسدة الناشئة من العلم المادي البعيد عن اللَّه وعن وحيه.

قال الإمام محمد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإننا نرىٰ كثيرًا من الحرمات قد انتهكت في المسلمين بمثل تلك التأويلات؛ حتىٰ جوَّز بعض

المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الإسلام بالحيلة، وهو ركن الزكاة الذي يحارَبُ تاركوه شرعًا، وترىٰ هٰذه الحيل قد أثرت في الأمة أسوأ التأثير، فقلما يوجد فينا غني يؤدي الزكاة، ولا يعتقد المتمسك بالدين ـ من هٰؤلاء الأغنياء ـ أنه متعرض لمقت اللّٰه وعقوبته، وأنه قد فسق عن أمر ربه؛ لأنه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية، وقد أخذها عمن يسمَّون فقهاء، ويفتخرون أنهم ورثة الأنبياء، ثم إن الحيل علىٰ التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها في بعض الكتب وأدمغة أهل العمائم مجال».

وما ذكره الإمام محمد عبده وعلق عليه تلميذه الطيب صاحب «المنار» شيء معروف لا يزيد إلَّا أقل اليسير منه، كتحذير لأصحابنا من مشابهة أهل الكتاب، خصوصًا في السحر والشعوذة وتأويل النصوص حسب الأهواء أو حسب مرضاة الأغنياء والحكام.

وقد تجلَّت لنا في الآية (١٠٢) حقيقة السحر الذي لا يجوز إنكارها ـ ولو لم يكشف العلم الحديث عن كنهها ـ؛ فإنه قد شاع في هٰذا الزمان ما يسمىٰ «التنويم المغناطيسي»، ولم يكشف العلم حقيقته وما فيه من العجائب، إذ كيف يتصل فكرٌ بفكر، وكيف يتلقىٰ عن الآخر كأنه ينقل من صحيفة؟ وكيف تسيطر إرادة علىٰ إرادة؟.

وكذٰلك علم «تحضير الأرواح» بتسمية الغربيين، ومع هٰذا لم يُنكر لأنه غربي، ويُنكر السحر المنصوص في القرآن، مع أن ما يسميه الغربيون «تحضير الأرواح» يسمىٰ عندنا: «علم التعزيم»، وهو تحضير الجن، لٰكن لما كان الغربيون لا يؤمنون بالجن، سمَّوا هٰذه القوة وهٰذا العلم بِهٰذا الاسم الذي اختاروه وروَّجوه، ولا يبعد أن يكون التنويم المغناطيسي فيه تخاطب للشياطين من قرناء بني آدم، وأن قرين كل شخص يعبر عنه ويخبر عنه، ولٰكن ما دام الغربيون لا يؤمنون بالجن ولا بالشياطين؛ فلن يغيروا هٰذه الأسماء أو يعترفوا بما عداها.

وكذٰلك أفراخهم ممَّن تتلمذ علىٰ أيديهم، أو تقبَّل ما يصدُر عنهم كقضية مسلَّمة، فإنهم لا يؤمنون بالملائكة ولا بالجن ولا بالشياطين، ولا يمكن إقناعهم أبدًا حتىٰ يقتنع أساتذتهم أو أسيادهم من ملاحدة الغرب والشرق.

ولا شك أن مَن لم يؤمن بالملائكة إجمالًا وتفصيلًا أنه كافر مهما ادعىٰ الإيمان باللَّه؛ لأن المؤمن باللَّه يجب عليه أن يؤمن بملائكته، دون البحث عن كنههم، وكذٰلك من لم يؤمن بالجن والشياطين، فإنه كافر مهما ادعىٰ الإيمان باللَّه؛ لأن المؤمن باللَّه يجب عليه أن يؤمن بجميع ما ورد من اللَّه في وحيه المبارك من الجن والشياطين.

أما الذي لا يؤمن بهم حتىٰ يؤمن بهم أسياده من الغرب، فهٰذا لا شك في كفره، مهما قال أو عمل؛ لأن المكذِّب بحرف واحد من القرآن كافر، فكيف بالتكذيب بالجن وأبيهم إبليس وبالشياطين إجمالًا؟.

والحاصلُ أن ما ورد في هٰذه الآية من ذكر السحر والشياطين وهاروت وماروت، يجبُ الإيمان به دون البحث في كنهه، وأن من لم يؤمن به لأن العلم لم يُسلِّم به فهٰذا كافر، ويَرِدُ عليه إيراداتٍ من كون أشياء مسلمًا بها في الغرب دون أن يكتشفها العلم ويعطي؛ كلمته كالتنويم المغناطيسي وما يسمونه «تحضير الأرواح»، مما هو تحضير للجن والقرناء من الشياطين بلا جدال، وستضطركم الحقيقة إلىٰ الاعتراف بذٰلك. هٰذا شطر من مهمات الآية (١٠٢).

والشطر الثاني: يخبر عن خسة اليهود، وخبث نفوسهم، وسوء طباعهم، أنهم لما كفروا بالقرآن ونبذوه وراء ظهورهم لم يؤمنوا بالتوراة، بل نبذوها كما نبذوا القرآن، واتبعوا ما تتلوه شياطين الجن والإنس من السحر الذي نسبوه إلىٰ سليمان إفكًا وزورًا، وأن اللَّه برَّأ نبيه سليمان من السحر؛ لأنه كُفر، ومن أوضاع الشياطين إخوان

اليهود، فهم الذين تقبلوا عنهم السحر، ونبذوا كتاب اللَّه، متبعين السحر الذي هو كفر وضرر لا نفع فيه، كما قرر اللَّه ﷻ.

وعلىٰ المهزومين هزيمةً عقليةً ألَّا يتمادوا في مكابرتهم، فينكروا السحر ونحوه من القوىٰ الخفية، لمجرد أن العلم لم يكتشفها، أو أن أسيادهم من ملاحدة الغرب والشرق لم يعترفوا بها، وأن يعلموا أن إنكار ما جاء به القرآن كفر، ولا ينتفع صاحبه بدعوىٰ الإيمان باللَّه وهو مكذب بما جاء عن اللَّه.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾:

ينادي اللَّه عباده المؤمنين بنداء الكرامة، ولقب التشريف لتنفتح قلوبهم، وليستحثَّهم علىٰ سرعة الانقياد والقبول، وفي هٰذا النداء نَهْي للمؤمنين عن مشابهة اليهود ـ حتىٰ في الدعاء للَّه سبحانه ـ، ليقطع الالتقاء معهم حتىٰ في ألفاظ دعائه ﷻ، وليتميز المؤمنون في دعاء اللَّه بأسلوب خاص لا يشابِههم فيه غيرهم.

وقد كانت اليهود تقول في دعائها للَّهِ: «راعنا» من الرعاية، فنهانا اللَّه عن مشابَهتهم، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾؛ وذٰلك أن اليهود ـ عليهم لعائن اللَّه ـ لا يخلو كلامهم من الدس والغش والتلبيس؛ ليوقعوا المسلمين في الشر من حيث لا يدركون، فقد قيل: إن سفهاء اليهود يُميلون ألسنتهم في النطق بِهٰذا الدعاء وهم يوجهونه للنبي ﷺ، حتىٰ يؤدي معنًىٰ آخر مشتقًّا من الرعونة؛ لأنهم يخشَون أن يشتموا النبي ﷺ شتمًا صريحًا وجهًا لوجه، فيحتالون علىٰ سبه من هٰذا الطريق الغامض الذي لا يُحس به، والذي لا يصدر إلَّا من سفاهة، ومن ثم جاء النهي الصريح للمؤمنين عن استعمال اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعةً للشتم أو السخرية، وأمرهم اللَّه أن يستبدلوا هٰذه اللفظة بلفظة مرادفة لها في المعنىٰ، لا

يقدر اليهود علىٰ تحريفها حسبما يريدون من إيذاء محمد ﷺ، ليفوتوا علىٰ اليهود غرضهم الدنيء الحقير، ولا يجعلوا لهم مجالًا في سواه.

ثم يأمر اللَّه المؤمنين بالسمع وهو الطاعة قائلًا: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾، لأن من لم يحقق الاستماع بالطاعة والانقياد لم يكن سامعًا[1]؛ بل هو من الذين ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال]. ثم يحذر اللَّه المؤمنين من مصير الكافرين، مخبرًا عباده أن للكافرين عذابًا أليمًا موجعًا، بالغًا في الإيلام أبشع صفاته وأقساها، وذٰلك تحذيرًا للمؤمنين من تقليدهم واستحسان أي شيء من عاداتهم وسننهم التي يتوارثونها، والتي تتجدد مع زيادة كفرهم وبدعتهم وافترائهم علىٰ اللَّه، وألَّا يلتقي المسلم المؤمن بهم ومعهم في أي مورد أو مصدر؛ لأن من تشبَّه بقوم فهو منهم ـ كما نص علىٰ ذٰلك الصادق المصدوق ﷺ ـ، ولأنه لا يتشبه أحد بهم في الظاهر إلَّا بعد ما يلتقي معهم في الباطن، من حبهم أو الركون إليهم، أو حب شيء من طرائقهم التي يبثون الدعايات في تحسينها علىٰ أيدي عملائهم، فاللَّه سبحانه يذكِّر المؤمنين بمصير الكفار المحتوم من العذاب الأليم؛ ليبتعد عنهم حتىٰ لا يصيبه كفل من عذابهم والعياذ باللَّه.

فوائد من قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾.

أحدها: أن اللَّه سبحانه اختص أمة الإجابة المحمدية بنداء الكرامة، ولقب التشريف في ثمانيةٍ وثمانين موضعًا في القرآن تكريمًا لهم وتشريفًا، وحثًّا لهم علىٰ المسارعة بالامتثال، ولم يخاطب اليهود في التوراة إلَّا بنداء المسكنة؛ لتكون عاقبتَهم المضروبة عليهم، وأما هٰذه الأمة فموجب ندائها بالإيمان يستلزم الأمان من العذاب، فللَّه الحمد والمنة.

---

(١) فالاستماع هنا معناه: الاستجابة.

ثانيها: كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ مفاعَلة من الرعي بين اثنين، فكان هٰذا اللفظ موهم للمساواة بين المخاطبين كأنهم قالوا: أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا، فنهاهم اللَّه عنه لأجل ذٰلك ـ أيضًا ـ؛ ففي قول: ﴿رَٰعِنَا﴾ خطأ؛ لأنه يشعر بالاستعلاء، كأنه يقول: «راع كلامي ولا تغفل عنه ولا تشتغل بغيره»، وهٰذا من أوضح الفروق بين هاتين الكلمتين المترادفتين التي مُنعْنَا في أحدهما وأُمرنا بالأخرىٰ وهما: ﴿رَٰعِنَا﴾، و﴿ٱنظُرۡنَا﴾.

ثالثها: أن كلمة «راعنا» علىٰ وزن «عاطنا» من المعاطاة، و«رامِنا» من المراماة، ثم أنهم قلبوا هٰذه النون إلىٰ النون الأصلية، وجعلوها كلمةً مشتقة من الرعونة التي هي الحمق، فالرَّاعِنُ اسم فاعل من الرعونة، كأنهم أرادوا به المصدر فيكون قولهم: «راعنا» أي: فعلتَ رُعونةً، ويحتمل أنهم أرادوا به: صرتَ راعنًا، أي: صرت ذا رعونة، فحقًّا لما قصد اليهود هٰذه الوجوه الفاسدة نَهَىٰ اللَّه المسلمين عن استعمال هٰذه الكلمة.

وقال قُطْرُب: هٰذه الكلمة ـ وإن كانت صحيحة ـ؛ فإن أهل الحجاز لا يستعملونها إلَّا عند الهزء والسخرية، فلا جرم أن منع اللَّه منها.

رابعها: أن المسلمين كانوا إذا تلا عليهم رسول اللَّه ﷺ شيئًا من العلم قالوا: «راعنا يا رسول اللَّه» ـ أي: تمهل ـ، وكان عند اليهود بالعبرانية كلمة تشبهها تحمل السب فاستعملوها، وهي: «راعنا وراعينا»، فنهىٰ اللَّه المؤمنين عن استعمال هٰذه الكلمة للالتباس.

ويدل علىٰ هٰذا قوله سبحانه عن اليهود في سورة «النساء»: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ [النساء: ٤٦]، يقصدون بكلمة «راعنا»: «اسمع ـ لا سمعت ـ»، وفي الحقيقة أن خبثهم عميق.

خامسها: قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ فيه وجوه:

الأول: أنه من نَظَرَه ـ أي انتظره ـ، كما قال تعالىٰ عن المنافقين:

﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣]، فأمرهم سبحانه أن يسألوه الإمهال لينقلوا عنه، فلا يحتاجون إلىٰ الاستعادة.

فإن قيل: هل كان النبي ﷺ يعجل عليهم حتىٰ يقولوا هٰذا؟!

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن هٰذه اللفظة قد تقال في خلال الكلام، وإن لم يكن فيه عجلةٌ تُحوِجُ إلىٰ ذٰلك، كقول الرجل في خلال حديثه: اسمع أو سمعت.

ثانيهما: أنهم فسروا قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [القيامة]، أنه ﷺ كان يَعجَلُ قول ما يلقيه إليه جبريل، حرصًا علىٰ تحصيل الوحي وأخذ القرآن، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾، فلا يبعد أن يعجل فيما يحدث به أصحابه من أمر الدين، حرصًا علىٰ تعجيل إفهامهم، فكانوا يسألونه في تلك الحال الإمهال فيما يخاطبهم به حتىٰ يفهموه.

والثاني: أن «انظرنا» معناه: انظر إلينا، إلَّا أنه حذف حرف «إلىٰ» كما في قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، والمعنىٰ: من قومه، والمقصود أن المعلِّم إذا نظر إلىٰ المتعلم كان إيراده للكلام علىٰ طريقة الإفهام والتعريف أظهر وأقوىٰ.

والثالث: أن أُبيَّ بن كعب قرأ «أنظِرْنا»، من النَّظِرَة، أي: أمهلنا. واللَّه أعلم.

سادسها: إنما كان عدم الإصغاء بكل احترام لما يقوله النبي ﷺ كفرًا لأنه يتكلم عن اللَّه سبحانه، والسعادة لمن يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب، ويسأل عما لا يفهمه بالأدب، ومن فاتته هٰذه السعادة نال الشقاء السرمدي الذي لا مثيل له ـ والعياذ باللَّه ـ.

فمخاطبة محمد ﷺ مخاطبة الأَكْفَاءِ والنظَراء، مجاوزةٌ للكفر، ومعنىٰ هٰذه المجاوزة: أن سوء الأدب الذي حكاه اللَّه عن اليهود في سورة «النساء» بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ

غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ [النساء]، فمثل هٰذه الألفاظ التي توعد اللَّه اليهود عليها، وحكم بكفرهم بسببها إذا صدرت من المؤمنين بغير قصد حسن وتأويل صحيح، فإنها خارجة عن حدود الأدب الواجب أمام النبي ﷺ، وورثته من العلماء العاملين الصادقين، فإذا شابها شيء من الاستهزاء ونحوه، صارت كفرًا.

سابعها: لا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل يقل اهتمامه له، وتزول هيبتُه من نفسه حتىٰ تقل استفادته منه، أو يكون محرومًا من علمه؛ لأن المدار في التربية الدراسية علىٰ الاحترام وحسن التأسي والقدوة، وأي شخص تراه في المعلومات مثلك أو أقل، فإنك لا ترتضيه إمامًا وقدوة، أما من رأيته فوقك في العلم والكمال، فإنك ترغب في إمامته وأخذ العلم عنه، وحينئذ لابد من احترامه، فكيف إذا كان المعلم سيد المرسلين ﷺ؟ ولذٰلك نَهَىٰ اللَّه الصحابة عن التكلم بلفظة «راعنا» إجلالًا لمقام النبوة، لئلا يجرَّهم الأنس به والطمع بكرم أخلاقه إلىٰ تعدي حدود الأدب الواجب معه، الذي لا تكمل التربية إلّا بكماله، كما نهاهم فوق ذٰلك عن رفع أصواتهم فوق صوته الشريف، والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض، محذرًا لهم من حبوط أعمالهم ـ والعياذ باللَّه ـ.

ثامنها: ينبغي للمسلمين المؤمنين أن يرتعوا في رياض الجنة التي هي حِلَقُ الذكر، ويجب عليهم الإنصات؛ خصوصًا لاستماع القرآن، ولكتب الأحاديث الصحيحة التي هي الوحي الثاني مما أوتي محمد ﷺ، ويشرع لهم حسن الأدب والخشوع والبكاء والتباكي، وإجلال حامل العلم القائم برسالة اللَّه، والموزع لهداية اللَّه؛ فإنه هو الذي من ورثة الأنبياء عامةً، وورثة المصطفىٰ ﷺ خاصةً، وليس كل عالم يُحسب من ورثة الأنبياء خصوصًا المعطل لرسالة اللَّه، الذي لا يتجول لنشر الدين ذات اليمين وذات الشمال في سبيل اللَّه لا يريد لقبًا ولا

وظيفة، وإن سنحت له وظيفة يستعين بها علىٰ أداء واجب اللَّه، ولا تُخرسه عن الصراحة بملة إبراهيم، فليس فيها عيب ولا بأس.

قال الإمام محمد عبده: «إنهم يَلغطون[1] في مجالس القرآن، فلا يستمعون ولا يُنصتون، ومن أنصت فإنما لأجل الطرب بالصوت، والالتذاذ بتوقيع نغمات القارئ، وإنهم ليقولون في استحسان ذٰلك ما يقولونه في مجالس الغناء، ويهتزون للتلاوة، ويصوتون بأصوات مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق» اهـ. وذٰلك لأن أدمغتهم قد ألفت الغناء.

وقوله سبحانه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾:

يكشف اللَّه سبحانه في هٰذه الآية للمسلمين المؤمنين عما تُكنُّه صدور اليهود وأذنابهم من المشركين ـ علىٰ اختلاف أنواعهم ـ من الشر والمعاداة، وما تحمله قلوبهم من الحقد والحسد والغيظ، بحيث ما يودُّون أن ينزل اللَّه علىٰ المسلمين أي خير ـ سواء كان هدايةً، أو كان نصرًا، أو مغنمًا ـ؛ فهم حريصون علىٰ الوقوف في وجه ذٰلك، والحيلولة بينه وبين المسلمين.

ومن عظيم رحمة اللَّه بنا تشخيصُه لأعدائنا[2]، كي نحذر منهم ولا نطمع بهم خيرًا، أو نرجو منهم خيرًا، فإنه سبحانه في كل موقع يذكر مكر اليهود بنا، أو حسدهم لنا، أو طمعهم في إضلالنا، أو شدة عداوتهم لنا، فإنه يقرن معهم المشركين علىٰ الإطلاق، ليعم جميع أنواع المشركين، حيث إنهم كلَّهم من نتاج اليهود قديمًا وحديثًا.

---

(١) **يلغطون**: يتكلمون بصوت مرتفع.
(٢) أي: إظهاره لحقيقتهم وأعمالهم.

فالمشركون ـ بشتىٰ أنواعهم قديمًا وحديثًا ـ لا يكفُّون عن عدائهم للمسلمين والمكر بهم، آخذين بخلق وتوجيهات أسيادهم اليهود، ولٰكن معاداتهم هٰذه هي معاداة اللَّه سبحانه، ومن كان معاديًا للَّهِ فلابد من خذلانه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

فمشيئته سبحانه هي النافذة لا مشيئة غيره، فقد اختص بني إسماعيل علىٰ يد نبيهم محمد ﷺ رغمًا علىٰ بني إسرائيل وأذنابهم من كل مشرك في ماضي الزمان وحاضره.

لذا فإنه يجب علىٰ المسلمين أن يشكروا اللَّه علىٰ هٰذه النعمة التي خصهم بها شكرًا عمليًّا، وذٰلك بالقيام بِهٰذه الرسالة وتوزيع أنوار الهداية المحمدية؛ ليكونوا أمناء للَّه علىٰ رسالة محمد ﷺ، ويسدوا الطريق علىٰ غيرهم، وذٰلك بالاحتراز من مكر اليهود وأذنابهم من المشركين، وعدم التخلق بأخلاقهم، وعدم السير في مخططاتهم، وأن يلتزموا كل الالتزام بمنهج اللَّه ﷻ، ليتم اللَّه لهم فضله، وينجز لهم وعده، واللَّه ذو الفضل العظيم، وفي ذٰلك إشعار بعظم الخير الذي حبانا اللَّه إياه، وأي خير ونعمة أعظم من نعمة النبوة والرسالة؟! وأي خير ونعمة أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه؟!.

📖 **وقوله تعالى:** ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

لقد أقام اليهود ـ عليهم لعائن اللَّه ـ حملات عنيفة مركزة ضد الإسلام والمسلمين، متخذين من نسخ بعض الآيات والأحكام ذريعةً للطعن في ذات اللَّه، زاعمين أن النسخ منافٍ لعلم اللَّه مستلزم للبَداء[1]، وعلىٰ هٰذا فإن محمدًا ﷺ لا يتلقىٰ من اللَّه ما دام يحصل

(١) **البداء**: ظهور الشيء بعد خفائه.

لبعض أوامره النسخ، وقد روجوا هٰذا علىٰ المغفَّلين من المسلمين، كما روجوه عند الكافرين من المشركين ليعمِّقوا كفرهم بمحمد ﷺ، ويبعدوهم عنه غاية الإبعاد.

واشتدت هٰذه الحملة عند تحويل القبلة، وتولىٰ كِبْرَها وتشويه محاسن التحويل جماعةٌ من اليهود، فأوغروا صدور بعض المغفلين من المسلمين، وشككوهم في أمرهم، قائلين لهم: لقد ضاعت صلاتكم السابقة ـ إن كان التحويل الأخير صحيحًا ـ.

ولقد أثرت هٰذه الحملةُ في نفوس المؤمنين، فأخذوا يسألون الرسول ﷺ في قلق واضطراب، طالبين البراهين والأدلة علىٰ جدوىٰ الأمر الأخير وفضله علىٰ الأول.

وهٰذا أمر لا يتفق مع طمأنينة المسلم، واستسلامه للَّه ولرسوله ﷺ، لهٰذا قال اللَّه لهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

فكان لابد لهٰذه الحملة من مقابل، ولابد لهٰذا الباطل المروَّج من حق يزهقه ويبطله.

فكان هٰذا الرد الشافي من اللَّه سبحانه الذي دحض به هٰذه الشبهة وزلزل دعائم الباطل وأركانه، فيقول سبحانه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، يعني أن الذي ننسخه من آيات التكاليف التي نرىٰ تعديلها ملائمًا لنمو الجماعة المسلمة وتطور حالها، فإننا ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ لمناسبة أحوالهم.

و«النسخ» في اللغة: النقل. وفي الاصطلاح الشرعي: إبطال الشيء وإزالته، وإقامة شيء مقامه.

وقد أنكرت اليهود وبعض المبتدعة النسخ، وهو جائز عقلًا وواقع شرعًا.

وقوله سبحانه: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نُنسي الرسول إياها لنندله علىٰ

غيرها. بمعنىٰ: ونزيل الآية المنسوخة من ذاكرة النبي ﷺ.

واختلفوا هل يكون هٰذا بعد التبليغ أو قبله؟ والصحيح أنه بعده، كما وقع في أصحاب بئر معونة؛ فقد روىٰ البخاري وغيره أنه نزل فيهم وحي من اللّٰه ـ حكايةً عنهم ـ: «**بلِّغوا قومنا أنْ قد لَقِينا ربَّنا فرضي عنا ورضينا عنه**»(١).

ولٰكن ينبغي أن يعلم أنه ليس كل وحي قرآنًا، فجميع الأحاديث النبوية الصحيحة وحي من اللّٰه وليست قرآنًا.

ثم إن ما قيل في أصحاب بئر معونة لم يُنس، فإن كان قرآنًا فقد نسخ. وفي قراءة: «أو ننسأها» أي: نؤخرها.

وقد أورد السيوطي في «أسباب النزول» حديثًا موضوعًا: أن الآية كانت تنزل علىٰ النبي ﷺ ليلًا فينساها نهارًا، فحزن لذٰلك، فنزلت هٰذه الآية.

ولا شك أن هٰذا الحديث مكذوب، ومن وضع الدساسين؛ لأن مثل هٰذا النسيان محال علىٰ الأنبياء لعصمتهم في التبليغ، وقد قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلىٰ]. وقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ١٧﴾ [القيامة]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر].

وقد ذكر الأصوليون: إن من علامة وضع الحديث مخالفتَه للدليل القاطع، وقد أحببت ذكره لئلا يغتر به أحد.

ومن أنواع النسخ: ما يزيله اللّٰه فلا يتلىٰ ولا يثْبتُ بَدَلَه، كقوله تعالىٰ: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢].

ومن النسخ ما ينسخ حكمه، ويبقىٰ رسمه يتلىٰ، كآية العِدَّة: حولًا كاملًا.

ومن النسخ ما هو نسخ الرسم دون الحكم، كآية الرجم.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠١)، ومسلم (٧٦٦).

وعلىٰ كل حال فإن النسخ نعمةٌ ورحمة للبشرية، وليس كما صوره اليهود عليهم لعائن اللّٰه.

✍ **وهاهنا مسائل:**

١ ـ الناسخ للآية أو الحكم هو اللّٰه سبحانه، فخطابه الشرعي بما يخالفها يسمىٰ ناسخًا.

٢ ـ ضبط الأصوليون حد الناسخ بقولهم: إنه إزالة ما استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخٍ؛ لولاه لكان السابق ثابتًا.

ففي تعريفهم هٰذا احتراز من الحكم العقلي، والنسخ اللغوي.

٣ ـ النسخ خاصٌّ بالأوامر والنواهي، ولا يدخل في الأخبار لاستحالة الكذب علىٰ اللّٰه، إلَّا إذا تضمن الخبر حكمًا شرعيًّا جاز نسخه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ [النحل: ٦٧]، فإن هٰذا منسوخ بآية تحريم الخمر.

٤ ـ يجوز نسخ الأثقل بالأخف، كنسخ الثبات لعشرة بالثبات لاثنين(١).

ويجوز نسخ الأخف بالأثقل، كنسخ صيام عاشوراء بصيام رمضان.

وينسخ المثل بمثله ثقلًا وخفةً كالقبلة، وينسخ الشيء لا إلىٰ بدل؛ كصدقة النجوىٰ(٢).

---

(١) كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٦٦﴾ [الأنفال].

(٢) الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣﴾ [المجادلة].

٥ ـ ينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالسنة؛ إذا كان الناسخ أقوىٰ من المنسوخ أو مثله ـ لا أضعف ـ، ويُنسخ خبر الواحد بخبر الواحد.

واتفق جمهور الأمة علىٰ نسخ القرآن بالسنة، وذٰلك موجود في حديث: «**لا وصيةَ لوارث**»(١).

وأقول: هٰذا الحديث مخصِّصٌ لا ناسخ؛ لأن الناسخ يُبطل المنسوخ بالكلية، وأما هٰذا الحديث ففيه تخصيص الوارث بالإخراج من الوصية الواجبة؛ لأن اللَّه قد أعطىٰ الوارثين حقهم.

٦ ـ يجوز نسخ السنة بالقرآن؛ كما في استقبال القبلة التي نسخت التوجه إلىٰ بيت المقدس بالسنة، وقد روي عن الإمام الشافعي القول بعدم نسخ القرآن بالسنة وعكسه. وقد عده بعض أصحابه منه هفوةً كبيرةً؛ فقال: «هفوات الكبار علىٰ أقدارهم».

٧ ـ يجوز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلًا. واختلفوا: هل وقع شرعًا أم لا؟ فذهب الجمهور إلىٰ وقوعه في نازلة مسجد قباء، حيث جاءهم واحد وهم يصلون، فأخبرهم شاهدًا أن القبلة حُولت إلىٰ الكعبة، فاستداروا إليها وهم في صلاتهم معتمدين خبره، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ.

٨ ـ يُعرف الناسخ من المنسوخ بالتأريخ، ويتأخر الناسخ علىٰ المنسوخ في النزول لا في التلاوة، فإن آية العدة بالحول متأخرة في التلاوة علىٰ آية العدة بأربعة أشهر وعشرٍ، ولٰكن الأخيرة متأخرة في النزول وإن تقدمت علىٰ تلك في التلاوة، وكذٰلك يعرف الناسخ من سياق النص، كقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١٣]، وكذٰلك يعرف بإجماع الصحابة أن هٰذا ناسخ لهٰذا.

٩ ـ التعديل في الأحكام أو نسخها بالكلية وفق مقتضيات الأحوال في فترة الرسالة هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر وأعم حسبما

(١) رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والتِّرمذي (٦٧٠)، وابن ماجه (٢٠٠٧).

تقتضيه أطوار الحياة، واللَّه هو خالق البشر ومرسل الرسل إليهم ومنزل الآيات، وهو المقدِّر لما يشاؤه من النسخ والتعديل، ولذا قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ ففي هٰذا تنبيه للنبي ﷺ ولكل فرد من المؤمنين به علىٰ قدرته سبحانه علىٰ تصريف المكلف تحت مشيئته وحكمه وحكمته، وأنه لا دافع لما أراده ولا مانع لما اختاره، فإنه سبحانه لما كان هو الناسخ لما يشاء من وحيه، وهو الذي إذا نسخ شيئًا منه أتىٰ بما هو خير وأنفع، فاللَّه الذي يأتي بذٰلك الخير هو المختص بالقدرة علىٰ جميع الخيرات ﷻ.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

بعد أن حكم بجواز النسخ، وأنه سبحانه يأتي بناسخ خير من المنسوخ؛ أعقبه ببيان أن مُلك السماوات والأرض مِلكٌ له لا لسواه، وهٰذا فيه تنبيه علىٰ أنه إنما حسن منه الأمر والنهي لكونه مالكًا للخلق ملِكًا للناس مهيمنًا عليهم، لا لنفع يحصل عليه، ولا لشر يندفع عنه، بل ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]، والخطاب من اللَّه ﷻ في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لنبيه ﷺ ولكل مصدق به إلىٰ يوم القيامة تبعًا.

وفي هٰذا جبرٌ لخواطر المؤمنين مما لاقوه من العنت والامتعاض بأراجيف اليهود وأعوانهم من المشركين والمنافقين والمغفلين المتأثرين بالإيهام والتضليل؛ فإن ضعيف الإيمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذه، فيُخشىٰ عليه من الركون إلىٰ الفتنة أو الحيرة في الشبهات، فأتىٰ اللَّه بِهٰذه الآيات تثبيتًا لمن كان كذٰلك من الضعفاء، وتقوية لجنانهم، ودعمًا لإيمانهم، وهو سلاح يشهره الأقوياء أمام خصومهم المبطلين المضللين.

فالمعنىٰ: إذا كان هٰذا الملك العظيم للَّه وحده، فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكمًا من الأحكام حسبما تقتضيه حكمته ورحمته في

عباده المؤمنين، والدليل علىٰ إرادة الأمة بالخطاب في هٰذه الآية ـ وإن كانت موجهةً في بدايتها لشخص ـ هو التفاته سبحانه عن الإفراد إلىٰ الجمع بقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ يعني: أن اللَّه وليكم وناصركم وحده، وليس لكم من دونه من ولي ينفعكم أو نصير ينصركم، فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به، ولا يجوز أن يستهويكم أو يدخل كلامه في مسامعكم، فإنه لا قيمة له ولا للمنكرين، إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم، ولا يمكن أن يضروكم أبدًا ما دام اللَّه هو مولاكم وهو ناصركم، فلا تبالوا بما سواه أبدًا؛ بل اعتمدوا عليه، ولا يكن في صدوركم حرج مما قضاه من نسخِ ما لا يريد إلىٰ ما يريد.

وقد التمس الإمام محمد عبده مناسبةً لختام قوله سبحانه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإردافه لها بالآية (١٠٧) مع أنه قال في سورة «النحل»: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، فختمها بدعوىٰ الافتراء وبجهل أكثرهم؛ قال: «فختامه لهٰذه الآية يقتضي أنه يراد بالآيات آيات الأحكام». ثم قال: «وأما ختامه بذكر القدرة والتقرير بها في الآية الأولىٰ فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها، وإنما يناسب هٰذا ذكر العلم والحكمة».

قال: «والمعنىٰ الصحيح ـ الذي يلتئم مع السياق إلىٰ آخره ـ: أن الآية هنا هي ما يؤيد اللَّه به الأنبياء من الدلائل علىٰ نبوتهم، أي ما ننسخ من آية نقيمها دليلًا علىٰ نبوة نبي من الأنبياء، أي: نزيلها أو نُنسها الناس لطول العهد بها، فإننا ـ بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك ـ نأتِ بخير منها في قوة الإقناع وإثبات النبوة، أو مثلها في ذٰلك، ومن كان هٰذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه.

و«الآية» في اللغة هي: الدليل والحجة والعلامة علىٰ صحة الشيء، وسُميت جمل القرآن آيات، لأنها بإعجازها حجج علىٰ صدق النبي محمد ﷺ، ودلائل علىٰ أنه مؤيدٌ فيها بالوحي من اللّٰه، وقد كانت يهود تشكِّكُ في رسالته ﷺ بزعمهم أن النبوة محتكرة لبني إسرائيل.

وقد تقدمت الآيات في تفنيد هٰذا، وقد قال عنهم: إنهم ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، فرد اللّٰه عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص]. ومنها هٰذه الآيات التي نحن بصددها، والتي كان الخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يشككونهم، فاللّٰه سبحانه يجيبهم بِهٰذه الآيات بأن قدرته ليست محدودةً ولا مقيدةً بنوع مخصوص من الآيات لا تتعداها؛ بل وليست الحجة مقصورةً في الآيات السابقة، بل اللّٰه قادرٌ علىٰ أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسىٰ وبمثلها، فإنه لا يعجز قدرته شيء كما لا يخرج عن ملكه شيء»، حتىٰ قال: «انظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها في هٰذا المقام! فظهر أن ذكر القدرة وسعة المُلك إنما يناسب الآيات بمعنىٰ «الدلائل» دون معنىٰ «الأحكام الشرعية». ويزيد هٰذا وضوحًا قوله سبحانه في الآية (١٠٨): ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، والوعيد الشديد فيها».

إلىٰ أن قال: «هٰذا هو التفسير الذي تتصل به الآيات، ويلتئم بعضها مع بعض علىٰ وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذي يتقبله العقل ويستحليه الذوق، إذ لا يحتاج إلىٰ شيء من التكلف في فهم نظمه، ولا في توخي مفرداته كالأنبياء والقدرة والملك. وقد اضطر أربابُ القول الأول إلىٰ التكلف في أمر النسيان بما لا يليق». انتهىٰ باختصار وتصرف.

وقوله يُعجب الذي يراعي نظم القرآن ومناسبات أواخر الآيات لمدلولاتها؛ خصوصًا وأن الحملة اليهودية علىٰ النسخ لم يأت أوانها؛ لأنها صارت عند تحويل القبلة، وتحويل القبلة سيأتي موضوعها فيما بعد.

وقد قال تعالىٰ عن الآيات: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام]. وقد أوضح العلة والسبب من عدم استجابته لهم بإنزال الآيات أنها تكون سببًا للهلاك؛ فقال ﷻ في سورة «الأنعام»: ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، وقال في «الإسراء»: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

ونرىٰ في قوله سبحانه:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾:

حرف «أم» هنا للاستفهام؛ لأنها متصلة وليست منقطعة، فتكون للإضراب ونحوه. والمعنىٰ: أتريدون أن تسألوا رسولكم محمدًا ﷺ كما سئل موسىٰ من قبل تعنتًا وتبرمًا ولجاجة.

وللمفسرين أقوال في المخاطبين بِهٰذه الآية:

أحدها: أنهم المسلمون، وهو الصحيح لوجوه:

١ ـ أنه سبحانه قال في آخر الآية: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وهٰذا لا يصح إلَّا في حق المسلمين المؤمنين.

٢ ـ أن قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ يقتضي معطوفًا عليه، وهو قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فكأنه قال: وقولوا: انظرنا واسمعوا؛ فهل تفعلون ذٰلك كما أُمرتم؟ أم تريدون أن تسألوا رسولكم.

٣ ـ أن المسلمين كانوا يسألون محمدًا ﷺ عن أمور لا خير لهم فيها ليعلموها، كما سأل اليهودُ موسىٰ عليه السلام ما لم يكن لهم فيه خير، وعندي أن هٰذا بعيد من أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم.

٤ ـ سأل قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواطٍ كما كان

للمشركين ذات أنواط، وهي شجرةٌ كانوا يعبدونها ويعلقون عليها أسلحتهم، فقال لهم محمد ﷺ: «**اللَّه أكبر، إنها السُّنن**[١]، **قلتم ـ وربِّ الكعبة ـ كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** [الأعراف: ١٣٨]»[٢].

ثانيها: أنه خطاب لأهل مكة، وهو قول ابن عباس ومجاهد، قال: «إن عبداللَّه بن أبي أمية المخزومي: أتىٰ رسول اللَّه ﷺ في رهط من قريش، فقال: يا محمد، واللَّه ما أومن بك حتىٰ تَفجُرَ لنا من الأرض ينبوعًا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقىٰ في السماء بأن تصعد، ولن نؤمن لرقيك بعد ذٰلك حتىٰ تنزل علينا كتابًا من اللَّه: إلىٰ عبداللَّه بن أبي أمية؛ إن محمدًا رسول اللَّه فاتبعوه...» إلىٰ آخر ما قالوه.

وعن مجاهد: أن قريشًا سألت محمدًا ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا وفضة. فقال: «**نعم؛ هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل؟**» فأبوا ورجعوا.

ثالثها: أن المراد بقوله سبحانه: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ هم اليهود، وصححه الرازي؛ لأن سياق الآيات منذ ثمان وستين آيةً كلها في اليهود، ولأن محمدًا ﷺ أصبح رسولكم وأصبح ناسخًا لما جاء به موسىٰ من الأحكام، ومؤكدًا لما جاء به من العقيدة الإبراهيمية، ولأن الآية مدنية ليست مما يخص قريشًا، ولأنه جرىٰ ذكر اليهود وما جرىٰ ذكر غيرهم، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله، فإذا سأله كان متبدلًا كفرًا بالإيمان ـ والعياذ باللَّه ـ.

✍ **وهاهنا فوائد:**

إحداها: أنه ليس في ظاهر الآية أنهم سألوا محمدًا ﷺ عن شيء ـ فضلًا عن كيفية السؤال ـ؛ سواء كان ذٰلك من المسلمين أو من اليهود، وإنما

---

(١) **السُّنن**: عادة السابقين.
(٢) رواه التِّرمذي (٢١٨٠)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١١١٢١).

الآية فيها استفهام أو إضراب علىٰ طريقة التوبيخ، والاستفهام أولىٰ كما مضىٰ، فالحاصل أنه ليس في الآية ما يدل علىٰ السؤال.

ثانيها: ذكروا في اتصال هٰذه الآية بما قبلها وجوهًا:

١ ـ أنه سبحانه لما حكم بجواز النسخ في الشرائع فلعلهم همُّوا بسؤاله عن التفصيل، فمنعهم صيانةً لعقيدتهم؛ مبينًا أنه ليس لهم الاشتغال بِهٰذه الأسئلة التي لم تنفع قوم موسىٰ من قبل.

٢ ـ أنه لما قدم لهم الأوامر والنواهي قال لهم: إن لم تقبلوا ما أمرتُكم به وتمردتم عن الطاعة؛ كنتم كمن سأل موسىٰ ما ليس له أن يسأله.

وقد أتبع اللّٰه سبحانه التحذير بالتوعية حيث قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، يعني: أن ترك الآيات الموجودة والإعراض عنها لإعنات النبي ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلًا منها؛ هو من اختيار الكفر علىٰ الإيمان، واستحباب العمىٰ علىٰ الهدىٰ، و«بدل» و«تبدل» و«استبدل» بمعنىٰ واحد، وهو جعل شيء في موضع آخر بدلًا منه، فمعنىٰ قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: ومن يجعل الكفر بدلًا من[1] الإيمان وعوضًا عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وسواء السبيل: وسطه.

ووجه التشبيه في ذٰلك: أن من سلك طريق الإيمان فهو جارٍ علىٰ الاستقامة المؤدية إلىٰ الفوز والظفر. فالمبدِّل لذٰلك بالكفر عادل عن الاستقامة. فقيل فيه: إنه ضل سواء السبيل. ففي هٰذه الآية تحذيران عظيمان:

أحدهما: التحذير من مشابهة بني إسرائيل في معاملتهم لموسىٰ بأن لا يسألوا النبي ﷺ شيئًا تركه. ولقد قال ﷺ: «**ذرُوني ما تركتكم؛ فإنما هَلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافِهم علىٰ أنبيائهم**»[2]. ولما

---

(١) في المطبوع: «منه»، ولعل الأصح ما أثبتناه.

(٢) تقدم تخريجه.

قال ﷺ: «**إن اللَّه افترَض عليكم حجَّ هٰذا البيت**». فقال رجل: أفي كل عام يا رسول اللَّه؟ فقال ﷺ: «**لو قلتُ: نعم؛ لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم، ذرُوني ما تركتكم**»(١).

ثانيهما: التحذير من نهاية هٰذا الطريق التي هي الضلال واستبدال الكفر بالإيمان، وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل، ويعملون بكل جد ونشاط علىٰ أن يقودونا إلىٰ الهاوية التي صاروا إليها، فهم أئمة الكفر والضلال. ومن واجب المسلم حماية إيمانه وصيانته عن كل ما ينقصه أو يثلمه، وذٰلك قد أوضحه اللَّه في الآية (٦٥) من سورة «النساء» بثلاثة أمور مقترنات:

أحدها: تحكيم المصطفىٰ ﷺ في كل شيء من الأمور ـ دون مبالاة بحظوظ(٢) من النفس ـ، فإن المراعي لحظوظ نفسه في ذٰلك قد يرفض الاحتكام لما جاء به محمد ﷺ إذا رأىٰ أنه مغلوب، فتسوِّلُ له نفسه الأمارة بالسوء الاحتكامَ إلىٰ طاغوت من الطواغيت، وحينئذ لا يكون من المؤمنين.

ثانيها: عدمُ الحزن والتحرج من النتيجة لقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ [النساء: ٦٥]، بل يكون منشرح البال فيما يقضيه ﷺ حين حياته، ومنشرح البال بسنته القولية والفعلية والإقرارية بعد وفاته، لا يُكِنُّ في صدره حرجًا علىٰ أي شيء من سنته أو قضاياه.

ثالثها: أن يسلِّم تسليمًا كاملًا لجميع ما جاء به، وجميع ما حكم به، وجميع قضاياه، فلا يردُّ شيئًا مما جاء به، ولا يرفض شيئًا من حكمه أو يتبرم منه، ولا يضيق صدرُه بشيء من قضاياه، ولا يحتقر

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

(٢) في المطبوع: «بخصوص»، ولعل الأصح ما أثبتناه، ويدل عليه ما بعده، واللَّهُ أعلم.

شيئًا من سنته، ولا يتساءل عن بعض الأحكام الشرعية لمجرد مخالفتها لعقول الغربيين أو تقاليدهم، فمثلًا من قال: «كلُّ ما في الإسلام يعجبني، وأنا مسلم مقتنع بالدين، ولٰكن لا أهضم ولا أوافق علىٰ تعدد الزوجات أو الطلاق ونحوه»، أو: «لا أقبل كون الدية علىٰ العاقلة ونحو ذٰلك ممَّا هو مشهور في الشريعة»، أو: «لا أستسيغ قطع يد السارق أو رجم الزاني»، فهٰذا إن لم يقلع إقلاعًا صحيحًا عما قاله وإلَّا فهو زنديق[1]، أو علىٰ الأقل مؤمن ببعض الكتاب وكافر ببعضه، فيعتبر كافرًا بالجميع حتىٰ يرجع إلىٰ حكم اللَّه في الجميع.

وقوله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾:

يخبرنا اللَّه سبحانه في الآية الأولىٰ من هاتين الآيتين عن دفائن النفوس اللئيمة لبني إسرائيل، الذين جعلوا من دينهم عصبيةً جنسيةً لهم تقوم علىٰ أساسه منافعهم الشخصية وأغراضهم الأنانية، إنهم لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض عهوده بغيًا وحسدًا له ولقومه علىٰ نعمة الرسالة والنبوة؛ بل هم يزيدون علىٰ ذٰلك بما قصه اللَّه علينا في هٰذه الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾؛ فهٰذا بيان من اللَّه ﷻ لما يضمرونه وما تخفيه صدورهم للمسلمين من الحقد اللئيم والحسد علىٰ نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق، وأن وراءها السؤدُدَ والسعادة في الدارين. ولٰكن لما شق عليهم اتباعُهم تمنوا حرمانهم

(١) الزنديق في عُرف السلف الصالح هو الكافر الملحد.

هٰذه النعمة، وأن يرجعوا كفارًا كما كانوا من قبل، رغبةً منهم في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون.

وهٰذا شأن الحاسد، يتمنىٰ أن يُسلب محسوده النعمة، ولو لم يصل إليه شيء منها، فالحسد الكمين في صدور اليهود هو ذٰلك الانفعال الخسيس الذي فاضت به نفوسهم ضد الإسلام والمسلمين، وهو الذي تنبعث منه جميع دسائسهم ومؤامراتهم وتدميراتهم، وهو السبب الكامن وراء كل فتنة يقيمونها.

وما يعمِّقُ ذٰلك الحسدَ في صدورهم من قديم الزمان: استيقانُهم بأن المتمسك بِهٰذه الرسالة والزاحف بها في ربوع الأرض يكون له الحول والطَّول، وينال السيادة من اللَّه، ليس عليهم فقط؛ بل علىٰ جميع الناس؛ ما داموا مستيقنين أنهم سيدخلون تحت سلطانهم، فكيف لا يحسدونهم علىٰ ذٰلك؟ وكيف لا يعملون جميع ما في وسعهم للحيلولة دون ذٰلك؛ ولٰكن اللَّه غالب علىٰ أمره.

وقد جاء هٰذا التنبيه من اللَّه العليم الحكيم تتمةً لقوله في الآية السابقة (١٠٥): ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وبين اللَّه لعباده المؤمنين ما كان من تحايلهم علىٰ التشكيك، تشكيك المسلمين في دينهم بشتىٰ الوسائل والأساليب، حتىٰ إنهم يأمرون بعض اليهود بالإيمان في أول النهار بالإسلام، والكفر في آخره، ليقوموا بعملية ترسيبية ملعونة سنأتي علىٰ ذكرها في موضعها من سورة «آل عمران». وهٰذه من أخبث الخطط وألعنها وأخطرها علىٰ المجتمع الاسلامي الناشئ الحديث، ولٰكن اللَّه تولىٰ هداية هٰذه الأمة، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء].

وفائدة هٰذه التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يُلقيه أهل الكتاب من اليهود وأذيالهم النصارىٰ من الشبهات علىٰ الإسلام، وتشكيك المسلمين فيه إنما هو من مكرهم السيئ الذي مبعثه الحسد والحقد،

ليس النصح الذي مبعثه الاعتقاد، ولذا قال تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، ليوضح لعباده المؤمنين أن حسدهم لم يكن عن شبهةٍ دينيةٍ أو غَيرةٍ علىٰ حق يعتقدونه، وإنما هو عن خبث النفوس، ولؤم الطباع، وفساد الأخلاق، والتمادي في الباطل إصرارًا وعنادًا؛ ولذٰلك أتبعه بقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ فالحق عندهم ظاهر متبيِّن أنه مع محمد ﷺ ومع أصحابه، وهم يعرفونه بكل وضوح، لٰكنهم عادَوه عَداءً صريحًا لمَّا صدر علىٰ غير أيديهم، وحسدوا أهله بكل وقاحة بعد ما تبين لهم الحق بالآيات التي جاء بها النبي ﷺ مطابقةً لما في بشارات التوراة به.

فالقرآن الكريم يكشف للمسلمين نفسية أعدائهم ليعرفوها ولا يطمعوا منهم بخلافها، ويعرفوا السبب الكامن وراء كل عمل شنيع يقومون به، فلا يستعظمونه؛ بل يستعدون لمقابلة ما هو أشد منه؛ لأن العدو لا ينقلب صديقًا، وعدوُّك في الدين والعقيدة لا يمكن أن يلتقي معك علىٰ مودة، ولٰكن علىٰ منفعة يهتبلها[1] لمصلحة عقيدته والإضرار بعقيدتك، فهو دائمًا يهدف إلىٰ ذٰلك، ومع هٰذا اقتضت حكمة اللَّه ألَّا نقابل حسدهم بحسد، ولا غيظهم بغيظ، ولا لؤمهم بلؤم، ولا شرهم بشر، بل نرتفع عن جميع ذٰلك، ملتزمين ما أمرنا مولانا بقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾، ولم يخصهم بِهٰذه المعاملة الحسنة، فلم يقل: «اعفوا عنهم، واصفحوا عنهم»، وإنما أتىٰ بها للعموم لنعامل جميع الناس بالصفح والعفو اللائق بمقام المؤمنين وشرفهم، و«العفو» ترك العقوبة، و«الصفح» الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه.

ثم قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، فجعل العفو والصفح مقيدًا بغاية محدودة، وهي إتيان أمره بالجهاد الذي يزلزلهم ويجتاحهم. وفي

---

(١) **يهتبلها**: يغتنمها.

أمره سبحانه للمؤمنين بالعفو والصفح إيذانٌ من اللَّه بأن المؤمنين هم الأقـويـاء وإن قلـوا، وأن خـصومهم الـضعفاء وإن كثـروا؛ لأن العفـو والصفح لا يُطلب إلَّا من القوي القادر، فكأنه يقول لهم: لا يغرنكم ـ أيها المؤمنون ـ كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم ـ علىٰ قلتكم ـ أقوىٰ منهم بما أنتم عليه من الحق الذي تؤيدكم به العناية الإلٰهيَّة، فعاملوهم معاملة القوي العادل للضعيف الجاهل.

وفي إنزال اللَّه المؤمنين ـ علىٰ ضعفهم ـ منزلة الأقوياء، ووضع اليهود ـ علىٰ كثرتهم ـ موضع الضعفاء إعلامٌ إلٰهيٌّ دائم بأن أهل الحق هم المؤيَّدون بعزته وحصانته ﷻ، وأن لهم العزَّةَ في كل زمان ومكان ما داموا ثابتين علىٰ الحق، ومهما يتصارع الحق والباطل فالغلبة للحق بإذن اللَّه، والباطل هو المصروع؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]، وإنما بقاء الباطل وجولانه عند غفلة أهل الحق عنه، ولذا أحالهم اللَّه علىٰ قدرته التي لا يعجزها شيء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فقدرته النافذة ـ التي لا يشذ عنها شيء في العالمين ـ هي التي يكون فيها التأييد للحق.

وليُعلَمْ أن أوائل اليهود يودون لو ارتد المسلمون وصاروا كفارًا ـ كما حكىٰ اللَّه عنهم ـ؛ ولٰكن أواخرهم في هٰذا الزمان عملوا علىٰ تخطيط رِدَّةٍ جديدةٍ وجاهليةٍ جديدة؛ مصطبغة بشتىٰ الأسماء والألقاب؛ من قومية، وبعثية، واشتراكية، وشيوعية، وإباحية، ووجودية تمثل التعري، والحيوانية، وفرعونيةٍ تمثل ألوانًا من ضروب الوثنية وعبادة الأشخاص، ولكل مذهب دعاةٌ بتحضيض من اليهود وعملاء اليهود، وتمويل سخي خفي فيه من الإغراء ما ليس له مثيل.

لقد خطَّت الماسونية اليهودية خطوطًا عريضةً نفَّذ غالبها الاستعمار وخلفاؤه الذين يتبجحون بطرده وشتمه إفكًا وزورًا، خطوطًا عريضةً بعيدةَ المدىٰ لتفتيت العقيدة وإفساد الأخلاق وإخراب الضمائر، حتىٰ

كسبوا من شباب الأمة من يتنكر لدينه وأمجاده وتاريخه، ويعتز بالفراعنة وما خلفوه؛ مما هو نتيجة تسخير الشعب البائس، وإحماء ظهوره بالسياط ليحمل الأثقال، ويبني الأهرام بعرقه المتصبب، وعضلاته الملهَبة بضرب السياط، وإلَّا فلم يذكر تاريخهم أنهم رصدوا له كذا وكذا من آلاف الملايين، ولا أنهم صنعوا ما يريح الشعب من الآلات الحاملة للأثقال ـ بل على العكس ـ! والعجب أن الذين أوقف اللَّه عليهم اللعنة يوجدُ من أبناء المسلمين من يقدسونهم نتيجة للردة الجديدة ـ والعياذ باللَّه ـ.

ومن مكر اليهود وحسدهم: ما ذكره المفسرون أن فنحاص بن عازورا وزيد بن قيس ونفرًا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أُحد: «ألم تروا ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق ما هُزمتم! فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل، ونحن أهدى منكم سبيلًا. فقال عمار: كيف نَقْضُ العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: إني قد عاهدت ألَّا أكفر بمحمد ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ. وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبالكعبة قبلةً، وبالمؤمنين إخوانًا. ثم أتيا رسول اللَّه ﷺ وأخبراه. فقال: «**أصبتما خيرًا وأفلحتما**»، فنزلت هذه الآية: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾»(١).

وهاهنا فوائد:

١ ـ ورد في ذم الحسد أحاديث كثيرة؛ نكتفي منها بقوله ﷺ: «**الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطب**»(٢).

وبقوله ﷺ: «**دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلَكم: الحسد والبغضاء، والبِغضةُ هي الحالقة، لا أقول: تَحلِقُ الشعر، ولكن تَحلِقُ الدين**»(٣).

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) رواه أبو داود (٤٩٠٣)، وابن ماجه (٤٢١٠).
(٣) رواه الترمذي (٢٥١٠).

٢ ـ حقيقة الحسد: وهي أنه إذا أنعم اللَّه علىٰ أحدٍ بنعمة، فإن أردت زوالها فهٰذا هو الحسد، وإن أردت لنفسك مثلها فهٰذه هي الغبطةُ والمنافسة. أما الأول فحرام علىٰ كل حال؛ إلَّا نعمة أصابها فاجر يستعين بها علىٰ الشر والفساد، فلا يضرك محبتُك لزوالها، فإنك ما أحببت زوالها إلَّا من أجل فجوره وفساده.

٣ ـ مراتب الحسد: وهي أربعة:

الأولى: أن يحب زوال تلك النعمة عن المحسود ـ وإن كان ذٰلك لا يحصل له ـ، وهٰذا غاية خبث الحسد.

الثانية: أن يحب زوال تلك النعمة إليه، وأن تكون له لا للمحسود.

الثالثة: أن يشتهي لنفسه مثلها، ولا يشتهي زوالها عنه بادئ الأمر، لٰكن إذا لم يحصل له مطلوبه حسده وتمنىٰ زوالها عنه.

الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم يحصل فلا يحب زوالها.

وهٰذا معفو عنه، والثالث بين الذم والمدح، والثاني علىٰ خطر، والأول هو المذموم الخطير.

٤ ـ ذكر العلماء للحسد سبعة أسباب:

أحدها: العداوة والبغضاء، سواء كان عدوانًا[1] أو بسبب إيذاء.

ثانيها: أن ينال أحد منصبًا عاليًا يرتفع عليه به وهو لا يتحمل، فيحسده ويريد زوال ذٰلك عنه، وقد يسعىٰ بقدرته لذٰلك.

ثالثها: أن يكون من طبيعته استخدام غيره، فيريد زوال النعمة عمن يرغب استخدامهم.

رابعها: التعجب؛ كما حكىٰ اللَّه عن أعداء الرسل أنهم قالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: ١٥]، ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون]، ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء]، إلخ.

---

(١) يعني ابتداءً.

خامسها: الخوف من فوت المقاصد، وذٰلك يختص بالمتزاحمين علىٰ مقصود واحد أو صنعةٍ واحدة، فإن كل واحد منهما يحسد صاحبه علىٰ كل نعمة تكون عونًا له في الانفراد بمقصوده، وفي هٰذا الباب تحاسُد الضرَّات والإخوة في نيل المنزلة عند الوالدين ونحو ذٰلك.

سادسها: حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه، كالذي يكون عديم النظير في فنٍّ من الفنون أو نوع من المُلك والسلطان، فإذا سمع بنظير له ـ ولو بعيدًا عنه ـ ساءه ذٰلك، وأحب هلاكه وزوال نعمته أو سلطانه.

سابعها: شح النفس بالخير علىٰ عباد اللَّه، وهٰذا أكثر أنواع الحسد.

٥ ـ سبب كثرة الحسد وقلته وقوته وضعفه في الأمكنة، وقد حكىٰ العلماء أسبابًا من أرجحها ما يؤيده الحس، وهو بروز المنافسة لبروز النعمة، وبروز العمل والفن، وغير ذٰلك؛ ولهٰذا نجد الحسد منتشرًا في القرىٰ الصغار التي يبرز فيها أدنىٰ شيء للعيان، فتكثر الغبطة ويقوىٰ الحسد، بخلاف المدن الكبار؛ فإن الأعمال فيها كثيرة والحركات واسعة والمسافات شاسعة، وكل ذي فن من الفنون مشغول عن منافسه ولا يدري عنه، وكل تاجر منشغل بتجارته، غارق في أعماله عن ملاحظة من سواه، وهٰكذا سائر الناس في المدن؛ كلٌّ منهمك في عمله، منشغل عما سواه، لا يتطلع إلىٰ غيره لانهماكه في عمله وانشغاله، عكس القرىٰ، فإن صاحبها يحصي ذرات منافسه، فأهل القرىٰ دائمًا عيون بعضهم لبعض، ولهٰذا يكثُر الحسد وينتشر في القرىٰ انتشارًا فظيعًا، ويقل ويتضاءل جدًّا في المدن والأمصار؛ لانشغال كل منهم بعمله.

٦ ـ في العلاج المزيل للحسد؛ وهٰذا من جانبين:

أولاً: من جانب الحاسد: فينبغي له أن يعلم أن من لوزام صحة إيمانه باللَّه هو الرضا بالقضاء، وأنه بحسده لأحدٍ من عباده لا يكون راضيًا بقضائه، بل يكون ساخطًا لحكمه وقضائه، منازعًا له في قسمته

التي قسمها لعباده، وعدلُه الذيْ أقامه بينهم يخفي حكمته التي قد لا تظهر لكثير من الناس، وهٰذه جناية تقدح في أصل التوحيد والإيمان. **هٰذا من جهة.**

ومن جهة ثانية: فعلىٰ الحاسد أن يعلم أنه إذا غش مؤمنًا لأجل الحسد؛ خرج من صفة المؤمنين الذين يحبون لإخوانهم الخير، وشارك إبليس وجميع الكافرين في محبتهم الشر للمؤمنين.

ومن جهة ثالثة: فإنه إذا عادىٰ مؤمنًا لأجل الحسد؛ كان مبارزًا للَّه ﷻ بالمحاربة؛ لأن المؤمن من أولياء اللَّه ـ ولو كان فيه ما فيه ـ؛ إذ لا تشترط العصمة في أولياء اللَّه.

ومن جهة رابعة: يجب عليه أن يتذكر عقاب اللَّه العظيم للحاسد في الآخرة.

ومن جهة خامسة: يجب عليه أن يرحم نفسه ويرثي لها من آثار الحسد، من الهموم والغموم والكمد الذي لا يفارق قلبه وصدره، مما قد ينقلب عليه مرضًا عضالًا. وكثيرٌ من الحساد قتلهم الحسد ـ خصوصًا علىٰ الرئاسة والجاه ـ؛ فإذا علم الحاسد واستيقن أن الضرر عليه في دينه ودنياه، وأن حسده لا يضر محسوده، بل يضره هو، فقد يقلع عن الحسد ويسلم صدره منه، فيسلم له دينه وتسلم له صحته، حيث يسلم من الوساوس والمنغصات والهموم والغموم المؤذية للصحة والعياذ باللَّه.

ومن جهة سادسة: يجب علىٰ الحاسد أن يستيقن أن المحسود لا يضره حسدُه أبدًا ـ لا في الدين ولا في الدنيا ـ؛ لأنه في الدنيا تتتابع عليه النعمة والإقبال إلىٰ الأجل المقدر لها، ولكل أجل كتاب، ولا تُزال نعمته بالحسد، بل تزيد نعمته وأجره، بل المحسود ينتفع بحسد الحاسد في الدنيا والآخرة، بل في الدين والدنيا:

أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهة الحاسد، خصوصًا إذا أخرجه الحسد إلىٰ الغيبة والقدح فيه، وهتك ستره، وذكر مساوئه، فهي

هدايا يهديها اللّٰه إليه علىٰ يد حاسده؛ فتزداد حسناته وتقل سيئاته، ولا يزال المحسود يزداد منفعةً من الحاسد رغمًا عنه، فإذا استيقن الحاسد ذٰلك عرف أنه هو الخاسر دون المحسود، فأقلع عن حسده وتاب إلىٰ ربه.

هٰذا علاج الحاسد.

ثانيًا: أما علاج المحسود فبعدة أمور:

أحدها: الاستعاذة الصادقة باللّٰه من شر حاسدٍ إذا حسد، ومن استعاذ باللّٰه صادقًا لاجئًا أعاذه.

ثانيها: تقوىٰ اللّٰه تعالىٰ، وحفظه في حدوده، كما قال ﷺ: «**احفظ اللّٰه يحفظك**»[1].

ثالثها: التوبة الصادقة من الذنوب التي من أضرارها تسليط الحاسد.

رابعها: الصبر علىٰ عدوه، وألَّا يشاوره ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، بل يستعين باللّٰه.

خامسها: قوة التوكل علىٰ اللّٰه، والتحصن بملازمة ذكره.

سادسها: فراغ القلب من الاشتغال بالحاسد والتفكر فيه؛ بل يقتلعه من قلبه ولسانه، ويجعله نسيًا منسيًّا، فيمحوه من قلبه ولا يخاف منه، ولا يطرأ له علىٰ بال[2].

سابعها: الإقبال علىٰ اللّٰه تعالىٰ بقوة محبته، والإخلاص له، والإنابة إليه، والضراعة إليه وحده.

ثامنها: الصدقة والإحسان العام غاية الإمكان، فإن لذٰلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلايا والكربات عمومًا.

تاسعها: الإحسان إلىٰ الحاسد، ومهاداته بما يطفئ حسده الغالي في صدره، وهٰذا شاق علىٰ النفوس، واللّٰه المستعان.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦).

(٢) أي: لا يتعمد تذكُّره أو تذكُّرَ أي شيء يستدعي ذِكرَه، لأن طروء الأمور علىٰ البال في حد ذاتِها ليست في مقدور العبد.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

بعد أن أمر اللَّه عباده المؤمنين بالعفو والصفح عن أعدائهم في الدين، وأقامهم سبحانه بذٰلك مقام القادر العزيز، ليرفع من نفوسهم، ويقوي من معنوياتهم، أمرهم بعد ذٰلك بإقامة الصلاة لِما فيها من التوثيق لعرىٰ الإيمان، وإعلاءٍ للهمة، ورفعة للنفس بمناجاة اللَّه ﷻ، وتآلف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها في المساجد، ولما فيها من تنزيه النفس عن الفواحش ـ ما ظهر منها وما بطن ـ؛ فتكون بذٰلك أقوىٰ نفاذًا في الحق وجديرةً بالنصر.

هٰذا؛ وإن إقامة الصلاة ليست أداءها مطلقًا[(١)]، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية، وذٰلك بصدق التوجه إلىٰ اللَّه بحضور القلب واستشعاره عظمة اللَّه وجلاله.

وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

فيه تعظيم لشأنها؛ لما فيها من توكيد الصلة بين الأغنياء والفقراء، فتتحقق بذٰلك وحدة الأمة وصلاحها وفلاحها وتكاتفها، وتكون كالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تألَّمَ لألمه باقي الأعضاء جميعها.

وقد جرت كلمةُ اللَّه في القرآن الكريم: أن يقرن الزكاة بالصلاة، وذٰلك لأنهما صِنوان في الإصلاح، فالصلاة فيها من إصلاح حال الفرد ما اللَّه به عليم[(٢)]، والزكاة فيها من إصلاح حال المجتمع ما اللَّه به عليم، فبذلُ الزكاة وقاية من الشح والبخل، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التغابن]؛ لذا فإن من جاد بها وبذلها سهل عليه بذل نفسه في سبيل اللَّه؛ لأن نفسه قد طهرت من الشح بفضل بذل الزكاة.

---

(١) أي: ليست مجرد الحركات الظاهرة فقط.

(٢) هٰذا إذا أقامها العبدُ علىٰ الوجه الذي يُرضي اللَّهَ ﷻ.

وبالإضافة إلىٰ أن هٰذين الركنين من أسباب النصر والسلطان في الدنيا، فإنهما من أسباب السعادة في الآخرة أيضًا، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: تجدون جزاءه عند ربكم في يوم لا يظلم فيه مثقال ذرة. وهٰذا الوعد من اللَّه سبحانه بالجزاء علىٰ العمل؛ من شأنه أن يبعث عند المؤمن اندفاعًا نحو الخير والإحسان.

قال الإمام ابن جرير: «وإنما أمرهم اللَّه جل ثناؤه في هٰذا الموضع بما أمرهم به من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتقديم الخيرات لأنفسهم؛ ليطهِّروا بذٰلك الخطأ الذي سلف منهم».

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾:

أي: لا يخفىٰ عليه منه شيء فتخافون أن ينقصكم من أجوركم شيئًا.

وهٰذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر، فإنه فيه وعدًا ووعيدًا وأمرًا وزجرًا، حتىٰ يجدَّ الناس في طاعته.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

يخبر اللَّه المؤمنين في هٰذه الآيات عن تخليط اليهود وإلقائهم الشبهات علىٰ المؤمنين لزعزعة عقيدتهم، بزعمهم أنهم هم المهتدون وحدهم، وأن الجنة وقف عليهم، مفنِّدًا هٰذا، ومبينًا للقاعدة العامة التي كررها وأعادها في مواضع من القرآن.

وفي الآية الأولىٰ اختصار بديع، إذ إن معناها: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلَّا من كان هودًا. وقالت النصارىٰ: لن يدخل الجنة إلَّا من كان من النصارىٰ. وهٰذه هي عقيدة الفريقين إلىٰ اليوم، ولا ينافي انسحاب حكمهما علىٰ الآخرين أن نفرًا من الأولين قالوا ذٰلك بين يدي النبي ﷺ.

وقد بين اللَّه سبحانه لنا أن هٰذا القول ليس لهم به حجةٌ في كتبهم المنزلة من عنده، وأنها مجرد أماني منشؤها الافتراء علىٰ اللَّه، وإلَّا فالتوراة توجب الإيمان بعيسىٰ والإنجيل، وكذٰلك الإنجيل يوجب الإيمان بموسىٰ وبالتوراة.

وإذا كان كذٰلك فمن أين لهم الحجة علىٰ احتكار كل فريق الجنة لنفسه دون غيره؟ ولذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم، فقد طالبهم اللَّه بالبرهان علىٰ دعواهم؛ ليقرر لعباده المؤمنين قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية[١]؛ وهي: أنه لا يقبل من أحد قولٌ إلَّا بدليل، ولا يُحكم لأحد بدعوىٰ ينتحلها بغير برهان يؤيدها، وكل ما لا دليل عليه ولا برهان فهو قول مرفوض، ودعوىٰ باطلة من الأساس.

ثم إنه تعالىٰ رد علىٰ كل من اليهود والنصارىٰ برد قاطع، وذٰلك بإثبات قاعدة دينية عامة فقال: ﴿بَلَىٰ﴾، وهي كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفي سابق، فهي مبطلةٌ لقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾؛ يعني: بلىٰ إنه يدخلها من لم يكن هودًا ولا نصارىٰ؛ لأن رحمة اللَّه ليست موقوفةً علىٰ شعب دون شعب، أو أمَّةٍ دون أمة، وإنما هي مبذولةٌ لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، والذي أوضحه بقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعني: أخلص اتجاهه للَّه، وكذا مقاصده وأعماله، ولم يسلم وجهه لغير اللَّه، فكانت أعماله علىٰ وفق شريعة اللَّه أولًا، وخالصةً لوجهه ثانيًا.

ثم إنه سبحانه بعد ما أثبت لهٰذا النوع من المؤمنين أجره، نفىٰ عنه ما يرهق الكافرين من الخوف والحزن، وما يرهق المذنبين، فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) وهٰذا فيه نظر؛ إذ يحتاج إلىٰ دليل عن المعصوم ﷺ، والكتب السابقة ضيعها من حمَّلهم اللَّهُ إياها، فلا نعلمُ هل كان فيها هٰذا أم لا، والعلمُ عند اللَّه ﷻ.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

ذكر اللَّه سبحانه في الآية (١١١) تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه، وحكمه بحرمان غيره من رحمة اللَّه، حيث حكم كل فريق بأن الجنة وقف عليه. والآن ذكر اللَّه لنا طعن كل فريق منهم بالآخر خاصة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الدين الحقيقي الذي يعتد به، فاليهود القائلون هٰذه المقالة قد كفروا بعيسىٰ ﷺ الذي بشرتهم به التوراة، فانظر تناقضهم مع أنفسهم، فإنهم ليسوا علىٰ شيء، لكفرهم بعيسىٰ وإنكارهم حقيقته. وهٰكذا فإن النصارىٰ قابلوهم بالطعن، كما حكىٰ اللَّه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي من الدين الحقيقي الذي يعتد به؛ لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم. فكل فريق ينفي الدين بتاتًا عن الفريق الآخر ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني كل فريق منهم يتلو كتابه المنزل عليه بواسطة نبيه؛ فكتاب اليهود ـ التوراة ـ يبشر بنبي منهم، وهو عيسىٰ ﷺ، فلم يؤمنوا به، فهم مخالفون لكتابهم، وكتاب النصارىٰ ـ الإنجيل ـ يقول بلسان المسيح: إنه جاء متممًا لناموس موسىٰ ﷺ، وليس ناقضًا له، وهم نقضوه.

فدينهم في الكذب واحد، إذ إن كُلًّا منهم آمن ببعض الكتاب، وكفر ببعض، فهم في الكفر سواء.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من مشركي العرب الجهال وغيرهم من أهل الملل الجاهلية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ من تعصُّب كلٍّ لملته الفاسدة التي جعلها جنسيةً يعتز بها، وزعم أنها المنجية لمن رسمها ورضي باسمها ولقبها، وأما غيرها فليس علىٰ شيء! ولٰكن الحق فوق كل هٰذه المزاعم، فلا يتقيد بأسماء ولا ألقاب، وإنما هو إيمان خالص وعمل

صالح لا يشوبه شائبة.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ لأنه العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل.

ولم يبين لنا ﷻ هنا طريقة حكمه، ولٰكنه بينها في سورة «الأنفال» بقوله: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾:

ذكر اللَّه هٰذه الآية ضمن الآيات التي يتكلم بها عن بني إسرائيل؛ لأن الاجتراء علىٰ حرمة المساجد والسعي في خرابها خرابًا معنويًّا هو من أعمال اليهود غير المباشرة، فهم الذين يسعون بالدس تارةً والتعليم التركيزي تارةً، علىٰ منع ذكر اللَّه ذكرًا تامًّا حسبما يقتضيه مدلول «لا إلٰه إلا اللَّه»، وعلىٰ التخريب المعنوي للمساجد؛ فالوثنيون في عهد النبوة الذين يتلقَّون التعليم من يهود منعوا رسول اللَّه ﷺ، ومنعوا أبا بكر من عمارة بيوت اللَّه بالذكر والصلاة، والوثنيون العصريون الذين تلقَّوا ـ ويتلقون ـ تعاليمهم من اليهود ـ علىٰ اختلاف مبادئهم ومذاهبهم وألقابهم، من شيوعية واشتراكية وبعثية وقومية علمانية وغيرها ـ؛ كلهم يجنون علىٰ المساجد بجنايات مختلفة، منها ما يعم التخريب الحسي والمعنوي ـ كما جرىٰ في البلاد الشيوعية ـ، ومنها ما يخص التخريب المعنوي؛ كفرض الرقابة علىٰ المنابر، وألا يعلوها إلَّا من يريدون ممن يسترخص نفسه لهم؛ فإن من تعاليم اليهود الحديثة: «التخريب المعنوي للمساجد» بوسائل كثيرة مما خططوه، منها استيلاء الحكومة الغالبة علىٰ أوقاف المسلمين، وصرف كثير من غلتها للإداريين الذين قد يكون بعضهم ليس من المسلمين، فيأخذون

رواتب باهظةً، وهم لا يعرفون من الإدارة سوىٰ ساعات محدودة، ثم يغادرونها من الظهر إلىٰ ضحىٰ الغد. أما الأئمة للمساجد والمؤذنون المرتبطون بها ليل نهار، والذين يرقبونها من فرض إلىٰ فرض طيلة النهار والليل؛ فلهم رواتب زهيدة لا تساوي راتب المراسل والخادم أو الفرَّاش في الإدارة! إنه راتب مضحك؛ بل في بعض البلاد العربية ليس للجوامع خطيب سوىٰ ما تؤجره الوزارة من الشارع بثمن بخس. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرىٰ: يُخرسون الخطيب الحر عن النطق بكلمة الحق؛ بل عن توضيح مدلول الشهادتين ـ المستلزم للكفر بالطاغوت وبيان أحوال الطواغيت وأنواعهم ـ، وبعضهم يسخِّر منابر المسلمين أبواقًا له يملي علىٰ أهلها الخطبة التي يريد، أو يبتاع ضمير من يسترخص نفسه، فيخطب بما يريدون وأزيد مما يريدون، كما حصل ممَّن يمدح المذاهب الشيوعية ونحوها.

هٰذه نماذج مما خططته اليهود لخراب المساجد، وقد عملت قبل القرون الوسطىٰ علىٰ أحداث القرامطة الذين خربوا المساجد تخريبًا حسيًّا بالهدم والإهانة، حتىٰ المسجد الحرام والكعبة المشرفة التي اقتلعوا الحجر الأسود منها، ودام بأيديهم مدةً حتىٰ اشتراه المسلمون، وقصته مشهورة، وكل هٰذا من جرائم اليهود.

✍ **ثم إن هاهنا مسائل:**

أحدها: قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾؛ فالآية مشعرة بأن ظلمه من أعظم الظلم، ولٰكن ظلم الشرك أعظمُ منه، فيكون هٰذا الظلم مخصوصًا، أو لا يكون أحدٌ أظلم بعد ظلم الشرك من ظلم الجاني علىٰ المساجد.

ثانيها: ذكر المفسرون ـ أو بعض المفسرين ـ أسبابًا لنزول هٰذه

الآية لا يصح شيء منها، ومن أغربها ما حكاه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حادثة «بُخْتُنَصَّر البابلي»، وما أجراه ببيت المقدس من الخراب؛ زاعمًا اتحاد النصارىٰ معه في هٰذا الصنيع، مع أن حادثة «بُختُنصَّر» كانت قبل وجود المسيح والنصارىٰ بسِتمئةٍ وثلاث وثلاثين سنة! مع أنه[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أكبر المؤرخين، فكيف غابت عنه، ولٰكن يعتذر عنه أن له في «التفسير» حالةً غير حالته في «التاريخ»، وأنه يعتمد في التفسير علىٰ النقل فيما لا يتعلق به حكم شرعي؛ فإن الرواية التي لا ينبني عليها حكم شرعي يتساهلون فيها، وقد ذكرتها للتنبيه لا للنقد، واللَّه تعالىٰ من وراء القصد.

وكما قلنا سابقًا: إن السبب هو اليهود، وهم الذين أغروا مشركي قريش بالصد عن المسجد الحرام، وأغروا بعدهم القرامطة، ثم الصليبيين، ثم أفراخهم في هٰذا الزمان من أصحاب المبادئ العصبية والمذاهب المادية ممَّا فصلناه سابقًا، وهو ـ بحمد اللَّه ـ واضح.

ثالثها: كون الساعي في خراب المساجد، والمانع فيها من ذكر اسم اللَّه ـ بالمعنىٰ الصحيح المنافي للطاغوت ـ هو من أظلم الناس بعد الشرك؛ لأن المنع من ذكره الذكرَ الصحيح ـ الذي يُشعر القلوب بعظمته، وينتزع منها حب الطواغيت ـ هو انتهاكٌ لحرمة الدين، يفضي إلىٰ نسيان الناس من هو رقيب مهيمن عليهم، فيصيرون كالهَمَلِ، وتفشو فيهم المنكرات والفواحش وهضم الحقوق وسفك الدماء؛ لأن عبادة اللَّه بطبيعتها تنهىٰ عن ذٰلك، ولٰكن ما أفجر اليهود وأفراخهم النصارىٰ، وتلاميذ أفراخهم، أو تلاميذ الجميع من أصحاب المبادئ العصبية والمذاهب المادية الذين يقيمون حكمًا علمانيًّا يتبجحون فيه بالحرية ـ حرية الفساد والإفساد ـ! فأما حرية الدين فلا، حيث قيدوا أهل المساجد بما يريدون، فلا يقدر أحدٌ أن يشرح لجماعته التوحيد

---

(١) أي: قائل الكلام السابق.

شرحًا وافيًا صحيحًا حسب ملة إبراهيم من الحب والولاء والبغض والبراء، ولا أن يقرأ الآيات الواردة في ذٰلك ويفسرها حتىٰ علىٰ ظاهرها، فهٰذا يكون مشاغبًا أو طائفيًّا أو غير ذٰلك ممَّا لا نحب ذكره؛ فهٰذا من جملة الخراب المعنوي الذي هو أفتك من الخراب الحسي. كما أن تقليل رواتب القائمين علىٰ المساجد من أنواع التخريب المعنوي؛ لأنه يزهِّد فيها، فلا تنظف لقلة الراتب، ولا يؤذِّنُ فيها من هو جهوريُّ الصوت حَسَنُه؛ بل يؤذن فيها كل جاهل يكتفي بالراتب الزهيد، ولا يصلي فيها إلَّا محتسب، وإذا قل المحتسبون صلىٰ فيها الجهلةُ الذين لا يحسنون القراءة، فتكون المساجد صورةً مشوهةً كما يريده اليهود وأذيالهم، وأكثر الناس لا يعلمون، فينبغي التنبه إلىٰ كل ما خطته الدول العلمانية والابتعاد عنه بدلًا من تقليده، حتىٰ لا يقع المسلمون في شيء من التخريب وهم لا يشعرون.

وقد توعد اللَّه الذين يَكبِتون الدعاة ويمنعونهم من ذكره الصحيح وتوضيح توحيده وحق ملة إبراهيم في المساجد، والذين يسعون بخراب المساجد حسيًّا أو معنويًّا، توعدهم اللَّه أعظم الوعيد، فذكر أنه ما كان لهم أن يدخلوا المساجد إلَّا خائفين ـ سواء كانوا من المشركين أو من عصاة المسلمين أو المحسوبين عليهم ـ:

ـ فالمشركون منعهم اللَّه منعًا باتًّا صريحًا، وأخبر أنهم نجس فلا يقربوا المسجد الحرام، فلا يدخله الكافر إلَّا وهو خائف يترقب.

ـ وعصاة المسلمين من المخربين لا يدخلون المساجد إلَّا وهم خائفون محرومون؛ كأن المسجد ليس موقع عبادة وأمن؛ لأن ذنوبهم تخيفهم، ومَن غيرهم أولىٰ بالخوف و الحراسة؟!.

ثم الوعيد الثاني الشديد من اللَّه سبحانه بقوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: **أما خزي الدنيا**: فهو عاقبة الظلم وشؤمه المحتوم، وهو أن يكون الحاكم الظالم للمساجد ولأهلها مخذولًا

في حكمه، والمحتل الظالم غير أمين في احتلاله، كما كانت عاقبة العرب المشركين ثم الصليبيين، وكما انقرض حزب القرامطة المجرمين، وكلٌّ منهم مشيع بالخزي واللعنة. **وأما عذاب الآخرة**: فيكفينا وصف اللَّه بأنه عظيم، عظيم الهول، عظيم الإيلام، عظيم الحسرة، إلىٰ غير ذٰلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾:

وهٰذه الآية الكريمة من بعض ما رد اللَّه به علىٰ اليهود في جدلهم حين تحويل الكعبة ـ كما قاله ابن عباس ـ، ويدل علىٰ صحته أنها في سرد الآيات التي هي بصدد اليهود، ولا شك أن اليهود أكثروا من جدلهم وروجوا ما يشغِّبون به علىٰ المسلمين، والقرآن في هٰذا المجال لا يرد عليهم سوىٰ الرد المجمل، فتارةً يقول: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]، وهنا يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾؛ يعني أنه سبحانه رب الجهات كلها، فقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، أي: قُطرا المشرق علىٰ اختلافه كل يوم، وقطرا المغرب الذي تغرب فيه الشمس كل يوم من موضع لا تعود له في اليوم الثاني، وكذٰلك الشروق تشرق كل يوم من موضع لا تعود لشروقها فيه.

وللمفسرين ثلاثة أقوال في سبب نزول هٰذه الآية:

أحدها: أنها نزلت مطلقًا في النفل وحكمها باق، يتوجه المسافر المتنفل حيث وجَّهته راحلته، وفي الحضر عند التحري لا يعيد من أخطأ القبلة حتىٰ في الفرض.

وثانيها: أنها من جملة الآيات الرادة علىٰ اليهود في كلامهم حول تحويل القبلة، فاقتصر الرد عليهم بأن للَّه ما بين قطري المشرق وما بين قطري المغرب؛ له سبحانه ملكهما وتدبيرهما، فهما له ملكًا وخلقًا.

وثالثها: أنها نزلت علىٰ قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها،

فصلوا علىٰ أنحاء مختلفة، فقال اللَّه ـ ما معناه ـ: لي المشارق والمغارب؛ فأينما وليتم وجوهكم فهناك وجهي.

وقد أورد فيه الإمام أحمد حديثًا صحيحًا عن أبي الربيع السمان، عن عاصم بن عبداللَّه، عن عبداللَّه بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في ليلةٍ مظلمة سوداء، فنزلنا منزلًا، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدًا يصلي فيه، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا علىٰ غير القبلة، فقلنا: يا رسول اللَّه، لقد صلينا ليلتنا هٰذه لغير القبلة؟ فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[1].

وقيل: إنها نزلت في أمر النجاشي لما خاض المسلمون فيه، وأنه صلىٰ إلىٰ غير القبلة، فأنزل اللَّه هٰذه الآية.

وقد تكلم بعض العلماء في نسخها، وهل هي ناسخة أو منسوخة؟ والصحيح أنها محكمة لا منسوخة، وأن حكمها باقٍ في التنقل وفي السفر وفي مسابقة العدو، سواء في التطوع أو الفرض؛ قال بِهٰذا ابن عمر وسعيد بن جبير وغيرهما، ولديهم في ذٰلك آثار.

وأما قوله سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا﴾ فالمراد به: حيثما. وأما قوله: ﴿تُوَلُّوا۟﴾ فالأولىٰ بتأويله أن يكون: تولُّون إليه، أو تتوجهون إليه. وأما قوله: ﴿فَثَمَّ﴾ ـ بفتح الثاء المثلثة ـ، أي: هنالك. وأما قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فأولاها بالتأويل: قبلة اللَّه، يعني وجهه الذي وجههم إليه. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: واسع يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير، و﴿عَلِيمٌ﴾ بالمتوجه إليه أينما كان، وبالمنصرف عنه، لا يخفىٰ عليه خافية، ولا يعزُب عنه من أعمال خلقه شيء.

وفي هٰذه الآية من السماحة ورفع الحرج عن الأمة ما ينبغي شكر اللَّه عليه، كما فيها إبطالٌ لما عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٥)، وابن ماجه (١٠٢٠).

للعبادة هياكل ومواقع لا تصح بدونها، وفيها إزالةٌ لوهم من يتوهم من آية الوعيد علىٰ تخريب المساجد والمنع من ذكر اللَّه فيها أنه لا تصح العبادة خارجها، فهٰذا وهمٌ من الأوهام لا حقيقة له، فجاءت هٰذه الآية بعدها موضِّحةً صحة العبادة في كل مكان ولكل جهة، وإنما الوعيد لانتهاك حرمات اللَّه والجناية علىٰ حرية المسلمين في بيان عقيدتهم وتوضيحها.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾:

يخبر اللَّه ﷻ عما قاله بعض اليهود وأغلب النصارىٰ من فريتهم العظيمة، وهٰذا عطف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، ووجه العموم في هٰذه الآية أن اللَّه سبحانه أخبرنا في مواضع من كتابه أن اليهود قالوا: عزير ابن اللَّه، وأن النصارىٰ قالت: المسيح ابن اللَّه، وأن المشركين قالوا: الملائكة بنات اللَّه.

وقد أشار اللَّه إلىٰ النصارىٰ أنهم ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [التوبة: ٣٠]، وهم الحوذيون الزاعمون أن «بوذا» ابن اللَّه؛ فهٰذا هو وجه العموم في هٰذه الآية من قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ﴾. ولا فرق في الأحكام التي تسند إلىٰ الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فإن مثل هٰذا الإسناد منبئ ـ كما أسلفنا ـ بتكافل الأمم، لأن كل من لم يعلن إنكاره فهو داخل فيهم؛ كما سبق في قصة أصحاب السبتُ.

وقد ثبت أن القائلين ببنوَّة العزير بعض اليهود لا كلهم، وكذٰلك القول بأن الملائكة بنات اللَّه، ليس قولًا لجميع مشركي العرب بل لبعضهم، ولٰكن كل من لم ينكر فهو مشارك.

وقد رد اللَّه علىٰ مدعي اتخاذ الولد، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾، ومعناها

التبرئة والتنزيه والمحاشاة من قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾. فكلمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تفيد التنزيه مع التعجب مما ينافيه، كأنَّ الذي يعرفه تعالىٰ لا ينبغي أن يصدر منه هٰذا القول الذي يشعر بأن له جنسًا يماثله، تقدس اللَّه عن ذٰلك، بل هو اللَّه تعالىٰ واحد في ذاته، واحد في صفاته، لم يلد فيحتاج إلىٰ صاحبة ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ولم يولد فيكون مسبوقًا؛ جل وتعالىٰ عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

وقوله سبحانه: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه أعظم الرد وأبلغه، يعني أن الذي له ما في السماوات والأرض جميعه ملك له بالإيجاد والاختراع ليس له حاجة في الولد، وهو مالك للجميع، كما قال في سورة «مريم»: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]، وإنما تنزه اللَّه عن الولد؛ لأن الولد لا يكون إلَّا من جنس الوالد، فكيف للحق سبحانه أن يتخذ ولدًا من مخلوقاته وهو لا يشبهه شيء؟! وأيضًا فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث. أما القدم فيقتضي الوحدانية والثبوت، فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص].

ثم إن البنوة تنافي الرق والعبودية التي فرضها علىٰ من سواه، فكيف يكون ولده عبدًا؟ هٰذا محال، وما أدىٰ إلىٰ المحال فهو محال. وقد قال تعالىٰ في سورة «مريم»: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم]. وقال هنا: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ لعزته وجلاله، خاضعون لقهره، مسخرون لمشيئته، فهم قانتون مطيعون خاضعون.

وما دام جميع ما في السماوات والأرض ملكًا له، خاضعًا مطيعًا مسخرًا؛ فالولد المنسوب إليه لا يصلح أن يكون من العالم العلوي ولا من العالم السفلي ـ أي: لا من الأرض ولا من السماء ـ؛ حيث لا معنىٰ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه، فإنه سبحانه يختص من شاء بما

شاء، كاختصاص الأنبياء بالوحي، ولٰكن هٰذا التخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلىٰ مرتبة الخالق، وليست شُبهةُ الذين اتخذوا بعض البشر آلهةً بأحسن من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهرُ مثلًا من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا: هو ابن اللَّه، أو: هو اللَّه.

وقد عبر اللَّه عن الملكية بحرف ﴿مَا﴾ التي تستعمل فيما لا يعقل، وتعم في الخبر والاستفهام للعاقل وغيره، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بتسخيرها الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار.

وعبر سبحانه في ذكر القنوت بضمير العاقل؛ لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره، والرب العظيم الذي له ملك السماوات والأرض، وكلٌّ خاضع لأمره، مسخر بمشيئته ليس له حاجة إلىٰ ولد أبدًا، وقد أعظم اللَّه فرية المدعي له ولدًا حيث قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم]؛ ولهٰذا كان السلف الصالح لا ينظرون إلىٰ النصراني بأعينهم، لشناعة افترائه علىٰ اللَّه بزعمه الولد، ثم تجاوُزِهِ إلىٰ «الأقانيم الثلاثة». والآن يوجد من المحسوبين علىٰ الإسلام والمتفيئين من فضل الإسلام وأهله ظلًّا ظليلًا من يزعم أخوة النصارىٰ باسم العروبة، راميًا بملة إبراهيم عرض الحائط، فما أبعده عن الإسلام! وما أشد جريمة من يحميه، وهو منتحل هٰذه النحلة الهادمة لدين اللَّه من الأساس!.

إن لُباب الدين هو الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه، والموالاة في اللَّه، والمعاداة في اللَّه، ولو لأقرب قريب؛ فكيف بأبعدِ بعيد، وأخبثِ كافرٍ مفتر علىٰ اللَّه، مغضب للَّه، جانٍ علىٰ وحي اللَّه، ورسل اللَّه؟!! لا حول ولا قوة إلَّا باللَّه، كيف بلغ جهل المسلمين بحقيقة دينهم وعقيدتهم هٰذا المبلغ؟!!.

ثم إن اللَّه ﷻ زاد ما مضىٰ بيانًا وتأكيدًا فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والبديع بمعنىٰ المبدع، وبمعنىٰ الفاطر؛ فاطرِ السماواتِ والأرض، وبمعنىٰ البارئ؛ فإن هٰذه الألفاظ كلها مترادفة، تؤدي معنىٰ واحدًا، وهو أنه ﷻ الخالق البارئ المبدع الفاطر للسماوات والأرض، يعني: مخترعها علىٰ غير مثال سابق، ومن غير تركيب صناعي أو تكييف كيماوي؛ فإن الفرق العظيم بين خلق اللَّه وخلق غيره أن غيره لا يُبدع المادة ولا يخترعها، وإنما هو يتصرف في المواد التي خلقها اللَّه وبثها، فيضيف هٰذه إلىٰ هٰذه، ويجعل هٰذه تحمي هٰذه، وهٰذه تلصق بِهٰذه، وهٰذه تحرك هٰذه، وهٰذه تتفاعل مع هٰذه، ترص هٰذه أو تدكها، إلىٰ آخر ما يتصرف في الماديات.

أما اللَّه سبحانه فهو الخالق البارئ الفاطر المبدع الذي يخلق أكبر شيء من لا شيء، أو من أتفه شيء قد كوَّنه هو، لم يكوِّنه غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا...﴾ [فصلت]، الآيات؛ فاللَّه ﷻ يخلق الشيء من لا شيء، فهو بديع السماوات والأرض؛ خلقهما من لا شيء، وأودع فيهما وما بينهما من صنوف الماديات المختلفة التي خلقها من العدم بقدرته التي بين الكاف والنون.

وإذا كان ﷻ هو المبدع للسماوات والأرض والمخترع لهما من غير مثال سابق، وهو الموجِّه لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما، علىٰ أنه جنس له؟! تعالىٰ اللَّه وتقدس عن ذٰلك علوًّا كبيرًا.

كيف يصح نسبة الولد إليه؛ وهو الذي ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ومعنىٰ هٰذا أنه سبحانه إذا أراد إيجاد شيء وإحداثه، فإنما يأمره أن يكون موجودًا، فيكون موجودًا بدون ترتيب أو تصميم أو تشكيل، بل يكون حسب إرادته.

قال جمهور العلماء: إن تعلق إرادته سبحانه بإيجاد الشيء يعقبه

وجوده، فقوله قولٌ حقيقي؛ يقول للشيء ﴿كُن﴾ فيكون، أي يوجد، وليس هٰذا من المتشابهات، كما قاله بعضهم، بل هو من الواضحات، لأن أمره ﷻ علىٰ نوعين:

ـ أمر التكوين الذي يعبر عنه الشيخ ابن تيمية بـ«الأمر الكوني القدري».

ـ وأمر التكليف الذي يسميه ب«الأمر الشرعي».

فأمر التكوين ـ الذي هو الأمر القدري الكوني ـ متعلق بصفة «الإرادة»، وأمر التكليف ـ الذي هو الأمر الشرعي ـ متعلق بصفة «الكلام»، فالأمر الكوني يتوجه إلىٰ المعدوم كما يتوجه إلىٰ الموجود؛ لأن المعدوم ـ وإن كان معدومًا ـ؛ فاللَّه يعلمه قبل وجوده، وأنه سيوجد في وقت كذا؛ فتتعلق إرادة اللَّه بوجوده علىٰ حسب ما في علمه فيوجد إذا شاء حسبما شاء.

هٰذا شأنه سبحانه في الإيجاد والتكوين، وهو أغمض أسرار الألوهية، فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول اللَّه الخالق البارئ فاطر السماوات والأرض وحقيقة وجوده.

وقد عبر اللَّه عن هٰذا السر بِهٰذا التعبير الذي فيه تقريب للأفهام، دون أن تتشعب الأوهام، ولا يوجد في الكلام تعبيرٌ أدق منه وأليق، وذٰلك بأنه سبحانه يقول للشيء: «كن» فيكون.

فالتوالد محال في جانبه تعالىٰ، لأن ما يعهد في حدوث بعض الأشياء وتولدها عن بعض فهو لا يعدو طريقين:

أحدهما: الاستعداد القهري ـ الذي لا مجال للاختيار فيه ـ، كحدوث الحرارة من النور، وتولد العفونة من الماء، حسب الطبيعة التي ركبها اللَّه في ذٰلك.

وثانيهما: السعي الاختياري، كتولد الناس والحيوان بالازدواج[1]

---

(١) يقصد اقتران الذكر بالأنثىٰ.

الذي جعله اللَّه سببًا لبقاء النسل في الناس والحيوان، وما عدا هٰذا فاللَّه مبدعه من العدم بحسب أمره الذي هو بين الكاف والنون.

فهو المبدعُ لجميع الكائنات من العدم المحض، وهي بأسرها ملك له، ومسخرة لإرادته ﷻ، فلا معنىٰ قطعًا لإضافة الولد إليه، ولذا اعتبره اللَّه مَسبَّةً له، كما جاء في «صحيح البخاري» عن ابن عباس ﵄، عن النبي ﷺ: «**كذَّبني ابن آدم ـ ولم يكن له ذٰلك ـ، وشَتَمني ـ ولم يكن له ذٰلك ـ؛ فأما تكذيبه إياي فزَعَم أني لا أُعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد! فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولدًا**»[(١)].

والحاصل أن اللَّه الذي يوجِدُ المعدوم بكلمة «كن» فيكون موجودًا كما يريده، لا يتقدم وجوده عن أمر ولا يتأخر، فلا يكون الشيء مأمورًا بالوجود إلَّا وهو موجود بالأمر، ولا موجودًا إلَّا وهو مأمور بالوجود من اللَّه القادر العظيم، ليس محتاجًا إلىٰ ولد ولا غيره، وجميع الدنيا ملك له ﷻ، فاستشهاد اللَّه علىٰ نفي الولد بذٰلك مما تقبله الأفهام المستقيمة؛ لأنه استدلال كوني رائع يردع المبطلين ويوقظ الغافلين.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال ابن عباس: هم اليهود. وقال مجاهد: هم النصارىٰ. ورجحه الطبري؛ لأنهم المذكورون في الآية السابقة قبلها. وقال السُّدي: هم مشركو العرب.

ويجوز أن يكون المراد كلهم، وأنه يشملهم صفة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإن كانوا أهل كتاب؛ كما سيأتي وصف اللَّه لهم بالسفاهة

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢).

في قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]. ولا دليل علىٰ تخصيص بعض دون بعض؛ بل يرجح العموم كون الآية مدنية.

وقولهم: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، يعني: هلَّا يكلمنا اللَّه كما كلم هٰذا الرسول ـ مع أنه بشر مثلنا ـ! ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ من الآيات التي اقترحناها، يَعْنون بها ما حكاه اللَّه في سورة «الإسراء»: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ...﴾ إلىٰ آخرها [الإسراء]، وما قالوه في سورة «الفرقان»: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾.

وهٰذا مقترحات كل كافر برسل اللَّه من قديم الزمان، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾؛ يعني: في مثل هٰذا القول تشابهت قلوبهم فكانت مخاطبتهم للرسل مخاطبةً واحدةً، وهو أنهم أنكروا علىٰ الرسل اختصاصهم بالوحي والرسالة من دونهم، فطلبوا منهم تلك الآيات بقصد التعنت والإلجاء؛ لأن الطغيان قد ساوىٰ بينهم، حتىٰ كأنهم تواصوا فيما يقولون، كما قال سبحانه عنهم في سورة «الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات]، وذٰلك أن الحق واحد، ومخالفته هي الكفر والضلال، وهو واحد ـ مهما تعددت طرقه، واختلفت وجوهه ـ، فالكفر ملة واحدة، وآثار الشيء الواحد الكلي تتشابه فيمن تصدر عنهم، وإن اختلفت الجزئيات، والتشابه كله في مكابرة الحق، واستبعاد كون واحد من البشر يصطفيه اللَّه رسولًا يوحي إليه، واقتراح الآيات عنادًا ومكابرةً: هٰذا التشابه كله كامن في ذٰلك، ومثال الخلاف في الجزئيات طلب قوم موسىٰ أن يريهم اللَّه جهرةً، وطلب قوم محمد ﷺ أن يرقىٰ إلىٰ السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرؤونه، وهم لا يقصدون معرفة الحق، ولا قبوله، ولذا قال سبحانه في سورة «الأنعام»: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي

قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ [الأنعام].

والعجب أنه ما من نبي من المرسلين إلَّا وقد جاء بآية ـ أو آيات ـ كونية أو عقلية، وكان قومه ـ مع هٰذا ـ يصفونه بالسحر أو الجنون، ثم يقترحون عليه آيات سواها، ولذٰلك قال ﷻ ـ بعد حكاية هٰؤلاء الذين لا يعلمون والذين من قبلهم ـ: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾؛ يعني: إننا لم نَدَعك ـ يا محمد يا خاتم المرسلين ـ بغير آية، بل بينا الآيات وأوضحناها علىٰ يديك بيانًا لا يترك مجالًا للريب ينتاب نفس من يعقلها، وقد قال ﷻ: ﴿بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ﴾، ولم يقل: «أعطينا الآيات»، للتفرقة والفصل بين آيات القرآن ـ التي هي من علم اللَّه وكلامه، يظهر بها الحق بطريق معقول واضح، لا يشتبه فيه الفهم ولا يَحَارُ فيه الذهن ـ، وبين الآيات الكونية التي هي من صنعه يستخزي لها العقل ويخضع لها، لشعوره بأنها من قوة فوق قوته.

وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان:

ـ منهم من يسنده إلىٰ القوة الغيبية العليا، سواء كان له سببٌ خفي في الواقع أم لا.

ـ ومنهم من يسنده إلىٰ الأسباب الخفية التي يسمونها «السِّحر»، وإن كان فوق قدرة البشر، ولذٰلك ضلت الأمم السابقة في آيات الأنبياء ضلالًا مبينًا، ولٰكن ليس لأحد أن يضل في آيات القرآن الكريم؛ لأنها واضحةٌ معقولة، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢].

والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات القرآنية مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينةَ ضميره؛ لأن في الإخبات للَّه والخشوع لآياته يحصل إدراك دلالتها، والطمأنينة إلىٰ حقيقتها، فتكون القلوب مهيأةً لتلقيها تمامًا.

ثم إن اللَّه سبحانه بعد تفنيده لأباطيل هٰؤلاء وتعسفاتهم في طلب الآيات، وكشف الدوافع الكامنة وراء مطالبهم المتشابهة من قديم

الزمان، يتجه سبحانه بخطابه إلىٰ رسوله ﷺ، مبينًا له وظيفته العظيمة الشريفة، ومحددًا له تبعاتها، وكاشفًا له عن حقيقة المعركة بينه وبين خصومه اليهود والنصارىٰ وأتباعهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة] يعني: أرسلناك بالحق الثابت المتيقن الذي لا يضل من تمسك به، ولا تعبث به أهازيج الأباطيل والأوهام؛ بل يكون الآخذ به سعيدًا بالطمأنينة واليقين؛ فإن الحق في هٰذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها.

فهو سبحانه يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بالعقائد الحقة، المطابِقة للواقع والشرائع الصحيحة لسعادة الدنيا والآخرة، ﴿بَشِيرًا﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ بشقاء الدنيا وخزي الآخرة، لمن لا يأخذ بالحق، إن اللَّه أرسلك بالحق بشيرًا بالآيات العلمية التي يعقلها أهل الاستعداد للعلم واليقين، ومن عداهم لا يعقلها، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فالذين يوقنون هم الذين خَلَصت نفوسهم من أدران التقليد وشبهات الآراء، فتوجَّهوا إلىٰ طلب الحق في الأمور الاعتقادية من النصوص، لا يعولون علىٰ غيرها أبدًا، بل أخذوا العهد علىٰ أنفسهم أن يأخذوا الحق بدليله، ويطلبوه بدليله، فهم يوقنون بالنصوص، ولا يفضلون عليها غيرها شيئًا، مهما كان مصدره، فالعبرة في خطاب الشرع لأهل اليقين الذين صفت نفوسهم، ومُحِّصت أفكارهم، فسلموا من علة العناد والمكابرة المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلىٰ العقول، والمانعين لحرارته أن تخترق الصدور إلىٰ القلوب، فهٰؤلاء هم أنصار الحق؛ لأنهم بيقينهم القوي لا يستطيعون المروق منه، ولا يَسكتون عن الانتصار له.

ومن المعلوم المشهور أن الصحابة ـ رضوان اللَّه عليهم ـ كانوا يراجعون النبي ﷺ فيما لم يظهر لهم دليله؛ لأنهم طُبعوا علىٰ معرفة

الحق بالدليل، وما الدين إلَّا معرفة الهدىٰ بدليله، فهٰؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع من أجلهم؛ لأنهم «خير البرية» بحسن التلقي وصدق العمل، ولولا استعدادهم لذٰلك لما كانوا بِهٰذه الصفة الجليلة ولا استحقوها، وكل من سار علىٰ هٰذا المنهاج انتفع بِهداية القرآن، وحصل علىٰ تمام الإيقان، أما من أراد إخضاع وحي اللَّه للقوانين المنطقية فقد خالف سلف الأمة، وجنىٰ علىٰ عقيدته وعقله، واللَّه المستعان.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني: لست مسؤولًا عن ضلال الضالين ـ علىٰ اختلاف أنواع ضلالهم ـ من أصحاب الجحيم، فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يسوقهم تكذيبهم إلىٰ النار، لأنك لم تُبعث ملزمًا لهم ولا جبارًا مسيطرًا عليهم، فيعتبر عدم إيمانهم تقصيرًا منك، فتصبح مسؤولًا عنه؛ بل إنك بعثت معلمًا ومرشدًا وهاديًا بالحجة والبيان والدعوة وحسن الأسوة، ولين الجانب، لست هاديًا بالفعل، ولا مرغمًا بالقوة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد].

فأنت ـ يا محمد ـ لا تزيد علىٰ كونك هاديًا، وليس لك من الأمر شيء، فلا تأسف ولا تغتم لكفرهم، ومصيرهم إلىٰ الجحيم. فهٰذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، وكقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وفي هٰذه الآية دلالة علىٰ أن كل أحد لا يُسأل عن ذنب غيره، ولا كفر غيره، كما أن فيها تسليةً للنبي ﷺ، لئلا يضيق صدره، كما تدل علىٰ ذٰلك آيات أخرىٰ.

وفي هٰذه الآية ـ أيضًا ـ من العبرة: أن المرسلين بُعثوا هادين معلمين؛ لا مسيطرين ولا متصرفين في الأنفس والقلوب، ولا مكرِهين للناس علىٰ ما لم يقتنعوا به من العقيدة القلبية الباطنية، وأن جهادهم ليس للإكراه علىٰ الدين، ولٰكن لفرض سلطان اللَّه، وإقامةِ حكمه في الأرض، والحيلولة دون الفتنة عن الدين.

وأحسن ما قيل في سبب نزول هٰذه الآية: أن القوم لما أصروا علىٰ العناد واللجاج الباطل، واقترحوا إنزال الآيات علىٰ سبيل التعنت أوضح اللَّه لرسوله ﷺ في هٰذه الآية أن وظيفته الإبلاغ والتنبيه؛ لكيلا يكثر غمه بسبب إصرارهم علىٰ كفرهم.

وفي قراءة نافع: «ولا تَسأل» ـ بفتح التاء وإسكان اللام ـ علىٰ النهي، يعني لا تسأل عما سيلاقيه أصحاب الجحيم من أنواع الأهوال والانتقام، ومثل هٰذا النهي مستعمَلٌ في التهويل، أو أنه نَهيٌ عن السؤال عمن عصىٰ وكفر من الأحياء، لأنه قد يتغير حاله؛ فينتقل من الكفر إلىٰ الإيمان ومن المعصية إلىٰ الطاعة.

وقال ابن عباس ومحمد بن كعب: إن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم: «**ليت شعري ما فعل أبواي؟**»، فنزلت هٰذه الآية[1]، ولٰكن لم يثبت بذٰلك سند صحيح ولا حسن، ولا ما دون ذٰلك.

وأغرب من هٰذا ما زعمه بعض المفسرين من أن النهي خاص بالنبي ﷺ عن السؤال عن أبويه، ورَووا في ذٰلك أنه سأل جبريل عن قبريهما، فدله عليهما فزارهما، ودعا لهما، وتمنىٰ لو يعرف حالهما في الآخرة، وقال: «**ليت شعري ما فعل أبواي؟**»، فنزلت هٰذه الآية.

ولٰكن هٰذا الحديث الذي عوَّل عليه بعض المفسرين أوهنه السيوطي، وقال: «إنه حديث معضل ضعيف الإسناد». وقال العراقي: «لم أقف عليه»، والعجب من انتشار بعض الموضوعات وروجانها علىٰ بعض العلماء بسبب التساهل في النقل. والواجب تنزيه التفسير من كل ما ليس له سند صحيح، وذٰلك إجلالًا للقرآن وللنبي الذي أنزل عليه ﷺ، ولو لاحظوا هٰذه القاعدة ما حكوا مثل هٰذه الرواية المدسوسة.

ولا شك أن مقام النبي ﷺ في معرفة أسرار الدين وحكم اللَّه في الأولين والآخرين، وثقته بربه الذي قضىٰ بموت والديه في الفترة قبل

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١/٥١٦).

البعثة، وسعة رحمته، ينافي صدور مثل هٰذا السؤال منه، كما أن أسلوب القرآن يأبىٰ أن يكون ذٰلك هو المراد به.

قال القرطبي في «تفسيره» ما نصه: «وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن اللَّه تعالىٰ أحيا أباه وأمه وآمنا به، وذكرنا قوله ﷺ للرجل: «**إن أبي وأباك في النار**»[1]، وبينا ذٰلك، والحمد للَّه». انتهىٰ فليرجع إلىٰ «التذكرة».

وقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾:

يخبر اللَّه رسوله ﷺ عن العلة الأصيلة والعقدة الدائمة المنعقدة، التي لا يزيلها برهان قاطع ولا إقناع نافع لدىٰ اليهود والنصارىٰ، الذين جعلوا عقيدتهم جنسيةً افترضوها، ويريدون فرضها، فلا يرضَون من النبي ﷺ ولا أتباعه حتىٰ يتبعوا ملتهم الجنسية.

ولم يكن النبي ﷺ ينتظر من أهل الكتاب هٰذا العنادَ وهٰذه المكابرة، بل كان ينتظر منهم التصديق برسالته، والإيمان بما أُوحي إليه، وذٰلك لموافقته لأصل دينهم ومقصده؛ لذا كانت هٰذه الآياتُ آياتٍ مسليةً للنبي ﷺ، لما كان يجد في نفسه من جراء موقف أهل الكتاب من دعوته.

ومن هنا يتبين لنا أن المعركة مع أهل الكتاب وأذنابهم ليست اقتصاديةً ولا عسكريةً، ولا استغلاليةً، وإنما هي عقائديةٌ بحتة، كما أرشد اللَّه بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]. فالموقف الذي يرتضونه منا هو تركنا لديننا بالكلية، واتباعنا ما يريدون، وما سواه فهو مرفوض عندهم؛ فلا ترضيهم الأرض، ولا يرضيهم النفط، ولا

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣).

ترضيهم المعادن، ولا القواعد العسكرية، ولا يرضيهم منا أي شيء، إلَّا ما أخبرنا اللَّه به، وقد حذرنا اللَّه من قبوله أعظم التحذير، ولٰكن المواجهة الصادقة لجميع الكفار هي ما اختاره اللَّه لنا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ بصيغة الحصر والقصر، هدىٰ اللَّه سبحانه فقط هو الهدىٰ، وما سواه ليس بِهدىٰ، مهما صبغتموه وزينتموه، وبأي اسم أو لقب سميتموه؛ بل هو ضلال مزيف، وانحراف مقصود، فلو قال لك أحد من تلاميذ اليهود والنصارىٰ: إنهم إخواننا في القومية، أو الوطنية، أو العروبة، فقل له: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، ليس لنا إخوان إلَّا في العقيدة، ولا نلتقي إلَّا علىٰ العقيدة، ففيها نحب ونوالي، وعلىٰ ضدها نتبرأ ونعادي، وعليها نسالم، وعليها نحارب.

وإن قال لك أحد من تلاميذهم: «الدين للَّه والوطن للجميع»؛ فقل له: كلا بل الدين للَّه، والوطن للَّه؛ يجب أن تحكمه شريعة اللَّه. وليس الوطن مشتركًا بين المسلم وغير المسلم، ليتحكم فيه الأقلية، ويغلبوا الأكثرية علىٰ حكم اللَّه. ولهٰذا حذر اللَّه سبحانه من اتباع أهوائهم، وتوعد صفوة خلقه ﷺ علىٰ ذٰلك، حيث قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

فانظر ـ أيها المسلم ـ كيف عبر اللَّه ﷻ عن الأعداء بلفظ «الأهواء» التي أسسوها للإضلال عن الملة، وقرروها مبادئ عريضةً تقرِّبُك منهم، وتجعلك تلتقي معهم: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اليقيني بوحي اللَّه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ لأن اللَّه لا ينصرك علىٰ ما لا يرتضيه من اتباع الهوىٰ، وترك الهدىٰ، وإذا لم ينصرك اللَّه ويتولاك بمعونته، فمن ذا الذي يتولاك وينصرك؟.

قال الإمام محمد عبده: «من تدبر هٰذا الإنذار الشديدَ الموجَّه من اللَّه إلىٰ نبي الرحمة، المؤيد منه بالكرامة والعصمة، علم أن المراد به الوعيد، والتشديد علىٰ الأمة علىٰ حد: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة»، فإن اللَّه تعالىٰ يخاطب الناس كافةً في شخص النبي ﷺ». انتهىٰ.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

قال القرطبي في «تفسيره» ما معناه: لتفسيرها وجهان:

أحدهما: أنهم أمة محمد ﷺ ـ أمة الإجابة ـ؛ فهم الذين ينتفعون بهٰذا الوحي المبارك، لأنهم يتلونه حق تلاوته، يعني: أنهم يعملون به حق العمل، فيحرِّمون حرامه، ويحلون حلاله، وهٰذا هو المقصود بتلاوته حق التلاوة.

ثانيهما: قاله قوم بأنهم بعض الصلحاء من بني إسرائيل؛ حيث بينت هٰذه الآية أن من اليهود من يرجىٰ إيمانه، وهم الذين وصفهم اللَّه بما فيه علة الرجاء ومناط الأمل، وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته، وعدم الجمود علىٰ التقاليد والمظاهر.

ولٰكن القول الأول هو الصحيح ـ واللَّه أعلم ـ؛ لما بين جواب اللَّه سبحانه لرسوله والمؤمنين ـ في الآية السابقة ـ وهٰذه الآية من قوة الارتباط واتحاد الموضوع.

وهٰؤلاء الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، هم الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ بعد العلم بأنه الحق الذي يهديهم إلىٰ طريق السعادتين.

وفي تعبير اللَّه سبحانه عن التدبر والتفهم بالتلاوة حق التلاوة، إرشاد منه إلىٰ أن ذٰلك هو المقصود من التلاوة، لا مجرد تحريك اللسان بالألفاظ، دون أن تعقل عقائده وتُتدبر حكمه ومواعظه، فإن أكثر أهل الكتاب لا يعلمون من كتابهم سوىٰ الأماني.

ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرضٌ عن هدايته، غير معتبر بوعده ووعيده، فهو كالمستهزئ به. انتهىٰ كلام القرطبي باختصار وتصرف.

وقال الغزالي ـ في بحث التخلي عن موانع فهم القرآن عند التلاوة ـ قال: إن حُجُبَ الفهم أربعة:

١ ـ أن يكون الهم منصرفًا إلىٰ تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهٰذا يتولاه شيطانٌ موكل بالقراءة؛ ليصرفهم عن فهم معاني كلام اللَّه ﷻ.

٢ ـ أن يكون مقلدًا لمذهب سمعه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع المسموع؛ من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهٰذا شخص قيده معتقَدُه عن أن يجاوزه، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفًا علىٰ مسموعه، فإن لمع برق علىٰ بُعد، وبدا له معنىٰ من المعاني التي تخالف مسموعه، حمل عليه شيطانُ التقليد حملةً، وقال: كيف يخطر هٰذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟! فيرىٰ أن ذٰلك غرور من الشيطان، فيتباعد منه ويحترز عن مثله... إلخ.

ومن أراد المزيد فليرجع إلىٰ كتاب «إحياء علوم الدين» الباب الثالث من كتاب أداء التلاوة.

وقال الإمام محمد عبده ـ أيضًا ـ: سأل سائل من المقلِّدين حاضري الدرس، بأن العلماء قالوا: «إن القرآن يُتعبد بتلاوته»! فقال الأستاذ: نعم، ولٰكنهم لم يقولوا: إنه أُنزل لذٰلك، وكيف يقولون ذٰلك؛ واللَّه الذي أنزله يقول إنه أنزله ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]؟ ثم يضرب الأستاذ مثلًا برجل يرسل كتابًا إلىٰ آخر، فيقرؤه المرسل إليه هذرمةً(١)، أو يترنم به، ولا يلتفت إلىٰ معناه، ولا يكلف نفسه إجابةَ ما طلب فيه، ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه؟ وماذا يريد منه؟ أيرضىٰ المرسِل من المرسَل إليه بِهٰذا أم يراه استهزاء به؟! فالمثل ظاهر، وإن كان الحق لا يقاس علىٰ الخلق... إلىٰ آخر ما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصوصًا في مقدمة سورة «الفاتحة».

وأقول: إن المسلم يفرح بِهٰذا القرآن فرحةً غامرةً يصفو بها قلبه

---

(١) **الهذرمة**: الكلام الغير مفهوم.

للقرآن، فيتلوه بتدبر وخشوع، وتحزُّن وبكاءٍ وتباكٍ، وقوة إصغاء وعزم، وتصميم علىٰ تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه؛ فالذين يتلونه علىٰ هٰذه الحال الصادقة حق تلاوته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيمانًا كاملًا بالقلب واللسان وعمل الجوارح، ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ ـ كفرًا اعتقاديًّا أو عمليًّا ـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم إن اللَّه ﷻ بعدما أقام الحجج الدامغة علىٰ أهل الكتاب ناداهم ودعاهم إلىٰ ترك أسباب الغرور المانع لهم من الإيمان، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة].

وقد سبق تذكير اللَّه لهم بِهٰذه النعمة في أول محاجتهم، ثم أعادها هنا للمناسبة الظاهرة؛ وهي: أنه بعدما أوضح أن الإعراض عن تدبر وحي اللَّه، والتفقه فيه هو كفرٌ به؛ أعاد تذكيرهم بأنه لا يليق بمَن كرَّمه ربه وفضَّله علىٰ غيره من الشعوب بإيتائه الكتاب أن يكون حظه منه الكفر، وأن يكون شبيهًا بالحمار الذي يحمل الأسفار.

وليس هٰذا من التكرار الذي يتحاشاه البلغاء، وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه، وكأن هٰذه الآيةَ تمهيد لما بعدها من قصة إبراهيم ﵇، وتركيز الملة الحنيفية، وتحويل القبلة.

ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾؛ فلا ينفعكم يوم القيامة اعتذاركم عن الإعراض عن فهم وحي اللَّه أن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه، وأنكم استغنيتم بهم عن أن تفهموا وتتدبروا بأنفسكم؛ فإنه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئًا، فلا تنتفعون فيه بهداية سلفكم، وأنتم مقصرون، ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾. وقد قدمنا فيما مضىٰ ما يغني عن إعادته، وأنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر أبدًا. ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ ومن أين يأتيهم النصر، وهم لم يهتدوا

بِهدي أنبيائهم، ولم يَخلُفوهم بخير؛ فأسباب النصر مسدودة أمامهم، وأمام كل مغرور.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

وفي هٰذه الآية قواعد:

الأولى: في قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ هٰذه الكلمات هي تكاليف الإسلام.

روىٰ عكرمة عن ابن عباس قال: «لم يُبتل أحد بِهٰذا الدين كله فأقامه إلَّا إبراهيم، ابتلاه اللَّه بثلاثين خصلةً من خصال الإسلام». واستنبطها ابن عباس بالعدد من أربع سور، ليس فيها خطاب له ﷺ.

وقد سمىٰ اللَّه التكاليف بـ«الكلمات»؛ لأنها تدل عليها وتعرف بها، ولم يذكر اللَّه ما هٰذه الكلمات، ولا كيفية الإتمام؛ لأن العرب تفهم المراد بِهٰذا الإبهام والإجمال. ولما كان المقام مقام إثبات فقد عامل اللَّه إبراهيم معاملة المبتلي ـ يعني المختبر له ـ لتظهر حقيقة حاله، ويترتب عليها آثارها، فظهر فضله بِهٰذا الابتلاء والاختيار بإتمام ما كلفه اللَّه به علىٰ وجه الكمال، فهٰذا هو المعروف المتبادر من معنىٰ الآية.

وللمفسرين كلام طويل عريض في تفسير الكلمات، والخبط فيها، فجاء بعضه ممجوجًا تشمئز من ذكره النفوس، خصوصًا ما ذكره «الجَلَال» وأشكاله، ممَّا لا شك أنه من دسائس اليهود، ليتخذوا ديننا هزوًا؛ وإلا فأي سخافة أسخف ممَّن يقول بأن الكلمات هي: نتف الأبط، وغسل البراجم ونحوها، ثم أثنىٰ عليه بإتمامها؟! وهٰذه أشياء لو كُلف بها صبي لأتىٰ بها كاملةً، ولٰكنه الخبط بآيات اللَّه بغير علم.

الثانية: في قوله ﷻ لنبيه إبراهيم: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، والإمام للناس هو الذي يتخذونه قدوةً يقودهم إلىٰ اللَّه، ويقدمهم علىٰ الخير، وتكون له القيادة، ويكونون له تبعًا.

وليلاحظ نص القرآن؛ فإنه لم يقل: «فقال: إني جاعلك»، بل حذف الفاء للإشعار بأن هٰذه الإمامة من فضل اللَّه، ليست من كسبه بسبب إتمام الكلمات؛ لأن الإمامة عبارة عن الرسالة، والرسالة لا تُنال بالكسب، وليس في سياق الآية ما يدل علىٰ أن الابتلاء كان قبل النبوة.

أما عن فائدة الابتلاء من اللَّه فهو لتعريف إبراهيم بنفسه، وأنه جدير بما اختصه اللَّه به، وتشجيع له علىٰ القيام بما يوجه إليه.

ولقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلىٰ التوحيد الخالص، في وقتٍ عمت الوثنية جميع أنحاء الأرض، فأقام عليهم الحجج القولية والعملية لقوة إخلاصه، ونصحه في الإرشاد، وأقام علىٰ عهده الحنيفية، وهي الإيمان باللَّه والبراءة من الشرك وأهله علىٰ الإطلاق وإثبات الرسالة، وقد تسلسلت هٰذه الدعوة في ذريته فلم تنقطع، حتىٰ جاء دور استجابة اللَّه لدعوته ببعثة محمد ﷺ، فاستمرت ـ وستستمر إلىٰ يوم القيامة ـ، ولذا وصف اللَّه الإسلام بأنه ملة إبراهيم.

وقد شهد اللَّه لإبراهيم في غير هٰذا الموضع بالوفاء بالتزاماته، وهو مقام عظيم لم يبلغه سوىٰ إبراهيم مقام الوفاء بمراد اللَّه، والتضحية بمرادات النفس في سبيل مراد اللَّه، وذٰلك المقام الذي استحق من أجله إبراهيم تلك البشرىٰ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

الثالثة: في قوله تعالىٰ عن طلب إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ فإبراهيم أدركته الفطرة البشرية ـ التي هي الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد ـ، وهو إيجاز في الحكاية عن إبراهيمَ لا يعهد مثله إلَّا في القرآن، فقد جرىٰ إبراهيم علىٰ سنن الفطرة في دعائه من ناحيتين:

الأولىٰ: أن الإنسان لمَّا يعلم من أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته مثله أو أحسنَ منه حالًا، ليكون له حظ من البقاء جسدًا وروحًا، ذٰلك الشعور العميق الذي أودعه اللَّه في الفطرة البشرية، ليكون من حياة ذرية الإنسان وصلاحهم امتدادٌ لحياته، فيُكمِل اللاحق ما بدأه

السابق؛ ذٰلك الشعور الوراثي العظيم الذي تريد المبادئ والمذاهب تحطيمه وإزالته من القلوب، بل من الوجود، ذٰلك الشعور هو الذي هَزَّ أبانا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

الثاني: مراعاة إبراهيم الأدب في دعائه، حيث لم يقل: «وذريتي» بصيغة الجمع العمومي، بل أتىٰ بصيغة التبعيض قائلًا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ فإن في هٰذا مراعاةً للأدب، ولسنن الفطرة التي لا يغيرها اللَّه، وذٰلك من شروط الدعاء وآدابه.

فمن خالف في دعائه سنن اللَّه في خليقته أو في شريعته، فهو غير جدير بالإجابة، بل هو سيئُ الأدب مع اللَّه؛ يدعوه أن يبطل من أجله سنته التي لا تتحول ولا تتغير، أو أن ينسخ شريعته من أجله، ولهٰذا نجد إبراهيم حتىٰ في دعائه بإقامة الصلاة ـ أحب شيء إليه ـ يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٥]، فلم يقل: «وذريتي»؛ لأنه يعلم أنهم سيملؤون البر والبحر، وأن سنة اللَّه تقتضي أن يكون أكثرُهم فاسقين؛ فلم يدعُ إلَّا للبعض منهم أدبًا مع اللَّه جل شأنه، وهٰذا دعاءٌ خاص بإبراهيم لا يجوز لغيره من المسلمين أن يدعو به؛ لأن كل فرد من المسلمين هو والدٌ لأسرة صغيرة، وليس والدًا لأمةٍ كبيرة، والوالد للأسرة المسلمة ينبغي أن يدعو لها جميعًا بالفلاح وإقام الصلاة ونحو ذٰلك.

الرابعة: في التضحيات العظيمة التي حققها إبراهيم أبو الحنفاء عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستحق أن يتخذه الرَّحمٰن خليلًا، وهي تضحيات كثيرة، وأبرزها ثلاث:

الأولىٰ: تضحيته بروحه ونفسه العزيزة للَّه رب العالمين، وذٰلك أنه كسر أصنام قومه، ليقيم عليهم الحجةَ العملية ـ بعدما أعيته الحجة القولية ـ؛ فكان من غضب الوثنية علىٰ صاحب التوحيد قرارُهم إحراقه بالنار، وهٰذا لشدة غيظهم، وعظيم حنقهم وبغضهم مع قسوة قلوبهم، فصمموا علىٰ جمع الحطب وقتًا طويلًا حتىٰ ساوىٰ قمم الجبال،

إيغالًا في التشفي منه، وإرجافًا به، لعله يتملقهم ويبدي التوبة لأوثانهم وطواغيتها، ولٰكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ صمد أمام إرجاف الباطل، ولم يبال بالإحراق، واثقًا بصدق قضيته، وأحقية فعله، وأن الموت واحد، سواءٌ كان بالإحراق أو بغيره، وأن مرجعه إلىٰ اللَّه الذي أرسله، وهناك ينصفه، ولم يكن يحلم بما عند اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ من نصرٍ عجيبٍ يكون في أواسط جحيم تلك النار، إلَّا أنه رجلٌ ذو عقيدة، لا يفضِّل حياةً فيها خنوع للكفر علىٰ ممات فيه رضوان اللَّه.

ثم يأتي دور تسجير النار وإحراقه فيها، فيأتيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر ربه قائلًا: «ألك حاجة يا إبراهيم؟»، فيجيبه بكلمة التوحيد والإخلاص التي يرجو أن يموت عليها: «أما إليك فلا، ولٰكن حسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

هنالك تدركه العناية الإلٰهيَّة، ويأتيه نصر ليس في الحسبان، بل ليس في حسبان أحد أبدًا، فيقول رب العزة للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء]، لا بردًا يضره، ولٰكن بردًا وسلامًا.

ويشاهد أعداؤه هٰذه المعجزة ـ بعد خمود النار ـ، وهٰذا النصر العظيم المنقطع النظير، ويكرر اللَّه هٰذه القصة لعباده كي يعتبروا، ويثقوا بنصر اللَّه، ولا تخيفهم قوة عدوهم، ولا نيران سلاحه وحديده، بل يصمدوا كصمود أبيهم إبراهيم، ويكون لهم رباطة جأش مثلُ رباطة جأشه، ويحققوا الصبر كما حققه، مع تحقيق الإخلاص والصدق في العمل؛ فإن اللَّه الذي نجىٰ فردًا من المسلمين من جحيم النار الهائلة، سينجي عباده المؤمنين من شر أعدائهم، فيفسد مفعول صنعتهم، ويجعلها لا تُحرق ولا تضر، كما أفسد مفعول النار المؤجَّجة علىٰ أبيهم إبراهيم، واللَّه غالب علىٰ أمره، ليس نصره موقوفًا علىٰ إبراهيم، بل يعم ـ وسيعم ـ كلَّ من سلك ملة إبراهيم وصدق مع اللَّه، وأخلص له كصدق إبراهيم وإخلاصه للَّهِ، فقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا

نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ [الروم]، فهو[1] لم يقل: «نصرُ العرب ولا نصر المسلمين»، بل قال: ﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ ليستحث المسلمين علىٰ سلوك الإيمان الذي سلكه أبوهم إبراهيم، وهنالك يأتيهم النصر الذي كتبه اللَّه.

وأيضًا فقد قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس]؛ وهٰذا نص آخر صريح قاطعٌ في أن نصره سبحانه ليس مختصًّا بالأنبياء والمرسلين؛ بل هو عام في المؤمنين الصادقين الإيمان، فما علىٰ الأمة إلَّا السعي الصحيح لتحقيق الإيمان الذي أبعدتها عنه الثقافة اليهودية الماسونية، التي ركزها الاستعمار بجميع أنواعه، ليشرُدوا بها عن اللَّه ويحرموها نصره ومدده. يكفي ما كان وما جرىٰ عليهم من الذل والإرهاب، وما أصابهم من ويلات الانقلابات التي خططتها الماسونية اليهودية لتحطيمهم من الداخل؛ فلترجع الأمة إلىٰ اللَّه، وليقُدْها الصالحون الذين يطهرون مجتمعاتهم من رجس الاستعمار وأوضاره، وليعاملوا اللَّه من جديد بالصدق والإخلاص.

نجح أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في امتحانه الأول وبلائه العظيم نجاحًا عظيمًا، وخرج منه ظافرًا منصورًا، مرفوع الرأس رفعةً ليس لها مثيل في الأولين ولا في الآخرين، فعلينا أن نقتدي به في القوة علىٰ حمل الرسالة، ومجابهة الأعداء، ساخرين بقوتهم كما سخر أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من نارهم العظيمة المؤججة، غير مبالٍ بما سوىٰ اللَّه جَلَّ جَلَالُهُ؛ وألَّا نتنازل ولا عن ذرة من ديننا وعقيدتنا، بل نثق باللَّه كما وثق به، ونصدق مع اللَّه ونخلص له، كما صدق إبراهيم مع اللَّه وأخلص له. والذي عند اللَّه أقرب مما في الأيدي إذا تحقق الصدق والاخلاص.

بعد نجاحه عَلَيْهِ السَّلَامُ في الامتحان الأول، يواصل دعوته في العراق، حتىٰ نقله اللَّه إلىٰ الشام، فمكث فيها ما شاء اللَّه، ثم جاءه الامتحان الثاني، ويا له من امتحان!! يأتيه أمر اللَّه الذي قضىٰ عليه أن يبذر

---

(١) في المطبوع: «لٰكنه»، ولعل الأصح ما أثبتناه.

البذرة المباركة حول بيته المحرم، وهو لا يدري ثم لا يدري، ولٰكنه ينفذ مراد ربه، فيقول اللَّه له: اذهب بأحب ما لديك وأعز ما لديك: زوجك وطفلها، اخرج بهما من جنان الشام وبَهجتها، وضعهما بين جبال الحجاز وصخورها المحرقة، وأرضها القاحلة التي لا ماء فيها ولا زرع ولا ثمر!! امتحان قاسٍ بأحب أحبابه: زوجه وطفله، فهل يضحي بمراد اللَّه في سبيل محبوب نفسه ومراد نفسه؛ فيكون من الهالكين؟ فأبت عليه الملة الحنيفية، العقيدة التي يدعو إليها، والتي توجب عليه وعلىٰ كل مسلم أن يضحي بمرادات نفسه ومحبوبات نفسه في سبيل مراد ربه، ليكون من المؤمنين المفلحين.

وهٰكذا كما كان إبراهيم قدوةً صالحةً للمؤمنين بالتضحية بنفسه في سبيل اللَّه أولًا، فقد كان هنا أسوةً صالحةً حسنةً للمؤمنين في التضحية بمحبوباته ـ بل بأعز محبوباته وأحب محبوباته ـ في سبيل مراد ربه، فأخرج زوجه وطفلها من جنان الشام وخيراتها، وذهب بهم حيث أمره اللَّه، حتىٰ أقعدهم في وسط وادي مكة قرب الصفا والمروة، تلك الجبال التي لا يعيش فيها حتىٰ الطير، وولاهم ظهره مدبرًا، حتىٰ إن زوجته تكلمه وتناشده: «**يا إبراهيم، كيف تذهب عنا في مثل هٰذا المكان؟! إلىٰ من تكِلُنا؟! فلا يجيبها أبدًا حتىٰ سألته: اللَّه أمرك بِهٰذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا**»[1]. والقصة مشهورة؛ حقق فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تضحيةً ثانيةً بمراد نفسه، ونجح في الابتلاء الثاني.

وكان من نتيجة هٰذه التضحية العظيمة أن أنبع اللَّه علىٰ حبيبه نبعًا مباركًا فيه الرِّيُّ والغذاء النافع، هو بئر زمزم، التي بقيت معجزةً خالدةً مدىٰ الدهر، يشرب منها ملايين البشر، ويتوضؤون ويغتسلون، ويتزودون إلىٰ بلادهم، دون أن ينقص، فضلًا عن أن ينضب.

هٰذه المعجزة التي هي من بعض رحمة اللَّه بإبراهيم وذرية إبراهيم،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٤).

والتي بسببها نزلت قبيلةُ جُرهم مذعنةً لشرط أم إسماعيل في ملك الماء، وشب فيهم إسماعيل وترعرع، وتكلم بالعربية، وتزوج منهم وأنسل ما شاء اللَّه.

ثم قضىٰ اللَّه ما سيأتي الكلام عليه من بناء البيت، ورفع قواعده، والأمر بتطهيره للعاكفين والطائفين، وما تقبله اللَّه من دعوة إبراهيمَ ببعثة محمد ﷺ، التي كان العرب بواسطتها هم نتاجَ تلك البذرة الطاهرة التي أمر اللَّه خليله إبراهيم بوضعها هناك، والتي انقاد إبراهيم مسرعًا في التنفيذ، ليحقق الدين الحنيف، الذي هو تفضيلُ مراد اللَّه علىٰ مراد النفس، وإيثار ما يحبه اللَّه علىٰ محبوبات النفس، ذٰلك الامتحان القاسي الذي نجح فيه أبونا إبراهيم، وحقق التضحية الثانية بأحب محبوب لنفسه في سبيل مراد ربه ومحبوب ربه في طاعة أمره، فليرجع المسلمون إلىٰ تحقيق الملة الحنيفية ـ ملة إبراهيم ـ في صدق التضحية بمرادات أنفسهم ومحبوبات أنفسهم في سبيل مرادات اللَّه ومحبوباته، لينالوا نصيبهم من رضوان اللَّه سبحانه ونصره ومدده الذي لا يتخلف عن أحبابه وأهل طاعته.

أما الامتحان الثالث الذي نجح فيه أبونا إبراهيم عليه السلام، وحقق التضحية المقبولة عند اللَّه، فهي ابتلاء اللَّه له بذبح ولده إسماعيل، وأي شيء أحب إلىٰ الوالد من ولدٍ رزقه اللَّه إياه عند الكِبَر؟ فهٰذا يكون أحب شيء وأغلىٰ شيء، ولٰكن يأبىٰ اللَّه إلَّا أن يمتحن عبده في المحبة، حتىٰ لا يكون في قلبه شيء أحب من اللَّه عز وجل، فلهٰذا ابتلاه اللَّه بذبح ولده، ولٰكنه صار صادقًا في تفضيل محبة ربه علىٰ محبة نفسه وولده وكل شيء، فبادر عليه السلام للطاعة والتنفيذ.

وقد رحمه اللَّه سبحانه بثلاث رحمات:

أحدها: تعطيف قلب ولده بسرعة الاستجابة قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات].

وثانيها: أن اللَّه شل حركة السكين لما تلَّه علىٰ جبينه فلم تقطع منه شيئًا.

وثالثها: أنه فداه بذِبح عظيم.

ولقد بادر إلىٰ التنفيذ بعد ما عرض الأمر علىٰ ابنه إسماعيل، وأخذ حبلًا وسكينًا، وذهب به إلىٰ «مِنًىٰ»، فوقف له الشيطان بصورة رجل وقور، وقال له: «ما هٰذه السكين والحبل؟ كأنك مجنون تريد ذبح ولدك!»، فلما سمع كلامه عرف أنه ليس برجل، وأنه شيطان؛ لأنه يريد صده عن تنفيذ أمر اللَّه، فرجمه بسبع حصيات حتىٰ ولىٰ مدبرًا، ولٰكنه وقف عند موضع الجمرة الوسطىٰ بشكل آخر وبزيٍّ آخر، وخاطبه بمنطق الرحمة والحنان، الذي لم تفقده السباع الضارية علىٰ أولادها، فعرف أنه شيطان، ورجمه حتىٰ ولىٰ مدبرًا، ولٰكنه وقف له وقفةً ثالثةً، بشكل ثالث، وزيٍّ ثالث، وخاطبة بمنطق ثالث، يحمل في ثناياه الرحمة والحنان، فقال له: «يا هٰذا، أنت أزبُّ[1] العقبة ـ مهما اختلف شكلك أو منطقك ـ، فأنت الشيطان الذي وقفت لي في العقبة، وليس لك عندي جواب سوىٰ الرجم»، فرجمه حتىٰ خسأه ويأسه، فولىٰ إلىٰ غير رجعة[2].

فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ ثابت الإيمان أمام محاولة الشيطان ثباتًا رائعًا؛ جعل اللَّه لنا في سنته تذكارًا دائمًا في واجبات الحج، وهو رمي الجمار.

ثم إنه لما وصل إلىٰ مِنىٰ وأضجع ولده، وتل السكين علىٰ حلقه، أتته رحمةُ اللَّه الثانية التي شلت حركة السكين، ثم أردفها سبحانه برحمته الثالثة بالفداء بالذبح العظيم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ

(١) هٰذا اسم الشيطان.

(٢) لا أعلم في القصة أصلًا عن المعصوم ﷺ. واللَّهُ تعالىٰ أعلم.

إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات].

وهٰكذا نجح أبونا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الامتحان الثالث الذي فيه البلاء المبين، وحقق التضحية بأحب محبوب لنفسه تفضيلًا لمحبة ربه، فكان من المحسنين.

وقد شرع اللَّه لأمة محمد ﷺ رمي الجمار، يرمون المواضع التي وقف فيها الشيطان لإبراهيم اقتداءً بسُنته في رجمه، ليحققوا رجم كل شيطان من شياطين الجن والإنس يحاول صدهم عن طاعة اللَّه، أو إشغالهم عن ذكر اللَّه وتلاوة وحيه بأي وسيلة، أن يرجموه رجمًا معنويًّا بعصيانه ومراغمته، والابتعاد عن همزاته لينجحوا في طرد الشياطين.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه رد قويم من اللَّه علىٰ خليله إبراهيم تقتضي شيئين:

أحدهما: إعطاؤه ما طلبه من إمامة بعض ذريته للناس، لأن مطلبه عَلَيْهِ السَّلَامُ مطلبٌ شعوري مركوز في أصل فطرة الإنسان، لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدىٰ، التي يخلُف فيها اللاحقُ السابقَ، وعلىٰ أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث، تلبيةً لتلك الفطرة التي هي من عماد الكون، وتنشيطًا للإنسان علىٰ مواصلة العمل، وبذل أقصىٰ الجهود لتوريث الذرية ونفعهم.

وقد أقام اليهود ـ عليهم لعائن اللَّه ـ مذاهبَ ماديةً شاذةً، تعمل علىٰ تحطيم هٰذه القاعدة الفطرية، لتتحطم البشرية من الأساس بقتل روح المنافسة وعكس بذل أقصىٰ المجهود إلىٰ ضده؛ لأن الإنسان إذا علم أن نهاية مجهوده للدولة ـ لا لذريته ـ ذهبت قوته، وزال نشاطه في العمل، وانعكست محاولاته الفطرية.

واليهود حريصون علىٰ بث ما لا يصلح ولا يلائم البشرية في مستقبلها، ليكون حظ الأمم والشعوب من سواهم الإخفاق، وهم

الرابحون من تحطيم غيرهم وتنكيله.

ثانيهما: إعلام اللَّه لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الإمامة التي تستحقها ذريته من بعده؛ لن يستحقوها إلَّا بالعدل والصلاح والإيمان، وليست وراثةَ أصلاب وأنساب، مرتكزةً علىٰ العصبية، فإن القربىٰ الصحيحة المقبولة ليست وشيجةَ اللحم والدم، وإنما هي وشيجةُ الدين والعقيدة، ولهٰذا أبعد اللَّه ابن نوح الكافر وأقصاه عن قرابته، فلا ينال عهدَ اللَّه ـ الذي هو الإمامة الدينية والقيادة الإسلامية ـ من كان ظالمًا بكفره أو شركه باللَّه، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني المشركين أو الكافرين الملحدين، هٰذا هو معنىٰ الظلم المقصود في هٰذه الآية وغيرها من القرآن؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، أي لم يلبسوا إيمانهم بشركٍ يهدمه.

فما أبلغ هٰذا الإعلامَ الرباني من اللَّه لخليله إبراهيم بِهٰذه الكلمة الموجزة! لأن قرابة الدم والجنس والقوم، كلها من أوضاع الجاهلية ودعاويها الباطلة، التي ينقضها دين اللَّه، ويقرر القرابة في العقيدة والإيمان. أما القوميون؛ فهم لا يرضون من الإسلام بِهٰذه القاعدة، ويصمونه بالطائفية، لٰكننا نرىٰ القوميين ـ علىٰ اختلاف مبادئهم ومذاهبهم ـ لا يرتضون إلَّا ممن وافقهم علىٰ عقيدتهم التي يسرونها تارةً، ويعلنونها تارةً، فلا يرتضون من كل عربي شاركهم في أصل العروبة ووشيجة الدم واللغة كما يزعمون، بل يُقصُون من خالفهم في المعتقد الذي اختاروه مما هو مخالفٌ لدين اللَّه، أو يشهِّرون به ويحاكمونه بعد التعذيب، أو يقتلونه، فأي طائفيةٍ إذًا في الإسلام؟ لقد أصبحت الطائفيةُ متجسمةً في أدمغتهم.

ثم إن في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جوابًا لخليله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ملحظين عظيمين:

أحدهما: أن هٰذه العبارة الموجزة الواضحة احتوت في الجواب علىٰ ذكر المانع من منصب الإمامة مطلقًا، وهو الظلم ـ الذي هو الشرك ـ، لتنفير ذرية إبراهيم من كل شركٍ هادم للعقيدة، وتبغيضه إليهم ليتحاشَوه ويبتعدوا عنه، وينتشلوا أولادهم ـ بحسن التربية ـ من كل ما يقرِّبُهم منه، ويربوهم علىٰ التوحيد الخالص، ويُفهموهم جميع أساليب الشرك وضروبه، حتىٰ لا يقعوا فيما يَحرِمُهم من منصب الإمامة العظيم، الذي هو أشرف المناصب وأعلاها.

وكذٰلك في هٰذه الآية تنفير سائر الناس من الظلم ـ الذي هو الشرك الوخيم ـ، وترغيبهم في الاقتداء بملة إبراهيم الحنيفية الخالصة، وألَّا يقتدوا بالظلمة من الرؤساء غرورًا بالدنيا.

ثانيهما: أن هٰذه الآية فيها نصٌّ قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة لشدة ظلمهم من سلوكهم أفظع أنواع الشرك والكفر، فلقد عتوا عن أمر اللَّه وانحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم عليه السلام.

والعبرة العظيمة من قوله سبحانه لخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أن الظالمين لحق اللَّه سبحانه في انتهاجهم أي نوع من ضروب الشرك؛ يبدؤون بتحكيم أهوائهم السياسية المخالفة لحكم اللَّه ودينه. ومن سار علىٰ أهوائه في هٰذا الميدان الخطير؛ فإنه يوالي أعداء اللَّه لمجرد مصلحته ـ دون النظر في مصالح المسلمين الذين يرعاهم ـ، وينجر بالطبع من والىٰ أعداء اللَّه إلىٰ مجانبة أهل اللَّه، ومعاداة أوليائه وازدرائهم وإقصائهم، ثم سلك في الشؤون الاقتصادية وغيرها مسالك منحرفة، مما يختل به النظام وتفسد الأوضاع، فلهٰذا اشترط علماؤنا لانعقاد الولاية شروطًا معروفةً في كتب الفقه والأحكام لا نُطيل المقام بذكرها.

وهٰذه الآية الكريمة صريحةٌ في قطع جميع الوشائج والصلات التي تقوم علىٰ أساس العقيدة والإيمان، فهي تقطعُ جميع وسائل القربىٰ ـ إذا

انقطعت وشيجةُ العقيدة ـ، وتسقط جميع الروابط والاعتبارات المادية الأرضية. إنَّ وشيجة العقيدة تفصل بين الوالد وولده، والزوج وزوجه؛ بل تفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل ـ إذا خالف أحدهما الآخر في العقيدة ـ، فعرب الشرك شيء، وعرب الإسلام شيء آخر، ولا صلة بينهما أبدًا، ولا قربىٰ ولا وشيجة مع اختلال وشيجة العقيدة.

إن الأسرة الإسلامية ليست مجرد آباء وأبناء وإخوان وأعمام، إذا اختلفوا في العقيدة، وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعةٍ من جنس معين، وإنما هي مجموعة من «المؤمنين»، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم، فهٰذا هو التصور الإيماني المنبثق من وحي اللَّه الكريم.

وأيضًا فهٰذه الآية واضحةٌ لا التواء فيها ولا غموض، فهي تنص نصًّا قاطعًا علىٰ أن السياسة في الحكم يجب أن تكون سياسةً دينيةً منبثقةً من وحي اللَّه، ليست نابعةً من أهواء النفوس، فإن السياسة النابعة من أهواء النفوس لا يستقر لها قرار، ولا تثبت علىٰ حال؛ بل إنها تأتي بالمتناقضات التي يطول ذكرها، والتي جربتها البشرية واكتوت بنيرانها؛ بل إن بناء السياسة علىٰ أهواء يذهب بالأوطان والسلطان، كما جرىٰ في نكبة «الأندلس» التي سببها الوحيد هو ارتكاز السياسة علىٰ الهوىٰ، لا علىٰ الدين، وأغلب الفتن والأهازيجِ الناشئةِ كلُّها من ذٰلك. ولو بنىٰ السلطان التركي سياسته علىٰ الدين لترك غزو مصر إلىٰ حين آخر، وأسعف المسلمين في الأندلس، ولٰكن سياسة الهوىٰ والأطماع صرفته عن السياسة الدينية الواجبة، إلىٰ الأنانية البشعة، ولو أطاع اللَّه بربط سياسته بالدين لأنقذ مسلمي الأندلس من ورطتهم، ونجح نجاحًا هائلًا منقطع النظير يريح الشرق والغرب.

والحاصل: أن الآية تنص علىٰ تنحية الظالم عن الإمامة؛ لأنه لا يسلك في سياسته المسلكَ الديني النافع له وللأمة؛ بل يجره شركه إلىٰ اتباع الهوىٰ في كل ميدان، فتحل الطامة الكبرىٰ بالأمة، وتكون

الأمة هي كبش الفداء، نتيجةً للقيادة التي لا يرضاها ﷻ.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: «إن الناس لم يرعووا[1] عن الاقتداء بالظالمين ـ حتىٰ بعد هٰذا التحذير الذي أوحاه اللَّه إلىٰ إبراهيم، ثم أعلم به محمدًا عليهما الصلاة والسلام ـ؛ فإنهم ظلوا علىٰ دين ملوكهم، وهم اليوم وقبل اليوم يدَّعون الاقتداء بالأئمة الأربعة ﷺ[2]، وهم كاذبون في هٰذه الدعوىٰ فإنهم ليسوا علىٰ شيء من سيرتهم في التخلق بأخلاق القرآن، وتحري اتباع الكتاب والسنة في جميع الأعمال» اهـ.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾:

يذكِّر اللَّه العرب بِهٰذه النعمة العظيمة، وهي جعل البيت الحرام مرجعًا للناس يقصدونه ثم يثوبون إليه، أي: يرجعون؛ فيقول سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ يعني صيرنا، ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، ﴿مَثَابَةً﴾ أي مرجعًا.

واختار بعضهم المثابة علىٰ نحو: القصد والمزار؛ لأنه لا يقال: «ثاب المرء إلىٰ الشيء» إلَّا إذا كان قد قصده أولًا ثم رجع إليه.

ولما كان رجوعهم إليه يتكرر، وفيهم جوعةٌ روحية إليه دائمًا سماه اللَّه ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، وكذٰلك جعله «أمنًا»، وهٰذا أمر معروف حتىٰ في الجاهلية، حيث يلقىٰ الرجل قاتل أبيه في الحرم، فلا يزعجه ولا يمسه بسوء، رغم ما هو معروف عنهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثأر.

فالمنة في هٰذا علىٰ العرب عامة، قويهم وضعيفهم، لحاجة كل منهم

---

(١) **يرعووا:** ينزجروا.

(٢) لعله يقصد بالأئمة الأربعة: الخلفاء الأربعة الراشدين ﷺ، وليس أئمة المذاهب المعروفة، واللَّهُ أعلم. فليحرر المراد.

إلىٰ الأمن، ولذا قال سبحانه في سورة «العنكبوت»: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت].

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾: مقام إبراهيم هو الحَجرُ الذي يقف عليه إبراهيم عند ارتفاع بناء الكعبة، فغاصت فيه قدماه، وكان يرتفع به كلما ارتفع، وهو حجر صغير لا يصلح أن يكون مصلًّىٰ، فالمصلىٰ ـ إذن ـ جميع الحرم، وتكون ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية لا للتبعيض، وما ورد عنه ﷺ أنه صلىٰ خلف المقام(١)؛ فهو للمندوبية أو الأفضلية، وإلَّا فمقام إبراهيم جميع الحرم، وقد توسع بعضهم فقال: إنه جميع مناسك الحج.

وقال المحققون من الفقهاء: حيثما صليت من المسجد فثم مقام إبراهيم.

وقد روىٰ عمر رضي الله عنه قال: «وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارىٰ بدر». أخرجه مسلم(٢).

وقال أنس رضي الله عنه عن مقام إبراهيم: «رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبه وأَخْمَص قدميه، غير أنه أذهبه مسحُ الناس بأيديهم». حكاه القشيري نقلًا عن القرطبي.

وهاهنا فوائد:

أحدها: في أمن الحرم الشريف الذي قال فيه اللَّه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، قال العلماء: من وجب عليه الحد خارج الحرم فلجأ إليه ففيه قولان:

الأول: أن الحد يقام عليه، وأن الحرم لا يصون المجرم.

الثاني: أنه لا يقام عليه الحد، ولٰكن يضطر إلىٰ الخروج بالمقاطعة والتضييق، ثم يقام عليه الحد خارج الحرم، وهٰذا مذهب الحنفية

(١) رواه البخاري (١٦٢٧)، ومسلم (١٢٣٤).
(٢) رواه مسلم (٢٣٩٩).

وأكثر الحنابلة، أما القول الأول فهو قول أصحاب مالك والشافعي.

أما من جنىٰ في الحرم جنايةً توجب الحد، فإنه يقام عليه؛ لأنه لم يحترم حرمة الحرم.

ثانيها: روىٰ البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أبغضُ الناس إلىٰ اللَّه ثلاثة: مُلحِدٌ في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سُنةَ الجاهلية، ومطَّلِبُ دمَ امرئٍ مؤمنٍ بغير حقٍّ ليُهريق دمه**»[(١)].

فأولهم الملحد في الحرم؛ وهو المنحرف علىٰ الحق والدين، وهٰذا من أبغض الناس إلىٰ اللَّه، فليحذر سكان الحرم من أن يدبَّ في قلوبهم شيء من الإلحاد؛ لأن الحرم يجب أن يكون عامرًا بتوحيد اللَّه، وأن يكون منطلَقًا لأهل التوحيد للزحف بالرسالة، وتوزيع الهداية المحمدية، هٰذا وقد تكلمت علىٰ هٰذا الحديث كلامًا مسهبًا شافيًا في كتابي المسمىٰ «للحق والحقيقة من كلام خير الخليقة».

ثالثها: الصخرة التي هي مقام إبراهيم، والتي فيها آثار قدميه، والذي قال اللَّه عنه: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، الصحيح أنه كان ملاصقًا للكعبة في آخر مكان استغنىٰ عنه إبراهيم عليه السلام، وأن عمر بن الخطاب هو الذي أخره إلىٰ هٰذا المكان الذي لا يزال فيه[(٢)]. كما روىٰ ذٰلك عبدالرزاق في «مصنفه» بسندٍ قوي عند المحدثين.

وقد زعم بعض العلماء أن هٰذا الموضع موضعٌ وضعه فيه رسول اللَّه ﷺ، معتمدين علىٰ أثر ضعيف لا تقوىٰ به الحجة، ولم يروه إلَّا الأَزرَقيُّ في «أخبار مكة»، وهو ليس من علماء الحديث. وعلىٰ هٰذا لم يجيزوا نقل مقام إبراهيم للتوسعة علىٰ الطائفين بالبيت.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢)؛ من حديث ابن عباس ـ لا أبي هريرة ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرج عبد الرزاق (٥/٤٨) عن ابن جريج قال: «سمعت عطاء وغيره من أصحابنا يزعمون أن عمر أول من رفع المقام فوضعه موضعه الآن، وإنما كان في قبل الكعبة». وانظر: «المدونة الكبرىٰ» (٢/٤٥٢).

رابعها: سمىٰ اللَّه الكعبة: بيته الحرام، وأضافه إلىٰ نفسه إضافة تشريف وتعظيم.

وقوله ﷻ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، العهد ـ هنا ـ: التكليف، أي أن اللَّه سبحانه كلف إبراهيم وإسماعيل بتطهير ذٰلك المكان الذي نسبه إليه، وجعله معبدًا يعبد فيه.

وجاء التطهير في الآية مطلقًا ليشمل جميع أنواعه ـ الحسية والمعنوية ـ، كالشرك وأصنافه، واللغو، والرفث، والتنازع، لذا وجب إخراج المبتدعين، والقبوريين، والمشعوذين من الحرم؛ حتىٰ لا ينشروا باطلهم، ويدنسوا به الحرم.

وقدم اللَّه الطائفين في الذكر علىٰ غيرهم؛ لأنهم أحق من غيرهم بهٰذا التطهير، فالمطاف حق لهم، فلا يجوز للمصلين مضايقتهم فيه بدون ضرورة.

ويُستدل من مضمون الآية علىٰ أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة، وبالعكس، أي أن غير الغرباء تكون الصلاة لهم أفضل من الطواف.

📖 **وقوله سبحانه**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾:

هٰذه الآية معطوفة علىٰ ما قبلها، وقد ساقها اللَّه لبيان منةٍ أو مننٍ أخرىٰ علىٰ أهل الحرم، وهي ما تضمنه دعاء إبراهيم عليه السلام من جعل الحرم ﴿ءَامِنًا﴾ في نفسه، يعني محفوظًا من الأعداء الذين يقصدونه بالسوء لذاته، وهو معنًىٰ غير معنىٰ الأمن الأول الذي من يدخله يكون آمنًا. فأبونا إبراهيم دعا لمكة دعاءً يختص بأمن آخر، وهو أن يحميه اللَّه من الكفار الغزاة الذين يريدون أن يهتكوا حماه. وقد استجاب اللَّه دعاءه؛ فنجىٰ البيت وأهله من شر أصحاب الفيل، وأهلكهم إهلاكًا

عجيبًا قاضيًا مشاهَدًا بالعيان لا يمكن إنكاره.

أما الدعوة الثانية الخاصة بأهل مكة؛ فقد راعىٰ فيها سنة اللَّه، وتأدب فيها مع اللَّه؛ لأنه وعىٰ ما قاله له اللَّه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاتعظ بِهٰذا الدرس واستيقظ، فحدد في دعائه أهل الإيمان باللَّه والدار الآخرة، محترسًا مما يرد عليه قائلًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

وقد فسر «الجلال المحلِّي» الرزق من الثمرات بنقل جبريل للطائف من أرض الشام إلىٰ مكانه الآن في أرض الحجاز! مع أن هٰذا التفسير لم يرد به نص ولا دليل، فلا يجوز الاعتماد عليه. ثم إن الكلام في دعوة إبراهيم للبيت وبلده مكة لا في الطائف.

وقد فسر اللَّه سبحانه قبول دعوة خليله إبراهيم بالرزق في قوله تعالىٰ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وبقوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، فالثمرات تجبىٰ وتجمع وتحمل إلىٰ مكة من كل مكان؛ وليست فقط من الطائف، فبطل ما قاله الجلال المحلي رَحِمَهُ اللَّهُ. وكونُ الثمرات تجبىٰ ويؤتىٰ بها من أقطار متفرقة أظهر في معنىٰ الآية، وأصدق وأليق بقبول دعوة إبراهيم، وأدل علىٰ تسخير اللَّه التسخير العميم.

أما حديث نقل الطائف فحديث لا يصح، ولا يجوز الاعتماد عليه، خصوصًا في تفسير كتاب اللَّه، وهو غير محتاج في صدقه إليه، فكتاب اللَّه ـ كما أسلفنا ـ يتلوه شاهد منه لا من خارج، فلا يجوز بتاتًا إلصاق مثل هٰذا الحديث في كتاب اللَّه.

وقد خص إبراهيم في دعائه المؤمنين ـ كما هو اللائق به من تعليم ربه وأدبه معه ـ، ولٰكن اللَّه واسع الرحمة، فقد جعل رزق الدنيا عامًّا للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، كما قال سبحانه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء]، ولٰكن تمتيع الكافر

بالأرزاق تمتيعًا محدودًا بِهٰذا العمر القصير تكون له أسوأ العواقب بعد الموت، فماذا تنفعه نعمته الحيوانية في عمره المحدود الذي لا يدري متىٰ ينقضي؟.

ومن تأمل دعوة إبراهيم التي خصصها للمؤمنين من أهل مكة ـ وهو من أهل مكة ـ حاسب نفسه علىٰ نعمة اللّٰه، وراقب اللّٰه في شكرها شكرًا عمليًّا لإخلاص التوحيد وصلاح الأعمال.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، هٰذا جواب من اللّٰه لخليله إبراهيم الذي احترز من سنة اللّٰه وعهده، فقيَّد دعاءه لمن آمن باللّٰه من أهل مكة وآمن باليوم الآخر، فاللّٰه أجابه بمعنىٰ قوله: وأرزق ـ أيضًا ـ من كفر كما أرزق من آمن، لٰكنني أمتع الكافر بِهٰذا الرزق قليلًا من الزمان، وهو مدةُ عمره المحدود في الدنيا، ثم أسوقه إلىٰ عذاب النار سوقًا اضطراريًّا ـ لا يقصده هو ولا يريده ـ، ولا يعلم أن كفره سينتهي به إليه. وذٰلك أن لجميع أعمال البشر الاختيارية غاياتٍ اضطراريةً تفضي إليها، وآثارًا طبيعيةً تصلب صاحبها إليها ـ حسبما قدره اللّٰه من الأسباب والمسببات ـ، كما يفضي الإسراف في الشهوات أو التعب أو التميع إلىٰ بعض الأمراض. فالكفار والفساق مختارون في كفرهم وفسقهم ـ حسبما وهبهم اللّٰه من القدرة علىٰ الفعل والإرادة التي يختارون بها ما يشاؤون ـ، فعقابهم عليها إنما هو عقاب علىٰ أعمالهم التي اختاروها بإرادتهم وفعلوها بقدرتهم، فكُفرُهم بآيات اللّٰه سبحانه سيسوقهم إلىٰ أسوأ مصير، وهو نيران الجحيم والعذاب الأليم.

✍ ملاحظة على ما سبق من تأمين مكة من الغزاة الظالمين:

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن سأل سائل: لمَ كان حبس الفيل في أيام الجاهلية عن مكة، ولَمْ يَمنع الحَجَّاجَ في زمان الإسلام عنها ـ وقد نصب المنجنيق علىٰ الكعبة، وقتل ابن الزبير وأصحابه في الحرم ـ؟! وكيف

لم يحبس عنها القرامطة، وقد سلبوا الكعبة، ونزعوا حليتها، واقتلعوا الحجر الأسود، وقتلوا عالَمًا من الحُجَّاج وخيارالمسلمين حولها؟!.

والجواب: إن حبس الفيل في الجاهلية كان عَلَمًا لنبوة محمد ﷺ وتنويهًا بذكر آبائه، إذ كانوا عُمَّارَ البيت وسكان الوادي، فكان ذٰلك الصنيع إرهاصًا للنبوة وحجةً عليهم في إثباتها، فلو لم يقع الحبس عنها والذب عن حريمها لكان في ذٰلك أمران:

أحدهما: فناء أهل الحرم، وهم الآباء والأسلاف لعامة المسلمين ولكافة من قام بالدين.

ثانيهما: أن اللَّه سبحانه أراد أن يقيم به الحجة عليهم في إثبات نبوة رسوله ﷺ، وأن يجعله مقدمةً لكونها وظهورها فيهم، وكان مولد رسول اللَّه ﷺ عامئذ، وكانوا قومًا عربًا أهل جاهلية ليست فيهم بصيرةٌ في العلم ولا تقدمة في الحكمة، وإنما كانوا يعرفون من الأمور ما كان دَرَكُه[1] من جهة الحس والمشاهدة، فلو لم يجْرِ الأمر في ذٰلك علىٰ الوجه الذي جرىٰ؛ لم يكن يبقىٰ في أيديهم شيء من دلائل النبوة يقيم عليهم الحجة في ذٰلك الزمان.

وقد أظهر اللَّه الدين، ورفع أعلامه، وشرح أدلته، وأكثر أنصاره، فلم يكن ما حدث عليها من ذٰلك الصنيع أمرًا يضر بالدين أو يقدح في بصائر المسلمين، وإنما كان ما حدث منه امتحانًا من اللَّه سبحانه لعباده ليبلو في ذٰلك صبرهم واجتهادهم، وليقيِّلهم من كرامته ومغفرته ما هو أهل التفضل به، واللَّه يفعل ما يشاء وله الخلق والأمر، تبارك اللَّه رب العالمين. انتهىٰ كلام المرحوم الآلوسي من الجزء الأول من كتاب «بلوغ الأرب في أحوال العرب».

وأذكر كلمةً لا أدري من قالها لطول عهدي بها، وهي أن اللَّه جلت قدرته أهلك أصحاب الفيل؛ لأنهم لا يحملون للبيت الحرام أيَّ تعظيم

---

(١) **الدرَك**: الإدراك.

وليست له مكانة في قلوبهم أبدًا، بل علىٰ العكس يزدرونه ويسخرون بمن يشرِّفه أو يعظمه، أما الجناة المسلمون كالحَجَّاجِ وقومه فليس عملهم بغضًا للبيت ولا احتقارًا، وإنما هو لمحاربة العائذ فيه، وهم يعتقدون أنه لا يعيذه، وأنه ملحد به لعصيانه وليَّ الأمر فيما يزعمونه ويتأولون، وكل متأول يجني جنايةً التأويلُ يخفف جنايته.

وأما القُرمُطي فقد عاقبه اللَّه أفظع عقوبة، فسلط عليه الآكِلةَ في جسمه حتىٰ جعلته يتهرىٰ ويتساقط كالشعر أو كالدود، وقومه ينظرون ليعتبروا، فلا يَهُمُّ أحد منهم بمثل فعله، وقد قطع اللَّه دابرهم في الأخير ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وفي تسليطه سبحانه لأمثال هٰؤلاء إيقاظ للمقصرين الغافلين، وتربية عملية مزعجة مخيفة لمن اعتمد علىٰ قداسة أرض، فاقتصر فيها علىٰ فعل بعض الشعائر، وترك مهماتها: من حمل الرسالة، وتوزيع الهداية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، معتمدًا علىٰ بركة مجاورة الحرمين، كأن المجاورة تُسقط عنه مهمات الدين التي من أجلها بعث المصطفىٰ ﷺ، فاطراح رسالته من أعظم الذنوب التي يسلط اللَّه بها علينا أخبث أعدائه. فمن واجب هٰذه الأمة أن تجعل رسالتها نصب عينيها، وأن تبذل النفس والنفيس في الدفع بها إلىٰ الأمام غاية الإمكان.

وقوله سبحانه في الآية: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ قد قدمنا أن أعمال بني الإنسانية اختيارية ليسوا مجبورين عليها، بل فعلوها باختيارهم بما منحهم اللَّه وزودهم به من القدرة والإرادة: القدرة علىٰ العمل، والإرادة التي يختار بها نوع العمل، فأصبح عمل الكافر كسبًا له حسب اختياره للشر علىٰ الخير، وللباطل علىٰ الحق، وللخبيث علىٰ الطيب، فلذا يصح أن يقال: إن اللَّه اضطر الكافر إلىٰ العذاب؛ بسبب اختياره هو للأعمال الموجبة للعذاب، وقد هداه اللَّه وبصَّره بطريق الخير والشر، والإيمان والكفر، فاختار ما يضطره اللَّه بسببه إلىٰ أسوأ

العذاب وأقبح المصير، فكما جعل اللَّه الأجساد القذرة عرضةً للأمراض والأوباء في الدنيا، جعل الأرواح المدنسة بالعقائد الفاسدة والأعمال المذمومة عرضةً للانتقام في نار جهنم يوم يقوم الأشهاد.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾:

هنا يرجع اللَّه بالسياق القرآني إلىٰ إبراهيم بعد ما ترك موسىٰ وقومه، وأن أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إليه عن طريق ابنه إسحاق، ويعتزون بنسبتهم إليه وبوعد اللَّه له ولذريته بالنماء والبركات. ومن هنا يحتكرون لأنفسهم الهداية والقوامة علىٰ الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة مهما عملوا، وأن قريشًا ـ أيضًا ـ لترجع بأصولها كذٰلك إلىٰ إبراهيم عن طريق إسماعيل، وتعتز بنسبتها إليه، وتستمد من هٰذا الانتساب القوامةَ علىٰ البيت وعمارة المسجد الحرام، كما تستمد سلطانها الديني علىٰ العرب، وفضلها وشرف مكانتها.

فالآن يأتي اللَّه بالحديث عن إبراهيم وبنيه إسماعيل وإسحاق ثم يعقوب، وعن بناء البيت الحرام وشعائره في الجو المناسب، لتقرير الحقائق الدامغة لبني إسرائيل والمشركين في دعاويهم عن علاقتهم بإبراهيم، علاقة النسب التي بتروها بمخالفتهم له في العقيدة؛ وذٰلك أن دين إبراهيم هو التوحيد الخالص، الذي بينه وبين عقائدهم المنحرفة الضالة أبعدُ مما بين السماء والأرض.

وسيقرر القرآن للجميع إسلاميةَ الدين لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وقربهم من دين محمد وأتباعه ﷺ، مما يدحض جميع شبهات اليهود والنصارىٰ والمشركين، بتقرير وحدة دين اللَّه ـ الذي هو الإسلام ـ لجميع الأنبياء والمرسلين، وبيان أن العقيدة تراث القلب المسلم المؤمن، لا تراث العصبية العمياء القائمة علىٰ أساس الدم والجنس.

وهٰذه الآية الكريمة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ وما

بعدها من الآيات، تبدأ بنا من تكليف اللّٰه لخليله ببناء البيت، إلىٰ نشأة الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد ﷺ، استجابةً من اللّٰه لدعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت.

وقد سبق أن قلت: إن اللّٰه بامتحانه الثاني لإبراهيم ـ بنقل أحب أحبائه من جنان الشام إلىٰ قحط الحجاز وحَروره ـ، يريد من إبراهيم أن يبذر البذرة الطاهرة من ذريته حول بيته المحرم، ليرفعوا عَلَمَ الإسلام، وينتزعوا القيادة العالمية من اليهودية الظالمة، فيستحقوا وراثة الرسالة والقوامة علىٰ الناس، فإن السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة هو الإيمان بالرسالة، والصدق التام في القيام بها ـ دون شح أو كسل أو جبن ـ، وما عداها من الدعاوىٰ فباطل.

ثم إن اللّٰه سبحانه من بعد ما ذكَّر العرب بنعمته عليهم بِهٰذا البيت الذي جعله مثابةً وأمنًا، وبدعاء إبراهيم للبلد الحرام، واستجابة اللّٰه له حيث جعله حرمًا آمنًا تُجبىٰ إليه الثمرات من كل مكان، أخذ يذكرهم بعد هٰذا بأن إبراهيم هو الذي بنىٰ هٰذا البيت بمساعدة ابنه إسماعيل، وذكر لهم من دعائهما هنالك ما يُرشدهم إلىٰ العبادة الصحيحة والدين القويم، ويجذبهم إلىٰ الاقتداء بذٰلك السلف الصالح الذي ينتسبون إليه ويفاخرون به، فإن قريشًا كانت تنتسب إلىٰ إبراهيم وإسماعيل بحق، وتدَّعي أنها علىٰ ملة إبراهيم، وهي في الأصل علىٰ ملته، ولٰكنها انحرفت كغيرها في عهد خزاعة ـ كما أسلفنا ـ، ولذٰلك كانت ترىٰ أنها أهدىٰ من الفرس والروم ـ مع انحرافها الشديد الذي لا تشعر به ـ، ثم إن سائر العرب تبع لقريش.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ نص واضح في أنهما هما اللذان بنيا هٰذا البيت لعبادة اللّٰه وحده. و﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ جمع «قاعدة»، وهي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس، ورفعها إعلاء البناء عليها، أو إعلاؤها نفسها.

وأكثر المفسرين قال عن حرف ﴿مِنَ﴾: إنه للبيان، وعلىٰ هٰذا يكون البيت بمعنىٰ نفس البناء والجدران. وهناك من يقول: إنها للتبعيض؛ بناءً علىٰ أن البيت مجموع العرصة والبناء.

ولاحظ بعض المفسرين هنا نكتتين لطيفتين:

إحداهما: أن ذكر القواعد أولًا ينبِّه الذهن ويحركه إلىٰ طلب معرفة القواعد: ما هي؟ وقواعد أي شيء هي؟ فإذا جاء البيان بعد ذٰلك كان أحسن وقعًا في النفس.

ثانيهما: النكتة في تأخير ذكر إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذكر المفعول، مع أن الظاهر أن يقال: «وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد»، ولٰكن جرىٰ السياق علىٰ ما هو عليه للإلماح إلىٰ كون المأمور من اللَّه بالبناء هو إبراهيم، وأما إسماعيل فهو مساعد له، وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة.

هٰذا؛ وقد أورد القصَّاصون ومن تبعهم من المفسرين غير ما قصه اللَّه لنا من بناء أبينا إبراهيم للبيت، فقد جاؤوا بروايات عن قَدَمِه، وعن حج آدم له ومَن بعده مِن الأنبياء، وعن ارتفاعه إلىٰ السماء في وقت الطوفان، ثم نزوله مرةً أخرىٰ؛ بروايات باطلة في سندها، متعارضة في متنها، بل هي فاسدة في مخالفتها للقرآن، حتىٰ زعموا أن الكعبة نزلت من السماء في زمن آدم، ووصفوا حجَّه لها، وتعارفه علىٰ زوجه حواء في عرفة، بعد أن كانت قد ضلت في هبوطها؛ بكلام سخيف ممجوج ترفضه العقول السليمة.

وقد حاولوا تأكيد ذٰلك بتزوير قبر لها في «جُدَّة»، وهل يعقل أن تضل في هبوطها عن زوجها، واللَّه قد تولىٰ إهباطهما ورعايتهما؟ ثم إذا ادعوا أن الكعبة حُليت بالحجر الأسود، وأنه ياقوتة بيضاء أو زمردة من الجنة، وأنها مودَعة في جبل أبي قبيِس حتىٰ تمخَّض عنها فولدها، وأن الحجر إنما اسود لملامسة الحُيَّض له، وقيل: لاستلام المذنبين إياه، وكل هٰذه روايات إسرائيلية مدسوسة من خرافاتهم، قد

روَّجها وبثها زنادقةٌ مغرضون ضد الإسلام والمسلمين، ليشوهوا عليهم دينهم، وينفروا منه أهل العقول[١].

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: «لو كان أولٰئك القصاصون يعرفون «الماس» لقالوا: «إن الحجر الأسود منه»! لأنه أبْهج الجواهر منظرًا وأكثرها بهاءً. وقد أراد هٰؤلاء أن يزينوا الدين ويبرقشوه برواياتهم هٰذه، ولٰكنها إذا راقت للبُلهِ من العامة؛ فإنها لا تروق لأهل العقل والعلم، الذين يعتقدون أن الشريف هو ما شرفه اللَّه تعالىٰ. فشرف هٰذا البيت إنما هو بتسمية اللَّه تعالىٰ إياه بيته، وجعله موضعًا لضروب من عبادته لا يكون في غيره ـ كما تقدم ـ، لا بكون أحجاره تفضل سائر الأحجار، ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع، ولا بكونه من السماء، ولا بأنه من عالم الضياء. وكذٰلك شرف الأنبياء علىٰ غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم ولا في ملابسهم، وإنما هو لاصطفاء اللَّه إياهم وتخصيصهم بالنبوة ـ التي هي أمر معنوي ـ، وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة منهم وأكثر نعمة».

قال تلميذه[٢]: «وقد أفصح عن هٰذا المعنىٰ ـ الذي قرره الأستاذ الإمام ـ أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب مشيدًا دعائم الإسلام، إذ قال عند استلامه الحجر الأسود: «أما واللَّه إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللَّه ﷺ يقبلك ما قبلتك»، ثم دنا فقبله، رواه أبو بكر بن أبي شيبة، والإمام أحمد والبخاري ومسلم[٣]، وما روي من مراجعة عليٍّ لعمر في ذٰلك غير صحيح، فلا يعول عليه.

والحديث يرشدُنا إلىٰ أن الحجر لا مزية له في ذاته، فهو كسائر الحجارة[٤]، وإنما استلامه أمرٌ تعبدي في معنىٰ استقبال القبلة، وجُعل

---

(١) في بعض ما سبق نظر.
(٢) يقصد الشيخ محمد رشيد رضا.
(٣) رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).
(٤) فيه نظر ـ كما سلف ـ.

التوجه إليها توجهًا إلىٰ اللَّه الذىٰ لا يحده مكان ولا تحصره جهة، وإنما هو في جهة الفوق بالنسبة إلينا ـ لا بالنسبة إليه ـ، فإن الجهات تكون عنده عدمية.

وقد روج القصَّاص تلك الأحاديث المكذوبة والآثار الخرافية التي كلها من أوضاع الزنادقة؛ حتىٰ جعلوا مشاعر البيت وحجمه محصورةً في مخالفتها لسائر الحجارة، وكون أصلها من جواهر الجنة التي هي من عالم الغيب، ولو كان ذٰلك صحيحًا لبقيت حجارتها كما كانت عند نزولها؛ لأن الذي من الجنة لا يتغير ولا يمكن أن يتغير ـ مهما حاولوا الكذب ـ. وقد راجت بضاعتهم المزجاة عند أهل العلم والعقل ممَّن لا يعرف من الدين إلَّا هٰذه الرسوم الظاهرة».

قلت: أكثر الرواج ناشئ من الخضوع والتقليد، وتعطيل العقل الذي لا يجوز تعطيله، وليت شعري ما يقولون في جبل عرفة الصغير الذي شرفه اللَّه من بين الجبال الشامخات حوله، وجعل الوقوف بأرضه هو الحج، فكيف تركوه ولم يزعموا في حجارته المزاعم، أو في تربته المزاعم؟! إن التشريف من اللَّه حقًّا لا من سواه.

ولنعُد إلىٰ قصة بناء أبينا إبراهيم للبيت ومساعدة ابنه إسماعيل، فقد حكىٰ اللَّه عنهما عند البناء أنهما يسألانه القبول قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ﴾، وهٰذا بيان لحالهما ومسكنتهما وتواضعهما، يطلبان من اللَّه الرضا والقبول، لا يطلبان شيئًا آخر علىٰ مجهودهما العظيم، بل غاية أمنيتهما الرضا من اللَّه والقبول ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ﴿أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالنا، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأعمالنا ومقاصدنا.

إن طلب الرضا والقبول هو أسمىٰ غايات عباد اللَّه المؤمنين من ربهم، ولا يطمع به من غفل عن ربه، إلَّا من أتىٰ بعمله خالصًا للَّه، واتجه في عمله بقنوت وخشوع للَّه، فهو الذي يرجو القبول.

وقد قص اللَّه علينا في هٰذه الآية الكريمة أدب النبوة، وإيمانَ

النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هٰذه الحياة. فامتثال إبراهيم لهٰذا الأمر العظيم الصعب شديدِ المشقة ناشئٌ من قوة عقيدته، وصحة إسلام وجهه لربه وصدقه معه في كل تضحية، فدعاؤه للّٰهِ جاء في غاية الأدب والإيمان، وغايتهما من دعائهما الرضا والقبول، ورجاؤهما القبول متعلق بأن اللّٰه سميع الدعاء، عليم بما في القلوب والضمائر من المقاصد الخالصة لوجهه ﷻ.

هٰكذا يريد اللّٰه تعالىٰ تعليم ورثة الأنبياء تصميم الأنبياء علىٰ الامتثال، وإخلاصهم القصدَ في ذٰلك، وحصرهم مُناهم علىٰ الرضا والقبول؛ مع حسن أدبهم في الدعاء والضراعة إلىٰ اللّٰه.

📖 **وقوله سبحانه عن إبراهيم وإسماعيل في دعائهما:** ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾:

يواصل اللّٰه سبحانه إخباره لنا عن حالة أبينا إبراهيم وابنه إسماعيل وقت بنائهما الكعبة، أنهما كانا في غاية القنوت والخشوع للّٰهِ، منهمكين في الدعاء مع التزامهما الأدب العظيم والخوفَ علىٰ العقيدة؛ التي لا يريان عندهما نعمةً أو مِنَّةً أعظم منها وأشرف. إنهما يرجوان العون من اللّٰه في الثبات علىٰ نعمة الإسلام وهدايته، لشعورهما بأن اللّٰه مقلِّبُ القلوب، وأنه لا حول لهما ولا قوة بدونه، وأن الهدىٰ هداه، فيرغبان إليه أن يجعلهما مسلمينِ له وحده تعالىٰ، والمسلم هو المنقاد الخاضع لأوامر اللّٰه وحكمه، والمستسلم مثله لغةً وحكمًا، والمراد بِهٰذا تجريد التوحيد بكل إخلاص وصدق للّٰه تعالىٰ في الاعتقاد والعمل.

فالإخلاص في الاعتقاد ألا يتوجه المسلم بقلبه إلّا إلىٰ اللّٰه، ولا يستعين بأحد فيما وراء الأسباب الظاهرة إلّا باللّٰه، وأن يقصد بعمله مرضاة اللّٰه لا اتباع الهوىٰ أو الشهوات، وأن يزكي نفسه بطاعة اللّٰه ولا

يدنسها بشيء من معاصيه، ولأن من كان علىٰ هٰذه الحال كان محل عناية اللَّه سبحانه وموضع كرامته؛ فلهٰذا كان طلبهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مقصورًا علىٰ تحقيق الإسلام بمعناه الصحيح، ولم ينسيا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ تضامن الأحياء في العقيدة؛ لأنه طابع الأمة المسلمة الذي فيه قوتها وتعاونها، بل قالا من شدة اهتمامهما بالمستقبل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾، أي: واجعل من ذريتنا أمةً مسلمةً لك كإسلامنا، ليستمر الدين الإسلامي بقوة الأمة وتعاون الجماعة.

وهٰذه الدعوة تكشف عما في قلوبهما من خالص المحبة للَّهِ والنصح له ولدينه، والتزام الصدق مع جنابه الكريم، وأن أمر العقيدة هو شغلهما الشاغل وهمُّهما العظيم المنحصر في شعورهما بقيمة النعمة الإسلامية، التي حصلا عليها من اللَّه، والتي يريدان أن يحظىٰ بعض ذريتهما بها، ولا يكون محرومًا منها بالكلية.

فأعظمُ مطلب يريدانه لذريتهما هو نعمة الإسلام التي لا تعدلها أي نعمة، والتي بسببها يحصلون علىٰ الإمامة والقيادة في الأرض؛ لأن من حرمه اللَّه هٰذه النعمةَ وهٰذه المكرمة تساوىٰ مع غيره، أو كان أحط من غيره ـ والعياذ باللَّه ـ.

فإبراهيم وإسماعيل لم تذهلهما مشقةُ البناء الموكول إليهما عن أمر دينهما وعقيدتهما، بل ضرعا إلىٰ اللَّه سبحانه ألَّا يحرم أجيالهما اللاحقة من ذٰلك الدين والعقيدة لقوة اهتمامهما بها، وهٰكذا ينبغي للمسلم المؤمن ألا يشغله أي شاغل عن العمل لعقيدته ودينه في كل ميدان وبكل قوة.

هٰذا؛ وإن إبراهيم وإسماعيل قد راعيا الأدب مع اللَّه سبحانه في هٰذا السؤال، فلم يسألاه أن يجعل جميع ذريتهما مسلمةً؛ لأن هٰذا مخالف لسنة اللَّه الكونية، بل دعَوَا اللَّه بما يليق وما هو موافق لسنته، فقالا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ لأنهما يعلمان أن ذريتهما ستملأ الأرض،

وأنه لابد من أن يكون منهم الكافر والفاسق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد]. أما الفرد من المسلمين فلا يجوز له أن يدعو لذريته بصيغة التبعيض، بل بصيغة العموم؛ لأنها أسرةٌ إسلامية صغيرة، بخلاف أبي الأنبياء إبراهيم ونحوه، فإن من واجبه أن يدعو بالتبعيض قائلًا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وقد سبق التنبيه علىٰ ذٰلك. وقد مضينا في ذكر ثلاث دعوات لهما:

أحدها: الدعوة بالقبول والرضا.

ثانيها: الدعوة بالاستقامة علىٰ الإسلام.

ثالثها: دعوتهما لبعض ذريتهما بالهداية للإسلام.

وليس الإسلام مجرد الاسم أو الانتساب، بل كما شرحناه سابقًا. أما المنتسب للإسلام وهو مخالف لمنهجه، منابذ لقرآنه، يتلقىٰ الرشد مما يريده أو يسنح له، فهٰذا مخالفٌ للإسلام، وليس معه من الإسلام إلَّا اسمه. وقد أخرج الاستعمار بأنواعه أجيالًا من هٰذا النوع مذبذبين.

رابعها: دعوتهما ﷺ ربَّهما أن يريهما مناسك الحج، وذٰلك بقولهما: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، يعني: علمنا إياها علمًا واضحًا يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح.

و«المناسك» جمع «مَنسَك» ـ بفتح السين في الأفصح؛ من النسك ـ بضم النون والسين ـ ومعناه: غاية العبادة، كما يقال: «فلان ناسك»، ولٰكن غلب استعمال هٰذه الكلمة في أعمال الحج خاصةً، فالمناسك: معالم الحج أو أعماله ومواقعه، كالوقوف بعرفة، والمبيت بمنىٰ ومزدلفة، والطواف، والسعي، والنحر، والحلق، والرمي. فهٰكذا طلبا من اللّٰه الإيضاح والبيان الكافي ليؤديا المناسك علىٰ بصيرة من ربهم.

وخامسها: دعوتهما اللّٰه بالتوبة؛ حيث قالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وطلبهما التوبة من ربِّهما ﷻ ـ وهما متلبسان بطاعته وتنفيذ أمره العظيم ـ يفيد خشيتهما العظيمة من التقصير، وطهارة قلوبهما

من الإعجاب الذي كثيرًا ما يساور الممتثلين ـ لغلبة وسوسة الشياطين ـ. فالتقصير في الصالحات يُعدُّ عند هٰؤلاء من الذنوب التي تَهبط بالنفس وتبعدها عن اللَّه. فهي إذا قصَّرت فيها تتوب؛ بل إذا خشيت من التقصير سألت اللَّه التوبة والغفران.

ويختلف اتهامُ الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سيرها، ومعرفتهم بكمال اللَّه ﷻ، وحرصهم علىٰ القرب منه واستحقاق رضوانه، وألا ينقص شيء من حظهم من ذٰلك. ولعل في هٰذا تعليمًا من اللَّه سبحانه لذرية إسماعيل أن يتدرعوا دائمًا بالخوف من اللَّه، ويضرعوا إليه بتجديد التوبة وسؤال المغفرة، وأن يستشعروا دائمًا طلب إبراهيم وإسماعيل هٰذه التوبة وهما متلبسان بأفضل الأعمال قائلين: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يعني: إنك أنت وحدك كثير التوب علىٰ عبادك ـ وإن كثرت أخطاؤهم ـ بتوفيقك لهم بالتوبة إليك، وقبولها منهم برحمتك الواسعة والنافعة خاصة بالتائبين.

أما سادس الدعوات: فهي أعمها نفعًا، وأعظمها بركةً، وأسماها منزلةً، وأشملها فائدةً، وهي قولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾. وهٰذا الدعاء فيه خاصية جليلة وميزة عظيمة لهم، حيث طلبا من اللَّه أن يبعث فيهم رسولًا من أنفسهم لا من خارج نسبهم، فيتضمن هٰذا الدعاءَ لهم بالارتقاء الذي يؤهلهم ويعدُّهم لظهور النبيِّ منهم، كما أن فيه دعاءً ضمنيًّا بالبروز بين الأمم.

ثم إنهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وصفا هٰذا الرسول بأنه ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ الدالة علىٰ ربوبيتك وألوهيتك ووحدانيتك وعظمة شأنك، والدالة علىٰ صدق رسلك الذين أرسلتهم من قبله إلىٰ خلقك، فالمراد بالآيات هنا الآيات الكونية والعقلية، أو آيات الوحي التي تنزلها إليه، فتكون دليلًا علىٰ صدقه، لاشتمالها علىٰ تفصيل آيات اللَّه في خلقه، كبراهين

التوحيد والتنزيه ودلائل النبوة والمعاد. وتلاوتُها منه عليهم: ذِكرُها المرة بعد المرة؛ لترسخ في نفوسهم، وتؤثر في قلوبهم، ثم إنهما وصفاه ـ أيضًا ـ بقولهما: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فسروا الكتاب بالقرآن، والحكمة بالسنة، ولٰكن تفسير الحكمة غير مسلَّم علىٰ عمومه، والأَولىٰ أن تفسر الحكمة في كل شيء بمعرفة سره وفائدته، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والتشريعية ومقاصدها. وقد بين النبي ﷺ ذٰلك بسيرته في المسلمين، وما فيها من الفقه في الدين، فإن أرادوا من السنة هٰذا المعنىٰ في تفسير الحكمة فهو مسلَّم وواضح، وهو المفهوم في إطلاقها في الصدرالأول.

وحيث إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عَلِمَا أن تعليم الكتاب والسنة لا يكفي في إصلاح الأمم وإسعادها؛ بل لابد أن يُقرن التعليم بالتربية علىٰ الفضائل، والحمل علىٰ الأعمال الصالحة بحسن التأسي والسياسة، فقالا عليهما السلام في وصفه: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، يعني يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة، وينزع منها كل عادة رديئة، ويعودها الأعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير، ويبغض إليها كل قبيح وكل ما يغري علىٰ فعله.

ثم إنهما عليهما السلام ختما دعاءهما بِهٰذا الثناء العظيم علىٰ اللَّه، إذ قالا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يُرام جنابه، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب علىٰ أمره، فلا يغالب علىٰ أمره.

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، وينزلها منازلها، ويتقن العمل، ويحسن الصنع، والسر في ذكر هٰذين الوصفين الكريمين إزالةُ ما يتوهمه المتوهِّم من أن هٰذه الأمورَ التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل منافية لطبائعهم، وبعيدة عن أحوالهم ومعايشهم؛ لأنهم أهل بَدْو وغلظة وخشونة، فهم أعداء العلم والحكمة، ولٰكن اللَّه غالب علىٰ أمره.

لقد استجاب اللّٰه دعوة إبراهيم وإسماعيل؛ فبعث فيهم رسولًا من أنفسهم أكرمهم اللّٰه به ـ كما وعد به في التوراة ـ، يريد سبحانه بذٰلك نقل القيادة العالمية من بني إسرائيل الخبثاء إلىٰ بني إسماعيل الحنفاء.

وقد ورد في حديث رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ، أنه قال: «**أنا دعوةُ إبراهيم، وبشارة عيسىٰ...**» في حديث طويل(١).

وقد كانت بعثته ﷺ بعد قرونٍ طويلة؛ استجابةً لدعوة الأبوين القريبين إبراهيم وإسماعيل، يتلو عليهم كتاب اللّٰه، ويعلمهم الحكمة، ويطهرهم من الأرجاس، أرجاس الشرك والوثنية التي ركزها اليهود فيهم ـ بعدما كانوا مسلمين علىٰ ملة إبراهيم ـ. ولا شك أن اللّٰه يستجيب دعوة أصفيائه، ولٰكنها لا تتحقق إلَّا في أوانها الذي يقدره اللّٰه تعالىٰ بحكمته، ولٰكن أكثر الناس يستعجلون، وبعضهم يأخذه اليأس والقنوط، وإلَّا فاللّٰه لا يخيب سائله، خصوصًا إذا كان من أهل طاعته. وقد كان لهٰذا الدعاء وزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع شديدٍ متعدد الأطراف.

فليتأمل المسلمُ المؤمن هٰذه الآيةَ العظيمة التي تقضي علىٰ جميع سخافات اليهود وأكاذيبهم وانتفاخة غرورهم؛ فإن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد اللّٰه إليهما ببناء الكعبة وتطهيرها للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهم أصل سدنة البيت من قريش، إنهما يقولان بكل صراحة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، ثم يقولان: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، كما يقولان باللسان الصريح الفصيح: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾. وهما بكل هٰذا وذاك يقرران وراثة الأمة المسلمة منذ أن دعوا للذرية، تركيزًا للإمامة في ذريتهما، ووراثتها للبيت الحرام لتقوم بدين الإسلام خير قيام. وحينئذٍ فمن كان يربط ديانته بملة إبراهيم؟ أهم العرب منذ أن عرفوا الكعبة، أم

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٧).

اليهود والنصارىٰ؟ لا شك أن جميع دعاوىٰ اليهود ـ الطويلة العريضة ـ أصبحت باطلةً كل البطلان من سياق اللَّه لقصة إبراهيم وإسماعيل، فهل يبقىٰ لليهود كلام أو مطمع في الدين أو الجنة لو كان عندهم ذرة من حياء، وذرةٌ من توقير اللَّه؟ لقد دمغهم اللَّه بقصة إبراهيم من أولها إلىٰ آخرها، فمن أولها حين طلب لذريته الوراثة. قال اللَّه له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وهنالك التزام الأدب مع اللَّه؛ ففي سؤاله اللَّه لأهل البيت بالخير والبركة قيَّدها بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وحين قام يبني البيت هو وإسماعيل قالا: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

ثم دعا ربه دعاءً يريد به تجديد الإسلام بعد ما تطغىٰ عليه الوثنية، فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾، فاستجاب لهما، وأرسل من أهل بيتهما رسولًا هو محمد بن عبد اللَّه بن عبدالمطلب ﷺ، وحقق علىٰ يديه وجود الأمة المسلمة القائمة بأمر اللَّه والوارثة لدينه، والتي استلمت القيادة العالمية ردحًا من الزمن، حتىٰ لعبت عليها اليهودية العالمية بأنواع التفريق والتشتيت، وضربت عليها سباتًا عميقًا بمكرها الملعون من غزوها الثقافي الذي أحدثت بسببه حدودًا اصطناعية بين كل شعبٍ من الشعوب الإسلامية، وقيادات احتلها من يريدونه ليحكم البلاد بأخبث من حكم الكافر المستعمِر الذي أبعدته المزاحمة السياسية، ولٰكن في الوقت الذي تعود فيه الأمة لدينها، وتصفي قلوبها لربها، وتطهر صفوفها من أفراخ الماسونية اليهودية وتلاميذ الاستعمار؛ يعود لها مجدها، ويعود لها استلام القيادة العالمية من جديد، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

بعد أن تكلم اللَّه سبحانه عن خليله إبراهيم الذي وفَّىٰ، إبراهيم الذي ابتلاه اللَّه بكلمات فأتمهن، وإبراهيم الذي جعله اللَّه للناس إمامًا، وجعل من ذريته الإمامة الصالحة إلىٰ يوم القيامة، وعهد إليه ببناء بيته وتطهيره من الرجس الحسي والمعنوِيِّ ـ كما أسلفنا ـ، يقرر اللَّه عنه أن دينه الإسلام، وهو يعني إسلامَ الوجه للَّه وحده في كل عمل واتجاه وسلوك، وأن ملة إبراهيم ـ الإسلام ـ هي الرسالة الأولىٰ من اللَّه للبشرية، وهي رسالته الأخيرة للبشرية، ليس له دين سوىٰ الإسلام، ولا رسالة غير الإسلام، فهي عقيدة إبراهيم، ثم عقيدة إسماعيل وإسحاق، ثم عقيدة يعقوب والأسباط، حتىٰ سلموا هٰذه العقيدة إلىٰ موسىٰ وعيسىٰ، ثم رجعت إلىٰ ورثة إبراهيم وإسماعيل من العرب المسلمين في عهد «جُرهم» ومن بعدهم، حتىٰ لعبت اليهود علىٰ «خُزاعة»، بجلب الخمور والأصنام من البلقاء في الأردن، وهنالك تغيرت معالمها حيث انتشرت الوثنية بتحضيض من اليهود، ولا يزال في العرب من هم علىٰ دين إبراهيم إلىٰ قرب زمان البعثة المحمدية، ثم جدد اللَّه الإسلام وأقام معالمه بالبعثة المحمدية المباركة التي قضت علىٰ الأصنام والوثنية في جزيرة العرب.

فمن استقام علىٰ هٰذه العقيدة الإسلامية الوحيدة؛ فهو من ورثة إبراهيم، ومن أولىٰ الناس بإبراهيم، بل هو من أولياء اللَّه رب إبراهيم، ومن أهل البشارة من اللَّه، والوعد الصحيح بالعز والنصر والتمكين في الأرض ورفعة الرأس بين الأمم، ومن أهل عهد اللَّه وحصانته جَلَّوَعَلَا، ومن حاد عنها راغبًا في غيرها من منتحَلات اليهود وأفراخهم النصارىٰ، فقد فسق عن عهد اللَّه، وأخرج نفسه من ولايته، وحرَم نفسه حظوظَها منه، واتبع طرق الضلالة والغي، فأي سفهٍ أعظمُ من هٰذا؟ أم أيُّ ظلم أكبر من هٰذا؟ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان].

وقال أبو العالية وقتادة: «نزلت هٰذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقًا

ليست من عند اللَّه، وخالفوا ملةَ إبراهيم بما أحدثوه».

قال ابن كثير: ويشهد لصحة هٰذا القول: قولُ اللَّه تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ﴾، أي أمره اللَّه بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي استسلمت وانقدت شرعًا وقدرًا لأمر اللَّه ـ كما أمر سبحانه وكما أراد ـ.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

أي وصىٰ بِهٰذه الملة، وهي الإسلام للَّهِ، ويصح أن يعود الضمير في لفظ ﴿بِهَآ﴾ علىٰ الكلمة، وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمؤدىٰ واحد.

وهٰذا يبين لنا حرص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علىٰ عقيدة التوحيد، وحفاظهم عليها، ومحبتهم لها من بداية حياتهم حتىٰ وفاتهم، وكذا بعد وفاتهم حيث أوصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وقد قرأ بعض السلف: «ويعقوبَ» بالنصب عطفًا علىٰ بنيه، كأن إبراهيم وصىٰ بنيه وابن ابنه يعقوبَ بن إسحاق، وكان حاضرًا ذٰلك، مستدلين بقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود].

وقد قرئ هٰذا بنصب «يعقوب» علىٰ نزع الخافض.

كما استدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]. وهٰذا يقتضي أنه وُجد في حياته.

وأما قوله علىٰ لسان إبراهيم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]؛ فإنه يعني أن

اللَّه اختار لكم الدين الإسلامي؛ كما سبق بيانه في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. وقد اختار اللَّه لكم هٰذا الدين وارتضاه لكم، فأحسنوا في حال الحياة، والزموا هٰذا الدين إلىٰ أن تلقوا ربكم وأنتم كذٰلك؛ فإن المرء يموتُ غالبًا علىٰ ما كان عليه، ويُبعث علىٰ ما مات عليه، ولقد جرت سنة اللَّه في خلقه أن من قصد الخير وُفق له ويُسر عليه، ومن نوىٰ صالحًا ثبت عليه.

ثم أراد سبحانه أن يقرر أمر هٰذه الوصية ويؤكدها، ويقيم الحجة بها علىٰ أهل الكتاب:

فقال سبحانه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾:

في الآية إضراب عما ذُكر قبلها، وانتقالٌ إلىٰ استفهام إنكاري وُجِّه لليهود عن وصية جدهم يعقوب لآبائهم الأسباط. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريًّا بمعنىٰ: أكنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتُضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده، ليُشهدوه علىٰ أنفسهم بالتوحيد الخالص.

ومن هنا يتبين كيف أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يهتمون بجانب العقيدة ـ عقيدة التوحيد ـ؛ حتىٰ إن سكرات الموت وصرعاته لم تشغلهم عن تبليغها، فهي قضيتهم الكبرىٰ، وهي شغلهم الشاغل.

ويُلحظ هٰذا جليًّا في جمع يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائه الأسباط، وهو في حال الاحتضار، ليقول لهم وصيته، ويطمئن إلىٰ أن هٰذه التركة قد انتقلت إلىٰ أيدٍ أمينةٍ وقلوبٍ مخلصة، فيقول لهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟ ويأتي الجواب من الأبناء مطمئنًا للأب المحتضر: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

إنهم قد عرفوا الإلٰه عن طريق آبائهم وأجدادهم، حيث انفردوا بعبادة رب العالمين، خالق السماوات والأرض وحده، ودعَوُا الأمم إلىٰ ذٰلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والأصنام وغيرها؛ فقد صرحوا أنهم سيُكمِلون الطريق الذي بدأه الآباء والأجداد، ويسيرون به علىٰ النهج الذي تلقوه وورثوه منهم دونما تبديل أو تحريف. كما أنهم صرحوا بأن العقيدة ـ التي ورثوها، والتي يحافظون عليها ـ هي عقيدة التوحيد، وأن الدين الذي عرفوه هو دين الإسلام، وأنهم لن يرضوا به بديلًا، فهم لأمر اللَّه مستسلمون، ولحكمه خاضعون.

فهٰذا هو الذي كان، وهٰذا الذي يشهد به اللَّه ويقرره، ويقطع به حجة المضللين والمنحرفين، كما يقطع به كل صلةٍ حقيقية بين اليهود وبين أبيهم إسرائيل ـ يعقوب عليه السلام ـ.

ولهٰذا يقول اللَّـهُ تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين؛ لا ينفعكم الانتساب إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها، ولكم أعمالكم التي تقترفونها؛ وكلٌّ يحاسَب علىٰ عمله، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

أما الأنساب فإنها تتقطع يوم القيامة، ولا يبقىٰ إلَّا نسب واحد، ألا وهو العمل الصالح، وهٰذا هو النسب الحقيقي، ولهٰذا جاء في الأثر الذي رواه مسلم: «**مَن تبطَّأ به عملُه؛ لم يُسرع به نسبه**»[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

هٰذا بيان من اللَّه سبحانه لعقيدة الفريقين من التفرق في الدين، ودعوة كل منهم إلىٰ دينه المكذوب. فاليهود يدعون إلىٰ اليهودية، ويحصرون الهداية فيها، والنصارىٰ يدعون إلىٰ النصرانية، ويحصرون الهداية فيها، ولو صدقوا جميعًا لما كان إبراهيم مهتديًا؛ لأنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، وهم مُجمِعون علىٰ أنه إمام الهدىٰ والمهتدين؛ فلذٰلك قال اللَّه سبحانه مبلغًا رسوله محمدًا ﷺ أقوىٰ برهان في هدم دعاياتهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿بَلْ﴾ تُستعمل للإضراب عما قبلها، وصرف الحكم إلىٰ ما بعدها، فيكون المعنىٰ: بل نتبع ملة إبراهيم نحن وإياكم علىٰ سواء، لاتفاقنا جميعًا علىٰ هدايته، وعدم تنازعنا في أمره، وما دام هو الوالد للجميع ومؤسس دين الجميع علىٰ ملته الحنيفية، فما الداعي إلىٰ هٰذا التفرق؟ ثم نفىٰ اللَّه سبحانه عن إبراهيم الشرك في آخر الآية، احترازًا من وهم الواهمين ودعاية المبطلين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ثم إن اللَّه سبحانه ـ بعدما سلَّحنا بالسلاح القامع الدامغ لبني إسرائيل من دعوة الجميع إلىٰ ملة أبي الجميع إبراهيم ـ؛ جاء بدعوتنا لإعلان الوحدة الكبرىٰ للدين من لدن إبراهيم؛ إلىٰ خاتم المرسلين محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ يعني لا تكن دعوتكم إلىٰ شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين أهل الأديان السماوية المزعومة، فإنها في أصلها صحيحة، ولٰكن غلب عليها التحريف والأغراض النفسية.

فأنتم انظروا إلىٰ جهة الجمع والاتفاق، وادعوا إلىٰ أصل الدين وروحه الذي لا خلاف فيه ولا نزاع وهو:

أولًا: ملة إبراهيم الذي اتفقت جميع الملل علىٰ رشده وهدايته.

وثانيًا: أعلنوا تصديقكم وإيمانكم الاجمالي بجميع الأنبياء والمرسلين

وما أنزل اللّٰه إليهم من الوحي؛ مع الإسلام لرب العالمين وعدم التفريق بين أحد من رسله، وخصوصًا ما اشتهر منهم، فقولوا: آمنا بما أنزل علينا من ربنا علىٰ لسان نبينا محمد ﷺ، وآمنا بما أنزل اللّٰه علىٰ خليله إبراهيم ثم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، والمراد بهم أولاد يعقوب الذين تشعبت منهم فرق بني إسرائيل الاثنتا عشرة. وقد يراد بالأسباط سائر أنبياء بني إسرائيل ممن أجملته الآية: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾. نحن نؤمن بهم جميعًا، ونؤمن بما أنزل إليهم جميعًا من ربهم؛ لأن دين اللّٰه الإسلام يرشدنا إلىٰ الوحدة الكبرىٰ بين الرسالات جميعها وبين الرسل كلهم، فهي قاعدة التصور الإسلامي الذي لا يتحيز لنبي دون نبي، وهي التي تجعل من الأمة المسلمة أمةً تحمل الوراثة لرسالة اللّٰه وأمانته علىٰ دينه في الأرض، لأنها الموصولة بِهٰذا الأصل العريق التي تجعلها تعتبر جميع الأنبياء والمرسلين إخوةً في عقيدتهم ورسالتهم؛ كما قال ﷺ: «**إنَّا ـ معشر الأنبياء ـ إخوةُ عَلَّاتٍ، ودينُنا واحد**»[1]. شبَّههم ﷺ باختلاف النسب بإخوة العلات ـ الذين من أمهات متفرقة ـ، وأبوهم واحد؛ فشبه أباهم بالدين، دينهم واحد هو الإسلام.

وبِهٰذا الأصل العظيم ـ وحدة الأنبياء والمرسلين في دينهم ورسالتهم ـ تنتفي الطائفية التي نشرها اليهود والنصارىٰ بتعصبهم الجنسي الذي صبغوه بصِبغة الدين، فلا يكون في الإسلام طائفية، ولا ينشأ من الإسلام طائفية أبدًا؛ لأن المسلمين يؤمنون بكل نبي ورسول، ويقدسون كل كتاب منزَّل ويؤمنون به، فلا يبقىٰ لدعوتهم طائفية، وإنما الطائفية في الدين اليهودي المزعوم الذي لا يؤمن بغير موسىٰ ويكفر بما وراءه، حتىٰ عيسىٰ المبشَّر به في التوراة ومحمد ﷺ كذٰلك عندهم، والطائفية ـ أيضًا ـ في دين النصارىٰ الذين لا يؤمنون بغير عيسىٰ، ويكفرون بالتوراة

---

(١) تقدم تخريجه.

التي نص عيسىٰ علىٰ أنه جاء متممًا لناموس موسىٰ، ومن الطائفية ينبع كل شقاق ويتفاقم.

والمراد بالإيمان الواجب علينا بما أنزل اللَّه، وما أعطاه لأولٰئك النبيين والمرسلين إجمالًا: نؤمن به إيمانًا إجماليًّا، وأنه كان وحيًا من اللَّه، فلا نكذب أحدًا منهم بما ادعاه ودعا إليه في عصره، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعضه، فإن ذٰلك لا يضرنا؛ لأن الإيمان التفصيلي والعمل مقصور بما أنزل علينا، فقد روىٰ البخاري من حديث أبي هريرة قال: إن أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبي ﷺ: «**لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم...**»[1].

وقوله سبحانه في تعليمنا وتوجيهنا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ يعني لا نؤمن برسول ونكفر بالآخر، بل نؤمن بهم جميعًا بغير تفريق، وكذٰلك لا نقول ولا نعتقد أن بعضهم جاء بدين مخالف لدين الآخر، فإن كلًّا من هٰذا أو هٰذا تحصل به الطائفية والشقاق، فقد حكم اللَّه علىٰ الذين يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، حكم اللَّه عليهم بالكفر لذٰلك؛ فمن موجبات الإيمان باللَّه ـ في حكم دينه الإسلام ـ الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزل إليهم من ربهم علىٰ سبيل الإجمال.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، أي: مذعنون منقادون كما يقتضي الإيمان الصحيح، فإسلامنا لأجل طاعة اللَّه لا لأجل الهوىٰ؛ ولذا وجب علينا الإيمان بالجميع، فسَمعنا وأطعنا، ولم نفرق بين أحد من رسل اللَّه لأجل معجزة أو غيرها، ولستم ـ يا أهل الكتاب ـ كذٰلك؛ لأنكم متبعون لأهوائكم وتقاليدكم لا تتحولون عنها أبدًا.

ولما كان الاستمرار علىٰ حالتهم استمرارًا علىٰ الطائفية الجالبة

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٥).

للفرقة والشقاق، أكد اللّٰه هٰذا لعباده المؤمنين، تعليمًا وطمأنةً وتبشيرًا لهم، وتأمينًا وإيضاحًا لمستقبل أعدائهم الكفار إلىٰ أبد الآبدين، فلا يكترث المؤمنون بهم أبدًا، ولا ينصبغون بدعاياتهم وأهازيجهم:

فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

وهٰذا تعريض بأهل الكتاب وتبكيت لهم، وبيان لحقيقة العقيدة الإسلامية أنها هي الهدىٰ، وأن من اتبعها اتباعًا حقيقيًّا كاملًا فقد اهتدىٰ هدايةً عامةً في جميع شؤون حياته السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ومن أعرض عنها وتولىٰ فإنه لن يستقر علىٰ أصل ثابت، فيكون في شقاق مع الشيع المختلفة التي لا تلتقي علىٰ وفاق؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، فكلمة «مثل» ليست زائدة ـ كما زعمها بعض المقلدين ـ؛ بل اللّٰه أمرنا أن ندعوهم إلىٰ الإيمان الصحيح باللّٰه وبما أنزل علىٰ النبيين والمرسلين؛ بأن يؤمنوا بمثل ما نؤمن به نحن، لا بما هم عليه من ادعاء حلول اللّٰه في بعض البشر أو كون رسولهم إلٰهًا، أو العُزير ابن اللّٰه، أو المسيح ابن اللّٰه، فالذي يؤمنون به في اللّٰه ليس مثل الذي نؤمن به؛ فنحن نؤمن بالتنزيه، وهم يؤمنون بالتشبيه، وعلىٰ هٰذا القياس فلو قال اللّٰه: «فإن آمنوا باللّٰه وبما أنزل علىٰ أولٰئك النبيين وما أوتوه فقد اهتدوا»؛ لكان لهم أن يخالفونا بقولهم: إنا نحن المؤمنون بذٰلك دونكم، فلفظ «مثل» من صميم الموضوع وليست زائدة؛ بل قطعٌ لجدلهم وإراحةٌ لنا من تلبيسهم وبُهتهم، وفيها استدراك لما عسىٰ أن يتعللوا به، وذٰلك أن بعض أهل الكتاب يؤمنون باللّٰه وبما أنزل علىٰ الأنبياء، ولٰكن طرأت علىٰ إيمانهم باللّٰه نزعات الوثنية، وأضاعوا لُباب ما أنزل إليهم من ربهم من الإخلاص والتوحيد وتزكية النفوس والتأليف بين الناس، وتمسكوا بالقشور من رسوم العبادة الظاهرة، ونقصوا منها وزادوا فيها ما يُبعد كلًّا منهم عن الآخر

ويزيد في عداوته وبغضه له، ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يزعمون العملَ بالدين.

فلما بيَّن اللَّه لنا حقيقة دين الأنبياء، وأنه واحد لا خلاف فيه ولا تفريق، وأن هٰؤلاء ـ الذين يزعمون اتباع الأنبياء ـ قد ضلوا عنهم فوقعوا في الخلاف والشقاق المرير، وأرشدنا اللَّه ﷻ إلىٰ مطالبتهم بدين إبراهيم واتباع ملته، وذكرهم بوصية بنيه خصوصًا يعقوب، وأمرنا أن ندعوهم إلىٰ الإيمان بجميع الأنبياء، أكد لنا ولهم أنهم إن آمنوا بمثل ما آمنا به ـ لا بمثل ما آمنوا به مما يخالف حقيقة الإيمان ـ؛ بل من ضروريات سعادتهم أن يؤمنوا بمثل ما نؤمن به نحن، كما قال اللَّه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾، هدايةً عامةً شاملةً لجميع شؤون حياتهم، لا يعتورهم النقص ولا التناقض في أي شأن من شؤونهم؛ فإن الهداية المطلوبة منهم والنافعة هي الهداية التي أرشدهم اللَّه إليها، وأوجب عليهم سلوكها، لا سلوك ما يريدون مما يزعمونه هداية، وهو في حقيقة الأمر غواية.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾، أي أعرضوا عما تدعوهم إليه ـ يا محمد ـ، أو تدعونهم إليه ـ يا أمة محمد ﷺ ـ من الرجوع إلىٰ أصل دين الأنبياء ولبابه بإيمان صحيح كإيمانكم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾، وهٰذا الشقاق علىٰ نوعين:

أحدهما: شقاق فيما بينهم؛ لكثرة اختلافهم وتفرقهم فيما بينهم شيعًا، كل حزب يشايع رئيسًا روحيًّا أو سياسيًّا، كما قال تعالىٰ في شأن الكفار علىٰ العموم: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون]، فهم لا يزالون في فرقة وإحَنٍ وشقاق، كما سيأتي قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة]، ولا ريب في هٰذا؛ فقد حصر اللَّه أحوالهم في الشقاق بجميع أنواعه ومبانيه؛ فلا يمكن لهم أن يتخلصوا منه، وقد حكم عليهم به اللَّه، وحصر أحوالهم فيه حصرًا بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾، وحرف «إنما» يقتضي الحصر،

فمهما حاولوا الخروج من الشقاق وقعوا فيه؛ لأنه محكومٌ عليهم، وواقعهم يزيده تفاقمًا، فما يطلبونه من الوحدة ينقلب إلىٰ فرقة، وإن حصلوا عليها وقتًا قصيرًا فإنها لابد لها من الانفكاك والانقلاب إلىٰ شتم وشقاق، وما يرجونه من الاتحاد كذٰلك، فإن المنحرفين عن دين اللَّه، والمعطِّلين لوحي اللَّه الذين يبتغون لأنفسهم الخيَرةَ في الحياة دون الاحتكام إلىٰ اللَّه يعملون وحدةً مع جميع الطوائف المواطِنة علىٰ حساب دينهم الذي نبذوه وعقيدتهم التي أرخصوها، ولٰكنهم لا يحظَون بمودة ولا نصح ممن يخالفهم في الدين ـ وإن لم يكونوا متقيدين به ـ؛ فإنه يعاديهم لمجرد الاسم، ويَخُونهم في أحرج المواقف لمجرد الاسم، كما جرىٰ من انحياز نصارىٰ العرب ضد العرب الموسومين بالإسلام لما غزتهم الدول النصرانية؛ لأن الجانب الديني يغلب علىٰ الجنسية التي ينتمي إليها، فتأخذه العاطفة مع الغزاة، كما وقع فعلًا مما لا يمارىٰ فيه، فقد ضاعت تربيتهم لإخوانهم في العروبة ردحًا من الزمن، وخانوهم في أحرج موقف لعيون الغزاة الذين هم إخوةٌ لهم في الدين، مما ثبت به إفلاس القوميات المبنية علىٰ اطراح الدين وتقديس الطين، وإن روح التعدد كامن فيها من نواحٍ عديدة؛ بعضها يرجع إلىٰ غلبة حمية الدين، وبعضها يرجع إلىٰ الحزبية وإلىٰ التطرف لبلد دون بلد وغير ذٰلك، وبعضها يرجع إلىٰ الأنانية التي تسعرت وتفاقم شرها بسبب الابتعاد عن الدين.

ثانيهما: أنهم في شقاق مع اللَّه ورسوله والمؤمنين؛ لأن المخالف لأوامر اللَّه يكون في شقٍّ، واللَّه ورسوله في شق آخر، ويلزم من هٰذه المشاقة تزايد البغضاء والعداوة لحزب اللَّه المؤمنين، والكيد المتواصل لهم بشتىٰ الدسائس والأحابيل، ولهٰذا قال سبحانه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة].

إن إيغال أهل الأهواء ـ باتباع أهوائهم، ونبذهم لوحي اللَّه، واطراحهم لرسالته ـ، يُغريهم علىٰ عداوة كل مطيع للَّهِ، محتكم إلىٰ

شريعته، حامل لرسالته، متمسك بعقيدته، لأنه قذاةُ أعينهم، فمشاقتهم للَّه ورسوله باطراح أمره ورسالته والكفر برسوله؛ يجعلهم يعادون من خالفهم في مشاقة اللَّه، وينصبون له الأحابيل ليؤذوه ويصدوه عن رسالته القائم بها دونهم، ولٰكن اللَّه سبحانه يكفي المسلم المؤمن شرهم، ويقيه من جميع أنواع مكرهم، ويؤيد دعوته وأتباعه، كما وعد ﷻ في هٰذه الآية بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. فهٰذا الوعد بالكفاية ليس خاصًّا بالنبي ﷺ، بل هو عام لجميع من قام بدعوته وسار علىٰ نَهجه في رعاية أمانة اللَّه وحمل رسالته وتوزيع هدايته.

ولا شك أن أهل الكتاب ما شاقوا محمدًا ﷺ لذاته، ولن يشاقوا أحدًا من أمته لذاته، وإنما مشاقتُهم له من حيث دعوته إلىٰ ما لا يرتضونه دينًا، وهو الدين الصحيح الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولٰكن جحدوه وعادَوه لحاجات في نفوسهم، وقد أقام عليهم الحجج في السابق واللاحق؛ أقام عليهم الحجج في معرض سياق معاملتهم مع موسىٰ، ثم أقام الحجج عليهم في قصة إبراهيم وبنيه ـ خصوصًا يعقوب ـ؛ فإن في قصتهم ما يبطل مزاعم كل يهودي ونصراني ومشرك، لوضوح موقفهم وصراحته، وأن دينهم الإسلام الخالص؛ جعله كلٌّ منهم في عقبه، وجعله في وصيته لذريته، فتقبل جميع الأسباط وصية يعقوب من آبائه. و«الأسباط» هم آباء بني إسرائيل الأقربين؛ فما بالُهم لا ينفِّذون الوصية التي قبلوها من أبيهم يعقوب؟ كيف ينحازون إلىٰ دين غير دينه وهم ينتسبون إليه؟ لابد لهم من الاعتراف بدينه وتنفيذه كما نفذه الأسباط، وإلَّا فهم مبتورو الصلة بإسرائيل والأسباط، لا يجوز لهم الانتساب لإسرائيل ولا لأولاده الأسباط قطعًا ما داموا مخالفين لهم في العقيدة والدين.

هٰذا أمرٌ محتوم لا جدل فيه، فاللَّه ﷻ قطع عنهم كل حجة، وسد عليهم كل طريق بذكره قصة إبراهيم وبنيه بعد موسىٰ، فلم يَبقَ عندهم سوىٰ مشاقة اللَّه ورسوله، إن لم يؤمنوا بِهٰذه البراهين القواطع، ومن

كانت خطته مشاقة اللَّه ورسوله، وإيذاء رسوله وورثته من بعده في الدعوة؛ فاللَّه حسيبه، وسيكفي المؤمنين شره.

وقد أنجز اللَّه وعده للمؤمنين الصادقين ـ الذين قاموا بما أوجب اللَّه عليهم ـ، فكفاهم شر أعدائهم علىٰ الإطلاق. أما بعد أن انحرفوا فقد حرموا أنفسهم ما وعدهم اللَّه به، وصاروا فريسةً لليهود وأذيالهم من النصارىٰ وأفراخهم من المتفرنجين، وإذا عادوا إلىٰ اللَّه أنجز اللَّه لهم ما أنجز لأسلافهم، فوعده الحق سبحانه بقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

ومن أنواع كفاية اللَّه: جعل أعدائهم في شقاق دائم وخلافٍ لا يقف عند حد، وهم الآن ـ مع خلافهم وشقاقهم ـ يتفقون ضدنا، ما دمنا شاردين عن اللَّه، ولٰكن إذا عدنا إلىٰ اللَّه عودةً صادقةً نحمل فيها رسالته، ونعمل علىٰ إعلاء كلمته ـ كما عمل الأسلاف ـ، جعل اللَّه بأسهم بينهم كما مضىٰ، وجعل شقاقهم وخلافهم يتفاقم، فلا يتفقون ضدنا كما هم عليه الآن؛ فإن اللَّه بوعده سيكفينا شرهم، كما كفىٰ أسلافنا الصادقين إذا حققنا الصدق معه، واللَّه هو ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، يسمع كل شيء، ويعلم كل شيء، ويجزي كل نفس بما كسبت.

وقوله سبحانه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

صبغةُ اللَّه: هي دينه وفطرته، صبغنا بما ذكر من ملة إبراهيم، صبغة اللَّه وفطرته سبحانه فطرنا عليها، وهي ما صبغ اللَّه به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده علىٰ سنة الفطرة، صبغةً لا تعرف التقاليد الوضعية ولا صنوف الأغراض النفسية. و«الصبغ» في الأصل: ما يلوَّن به الثياب، ثم استعير لما ينصبغ به القلب من أنواع التلقين أو من أسباب المحبة وعوارضها، وذٰلك أن اليهود والنصارىٰ يصبغون قلوب أولادهم بالتلقين الباطل مما هم عليه، فيصبغونهم لما يُشربون في قلوبهم من ذٰلك التلقين. وأنشد ثعلب:

دع الشرَّ وانزِل بالنجاةِ تحرزًا إذا أنت لم يصبغْك في الشرِّ صابغ

وسمىٰ الدين صبغة؛ لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرها، فالمعنىٰ اطلبوا صبغة اللَّه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ يعني لا أحسن من صبغته، فهو جماع الخير الذي يزكي النفوس ويطهر القلوب، فيؤلف بين الشعوب والقبائل، ويطهر العقول، ويحرر النفوس من الرق المعنوي الذي تفاقم شره ـ خصوصًا في هٰذا الزمان ـ، وكان اللَّه ﷻ بعد محاجته لليهود والنصارىٰ وإبطال مزاعمهم وإرغام أنوفهم، بما قصه عن إبراهيم وبنيه، وما ذكره من وحدة دينه الذي لا مراء فيها ولا طائفية ولا شقاق، وأمرهم بالإيمان بمثل ما آمنا به، وأن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فوصف هٰذا الإيمان منهم بأنه صبغة اللَّه؛ ليبين الفرق العظيم والبون الشاسع بين هٰذا الدين الذي اختاره اللَّه، وبين الدين الذي اختاره المبطلون ظاهرًا جليًّا، كما تظهر المباينةُ بين الألوان والأصباغ لذي الحس السليم، فمن أحسنُ من اللَّه صبغةً، وهو يطهرهم بصبغة الإيمان من أرجاس الكفر والوثنية؟ فصبغة اللَّه ـ التي شاء أن تكون آخر رسالاته إلىٰ البشرية لتقوم عليها وحدةٌ إنسانية صحيحة واسعة الآفاق، لا أجناس فيها ولا ألوان، ولا حقد ولا عصبية ـ هي الصبغة التي لا أحسن منها أبدًا.

ومن تشريف اللَّه للمؤمنين في هٰذه الآية أن يلحق كلام المؤمنين بكلامه فيها بسياقٍ واحد بلا فاصل، وذٰلك بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم، فيقول عنهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾؛ فلا نتخذ أحبارنا وعلماءنا أربابًا من دون اللَّه يزيدون في ديننا وينقصون ـ كما فعله مَن قبلنا ـ، ولا نقبل منهم أن يُحلُّوا لنا بآرائهم أو يحرموا، فيمحوا من نفوسنا صبغة اللَّه الموحية للتوحيد، ويثبتوا مكانها صبغةَ الشر في اليهودية والنصرانية؛ بل نحن علىٰ العكس من ذٰلك.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

هٰذا ضربٌ آخر من مُحاجة أهل الكتاب، فإنهم كانوا في كل مكان يلوكون بألسنتهم كلامًا للشغب والجدل، فيقولون: نحن أولىٰ بالحق والنبوة، لتقدم النبوة فينا، ونحن أحق بالإيمان من العرب؛ لأننا أبناء اللَّه وأحباؤه، إلىٰ غير ذٰلك من دعاويهم. وقد جاء الجواب علىٰ نسق سابقه مؤتلفًا معه ومتصلًا به غير منقطع، فكان تناسُق الآية مع ما قبلها متممًا لإزالة الشبهات الفاشية في القوم علىٰ اختلاف مواقعهم، وهٰذه المحاجة واضحة في أنها كانت مع أهل الكتاب.

والآيات السابقات بينت أن الملة الصحيحة هي ملة إبراهيم، وهي لم تكن يهوديةً ولا نصرانيةً، وإنما هي صبغة اللَّه الإسلام التي لا صبغ لأحد فيها؛ بل هي بريئة من جميع اصطلاحات الناس وتقاليد الرؤساء الروحيين أو السياسيين؛ فهي الجديرة بالاتباع، ولٰكن التقاليد والأوضاع حالت بين الناس وبين فهمها بعدما جرىٰ الأنبياء عليها، وطالت الفترة بين عيسىٰ ومحمد عليهما السلام، فحلت التقاليد محلها حتىٰ خفيت علىٰ الأكثرين جدًّا، فلم تعد تُعرف إلَّا بالاسم.

ولذٰلك جاء محمد ﷺ بتوضيحها وبيانها ونشرها ودعوة الناس إليها، فأوضح سبحانه وتعالىٰ بتلك المحاجة الحقَّ الذي يجب التعويل عليه، ثم جاءنا بِهٰذه الآيات ليزيل الموانع ويبطل الشبهات المعترضة في طريق هٰذا الحق، فأمر نبيه ﷺ بِهٰذه الآية أن يجابِههم بقوله: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ بدعواكم الاختصاص به، وزعمكم أنكم أبناؤه وأحباؤه، أو أنه لن يدخل الجنة غيركم؟ ومن أين جاءكم هٰذا القُرب والاختصاص أو هٰذه النبوة والجنة؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ورب العالمين أجمعين، فنسبة الجميع إليه واحدة دون تفريق، هو الخالق وهم المخلوقون، وهو الرب وهم المربوبون، فلا يتفاضلون إلَّا بالأعمال البدنية والطهارة

النفسية وإخلاص القلوب، فكلٌّ منا يقربه عمله أو يبعده. ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾ التي تختص آثارها بنا في الخير والشر، ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ كذٰلك، ولٰكن روح الأعمال كلها هو الإخلاص، فالإخلاص وحده هو الذي تظهر به جدوىٰ الأعمال وفائدتها من حقيقة انبعاثها، فإما أن يكون صاحبها مقربًا من اللَّه بصدقِ إخلاصه ومقاصده في أعماله، أو يكون مبعدًا من اللَّه لعدم إخلاصه وسوء مقاصده، فالإخلاص في المقاصد هو الوسيلة الوحيدة لمرضاة اللَّه سبحانه. ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ من دونكم ـ يا أهل الكتاب ـ؛ لأننا ملتزمون بوحي اللَّه لم نقصر في تنفيذ أوامره، ولم نعمل علىٰ تحريف الكلم عن مواضعه، ولم نتكل علىٰ نسب؛ بخلافكم أنتم؛ فإنكم نبذتم كتاب اللَّه وراء ظهوركم تارةً، وحرفتموه حسب أهوائكم تارةً، وجعلتم أحباركم ورهبانكم أربابًا من دون اللَّه في التحكيم والتشريع، واعتمدتم وتوكلتم علىٰ أنسابكم، وعلىٰ شفاعة أنبيائكم، واتخذتموهم وسطاء وشفعاء بدون إذن ولا برهان من اللَّه ـ وهٰذا مع انحرافكم عن صراطهم ـ؛ فكيف ترجون شفاعةَ ومنفعةَ مَن انحرفتم عن طريقه؟! يا للعقول وزيغة الأذهان.

لا ينفعنا ولا ينفعكم إلَّا التقرب إلىٰ اللَّه بصالح الأعمال والتنافس فيها، مع الإخلاص المبني علىٰ صدق الإيمان، وهو ما ندعوكم إليه الآن؛ فكيف تزعمون أن الانتساب إليهم ينفعكم؟ أو التوسل إليهم بالقول ينفعكم عند اللَّه؟ هٰذا شيء مخالف للعقل الصريح والنقل الصحيح. إنه لا ينفعكم أبدًا إلَّا الاستقامة علىٰ طريقتهم المرضية للَّه والموصلة إليه. وأما التوسل فلا ينفعكم أبدًا إلَّا التوسل إلىٰ اللَّه بما كانوا يتوسلون به من صالح الأعمال والإخلاص فيها؛ فإن سلفكم لم يكن مرضيًّا عند اللَّه إلَّا بذٰلك.

ثم نسألكم يا أهل الكتاب: هل كان إبراهيم مقربًا من اللَّه بسبب أبيه آزر الكافر؟ أم كان قربه وفضله بسبب إسلام وجهه لربه وإخلاصه له وصدق التضحيات في سبيله؟ ثم إن اللَّه الذي جعل النبوة والكتاب

في إبراهيم وجعله إمامًا للناس في الإخلاص والإسلام قد جعلها في محمد ﷺ، فإذا صح لكم ـ يا بني إسرائيل ـ إنكار نبوة محمد ﷺ لأنه لم يكن في سلفه العرب أنبياء، فأنكروا نبوة إبراهيم؛ فإنه ليس في آبائه ولا أسلافه أنبياء، فالعلة واحدة، وإذا كانت العلة واحدة فكيف لا يتحد المعلول؟!.

وحاصل معنىٰ الآية: إبطال جميع الشبهات لأهل الكتاب، من زعمهم أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وأنهم الناجون وحدهم، وما سواهم فله النار ـ مهما أحسن في عمله أو أخلص ـ، وأنهم الفائزون عند اللَّه ـ وإن أساؤوا في العمل والقصد ـ؛ لأن أنبياءهم هم الذين يُنجُّونهم ويخلصونهم بجاههم، فالفوز عندهم حاصل بعمل أسلافهم؛ لا بصلاح أنفسهم أو أعمالهم.

وهٰذا الاعتقاد هو هدمٌ لدين اللَّه الذي بَعَثَ به جميع الأنبياء والمرسلين ودَرَج عليه من اتبع طريقهم وسنتهم، ذٰلك أن روح الدين الإلٰهي ومِلاكَه هو التوحيد أو الإخلاص ـ المعبر عنه بـ«إسلام الوجه» ـ، فإذا زال هٰذا المعنىٰ وحفظت الأعمال الصورية فإنها لا تفيد شيئًا؛ بل إنها تضر إذا انعدم التوحيد والإخلاص.

ولا شك أن أهل الكتاب كانوا قد أزهقوا هٰذه الروح من دينهم وصاروا علىٰ غير دين اللَّه؛ فمن كان منهم علىٰ بصيرةٍ عَرف حقيقة الحال، وعرف أن ما جاء به محمد ﷺ هو إحياءٌ لروح الدين الذي أماتوه، والذي كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين، فاتبعه بعضهم وترك الجدال والمشاقة ـ وقليل ما هم ـ، والأكثرون باقون علىٰ المشاققة والمحاجة بالباطل، فلذا يقارعهم القرآن بين الآونة والآونة، وقد تكرم اللَّه علينا بدحضهم، حيث علمنا أن نقول لهم: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ بما تدَّعونه من الافتراء عليه بالباطل، ودعوىٰ المحسوبية الكاذبة المخالفة لرحمته وعدله، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ ورب العالمين جميعًا، فنسبة الكل إليه واحدة، وليس لكم أي ميزة لا علينا ولا علىٰ غيرنا،

بل قد تكونون من أبعد الناس عنه؛ لأن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، كما في الحديث عنه ﷺ(١)، فلا إدلاء لكم عنده إلَّا بصالح الأعمال وخالصها، ولنا أعمالنا التي تنفعنا، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ كذٰلك، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ إخلاصًا أنتم له فاقدون.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾:

هٰذه الآية مرتبطة بما قبلها تمام الارتباط، وحرف ﴿أَمْ﴾ هنا معادلة لما قبلها، وتقديره: بأي الحجتين تتعلقون في أمرنا، هل تتعلقون بالتوحيد؛ فنحن موحدون؟ أم باتباع دين الأنبياء، فنحن المتبعون لهم من دونكم؟ أم تزعمون أن الأنبياء المذكورين من إبراهيم فما دونه كانوا هودًا أو نصارىٰ قبل نزول التوراة والإنجيل؟ لا شك أن جميع أقوالكم مغالطة وقلب للحقائق، فهم إن زعموا أن لهم ميزةً علينا بالقرب من اللَّه؛ فاللَّه علمنا أن نصفعهم بِهٰذه الآية: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، يأبىٰ عدله وتأبىٰ رحمته محاباتكم أو محاباتنا دونكم، فلا يقرب أحدًا عنده إلَّا الإخلاص والأعمال الصالحة، وإن زعموا أن امتياز اليهودية أو النصرانية التي هم عليها؛ لأن إبراهيم وذريته كانوا يدينون بأحدهما، فاللَّه يكذبهم في ذٰلك، وهم يعلمون بقرارة أنفسهم أنهم كاذبون؛ لأن التوراة والإنجيل لم تنزل إلَّا من بعد هٰؤلاء بقرون كثيرة، بل حدث اسم «اليهودية» بعد موسىٰ، واسم «النصرانية» بعد عيسىٰ.

وقد قال اللَّه تعالىٰ في الآية (٦٥) من سورة «آل عمران»: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا

---

(١) تقدم تخريجه.

تَعۡقِلُونَ﴾، وهم يعلمون تمام العلم أن اسمي «اليهودية والنصرانية» حدثا بعد هٰؤلاء، بل حدثا بعد موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام.

وإنما أنكر اللَّه عليهم ذٰلك لعدة وجوه:

أحدها: لأن محمدًا ﷺ ثبتت نبوَّتُه بسائر المعجزات، وقد أخبر عن كذبهم في ذٰلك، فثبت أن كذبهم لا محالة فيه.

وثانيها: شهادة التوراة والإنجيل علىٰ أن الأنبياء كانوا علىٰ التوحيد والحنيفية.

وثالثها: أن التوراة والإنجيل إنما نزلا من بعد هٰؤلاء الأنبياء ـ إبراهيم وبنيه ـ.

ورابعها: أنهم ادعَوا ذٰلك من غير برهان، فوبخهم اللَّه علىٰ ذٰلك بِهٰذه الوجوه.

ولما كان هٰذا القول باطلًا من هٰذه الوجوه، لا جَرَمَ أورد اللَّه هٰذا الكلام في معرض الاستفهام علىٰ سبيل الإنكار، والغرض منه الزجر والتوبيخ، وأن يخبرنا اللَّه عما في قرارة أنفسهم أنهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون.

ولا شك أن هٰذه الآية الكريمة نزلت في إقامة الحجة عليهم، بأنهم يعتقدون أن إبراهيم كان علىٰ الحق، وأن ملته الحنيفية هي الملة الإلٰهيَّة المَرْضية عند اللَّه ﷻ، وإذا كان الأمر كذٰلك ـ وكانت هٰذه التقاليد التي تقلدوها غير معروفة علىٰ عهد إبراهيم ـ، فما بالهم صاروا يُنيطون[1] النجاة بِهٰذه التقاليد، ويزعمون أن ما عداها كفر وضلال؟ فهو سبحانه لا يثبت لهم القول بأن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، وإنما يقول: إنهم لا يقدرون علىٰ القول بذٰلك؛ لأن البداهة قاضيةٌ بكذبهم.

ولذٰلك قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾؟ يعني أن اللَّه

---

(١) **يُنيطون**: يعلِّقون.

أعلم وخبره أصدق، وقد أخبر عنهم أنهم ليسوا هودًا ولا نصارىٰ، وإنما هم مسلمون، وإذا كان اللَّه قد ارتضىٰ للناس ملةَ إبراهيم باعترافكم وتصديق كتبكم ـ وذٰلك قبل وجود اليهودية والنصرانية ـ؛ فلماذا لا ترضون أنتم تلك الملةَ الحنيفيةَ المسلمة لأنفسكم؟ أأنتم أعلم بالمرضي عند اللَّه، أم اللَّه أعلم بما يرضيه؟ لا شك أن اللَّه يعلم وأنتم لا تعلمون.

فإن قيل: إنما يصح هٰذا التساؤل: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فيمن لا يعلم، وهم قد علموه وكتموه، فكيف يصح الكلام؟.

قلنا: من قال: «إنهم كانوا علىٰ ظنٍّ وتوهم»، فالكلام ظاهر.

ومن قال: «إنهم علموا وجحدوا»، فمعناه: أن منزلتكم منزلة المعترضين علىٰ اللَّه بعدم قبولكم لما ارتضاه اللَّه من ملة الحنفاء إبراهيم وبنيه، تلك الملة التي لا يمكنكم إنكارها، فموقفكم إذن موقف المعترض، فلا ينفعه ذٰلك مع إقراره بأن اللَّه أعلم.

أما قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ففي هٰذا الاستفهام وجهان:

أحدهما: أنه متممٌ لما قبله من إقامة الحجة بملة إبراهيم، فكأنه يقول: إن كانت عندكم شهادة من اللَّه بأن إبراهيم وبنيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا علىٰ حق وكانوا مرضيين عند اللَّه ﷺ، فإذا كتمتم ذٰلك لأجل الطعن في الإسلام فقد كتمتم شهادة اللَّه وكنتم أظلم الظالمين، وإذا اعترفتم فإما أن تقولوا: إنكم أنتم أعلم من اللَّه بالذي يرضيه، وإما أن تقوم عليكم الحجة وتحِق عليكم الكلمة إن لم تؤمنوا بما تدْعون إليه من ملة إبراهيم، وأحد الأمرين ثابت لا يقبل المراوغة من مغالط أو مباهت.

وثانيهما ـ وهو أظهر ـ: أن الشهادة المكتومة هي شهادة الكتاب المبشرة بأن اللَّه تعالىٰ يبعث فيهم نبيًّا من بني إخوتهم ـ وهم العرب

أبناء إسماعيل ـ، وكانوا لا يزالون يكتمونها بالإنكار علىٰ غير المطلع في التوراة وبالتحريف علىٰ المُطلع، فاللَّه سبحانه يبين هنا ـ بعد إقامة الحجة بإبراهيم ـ علىٰ أن وهمهم حصرَ الوحي في بني إسرائيل باطل؛ لأن في التوراة شهادة صريحة بأن اللَّه سيبعث فيهم نبيًّا من العرب، فكان هٰذا دليلًا ثالثًا وراء الدليل العقلي المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، والدليل الإلزامي المشار إليه بقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

فكأنه يقول: ما هٰؤلاء إلَّا مجادلون في الحق بعدما تبين، مباهتون للنبي ﷺ ـ مع العلم بأنه نبي ـ؛ إذ ما كان لهم أن يشتبهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له، فإذا كان ظلمهم لأنفسهم قد انتهىٰ بهم إلىٰ آخر حدود الظلم وهو كتمان شهادة اللَّه سبحانه تعصبًا لجنسيتهم اليهودية التي ارتبط بها الرؤساء بالمرؤوسين بروابط المنافع الدنيوية والأغراض النفسية؛ فكيف ينتظر منهم الإصغاء إلىٰ بيان، أو الخضوع لبرهان؟!.

ولا شك أن الاستفهام هنا يتضمن التقريع والتوبيخ المؤكدَين بالوعيد في ختام هٰذه الآية: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فإن فيه الكلام الجامع لكل وعيد، إذ من تصور أن اللَّه تعالىٰ عالم بسره وإعلانه، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره، وأن من ورائه مجازاةَ اللَّه ـ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ـ؛ لا يمضي عليه طرفة عين إلَّا وهو حذر خائف. ألا ترىٰ أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة سلطان يحصي عليه خطواته وما يقول، لكان دائم الحذر والوجل ـ مع أن رقيب سلطان الدنيا لا يعرف إلَّا الظاهر ـ؛ فكيف بالرب الرقيب الذي يعلم السر وأخفىٰ، إذا هدد وأوعد بمثل ختام هٰذه الآية؟!.

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾:

أعاد اللَّه ﷻ هٰذه الآيةَ الفاصلة بين قصة إبراهيم وبنيه عليهم السلام، وبين

قصص بني إسرائيل، مؤكدًا سبحانه هٰذه القاعدة التي يثبتها كل دين قويم من اللَّه، وكل عقل سليم، وهي قاعدة ربانية مناقضة ومعاكسة للقاعدة الوثنية المسوِّلة للناس باعتمادهم في طلب سعادة الآخرة علىٰ فعل أسلافهم، أو علىٰ كرامات الصالحين، وهٰذا تسويل باطل، ولٰكنه مع الجهل يغلب علىٰ كل عقل ودين، لا سيما والتقليد من الجهلة مانع من النظر في الأدلة العقلية والدينية جميعًا، بل هو جالب لمكابرة الحس والعقل، كما هو جالب لتأويل نصوص الشرع حسبما يريدون، أو حسبما يريده من اتبعوه وقلدوه.

ولقد أوَّلَ المتأولون نصوص أديانهم تقريرًا لاتباع رؤسائهم والاعتماد علىٰ جاههم في الآخرة، ولهٰذا جاء القرآن يبالغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل وحسن القصد وتوضيحها بالبيان والتكرير، ونفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين إلَّا بالتأسي بهم في العمل الصالح، ولذٰلك أعاد اللَّه هٰذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام والمعتمدين علىٰ شفاعتهم وجاههم وإن قصروا في الأعمال. وفائدة هٰذه الإعادة تأكيد تقرير قاعدة بناء السعادة علىٰ العمل دون الآباء والشفعاء، حتىٰ لا يطمع في تأويل القول طامع.

وسياق هٰذه الآية يقطع أطماع أهل الكتاب في الانتفاع بأسلافهم أو أجداد أسلافهم من الأنبياء العظام، خصوصًا وقد أسفرت المحاجة عن أن أعمال أهل الكتاب المجادلين مخالفة لأعمال أسلافهم ومناقضة لها مما يكونون بها علىٰ غير دينهم. وقد سبق القول بأن هٰذه الآية أفادت في وصفها الأول أن إبراهيم وبنيه وحفدته من الأسباط وأبيهم قد صَفُوا إلىٰ ربهم بقوة إخلاصهم وسلامة قلوبهم وصلاح أعمالهم، وانقطعت الصلة والنسبة بينهم وبين من جاء بعدهم، لمخالفتهم طريقتَهم، وانحرافهم عن طريقتهم المثلىٰ، وإن أدلَوا إليهم بالنسب، فهٰذا لا ينفعهم ما دامت صلة العقيدة مبتورةً فيما

بينهم. وكل واحد من السلف والخلف مجزيٌّ بعمله، لا ينفع أحدًا منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذٰلك الغير، ولا شخصه بالأولىٰ، وذٰلك أنها جاءت عقب بيان ملة إبراهيم وإيصاء بعضهم بعضًا بها، وبيان دروجهم[1] عليها وثباتهم واستقامتهم عليها.

ثم جاء بعد ذٰلك الاحتجاج علىٰ القوم بمن يعتقدون فيهم الخير والكمال، وأوضح أنهم لم يكونوا علىٰ الملة اليهودية الحادثة، ولا علىٰ النصرانية الحادثة ـ أيضًا ـ، فجاءت قاعدة الأعمال في هٰذا الموضع توضح أن المتخالفين في الأعمال والمقاصد لا يكونون متحدين في الدين ولا متساوين في الجزاء، فأفادت هٰذه الآية هنا ما لم تُفِدْه هناك، فأصبحت غير زائدة ولا مكررة.

فعلىٰ المسلمين أن يحاسبوا أنفسهم ويحكِّموا قاعدة العمل والجزاء فيما بينهم وبين سلفهم، ولا يغتروا بالنسبة، ولا يعتمدوا علىٰ غير أعمالهم، ولا يغتروا بالأماني التي اغتر بها بنو إسرائيل.

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢﴾:

اشتملت هٰذه الآية الكريمة علىٰ سبع فوائد:

١ ـ معجزة.

٢ ـ تسلية.

٣ ـ طمأنة قلوب المؤمنين.

٤ ـ اعتراض.

٥ ـ وجوابه من عدة وجوه.

٦ ـ صفة المعترض.

٧ ـ صفة المسلم لحكم اللَّه.

---

(١) الدروج: السَّير.

أما المُعجزة: فهو إخباره عما سيقوله السفهاء من الناس قبل أن يقع.

وأما التسلية: فهي ضمنيةٌ في إخباره للمؤمنين عما سيقع.

وأما طمأنته لقلوب المؤْمنين: فهو بوصفه للمعترض بقلة العقل والحلم والديانة، وأنه لا يستحق الالتفات إليه بتاتًا.

وأما الاعتراض: فهو قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾.

وأما جواب الاعتراض: فهو ما تضمنه باقي الآية من ثلاثة أوجه نذكرها ـ إن شاء اللَّه ـ.

وأما صفة المُسْلم لحكم الله: فهو السامع المطيع المنقاد بالتسليم والقبول ـ كما سيأتي بيان الجميع ـ.

وقد كان أنبياء بني إسرائيل يصلون إلىٰ صخرة بيت المقدس، وقد صَلىٰ النبي ﷺ هو والمسلمون إليها زمنًا قبل الهجرة وبعدها، وكان ﷺ يتشوق لاستقبال الكعبة، ويتمنىٰ لو حوَّل اللَّه القبلة إليها، وكان يجمع بين استقبالها واستقبال الصخرة لمَّا كان في مكة، فإنه يصلي من جهة الجنوب بين الحجر الأسود والركن اليماني، فلما هاجر إلىٰ المدينة تعذَّر عليه هٰذا الجمع، فأخذ يقلِّب وجهه في السماء يرجو اللَّه أن يحوله عن هٰذه الوجهة التي يشترك بها مع اليهود، حتىٰ أمره باستقبال الكعبة وحوله عن وجهة اليهود ـ كما سيأتي ـ.

وقد ابتدأ اللَّه الكلام في هٰذه المسألة بإخباره عما سيقع من اعتراض اليهود عليها ووصفهم بالسفاهة، والسفهاءُ من الناس لهم أوصاف عديدة، فهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم؛ بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، كما باع اليهود والنصارىٰ حظوظهم من اللَّه بمتاع قليل، وحظوظُهم من اللَّه لا تعدلها الدنيا ـ ولا أضعافها ثمنًا ـ، وأيضًا فالسفهاء من الناس هم أهل الاضطراب في الرأي والفكر، يقال: «سَفِه حلمه ورأيه ونفسه»، ويسمون الزمام المضطرب الذي تمرح الناقة فيه: زمامٌ سفيه، والسفاهة في العقل جهل وطيش، وفي الأخلاق فساد

واضطراب؛ لعدم رسوخ الملكة فيها.

فالسفهاء هم الذين خفَّت أحلامهم، واستمهنوها[١] بالتقليد والإعراض عن النظر، وهم الذين لا يدركون شيئًا من حكمة اللَّه في توجيه المسلمين إلىٰ قبلتهم الخاصة، ولا يمكن أن تعيَ قلوبهم ولا عقولهم ذٰلك، ولهٰذا يبادرون إلىٰ الإنكار؛ لأنهم محجوبون عن حكمة التوجيهات، فتكون عندهم مثارًا للهزل والاستهزاء. ولهٰذا يأتي الرد عليهم من اللَّه ﷻ متضمنًا تلقينهم الحجةَ الدامغة لهم، والحكمة البالغة في أمره وتشريعه، كما يتضمن بيان سر من أسرار الدين، وقاعدةٍ عظيمة من قواعد الإيمان، كان أهل الكتاب في غفلة عنها وجهل بها. فهٰذه الآيات متصلة بما قبلها في كونها محاجةً لأهل الكتاب في أمر الدين لإمالتهم له عن تقليد أعمىٰ وجمود علىٰ الظواهر من غير تفقه فيه ولا نفوذ إلىٰ أسراره، والحِكَم التي لم تشرع الأحكام إلَّا لأجلها.

ومن المعلوم أنه إذا كان العادل عن الرأي الصحيح الواضح في أمر دنياه يعتبر سفيهًا، فإن العادل عن الدين الصحيح يكون كذٰلك ـ بل هو أولىٰ بالسفاهة ـ، فلا كافر إلَّا وهو سفيه، سواءٌ كان يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا بأنواعه، أو مشركًا علىٰ اختلاف أجناسه، أو منافقًا؛ فلهٰذا اقتصر اللَّه من تسمية الجميع علىٰ ما وصفهم بذٰلك: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، يعني: ما الذي صرفهم عن قبلتهم التي كانوا يستقبلونها، وهي قبلة النبيين والمسلمين من قبلهم؟! وهٰذا الاستفهام والاستنكار والتعجب.

وفائدة تقديم الإخبار عن اللَّه أنه لتوطين النفس وإعداد الجواب؛ لأن في هٰذا الاعتراض علىٰ حكم اللَّه وشرعه وفضله ما يؤذي المؤمنين، فسلَّاهم اللَّه وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع من السفهاء فلا

---

(١) يقصد: جعلوها ممتهنةً محتقرة، واللَّهُ أعلم.

تبالوا بهم؛ لأن العاقل لا يبالي باعتراض السفيه ولا يلقىٰ له سمعًا.

وقد دلت هٰذه الآية علىٰ أنه لا يعترض علىٰ أحكام اللَّه إلَّا سفيهٌ جاهل معاند، وأما الرشيد العاقل فإنه يتلقىٰ أحكام ربه بالقبول، وقد كان في وصفه لهم بالسفاهة ما يغني عن رد قولهم وعدم المبالاة به، ولٰكنه سبحانه مع هٰذا لم يترك هٰذه الشبهة حتىٰ أزالها وكشفها، لئلا يعرض لبعض القلوب من اللصوق بها، ولٰكن جاء الرد منه سبحانه ليس ردًّا مباشرًا لهم؛ لأن في الرد احترامًا لهم وهم لا يستحقونه، ولٰكن جاء ردُّه سبحانه متضمنًا لبيان الحكمة الخاصة في تحويل القبلة، وتقريرًا لقاعدة أساسية من قواعد الدين والإيمان تشمل سؤالهم وغيره، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، يعني أن الجهات كلها للَّهِ، لا فضل لجهة منها علىٰ جهة، وأن للَّه أن يخصص منها ما يشاء لتكون قبلةً لمن يشاء، وإذن فكل مكان مصلًّىٰ، وكل جهة قبلة، ولا داعي للتعجب أن يولي اللَّه بعض عباده قبلةً هنا أو هناك.

وقد وجَّه اللَّه خطابه للمؤمنين؛ لا لأولٰئك السفهاء الذين لا يستحقون الجواب، بل الخطاب للمؤمنين، يقول لهم: إن الجهات كلها ملكٌ له، وليس شيء منها خارجًا عن ملكه، ومع هٰذا فهو يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، ومن هدايته: هدايتكم إلىٰ هٰذه القبلة التي هي من ملة إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعترضُ بتوليتكم قبلةً داخلةً تحت ملكه ليست خارجةً عنه، فالمعترض عليكم معترضٌ علىٰ فضل اللَّه عليكم وهدايته لكم، حسدًا منه وبغيًا.

ولما كان قوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مطلقًا، والمطلق يُحمل علىٰ المقيد في عرف الأصوليين، فإن الهداية والضلال لها أسباب، فمن أخذ بأسباب الهداية حصل عليها واهتدىٰ، ومن انحرف عنها وأخذ بأسباب الضلال غوىٰ وأمده اللَّه في الغواية؛ لأن

هٰذه سنته الكونية والشرعية، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، فذكر في هٰذه السبب الموجب لهداية هٰذه الأمة بجميع أنواع الهداية، وقال عن سبب ضلال الكافرين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]. وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، يعني به صراط الاعتدال في الأفكار والأخلاق والأعمال ـ كما سيأتي في الآية بعدها ـ.

وليُعلم أنه ليس لصخرة بيت المقدس فضيلة ولا قداسة علىٰ سائر الصخور، وما ورد أنها صخرةٌ من الجنة؛ فحديث موضوع باطل مكذوب باتفاق علماء الحديث، وكذٰلك يقال في أحجار الكعبة[1]، وفي الحجر الذي قام عليه إبراهيم وغيره، ليس بها شيء قد ورد له فضيلة ولا قداسة أبدًا إلَّا من ناحية تشريف اللَّه للكعبة عمومًا ـ أرضها وبنائها ـ، فليس للقبلة أصل صحيح في الدين من حيث هي الصخرة أو البناء، فإنما الاتجاه إليها أمر معنوي فيه فوائد للمسلمين، وحِكَمٌ بالغة لرب العالمين، في نفس حصر الاتجاه، لا في المتجه إليه، فليُعلم ذٰلك، فإن استقبال الكعبة البيت الحرام ـ زادها اللَّه شرفًا ـ فيه فوائد دينية تُفضي إلىٰ جميع المصالح الدنيوية، وذٰلك أن اللَّه جعل هٰذا البيت الشريف مركز الدائرة للعالم الإسلامي، فعنده تلتقي قلوبهم، وإليه تَهوي أفئدتهم، فيكون أعون لهم علىٰ التعارف والتفاهم، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، الذي من أجله أرسل اللَّه الرسل، وأنزل الكتب، ليهديهم إلىٰ ما يختلفون فيه من الحق بإذنه ﷻ، ويرجعهم إلىٰ الصراط المستقيم.

---

(١) يقصد في الأحجار التي بُنيت منها الكعبة، أما الحجر الأسود، فقد تقدم الكلام عليه.

ثم يدعوهم هٰذا التوجُّهُ المتكرر كل يوم ـ خمس مرات في الفرض، وعشرات المرات في النوافل ـ، ويحفزهم إلىٰ الشوق إلىٰ قصده وحجه، ليشهدوا منافع لهم في دنياهم وآخرتهم، فتتلاقىٰ تلك الأشباح هناك بعد أن تلاقت الأرواح، ويتم التفاهمُ والتعاون في هٰذه البقعة المشرَّفة التي ينبغي أن يعقد المسلمون مؤتمرهم الإسلامي كلَّ عام فيها، وقد عمتهم رحمة اللَّه، وحفتهم الملائكة، وصفَت نفوسهم، ولانت قلوبهم، ودفنوا كل ما جرىٰ بينهم من نزعات الشياطين، فيدرسون جميع مشاكلهم السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في جو مملوء بالمودة والصفاء الأخوي في الدين؛ ليعود كل منهم إلىٰ وطنه مزودًا بما يحتاجه في سائر شؤونه، ومصممًا علىٰ السير قدمًا في دينه وعقيدته، فيكون رجوعهم بخير زاد وأطيبه وأقواه في كل ناحية من نواحي الحياة.

وقد قال «هانونو» طاغية المستعمرات الفرنسية يومًا لقومه: «لا يهمكم هٰذه الكتلة الشيوعية التي ظهرت، فإنها فاشلة وستفشل وتكون أضحوكةً بينكم؛ لمخالفة بنائها للفطرة الإنسانية، ولٰكن لا يُهمكم إلَّا أمةٌ واحدة شعارها واحد في جميع مشارق الأرض ومغاربها: «لا إلٰه إلَّا اللَّه واللَّه أكبر»، وقبلتها واحدة تتجه إليها من كل مكان، ثم تلتقي حول هٰذه القبلة «الكعبة» كل عام، هٰذه الأمة اعملوا علىٰ تحطيم عقيدتها من الأساس، وإفساد أخلاق أبنائها، وتحوير أفكارهم حتىٰ تذيبوها في كل مكان، وإلَّا فلا تأمنوا انطلاقتها مهما عملتم من الاحتياطات العسكرية؛ ما لم تهدموا أصل عقيدتهم».

هٰذه لمحة قصيرة من الحكمة في استقبال الكعبة، التي تخوَّف منها أكبر دول العالم؛ لما يعرفون من وثبة أصحاب العقيدة وصولتهم وجَلَدهم وصمودهم وصدق تفانيهم في ذات اللَّه سبحانه، مما جربه الكفار وضاقوا به ذرعًا، ولو أن المسلمين شهدوا المنافع المقصودة لهم من استقبال الكعبة والحج فتحمسوا لدينهم وسلكوا مسلك

الإيثار الكامل، وجادوا للَّه بأموالهم ونصحوا لدينه وكتابه النصحَ الواجب، وصفت قلوبهم وأخلصوا للَّه سبحانه؛ لتغيرت أحوالهم تغيرًا صحيحًا، يكونون به قوة علىٰ غيرهم، ويدًا علىٰ من سواهم، فتتحقق لهم الخلافة في الأرض كما وعدهم اللَّه بها ووعده الحق، ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، لٰكن إنما يتخلف الوعد إذا تخلفت الأعمال أو تغيرت المقاصد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾:

الوسط هو العدل الخيار، وما عدا الوسط فهو أطراف داخلة تحت الخطر، فمن هداية اللَّه لهٰذه الأمة وإكرامه لها وعنايته بها، أن جعلها أمةً وسطًا بجميع معاني الوسط الطيب، فهي أمةٌ وسط في المكان، وهي أمةٌ وسط في الزمان، وهي أمةٌ وسط في الدين بين الإفراط والتفرط؛ لأن الزيادة في الأمر إفراط، والنقص فيه تعطيل أو تقصير وتفريط، ثم إنها أمةٌ وسط في الأخلاق، وأمةٌ وسط في العقيدة، وأمةٌ وسط في التفكير، وأمةٌ وسط في التنسيق والتنظيم، وأمةٌ وسط في العلم، وأمةٌ وسط في الدين، اختارها اللَّه أن تكون أمةً وسطًا لتكون أمة القيادة للناس، والقوامة علىٰ الناس، والوصاية علىٰ الناس بحكم رب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس جَلَّ وَعَلَا، جعلها اللَّه أمةً وسطًا في المكان في سُرة الأرض وأواسط بقاعها بين الشرق والغرب.

ولا تزال الأمة الإسلامية تشغل هٰذا الوسط من الأرض الذي له مكانته الثغرية «الاستراتيجية»، وله مكانته الاقتصادية لاشتماله علىٰ جميع المحاصيل الزراعية والمعادن الأرضية المختلفة التي من أشهرها

«النفط». فموقعها مهم في النواحي الاقتصادية والحربية، فهي بموقعها تشهد جميع الناس، وتشهد عليهم إذا قامت بما أوجب اللَّه عليها، وهي بموقعها توزع للناس الهداية الروحية التي اصطفاها اللَّه لها، وتوزع الخيرات المادية التي تستطيع التحكم فيها حسب مصلحة عقيدتها إذا ارتفعت عن المستوىٰ المادي الحقير الذميم اللئيم.

ثم هي أمةٌ وسط في الزمان، اختار اللَّه ظهورها بعدما جربت الإنسانية ألوانًا من الجناية علىٰ العمَل بأنواع الإيهام والتضليل، وعلىٰ الجسم بالفتك والإرهاب من أهل الملل المتطاحنة؛ لتَخلَصَ العقول من أوهام الخرافات ودجل الدجالين، خصوصًا اليهود وأذيالهم، ولتخلص الأبدان من الرق الطاغوتي المزدوج بالإذلال والتسخير، وتنجي البشرية من أنواع الفتنة الحسية والمعنوية، وتنير لها الطريق المظلم بشبهات الماسونية اليهودية.

وهي أمةٌ وسط في العقيدة، لا تغلو في الأنبياء غلوَّ النصارىٰ والبوذيين فتجعلهم آلهةً أو أبناءَ اللَّه، ولا تجفو جفاء اليهود فتقتل بعضهم وتعنت بعضهم الآخر، وتحرِّف الكَلِمَ عن مواضعه، وتؤمن ببعض الأنبياء والكتاب وتكفر ببعض، ولٰكنها أمة وسط تؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، وما أنزل إليهم من ربهم علىٰ الإجمال، لا تفرق بين أحد منهم، ولا تجني علىٰ كتاب مقدس بالتأويل والتحريف. فموقفهم في العقيدة موقف سليم يأمن الناس فيه من الطائفية التي سببها الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم، أو الإيمان بكتاب سماوي واحد دون الكتاب الآخر.

ثم إنها أمةٌ وسط في الدين والشريعة، لا إفراط ولا تفريط ولا تشديد كتشديدات اليهود وأحبارهم، ولا تهاون النصارىٰ.

وفي باب الطهارة والمطاعم ليسوا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاةٌ إلَّا في أماكنها التي تسمىٰ «صلوات»، ولا يطهرهم الماء من النجاسات،

بل يقطعون المتنجِّس من الثوب، وقد حرم اللَّه عليهم طيباتٍ عقوبةً لهم من اللَّه علىٰ بغيهم وعنادهم، وليسوا كالنصارىٰ الذين لا ينجِّسون شيئًا ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا كل ما هب ودب، وإنما طهارة المسلمين أحسن طهارة وأيسرها، يطهرهم الماء من كل نجاسة تعلق بأبدانهم أو أثوابهم أو تربتهم، ويأكلون الطيبات جميعها، ويمتنعون من كل خبيث ضارٍّ عليهم بعقولهم أو أبدانهم.

وقد أباح اللَّه لهم كل ما في الأرض جميعًا سوىٰ المُضِرِّ الخبيث، فلهٰذه الأمة من الدين أكمله وأيسره؛ لا تغلو في التجرد الروحي غلو النصارىٰ، ولا في الارتكاس المادي ارتكاس اليهود، ولٰكنها تتبع هدي الفطرة الذي أرشدها إليه المصطفىٰ ﷺ بقوله: «**إن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولضيفك عليك حقًّا؛ فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه**»[1]، وبقوله ﷺ: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا، واستعينوا بالغَدوة والرَّوحة وشيءٍ من الدُّلجة**»[2].

ثم إنها أمةٌ وسط في العقل والتفكير، لا تجمد علىٰ التقليد، وتغلق منافذ العقل والاستنارة، شأن القائلين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]، ولا تتبع كل ناعق، ولا تشرُدُ بالعقل شرود اليونان ونحوهم في متاهات لا نهاية لها، ولا تقلد التقليد المعطِّل للعقول، ولٰكنها تستمسك بما عندها من المنهج الإلٰهي، وتحلق في فكرها بالآفاق ـ كما أمرها اللَّه ـ، وتتحرىٰ الحق الذي هو ضالة كل مؤمن.

ثم هي أمةٌ وسط في الأخلاق، لا تترك الحياةَ كلها للمشاعر والضمائر ولا الترف والميوعة والهوىٰ الذي يعصف بها في تيارات

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٢) هٰذا الرواية ملفقة من حديثين:
الأول: رواه البخاري (٣٩).
والثاني: رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

الخلاعة والمجون، ولٰكنها ترفع ضمائر البشر بالتهذيب والتوجيه، وتعمرها بتقوىٰ اللَّه ومراقبته، وتسلك محاسن الأخلاق مقتديةً بالمصطفىٰ ﷺ، وبتعاليم القرآن في سورة الحجرات وغيرها مما يكون المجتمع المسلمُ مجتمعًا شريفًا كريمًا، لا لغو فيه ولا مراء ولا شقاق ولا اعتداء ولا فساد؛ بل يلتزم المسلم ما قضىٰ به اللَّه في سورة «الإسراء» من قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨]. وما وصىٰ به اللَّه في سورة «الأنعام» بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]، هٰكذا خلق المسلم مبنيٌّ علىٰ اتباع وحي اللَّه.

ثم إنها أمةٌ وسط في التنظيم والتنسيق؛ لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته الفطرية، ولا تعمل علىٰ تلاشي شخصيته، أو إذابتها في شخصية الدولة كالشيوعية، ولا تجعله أنانيًّا كما في التربية الرأسمالية، لا همَّ له إلَّا نفسه وشهواتها، وإنما تحرر الشخصية من القيود الأرضية التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان، وتربطه بالسماء؛ لا يلتفت إلىٰ غير اللَّه ولا يخشىٰ سواه، وتجعله ينطلق انطلاقه الفطريَّ الصحيح في السعي والاكتساب والمنافسة الحرة الصحيحة، حسب مراعاة حدود اللَّه في اكتساب المال وإنفاقه، والسيرة الصحيحة في السلوك.

هٰكذا كانت أمة وسطًا حسب مراد اللَّه؛ لتصلح للقيادة العالمية والقوامة علىٰ الناس.

وقوله سبحانه: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: يعني جعلناكم وسطًا عدولًا خيارًا، في كل ناحية من نواحي الدين والعقيدة، والأخلاق والعلم، والعقل والسلوك، لتكونوا خيرَ أمة أخرجت للناس، وتكونوا شهداء علىٰ الناس بسبب عدالتكم وحكمكم بالقسط، تنظرون في مناهجهم وسلوكهم، وتكشفون لهم الانحراف الذي تلبَّسوا به،

وتوضحون لهم منهج الحق، وتهدونهم إلىٰ صراطه من بين سائر الناس. فما شهدتم له بالقبول فهو المقبول، وما شهدتم له بالرد فهو المردود، فأنتم شهداء اللَّه في أرضه.

فإن قال قائل: كيف يقبل حكمهم علىٰ غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قولُ بعضهم علىٰ بعض؟.

فالجواب: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة ـ كما في هٰذه الأمة ـ؛ فإنما المقصود الحكم بالحق والعدل بشرط العلم والعدل، وهما موجودان في هٰذه الأمة، فكان قولها مقبولًا وشهادتها معتبرة.

ولا شك أن الناس كانوا قبل البعثة المحمدية علىٰ نوعين:

١ ـ نوع تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا همَّ له إلَّا حظوظ نفسه وشهوة جسده، وإشباع نَهمته الشهوانية والجنسية، كاليهود والمشركين من سائر أنواع الملاحدة.

٢ ـ ونوع تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة، وترك الدنيا ورفض جميع ملذاتها، كالنصارىٰ والصابئين وطوائف من الوثنية الهندية أصحاب الرياضيات النفسية.

أما الأمة الإسلامية، فقد جمع اللَّه لها في دينها بين الحقين: حق الجسم وحق الروح؛ فقد أعطاها اللَّه جميع الحقوق الإنسانية مربوطةً بالروحانية، فهي روحانيةٌ جسمانية قد حققت معنىٰ الوسط في هٰذا السبيل وفي غيره، فكانت جديرةً بالشهادة علىٰ الناس الجسمانيين بما فرطوا في جنب الدين، وعلىٰ الروحانيين بما أفرطوا وكانوا من الغالين. فأنتم ـ أيها الأمة الوسط ـ تشهدون علىٰ المفرطين بالتعطيل علىٰ القائلين: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ تشهدون عليهم بانتهاجهم طريق البهيمية، وإخراج أنفسهم من الإنسانية الروحانية، وتشهدون علىٰ المغالين بغلوهم في الدين وافترائهم علىٰ اللَّه،

بتحريمهم الطيبات علىٰ أنفسهم، وحرمانهم مما أباحه اللَّه لها.

نعم، تشهدون علىٰ هٰؤلاء وهٰؤلاء، وتسبقون الأمم كلها باعتدالكم وتوسطكم في جميع الأمور، وتقيمون حجة اللَّه علىٰ أهل الأرض بزحفكم المقدس في رسالة اللَّه، ونشركم دعوة رسوله، وقيامكم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فربكم ﷻ اختاركم للشهادة، ورسوله محمد ﷺ زكَّاكم لها، فلهٰذا قال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ومن جملة شهادة هٰذه الأمة علىٰ غيرهم: أنه إذا كان يوم القيامة، وسأل اللَّه المرسلين عن تبليغهم، وسأل الأمم المكذبة لهم عن ذٰلك وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم: استشهد الأنبياءُ بِهٰذه الأمة، وزكاها نبيها ﷺ، فشهدت للأنبياء بالتبليغ وعلىٰ أممهم بالتكذيب(١)، وذٰلك اعتمادًا علىٰ إخبار اللَّه لهم في القرآن عن حالة الرسل، فشهادتهم تعتبر تصديقًا للَّه ولرسوله، ولذا كانوا من المقبولين الممدوحين.

وقد استشهد العلماء بِهٰذه الآية علىٰ أن إجماع هٰذه الأمة حجةٌ قاطعة؛ لأنهم معصومون من الاجتماع والاتفاق علىٰ خطأ؛ لإطلاق قوله سبحانه: ﴿وَسَطًا﴾، فلو قُدِّر اتفاقهم علىٰ الخطأ لم يكونوا وسطًا إلَّا في بعض الأمور، واللَّه سبحانه قضىٰ لهم بذٰلك علىٰ الإطلاق.

وكذٰلك استدل العلماء من هٰذه الآية علىٰ اشتراط العدالة في الحكم، والفتيا والشهادة وغير ذٰلك.

ومما ينبغي التنبيه له غاية التنبيه: هو أن الرسول محمدًا ﷺ هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط، وإنما تكون هٰذه الأمة وسطًا باتباعها له في سيرته وشريعته والعض علىٰ سنته بالنواجذ، وعدم الابتداع والابتعاد عن كل بدعة ومبتدِع، وقوة القيام في حمل رسالته، وتوزيع الوحي الذي جاء به، وتصديره إلىٰ كل مكان، والجود الصحيح بالنفس والمال في

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٧).

ذٰلك، وتعميم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر عليه، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، لتحقيق خيريتها بين الأمم، مع صدقها وعزمها في الجهاد بجميع أنواعه. إن قامت هٰذه الأمة بتلك الواجبات كانت أمةً وسطًا تشهد علىٰ جميع الناس بما ضلوا عن قصد السبيل، وذٰلك بحسن سيرتها وارتقائها الجسدي والروحي، ثم يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته وبما خلَفَتْه في رسالته من صدق الدعوة والسخاء والقوة في تبليغها، كما يشهد لها ﷺ بما حصل لها من الآثار في الأسوة الحسنة، وأنها استقامت علىٰ طريق الهداية، فكأن اللّٰه ﷻ قال: إنما يتحقق لكم وصف الوسط إذا حافظتم علىٰ العمل بهدي الرسول، وتمسكتم بسنته، وقمتم بحمل رسالته، وتوزيع هدايته وتصديرها للآفاق بالصدق في بذل النفس والمال لذٰلك. وأما إذا انحرفتم عن هٰذا السبيل فالرسول ﷺ بنفسه ودينه وسنته حجةٌ عليكم، بأنكم لستم من أمته التي وصفها اللّٰه في كتابه بِهٰذه الآية وبغيرها في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بل تخرجون بالابتداع وبالتفريط من الوصف الإلٰهي الطيب «الوسط»، وتكونون في أحد الأطراف التي علىٰ خطر كما قال الشاعر:

كانت هي الوسطَ المحميَّ فاكتنفت بها الحوادثُ حتىٰ أصبحت طرفًا

فينبغي لهٰذه الأمة أن تعرف قيمتها، وأن تحافظ علىٰ مكانتها التي بوأها اللّٰه إياها، ولا تنزل منها أو تسقط عنها بسوء معاملتها للّٰه، وسوء تصرفها بميراث رسوله ﷺ. إن اللّٰه ﷻ جعلها في القمة بين الأمم، وجعل لها القوامة علىٰ أهل الأرض، بل الوصاية الربانية علىٰ أهل الأرض وصايةٌ ليست كالوصاية التي فرضها ويفرضها أفراخ الماسونية اليهودية علىٰ الناس من كلا المعسكرين الظالمَينِ اللذين ليس عندهما سوىٰ اللعب والاستهتار بالأمم وطمس مقوماتها وابتزاز خيراتها،

ولٰكنها وصايةٌ روحية تنور قلوب الأمم وتهديهم سبل السلام والرشاد، وتحرِّر عقولهم وأجسامهم من كل رقٍّ حسي أو معنوي يَجِدُّ كِلا المعسكرين في تطبيقه.

فعلىٰ الوعاظ والمصلحين والموجهين الصالحين: أن يحموا هٰذه الأمة المحمدية ويوقظوها من سُباتها، ويطالبوها بإقامة دين اللَّه من جديد، وحمل رسالته وتفجير طاقاتهم في هٰذا السبيل؛ ليكونوا أهلًا لما اختارهم اللَّه له، ولا تبقىٰ عندهم طاقات روحية معطلة أو مادية مبددة.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ تحذير للأمة من التفريط في رسالته أو الرغبة عن سنته ﷺ، أو الزهد في القرآن إلىٰ غيره من العلوم المادية المحدَثة، أو الأقاصيص والمجلات الموضوعة، لإشغال الأمة عن القرآن. وقد قال ﷻ في سورة «النساء»: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وقال في سورة «الفرقان»: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

ففائدة تقرير هٰذه الشهادة هي أن يحذر المسلم المؤمن من سوء عاقبتها، وأن يغير موقفه المشين من رسول اللَّه ﷺ بالنصح له والشفقة علىٰ ميراثه، وأن يجعل روحه وماله وقاءً لسنته ورسالته بعد وفاته.

وهٰذا واجب وجوبًا حتميًّا علىٰ كل مسلم مؤمن، ليجعل من حياته امتدادًا لحياته الطاهرة، كما يجعل نفسه وماله وقاءً وفداءً لحياته وقت حياته ﷺ.

ولا شك أن النصح للرسول ﷺ بِهٰذا المعنىٰ هو من ضروريات الدين، خصوصًا في هٰذا الزمان الذي أقبل أهله علىٰ المادة والشهوات، ونسُوا حظًّا مما ذكرهم اللَّه به في القرآن؛ فإن الذي يقوم بواجبه نحو اللَّه ورسوله في هٰذه الفتنة تضاعف له الأجور، ولا يبعد أن يكون له كأجر خمسين صحابيًّا، لقلة أعوانه وكثرة أعدائه والمتهكمين به[(١)]،

(١) اعتمد المؤلف رحمه الله في هٰذا المعنىٰ علىٰ الحديث المروي عن أبي أُمَيَّةَ =

وما موقف المؤمن الموقن بشهادة الرسول عليه وهو في هٰذه الحال؟.

فاللَّه سبحانه يستحث هممنا، ويشحذ عزائمنا، ويرفع رؤوسنا بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ويخوفنا ويوقظنا بقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ لنكون في كل لحظة من لحظاتنا، محاسبين لأنفسنا علىٰ قيامنا بِهٰذا الواجب، وعلىٰ شهادة الرسول علينا، فإنها قاصمة الظهر.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلم علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب، ويظهرُ هٰذا العلم واضحًا بين الناس، وإلَّا فهو عالم بكل شيء قبل وقوعه، لٰكن هٰذا العلم لم يظهر للناس ولم يتعلق به ثواب ولا عقاب ولا إقامة حجة، ولٰكن بالامتحان في المأمورات ثم نسخها إلىٰ غيرها يحصل به إقامةُ الحجة، ويترتب عليه الثواب والعقاب، ويظهر علم اللَّه جليًّا بين الناس فيمن يتبع الرسول وينقاد للأمر، وفيمن يضطرب إيمانه فينقلب علىٰ عقبيه.

وقد يتوهم الجاهل أن اللَّه يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه، ﷻ عن هٰذا الوهم علوًّا كبيرًا، بل هو عالم بجميع ما سيكون قبل أن يكون، وقد أوضح أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا لم يكن يعلمه، وذٰلك

= الشَّعبانِيِّ قال: أتيتُ أبا ثَعلبةَ الخُشَنيَّ، فقلتُ له: كيف تصنعُ بِهٰذه الآية؟ قال: أيَّةُ آية؟ قلتُ: قولُه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟ قال: أمَا واللَّهِ لقد سألتَ عنها خبيرًا، سألتُ عنها رسولَ اللَّه ﷺ، فقال: «**بل ائتَمِروا بالمعروف، وتناهَوا عن المنكر، حتىٰ إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا، وهوًىٰ متَّبَعًا، ودنيا مؤثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصَّةِ نفسِكَ، ودَعِ العوامَّ، فإنَّ من ورائِكم أيامًا؛ الصَّبرُ فيهنَّ مثلُ القَبضِ علىٰ الجَمرِ، للعامل فيهنَّ مِثلُ أجرِ خمسين رجلًا يعمَلون مثل عَملكم**»، قال عبدُاللَّه بن المبارك: وزادني غيرُ عُتبة: قيل: يا رسول اللَّه، أجرُ خمسين منَّا أو منهم؟! قال: «**بل أجرُ خمسينَ مِنكم**». رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

بقوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران]، فقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ دليل قاطع علىٰ أنه لم يستفد بالاختبار شيئًا لم يكن عالمًا به ـ تعالى عن ذٰلك علوًّا كبيرًا ـ؛ لأن العليم بذات الصدور غنيٌّ عن الاختبار، ففي هٰذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر اللَّه فيها اختباره لخلقه؛ لأنه عالمُ ما في الصدور، عالمُ السر والنجوىٰ، فهو عالمٌ بجميع ما سيكون، لا تخفىٰ عليه خافية.

وقوله: ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ويؤمن به، فيطيعه في كل حال؛ لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه يعلم ـ مما أخبرت به الكتب المتقدمة ـ أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق يزداد بذٰلك إيمانًا وطاعة للرسول، وأما من انقلب علىٰ عقبيه وأعرض عن الحق انصياعًا لأراجيف اليهود وانضباعًا بها واتباعًا لهواه؛ فإنه يزداد كفرًا إلىٰ كفره، وحيرةً إلىٰ حيرته، ويتعلق بشبهات باطلة لا مستند لها إلَّا من أكاذيب اليهود.

فاللَّه سبحانه بإقراره لعباده علىٰ القبلة الأولىٰ عن أمره وتحويلهم عنها يريد أن يظهر لهم الخفي، ويكشف المستور من أحوال بعضهم؛ لتكون أعمالهم الظاهرة الجديدة هي الحجة عليهم عند أنفسهم وعند اللَّه؛ ويتضح لعباده وينكشف ما كان مستورًا من أحوال بعضهم، وذٰلك أن بعض أهل الكتاب مالوا إلىٰ الإسلام لمجرد اتحاد قبلتِه مع قبلتهم، فقد كان من الخير والأصلح أن يميز اللَّه عز وجل الصادقين في إيمانهم مِن الذين تجذبهم بعض الملابسات وحدها، وتُعجِبُهم من الإسلام استقبال قبلتهم فقط، فإن الصادقين في إيمانهم هم الجديرون بحمل التبعات الكبرىٰ، والنهوض بأعباء الرسالة وأمانة الإسلام، سواء وافق رغباتهم وكبرياءهم أم خالفها، فإن الإسلام هو الاستسلام للَّه أنىٰ وَجَّه المؤمنُ وَجهَه؛ ولهٰذا قال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ لأن غير المطمئن للإيمان لا يثبت في مهاب عواصف

التشكيك والشبهات التي أثارها اليهود، فالسفهاء والجهال والمضبوعون بالدعايات اليهودية يضعف إيمانهم وعدم فقههم؛ ويرون هٰذا التحويل أمرًا إدًّا[1]، والذين هداهم اللَّه إلىٰ فقه ذٰلك يرونه أمرًا حكيمًا، ولذٰلك قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، فهداية اللَّه تمنحهم الاعتدال في الفكر.

ومعنىٰ الانقلاب علىٰ العقبين: هو الانصراف عن الشيء بالرجوع إلىٰ الوراء، وهو طريق العقبين، فالمنقلبون قد خرجوا من عداد المؤمنين، وعادوا إلىٰ ما كانوا عليه من الكفر، فكانوا فريسةً لليهود بأراجيفهم وتهويلاتهم، وفي التعبير بالانقلاب علىٰ العقب إشعار بالرجوع عن الخير إلىٰ الشر.

قال الإمام محمد عبده بعد تساؤل: «إن اللَّه تعالىٰ علم أن الفتنة في القبلة ستكون عظيمة، وأنْ سيقول أهل الكتاب: إن محمدًا ليس علىٰ بينةٍ من ربه؛ لأنه غيَّر قبلته، ولو كان اللَّه هو الذي أمره بالصلاة إلىٰ بيت المقدس لما نهاه عنه ثانيًا. ويقول المنافقون: إنه صلىٰ أولًا إلىٰ بيت المقدس استمالةً لأهل الكتاب ومداهنةً لهم، ثم غلب عليه حب وطنه وتعظيمه، فعاد إلىٰ استقبال الكعبة، فهو مضطرب في دينه.

وأمثال هٰذه الشبهات علىٰ كونها تدل علىٰ عدم الاعتدال في أفكار قائليها تؤثر في النفوس، فالمطمئن الراسخ الإيمان يحزن لشكوك الناس وتشكيكهم في الدين، والضعيف غير المتمكن ربما يضطرب ويتزلزل؛ لذٰلك بدأ اللَّه بإخبار المسلمين بما سيكون بعد تحويل القبلة من إثارة رياح الشبه والتشكيك، فلقَّنهم الحجة، وبيَّن لهم ما فيها من الحكمة، وبين لهم منزلتهم من سائر الأمم، وهي أنهم أمةٌ وسط، لا تغلو في شيء، ولا تقف عند الظواهر، وأنهم شهداء علىٰ الناس وحجةٌ عليهم باعتدالهم في الأمور كلها، وفهمهم لحقائق الدين

---

(١) **الإد**: المنكر الفظيع.

وأسراره، ومن أهمها أن القبلة التي يتوجه إليها لا شأن لها في ذاتها، وأن العبرة فيها باجتماع أهل الملة علىٰ جهة واحدة وصفة واحدة عند التوجه إلىٰ اللَّه» انتهىٰ باختصار بسيط[١].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، يعني: أن قضية التحول عن القبلة كبيرة الشأن، شاقة علىٰ النفوس، وقعها شديد، لما لابسها من دجل اليهود ومكرهم وتهويلهم وأراجيفهم، مما جعل بعض الناس ينقلب علىٰ عقبيه، ويظهر ما أكنه في نفسه من الريب، فهٰذا التحول صعب شاق ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، يعني: هداهم إلىٰ معرفته والعلم بحكم شريعته، فعرفوا بذٰلك نعمة اللَّه عليهم، وشكروه شكرًا عمليًّا، وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلىٰ هٰذا البيت العظيم الذي فضَّله علىٰ سائر بقاع الأرض، وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، وماحيًا للذنوب والآثام، وعرفوا أن اللَّه أكرمهم بالاستقلال الديني الكامل الذي لا يلتقون فيه مع غيرهم من الكفار بأي وجهة ولا بأي سلوك؛ فلهٰذا لم يجدوا مشقة في التحول، بل انعكس أمرهم إلىٰ رحابة صدر وانشراح خاطر وقوة سرور ونعيم بال، حيث خلصهم اللَّه تعالىٰ من هٰذه التبعية لليهود، وجعل لهم قبلةً مستقلةً.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾، أي: لا يليق به، وليس من حكمته ورحمته، بل هو من الممتنعات عليه أن يضيع إيمانكم الباعث لكم علىٰ اتباع الرسول في الصلاة والقبلة. ولو كان نسخ القبلة مما يَضيعُ الإيمانُ بنقضه أو نقصه أو فواتِ بعض ثواب ما كان قبلها؛ لَمَا نسخها. وفي هٰذه الجملة من الآية بشارة عظيمة للمؤمنين؛ بأن اللَّه سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه.

وحفظ اللَّه لإيمانهم نوعان:

---

(١) كذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من الأخطاء اللغوية الشائعة، والصواب: أن يقال: «اليسير»؛ لأن «البسيط» هو الواسع الممتد.

أولاً: حفظ عن البطلان؛ بعصمته عن كل مفسد أو مُنقِص في المحن المقلقة والأهواء الصادة.

ثانيًا: حفظه بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم ويتم به يقينهم، فكما أنعم عليهم بادئ ذي بَدءٍ بالهداية للإيمان، فإنه سيحفظه لهم ويتمم نعمته بتنميته، والمزيد من أجورهم وحفظه لهم من كل مكدِّر.

ومن نعمة اللَّه عليهم في حفظ إيمانهم تثبيتُهم عند المحن والفتن والابتلاء المتنوع. ولعل في هٰذه الجملة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ احترازًا من توهم من يظن أن تحويل القبلة يكون سببًا لترك المؤمنين دينهم، فدفع اللَّه هٰذا الوهم بتأكيده لحفظ إيمان المؤمنين، ويدخل في هٰذا من مات قبل التحويل، فإن اللَّه لا يضيع إيمانهم من صلاتهم إلىٰ القبلة الأولىٰ، لكونهم امتثلوا أمر اللَّه فيه، فأجورهم ثابتة، وإيمانهم كامل لطاعتهم اللَّه ورسوله فيما اتجهوا إليه.

وفي الجملة من هٰذه الآية الكريمة دليلٌ لمذهب أهل السنة والجماعة أن أعمال الجوارح داخلة في الإيمان.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ يعني: شديد الرحمة بهم، فمن رأفته ورحمته بهم إتمام نعمته التي ابتدأها عليهم باستقلالهم في الاتجاه، ورفعتهم عن التبعية لغيرهم، وتمييز المنافق عنهم، ممن دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأنِ[١] امتحنهم امتحانًا زاد به إيمانهم وارتفعت به درجاتهم عنده، وأن وجَّههم إلىٰ أشرف البيوت وأجلها.

📖 **وقوله سبحانه**: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾:

---

(١) يعني ومن رأفته ورحمته ـ أيضًا ـ.

يذكر اللَّه نبيه بتقليب وجهه في السماء، يعني: كثرة تردده في جميع جهاته شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي بتحويل القبلة إلىٰ الكعبة، كما أسلفنا من حرصه علىٰ مخالفة اليهود حتىٰ في اتجاههم، والاتجاه من أعظم المهمات.

وقوله سبحانه عن نبيه: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، ولم يقل: «تقلب بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر، وذٰلك لأن الكعبة قبلةُ أبيه إبراهيم، والتوجه إليها أدعىٰ إلىٰ إيمان العرب، وعلىٰ العرب القبول بإذن اللَّه في ظهور هٰذا الدين العام؛ لأنهم كانوا أكمل استعدادًا من جميع الأمم. ولا غرابة في تشوقه ﷺ لقبلة إبراهيم، وقد جاء بإحياء ملته الحنيفية وتجديد دعوته، وليس يُعدُّ هٰذا من الرغبة عن أمر اللَّه تعالىٰ إلىٰ هوىٰ النفس؛ لأن تشوقه وتقلب وجهه ليس ناشئًا عن شهوة نفسية، وإنما نشأ عن رغبة دينية هي مخالفة اليهود ومخالفة أعداء اللَّه مما يرضاها[1] اللَّه لرسوله وأتباع رسوله، ويعينهم عليها؛ لأن روح النبي ﷺ منطوية علىٰ الدين في جملته ومِن قبل أن ينزل عليه الوحي بتفصيل مسائله، فهي تشعر بصفائها وإشراقها بحاجة الأمة التي بعث فيها شعورًا إجماليًّا كليًّا لا يكاد يتجلىٰ في جزئيات المسائل وآحاد الأحكام إلَّا عند شدة الحاجة إليها والاستعداد لتشريعها، فعند ذٰلك يتوجه قلب النبي ﷺ إلىٰ ربه طالبًا بلسان استعداده بيان ما يشعر به مجملًا، وإيضاح ما يلوح له مبهمًا، فينزل الروح علىٰ قلبه ـ بإذن اللَّه ـ يخاطبه بلسان قومه عن ربه.

وهٰكذا كانت قضية تحويل القبلة في شعوره؛ حتىٰ قال له اللَّه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مصدر الوحي انتظارًا لما ترجوه من تحويل القبلة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، لأن هٰذا التوجه بالرجاء إلىٰ اللَّه هو الذي يحبه اللَّه، ويهدي قلب صاحبه إلىٰ ما يرجوه ويطلبه،

---

(١) يعني المخالفة.

فلذٰلك قال له: فلَنجْعَلنَّكَ متوليًا قبلةً تحبها وترضاها. وقد قرن الوعد بالأمر فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وتولية الوجه لمكان ما هي جعله قبلته وأمامه، كما أن التولي عنه جعله وراءه، والشطر يطلق علىٰ الجهة وعلىٰ قسم من أقسام البيت.

وفي قوله: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إشارة إلىٰ جهاته الأربع، وأن المصلي يتجه إلىٰ الشطر المحاذي لبلده، فمن كان بلده في الجنوب يتجه إلىٰ الشطر الذي بين الركن اليماني والحجر الأسود، ومن كان إلىٰ الشرق يتجه إلىٰ الشطر الذي فيه الباب، ومن كان في الغرب يتجه عكس ذٰلك، ومن كان شمالًا يتجه إلىٰ الشطر الذي بين الركن العراقي والشامي، ومن كان بين ذٰلك يتجه إلىٰ أحد الأركان المحاذية لبلده. ولا يصح إطلاق الشطر علىٰ العين لما فيه من الحرج والمشقة، فلا يجب إصابة عينها إلَّا علىٰ المكي القريب منها، وأما البعيد فيكفيه جهتها؛ ولهٰذا قال سبحانه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ يعني: في أي مكان من البر أو البحر تكونون فاستقبلوا الكعبة، أي وجهتها حسب اجتهادكم.

وفي تثنية اللَّه للمؤمنين بعد الخطاب لرسوله ﷺ بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ تشريف للمؤمنين، واهتمام بشأنهم؛ حيث قال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فأمر اللَّه المؤمنين بما أمر به رسوله ﷺ، والأمر للرسول يعم المؤمنين، ما لم يقم دليل الاختصاص، ولٰكن اللَّه سبحانه نص علىٰ أمر المؤمنين نصًّا صريحًا للتأكيد الذي اقتضته الحال في حادثة القبلة، فإنها كانت حادثةً كبيرةً استتبعها فتنةٌ عظيمةٌ من دس اليهود ولجاجتهم، فأراد اللَّه أن يعلم المؤمنين بعنايته بها ويقررها في أنفسهم، فأكد الأمر بها وشرفهم بالخطاب مع خطاب الرسول ﷺ، لتقوىٰ معنويتهم وتطمئن قلوبهم، ويتلقوا تلك الفتنة التي أثارها اليهود وروَّجها المنافقون والكافرون بالحزم والثبات علىٰ الاتباع، ولئلا يتوهم من سابق الكلام أنه خاص بالنبي ﷺ.

ثم بعد هٰذا عاد إلىٰ بيان حال السفهاء مثيري الفتنة في قضية تحويل الكعبة فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، يعني يعلمون أن استقبال المسجد الحرام هو الحق المنزل من اللَّه علىٰ نبيه.

وجمهور المفسرين جرىٰ علىٰ أن أكثر مثيري الفتنة هم من أهل الكتاب المقيمين في الحجاز، ولولا ذٰلك لم تكن الفتنة عظيمةً؛ لأن كلام المشركين في مسائل الوحي والتشريع قلما يُلتفت إليه لجهلهم، وأما أهل الكتاب فمعروفون بين العرب بالعلم، ومن كان كذٰلك فإن عامة الناس تتقبل كلامه ولو نطق بالمحال؛ لأن الثقة بمَظهره تُعمي الناس عن تمحيص خبره، فهو في حاله الظاهرة شبهةٌ إذا أنكر وحجةٌ إذا اعترف؛ لأن جماهير الناس قد اعتادوا تقليد مثله وتصديقه بدون بحث عن الدليل.

وقد جرىٰ أصحاب المظاهر العلمية والدينية علىٰ الانتفاع بغرور الناس بهم، فصار الغرض لهم من أقوالهم التأثير في نفوس الناس، فهم يقولون ما لا يعتقدونه لأجل ذٰلك، ويسندون ما يقولون إلىٰ كتبهم كذبًا صريحًا أو تأويلًا بعيدًا، كما كان أحبار اليهود يطعنون بالنبي ﷺ بعد ما جاء به، ويذكرون للناس أقوالًا ينسبونها إلىٰ التوراة، وما هي منها، بل الذي في التوراة عكسها، وكذٰلك الشأن في أمر القبلة؛ فإنه منصوص في التوراة من بعض صفاته ﷺ أنه يستقبل الكعبة، فقد قام عندهم الدليل علىٰ صحة نبوته ﷺ وصدقه في قبلته، ويعلمون أن أمر القبلة مما جاء به الوحي من اللَّه، وأنه الحق الذي لا محيص عنه، ولهٰذا توعدهم اللَّه بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنهم يعترضون عنادًا وبغيًا وشرًّا للمؤمنين، فهو مطَّلع علىٰ ظواهرهم وضمائرهم، حسيب علىٰ ما في سرائرهم، ورقيب علىٰ أعمالهم، لا يغفل عن شيء منها، بل يخزيهم بفضيحتهم في الدنيا، ويعاقبهم علىٰ كل ما اجترحوه ضد المؤمنين، وضد وحيه المبين في الدنيا أولًا بصنوف العذاب، ثم

في الآخرة مأواهم جهنم وبئس المصير.

وقد سبق القول عن حرصه ﷺ علىٰ إيمان أهل الكتاب ورجائه منهم أكثر من رجائه لإيمان المشركين، وأنه يُحزنه صدودهم وما يقيمونه من الشبهات، ويتمنىٰ لو أعطي من الآيات والدلائل ما يمحو كل شبهة، فأعطاه اللَّه ما أراد وزيادة، كما مضىٰ تفصيل الأسلحة المعنوية الدامغة لهم في كل مجال، وخصوصًا حول إبراهيم ﷺ. وقد أخبره اللَّه هنا بأنهم غير مشتبهين بالحق فتزال شبهتهم، وإنما هم قومٌ معاندون جاحدون علىٰ علم، وزاده اللَّه إعلامًا عظيمًا أنه لا تنفع معهم كل حجة ولا كل آية أبدًا:

📖 **فقال سبحانه:** ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

يعني لو أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية علىٰ نبوتك، وكل حجة علىٰ صدقك، وكل برهان ودليل يوضح قولك ما تبعوا قبلتك ـ فضلًا عن اتباع ملتك ـ؛ لأن اتباع قبلته دليل علىٰ اتباعه، وإنما كان الأمر كذٰلك؛ لأنهم معاندون عرفوا الحق وتركوه بغيًا وحسدًا وعنادًا، ولا يَنتفع بالآيات إلَّا الذي يطلب الحق وهو مشتبهٌ عليه، فإذا أوضحته الآيات اتبعه، وأما من جزم علىٰ الإعراض عن الحق بكل إصرار فهٰذا لا حيلة فيه قطعًا. وأيضًا فهم مختلفون فيما بينهم، وبعضهم ليس بتابعٍ قبلةَ بعض.

وقوله سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أبلغ مما لو قال: «ولا تتبع»؛ لأن ذٰلك يتضمن أنه ﷺ متصف بمخالفتهم ـ كما هو الواجب عليه وعلىٰ أمته ـ؛ فلا يمكن وقوعه منه بتاتًا، بخلاف أمته، فإنه قد ينزلق بعضهم فيوافق الكفار في بعض الأحوال أو يتشبه بهم جهلًا أو انضباعًا عن مركب نقص ونحوه، فينوِّر اللَّه بصيرته للعودة،

أو يصب عليه سوط عذاب كما هي سنته الكونية القدرية.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾، ولم يقل: «دينهم»؛ لأنهم ليسوا علىٰ دين، بل ما هم عليه مجرد أهواء نفس، وهم يعلمون في قرارة قلوبهم أنهم ليسوا علىٰ دين ـ ولا شك أن كل من ترك الدين فقد اتبع الهوىٰ لا محالة ـ، وهٰذا تهديد من اللَّه لنبيه أنك إن اتبعت أهواءهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بأنك علىٰ الحق وهم علىٰ الباطل، ﴿إِنَّكَ إِذٗا﴾ إن اتبعتهم ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي داخل فيهم ومندرج في جملتهم. وأي ظلم أعظم من ظلم من عرف الحق والباطل؛ ففضل الباطل علىٰ الحق؟.

وهٰذا ـ وإن كان الخطاب ظاهرًا له ﷺ ـ؛ فإن أمته داخلة في ذٰلك بطريق الأولىٰ، وأيضًا فإذا كان هو لو فعل ذٰلك ـ وحاشاه ـ كان ظالمًا مع علو مرتبته، فغيره من سائر الأمة من باب أولىٰ ـ والعياذ باللَّه ـ.

فليعلم المسلم المؤمن أن هٰذا الخطاب بِهٰذا الوعيد لأعلىٰ الناس مرتبةً وأفضلهم عند اللَّه هو أشدُّ وعيدًا لغيره ممن يتبع الهوىٰ بعد استبانة الحق، استرضاءً للناس بمجاراتهم علىٰ ما هم فيه من الباطل، فإنه سبحانه أفرد نبيه ﷺ بالخطاب ـ مع أن المراد به أمته ـ؛ إذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم أو أن يجاريهم علىٰ شيء قد نهاه اللَّه عنه. فلينتبه الغافل ويستيقن أن اتباع أهواء الناس من حاكم أو محكوم ـ ولو لغرض صحيح ـ هو من الظلم العظيم الذي يهدم الإيمان ويردي الناس في مهاوي الباطل، فكأن اللَّه يقول: إن هٰذا العمل جريمةٌ عظيمة لا يتسامح اللَّه فيها مع أحد، حتىٰ لو وقعت من نبيه وحبيبه ﷺ، فكيف لو وقعت من غيره؟.

وإذا كانت جميع أمته ﷺ داخلةً في هٰذا الوعيد الشديد في قوله سبحانه له: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ودخولها من باب أولىٰ، فإن توجه الوعيد هٰذا وفي

سورة «الرعد» ـ أيضًا ـ علىٰ العلماء أشد من توجهه علىٰ غيرهم؛ لأن قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ يدل علىٰ ذٰلك.

وينبغي أن يفهم أن أكثر الأمة الإسلامية علماء فيما يتعلق بالعقيدة وأصول الإيمان، والغالب علماء فيما سوىٰ ذٰلك، لأنك لو خاصمت الذي يدعي أنه عامي ـ لا عالم ـ بأقل شيء في الحكمة، لأبشعك في الحجة وأبشع القضاة، ولٰكنهم يتهربون من المسؤولية باسم «العامية»! وهٰذا لا يجوز؛ فاللَّه العليم بذات الصدور يعلم أنهم يعرفون المنكر، أنه منكر واضح، فكيف يسكتون عن إنكاره ويُلقون بالتبعة علىٰ غيرهم؟! هٰذا تنصُّل لا يجوز، بل هٰذا تمويه علىٰ اللَّه، ثم إن الدين الإسلامي ليس فيه ما يسمىٰ «رجال دين» كالمذهب الكنسي النصراني وغيره مما احتكره الطواغيت، فالإسلام علىٰ العكس ليس محتكَرًا عند أحد، وجميع المسلمين رجال دين، وكلهم مسؤولون أمام اللَّه، وأما ما اخترعه بعض الحكام السابقين من تكوين علماء مخصوصين بألقاب، فهٰذا لأغراض نفسية أو سياسية، وقد يكون في غيرهم من هو أعلم منهم أضعافَ المرات، ولٰكنها المقاصد، أو عدم الحرص علىٰ التمحيص، فلا عبرة بذٰلك في الدين، بل المسؤولية أمام اللَّه يشترك بها الجميع، وقاصمةُ الظهر قوله ﷺ: «**إنما الأعمالُ بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوىٰ**»[1].

فالمقاصد المنبعثة من القلوب هي الميزان في جزاء اللَّه علىٰ كل فعل أو ترك؛ بل علىٰ كل حركة وسكون، واللَّه لا تخفىٰ عليه خافية، ولا ينطلي عليه التلبيس.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾:

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

ذكر اللَّه في الآية (١٤٤) أن أهل الكتاب يعلمون الحق في أمر القبلة، وأن محمدًا ﷺ صادقٌ فيما أخبر عن تحويلها، ولٰكنهم يجحدون ويمكرون لاستعذابهم الباطل وتفضيله علىٰ الحق حسدًا وبغيًا.

ثم إنه سبحانه في هٰذه الآية أخبرنا عن الأصل، وعن العلة في ذٰلك العلم وذٰلك الإنكار، وهو أنه قد تقرر عندهم، وعرفوا الحق في صدق رسالة محمد، وصدق ما جاء به معرفةً يقينيةً، وذٰلك مما وجدوه في كتبهم من البشارة به وأوصافه، وأنه من بني إسماعيل من العرب ليس منهم، وأن قبلته الكعبة، فهم يعرفونه تمامًا بالنعوت والأوصاف التي في التوراة، وبما شاهدوه من ظهور آياته وآثار هدايته، فمعرفتهم وصلت في اليقين إلىٰ حد معرفة أبنائهم الذين تولوا تربيتهم، وهل يوجد شيء أعرف إلىٰ الشخص من أبنائه؟ بل هل يشك أحد في معرفة أبنائه الذين هم تحت رعايته وبين يديه؟ هٰذا لا يمكن، فاللَّه العليم الخبير حكم عليهم وأخبرنا بحكمه أنهم يعرفون الحق محمدًا ﷺ وما جاء به من كل شيء، كما يعرفون أبناءهم.

وقد قال عبداللَّه بن سلَام رضي الله عنه ـ وكان من علماء اليهود وأحبارهم ـ: «أنا أعلم به من ابني[1]. فقال له عمر رضي الله عنه: لم؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل أمه خانت».

وقد اعترف غيره ممن هداه اللَّه من أحبارهم، وكذٰلك تميم الداري من علماء النصارىٰ اعترف بأنهم عرفوه ﷺ معرفةً لا يتطرق إليها الشك، وذٰلك أن معرفة أهل الكتاب بنبينا محمد ﷺ ليست مقصورةً علىٰ ما ورد في التوراة من ذكره وأوصافه، بل انضاف إلىٰ ذٰلك ظهورُ المعجزة علىٰ يديه مما يُعتبر العلمُ به والمعرفةُ أقوىٰ من معرفة الأبناء وأبوة الآباء.

فقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ المراد به تشبيه العلم بأشخاص

---

(١) الطبري (٢/١٦٣).

الأبناء وذواتهم، فكما أن الأب يعرف شخص ابنه معرفةً لا يشتبه معها بغيره، فكذا هاهنا، وعند هٰذا يستقيم التشبيه، فليس المراد أن العلم بنبوة محمد ﷺ كالعلم ببنوة الأبناء علىٰ الحقيقة؛ لأن نبوته ﷺ متيقنة وبنوة الأبناء ليست متيقنة، وإنما المراد بتشبيه الأشخاص. وقد خص اللّه الأبناء بالذكر؛ لأن الذكور أعرف وأشهر، وهم بصحبة الآباء ألزم، وبقلوبهم ألصق.

أما قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فالمراد به أكثرهم؛ لأن المؤمن منهم قليل جدًّا، والباقون علىٰ كفرهم هم الأكثرية الساحقة، فأكثرهم اتصف بكتمان الحق والكفر به، ودل بقوله: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ علىٰ الذم؛ لأن كتمان الحق في الدين محظور إذا أمكن إظهاره.

ولا شك أن كتمان الحق من نبوة محمد ﷺ وما جاء به جريمة من أعظم الجرائم؛ خصوصًا صدورها من أهل الكتاب الذين عندهم شهادة به من اللّه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وفي ضمن هٰذا تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين، وتحذير له وللمؤمنين من شرهم ومكرهم وشبهاتهم.

ويستدل من هٰذه الآية علىٰ أن العالم يجب عليه ـ حتمًا ـ إظهار العلم والحق، وتبيينه وتزيينه للناس بكل ما يقدر عليه من حسن عبارة وإلقاء برهان ونفي شبهة، والقيام بإبطال الباطل وتزييفه وتمييزه عن الحق، وتقبيحه وتشيينه وتنفير الناس منه بكل عبارة وأسلوب مؤدٍّ إلىٰ ذٰلك. وسيأتي أعظم الوعيد علىٰ من كتم شيئًا من العلم في الآيتين (١٥٩) و(١٧٤) كما سيأتي ـ إن شاء اللّه عن قريب ـ.

وفي الحديث الصحيح ما معناه: «**مَن كتم علمًا يعلمُه؛ ألجمه اللّه بلجامٍ من نار**»[١].

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٣٦٢٤).

وقوله ﷻ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة] يعني: الحق الذي أنت عليه ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾ من اللَّه ـ لا من غيره ـ، فالألف واللام للجنس، يعني ما أنت عليه من ربك هو الحق، وما عليه غيرك من أهل الكتاب فهو الباطل. وقيل: إن الألف واللام للعهد إشارةً إلىٰ الحق الذي عليه رسول اللَّه ﷺ، أو الحق الذي كتمه أهل الكتاب، وهو قولٌ وجيه لا يقل عن سابقه.

وقوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، الامتراء والشك والتردد متقاربة المعنىٰ، وهي تَعرِضُ لمن لا يعرفون الحق، فأما الذين يعرفون الحق كمحمد ﷺ والمؤمنين فلا يلتفتون إلىٰ أوهام هٰؤلاء الجاحدين، ولا يعتريهم الامتراء لما استيقنوه من الحق الذي هم عليه، المشتمل علىٰ المطالب العالية والأوامر الحسنة وتزكية النفوس.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ النهي في هٰذه الآية كالوعيد في الآية السابقة، وجه اللَّه الخطاب بها إلىٰ محمد ﷺ، والمراد أمته من كان منهم غير راسخ في الإيمان أن لا يغتر بمظاهر المخادعين ولا يحصل له أدنىٰ شك أو ريبة.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾:

يعني أن أهل كل ملة له وجهةٌ يتوجه إليها في عبادته، فلم تكن جهة من الجهات قبلةً للجميع تعتبر ركنًا، كالتوحيد والإيمان بالبعث، فإبراهيم وإسماعيل قبلتهما الكعبة، وبنو إسرائيل يستقبلون صخرة بيت المقدس، ثم خالفهم النصارىٰ فاستقبلوا المشرق، وكان الأنبياء المتقدمون يستقبلون جهات أخرىٰ، فإذا كان الأمر كذٰلك، لم تكن جهةٌ معينة ركنًا ثابتًا في الأديان؛ فأي شبهة عقلية أو دينية يتشبث بها المشاغبون في أمر القبلة؟ وأي وجهٍ لما أظهروه من نشاطهم في الدجل والأراجيف؟ وأي وجه لما زجُّوا فيه أنفسهم من الطعن في النبوة

والتشريع؟ ما دامت كل ملة لها قبلةٌ وتتوجه إليها وحدها، فليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بحسب الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ، وإنما الشأن كل الشأن في امتثال أمر اللّٰه والتقرب إليه بطاعته، فإذا كانت مسألة القبلة المعينة ليست من أصول الدين ولا من جوهره ولبابه، بل هي من الفروع التي تتغير حسبما شاء اللّٰه، فالواجب فيها الاتباع المحض والتسليم الكامل لأمر اللّٰه، وإن لم تظهر حكمة تخصيصها للناس، فكيف وقد ظهرت الحكمة بحمد اللّٰه؟ ولذا قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، يعني: ابتدروا كل نوع من أنواع الخير بسرعةِ فعله، وليحرص كل واحد منكم علىٰ مسابقة غيره فيه وفق متابعة الشريعة لا متابعة الهوىٰ، وهٰذا الأمر عام موجه إلىٰ جميع أمة الدعوة ـ ليس لأمة الإجابة فقط ـ، فهو سبحانه يخبرهم أن العبرة بالمسابقة إلىٰ الخيرات والتقرب إلىٰ اللّٰه فيها وطلب الزلفىٰ عنده، فإن هٰذا هو عنوان السعادة وطريق الولاية للّٰه، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة العامة في الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي السعيدة الرابحة المفلحة.

وهٰذا أمر متفقٌ عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق اللّٰه الخلق من أجله، وأمرهم به، فلهٰذا كان الأمر في هٰذه الآية عامًّا لجميع أمة محمد ﷺ، أمة الدعوة ـ لا أمة الإجابة ـ كما مضىٰ.

واعلم أن الأمر «بالاستباق» إلىٰ الخيرات قدر زائد علىٰ الأمر «بفعل» الخيرات، ذٰلك أن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها وإيقاعها علىٰ أحسن الأحوال وأكملها والمبادرةَ إليها، وكل من سبق في هٰذه الدار الدنيا إلىٰ الخيرات يكون السابق في الآخرة إلىٰ الجنات، والحائز علىٰ ما يصبو إليه فيها من الدرجات. فالسابقون هم أعلىٰ الخلق درجة، والخيرات بعمومها تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وزكاة وصدقة وحج وجهاد ونصح للّٰه في الدعوة إلىٰ دينه، وتوزيع وحيه المبارك.

ولما كان أقوىٰ ما يحث النفوس علىٰ المسارعة إلىٰ الخير وينشطها علىٰ المسابقة فيه هو ما رتبه اللَّه في الثواب عليها قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعكم ليوم القيامة، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]؛ إذ اللَّه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه جميع الناس مهما تفرقوا وتباعدوا وتشتتت أجزاؤهم، فإعادتهم بقدرته أهون عليه من نشأتهم الأولىٰ، فيا لها من آية جامعة نافعة.

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٤٩﴾:

يعني: من أي مكان خرجت، وفي أي بقعة حللت في مراحل أسفارك فاتجه في صلاتك نحو المسجد الحرام، يعني الكعبة، وهٰذا للعموم، وقد سبق أن المتنفل في السفر يصلي حيث توجهت به راحلته، وذٰلك في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وأن المخطئ للقبلة في السفر تجزيه صلاته أينما اتجه.

وقد أعاد الأمر هنا في صورة أخرىٰ ليبين لنا أنه شريعة عامة في كل زمان ومكان، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، لا يختص ذٰلك ببلاد دون بلاد، ولا بحضر دون سفر. وقد كان الأمر بتحويل القبلة نزل علىٰ النبي ﷺ، فأعلمه ـ بصيغة الأمر ـ أنه ليس خاصًّا بتلك الصلاة ولا بذٰلك المكان؛ بل عليه أن يفعل ذٰلك من حيث خرج وأين توجه.

ومن مزايا هٰذه القبلة المباركة: أن أصحابها يصلون إلىٰ جميع الجهات بتوليهم إياها في جميع أقطار الأرض المختلفة.

وقد وثق اللَّه الأمر وأكده بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لئلا يقع لأحد فيه أي شبهة، ولئلا يظن أنه علىٰ سبيل التشهي لا علىٰ سبيل الامتثال، يعني وإنَّ تولِّيَك شطر الكعبة لهو الحق المحكم من ربك الذي لا

يعتريه ريب ولا نسخ. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، يعني أنكم ـ أيها المخاطبون باتباع النبي ﷺ في كل ما يجيء به من أمر الدين ـ تحت نظر اللّٰه دائمًا، فهو لا يغفل عن أعمالكم، بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فاتقوه حق تقاته، وراقبوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، وإياكم في مخالفة أمره، فإن المخالف لأمره علىٰ خطر عظيم.

وفي آخر الآية التفات من مخاطبة النبي ﷺ إلىٰ مخاطبة جميع المسلمين المكلفين بما فيه من التعريض والتهديد للمنافقين، وعلىٰ قراءة أبي عمرو البصري: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء، يعود الخطاب إلىٰ أولٰئك المجادلين في القبلة، كأنه يقول لنبيه: «لا يحزنك أمرهم، فاللّٰه سبحانه ليس بغافل عنهم، بل يتولىٰ جزاءهم علىٰ فسادهم وفتنتهم».

📖 **ثم قال** ﷻ: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾:

ابتدأ اللّٰه ﷻ هٰذه الآية بصيغة الأمر الوارد فيما قبلها، وقرن بها صيغة الأمر السابقة، كما جمع فيها بين خطابه لرسوله ﷺ وخطابه لجميع المكلفين، ليترتب علىٰ ذٰلك التعليل وبيان الحكم له، وهي ثلاث:

الأولى: قوله سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، فليس هٰذا الجمع والإعادة لمجرد التأكيد، وإنما هو تمهيد للعلة وتوطئة لبيان الحِكَم الموصولة به، وهو أسلوب معهود عند البلغاء.

والمراد بـ«الناس» هنا هم المشاغبون المحاجون في أمر القبلة المعروفون؛ وهم أهل الكتاب والمنافقون والمشركون. ووجه انتفاء

حجتهم عنه هو أن أهل الكتاب يعرفون من كتبهم أن قبلته الحقيقية هي الكعبة، فجعل بيت المقدس قبلةً دائمة له تكون حجة لهم علىٰ أنه ليس ذٰلك النبي المذكور المبشر به في التوراة؛ لمخالفته القبلةَ المنصوص عليها فيها، وإنما هو دجال ـ والعياذ باللَّه ـ، أو نبي غيره، فلما جرىٰ التحويل عرفوا أنه الحق من ربهم.

وأما المشركون، فإنهم كانوا يرون أن نبيًّا جاء من ولد إبراهيم لإحياء ملته، لا ينبغي له أن يستقبل غير بيت ربه الذي بناه إبراهيم وإسماعيل وتوجها إليه في صلاتهم، فلما جاء التحويل للقبلة إلىٰ هٰذا البيت الحرام دحضت حجتهم، ثم دحضت شبهات المنافقين من ورائهم، فلم يبق لأحد حجةٌ عليه وعلىٰ المؤمنين، لا من اليهود ولا من المشركين والمنافقين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، ولم يقتنعوا بالحجة ظاهرًا، وإلَّا فكأنهم في قرارة أنفسهم مدحوضون مغلوبون، لٰكن لابد من حصول مغالطة من بعض الظلمة يظهرونها ليبرِّدوا الحرارة التي في نفوسهم، ولئلا يعترفوا بالهزيمة، فإن كل رجل لئيم يسلك مسلك المغالطة لتغطية هزيمته، بخلاف الكريم الشجاع، فإنه يعترف بالهزيمة ويستعد لها، وأما اللؤماء والدجاجلة المضللون للناس فهم يحاولون بكل جهدهم تغطية الهزيمة وتسميتها بأسماء شتىٰ، أو قلبها نصرًا وهميًّا، ليلعبوا علىٰ الجماهير التي لا عقل لها ـ كما هو المقرر ـ، فيوجد من أجناس هٰؤلاء من يقول: إنه رجع إلىٰ قبلة قومه لإرضائهم، وسيرجع إلىٰ دينهم، ويقول المشركون: هٰكذا رجع إلىٰ قبلتنا، وسيرجع إلىٰ ديننا، ويقول المنافقون: إنه مضطرب متردد لا يثبت علىٰ قبلة.

وأمثال هٰذه الأقوال المزيفة من أهل الأهواء حسدًا وعنادًا لا قيمة لها، ما دام البرهان بضدها، وما دام الدليل قامعًا لرؤوس أهلها، فإنه لابد أن يبقىٰ فيهم لفيف علىٰ سفاهته يتجاهل الدليل والبرهان، فلذٰلك قال اللَّه سبحانه ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾، حيث لا مرجع لكلامهم من

الحق، فلا يتمكن في النفوس أبدًا لعدم استناده إلىٰ برهان عقلي أو هداية سماوية، ﴿وَ﴾ لٰكن ﴿اخْشَوْني﴾ أنا، فلا تعصوني بمخالفة ما جاءكم به رسولي عني، فإنني القاهر القادر علىٰ جزائكم بما وعدتكم وبما أوعدتكم، فخشية اللَّه رأس كل خير؛ لأن من لم يخشَ اللَّه لم ينكف عن معاصيه، ولم يبتعد عن مشابهة أعدائه والتلقي منهم خشيةً منهم؛ لأن من زالت منه خشية اللَّه ابتلي بخشية المخلوقين.

وهٰذه الآية الكريمة ترشدنا ـ بكل جلاء ووضوح ـ إلىٰ أن صاحب الحق هو المرهوب الذي يُخشىٰ جانبه، وأن المبطل لا ينبغي أن يخشىٰ؛ لأن المبطل مخذول كباطله، زاهق[1] ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، وأن الحق يعلو ولا يعلىٰ عليه. وما آفةُ الحق إلَّا ترك أهله له وتخاذلهم لانصياعهم لتخويف الشيطان، واللَّه يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

ولو أن أهل الحق استعانوا باللَّه استعانةً صادقةً ـ بعد تحقيقهم لطاعته في الأخذ بالمقدور من الأسباب ـ، وتوكلوا علىٰ اللَّه فيما عجزوا عن تحصيلها توكلًا صحيحًا، واستغاثوا به استغاثةً صادقةً ـ كاستغاثة يوم بدر ـ، وأخلصوا مقاصدهم للَّه؛ لم يغلبهم غالبٌ ـ مهما بلغ من القوة ـ؛ لأن اللَّه معهم إذا أخلصوا المقاصد وصدقوا بالاستعانة باللَّه، وامتثلوا أمره بالاستعانة بالصبر والصلاة ـ كما سيأتي ـ.

ومن تأمل تكرار الآيات القاضية بالأمر باستقبال القبلة وجد أن لكل آية معنًىٰ مخالفًا للآخر، فالآية الأولىٰ جاءت لتلبية رغبة الرسول ﷺ وتقليب وجهه في السماء، والآية الثانية جاءت لتقرير أن هٰذا التحويل هو الحق من اللَّه لا لمجرد الهوىٰ والاتجاه، وهٰذه الآية الثالثة جاءت لقطع حجة الناس من يهود وغيرهم، كما جاءت ـ أيضًا ـ لإبلاغ الأمة بإتمام النعمة عليهم في ذٰلك، حيث ختمها بقوله سبحانه: ﴿وَلِأُتِمَّ

---

(١) **الزهوق**: الذهاب.

﴿نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ باستقلالكم في الاتجاه عن غيركم، ذٰلك الاستقلال العظيم الذي حسدكم عليه اليهود، فقاموا بكل ما استطاعوا من أنواع الدجل والأراجيف، فهي نعمة عظيمة يجب أن نرعاها وأن نعرف مغزاها، لنكون من المهتدين هدايةً صحيحةً تامةً.

ولذا أكمل اللَّه ختام الآية بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، يعني وليعلِّمكم ويُمدكم بذٰلك إلىٰ الاهتداء بالثبات علىٰ الحق والرسوخ فيه، وذٰلك لأن المقلد لغيره والمحاكي لغيره لا يكون مهتديًا، فينبغي أن تَهتدوا لحقيقة دينكم الكامنة وراء هٰذا التحويل في الاتجاه عن قبلة اليهود، فإن تحويل الاتجاه الحسي في القبلة يدل بطريق الأولىٰ علىٰ تحويل كل اتجاه معنوي نلتقي به مع اليهود أو غيرهم من الكافرين، في أي شأن من شؤون الحياة؛ فإن هٰذا التمييز والتخصيص من اللَّه لنا في الاتجاه الحسي يوجب علينا أن نتميز عنهم في كل شأن وفي كل ميدان، فلا نلتقي معهم ولا مع غيرهم في الثقافة، ولا في أنظمة الاقتصاد وتشريعاته، ولا في المجال السياسي أو الاجتماعي، بل يكون لنا في كل شيء من ذٰلك منهج خاص مخالف لهم تمام المخالفة، ومستقل عنهم تمام الاستقلال، منهج منبثق من عقيدتنا ومستمد من وحي ربنا ﷻ، وإلَّا فما قيمة تحويل الاتجاه الحسي للقبلة إذا التقينا مع أحد من الكفار في بعض المناهج الثقافية، واستوردنا منهم مذهب «لامارك وداروِن» أو مذهب «فرويد ودوركيم» وغيرهم في علم النفس أو الاجتماع، كان وحي اللَّه الذي أكرمنا به مفلس من ذٰلك؟.

إن استيراد شيء من نظريات الكفرة ومبادئهم لا يعمله إلَّا الذي لا يرىٰ كفايةَ وحي اللَّه، أو من هو جاهلٌ مركب عديم الاحساس ـ والعياذ باللَّه ـ، ثم ما قيمة مخالفتنا لهم في القبلة إذا وافقناهم في الميدان الاقتصادي علىٰ أنظمة البنوك وغيرها مما يبيح الربا ويدين به قانونيًّا؟ وكذٰلك ما قيمة مخالفتنا لهم في القبلة إذا التقينا بهم واتفقنا معهم

في الشؤون الاجتماعية أو بعضها؛ من المسارح، والمراقص، والأفلام الخليعة، والبلاجات العارية، والفَسْح للبغاء، وإباحة الزنا حالة الرضا، وتشريع الأنظمة الديوثية المعفية للزناة من إقامة حدود اللّٰه؟!.

يجب علىٰ المسلمين أن يكونوا وعاةً لحكمته ومقاصده العظيمة من كل تشريع، فإن اللّٰه العليم الحكيم الذي أكرمنا بتمييزنا عن اليهود تمييزًا حسيًّا بتحويلنا عن قبلتهم، واستقلالنا بقبلة خاصة؛ يريد منا أن نتميز عنهم تميُّزًا معنويًّا بمخالفتنا لهم في جميع شؤون الحياة وعلىٰ مدىٰ الخطوط، فلا نلتقي معهم ـ ولا مع غيرهم من الكفار ـ في الميدان السياسي التقاءً يخالف عقيدتنا ويعاكس وحي ربنا، ولا في الميدان الثقافي ـ كما أسلفناه ـ، ولا في الميدان الاقتصادي أو الاجتماعي وغيرها؛ لأن الالتقاء مع الكفار، واستيراد الأنظمة منهم، أو تقليدهم فيما يفعلون: خطر عظيم علىٰ الدين، إما في أصل العقيدة مما يهدم ملة إبراهيم ودين سيد المرسلين ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وإما فيما يجرُّ إلىٰ الردة عن الإسلام من إباحة ما حرم اللّٰه من الخمور والربا والزنا ونحو ذٰلك؛ فلقد أجمع علماء الأمة علىٰ أن من استحل أدنىٰ شيء مما حرمه اللّٰه كان كافرًا يجب قتاله، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران].

ولا شك أن الانصياع إلىٰ شيء من تقاليدهم، واستحباب شيء من أنظمتهم يجر إلىٰ الكفر والردة، مع أن فيه هزيمةً عقليةً ومركب نقص لا يقبله ذوو الاستقلال الفكري. فلنتعظ ونعتبر ولا نضيع حكمة اللّٰه، ولا نبدل نعمته في استقلالنا الحسي والمعنوي الذي أكرمنا اللّٰه به، ولِهٰذا فقد ذكرنا بنعمته العظيمة علىٰ ذٰلك حيث قال في الآية (١٥١) و(١٥٢):

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾:

يعني: أن إنعامنا عليكم بتحويل القبلة إلىٰ الكعبة وما يستلزمه من تحويلكم عنهم بكل اتجاه وتقليد، ليس ذٰلك بأول إحساننا عليكم، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم وأعظمها وهي الرسالة، حيث اخترنا الرسالة منكم واصطفيناكم لها، فأرسلنا إليكم رسولًا كريمًا منكم ليس من غيركم، ولو كان من غيركم لشق عليكم ذٰلك، ولٰكن أكرمناكم بجعله رسولًا منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته ونصحه وكماله، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال؛ تلك الآيات التي دلتكم أولًا علىٰ توحيد اللَّه وكماله، ثم علىٰ صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم علىٰ جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتىٰ حصل لكم الهداية التامة. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يعني: يطهر نفوسكم من الشرك، ويربيها علىٰ الأخلاق الجميلة، ويرتفع بها عن الأخلاق الرذيلة، فتزكية نفوسكم من الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الكذب إلىٰ الصدق، ومن الخيانة إلىٰ الأمانة، ومن الكبر إلىٰ التواضع، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلىٰ المحبة والتواصل والتوادد، وغير ذٰلك من أنواع التزكية؛ هي نعمة عظيمة ما كان لكم تحصيلها لولا هٰذا النبي الكريم الذي هو أعظم نعمة من اللَّه عليكم، ومن حسناته عليكم ـ بإذن اللَّه ـ أنه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعلمكم القرآن ألفاظه ومعانيه، ويعلمكم الحكمة التي هي معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

أما تعليمه السنة فهي داخلة في تعليم القرآن؛ لأنها الوحي الثاني، ولأنها تبين القرآن وتفسره، وتوضح ما أجمله اللَّه فيه وما أطلقه،

وتخصص منه بعض عموماته، وتزيد علىٰ ذٰلك من فروعيات التشريع التي دعا إلىٰ أصلها، وذٰلك أن القرآن دعا إلىٰ التوحيد وأمهات الفضائل، وشرع أصول الأحكام، ولٰكنه لم يفصِّل نظام البيوت والعائلات، ولم يفصل طرق الأحكام القضائية والمدنية والحربية، ولم يتطرق لسيرة الرؤساء مع المرؤوسين؛ فهٰذه الأمور يجب أن تؤخذ بالأسوة به ﷺ، والعمل بأقواله، واقتفاء أحواله، ولذٰلك كانت السنة المطهرة هي المبينة لذٰلك بالتفصيل من سيرة النبي ﷺ في بيوته ومع أصحابه، في السِّلم والحرب، والسفر والإقامة، وفي حال الضعف والقوة، والقلة والكثرة؛ فالسنة العملية والقولية هي المبينة للقرآن بتفصيل مجمله، وبيان مبهمه، وتقييد مطلقه، وإظهار ما في أحكامه من الأسرار والمنافع، ولهٰذا أطلق عليها لفظ «الحكمة». ولولا هٰذه التربية العملية لما كان الإرشاد القولي كافيًا في انتقال الأمة العربية من طور الشتات والفرقة، والعداء والجهل والأمية؛ إلىٰ الائتلاف والاتحاد والتحابب والتآخي والعلم وسياسة الأمم، فالسنة المطهرة هي التي علمتهم كيف يهتدون بالقرآن، ومرَّنتهم علىٰ العدل والاعتدال في جميع أحوالهم.

وفي قوله تعالىٰ عن رسوله إليهم ﷺ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه زيادةً علىٰ الحكمة مما لا سبيل لكم إلىٰ معرفته بالفكر والنظر، وإنما هو بالوحي. وقد كرر الفعل ليدل علىٰ أن هٰذا التعليم جنس آخر كأخبار الغيب من أحوال الأمم التي ما كانوا يعلمونها، بل ولم يكن يعلمها محمد ﷺ، وسيرة الأنبياء وما جرىٰ لهم مع أممهم وأخبار ملك سليمان، وغير ذٰلك مما كان مجهولًا حتىٰ عند أهل الكتاب، كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

وقد تقدم في دعاء إبراهيم ذكر تعليم الكتاب والحكمة مقدمًا علىٰ التزكية، وفي هٰذه الآية مؤخرًا، والنكتة في ذٰلك أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لاحظ

في دعوته الطريق الطبيعي، وهو أن التعليم يكون أولًا، ثم تكون التزكية كالثمرة له والنتيجة، وهاهنا ذكر الترتيب بحسب الوجود والوقوع، ذٰلك أن أول شيء فعله النبي ﷺ هو الدعوة إلىٰ الإيمان واقتلاع الشرك من القلوب؛ بما تلا عليهم من آيات اللّٰه ودلائل توحيده، وإلىٰ الاعتقاد باليوم الآخر بتركيز عقلي بديع، وكل من آمن به كان يقتدي بأفعاله ويتخلق بأخلاقه ﷺ، ولم يكن في بادئ الأمر أحكام ثم شرعت الأحكام في الأخير، فالتزكية حصلت لهم بالتأسي به؛ بحيث صفت نفوسهم للّٰه، وانطبعوا انطباعًا كاملًا بدينه، علىٰ أن التزكية التي حصلت لهم نوعان:

ـ تزكية روحية معنوية ـ وهي التي تكلمنا عنها ـ.

ـ وتزكية حسية، وهي نماؤهم وكثرتهم وقوتهم بسبب كثرة أتباعهم عن حب ورغبة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾، يعني اذكروني ذكرًا صحيحًا من أعماق قلوبكم، اذكروني ذكر المربوب العارف؛ المقدِّر لربه، المعظِّم له، واذكروني ذكر المحب لحبيبه علىٰ ما حبوتكم به من النعم، واصطفيتكم لرسالتي من بين الأمم، وأنعمت عليكم بالدين السمح الميسر، وجعلت رسولكم منكم، يعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم، وأتممت عليكم نعمتي، باستقلال اتجاهكم عن اليهود، وتميزكم عمن سواكم، واجتبيتكم للجهاد الديني في سبيلي لاستلام القيادة العالمية ورفعة مجدكم بين الأمم، ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بقلوبكم وألسنتكم والتوجُّه إليَّ بجميع جوارحكم، ولا تنسَوا أنني أنا المتفضل عليهم بجميع ذٰلك، فإنه بصدقكم في ذكري ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ في الملأ الأعلىٰ، وأديم نعمتي عليكم وأزيدها بالنصر والتمكين؛ لأن الذكر الصحيح رأس الشكر الموجب لزيادة النعم وتوفر السعادة وقوة السلطان، ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بألسنتكم، وتلذذوا بذكر أسمائي الحسنىٰ، والتحدث بنعمي التي لا تحصىٰ، والثناء عليَّ بها دومًا في السر والإعلان.

ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**يقول اللّه عز وجل: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منه، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً**»(١).

وهٰذه أفضل تربيةٍ من اللّه لعباده، فكأنه يقول: إنني أعاملكم بأفضل مما تعاملونني به، وهو الرب ونحن العبيد، وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه، إذا ذكرناه زادنا ذكرًا وزادنا فضلًا ونعمةً.

ثم إنه سبحانه ـ بعد أن علمهم ما يحفظ عليهم النعم ـ، أرشدهم إلىٰ ما يزيدها بجوده وكرمه؛ فقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، يعني اشكروا هٰذه النعم العظيمة التي تفضلتُ عليكم بها، والتي من أعظمها نعمة الرسالة والهداية التي إن تمسكتم بها حصلت لكم القيادة والسيادة العالمية، وعظم شأنكم ومجدكم. اشكروني شكرًا عمليًّا بحسن التصرف بِهٰذه النعم العظيمة، وذٰلك باستعمال كل حاسة من أحاسيسكم، وكل جارحة من جوارحكم بذكري وتنفيذ أوامري، وتوزيع هدايتي، وبذل النفس والنفيس في حمل رسالتي؛ فإن الشكر ـ كما تقدم تفصيله أول التفسير ـ يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح جميعها والأحاسيس، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ].

فمن تراخىٰ في أوامر اللّه؛ لم يكن عبدًا شكورًا، ومن استهان بحرمات اللّه فأقدم علىٰ ما يريده من منهيات اللّه؛ لم يكن عبدًا شكورًا، ومن جبُن عن حمل الرسالة، أو شحَّ بمال اللّه في توزيع الهداية؛ لم يكن عبدًا شكورًا، فالشكر يحصل فيه بقاء النعم الموجودة والمزيد منها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولما كان الشكر ضده الكفر؛ نهانا عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾،

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

والمراد بالكفر هنا ما يقابل الشكر، وهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، فالإصرار عليه كفرٌ خطير، وفي هٰذا تحذير لهٰذه الأمة مما وقعت فيه الأمم السابقة إذ كفرت بنعم ربها، فحولت الدين عن قُطبه الذي يدور عليه؛ وهو الإخلاص وإسلام الوجه للَّه وحده، والعمل الصالح المصلح للأفراد والجماعات، وعطلت ما أعطاه اللَّه إياها من مواهب المشاعر والعقل والمُلك؛ فلم تستعملها فيما خُلقت له، وهٰكذا انحرفوا بكلٍّ عن أصله، فسلبهم اللَّه ما كان وهبهم، وما ورثوه من خيرات أسلافهم تأديبًا لهم ولغيرهم، ثم رحمهم بأن أرسل إليهم خاتم النبيين ﷺ بهدايةٍ عامة تعرِّفهم سبب تلك العقوبات، وتحذرهم من العودة إلىٰ أسبابها.

وقد امتثل المسلمون هٰذه الأوامر زمنًا قصيرًا فسعدوا، ثم تركوها بالتدريج، فحلت بهم عقوبات اللَّه، كما قاله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]. فإذا عادوا عاد اللَّه عليهم بما كان أعطىٰ سلفهم، وإن بقُوا علىٰ ما هم عليه فلا يزدادون إلَّا شرًّا وشقاءً وتعاسةً بجميع معانيها.

كما قال الشاعر:

شَرٌّ بشرٍّ ومَن يعملْه يَلقْ ومَن ... يزرعْ منَ الشوك لا يحصدْ من العنبِ

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝١٥٣﴾:

يعني: استعينوا علىٰ إقامة دينكم والدفاع عنه، وعلىٰ سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة بالصبر وتوطين النفس علىٰ احتمال المكاره، فالصبر هو حبس النفس وكفها علىٰ ما تكره، وهو ثلاثة أقسام:

ـ صبرها علىٰ طاعة اللَّه حتىٰ تؤديها.

ـ وعن معاصيه حتىٰ تتركها.

ـ وعلىٰ أقداره المؤلمة فلا تتسخطها.

وقد مضىٰ توضيح أركان الصبر في الكلام علىٰ الآية (٤٦).

والصبر نصف الإيمان؛ لأنه ماهية مركبة من صبر وشكر، قاله بعض السلف مستندًا إلىٰ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ].

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ومن استكمل أركان الصبر كانت عاقبته الحصول علىٰ لذة الدنيا والآخرة، والفوز والظفر بما هو موعود فيهما من حصول النصر والسؤدد والتمكين، ونيل المقصود الطيب في الدنيا، والحصول علىٰ العيشة الراضية والغرف العالية في جنان الخلد والنعيم يوم القيامة.

قال ابن القيم ما معناه: لا يصل أحد إلىٰ مقصوده إلَّا علىٰ جسر الصبر، كما لا يصل أحد إلىٰ الجنة إلَّا علىٰ الصراط، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر». وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب في العالم رأيتها كلها منوطةً بالصبر وناشئةً من الصبر، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه لكونه يدخل تحت قدرته وجدته من عدم الصبر، وكذٰلك أكثر أسقام البدن والقلب تنشأ من عدم الصبر، فما حُفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر.

ولو لم يكن فيه إلَّا أن معية اللَّه مع أهله لكفىٰ، فإن اللَّه مع الصابرين، يؤيدهم ويقوِّيهم ويثبتهم ويؤنسهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يكلهم إلىٰ أنفسهم، ويتركهم لطاقاتهم المحدودة ـ ما داموا متوكلين عليه، حاملين لواءه ـ؛ بل يُمدهم حين ينفذ زادهم المعنوي، ويجدد عزائمهم حين يطول بهم الطريق، ولكونه سبحانه يحب الصابرين علىٰ اتباع وحيه وحمل رسالته وتوزيع هدايته؛ ناداهم بنداء الحبيب في هٰذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، وختم النداء بما ذكرنا من التشجيع ووعدهم بالنصر.

نعم؛ إن اللَّه وعد الصابرين بالنصر علىٰ لسان رسوله ﷺ، إذ

يقول: «إن النصرَ مع الصبر»(١)، وأخبر اللَّه المؤمنين أن الصبر خير بجميع معاني العموم الشمولي، بقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]. وأخبرهم ـ أيضًا ـ أنه سبب الفلاح بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]. وكرر اللَّه في القرآن الكريم ذكر الصبر، والأمر به، وحسن نتائجه، وعظيم مثوبته؛ لأنه سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه حمل الرسالة والاستقامة علىٰ الطريق بين شتَّىٰ النزعات والدوافع المختلفة، وضخامة المجهود الذي يقتضيه القيام علىٰ دعوة اللَّه، والدفع بدينه إلىٰ الأمام بين شتىٰ الصراعات الفكرية والدموية، والعقبات الكأداء الناشئة من شتىٰ المذاهب والتقاليد، مما يتطلب أن تبقىٰ النفس مشدودةَ الأعصاب، مجنَّدةَ القوىٰ، مستيقظة للمداخل والمخارج وللمتربصين به الدوائر في عُقر داره.

فلابد من الصبر والمصابرة في هٰذا كله، وصبر المؤمن علىٰ طاعات اللَّه، ثم صبره في كف نفسه عن معاصيه يقويانه علىٰ الصبر في جهاد أعداء اللَّه، وعلىٰ كيدهم والكيد لهم، ثم المصابرة علىٰ بطء النصر والمرابطة لارتجائه، مع الصبر علىٰ ما يكون من بُعد الشُّقَّة والجدال بالباطل، وقلة المعين المناصر، وعلىٰ كثرة الأشواك الشائكة التي تعترض القائم بِهٰذه المهمة، والسالك فيها من الإعراض والمعاندة والشهوات الانتهازية، وكل هٰذا مع قوة ثقة الصابر بربه الذي أخلص له العمل وجاهد نفسه في ذاته.

ولئلا يضعف الصبر بطول المدة وكثرة المشقة، أرشد اللَّه عباده إلىٰ الزاد والمدد الروحي العظيم، فقرن الصلاة إلىٰ الصبر، وقال: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، فهي المدد الروحي الذي لا ينقطع، والزاد المعنوي الذي لا ينضب ولا ينفد، فيها يزداد القلب قوةً ولذةً وسرورًا ومحبةً للَّه، يستسهل بها الصعاب، ويقرب عليه بها البعيد، فتتجدد

---

(١) تقدم تخريجه، وهو بعض روايات حديث: «**احفظ اللَّه يحفظك**».

طاقات المؤمنين، ويمتد حبل صبرهم، وتكسبهم هٰذه الصلاة كمال الرضا والثقة واليقين؛ إذ هي صلة بالله يحصل لهم بها الاستعانة بالقوة الكبرىٰ التي لا يغلبها غالب، يستمدون منها العون حين يبلغ بهم الجهد ذروته، كما في يوم الخندق وحُنين، وغيرهما من كل محنة تتظافر بها قوىٰ الشر الباطنة والظاهرة.

وحينما تبلغ القلوب منهم الحناجر؛ يجدون قيمة الصلاة الخاشعة الحقيقية وحسن تأثيرها وبركة نتائجها، فهي الصلة المباشرة بين الإنسان العاجز الفاني والقوة الربانية الباقية، وهي الوعد المختار لاتصال الحبيب بحبيبه، والتقاء القطرة المنعزلة من القوة الضعيفة بالنبع القوي الذي لا يغيض، فهي مفتاح كنز السعادة الذي يغني في الدارين، وببركة إقامتها للّه تحصل الانطلاقة من الحدود الضيقة الصغيرة إلىٰ المجال الكوني الكبير الواسع، كما حصل للصحابة والتابعين، فهي الروح والراحة من اللّه، كما كان الرسول ﷺ يقول: «**أرِحْنا ـ يا بلال ـ بالصلاة**»(١).

وكما كان يكثر منها إذا حَزَبه أمر ليكثر من الاتصال باللّه معنويًا وروحيًا فهي زاد الطريق، ومدد الروح، وجلاء القلب، وخير المعونة علىٰ أداء الصبر وقوة الجلد في الكفاح، وهي مفتاح التذوق لحلاوة كل عبادة، ومن أصدق من اللّه قيلًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وذٰلك التذوق لا ينفتح ويحلو إلَّا للمؤمن الذي انفتح قلبه وانشرح صدره لذكر اللّه وما نزل من الحق، وامتلأ من حب اللّه وتعظيمه وخشيته ومراقبته، واستشعار كماله وجماله ومعروفه وإحسانه ودقة علمه، وإحاطته بالجليات والخفيات. فهٰذا هو الذي يتلذذ بحلاوة العبادة والصلاة، ويحصل له الفرح واليسر والبشاشة، فتهون عليه جميع التكاليف الإلٰهية، ويتقبلها مسرورًا بسبب إقامته

---

(١) تقدم تخريجه.

للصلاة إقامة صحيحة؛ ولذا كان كل عابد للَّه مطلوبًا منه أن يأمر أهله بالصلاة من ذكور وإناث، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وقال ﷺ: «**مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سَبْع، واضربوهم علىٰ تركها بعشر...**»[(١)]؛ إذ بها يحصل الإعداد للتقوىٰ، وتقبُّل التكاليف، وحمل أعباء الرسالة، والقيام بواجب خلافة اللَّه في الأرض.

ولذا جعل اللَّه قيام الليل وتلاوة القرآن فيه مفتاحًا للقلوب ومدفعةً للجوارح علىٰ ذٰلك؛ إذ يقول لنبيه ﷺ: ﴿قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل]. وكلما ازدادت همة الإنسان بذٰلك وقوي عليه؛ كان أقوىٰ من غيره في القيام بالواجب أجمع.

هٰذا وقد أظهر الطبُّ الحديث فائدةً عظيمةً للصلاة، هي أن الدماغ ينتفع انتفاعا كبيرًا بالصلاة ذات الخشوع، كما قرر ذٰلك فطاحل الأطباء في هٰذا العصر، وهٰذا من بعض الأدلة التي يتبين لنا بها سببُ قوة تفكير الصحابة الكرام، وسلامة عقولهم، ونفوذ بصيرتهم، وقوة جنانهم، وصلابة عودهم، الذي كانوا به مُعجزةً في الأرض بين الأمم، بحيث لم يَخلُفْهم مثلهم إلَّا القليل النادر.

ولا شك أن الذين يتجهون بكل حب وتعظيم إلىٰ القوة المطلقة؛ إلىٰ ذي الحول والطول جَلَّ وَعَلَا، ويَحنُون ظهورهم له ـ لا لغيره من البشر ـ أبدًا، ويخرُّون للأذقان سجدًا لعزته، وخضوعًا لسلطانه، وشكرًا لنعمته وإحسانه، ويتصلون به في أوقاتٍ معينة من الليل والنهار؛ يكونون موصولي السبب بجنابه العظيم، فيستمدون منه جميع قواهم، وتستنير عقولهم، وتصح قلوبهم، وتسمو نفوسهم إلىٰ أعلىٰ المطالب وأشرف الغايات التي يكونون بها مرفوعي الرأس، أصحاء العقول والأرواح بين الأمم، كما قال ﷺ في الحديث القدسي عن ربه تعالىٰ: «**ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به،**

(١) رواه أبو داود (٤٩٥).

وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يَبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشي بها..»[١].

وقال ـ أيضًا ـ: «**فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يبطش، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئِن استعاذني لأعيذنه...** » إلخ[٢]. وأحاديث كثيرة في ذٰلك المعنىٰ.

ولا عجب أن يخصص اللَّه استعانةَ عباده المؤمنين بالصبر والصلاة؛ فإن الصلاة من أكبر العوامل التي تربي الشخصية، وتجعلها ربانية التصور، وربانية الشعور والوعي، وربانية السلوك والتصرف.

ثم إن في الصلاة منفعةً عظيمةً، وعلاجًا واقيًا شافيًا من شر ما يصاب به الإنسان في حياته الاجتماعية، وهو الشح والجبن القاضيان علىٰ شخصيته، والذي نبه اللَّه عليها ورسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج]. وقال ﷺ: «**شرُّ ما أوتي العبدُ شُحٌّ هالع، أو جُبنٌ خالع**»[٣]، فالشح يَبذر الهلع في القلب، بحيث يجعل صاحبه فقير القلب ـ مهما كان عنده من الغنىٰ والثروة ـ؛ كما وصفه النبي ﷺ في حديث آخر بأنه كالذي يشربُ من ماء البحر، فإنه لا يَروَىٰ؛ بل يزداد عطشه وغلَّته[٤]، ويكون منهومًا أشد ما يكون، ومنوعًا للخير مختالًا فخورًا، كاتمًا فضل اللَّه، آمرًا للناس بالبخل، مستهترًا بالقيم العليا.

أما الجبن؛ فإنه يورِّث الخوف والذعر الذي يتزايد بصاحبه حتىٰ يكون عند المصائب والحروب كالذي يُغشىٰ عليه من الموت، وفي

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) انظر السابق.

(٣) رواه أبو داود (٢٥١١).

(٤) لم يثبت هٰذا عن النبي ﷺ، وإنما ورد بنحوه من كلام عيسىٰ عليه السلام، ونصُّه: «طالبُ الدنيا مِثلُ شارب البحر، كلَّما ازداد شُربًا ازداد عطشًا». رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (١١٨).

حال الأمن والرخاء يكون حديد البصر، ذلْقَ اللسان، مثل المنافقين المعوِّقين الذين فضحهم اللَّه في سورة «الأحزاب»، وقد يكون الشحيح بماله شحيحًا ببدنه، فيحبس خيره ونفعه عن الناس ببدنه.

والمصاب بِهٰذه الأدواء المعنوية المذكورة في وحي اللَّه من كتاب وسنة، يعتريه في الغالب الهم والغم والحزن والانقهار، فينخلع من العزة والكرامة ويعيش ذليلًا حقيرًا مهانًا مستعبدًا ممتهنًا من أعدائه أو من أعداء اللَّه وأعدائه، ويكون الجبان ـ أيضًا ـ كسولًا عادم الإرادة أو عاجزًا عديم المقدرة.

ولهٰذا ورد في الحديث تعليم النبي ﷺ لأمته أن يدعو كل واحد منهم بِهٰذه الدعوات ـ كما في حديث أبي أمامة ـ: «**اللهم إني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، والعجز والكسل، والجُبن والبخل، وضَلَع الدَّين وقهر الرجال**»[(١)].

فإنها ثمانية أشياء؛ كل اثنين منها قرينان مزدوجان: فالهم والحزن أخوان، والعجزُ والكسل أخوان، والجبنُ والبخل أخوان، وضلع الدين وقهر الرجال أخوان.

وتوضيح ذٰلك أن المكروه المؤلم إذا ورد علىٰ القلب فإما أن يكون سببه ماضيًا أو مستقبلًا، فإن كان أمرًا ماضيًا أوجب له الحزن، وإن كان شيئًا متوقعًا في المستقبل أوجب له الهم. ثم إن تفويت المصالح عن الإنسان أو تخلفه عن تحقيقها بالسعي والطلب إما أن يكون من عدم القدرة فهو العجز، أو من عدم الإرادة وهو الكسل. ثم إنَّ حَبْسَ خيره ونفعه عن نفسه وعن الغير إما أن يكون حابسًا أو مانعًا خيره ونفعه الناتج من حركة بدنه فهو الجبن، وإما أن يكون مانعًا نفعه من ماله فهو الشح. أما قهر الناس له؛ فهٰذا إما أن يكون بحق فهو يسمىٰ غلبة الدين وضَلَع الدين، وإما أن يكون بباطل فهو قهر الرجال. والمصلي الصحيح الذي يقيم الصلاة حق إقامتها ينجيه اللَّه من هٰذه الأمور كلها.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٩)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

إن كلام اللَّه حق، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء]، ووعده حق ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وعلاجه حقٌّ لا يماثله علاج، فإذا رأينا أمثال هٰؤلاء من الضعفاء المضطربين جَزَمنا بأن صلاتهم صورية، وصبرهم ضعيف، وأنهم لو كانوا في الحقيقة مصلين كانوا من الصابرين، وإنما عندهم من الصلاة حركاتٌ تعودوها، فهم يكررونها ساهين عنها، أو يقصدون بها استمالة قلوب الناس، يبتغون بها عندهم المكانةَ الرفيعةَ باسم الدين، لما يترتب علىٰ ذٰلك من المنافع الدنيوية التي لا يعقلون سواها، أو لا يريدون سواها.

فيجب علىٰ كل مؤمن أن يعوِّد نفسه احتمال المكاره ويحاول تحصيل ملكة الصبر، فمن لم يستعن علىٰ عمله بالصبر لا يتم له أمر، ولا يثبت علىٰ عمل، ولا سيما الأعمال العظيمة، كوظيفة أمة محمد ﷺ التي هي تربية الأمم، والانتقال بهم من حال إلىٰ حال؛ لذٰلك يوجد الكثيرون ممن يشرعون في الأعمال العظيمة فيُعوِزُهم الصبر، يقفون عند الخطوة الثانية، ومن يزعم أنه عاجز عن تحصيل هٰذه الملكة فهو خائن لنفسه، جاهل بما أودع اللَّه فيه من الاستعداد، فهو باحتقاره لنفسه محتقِرٌ نعمة اللَّه عليه، بل مسيء للتصرف فيها، وهو بمجرد إحساسه بالعجز قد سجل علىٰ نفسه الحرمان من جميع الفضائل.

حقًّا؛ إن تلك النعم التي يجب ذكرها وشكرها للمنعم ﷻ كانت تقرن بضروب من البلاء وأنواع المصائب، أكبرها ما يلاقيه أهل الحق من مقاومة الباطل وأحزابه، وأصغرها لا يسلم أحدٌ منه في ماله وأهله وأحبابه ـ كما سيأتي بعد الآية التي بعد هٰذه الآية التي نحن نفسرها ـ، فمن كمال إرشاد اللَّه لعباده في هٰذا المقام أن يُثنِّيَ بعد الأمر بالشكر الأمرَ بالصبر، وأن يَعِدَ اللَّه المؤمنين بالجزاء علىٰ هٰذا كما وعدهم بالجزاء علىٰ ذٰلك. فما أحسن اتصال هٰذه الآيات بما قبلها وكونها متممةً للإرشاد فيها!.

وقد هدىٰ اللَّه ﷻ بلطفه إلىٰ علاج الداء قبل بيانه، فأمر المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ ما يلاقونه من المحن والشدائد ومشقة القتال، ووعدهم علىٰ ذٰلك بمعونته الإلٰهيَّة، وأشعرهم ـ أيضًا ـ بمعيته التي من حاز عليها كان منتصرًا ظافرًا فائزًا بمطلوبه، كما أشعرهم بما يلاقونه في سبيل الحق والدعوة إلىٰ الدين والمدافعة عن أنفسهم، فهو ﷻ يأمرهم بالصبر علىٰ ذٰلك كله.

ووجه الحاجة إلىٰ الاستعانة بالصبر علىٰ تأييد الحق والقيام بأعبائه ظاهر جلي، وأما الحاجة إلىٰ الاستعانة بالصلاة فوجهها محجوب لا يكاد ينكشف إلَّا للمصلين الذين هم في صلاتهم خاشعون، تلك الصلاة التي أكثر اللَّه من ذكرها في الكتاب العزيز، ووصف أهلها بأفضل الصفات، وهي التوجه إلىٰ اللَّه تعالىٰ ومناجاته، وحضور القلب معه سبحانه باستغراقه في الشعور بِهيبته وجلاله وكمال سلطانه، تلك الصلاة التي قال فيها ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]. وقال فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ليست هي الصورة المعهودة للناس من القيام والركوع والسجود والتلاوة باللسان خاصةً؛ مما يسهُل علىٰ كل صبي فعله وتعوده. فهٰذه صلاة صورية نرىٰ بعض أهلها لم يرتفعوا عن الفحشاء والمنكر ولم ينتهوا عن اقتراف السيئات! فأي قيمة لتلك الحركات الخفيفة في نفسها حتىٰ يصفها اللَّه بأنها ﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾؟! وإنما جعلت تلك الحركات وسيلةً لتذكير الغافلين وتنبيه الذاهلين، ودافعًا يدفع المصلي إلىٰ ذٰلك التوجه المقصود الذي يملأ القلب بعظمة اللَّه وسلطانه، حتىٰ يستسهل في سبيلها كل صعب، ويستخفَّ بكل كرب، ويسهل عليه عند ذٰلك احتمال كل بلاء ومقاومة كل عناء، لا يَتصور شيئًا يعترض في سبيله إلَّا ويرىٰ سيده ومولاه ربَّ العالمين أكبر منه؛ لانطباعه بالتكبير الصادق، فهو بتكريره «اللَّه أكبر» يزداد قوةً معنويةً ورباطةَ جأش تجعله يهزأ بالصعاب، ولا يبقىٰ أمامه شيء كبير، ولا يكون في نفسه

شيءٌ كبير أبدًا إلَّا ما كان مُرضيًا للَّه سبحانه، للَّه الذي هو أكبر من كل كبير، للَّه الذي يلجأ إليه في الحوادث ويفزع إليه عند الكوارث.

ثم إن اللَّه ﷻ ختم هٰذه الآية ـ المتضمنة للأمر بالصبر والصلاة ـ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولم يقل: «معكم»، بل قيَّد معيته لمن كان الصبر لهم خُلقًا وصفة. فالصابرون تتحقق لهم معية اللَّه ﷻ بتوفيقه ومعونته وتسديده، بذٰلك تَهُون عليهم المشاق، وتزول عنهم المكاره ويسهل عليهم كل صعب وعظيم.

وهٰذه المعية الإلٰهيَّة معيةٌ خاصة، تقتضي صحبته ومعونته وقربه ونصره، وهي منقبة عظيمة للصابرين، فلو لم يكن لهم فضيلةٌ إلَّا أنهم فازوا بِهٰذه المعية من اللَّه؛ لكفىٰ بها شرفًا وفضلًا. وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة التي ذكرها اللَّه بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فهٰذه عامة لجميع الخلق.

وقد كان من سنة اللَّه سبحانه أن الأعمال العظيمة لا تنجح ولا تتم إلَّا بثبات صاحبها واستمراره، وهٰذا لا يكون إلَّا بالصبر، فمن صبر فقد سار علىٰ سنة اللَّه وامتثل أمره، فيكون اللَّه معه بالتوفيق والتسديد والنصر والظفر بالمطلوب، ومن لم يصبر فقد حرم نفسه من معية اللَّه المنصوص عليها؛ لأنه تنكَّب عن أمره وسنته، فلا يمكن أن يبلغ غايته. واللَّه سبحانه عليم بما يعترض المؤمنين في الدعوة ولوازمها من المعارضات والمقاومات وأنواع التثبيط والإرجاف، وإن ذٰلك يوجب عليهم بذل النفوس زيادة علىٰ الأموال، فكيف تُبذل هٰذه النفوس بمخالفتها الأممَ كلها؟ لا تبذل إلَّا بتحقيق الصبر وإقامة الصلاة، إذ بذٰلك يتحقق الثبات وإرخاص النفوس. ثم ما الغاية من إرخاص المؤمن نفسه لأجل تعزيز الدعوة؟ الغاية هي تحصيل ثمنها من اللَّه الذي اشتراها، والذي علمهم ما يستعينون به علىٰ مجاهدة الخواطر والهواجس ومقاومة الشبهات ودفع الأراجيف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

ذكر اللَّه سبحانه أعظم شيء يستعان به علىٰ الشدائد وبذل النفوس، وهو مصير القتل في سبيله، ذلك المصير الطيب المنقطع النظير، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، أي: لا تقولوا في شأنهم: إنهم أموات كموت غيرهم، واللام في قوله: ﴿لِمَن﴾ للتعليل لا للتبليغ؛ بل هم أحياء في عالم غير عالمكم، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ بحياتهم؛ لأنها ليست في عالم الحس المألوف، بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء علىٰ سائر أرواح الناس، وبها يُرزقون ويتنعَّمون، ولٰكننا لا نعرف حقيقتها ولا نبحث عنها، لأنها من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به، وتنبغي قوة التنافس علىٰ تحصيله.

واللَّه ﷻ لما حض علىٰ الاستعانة بالصبر والصلاة علىٰ جميع الأحوال ذكر نموذجًا مما يستعان بالصبر عليه، وهو المصير الحسن العظيم للجهاد في سبيله الذي هو أفضل الطاعات البدنية وأشقها علىٰ النفوس لمشقته في نفسه أولًا، ولكونه مؤديًا للقتل وإزهاق النفس ثانيًا، تلك النفس التي يرغب الراغبون في الحياة الدنيا من أجلها، ويعملون سائر التصرفات لجلب النفع والسرور لها ودفع ما يضرها، فالنفس أحب محبوب علىٰ الإنسان لا يرخصها إلَّا في سبيل ما هو أغلىٰ منها.

ولما كان حب اللَّه ورسوله عند المؤمنين أعلىٰ وأغلىٰ من حبهم لأنفسهم؛ أرخصوها في سبيل اللَّه، واللَّه ﷻ سهَّل عليهم بذلها بإخباره لهم عن حسن مصير أنفسهم، وأنها تكون في حياةٍ جديدةٍ سعيدةٍ سعادةً تامةً لا تشبه حياتها الأولىٰ، وأنها ترتع في نعيم الجنة طيلة البرزخ إلىٰ يوم القيامة، اليوم الذي تعود فيه أرواحهم لأجسامهم فتتنعم الأجسادُ مع الأرواح جميعًا في جنان الخلد، وأن المجاهدين في سبيل اللَّه لإعلاء

كلمة اللَّه وإظهار دينه ـ لا لغرض آخر من الأغراض النفسية أو المادية ـ، إذا قتلوا علىٰ تلك المقاصد الربانية لم تفتهم حياتهم المحبوبة، بل جعل اللَّه لهم حياةً أعظم وأطيب وأبقىٰ وأفضل وأكمل مما يظنُّون أو يحسبون، كما قال عنها في سورة «آل عمران»: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران].

فهل أعظم من هٰذه الحياة وأشرف؟ هٰذه الحياة المتضمنة للقرب من اللَّه والتمتع برزقه، مع الفرح والاستبشار الذي ليس له مثيل، ولا يعقبه غم ولا حزن، لأنه استبشار بزوال كل خوف ومكروه، وحصول كل مطلوب من لذائذ النفس وشهواتها.

وقد ورد في «صحيح مسلم» وغيره من السنن والمسانيد عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ أرواحَ الشهداء في أجواف طيرٍ خُضرٍ تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكلُ من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديلَ معلَّقةٍ بالعرش**»[١].

وفي هٰذه الآية وما ورد من الأحاديث النبوية الصحيحة أعظم حث علىٰ الجهاد في سبيل اللَّه، وملازمة الصبر عليه والمرابطة فيه، فلو شعُر العِباد شعورًا صحيحًا بما يلقاه المقتولون في سبيل اللَّه ما تخلف عن الجهاد أحد، كما كانت عليه الحال في السلف الصالح من المسابقة إليه والمقارعة عليه. فبهٰذا الشعور وبِهٰذه الروح انطلقوا انطلاقتهم المعروفة علىٰ العالم حتىٰ خاطب أحدهم «بحر المَنْش» قائلًا: «لو نعلم أن وراءك قومًا لعبرناك إليهم».

وبقوة ثقتهم باللَّه عبروا نهر «دَجلة» لما قطع الفرس حبال السفن وكسروا الجسور، فقذف بها تيار النهر إلىٰ البصرة حين قال لهم سعد بن أبي وقاص لما طالت المدة: «اعبروا علىٰ اسم اللَّه».

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

ونهر دجلة معروف بتياره المهلك المغرق الذي لا تراغمه السفن، تسير مشرِّقةً ولا تسير مغرِّبة، ولٰكن قوة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وحسن يقينهم بوعد ربهم جعلهم يغامرون هٰذه المغامرة الخطيرة، فعبروا علىٰ أقدامهم بلا وسائط.

فقل كما قال المؤرخون ومنهم ابن جرير: «لقد عبر المسلمون نهر دجلة لم تبتل أقدامهم ـ بإذن اللَّه الذي جمَّده ـ، ولما شاهدهم الفرس علىٰ هٰذه المعجزة أسقط في أيديهم، وفروا لا يلوون علىٰ شيء، يتراطنون بلغتهم: «ديوان آمدند ديوان آمدند»، يعني: جاء العفاريت، جاءت الشياطين، وذٰلك حين خانهم النهر الذي اعتصموا به؛ لأنهم لا يقدرون علىٰ محاربة المسلمين ـ مع قلتهم ـ بعد واقعة «جلولاء والقادسية»، فظنوا أن النهر بتياره المغرق يعصمهم، ولم يفطنوا إلىٰ القوة العلية القوة الخفية».

وهٰذه حادثة عيان سجلها التاريخ وشهد بها الأعداء ـ بحيث يصعب إنكارها علىٰ المغالط ـ، وكل هٰذا نتيجة الانطباع بالتكبير الصادق والثقة بما عند اللَّه ـ من النصر أو الفوز بالشهادة ـ أعظم من ثقتهم مما بأيديهم.

وقد حصل من التابعين مغامرات وصدق في الجهاد؛ وسَّعوا به دائرة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وقد نص التاريخ الألماني تحت عنوان: «معجزة أو أعجوبة في التاريخ» علىٰ أن عشرين رجلًا من المسلمين عام (٩١٠ للميلاد) خرجوا من ميناء «برشلونا» في الأندلس سابقًا وأسبانيًا الآن، فزحفوا علىٰ حصن «فواسكيا» في إيطاليا، فاحتلوه ليلًا، فتجمع إليهم ما يقارب المئة ـ ولم يبلغوا المئة ـ؛ فزحفوا علىٰ شمالي إيطاليا، ثم جنوب فرنسا، ثم سويسرا والنمسا حتىٰ احتلوا شطرًا من ألمانيا، ودام ملكهم لهٰذه الممالك العظيمة خمسًا وتسعين سنةً! وقصة تربص النصارىٰ بهم طويلة ليس هٰذا

موضعها، وإنما المقصودُ الإشارة إلىٰ نتائج الإيمان وقوة ثقة المؤمنين بوعد ربهم وصدقهم في محبته ومعاملته، وإخلاص نواياهم لوجهه الكريم، بما صاروا به أعجوبة الدهر.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

لما أمر اللَّه ﷻ المؤمنين بالاستعانة علىٰ القيام بواجب الدين من حمل الرسالة والقيام بالزحف المقدس لنشر الدين، والحكم بالشريعة، وقمع المفتري علىٰ اللَّه بالصبر والصلاة، ثم ذكر فضل الشهداء وعظيم مقامهم عند اللَّه في حياة جديدة خير من حياتهم؛ أخبر الجبناء والمضبوعين الذين يتهرَّبون من الجهاد أو يكرهونه حرصًا علىٰ الحياة البهيمية، أنه سبحانه قضىٰ في سنته الكونية ـ التي لا تتغير ولا تتبدل ـ بابتلاء الناس بشيء من الخوف، يعني بضروب الخوف والإزعاج الذي لا يَلَذُّ معه عيش ولا تَهنأ فيه حياة، كما يبتلي البشرية بشيء من الجوع، سواء كان من قلةِ الطعام أو عدمه، أو كان جوعًا مرضيًّا من نَهمةٍ يجعلها اللَّه في البشر لا يشبعون. وهٰذا المرض مخالف للخصب الذي يشبع صاحبه من أدنىٰ شيء، وكذٰلك يبتلي اللَّه البشرية ينقص من الأموال والأنفس و الثمرات.

وقد أكد اللَّه ﷻ هٰذا الابتلاء والامتحان ب«لام القسم» في قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ لتوطين الأنفس عليه، وقدم ابتلاءهم بالخوف؛ لأنه من أعظم المصائب وأشدها وأقساها وقعًا في النفوس، ولهٰذا كان الظلمة والطواغيت الجبارون يخيفون الناس بشتىٰ ضروب الإرهاب والبطش؛ ليكون الإنسان علىٰ خوف ووجل حتىٰ في منزله! والآن نرىٰ من خطط الماسونية اليهودية للثورات ما يعمم الخوف، فلو أن أدعياء

الإسلام حققوا الإيمان بصدقهم البيعة مع اللَّه علىٰ النفس والمال، فواصلوا الجهاد المقدس، لوهبوا الأمن لهم وللناس ـ بإذن اللَّه ـ حسب وعده الصادق، وأراحوهم من الأخطبوط اليهودي؛ لأن من ترك الجهاد خوفًا علىٰ نفسه وشحًّا بها علىٰ اللَّه سيبتليه اللَّه بالخوف علىٰ يد أعدائه الذين فسح لهم المجال بشُحِّه وجبنه.

ثم بعد الخوف ثنَّىٰ اللَّه بالجوع لسوء وقعه علىٰ النفوس. ثم ثلَّث بالنقص الحاصل علىٰ الأموال والأنفس بالأمراض المختلفة الفاتكة، وعلىٰ الثمرات بالجوائح السماوية والأرضية من برد أو ثلج أو مطر أو فيضان أو فساد في الإنتاج، وقدم النقص في الأموال لشدة وقعه علىٰ النفوس؛ لأن الإنسان في الغالب يخاطر بنفسه مخاطرةً مهلكة في سبيل ماله المحبوب.

وإخبار اللَّه لعباده في هٰذه الآية بما يبتليهم به من هٰذه العقوبات النفسية والمالية لأمرين:

أحدهما: إيقاظ الجبناء والمضبوعين التاركين للجهاد: بأن قعودهم لا يحقق لهم الحياة الطيبة الصحيحة الكاملة، ولا يُنجيهم من منغِّصات الحياة التي قدَّرها اللَّه، وإنما فضَّل الحياة الطيبة بالصدق مع اللَّه في تحقيق الجهاد الذي يحصل بتحقيقه وعد اللَّه ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧].

وثانيهما: إعلام المؤمنين بأن مجرد الانتساب إلىٰ الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وانتفاءَ المخاوف والسلامة من أضرار الدنيا؛ بل إن اللَّه يجري الابتلاء والأضرار حسب سنته، ليمتحن الصادقين الثابتين ممن إيمانهم علىٰ حرف، إن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابهم شر انقلبوا علىٰ أعقابهم كافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]، يعني يظهر علمه الخفيُّ عِيانًا بين الناس بحيث

يتميز هٰذا عن هٰذا.

فالمؤمن الموفق هو الذي يستفيد من مجاري الأقدار، حيث يتربي ويتأدب بمقاومة الشدائد والأخطار، ومن لم تُعلِّمْه الحوادث وتفيده عبرًا في حياته وتُهذبه الكوارث؛ فهو كالبهيمة؛ ولهٰذا قال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، تنبيهًا بِهٰذا إلىٰ أن هٰذه العقيدة هي التي تُكتسب بها مَلَكةُ الصبر التي يُقرن بها الظفر، ويكون صاحبها أهلًا لأن يبشَّر باحتمال البلاء والاستفادة منه بحسن العاقبة في الأمور كلها؛ فإن في هٰذه الآية بشارة عامة لحذف المتعلق بها، إذ لم يذكر المبشَّر به إشعارًا بعمومها في كل ناحية، وهٰذا من الإيجاز الذي لا يعهد مثله في غير القرآن الحكيم، ثم وصف اللَّه الصابرين المستحقين للبشارة بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، يعني يقولون هٰذا القول معبِّرين به عن حقيقة حالهم ومقتضىٰ إيمانهم، وليس المراد مجرد نطق يحفظونه ويلفظونه بألسنتهم دون أن يعقلوا معناه، وإنما المراد التلبس بمعناها والتحقق في الإيمان بأنهم خلقٌ للَّه، وملك للَّه، وإلىٰ اللَّه يرجعون، ليس لهم من أمرهم شيء؛ بل هم مملوكون للَّه، مدبَّرون تحت أمره وتصريفه، فيقولون بلسان حالهم ومقالهم الصريح: ليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا اللَّه بشيء منها فقد تصرف بمماليكه وأمواله، فلا اعتراض عليه.

وهٰذا من كمال العبودية للَّه، لأنه يحصل به الرضا عن اللَّه والشكر له علىٰ تدبيره، مع الجزم أن في ذٰلك خيرًا له وإن لم يشعر به، فهٰذا من كمال التوحيد والعبودية للَّه؛ لأنه سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجع الأمر كله ولا يعمل إلَّا ما سبقت به الحكمة.

فالمؤمن ينطق بـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ بدافع الشعور بِهٰذا المعنىٰ، ولا ينافي الصبرَ ولا المنطق بِهٰذه الكلمة المباركة ما يحصل للمصاب من الحزن والبكاء الخفيف؛ لأن هٰذا من الرحمة ورقة القلب الذي لو

فقدها الإنسان لكان قاسيًا لا يرجىٰ خيره، ولا يؤمن شره، فليس هٰذا من الجزع المذموم.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إنما الصبرُ عند الصدمةِ الأولىٰ**»[١].

فمن حقق الصبر في أول الصدمة؛ كان من الصابرين المستحقين للبشارة العامة من اللَّه سبحانه. وأما الجزع المذموم فهو الذي يحمل صاحبَه علىٰ الصراخ ورفع الصوت وسوء التصرف بالبدن والثياب، وكذا الذي يحمل صاحبه علىٰ ترك الأعمال المشروعة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «**ليس منَّا مَن شقَّ الجيوب، ولَطَم الخدود، ودَعَا بدعوىٰ الجاهلية**»[٢].

وقد ورد حديث في لعن الصالقة والحالقة[٣]، والصالقة: التي ترفع الصوت عند المصيبة.

أما البكاء الخفيف والحزن، فلا ينافي الصبر أبدًا، لما في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ بكىٰ عند موت ولده إبراهيم، فقيل له: أليس قد نَهيتنا عن ذٰلك؟ فأخبر أنها الرحمة. وقال: «**إن العينَ لَتدمَع، وإن القلبَ لَيحزَن، ولا نقولُ إلَّا ما يُرضي ربَّنا، وإنا بفِراقك ـ يا إبراهيم ـ لمحزونون**»[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ يعني أن أولٰئك الصابرين المحتسبين عليهم من ربهم الرَّحمٰن الرحيم ما يحول دون تبريح المصائب لهم من أنواع صلواته العامة ورحمته الخاصة.

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).
(٢) رواه البخاري (١٢٩٨)، ومسلم (١٠٣).
(٣) **الحالقة**: التي تحلق شعرها عند المصيبة.
(٤) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

فأما الصلوات؛ فالمراد بها ثناء اللَّه عليهم في الملأ الأعلىٰ، كما فسر البخاري صلاة اللَّه علىٰ خلقه بذٰلك[1].

وأما الرحمة فهي عامة، أولها: توفيقه إياهم للصبر وحسن العزاء، وجبرهم في مصيبتهم بأن يُخلف عليهم خيرًا منها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، أتىٰ بضمير الفعل ﴿هُمُ﴾ ليدلَّ علىٰ حصر الهداية لهم، وتحصيلهم جميعَ نتائجها؛ فدلت الآية علىٰ أن من لم يصبر فهو علىٰ ضد حالهم، محرومٌ من صلوات اللَّه ورحمته وهدايته.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾:

الصفا والمروة معروفان، وهما ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ يعني أعلام دينه الظاهرة التي تعبَّد اللَّه بها عباده، وإذا كانا من شعائر اللَّه فقد أمر اللَّه بتعظيم شعائره حيث قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]، فدل مجموعُ النصين علىٰ أنهما من شعائر اللَّه، وأن تعظيم شعائره من تقوىٰ القلوب، والتقوىٰ واجبة علىٰ كل مكلف، وذٰلك يدلُّ علىٰ أن السعي بهما فرضٌ لازم، وركنٌ من الأركان للحج والعمرة ـ كما عليه الجمهور ـ، وكما دلت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة من فعله ﷺ وقوله: «**خذوا عني مناسككم**»[2]، ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وهٰذا دفع لوهم من توهم وتحرج من المسلمين عن السعي بينهما؛ لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفىٰ سبحانه وتعالى الجُناح لدفع هٰذا الوهم، لا لأنه غير لازم، وقيل: إنه للإشارة إلىٰ تخطئة المشركين الذين كانوا ينكرون كون

---

(١) أورده البخاري عن أبي العالية رحمه الله. «صحيح البخاري» (بعد الحديث: ٤٧٩٦).
(٢) رواه مسلم (١٢٩٧).

الصفا والمروة من شعائر اللَّه، وأن السعي بينهما من مناسك إبراهيم، وذٰلك لفرط جهلهم بحقيقة دين إبراهيم، وجهلهم بدعوته للَّه، إذ يقول: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨]، فإنه ﷺ لم يفعل شيئًا من تلقاء نفسه.

و«الجُناح» ـ بضم الجيم ـ: الميل إلىٰ الإثم، كجُنوح السفينة إلىٰ وحل ترتطم فيه. والمعنىٰ: فليس عليه شيء من جنس الجناح، وهو الميل والانحراف عن مناسك الحج كما تزعمه الجاهلية. ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوَّف بهما في الحج والعمرة: أنه لا يتطوع بالسعي بينهما مفردًا إلَّا مع انضمامه لحج أو عمرة فقط، وبدون التلبس بالحج والعمرة لا يُتطوع بالسعي بينهما كما يتطوع بالطواف بالكعبة، كما لا يُفعل شيء من باقي الشعائر والمناسك، كالوقوف بعرفة، أو المبيت بمزدلفة ومنًىٰ، أو الرمي لغير المتلبس بالحج فقط، فلو فعل شيئًا منها بغير الحج كان بدعةً وإثمًا.

واعلم أن تعلق هٰذه الآية بما قبلها شيء ظاهر لعدة وجوه:

أحدها: أن مسألة تحويل القبلة جاءت في معرض الكلام عن معاندة المشركين وأهل الكتاب للنبي ﷺ، فكان التحويلُ شبهةً من شبهاتهم. وقد تقدم أن من لوازم تحويل القبلة إلىٰ البيت الحرام تحويلَ المسلمين عن كل مشابهة لليهود والكفار، وعن أي التقاء يجري معهم في أي شأن من شؤون الحياة، وأن في إيجاب توجُّههم إلىٰ الكعبة توجيهَ قلوب المؤمنين إلىٰ الاستيلاء عليها لتطهير البيت الحرام تطهيرًا معنويًّا عن الشرك والكفر؛ بل توجيهًا للمؤمنين إلىٰ تخليص كل مسلم يشاركهم في استقبال هٰذا البيت من الظلم والاستضعاف في الأرض، ومَن لم يقم بِهٰذا كان راضيًا بإهانة البيت الحرام، أو بإهانةِ إخوانه المسلمين من قبل القوم الكافرين ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقد روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما حديثًا طويلًا؛ خلاصته أن اللَّه سبحانه وتعالى أمر خليله إبراهيم أن يذهب بزوجته «هاجر» وابنها الطفل «إسماعيل»، ويضعهما

حول بيته المحرم، ويتركهما هناك ويعود إلىٰ رسالته، فإن اللَّه سيتكفل بشأنهما. فامتثل إبراهيم أمر ربه ـ كما تقدم ـ في إخراج حبيبيه من جنان الشام إلىٰ تلك الأرض القاحلة التي لا ماء فيها ولا زرع ولا يعيش فيها حتىٰ الطيور، وذٰلك لقوة إيمانه وصدقه في تضحيته بأحب مرادات نفسه في سبيل تنفيذ مراد ربه ﷻ، وأنه وضعهما حول مكان البيت في موضع زمزم حيث أمره اللَّه، وولىٰ عنهما مدبرًا، وأن هاجر أخذت تتعلق به وتناشده قائلةً: «إلىٰ من تكِلُنا؟ ـ وهو لا يجيبها ـ، حتىٰ قالت له: اللَّه أمرك بِهٰذا؟ فقال لها: نعم. قالت: إذًا لا يضيِّعُنا». وأنها بعدما رجعت منه وابتعد عنها؛ سأل اللَّه ضارعًا إليه قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم].

فلما نفد ما عندها من سقاء الماء؛ عطِشت وجف لبنها، وأخذ ولدها يتلوىٰ من الجوع، فأخذت تصعدُ الصفا تنظر هل ترىٰ أحدًا، ثم تنطلق تسعىٰ إلىٰ المروة فتصعد عليها لتنظر هل ترىٰ أحدًا، ثم ترجع إلىٰ ولدها فتراه في أسوأ حالةٍ، فتعود إلىٰ الصفا ثم إلىٰ المروة ـ فعلت ذٰلك سبعَ مرات ـ، وبعد الأخيرة سمعت صوتًا، فقالت: «أغِث إن كان عندك غِياث»، فإذا هي بالمَلَك جبريل عند موضع زمزم، فغمز الأرض بعقبه، فانبثق الماء، فجعلت تشرب ويدرُّ لبنها علىٰ صبيها، فطمَّنها جبريل، وقال: «إن ولدك سيبني مع أبيه للَّه بيتًا هنا تكونون من أهله»، وقال لها: «هٰذا شراب وغذاء نافع».

ثم بعد مدة مرت طائفة من «جُرْهم» فرأوا الطيور، فقالوا: تلك علىٰ ماء وما عَهِدنا بِهٰذا الموضع ماء؟! فاهتدوا إليه بواسطة الطيور، ووجدوا عنده المرأة «هاجر»، فاستأذنوها في الإقامة، فأذِنت لهم علىٰ شرط أن ماء تلك العين لها، فأقاموا عندها، ونشأ بينهم إسماعيل وتعلم العربية، وتزوج منهم، إلىٰ آخر القصة.

قال ابن عباس ـ لما ذكر سعيها بين الصفا والمروة ـ: قال النبي ﷺ: «**فذٰلك سعيُ الناس بينهما**»[١].

فهٰذا الأثر الصحيح العظيم يوضح لنا الحكمة من مشروعية هٰذا السعي، وهي أن هاجرَ أم إسماعيل حين ضاق بها الأمر في عطشها وعطش ابنها، أغاثها اللّٰه تعالىٰ بالماء الذي أنبعه لها ولابنها، وهو ماء زمزم، حتىٰ يعلم الناس أنه سبحانه وإن كان لا يخلي أولياءه من المحن في الدنيا، إلَّا أن فرجه قريب ممن دعاه، فإنه غياث المستغيثين.

فلينظر المؤمن إلىٰ حال هاجر وإسماعيل عليهما السلام؛ كيف أغاثهما واستجاب دعاء هاجر وزوجها إبراهيم من قبلُ، ثم جعل فعلها من السعي طاعةً لجميع المكلفين إلىٰ يوم القيامة، وآثارَها قدوةً للمسلمين المؤمنين؛ لتعلمَ أن اللّٰه لا يضيع أجر المحسنين، وكلُّ ذٰلك تحقيق لما أخبر به قبل ذٰلك من أنه يبتلي عباده بشيءٍ من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، إلَّا أن من صبر علىٰ ذٰلك نال السعادةَ في الدارين، وفاز بالقصد الأسمىٰ.

وتسميةُ أعمال النُّسُك «شعائر»؛ لأن القيام بها علامةٌ علىٰ الخضوع للّٰه وعبادته إيمانًا وتسليمًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، يعني: من فعل شيئًا من شعب الإيمان وأركان الإسلام تطوعًا غير مفروض عليه؛ ولٰكن يبتغي به نافلةً له من تكرار حج أو عمرة أو طواف وغيره من أنواع الطاعات.

قال الراغب: التطوع في اللغة الإتيان بما في الطوع أو الطاعة، أو تكلفها أو الإكثار منها، وأُطلق علىٰ التبرع في الخير؛ لأنه طوع لا كره ولا إكراه فيه، وأطلق ـ أيضًا ـ علىٰ الإكثار من الطاعة زيادة علىٰ الواجب، ومنه قوله ﷺ في حديث الأعرابي: «**إلَّا أن تطَّوَّع**»[٢]، أي: تزيد علىٰ

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) رواه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

الفريضة، فمن تطوع للَّه زيادةً علىٰ ما أوجبه عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، يعني: أنه ﴿شَاكِرٌ﴾ يجازي بالإحسان، و﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الجزاء، فلا يضيع شيئًا من عمل العاملين ولا سعي المتطوعين، بل يضاعفه أضعافًا كثيرةً حسب قوة إخلاص أصحابه، وحسب مبلغهم من الجهد، وحسب قوتهم في العمل، وحسب احتسابهم وحرصهم علىٰ الاختفاء بأعمالهم، وحسب مواقع أعمالهم من المنفعة، وحسب انشراح صدورهم بها، وانعدام الإعجاب عليها أو الفرح بمدحه من أجلها... إلىٰ غير ذٰلك من توابع الأعمال المضاعفة للأجور من عشر أمثالها إلىٰ سَبعِمِئةِ ضِعف، إلىٰ أضعاف كثيرة لا يعلمها إلَّا اللَّه الشاكر العليم، الذي سهل لعباده طريق الوصول إليه بمضاعفة حسناتهم حسب ما قلناه؛ رحمةً بهم وتوددًا منه إلىٰ المحسنين.

و«الشكور» و«الشاكر» من أسماء اللَّه الذي يقبل اليسير من أعمال عباده، ويجازيهم عليه بعظيم الثواب؛ فمن لطفه وأنواع شكره لأعمال عباده: أنه إذا قام عبده بامتثال أوامره والتزام طاعته ورضائه، أعانه علىٰ ذٰلك، وأثنىٰ عليه، وجازاه بإنارة قلبه، وشرح صدره، وزاده إيمانًا، كما يزيده قوةً في بدنه ونشاطًا، وبركةً في أوقات عمره، ونماءً في رزقه، وتوفيقًا حتىٰ يقدم عليه في الدار الآخرة، وجزاؤه جزاءٌ موفورٌ بشتىٰ أنواع المضاعفات.

ومن جملة شكره لعبده: أن من ترك شيئًا للَّه عوضه اللَّه خيرًا منه، ومن تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولةً ـ كما نص الحديث الصحيح[١] علىٰ ذٰلك ـ، ومن عامله كان من أربح الرابحين.

وفي قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ نكتة عظيمة في هٰذا التعبير الرباني، وهي تعليمنا الأدب، فقد علمنا سبحانه أدبًا من أكمل الآداب

---

(١) تقدم تخريجه.

بما سمىٰ إحسانه وإنعامه علىٰ العالمين شكرًا لهم، مع أن عملهم لا ينفعه، ولا يدفع عنه ضرًّا، فيكون كأنه إنعامٌ عليه؛ وإنما منفعته لهم، فهو في الحقيقة من نعمه عليهم إذ هداهم إليه وأقدرهم عليه، فهل يليق بمن يفهم هٰذا الخطاب الأعلىٰ فيرىٰ نعم اللَّه عليه لا تعد ولا تحصىٰ، وهو لا يشكره، ولا يستعمل نعمه العظيمة التي سيقت لأجله؟ ثم هل يليق به أن يرىٰ بعض الناس يُسدي إليه هو معروفًا ثم لا يشكره له ولا يكافئه عليه، وإن كان هو فوق صاحب المعروف رتبةً وأعلىٰ منه طبقةً؟!.

فكيف وقد سمىٰ اللَّه سبحانه إنعامه علىٰ من يحسنون إلىٰ أنفسهم وإلىٰ الناس شكرًا! واللَّه الخالق وهم المخلوقون، وهو الغني الحميد وهم الفقراء إليه مهما كانوا! فشكر النعمة والمكافأة علىٰ المعروف من أركان العمران، وفائدة الإنسانية وضروررياتها، وترك الشكر والمكافأة مَفسدةٌ لا تضاهيها مفسدة؛ إذ هي مدعاة لترك الجميل وسدًّا لباب المعروف، كما أن الشكر مدعاة لتزايده، ولذٰلك أوجب اللَّه علينا شكره، وجعل في ذٰلك مصلحتنا ومنفعتنا؛ لأن كفران نعمه ـ بإهمالها أو بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله، أو بعدم ملاحظة أنها من فضله وكرمه ـ، كل ذٰلك من أسباب الشقاء والبلاء.

أما استعمال نعم اللَّه في معاصيه؛ فذٰلك كفر بالنعم، واستجلاب للنقم، وتعرض لغضب اللَّه، وإنزالِ عقوباته. وأما ترك شكر الناس وتقدير أعمالهم قدرها؛ فهو إما جهل أو لؤم، سواء كان عملهم النافع موجهًا إلينا أو إلىٰ غيرنا، فترك شكر فاعل الجميل جنايةٌ منا علىٰ الناس وعلىٰ أنفسنا؛ لأن صانع المعروف إذ قوبل عمله بالكفران، ولم يقابل بالجميل؛ يترك عمل المعروف غالبًا، ويكون في نفسه عقدةٌ منه، فيكون الناس محرومين من النفع، ويكون المجتمع محرومًا من التعاون، مشبَّعًا بالأنانية المسعورة؛ لأن كفران الإحسان يؤثر في النفوس.

وأيضًا فالشكر يؤثر في همةِ أعلياء الهمة من المخلصين في

أعمالهم الذين لا يريدون عليها جزاءً ولا شكورًا، ذٰلك أنهم يرون عملهم نافعًا للناس ومشكورًا عندهم، فيزيدون منه، كما أنهم إذا رأوه ضائعًا قد يكفون منه.

والنكتة الثانية: في قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾: هي أن يعتبر عباده المؤمنين بذٰلك، فيكونوا له أشكر، مقدرين إحسانه عليهم في شكره لأعمالهم، فيزدادوا له شكرًا بحسن طاعته، والمسارعة في مرضاته، وبذل النفس والنفيس في حمل رسالته وتوزيع هدايته، وإيضاح معالم دينه، طمعًا بالمزيد من شكره سبحانه.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾:

كان علماءُ أهل الكتاب يكتمون بعض ما أنزل اللّٰه في كتبهم ـ ولو بعد ذكر بعض نصوصه ـ عند الحاجة إليه، لمقاصد خاصة وأغراض نفسية، مثل كتمانهم البشارة بمحمد ﷺ ـ بعد أن كانوا يخبرون بها لحاجة الاستنصار علىٰ المشركين ـ، ثم بعد مجيئه كتموا الحقيقة وحرفوها؛ زاعمين أن الذي في التوراة علىٰ غير هٰذا الوصف، أو أنه «الدجال الثاني» المحذر منه في التوراة، عكس «المبشر به»، وكتمانهم لحد الزنا وغيره، ففضحهم اللّٰه في آيات عديدة. وأوضح في هٰذه الآية حقيقة عقوبتهم، وكيف سجلت عليهم وعلىٰ أمثالهم اللعنة الدائمة من اللّٰه ثم من الناس أجمعين، بل من العالمين أجمعين؛ فقوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ يعني من جميع خلقه، فقد ورد أن «**الحيتانَ في البحر تستغفرُ لمعلِّم الناس الخير**»[1]، فكاتم العلم عن الناس يكون ملعونًا من كل شيء ـ والعياذ باللّٰه ـ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥).

وفي هٰذه الآية عودٌ إلىٰ أصل السياق، وهو معاداة النبي ﷺ ومعاندته من المشركين ومن اليهود، تلك العداوة والمعاندة التي جرتهم إلىٰ كتمان الحق الذي يعرفونه تمامًا؛ سواءٌ ما كان من أخبار أنبيائهم أو نصوص كتبهم علىٰ البشارة به ﷺ، وقلبهم للحقيقة، إذ يقولون: «إن الأنبياء يبشر بعضهم ببعض، ولم يبشروا بمبعث نبي من العرب»، وهٰذا من أشنع القلب للحقائق.

وكذٰلك مشاغبتهم الوقحة في شأن القبلة، وهم يعرفونها في التوراة من جملةِ أوصافه ﷺ؛ ففيها: «أنه نبي يستقبل المسجد الحرام»، وكقولهم: «إنه لم يرد في كتبهم شيء عن دينه وكتابه»، وهم في جميع ذٰلك كاذبون، قد كتموا ما أنزله اللَّه عليهم لحاجاتٍ في صدورهم، فكان جزاؤهم لعنةَ اللَّه ولعنة اللاعنين من جميع خلقه.

و«اللعنة»: معناها الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه، والمطرود المبعد عن رحمة اللَّه خاسرٌ في الدنيا قبل الآخرة، ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقد اختلف العلماء في صفة هٰذا الكتمان، فقال بعضهم: إنهم كانوا يحذفون من كتابهم أوصاف النبي محمد ﷺ والبشارات التي فيه من كتبهم، كقول الرب لموسىٰ في الباب (٥٨) من سِفر التثنية (١٨: ٨): «وسوف أقيم لهم نبيًّا مثلك من بني إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به...» إلخ، وإنما بنو إخوتهم العربُ أبناء إسماعيل.

وذهب آخرون إلىٰ أن الكتمان بالتحريف والتأويل، وحمل الأوصاف التي وردت فيه، والدلائل التي تثبت نبوته علىٰ غيره، حتىٰ إذا سئلوا: «هل لهٰذا النبي ذكرٌ في كتبكم؟ قالوا: لا»، علىٰ أن في كتبهم أوصافًا لا تنطبق إلَّا علىٰ نبي في بلاد العرب، وأظهرها ما في التوراة وكتاب «أشعيا»؛ فإنه لا يقبل التأويل إلَّا بغاية التعسف.

وكذلك فعلوا بالدلائل علىٰ نبوة المسيح، فإنهم أنكروا انطباقها عليه، وزعموا أنها لغيره، ولا يزالون ينتظرون ذٰلك الغير.

وقد بيَّن اللَّه سبحانه أنهم لم يقتصروا علىٰ كتمان الشهادة للنبي ﷺ؛ بل كتموا ما في الكتاب من الهُدىٰ والإرشاد بضروب التأويل التي هي جناية علىٰ الوحي، حتىٰ أفسدوا الدين وانحرفوا بالناس عن صراطه.

والآية واضحةٌ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾، ثم ذكر اللَّه جزاءهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين كتموا البينات والهدىٰ، فحرموا النور السابق واللاحق، أو الذين شأنهم هٰذا الكتمان في الحال أو الاستقبال ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾. ولعنُ اللَّه لهم: حرمانه إياهم من رحمته الخاصة، أما لعنة اللاعنين لهم من جميع خلقه: فهي أن جميع أهل العوالم العلوية والسفلية يقبحونهم ويرونهم أهلًا للعنة اللَّه، فلا يرأف بهم مخلوقٌ من خلق اللَّه تعالىٰ ـ فضلًا عن أن يشفع لهم ـ.

ثم استثنىٰ اللَّه منهم التائب حقيقةً، وهم الذين وصفهم اللَّه بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾، يعني الذين تابوا توبةً صادقةً عن الكتمان، وهم الذين يصلحون ما أفسدوه من الكتمان المضيِّع للحقيقة، فأخذوا بتلك البينات عن محمد ﷺ ودينه والهدىٰ الذي جاء به، وطبقوه علىٰ ما عندهم بدون تحريف ليؤمنوا بالجميع، ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾، يعني: أظهروا ما كانوا يكتمونه، أو بينوا إصلاحهم لما أفسدوه سابقًا، وجاهروا بعملهم الصالح الجديد، وأظهروه للناس، ليعلم الناس صدق النبوات، وأن بعضها يصدِّق بعضًا، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ومعنىٰ ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أرجع عليهم بالرحمة بعد الحرمان واللعنة. وزاد من تأنيسهم وترغيبهم بقوله: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهٰذا وصف منه لنفسه سبحانه بكثرة المتاب؛ للإشعار بالتكرار كلما أذنب العبد وتاب، حتىٰ لا ييأس من رحمته أحد.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

لمَّا ذكر اللَّه سبحانه في الآيات السابقة استحقاقَ اللعن للكافرين الكاتمين للحق بعد ما تبين، واستثنىٰ منهم التائبين، ذكر في هاتين الآيتين استحقاق اللعن الأبدي للكافرين المصرِّين علىٰ كفرهم حتىٰ ماتوا عليه.

فأولٰئك الذين يلزمهم الخلود في دار الهوان، وتسجَّل عليهم اللعنة الدائمة من اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا تنفعهم معها شفاعة ولا وسيلة؛ لأنهم لم يبتغوا إلىٰ اللَّه الوسيلةَ بالتوبة والإنابة.

وليلاحَظ أن قوله سبحانه عن لعنة الناس أجمعين لهٰؤلاء: أن هٰذا من العام المخصوص بالإيمان، أي أن المقصود بالناس هم المؤمنون، إذ لا يُتصور أن يلعن الكافر الكافر، إلَّا إذا كان اللعن قسريًّا يُنطقهم اللَّه به؛ كما قال إبراهيم؛ عن الوثنيين: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت]. والرأي الأخير هو الأنسب للفظ ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

قالوا: والنكتة في ذكر لعنة الملائكة والناس ـ مع أن لعنة اللَّه وحده كافية في خزيهم ونكالهم ـ: هي بيان أن جميع من يعرفهم من العوالم العلوية والسفلية يراهم محلًّا للعنة اللَّه ومقته، فلا ينبغي له أن يرأف بهم.

وقوله ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾: يعني ماكثين خالدين مؤبدين في هٰذه اللعنة وما تقتضيه من شدة العذاب؛ لأنهم مطرودون من رحمة اللَّه طردًا نهائيًّا، فيكون خلودهم في العذاب خلودًا حتميًّا دائمًا لا يرجىٰ لهم السلامة منه ـ بل ولا التخفيف ـ؛ لأن اللَّه صرح بذٰلك بقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي لا يؤجل موعدُ عذابهم، ولا يمهلون فيه أبدًا؛ لأن اللّٰه عليم بنواياهم، وأنهم لو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر، ولم يستفيدوا من الرجوع والإمهال، وذٰلك لخبث نفوسهم، كما أنه لا يتلقاهم أحد برأفةٍ ورحمة، ولا ينظر إليهم نظرةَ قبول؛ لأنهم ملعونون من الناس، ومن خلق اللّٰه أجمعين.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾:

مرتبطٌ بما قبله من آية الكتمان وسوء عواقبه، حيث ذكرت الآية الضالين والكاتمين لهداية اللّٰه وبيناته، المفضِّلين عليها نظريات رؤسائهم وزعمائهم في الضلال، اعتمادًا عليهم في الدنيا، ورجاء نفعهم في الآخرة أنهم لن يغنوا عنهم من اللّٰه شيئًا، وإنما حرموهم رحمة الرَّحمٰن الرحيم، باتباع خطتهم، ولهٰذا قال ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، يعني: إلٰهكم الحق الحقيق بالعبادة، وإسلام الوجه، وحصر المقاصد لوجهه الكريم بكل صدق وإخلاص، فلا تشركوا به شيئًا بانصراف قلوبكم إلىٰ غيره من أي مقدس حي أو ميت، صامت أو ناطق.

وإن اللّٰه ﷻ لم يقل في هٰذه الآية الكريمة: «وربكم رب واحد»؛ بل قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ لأن المشركين المعاصرين للتنزيل لم ينكروا توحيد الربوبية ـ كما ثبت ذٰلك في القرآن ـ، وإنما أنكروا توحيد الألوهية، فكفرهم أهون من كفر المعاصرين اليوم بكثير؛ لأن الكفار المعاصرين من العرب والعجم أنكروا توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية جميعًا! وإنكارهم لذٰلك ـ مع أنه هدم للدين من الأساس ـ، فإنه جناية علىٰ العقل والفطرة، ومغالطة للشعور والوجدان؛ إذ ما من إنسان إلَّا وعنده شعور ذاتي أقوىٰ من شعوره بالجوع والعطش بأنه مخلوق وأن له خالقًا، وللكون موجدًا قادرًا علىٰ كل شيء.

وقد أوضح اللّٰه في آيات كثيرة من القرآن عن الشعور الكامن في نفوس

بني الإنسان بوجود اللَّه، وأنه يتحولُ في الشدائد إلىٰ نداءٍ مسموع ترتفع به الأيدي، وتنتكس له الرؤوس، تعظيمًا للَّهِ ﷻ، وخضوعًا ورجاءً من أعماق النفوس، ومن ذٰلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الروم].

والآيات في ذٰلك كثيرة؛ تنبئ عما أودع اللَّه من فطرته في قلوب الناس.

وإليك بعض أقوال الفلاسفة الذين شهدوا أن الإيمان باللَّه لا يحتاج إلىٰ دليل:

فقد جاء في الجزء الأول من «دائرة معارف ـ فريد وجدي»، ص (٤٨٣) ما نصه: قال الفيلسوف «باسكال»: كل شيء غير اللَّه لا يشفي لنا غليلًا.

وقال «لامتيه»: الكلمة التي تجحد الخالق تحرق شفةَ المتلفِّظِ بها.

وقال «لامارتين»: إنَّ ضميرًا خاليًا من اللَّه كالمحكمة الخالية من القاضي.

إلىٰ آخر الأقوال التي ساقتها دائرة المعارف، والتي بمجملها تشهد بوجود اللَّه، وأن وجوده ضرورة عقلية.

أما الفيلسوف المشهور «ديكارت»؛ فقد قال: «إني ـ مع شعوري بنقص ذاتي ـ؛ أحس في الوقت ذاته بوجوب وجود ذاتٍ كاملة، وأراني مضطرًّا للاعتقاد بأن هٰذا الشعور قد غرسَتْه في ذاتي تلك الذاتُ الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال، وهي اللَّه».

وقال: «إني لم أخلُق ذاتي بنفسي، وإلَّا فقد كنت أعطيها سائر صفات الكمال التي أدركتها. إذن أنا مخلوق بذاتٍ أخرىٰ، وتلك

الذات يجب أن تكون حائزةً جميع صفات الكمال، وإلَّا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذي طبقته علىٰ نفسي». وله كلام طيب غير هٰذا أعرضت عنه اختصارًا.

وقال العلامة «هرشل» ـ وهو من كبار الفلكيين ـ: «كلما اتسع نطاق العلم؛ ازدادت البراهين الدامغة القوية علىٰ وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهايته، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا علىٰ تشييد صرح العلم، وهو في الواقع صرحُ عظمةِ اللَّه وحده».

وقال العلامة الفزيولوجي الطائر الصيت «لينيه»: «إن اللَّه الأزلي الكبير العالم بكل شيء والمقتدر علىٰ كل شيء، قد تجلىٰ لي ببدائع صنعه حتىٰ صرت دهشًا متحيرًّا، فأي قدرة، وأي حكمة، وأي إبداع أودعه مصنوعات يده ـ سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها ـ! إن المنافع التي نستمدها من هٰذه الكائنات تشهد بعظم رحمة اللَّه الذي سخرها لنا، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذٰلك حفظها عن التلاشي وتجدُّدها يقر بجلال اللَّه وعظمته».

ويقول الأستاذ «كاميل فلامريون»: «الإلحاد أحقر من أن ينتسب إلىٰ العلم أو العقل، أو أن يسمَّىٰ «مذهبًا إنسانيًّا»، وأقل وأصغر من أن يُهتمَّ بشأنه، بل الإلحاد لا يُلِمُّ إلَّا ببعض العقول المستعدة لهمزات شياطين الوساوس».

إن الإحساس بالعقيدة ألصق بفؤاد الإنسان من كل إحساس فيه، وليس المنكِر لها بأقل إحساسًا بها من سواه، بل ربما كان تظاهره بالجحود والنكران حجةً ناطقةً علىٰ أنه أشد الناس تأثرًا بها، إلَّا أنه ضل الطريق وأخطأ المَهْيَع[1]، فقذفت به حيرته إلىٰ متاهات من النظريات هي ظلمات بعضها فوق بعض، فلم ير المَخلَص منها إلَّا

---

(١) **المَهيع**: الطريق.

فرض الفروض وابتكار السفسطات التي لو خلا بها يومًا وحكَّم فيها فطرته؛ لضرب بها عَرض الحائط، ولعلم أن إحساسه في وادٍ وما تخيله منها في وادٍ آخر.

وإنا لو سئلنا يومًا عمن هو أكذب الناس علىٰ نفسه؛ لقلنا بدون شك ولا تردد: إنه هو الرجل يزعم أنه ملحد» انتهىٰ.

ونحن أغنياء بأدلة وحي اللَّه علىٰ وجوده عن أقوال الفلاسفة، ولٰكن نقلنا بعضها ليعتبر المضبوعون بفلاسفة الغرب وعلومهم، فيعرفوا المنصفين منهم.

ولا شك أن الإيمان باللَّه أمر ضروري مركوز في عقل الإنسان وضميره، لا يحتاج إلىٰ دليل من خارج، فالذي ينكر وجود اللَّه لا يمكن أن يكون محكِّمًا عقله وضميره، وإنما هو منحرف مع من صادر عقله واطمأن بمصادرته له، فكان فاقد العقل والضمير لقبوله مصادرة شياطين الإنس لهما.

فالإيمان بوجود اللَّه سبحانه مركوز في ذات كل إنسان بفطرته ـ ما لم تفسدها الشياطين ـ، والكرامة الإنسانية مستمدة من هٰذا الإيمان، وجميع الآمال التي يحيا الإنسان بها ويعيش عليها مصدرها ذٰلك الإيمان باللَّه المُفيض لتلك الآمال، ولٰكن بشرط تحقيق التوحيد الذي يدعو إليه القرآن، ومِن قَبلِه جاءت جميع الرسل.

وينبغي أن يُعلم أن جميع الصراع الحاصل بين الأنبياء وأممهم ليس في توحيد الربوبية، فإنهم جميعًا متفقون علىٰ الإيمان بالخالق الرازق المدبر، ومؤمنون بانفراده بالخلق والرزق والتدبير، لٰكن البلية جاءت والخصومة تفاقمت في توحيد الألوهية، ففيه انحصر النزاع، ومن المؤسف أن الجاهلية الأولىٰ تعرف من توحيد الألوهية ما لا يعرفه أهل الجاهلية الجديدة. ولٰكن الماسونية اليهودية خططت لزعماء الجاهلية الجديدة في هٰذا الزمان ما تصرفهم به عن حقيقة

توحيد الألوهية، وتجعلهم ينازعون اللّٰه في مقتضيات ذٰلك التوحيد، وإنما انحصر النزاع في توحيد الألوهية وشَرِقَ به زعماء كل جاهلية قديمًا وحديثًا؛ لأنه يقضي علىٰ سلطانهم ونفوذهم، ويذهب بالميزة التي فرضوها لأنفسهم علىٰ سائر الناس، ويساويهم بغيرهم، ولا يعترف لهم بشيء من أنانياتهم وأغراضهم النفسية؛ ولهٰذه الأسباب كانوا خصومًا ألداء لتوحيد الألوهية، وإن اعترفوا بتوحيد الربوبية اعترافًا سطحيًّا. وكذٰلك أفراخ الإفرنج ممن تربَّوا علىٰ الثقافة الماسونية التي تسمىٰ بـ«الأفكار العصرية»، ولٰكنهم يلجؤون إلىٰ مغالطة جديدة؛ وهي «فصل الدين عن الدولة»، أي فصله عن السياسة، وجعله محصورًا في المساجد والزوايا ونحوها[١]، وهم لا يرضون لأفكارهم ومذاهبهم المادية أن تكون محصورةً في النوادي، وأن يجري الحكم والسياسة علىٰ خلافها، فقد جعلوا لأنفسهم منزلةً أعظم من اللّٰه، بل نادَوا بعزل اللّٰه سبحانه عن ألوهيته وسلطانه في الأرض؛ بجعلهم الحكم والسياسة لمبادئهم ومذاهبهم فقط من دون حكم اللّٰه وشرعه، فكانوا كاليهود الذين بدلوا قولًا غير الذي قيل لهم.

وما قيمة دين تملىٰ عليه الإرادة من غير طريق اللّٰه؛ تملىٰ عليه الرقابة من المتهوِّسين، وتكمم أفواه أهله، وتفرض الرقابة علىٰ منابره؟ إذن لا يجوز تسميته «دينًا» بِهٰذا الاعتبار، ولٰكنهم يلبِّسون علىٰ الناس بما جرىٰ من أهل أوروبا بافتياتهم علىٰ دين النصرانية واطراحهم له.

ومن المعلوم أن دين النصرانية الرائج دين مكذوب، وهو مجرد افتراء علىٰ اللّٰه، وهو دين الكنيسة الذي وضعه اليهود للنصارىٰ بطقوس لا تصلح للحياة، وجعلوه يحجِّر العقل ويحرِّم العلم، ويعادي الصنعة والاختراع، فهو دين مكذوب اخترعه اليهود ليلعبوا به علىٰ

---

(١) وحتىٰ في المساجد والزوايا، صاروا لا يسمحون بدين يخالف سياستهم، فإلىٰ اللّٰه المشتكىٰ.

النصارىٰ، ولهٰذا اضطرهم واقع الحياة علىٰ اطراحه والثورة عليه، مع أن نفس الثورة عليه هي من صنع اليهود ـ أيضًا ـ، ليبثُّوا الإلحاد والخَواء الروحي في العالم، وليوجدوا حكوماتٍ علمانيةً تسعىٰ لصالحهم بسبب عدم ارتباطها باللَّه ﷻ.

وقد ظهر جليًّا من سير الأحداث في القرون الأخيرة: أن فصل الدين عن الدولة وإقصاءه عن السياسة هو لصالح اليهودية العالمية، إذ لا شك أن وعي العالم لو قام علىٰ أساس ديني سماوي صحيح ما قامت لليهود قائمة، فقد اتضح انحياز جميع الدول العلمانية لليهود وعملها لصالحهم، وأن تقدميتهم المزعومة ليست لصالح بلادهم وشعوبهم، بل هي لصالح اليهود، وليس عندهم سوىٰ الدجل والمغالطة والتلبيس.

و«اللَّه» في اللغة أصله «الإلٰه» كما قال ابن جرير وغيره، وأما تأويله فعلىٰ ما قاله ابن عباس من أنه هو الذي يألهُه كل شيء، ويعبده كل خلق.

وساق ابن جرير بسنده عن الضحاك عن عبداللَّه بن عباس قال: «اللَّه ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين».

ولا شك أن الإلٰه هو المعبود وأن له أصلًا في فَعَل ويَفعَل؛ كما قال رؤبة ابن العجاج:

للَّهِ درُّ الغانيات المُدَّهِ سبَّحْنَ واسترْجَعْنَ من تألُّهي

يعني من تعبدي وطلبي اللَّه بعملي، فالتعبد والتأله كالتفعل من ألِه يألَهُ، وقد جاء مصدرٌ يدل علىٰ أن العرب قد نطقت به، وذٰلك من حديث سفيان ابن وكيع، عن ابن عباس ﵄ أنه قرأ عن فرعون: «ويَذرَك وإلاهَتَك». وورد في قراءة ثالثة: «ويذرك وإلهيَّتك». قال: عبادتك، ويقول: إنه كان يُعبد ولا يَعبد، وقال في «لسان العرب»: «التأله» هو التنسك والتعبد.

قال ابن القيم ﵀: لهٰذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية...

ثم ساقها، وقال: وأما خصائصه المعنوية؛ فقد قال أعلم الخلق ﷺ: «**لا أُحصي ثناءً عليك؛ أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك**»[(١)].

وكيف تُحصىٰ خصائص اسم لمسماه كل كمال علىٰ الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء ومجد، وكل جلال وكمال، وكل عز وجمال، وكل خير وإحسان وجود وفضل وبر، فإنه له ومنه؟! فما ذُكر هٰذا الاسم العظيم في قليل إلَّا كثره، ولا عند خوف إلَّا أزاله، ولا عند كرب إلَّا كشفه، ولا عند همٍّ وغم إلَّا فرَّجه، ولا عند ضيق إلَّا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلَّا أكسبه القوة، ولا ذليل إلَّا أناله العز، ولا فقير إلَّا أكسبه الغنىٰ، ولا مستوحش إلَّا آنسه، ولا مغلوب إلَّا نصره، ولا متضرِّر إلَّا كشف ضره، ولا مضطر إلَّا يسر أمره، ولا شريد إلَّا آواه، فهو الاسم الذي تُكشف به الكربات، وتُستنزل به الرحمات والبركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات. وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسماوات، وبه أنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، وشرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وشرع الجهاد، وبه انقسمت الإنسانية إلىٰ شقي وسعيد، وبه توضع الموازين يوم القيامة، وينصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبحقه بعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقي من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا، فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلَّا مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه، وذٰلك ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران]. انتهىٰ بتصرف.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أيضًا ـ: فاسمه «اللَّه» دال علىٰ كونه مألوهًا معبودًا، تألهُهُ الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا ومفزعًا إليه في الحوائج

(١) رواه مسلم (٤٨٦).

والنوائب، وذٰلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمِّنين لكمال المُلك والحمد. وإلاهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذٰلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أقواله وأفعاله، فصفات الجلال والجمال أخص باسم «اللَّه»، وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة، وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة، أخص باسم «الرب»، وصفات الإحسان، والجود، والبر، والحنان، والمنة، والرأفة، والعطف، أخص باسم «الرَّحمٰن» اهـ.

واسم «اللَّه» هو الجامع لجميع الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، وقد تقدم اشتقاقه من «الإلٰه»، وجميع الأسماء مشتقة من هٰذا الاسم المبارك، وقد أنكر بعض العلماء القول بالاشتقاق حذرًا من الاشتقاق المادي المستمد من أصل آخر؛ أو المتولد تولد الفرع من أصله، ولٰكن حقيقة الأمر أن القائلين بالاشتقاق ـ وهم الكثرة ـ لم يريدوا هٰذا المعنىٰ، ولم يخطر لهم علىٰ بال، وإنما أرادوا أنه دال علىٰ صفة له تعالىٰ وهي الإلٰهية؛ كسائر أسمائه الحسنىٰ من العليم والقدير، والسميع والبصير، والغفور والرحيم، فإن هٰذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاقًا ماديًّا، وإنما هو اشتقاق تلازم؛ سمِّي المتضمِّن ـ بكسر الميم ـ مشتقًا، والمتضَمَّن ـ بفتح الضاد والميم ـ مشتقًّا منه، ولا محذور في اشتقاق أسمائه سبحانه بِهٰذا المعنىٰ؛ لأننا لا نعني بالاشتقاق إلَّا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنىٰ، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلًا وفرعًا، ليس معناه أن أحدهما متولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

وتوحيد الألوهية من لوازم الدين، ولهٰذا لم ينفع المشركين اعترافُهم

بتوحيد الربوبية؛ مع إنكارهم لتوحيد الألوهية الذي يُلزمهم عبادته والخضوع لحكمه في كل شيء؛ لأنه بإنكارهم توحيد الألوهية جعلوا لأنفسهم الخيرة في جميع شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهٰذه طبيعة كل جاهلية، فإن قوم شعيب قالوا له متهكمين: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧].

ومن لم يقم بواجب توحيد الألوهية ويعمل بمقتضاه انغلق قلبه، وأصبح مظلمًا منطبعًا بطابع الغواية والضلال، وغضب اللَّه عليه، فزاده زيغًا وضلالة، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥]، ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ [مريم: ٧٥]، بخلاف من حقق توحيد الألوهية اعترافًا وعملًا؛ لأن المتأله للَّه بالعبادة ـ حبًّا، وتعظيمًا، وإقبالًا، وانقيادًا ـ تشرق علىٰ نفسه صفاتُ اللَّه وأسماؤه الحسنىٰ إشراقةً روحيةً، يتنور بها قلبه، ويصفو من جميع الشوائب، فتزكو نفسه، ويتلذذ قلبه بمعرفة اللَّه ومحبته، ويتكيف قلبه بأسماء اللَّه وصفاته، فيعامل اللَّه بمدلولاتها العظيمة، ويكون عبدًا شكورًا.

فتوحيد الألوهية هو الذي يحرر النفوس من رق العبودية لغير اللَّه، ويرتفع بها عن الذل لأي مخلوق، وعن الخضوع لأي سلطان باطل، ويحميها من الخوف من أي قوة أو دولة، لما يغرس فيها من عظمة اللَّه، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لا يُعجزه أي شيء، ويعمِّر القلوب بتقوىٰ اللَّه ومراقبته، فيقتلع منها جذور الأنانية والشهوات النفسية؛ لأن لأسماء اللَّه الحسنىٰ إشراقةً روحيةً عظيمةً في نفوس المؤمنين، يحس بها من صفا قلبه بالإيمان، وزكت نفسه بنور أسماء اللَّه وصفاته، فأرهف شعوره الداخلي ووجدانه؛ فإن المؤمن الموقن بأن اللَّه متصف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، وأنه قديم بلا بداية، باقٍ بلا نهاية، وأنه غني بذاته عما سواه، وما سواه فقير إليه، فإنه يدرك ـ علىٰ ما فيه من نقص ـ أنه قد خلقه إلٰهٌ كامل، وعلىٰ ما فيه من ضعف أنه مربوب لرب قوي، وأن سنده وملجأه ذٰلك الإلٰهُ الذي له الأمر وإليه

يرجع الأمر كله، فلا يليق به أن يَذِلَّ لغير ربه، أو يخضع لغير مالك أمره، فهو من اللَّه وباللَّه وإلىٰ اللَّه.

والذي يحقق توحيد الألوهية ينفض عن نفسه آثار الشرك في قوله وعمله ومقاصده، ويتطهر منه في تصرفاته ـ كما تطهر منه في عقيدته ـ؛ فاللَّه وحده معبوده، لا يعبد سواه، ولا يرجو غيره أو يخشاه، ولاعتقاده أن اللَّه عليم حكيم، لا يعرض مشاكله إلَّا علىٰ اللَّه، ولا يطلب لها حلولًا من غير وحيه المبارك، وكذٰلك لاعتقاده قدرة اللَّه علىٰ كل شيء، وهيمنته علىٰ كل شيء، لا يستغيث ولا يستعين إلَّا باللَّه، وباعتقاده رحمة اللَّه ورأفته، لا يضرع إلَّا إليه، ولا يرجو أحدًا سواه، ولاعتقاده أنه مجيب دعوة الداعين، لا يطلب وساطة بينه وبين اللَّه، لا ملَكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا، فضلًا عن أصناف المقبورين الذين افتُتن بهم فاقدو التوحيد، ويشعر مستيقنًا أن كل ما أبعده عن عبادة اللَّه أو أغراه علىٰ اللهو، فهو شيطان تجب معاداته في اللَّه، وباعتقاده أن اللَّه رقيب عليه وحسيب، يبتعد عن المعاصي خجلًا من ربه أن يراه عليها، وكان ملازمًا للصدق مع اللَّه والإخلاص له.

وهٰكذا من يؤمن بعلم اللَّه وقدرته وإرادته، وأنه يرىٰ ويسمع ولا تخفىٰ عليه خافية؛ يجد الحياة مع اللَّه هي الحياة، ويجدها المتعة التي لا حد لها.

فهٰذه بعض آثار إشراقة صفات اللَّه علىٰ قلب المؤمن، تُفيض عليه وعلىٰ من صاحَبَهُ الخير والراحة والأمل، وتوجِّهه لحسن العمل، وتجعله في أمن دائم من القلق والاضطراب الذي يبتلىٰ به فاقد الإيمان.

فإن المؤمن يشعر بحرية إنسانيته حيث يحيا حياته الروحية الحقيقية في كنف رحمة اللَّه وظل كرمه وعفوه، فيعبده ويرجوه ويذكره في خلوته وجلوته، ويدعوه في سره وجهره، لا سلطان لأحد علىٰ قلبه وضميره إلَّا اللَّه، وليس مستعبَدًا لمخلوق في روحه ومشاعره، فهو

يشعر بكرامته وقيمته، ويعلي من شأن تصرفاته وأعماله، ويملأ قلبه بمعرفة اللَّه، وبحسن معاملته للَّه، فيستمد منه القوة إذا ضعف، والنصرة إذا حارب، والأمن إذا خاف، والسلامة إذا حدقت به الأخطار.

وهٰذا النوع من الإيمان يضيء أمام المؤمن جوانب الحياة، فيخطو غير مضطرب، ويعيش غير معقد ولا مكبوت، ويتصرف علىٰ هدًىٰ من اللَّه، لا تلتوي به المسالك، ولا تميله مغريات الحياة عن صراط اللَّه، وهٰذا النوع من الإيمان يعلي شأن المؤمن، ويسمو به إلىٰ القمة، ويدفعه إلىٰ اقتحام الشدائد وارتكاب الأهوال، وتحمُّل الصعاب في سبيل هدفه الديني الذي هو إعلاء كلمة اللَّه، ويفجِّر طاقاته إلىٰ غير مدًىٰ، فينطلق لإعلاء كلمة اللَّه بلا حدود؛ لأنه يرتبط قلبيًّا بربه، ويحس بالعزة والسيادة في رحابه وحماه، فتتسع آفاق إدراكه لأهدافه الربانية وينشط لتحقيقها، وتحفه حصانة اللَّه ومدده ونصره.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فلا ينبغي للعبد أن يعرض عن أسباب رحمته اعتمادًا علىٰ رحمة سواه، فحسب المؤمنَ هٰذه الرحمة الواسعة، ولا عليه إلَّا أن يتعرض لها، وإلَّا كان خاسرًا حسيرًا.

وفي ختام الرب الجليل سبحانه لآية الألوهية بِهٰذين الاسمين العظيمين تنبيهٌ للناس إلىٰ أن المنافع التي يرقبونها من شركهم إنما هي بيده سبحانه فقط؛ فكأنه تعالىٰ يقول لهم: إذا أنتم تركتم ما أنتم فيه لأجلي، فإني بتفردي بالألوهية أكفيكم كل شر تخافونه برحمتي، وأعطيكم من فضلي الواسع كل ما ترجونه برحمتي؛ لأن ملكوت كل شيء بيدي، وأن ما تعتمدون عليه من دوني فليس أهلًا لذٰلك، بل إن اعتمادكم عليه شرك يجب أن تطرحوه.

وما أنسب ختامه لآية الألوهية بذكر اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ برحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرَّف عبادَه نفسه بصفاته وآلائه، وبين

لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فمن أظلم الظلم وأقبح القبيح أن يُعدَلَ عن عبادته إلىٰ عبادة غيره من أنواع الهوىٰ.

📖 **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

لما ذكر اللَّه سبحانه في الآية السابقة تقرير إلٰهيته ووحدانيته وعظيم رحمته بخلقه، أتبعها بذكر بعض آياته الكونية الدالة علىٰ وجوده وعلىٰ وحدانيته ورحمته جَلَّوَعَلَا، مخبرًا أن هٰذه المخلوقاتِ العظيمةَ فيها دلالات واضحة علىٰ ذٰلك، لمن استعمل عقله بالتفكير الاستقلالي الصحيح، الذي لا يخضع للتقليد، ولا يتأثر بالأقوال السلبية التي لا مستند لها سوىٰ الجحود والشرود عن الحقيقة؛ فإن في هٰذه الآية إثباتًا لمضمون ما قبلها بالدلائل العقلية، كطريقة القرآن في قرن المسائل الاعتقادية بدلائلها وبراهينها التي لا تدع مجالًا للشك العقلي الصحيح، وهٰذه الآيات أجناس:

فأولها وثانيها: خلق السماوات والأرض: ففيها آيات واضحات كثيرة الأنواع، ظواهرها تدهش المتأملين، فكيف بمن اكتشف بعض عجائبها الدالة علىٰ أن ما لم يعرفوه أكثرُ وأعظم مما عرفوه! فهٰذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وإحكامها وإتقانها وما زينها اللَّه به من النجوم التي لا يحصيها الحصر، وما جعل فيها من الشمس والقمر، وتنظيمهما لمصالح العباد، وهٰذه الأرض التي جعلها اللَّه مهادًا للخلق، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما فيها من كل دابة ومادة.

فالسماوات التي تتألف من أجرام يبعد بعضها عن بعض بما يقدر

بالملايين، ولكل قسم منها نظام كامل محكم؛ بحيث لا يُبطل نظامُ بعضها نظامَ الآخر ولا يصطدم به؛ لأن للمجموع نظامًا عامًّا وخاصًّا يدل علىٰ صدوره من إلٰهٍ واحد قادر لا شريك له في خلقه وتقديره وحكمته وتدبيره، وخصوصًا ما يقرب منا مما يسمىٰ في مصطلح العصر الحديث «بالنظام الشمسي»، نسبةً إلىٰ الشمس التي جعلها اللَّه تفيض أنوارها علىٰ الأرض؛ فتكون سببًا للحياة النباتية والحيوانية فيها بإذن اللَّه.

وفي الكواكب التابعة لهٰذه الشمس عبرة عظيمة، فإنها علىٰ اختلاف مقاديرها وأبعادها قد استقر كلٌّ منها في مداره، وحَفظت النسبة فيما بينها بضبط إلٰهيٍّ حكيم، بحيث لا ينفلت بعضها فيصطدم ببعض أبدًا.

فهٰذا النظام من جملة الآيات الدالة علىٰ الوحدانية والرحمة الإلٰهيَّة، خلافًا لما زعمه بعض الفلكيين من نظام «الجاذبية» الذي هو الآن سائر في طريق التفنيد، مع أنه إن كان حقًّا فهو من صنع اللَّه الحكيم الخبير وتقديره وتدبيره بلا شك.

فالسماوات تشير إلىٰ آياتها عن بعد، ولٰكن الأرض التي نحن عليها هي أقرب شاهد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات]، فجرمها ومادتها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان، لكل منها نظام عجيب وسنة إلٰهيَّة مطردة في تكوينها، وتوالد ما يتوالد منها ونمو موادها، بحيث أن كل من دقق النظر في أنواع الجمادات ـ في الصخور المختلفة الأنواع، والجواهر المتعددة الخواص والألوان ـ يشاهد في النظام وأنواع منافعها ما يستيقن به أنها صنعة إلٰهٍ واحد حكيم رحيم لا شريك له في الخلق والتدبير.

فكيف لمن دقق النظر في أنواع الحيوانات، واختلاف تكوينها وتصويرها مما هو عظيم الخلقة كالبعير والفيل ونحوهما، وما هو صغير الخلقة كالفراش وأصغر منه، كل نوع منها له هيكل خاص، وتصوير خاص، ووظيفة وطريقة خاصة، وكلٌّ له إحساسه قد هداه اللَّه

إلىٰ الطريقة التي يسلكها ويعيش بها في حياته، ويدفع بها ما يؤذيه، ويفترس بها ما يقدر عليه، ومنها ما يمشي علىٰ بطنه، ومنها ما يمشي علىٰ رجلين، ومنها ما يمشي علىٰ أربع، كما ذكر اللَّه في الآية (٤٥) من سورة «النور»، ومنها ما له أرجل كثيرة جدًّا، ولٰكن اعتماده منها علىٰ أربع وباقيها كمساعد لها، وكذٰلك اختلاف النبات ومنافعه! كل هٰذا من آيات اللَّه الدالة علىٰ وحدانيته وعظيم رحمته.

نحن مع هٰذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمام سبع آيات عظام، هن علامات واضحة حسية مشاهدة تدل بكل جلاء ووضوح علىٰ وجود اللَّه بكامل أسمائه وصفاته وأفعاله، فالسماء بجوها وفضائها، والنجوم السائرة والدائرة فيها، والقوانين الإلٰهيَّة التي تحكم الروابط بين كل نجم وغيره من النجوم، وبين كل كوكب وغيره من الكواكب، وبين كل نجم وتابعيه من الكواكب، وبين كل كوكب وتابعه من الأقمار؛ كل هٰذا لم يدرك العلم الحديث سعته مع ما يملكه من آلات الإدراك ووسائله، ولم يكتشف سوىٰ القليل جدًّا من أسراره.

وقد حاول الإنسان منذ القدم وأجهد نفسه ليكتشف أسرار الكون، فاكتشف بعضها؛ ولٰكنه تحقق عنده أن ما يجهله أضعافُ أضعافِ ما يعلمه، فصدق اللَّه العظيم: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد أي سبب طبيعي استطاع أن يوجِّه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة، وعلىٰ مستوًىٰ واحد بدون حدوث أي تغيير يذكر، فالنظر لهٰذا الترتيب يدل علىٰ وجود حكمة سيطرت عليه من رب إلٰهٍ قادر حكيم، وقد قرر مثل هٰذا وأكثر بعض علماء الفلك في عصره ـ كما تقدم تفصيله ـ.

ثم إن هٰذا العالم بأرضه ومائه وجد في مكانه الصحيح، وقد قرر العلم الحديث أن المحيطات لو كانت أعمق مما هي عليه بضعة آلاف من الأقدام لما كان لدينا «أوكسجين» ولا نباتات.

والأرض التي نحيا فيها كلها آيات، فمنها البر والبحر والجبال والأودية والأنهار والجداول، وما يحيط بها من هواء، وما يعلوها من سحاب، وما يدور حولها من أثير، وفيها الإنسان والحيوان والنبات، وفيها الحشرات وغيرها مما لا يدرك بالأبصار، وما يسميه العلم الحديث بـ«الفيروسات» و«البكتريا»، وفيها من أنواع النبات والأشجار والحيوان ما لا يحصىٰ عددًا، وكل ما فيها ومن فيها أعطاه اللَّه ﷻ ما يحتاجه وما يناسبه بميزان عادل، وتقدير إلٰهي دقيق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر]، وكل ما ذكر في هٰذه الآيات هو مشاهد محسوس لو تأمله الإنسان بعين مفتوحة وقلب واع لارتجف كيانه من عظمة قدرة اللَّه وحكمته وجبروته.

الآيـة الثالـثة ـ أو الجنس الثالث في الآيات ـ: في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو كونهما يتعاقبان علىٰ نسق، ويختلفان في ضياء وغسق، إذا ذهب أحدهما خَلَفَه الآخر، واختلافهما شيء محسوس، اختلاف في الطول والقِصر والتوسط، إذا طال أحدهما قصر الآخر، وإذا اعتدل أحدهما اعتدل الآخر، فاستويا في المقدار، ثم اختلاف في الحر والبرد والتوسط حسب الفصول التي قدرها اللَّه سبحانه مما فيه انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم وجميع ما سخر اللَّه لهم في الأرض من نباتٍ ومواد، كل ذٰلك بتدبير يُبهِرُ العقول.

وفي آية اختلاف الليل والنهار من المنافع والمصالح ما يدل علىٰ وحدانية اللَّه مبدع هٰذا الكون العظيم، كما يدل علىٰ رحمته بعباده، وهي آية يسهل علىٰ كل أحد فهمها؛ وإن لم يعرف أسباب ذٰلك الاختلاف وتقديره، وقد جاء بيان لذٰلك في سورة «الإسراء» من قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء]، ففي هٰذه الآية إرشاد دنيوي إلىٰ ما في اختلاف الليل والنهار من المصالح العامة.

وهناك إرشاد ديني في ذٰلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان]؛ فإن فيها إرشادًا دينيًّا وسياسيًّا يأتي توضيحه في موضعه من سورة «الفرقان» ـ إن شاء اللّٰه تعالىٰ ـ.

وهناك آيات تشير إلىٰ أسباب هٰذا الاختلاف كقوله سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]. فاختلاف الليل والنهار بحساب دقيق يطول فيه الليل بمقدار وعلىٰ مهل، وينقص النهار فيه بمقدار وعلىٰ مهل، حتىٰ يكون النهار أقل من عشر ساعات، ثم يعود فيأخذ في الطول علىٰ دقيقة ونصف تقريبًا حتىٰ يكون أكثر من أربع عشرة ساعة، كما كان الليل كذٰلك، ويعود النقص في الليل إلىٰ أقل من عشر ساعات، وهٰكذا فتمر آلاف السنين دون أن يختلف هٰذا النظام أو يضطرب، وهٰذا دليل واضح علىٰ وحدانية موجدهما وواهبهما للناس، ومقدِّرهما بِهٰذا التقدير المطرد علىٰ ممر الدهر، رحمة منه وفضلًا.

والآية الرابعة: في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾. و«الفُلك» بضم الفاء: اسم للسفينة مفردةً أو مجموعةً، والنكتة في الإتيان بِهٰذه الآية عقب آية الليل والنهار ـ مع أن الظاهر يقضي بتأخيرها؛ ليكون ما للإنسان فيه صنعة علىٰ حدة، وما ليس له فيه صنع علىٰ حدة ـ هي أن المسافرين في البر والبحر هم أشد الناس حاجةً إلىٰ تحديد اختلاف الليل والنهار، ومراقبته علىٰ الوجه الذي ينتفعون به، وأهل البحر أحوج إلىٰ معرفة الأوقات وتحديدها لشدة خطر الجهل عليهم بذٰلك، ولذٰلك كان من ضرورياتهم معرفة النجوم والبروج، فعِلم الليل والنهار من فروع هٰذا العلم.

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فهٰذا وجه الترتيب بين ذكر الفلك واختلاف الليل والنهار في النسق القرآني البديع، فتسخير الفلك في البحر آية من آيات اللّٰه، ورحمة

من رحماته الواسعة، من السفن الشراعية والمراكب البخارية التي تعبر المحيطات وتحمل الأثقال، وتنقل ما شاء الإنسان من أنواع البضائع، جعل اللّٰه لها نظامًا مع الماء، إذا استوت معه أمنت، وإذا أخلت به هلكت، وسخَّر اللّٰه الرياح لها تسوقها، وتسير أمواج الماء لصالح الذاهبين تارةً والراجعين تارةً وبالعكس، كما سخر البحر للسفن الصغار والكبار علىٰ ما فيه من أمواج كالجبال. قال ﷻ في سورة «الشورىٰ»: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورىٰ].

ومن عظيم ألوهيته وواسع رحمته: أن علَّم البشر وأقدرهم علىٰ تسخير الحديد وسائر المواد الأخرىٰ، ليصنعوا السفن الكبار التي هي كمدينة عائمة في البحر تحمل عشرات الآلاف من أطنان البضائع المختلفة والمواد الغذائية، والركاب الذين يبلغون المئات والألوف، والسفن الأخرىٰ العظيمة التي تحمل الزيت البترولي إلىٰ موانئ العالم، يسيرها اللّٰه بقدرته وحكمته علىٰ أيدي البشر، وإن شاء إغراقها وإتلافها قدَّر لها ما يُحدِثُ ذٰلك، كما أقدر البشر علىٰ صنع السفن الجوية والقطارات والسيارات البرية. وقد أشار إلىٰ هٰذا بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]. وبقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

فالسفن بجميع أنواعها، وسائرُ وسائط النقل البحرية والبرية والجوية، وتسخيرها بما ينفع الناس بإذن اللّٰه، وتمكينه للبشر من ذٰلك، وتزويده بالعلم الذي يجعله يُبدع في اختراع هٰذه الأشياء: كله من دلائل وحدانيته سبحانه وعظيم قدرته، وجزيل رحمته التي وسعت كل شيء مما جعله اللّٰه في طبيعة الماء، وأفهم البشر قوانين النقل والتوازن، كما أفهمهم طبيعة الأمواج والرياح ليأخذوا الحيطة اللازمة في البحار، وهو مسبِّب الأسباب وخالقها.

الآيـة الخامسة: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، والسماء المقصود هنا جهة العلو الذي يتكون فيه السحاب بأمر اللّٰه ومشيئته، فاللّٰه ينزل الماء الطهور العذب جدًّا من السماء، سواء كان ذٰلك بما يسببه من حرارة الشمس التي تبخِّر الماء فيتجمع سحبًا في الفضاء، أو كان بوسيلة غير ذٰلك مما تفعله قدرة اللّٰه الغالبة.

وقد استنتج بعض المفسرين من قوله ﷻ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات]، أن المطر ينشئه اللّٰه من تبخُّر الأرض والبحار بالشمس! وقد يكون استنباطه من خضوعه لأقوال الجغرافيين القدامىٰ والمتأخرين، الذين يَعْزُون كل شيء إلىٰ أسباب طبيعية دون أن يذكروا فيها تأثيرًا للّٰه سبحانه، فالرجل أراد أن يثبت التأثير للّٰه في ذٰلك، وأنه جعل حرارة الشمس والهواء هي التي تبخر الماء والرطوبات، وتثيرها الرياح في الجو حتىٰ تتكاثف ببرودتها، وتكوِّن كِسَفًا من السحاب يتخلل منه الماء بقدرة اللّٰه وتسخيره.

ووحي اللّٰه ـ من كتاب وسنة ـ لم يفسر هٰذا بِهٰذا، ولم يتعرض لتفاصيله، ولٰكن لما تفاقم شر الجغرافيين ـ الذين يؤلفون ويدرسون حكاية المطر ومنشأه التبخري بصيغة جافة خاوية من الروحانية ليس للّٰه فيها ذكر أبدًا ـ؛ كان علىٰ المسلمين أن يقابلوهم بما يثبت أن المسبب لذٰلك هو اللّٰه، وأن المؤثر فيه هو اللّٰه، وأن الذي يرسل الرياح فتثير سحابًا هو اللّٰه، وأن الذي يصرِّف السحاب كيف يشاء ويسوقه إلىٰ ما يشاء هو اللّٰه، وأن الذي ينزل المطر هو اللّٰه، وأن الذي يصيب به من يشاء هو اللّٰه، ويصرفه عمن يشاء هو اللّٰه، وأن مسبِّب الأسباب وطابع الطبائع هو اللّٰه، وعندئذ ينطبع القارئ والطالب بطابع العقيدة الروحية.

وقد قال سبحانه في الآية (٤٨) من سورة «الروم»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، لا كما يشاؤه الجغرافيون، ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم]، لا ما يشاؤه الجغرافيون.

وقال تعالىٰ في الآية (٤٣) من سورة «النور»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور]. فتأمل كيف جعل اللَّه ذٰلك عبرةً لأهل البصيرة؛ كما جعله في الآية التي نتكلم عليها من آياته الدالة علىٰ وجوده ووحدانيته ورحمته بخلقه لقوم يعقلون! ثم تأمل قوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]؛ وهٰذه الجبال شاهَدَها بعض المسافرين بالطائرات في الجو، فالمسلمون ملزمون بالإيمان بوجود جبال من برد في الجو، كما نطق به القرآن، وكما ينزل اللَّه علينا منها ذٰلك مما هو محسوس ملموس، سواء كانت هٰذه الجبال مخلوقة علىٰ هٰذه المادة، أو كانت متجمدةً في الفضاء من برد الهواء الذي يسببه اللَّه خالق الأسباب ومسبباتها. وبالجملة فإنزال المطر من آيات اللَّه الدالة علىٰ وحدانيته وعظيم قدرته ورحمته بخلقه؛ لأن في إنزاله:

أولًا: عجبًا من عجائب قدرة اللَّه.

وثانيًا: لأن فيه إحياءً للأرض بعد موتها من الجدب والقحط، فتخرج لعباده من صنوف النبات وأنواع الزروع والأقوات التي هي من ضروريات الخلائق؛ لشدة افتقارهم إليها حيث لا يعيشون بدونها، ثم إن هٰذا المطر يتكون منه أنهار وبحيرات حُلوة علىٰ وجه الأرض، ويسلك اللَّه به ينابيع في جوف الأرض يستخرج ماءها بنو آدم بما يقدرون عليه من الآلات؛ لينتفعوا به في شرابهم وسقي زروعهم وحاجياتهم الأخرىٰ، فلولا المطر الذي ينزله اللَّه لما قامت حياة علىٰ وجه الأرض، ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ يعني: أنه أوجد بسببه الحياة في الأرض الميتة بخلوها من صفات الأحياء كالنمو والتغذي والنتاج، ﴿وَبَثَّ﴾ أي: نشر وفرق في أرجائها من جميع أنواع الأحياء التي تدب عليها مما لا يعد ولا يحصىٰ، فبالماء حصل حياة الأرض بالنبات، وبه استعدت لظهور أنواع الحيوانات

فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء]. وكما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

فحياة الأحياء في الأرض إنما هي بالماء، سواء في ذٰلك الإحياء الأول عند تكوين اللَّه للعوالم الحية وإيجاد أصول الأنواع، والإحياء المتجدد في أشخاص هٰذه الأنواع وجزئياتها التي تتولد وتنمو كل يوم.

وهٰذه المياه التي يتغذىٰ بها النبات والحيوان علىٰ هٰذه الأرض كلها من المطر، ولا يستثنىٰ من ذٰلك أراضي الأنهار، فإن مياه الأنهار والعيون النابعة من الأرض كلها من المطر، فهو يتخلل الأرض فيجتمع ويندفع، فمنشأ ينابيع الأنهار من المطر، وما يجري عليها من الزيادة أيام الفيضانات هي من المطر الذي يمد تلك الينابيع، ويمد الأنهار نفسها، فكثرة الفيضانات وقلتها تابعة لكثرة المطر وقلته.

فهٰذا المطر آية بمجرد نزوله وكيفية وجوده وتكوينه من اللَّه الواحد القادر القاهر الرَّحمٰن الرحيم، فهو يجري علىٰ سنة إلٰهيَّة حكيمة، ثم هو آية في كونه سببًا للحياة، وآية ـ أيضًا ـ في تأثيره في العوالم الحية؛ فإن هٰذا النبات يسقىٰ بماء واحد، سواء كان حلوًا علىٰ طبيعته أو خالطته مرارة بسبب تأثير بعض مواد الأرض التي قدرها اللَّه، فهو مصدر حياة النبات الذي يسقىٰ بماء واحد، ثم يأتي مختلفًا في ألوانه وروائحه وطعومه، فتجد في البقعة الواحدة شجرةَ الحنظل مع شجرة البطيخ، تربتهما واحدة وماؤهما واحد، وتجدهما مشتبهتين في الصورة، ومختلفتين في الطعم والرائحة، وتجد النخلة طلعها أحسن ما تذوق حلاوةً ولذةً، وبجانبها شجرة الليمون الحامض، وبالجانب الآخر شجرة الورد، وفيها من الرائحة الحسنة ما ليس في النخلة... وهٰكذا.

فتلك السنن الإلٰهيَّة ـ التي يتكون بها المطر وينزل ـ هي جارية علىٰ نظام واحد دقيق، وكذٰلك طرق تغذي النبات بالماء جارية علىٰ هٰذه السنة، فوحدة النظام وعدم الخلل فيه تدل علىٰ وحدة مصدره،

وأنه من رب وإلٰه واحد، لا شريك له ولا وزير، فهو من هٰذه الجهة يدل علىٰ الوحدانية، ومن جهة آثاره الطيبة ومنافعه التي لا تحصىٰ يدل علىٰ رحمة اللَّه الشاملة، وقل مثل هٰذا فيما بثه اللَّه في الأرض من كل دابة، فإنها آيات عظيمة تدل علىٰ وحدانيته وشمول رحمته سبحانه.

والفائدة الثالثة: أن في ذكر اللَّه سبحانه لإحيائه الأرض بعد موتها بالمطر، دليلًا قويًّا علىٰ إحيائه الموتىٰ، وقد نص علىٰ ذٰلك في آيات كثيرة؛ كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف]، وكقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق].

فجميع آيات اللَّه عقلية لمن تدبرها، لا تخرج عما يقتضيه العقل الصريح. وقد دلل اللَّه علىٰ إمكان البعث وسهولته عليه بابتداء التكوين للأكوان الذي هو أصعبُ من بعث الأجسام، ثم إن المطر لا ينزل إلَّا بقدر مقدَّر، وعلىٰ أمكنةٍ مقدرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

الآية السادسة: في قوله ﷻ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في كونها باردةً وحارةً ومتوسطةً، وفي كونها شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وما بين ذٰلك من الهواء النسري والعيوقي، وما يقابلهما من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وفي كون هٰذه الرياح تثير السحاب تارةً، وتؤلف بينه تارةً، وتمزقه تارةً، وتلحقه تارةً، وتذروه تارةً، وتزيل ضرره تارةً، وتكون في أغلب الأحيان رحمة، وفي بعضها أعاصير وعذابًا، ومنها ما يكون ملقِّحًا للسحاب، ومنها ما يكون ملقِّحًا للنبات بنقل بعض الأتربة أو

المواد المبثوثة فيه، بقدرة الخلاق العليم الذي أودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه، وسخر ليعيش فيها جميع الحيوان علىٰ اختلاف أصنافه وأنواعه، ولإصلاح أبدان بني آدم، وإصلاح الأشجار والثمار والزروع وسائر النوابت.

فمن الذي صرَّفها هٰذا التصريف البديع، فأودع فيها هٰذه المنافع المتنوعة العظيمة غير اللَّه سبحانه؟! أهٰذا يجري من تدبير الطبيعة العمياء كما ادعاه عميان البصيرة؟!.

إن تصريف الرياح وتدبيرها وتوجيهها علىٰ حسب إرادته فيما ينفع الناس وسائرَ الخلائق وفق حكمته وإرادته سبحانه؛ دليل قوي علىٰ وحدانيته وعلىٰ عظيم رحمته، ولا تنسَ منافعها في البحر لتسيير السفن وتطوير اتجاه مياه البحر التي لا تغالب، والتي تكون الرياح عونًا لأهل الملاحة عليها، وما ينفع اللَّه بها الذاهبين تارةً والراجعين تارةً. كل هٰذا من آياته الشاهدة علىٰ وجوده وعلىٰ وحدانيته وعظيم رحمته ﷻ، فهل يليق بعاقل يلتفت إلىٰ تفكيره ويحترم نفسه أن ينكر وجود هٰذا الخالق العظيم؟ حقًّا إن المنكرين له قد عطلوا عقولهم وكفروا بها قبل كفرانهم باللَّه، وقد تنكَّروا لأنفسهم قبل تنكرهم للَّه حتىٰ صاروا في مصاف الحيوانات، ولذا يقول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾ [الأنفال].

والآية السابعة: تسخير السحاب المسخر بين السماء والأرض، هٰذا الغيم المذلل المسحوب في الأجواء لإنزال المطر في مختلف البلاد والبقاع، فالإمعان في تسخير هٰذا السحاب في الفضاء وفي حمله الماءَ الكثير علىٰ خفته ولطافته، ثم في إمساكه بِهٰذا الماء الكثير الثقيل بين السماء والأرض؛ يدل المتمعن في هٰذا كله علىٰ وجود مُمسِكه واتصافه بصفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والحكمة والرحمة زيادةً علىٰ وحدانيته ﷻ.

وقد ذكر اللَّه السحاب بعد ذكره تصريفَ الرياح؛ لأنها هي التي تثيره وتحمله، وهي التي تسوقه ـ بإذن اللَّه ـ إلىٰ حيث يشاء اللَّه أن تمطره عليه، وهي التي تفرق شمله أحيانًا إذا شاء اللَّه منع المطر عن أرض أو قوم، كما ذكر اللَّه آية تصريف الرياح بعد آيته في المطر للتناسب بينهما، وللتذكير بالسبب؛ فإن الرياح هي التي تثير السحاب، وتسوقه إلىٰ حيث يتكامل تلقيحه للماء.

ولم يذكر اللَّه السحاب المسخر عند ذكر الماء، مع أنه سببه المباشر؛ ليرشدنا إلىٰ أنه في نفسه آيةٌ مستقلة؛ فإنه يتكون بنظام من سنة اللَّه في تكوينه، ويعترض بين السماء والأرض بتدبير منظم من اللَّه، وقدرة تمسكه مع ما فيه من الماء الثقيل، فهو في ظاهره آية تدهش الناظرين المتفكرين في السنن الإلٰهيَّة في اجتماع الأجسام اللطيفة وافتراقها وعلوها وهبوطها، مما يسميه الكفرة بـ«بالجاذبية»، ونحن نقول لهم: مَنْ خلق الجاذبية، وجعل بعضها جاذبية الثقل، وبعضها جاذبية الملاصقة، وبعضها جاذبيةً عامة، غير اللَّه سبحانه؟ فإن سميتم التماسك الجاري في جميع الأجواء «جاذبية»، أو بسبب «الجاذبية» فمن الذي سخرها للجذب والإمساك؟ بل من الذي خلقها؟ هل خلقتها الطبيعة العمياء؟ فهل فاقد الشيء يعطيه؟ هل يكون للطبيعة العمياء تصريف في الأكوان؟ والذي يمسك السماوات والأرض من الزوال هو اللَّه، والذي يمسك جميع الأجرام العلوية فيما بين السماء والأرض، ويحفظها من السقوط هو اللَّه، والذي يمسك الطير المسخرات بين السماء والأرض هو اللَّه، والذي يمسك السحاب المسخر بينهما هو اللَّه، سواء خَلَق له بقدرته وإرادته سبحانه «جاذبيةً» كيفما يشاء أو لم يخلق ذٰلك، فالقول بـ«الجاذبية» لا يضر مع اعتقاد كونها من صنع اللَّه وتقديره، أما علىٰ رأي الملاحدة الكفرة الذين يريدون نسبة كل شيء إلىٰ سبب ومؤثر غير اللَّه؛ فالقول به كفر؛ لأنه من أعظم أنواع الإشراك والتعطيل.

وفي تنصيص اللَّه بِهٰذه الآية الكريمة علىٰ اختلاف الليل والنهار وإنزال

المطر وتصريف الرياح، تنبيه عظيم إلىٰ جزيل نعمته وواسع رحمته في تعميمه لخلقه ـ وعلىٰ الأخص الناس ـ ما يحتاجون إليه من النور والحرارة والهواء والماء، فإن هٰذه الحاجيات الضرورية أغلىٰ بحاجتها من الذهب والفضة وثمن الجواهر، وقد جعلها اللَّه ميسورةً لا محتكرةً، بل مشاعةً لجميع الناس، لشدة افتقارهم وعدم صبرهم عنها بتاتًا، فتيسيرها من اللَّه لعباده أعظم منة يجب عليهم شكرها شكرًا عمليًّا، كما يجب التعقل والتفهم لآلاء اللَّه وآياته؛ ولهٰذا ختم اللَّه هٰذه الآية الكونية بقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأن المستعملين لعقولهم هم الذين ينظرون في السبب والمسبب، ويدركون حكم آيات اللَّه وأسرارها، ويميزون بين منافعها ومضارها، ويستدلون بما فيه من الإتقان والإحكام علىٰ قدرة مبدعها وحكمته ﷻ، وعلىٰ عظيم فضله وسعة رحمته واستحقاقه العبادة دون غيره ـ كائنًا من كان ـ.

أليس من اللؤم القبيح بالعباد أن يسكنوا أرض اللَّه ويستعمروها ويرتعوا فيها برزقه المتنوع، وهم يستعينون بذٰلك علىٰ معاصيه، ويطلبون به مساخطه؟ فما أحلمه من إلٰهٍ كريم رؤوف رحيم!.

والحاصل: أنه كلما تدبر العاقل في هٰذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائعها، وازداد تأمله لما أودع اللَّه فيها من لطيف صنعه وجميل بره، علم أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات علىٰ ما أخبر اللَّه به عن نفسه من وحدانيته واستحقاقه لكامل العبادة، وما أخبرت به الرسل عن اليوم الآخر، وأنها مسخراتٌ ليس لها تدبير أبدًا، ولا عندها استعصاء علىٰ مدبرها ومصرفها، فيعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون وإليه صامدون[١]، وأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، لا إلٰه إلَّا هو. وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان يكمل توحيده وإيمانه، ولا يشرك باللَّه إلَّا أقل الناس عقلًا،

---

(١) صامدون: سائلون متذلِّلون.

ولا ينكره إلَّا أكثرهم جهلًا.

فالواجب على المسلمين عمومًا وعلى علمائهم خصوصًا ـ وأكثرهم علماء ـ أن يدققوا النظر في الآيات التي وجههم في كتابه إلى النظر فيها؛ ليستخرجوا منها العبر التي يقمعوا بها الملاحدة المنكرين، فإن آيات اللَّه الكونية العظيمة ترشد إلى التفكير فيها، وأنه لم يخلقها عبثًا ولعبًا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧].

وقال في الآيتين (١٦، ١٧)، من سورة «الأنبياء»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾، وقال في الآية الثالثة من سورة «الأحقاف»: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾، وقال في سورة «الروم» كذٰلك، وقال في الآية (١٨٥) من سورة «الأعراف»: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾، وقال سبحانه في الآيتين (١٩٠، ١٩١) من سورة «آل عمران»: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

فانظر كيف حصر حقيقة أولي الألباب ـ يعني ذوي العقول الرجيحة ـ في هٰذين الوصفين الجليلين اللذين هما:

أولًا: ذكرهم للَّهِ في كل حالة من أحوالهم، لا يغيب اللَّه عن بالهم في أي حالة.

وثانيًا: تفكرهم في آيات اللَّه الكونية التي من أعظمها السماوات والأرض؛ لأن للَّه سبحانه كتابين: كتابًا مخلوقًا ـ وهو الكون الهائل العظيم ـ، وكتابًا منزلًا من عنده سبحانه ـ وهو القرآن ـ، وهٰذا الكتاب المنزل يرشدنا إلى فهم الكتاب الكوني المخلوق، وطريق العلم بعجائبه؛

فإن هٰذا الكون هو كتاب الإبداع الإلٰهي المفصح عن وجود اللَّه، وعن كماله وجلاله وجماله، فكلمات اللَّه في التكوين باعتبارها آثارها ومصداقها هي آحاد المخلوقات.

والمبدَعات الإلٰهيَّة كلها ـ من أكبرها إلىٰ أصغر ذرة فيها ـ تنطق بلسان هو أفصح من لسان المقال، بأنها صنعة اللَّه العليم الخبير الحكيم؛ الذي أتقن كل شيء وأحسن كل شيء خلقه، فكل شيء منها معجزةٌ شاهدة علىٰ وجوده، ولٰكن لا يفهمها الذين هم عن السمع معزولون، كالملاحدة الشيوعيين ومن علىٰ شاكلتهم من أهل المذاهب المادية والمبادئ العصرية؛ الذين لا فرق بينهم وبين أولٰئك إلَّا تغيير الاسم واللقب، وكلها ألقاب ملعونة كافرة باللَّه كفرًا اعتقاديًّا، أو كفرًا عمليًّا أسوأ من الاعتقادي.

فمعرفة اللَّه يجب أن تُقتبس من الدلائل الوجودية الحقيقية في كل شيء من هٰذه الأكوان، لا أن تقتبس من الجدليات النظرية والقوانين المنطقية التي ابتلي بها كثير من علماء الخلف، حتىٰ جعلوها الأساس للقرآن بدلًا من جعل القرآن أساسًا لها.

كما أوجب اللَّه وفرض عليهم أن يحملوا الدعوة الإسلامية بحرارتها وقوتها السماوية الصريحة السليمة الصحيحة، وهيبتها الإلٰهيَّة التي عجز أمامها العباقرة، ولٰكنهم عكسوا الأمر فجعلوا المسلم في حاجة إلىٰ أن يعلم المنطق اليوناني ليستطيع إقامة البرهان علىٰ وجود اللَّه؛ وإلَّا فهو عاجز عن البرهنة؛ كما أنهم أعطوا العقل حرية البحث في كل شيء مما يحس وما لا يحس، وجعلوه أساسًا في الإيمان، فترتب علىٰ هٰذا جعلهم العقل أساسًا للقرآن ـ والعياذ باللَّه ـ، ولم يجعلوا القرآن أساسًا للعقل؛ بل بحثوا فيما وراء الطبيعة في ذات اللَّه وصفاته ـ فيما لا يصل إليه الحس ـ، وأفرطوا في قياس اللَّه علىٰ الإنسان مما جرهم إلىٰ إنكار حقيقة صفاته.

ومن الواضح أن ترتيب المنقولات علىٰ المعقولات يؤدي إلىٰ الانزلاق في الخطأ، وإلىٰ التناقض في النتائج، ويؤدي إلىٰ الاسترسال في سلاسل من القضايا والنتائج المفروضة فرضًا خياليًّا لا وجود له في الخارج ـ أي في حقيقة الأمر ـ، فتكون نتائجها آخر الأمر أوهامًا وأخاليط، والواجب عليهم الوقوف علىٰ وحي اللَّه من كتاب وسنة، وأن يقفوا عند حده، بغض النظر عن أي إنسان، وأن يشرحوا العقائد علىٰ ضوئه، مستدلين بكتاب اللَّه الآخَر الذي هو الكتاب الكوني الهائل؛ الذي كل شيء منه صغير أو كبير يفصح عن وجود اللَّه، ويشهد بكماله وجلاله واتصافه بجميع صفات القدرة والكمال، وتنزيهه عن كل نقص ومن مشابهة المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ].

وإليك طرفًا من الحقائق العلمية التي اكتشفها الذين نظروا في ملكوت السماوات والأرض وتبصروا في كتاب اللَّه الكوني فيهما، فقد قرروا الأشياء التالية:

١ ـ لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامْتُصَّ ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين، ولما أمكن وجود الحياة.

٢ ـ ولو كان الهواء أقل ارتفاعًا مما هو عليه؛ فإن بعض الشهب ـ التي تحترق بأعداد هائلة كل يوم في الهواء الخارجي ـ كانت تضرب في جميع أجزاء الأرض، وكان في إمكانها إشعال كل شيء قابل للاحتراق.

٣ ـ لو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لَكنا تجمدنا، ولو أنها زادت بمقدار النصف لَكنا رمادًا منذ زمن بعيد.

٤ ـ ولو جعل اللَّه الأوكسجين بنسبة (٥٠٪) من الهواء بدلًا من (٢١٪)، فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضةً للإشعال لدرجة أن شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلتهب الغابة كلها.

٥ ـ ولو كانت نسبة الأوكسجين (١٠٪) لتعذر أن يكون التمدن الإنساني علىٰ ما هو عليه اليوم.

٦ ـ ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم عليها حياة.

٧ ـ ولولا تكوين اللَّه للرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة.

٨ ـ ولولا أن اللَّه جعل الماء يتبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة.

٩ ـ ولولا أن اللَّه جعل البخار أخف من الهواء لما كانت حياة.

١٠ ـ ولو أن اللَّه جعل «الإلكترونات» ملتصقة بـ«البروتونات» داخل الذرة، والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تنعدم الفراغات؛ لكانت الأرض بحجم البيضة، فأين يمكن سكنىٰ الإنسان وغيره؟.

١١ ـ ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها؛ لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات.

١٢ ـ ولولا خلق اللَّه للجبال رواسي لتناثرت الأرض؛ ولما كان لها مثل هٰذه القشرة الصالحة للحياة، ولٰكنه صنع اللَّه الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

وقد أورد اللَّه آياتٍ كثيرةً في سور متفرقة من القرآن؛ دلل فيها علىٰ وجوده ووحدانيته وجزيل نعمته التي لا تحصىٰ علىٰ خلقه، كقوله في سورة «الأنعام»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام]، وقوله فيها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾، إلىٰ قوله: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام]، وكقوله ﷻ في سورة «الحجر» من آية (١٦): ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ إلىٰ آية (٢٤)، وكقوله في سورة النحل من الآية الثالثة: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ إلىٰ الآية (١٨)، وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي ما

تستدفئون فيه من البرد من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وقوله فيها من الآية (٧٨): ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل].

وذكر في سورة «الإسراء» طرفًا من تكريم بني آدم، وذكر من سورة «المؤمنون»، وسورة «الحج»، وسورة «النحل» من آية (٦٠ ـ ٦٤)، وسورة «الفرقان»، و«الروم»، و«لقمان»، و«الزمر»، و«المؤمن»، وسورة «فصلت» و«الشورىٰ» و«الزخرف»، وسورة «الملك» و«نوح»، وسورة «عم يتساءلون» و«النازعات»، وسورة «عبس»: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

ذكر سبحانه وتعالى في جميع تلك السور ما يقيم به البراهين من الآيات المعجزات الدالة علىٰ وجوده، وعلىٰ وحدانيته وكرمه ورحمته ولطفه بخلقه.

وذكر سبحانه في سورة «يس» طرفًا من آياته الكونية الدالة ـ أيضًا ـ علىٰ وجوده ووحدانيته وجزيل رحمته ولطفه، كما ذكر في هٰذه السورة شيئًا من خلقه المتضادات وكونه يخلق الشيء من ضده، وذٰلك في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس].

فأوضح لنا من عظيم قدرته أنه يخرج الحار اليابس من البارد الرطب، فالشجر الأخضر رطب بارد، كيف يتكون منه الحار اليابس؟ هٰذا شيء لا يقدر علىٰ تكوينه إلَّا اللَّه الخلاق العليم ﷻ.

ومن لطيف صنعه وعجيب إبداعه أنه يخرج أحلىٰ شيء، وأطيب شيء، وأنفع شيء، وأغلىٰ شيء، من أقبح شيء، وأقذر شيء، وأنجس شيء، وأردأ شيء، كما أخبرنا به ﷻ في الآية (٦٦، ٦٩)، من سورة «النحل» بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

فالآية الأولى: فيها معجزة من بديع صنع اللَّه، وهي إخراج أطيب الطيب وأنفس الأشياء من أخبث الخبيث وأخس الأشياء، يخرج اللبن الطيب الخالص الغالي السائغ شرابه من موادَّ خبيثة قذرة نجسة، مبرهنًا لخلقه علىٰ بديع صنعه ودقيق اختراعه.

أما الآية الثانية: فعلىٰ العكس في تكوينه طبيعة الطيب أن ينقلب خبيثًا، فإنه جعل من طبيعة ثمرات النخيل والكروم أن ينقلب التمر والعنب من طعام طيب ورزق حسن إلىٰ مسكر خبيث بدل نفعه السابق؛ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل].

الآية الثالثة: هي في النحل الحيوان الصغير الضعيف ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ـ إيحاء إلهام ـ ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل]. وهٰذا الشراب المختلف الألوان هو العسل الحلو الشهي الغالي الذي فيه الشفاء المحقق بإذن اللَّه، كيف استخرجه اللَّه من ذَرَق[1] هٰذا الذباب؟ إنها لعبرة ومعجزات بالغة للمتفكرين تشهد علىٰ وجود اللَّه وعلىٰ وحدانيته وعظيم رحمته

---

(١) **الذرق:** الغائط. وتحرفت في المطبوع إلىٰ «ذروق».

ولطفه؛ رغمًا عن أنوف الملاحدة من الشيوعيين وأذيالهم.

وقد جعل اللَّه نحل العسل من أكثر الحشرات نفعًا للإنسان، وهو يتكون من ثلاث طوائف كما قرره العلماء المختصون بالحيوانات، قالوا: وللنحلة خمس عيون فيها عدسات كثيرة هائلة، وأرجلها تكاد تكون إحدىٰ المعجزات، فإنها مجموعة كاملة من الأدوات التي تحتاجها النحلة في عملها، فعليها أمشاط ومسَّاحات وقطَّاعات، وتنتهي كل قدم من أقدامها الست بخف لزج تمشي به علىٰ الأماكن الملساء، ومخلب تتعلق به علىٰ الأماكن الخشنة، وتوجد علىٰ أرجلها الخلفية سلاسل صغيرة تتكون من شعر غليظ تجمع فيها حبوب اللقاح من الأزهار، ولها قائد يسمىٰ «اليعسوب»، ولها ملكة تكبر في حجمها عن سائر أفرادها، ولها زبانٌ[1] تستعمله في مهاجمة من ينافسها الملك.

وهذا النحل يبني بيوتًا مسدسةً علىٰ شكل هندسي حسبما ألهمه اللَّه ﷻ، ويتخاطب فيما بينه بالرقص مع الخفق بالجناح، ووضع قطرة من رحيق الزهور ليشمها النحل فيهتدي إليها تمامًا مهما بعدت. فسبحان من ألهمها إلهامات لتقوم بدورها وتقذف من بطونها بما فيه شفاء للناس! ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون]، وليس هٰذا موضع تفاصيل عجائب «النحل»، وإنما هو إشارة إلىٰ معجزات اللَّه فيه. وسنذكر ما يتعلق به في موضعه من سورته ـ إن شاء اللَّه ـ.

ومن آياته العظيمة التي تبهر العقول: خلقه للجنسين، وجعله من كل زوجين اثنين، قال ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات]. وهٰذا لعمارة الكون بالتناسل العام لكل شيء، وقال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم: ٢١].

قال الأستاذ «مومنيه» في مجلة «الكوسموس» سنة (١٨٩٣م) في بحث

---

(١) يقصد الشوكة التي تلسع بها.

يثبت به وجود اللَّه سبحانه: «إنِ افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل ـ أو تخالف ما يمليه العقل ـ: أن الكون خلق اتفاقًا بلا فاعل مريد مختار، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلىٰ تكوين رجل، فهل يعقل أن الاتفاقات أو المصادفات تكون كائنًا آخر مماثلًا له تمامًا في الشكل الظاهري، ومباينًا له في التركيب الداخلي، وهو المرأة، بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها؟!.

قال: أليس يدل هٰذا وحده علىٰ أن في الوجود خالقًا مريدًا مختارًا أبدع الكائنات ونوَّع بينها، وغرز في كل نوع غرائز، ومتعه بمواهب يقوم بها أمره ويرتقىٰ عليه نوعه؟».

وقد علق الأستاذ محمد فريد وجدي تعليقًا علىٰ هٰذا البرهان بقوله: إن هٰذا البرهان الذي ظن الأستاذ «مومنيه» أنه أول من لفت الأنظار إليه، مستمد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وكذٰلك من آياته الباهرة ومعجزاته القاهرة اختلاف ألسنة الناس وألوانهم؛ قال ﷻ في الآية (٢٢) من سورة «الروم»: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

ففي خلقه سبحانه الأزواج آياتٌ لقوم يتفكرون، أي: يستعملون عقولهم ويتفكرون في إيجاد ذٰلك والحكمة من إيجاده، فإن إيجاد نوع الأنوثة ليزدوج مع نوع الذكورة يصفع من زعم أنه مخلوق بالمصادفة، ويقرر في الأذهان وجوب اعتقاد خالق بارئ للأكوان جميعها، ليس لبني الإنسان فقط، فمجرد التفكر في ذٰلك يدمغ الإلحاد وأهله.

أما اختلاف الألوان واللغات التي لا يحصيها إلا اللَّه فهو من جملة الشواهد الكبيرة علىٰ وجوده سبحانه وعلىٰ وحدانيته للعالمين بذٰلك، والعالمون يكادون أن يكونوا الكثرة؛ لأن اختلاف الألوان واللغات شيء محسوس لا يجهله إلَّا النادر من الناس، ممن انحط في الجهالة إلىٰ

مكان سحيق.

ومن الشواهد والدلائل علىٰ وحدانيته ورحمته سبحانه في ذٰلك: دينه القويم الذي سوىٰ بين جميع العناصر والألوان، فلم يجعل لعنصر علىٰ عنصر ميزةً ولا رفعة، ولم يجعل للملوَّنين علىٰ السود كرامةً ولا ميزة، بل قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فهٰذه العدالة في الإنسانية التي لم تحظ بها حتىٰ الآن في العصر المسمىٰ عصر النور والتمدن والوعي والحضارة واحترام حقوق الإنسان وما إلىٰ ذٰلك من خداعات اليهود، قد جاء بها وحي اللَّه ودينه وشرعه منذ قرون طويلة.

وبالجملة فالمعجزات والدلائل علىٰ وجود اللَّه وعلىٰ وحدانيته كثيرة لا يحيط بها الحصر، ونكتفي هنا بما أشرنا إليه منها ضمن مدلول هٰذه الآية التي نتكلم عليها، والتي مدلولاتها وشواهدها من أخواتها الآيات القرآنية تثبت أن كل ملحد منكر للَّه متجاهل لآياته العظيمة ومعجزاته الباهرة طالبًا غيرها؛ هو من أكذب الناس علىٰ الواقع المحسوس، وهو من المخادعين لنفسه وللطغام المضبوعين، فهو مهدِرٌ عقلَه، وهادم لضميره حتىٰ أصبح عديم الضمير وهو في حالته أشد كفرًا من إبليس، ولٰكن ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

📖 **أما قوله** ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾:

فهو بيان لحال الذين لا يعقلون حقيقة الآية السابقة وأخواتها من شواهدها التي ذكرناها، ولا يفهمون حقيقة الألوهية، فإنه سبحانه لما ذكر وحدانيته، وبينها بالأدلة الحسية المشاهدة والبراهين الساطعة الموصلة إلىٰ علم اليقين، الذي لا يخالطه شك، والتي لا يجوز للعقول إنكارها ممَّن يتخذون من دون اللَّه أندادًا مع وجود هٰذه البراهين الدالة عليه وعلىٰ وحدانيته وعظيم رحمته، فما أحسن اتصال هٰذه الآية وارتباطها

بما قبلها من الآيات! فإنه لما بين وحدانيته بالأدلة القاطعة التي لا يعتريها الشك، وأوضح عظيم رحمته، ذكر بعدها أن «من الناس» ـ بعد هٰذا البيان الواضح القاطع ـ ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ للَّه، أي: نظراء له وأمثالًا، يكلون إليهم الأمور، ويعلقون عليهم الآمال، ويحبونهم ويعظمونهم، كحب اللَّه وتعظيمه أو أشد من ذٰلك، ويتقبلون ما يصدر منهم برحابة صدر وانشراح خاطر، ويلتمسون لهم المعاذير إذا أخطؤوا، ويجعلونهم أندادًا للَّه في التشريع والتنظيم والتقنين علىٰ خلاف شرع اللَّه وحكمه، ويسلكون ما يخطُّونه لهم من مناهج الحياة في جميع شؤونها ـ السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ـ، ويلبِّسون علىٰ دهماء الناس بقلب أخطائهم إلىٰ صوابات، وأضرارهم إلىٰ مكاسب، وهزائمهم واندحارهم إلىٰ عزٍّ ونصر، ويحيطونهم بهالات من التقديس.

هٰذا نوع من أنواع اتخاذ الأنداد في الأمور الدنيوية، التي لا يجوز لهم أن يجعلوا فيها شيئًا من الأمر إلَّا للَّه وحده، وهم بذٰلك مشركون باللَّه شرك تعطيل، حيث عطلوا اللَّه عن جميع حقوقه في شؤون الحياة، كأنه إله في السماء لا في الأرض إن هم اعترفوا بالإلٰه، واللَّه سبحانه يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف]، فشركهم شرك تعطيل يعتبر من أفظع أنواع الشرك وأشنعه.

وهناك نوع آخر من اتخاذ الأنداد، يلتمسون منهم الخير والبركة والرحمة، ويدفعون ببركتهم البلاء والنقمة فيما يزعمون، كالذين يقدسون الأحجار والأصنام أو القبور، أو «المجذوبين» ممن يزعمون فيهم الولاية، فهٰؤلاء شركهم شرك تخريف.

وهناك نوع ثالث ممن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه، يأخذون عنهم الدين والتشريع، فيبيحون ما أباحوه، ويحرمون ما حرموه من دون اللَّه، كما ذم اللَّه تعالىٰ اليهود والنصارىٰ وأطلق عليهم اللعنة، فالذين يضاهئُونهم في ذٰلك لهم مثل حكمهم، ممن اتخذوا طواغيت مُقَنَّعَةً أو سافرة من علماء البدعة والضلال.

فجميع أهل هٰذه الأنواع قد اتخذوا من دون اللَّه أندادًا.

و«النِّد» في اللغة هو: المِثل، وزاد فيه بعض اللغويين قيدًا؛ فقال: «إنه المماثل الذي يعارِضُ مِثلَه ويقاومه»، وهٰذا القيد يصدق في بعض الأنداد دون بعض، فإنه يصدق في أنداد العصريين الذين اتخذوهم أندادًا من دون اللَّه باسم الزعامة القومية أو الوطنية أو المذهبية، فإن زعماء المذاهب المادية والمبادئ الأخرىٰ قد عارضوا اللَّه في حكمه وتشريعه؛ بل عارضوه في أصل الأصول من دينه القويم، حيث جعلوا المحبة والموالاة تابعةً لرابطة الجنس ونابعةً منها، لا تابعةً لرابطة الدين ولا نابعةً منها، كما يوجبه اللَّه، وهٰذا عين المحادة للَّهِ والمعارضة له فيما يوجبه ويحبه.

ولهٰذا كان شركهم وكفرهم أعظم من شرك المنحرفين الذين يتخذون الأنداد وسطاء يقربونهم إلىٰ اللَّه ويشفعون لهم عنده، ويقضون حاجاتهم بخوارق العادات، أو يقضيها هو سبحانه لهم من أجل هٰؤلاء الأنداد محتجين لعقيدتهم الفاسدة: أن المذنبين المقصرين لا يستطيعون التوصل إلىٰ اللَّه بأنفسهم دون واسطة بينهم وبين اللَّه كهٰؤلاء الأنداد، وهٰذا قياس فاسد ومن أفسد القياس وأخبثه؛ لأنهم يقيسون اللَّه ﷻ علىٰ خلقه من الأمراء والملوك والرؤساء مع المذنبين من رعاياهم، فهٰؤلاء قد يعفون عن المجرم الكبير بسبب الشفيع الذي يرجونه أو يخافونه أو يقدرونه، ويعاقبون أصغر مذنب ليس له شفيع، وذٰلك لجهلهم بأحوال الرعايا، وهٰذا جهل وجور يجب تنزيه اللَّه عنه؛ ولهٰذا أوجب اللَّه قتالهم وأباح دماءهم ونساءهم وأموالهم؛ لأنهم جعلوا للَّه مثل السوء، وظنوا به ظن السوء، وافتروا عليه في جعلهم شفعاء من دونه لم يأذن لهم بالشفاعة، فقال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

و«الأنداد»: جمع ند، وهي ـ عند جمهور العلماء ـ أعم من الأصنام والأوثان، وتشمل بمعناها الأحياء والأموات والصامتين والناطقين.

فجميع متخِذي الأنداد مشركون علىٰ اختلاف أنواعهم، ولٰكن أشدهم شركًا هم أهل الصنف الأول الذين اتخذوا لهم أندادًا من دون اللَّه، وهم زعماء مبادئهم العصبية الحزبية أو مذاهبهم المادية ـ كما أوضحناه أول البحث ـ؛ لأن شركهم شرك تعطيل خالٍ بالكلية من تعظيم اللَّه والالتفات إليه.

وقد كنىٰ اللَّه عن الأنداد بضمير «هم» في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ كناية عمن يعقل؛ لأن الذي لا يعقل منها قد نزل أربابها منزلة من يعقل. و«الكاف» من قوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ في موضع نصب صفة للمصدر المحذوف، أي: «حبًّا كحب اللَّه»، والمصدر مضاف إلىٰ المفعول تقديره: كحبهم اللَّه، أو: كحب المؤمنين اللَّه.

ولا يرغب عن فعل الأسباب إلىٰ التعلق بالأنداد والشفعاء إلَّا أحد ثلاثة أنواع من الناس:

أحدهم: من كان قليل الثقة بالسبب، وخالقه ومصرفه، لضعف عقيدته، أو جهله بالتوحيد، فيتعلق بأنداد يختارهم، أو يفرضون هم سلطتهم عليه.

ثانيهم: من كان يجهل الفرق العظيم بين الخالق والمخلوق، بقياسهم الفاسد الذي أسلفناه من قياسهم للَّه جل شأنه علىٰ حكام الدنيا الذين يجهلون أكثر أحوال الرعايا.

ثالثهم: جاهل يطلب ما هو أعجل من السبب، كالمريض الذي يستبطئ العلاج الطبي الصحيح، فيطلب شفاءه ممن يعتقد فيهم السلطة الغيبية، كالكهان ومحضِّري الجن وغيرهم.

وأشنع الأصناف الثلاثة هم أهل الصنف الأول؛ الذين اتخذوا الأنداد الناطقة، وتقبلوا ما يصدر منها، ولم يعارضوها في إباحة محرم أو تحريم حلال.

وفي قوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾(١)، ﴿يَتَّخِذُ﴾(٢) دليل واضح علىٰ أنه ليس للّٰه ند [في واقع الأمر]؛ وإنما المشركون ـ علىٰ اختلاف أنواعهم في كل عصر ـ جعلوا بعض الناس أو بعض المخلوقات أندادًا له، تسميةً مجردةً عن أي معنىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال في سورة النجم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: يعني: أن حبهم للّٰه أشد من حب أهل الأنداد لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا محبتهم له، ولم يشركوا به شيئًا، فكان حبهم له ثابتًا خالصًا كاملًا.

فهم أحبوا من يستحق المحبة علىٰ الحقيقة، أحبوا الخالق البارئ المصوِّر القادر، القاهر، الرزاق، المدبر، الرَّحمٰن الرحيم، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفلاحه وفوزه في الدارين؛ بخلاف المشركين، فإنهم أحبوا من لا يستحق شيئًا من المحبة، فقد أحبوا ما فيه شقاؤهم وفساد أمرهم وشتاته، لقد أحبوا ما يجب بغضه وعداوته ومنابذته، كما قال إبراهيم عليه السلام في أحباب قومه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء].

فالمؤمنون لهم محبوب واحد؛ هو أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم، وآبائهم، وعشيرتهم، وأوطانهم، يحبونه أعظم من حب هٰذه المحبوبات؛ لأنهم يعتقدون أن كلِ شيء منه، وهو وحده مالكه والمتصرف به.

وقد أسلفت في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ أن مصدر الحب شيئان: الجمال والإحسان؛ فليرجع إليه من أراد الاستزادة.

---

(١) كما في قوله ﷻ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الكهف: ١٥]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء]... ونحوها.

(٢) في المطبوع: «اتخذوا، أو يتخذ».

وهٰكذا فحب المؤمنين للَّه يدفعهم إلىٰ جعل حياتهم كلها له، كما أن مماتهم له؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام]. وكذٰلك يجعلهم حب اللَّه يوحدونه في التشريع، لا يبتغون بشريعته عوضًا ولا بديلًا، معتقدين كفايتها، ومستيقنين أحقيتها وصلاحيتها للحياة في كل عصر إلىٰ يوم القيامة.

هٰكذا هم المؤمنون الصادقون المخلصون في حبهم للَّه، وأما متخذو الأنداد من دون اللَّه فهم علىٰ نقيض جميع ما ذكرناه ـ والعياذ باللَّه ـ.

فهم لا يقبلون حكم اللَّه في كتابه ووحيه المبين، ولا يُذعنون إلا لحكم رؤسائهم وقادتهم الذين جعلوا لهم حقوق اللَّه من المحبة والتعظيم، فقد ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك، وظلموا الناس بما غشُّوهم به من زخرف القول غرورًا، ومن دعوىٰ العمل للإصلاح إفكًا وفجورًا، وظلموا حق اللَّه ببخسه؛ فلشدة ظلمهم المتنوع قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، وجواب «لو» محذوف، وهو أبلغ في الوعد والوعيد؛ لأن الموعودَ والمُتوعَّدَ إذا عرف قدر النعمة والعقوبة وقف ذهنه علىٰ ما عرفه، ولٰكن إذا لم يعرف ذهب تفكيره إلىٰ ما هو أعلىٰ وأشد وأفظع من ذٰلك.

وقراءة الجمهور: ﴿يَرَى﴾ بالياء، و﴿يَرَى﴾ هنا من رؤية القلب، فتفتقر إلىٰ مفعولين، ويكون قوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ سادًّا مسدهما. وقيل: المفعولان محذوفان، و﴿أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ معمول جواب «لو»، أي: لو علم الذين ظلموا باتخاذهم الأنداد أنها لا تنفع؛ لعلموا أن القوة للَّه في النفع والضر.

ويجوز أن يكون ﴿يَرَى﴾ بمعنىٰ «علم» المتعدية إلىٰ مفعول واحد، فيكون التقدير: لو عرف الذين ظلموا بطلان اتخاذهم الأنداد، أو: لو عرفوا مقدار العذاب؛ لعلموا أن القوة للَّه، أو: لو عرفوا أن القوة للَّه ما اتخذوا الأنداد.

وقيل: ﴿يَرَى﴾ هنا من رؤية البصر، يعني: لو شاهدوا آثار قوة اللَّه لما اتخذوا من دونه أندادًا.

وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب: ﴿وَلَوْ تَـرَىٰ﴾ ـ بناء علىٰ أن الخطاب لرسول اللَّه ﷺ ـ؛ أي لو رأيتهم وقت ذٰلك لرأيت أمرًا عظيمًا وخطبًا فظيعًا جسيمًا. ولٰكن سياق الآية يشعر بصحة القراءة الأولىٰ.

و«الظلم» في اللغة العربية هو: الاعتداء من جهة، والانتقاص من جهة أخرىٰ؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تنقص منه شيئًا. فكل من تجاوز حدود اللَّه في أصول دينه أو فروعه كان ظالمًا. ومتخذو الأنداد من أظلم الناس، سواء كانت أندادهم وسائط وشفعاء يعدلون بها اللَّه في المحبة والتعظيم، أو كانت أندادهم من الرؤساء والزعماء الذين يطيعونهم ويتبعونهم، وينزلون علىٰ أوامرهم ونواهيهم فيما يخالف دين اللَّه وحكمه القويم، ويحبونهم ويعظمونهم علىٰ ما هم عليه من مخالفة ملة إبراهيم، وهدم الدين من أساسه، والحكم بخلاف الشريعة، كما هو حاصل من الزعماء العصريين، مما أسلفنا وكررنا توضيحه. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

والمشركون علىٰ أصناف: منهم من تجاوز حدود اللَّه في محبة الأولياء والصالحين؛ فصرف إليهم مخ العبادة الذي هو الدعاء، والاستعاذةَ والاستغاثة والذبح والنذر والخشوع والخضوع والخوف، فجعلوا للأنبياء والأولياء الموهومين أعظم مما جعلوه للَّه من ذٰلك، فكانوا ظالمين بِهٰذا التجاوز لحدود المحبة المطلوبة، والآخرون من متخذي الأنداد ظلموا أنفسهم وأتباعهم بانتقاصهم حق اللَّه، بل بانتقاصهم لجنابه الكريم، وتَهكمهم بوحيه المبين، واتباعهم ما خططه شياطين الإنس من أفراخ اليهود والنصارىٰ من المبادئ والمذاهب المخالفة لدين اللَّه أصلًا وفرعًا.

فاللَّه سبحانه يخاطب الظالمين جميعًا ـ من هٰؤلاء وهٰؤلاء ـ قائلًا: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، يعني: لو يعلم هٰؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها للَّه علىٰ كل من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة؛ لحصل منهم ما لا يوصف من الحسرة والندم ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم، وحذف الجواب ـ كما قدمناه ـ مستعمل كثيرًا في اللغة.

وقد عبر اللَّه عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوع وعيد اللَّه، وأن خبره سبحانه حق وصدق، وكذٰلك مجيء حرف ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، فـ﴿إِذْ﴾ حرف ظرف تدل علىٰ الماضي لتحقق وقوعه، فهو سبحانه يصوِّر لهم يوم القيامة كالمشاهدة، موضحًا لهم أن القوة للَّه جميعًا يظهر تصرفها المطلق في كل الوجود، ويتمثل لهم سلطانها كالمشهود، فقوته التي تدبر عالم الآخرة هي عين القوة التي تدبر عالم الدنيا، وأنها قوة واحدة لا تأثير لغيره فيها أبدًا، ولٰكنه يؤجل العذاب العظيم المقيم عن الظالمين في الدنيا، وإن عجل لهم بعض العقوبات الدنيوية، زيادة انتقام منهم، أو تأديبًا لهم لعلهم يرجعون حسبما اقتضته حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهٰذه الجملة الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ تحتوي علىٰ المبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر ليحصل الارتداع.

وهل الرؤية للعذاب علمية أو بصرية؟ قال الجلال المحلِّي: إنها علمية، وقال غيره: إنها بصرية، ولٰكن سلطت علىٰ المعقول لإنزاله منزلة المحسوس، فكأنه قال: «لو يتمثل لهم الأمر ويتشخص؛ لرأوا أمرًا هائلًا فظيعًا عظيمًا لا يتصور له نظير». وهٰذا تعبير لطيف لا يوجد أبدع منه.

وينبغي أن يعلم تفاقم شر الأنداد، وأن المسلمين قبل العصريين قد ابتلوا بأنداد جاءتهم من جهة التصوف الذي ظهر قديمًا بمسالك

صحيحة ومقاصد حسنة، وكان الغرض منه تَهذيب الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين وجذبها إليه وجعله وجدانًا لها، فصار بينهم وبين الجامدين من الفقهاء خلاف، وكانت الدولة للفقهاء لحاجة الحكام إليهم، مما اضطر الصوفية إلىٰ إخفاء أمرهم ووضع رموز خاصة، وصاروا لا يقبلون دخول أحد معهم إلا بشروط واختبار طويل، ومن شروطهم أن يكون أولًا طالبًا، ثم مريدًا، ثم سالكًا، وصاروا يختبرون الطالب في جميع أطواره، ليعلموا هل هو صادق الإرادة، أو هو يريد مجرد الاطلاع علىٰ أحوالهم، ثم بعد الثقة به يأخذونه بالتدريج إلىٰ نهاية المراحل.

ثم بلغ الأمر إلىٰ أن جعلوا للشيخ «المسلك» سلطةً خاصةً علىٰ مريديه، حتىٰ أوجبوا أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل؛ لأنه يعرف أمراضه الروحية فيغسلها، وأوجبوا عليه التسليم في كل شيء بلا منازعة سوىٰ نقاش ظاهر دليله، فكان من قواعدهم التسليم المحض والطاعة العمياء، زاعمين أن الوصول إلىٰ العرفان لا يكون إلا بِهٰذا، ثم أحدثوا إظهار قبور من يموت من شيوخهم والعناية بزيارتها لأجل تذكر سلوكهم؛ لأن التذكرة من أسباب القدوة، وهي طريق التربية، فغشهم إبليس كما غش القدامىٰ قبل قوم نوح؛ ليؤول الأمر إلىٰ دعائهم واللجوء إليهم، وجعلهم وسائط بينهم وبين اللَّه وشفعاء، فانقلبت مقاصدهم الحسنة إلىٰ ما يريده الشيطان من تعظيم المقبورين وجعلهم أندادًا للَّه.

ثم زادوا علىٰ هٰذا شيئًا آخر هو أشد قبحًا وهدمًا للدين، وهو زعمهم أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر، فإذا اقترف أحدهم ذنبًا وأنكر عليه منكر؛ قالوا في المجرم: إنه من أهل الحقيقة؛ فلا اعتراض عليه، وقالوا فيمن أنكر عليه: إنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه! وتوسعوا في ذٰلك حتىٰ جعلوا للعبادة حدًّا ينتهي إليه العابد، ثم يكون من أهل اليقين الذين لا تكليف عليهم، وحرفوا لهٰذا المقصد قوله

تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر]، فجعلوا اليقين وصول العابد إلىٰ شيء من الروحانية تنتهي عنده العبادة ـ والعياذ باللّٰه ـ، ولم يجعلوا اليقين الموت الذي عنده ينكشف الغيب فيكون يقينًا، فخالفوا تفسير القرآن باللغة والمنقول الصحيح إلىٰ خرافات شيطانية.

هٰذا؛ وليُعلم أنه ليس جميع المتصوفين علىٰ هٰذه الحال، ولٰكن البارز منهم والمشهور الذي تؤيده السياسة الخفية الماسونية ظاهرًا وباطنًا، فهٰؤلاء جرُّوا علىٰ كثير من الأمة اتخاذ الأنداد؛ بتقديس الضرائح والمجذوبين وغير ذٰلك، وإلا ففي الصوفية قوم صالحون مصلحون؛ حفظ اللّٰه بهم الإسلام، ولا يزال اللّٰه يغرس لدينه من المصلحين.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: «ولقد تشوهت سيرة مدعي التصوف، وصارت رسومهم أشبه بالمعاصي والأهواء من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم، وأظهرها في هٰذه البلاد الاحتفالات التي يسمونها «الموالد». ومن العجيب أن تَتبع الفقهاءَ في استحسانها الأغنياء، فصاروا ينفقون فيها الأموال العظيمة، زاعمين التقرب إلىٰ اللّٰه، ولو طُلب منهم بعض هٰذا المال لنشر علم أو إزالة منكر أو إعانة منكوب لبخلوا به، ولا يرون ما فيها من المنكرات منافيًا للتقرب إلىٰ اللّٰه، كأن كرامة الشيخ الذي يحتفلون بمولده تبيح المحظورات والمنكرات.

فالموالد أسواق الفسوق، فيها خيام للعواهر، وحانات للخمور، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الراقصات المتهتكات، ومواضع أخرىٰ لضروب من الفحش في القول والفعل لإضحاك الناس. وبعض هٰذه الموالد يكون في المقابر، وترىٰ كبار مشايخ الأزهر يتخطون هٰذا كله لحضور موائد الأغنياء في السرادقات والقباب العظيمة التي يضربونها ويقيمون الشموع الكثيرة احتفالًا باسم صاحب المولد».

ثم ذكر الأستاذ رفضه لدعوة من هٰذا القبيل، وحوار بينه وبين شيخ انتهىٰ بحكاية خرافية. ثم قال: «فلينظر الناظرون إلىٰ أين وصل

المسلمون؛ اتخذوا الشيوخ أندادًا، وصار يقصد بزيارة القبور قضاء الحوائج وشفاء المرضىٰ وسعة الرزق، بعد أن كانت للعبرة والاقتداء، وصارت الحكايات الملفقة ناسخةً لما ورد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون علىٰ الخير، وذٰلك أن المسلمين رغبوا عما شرع اللَّه إلىٰ ما توهموا أنه يرضي غيره ممن اتخذوهم أندادًا، وصار كالإباحيين ـ في الغالب ـ، فلا عجب إذا عم فيهم الجهل، واستحوذ عليهم الضعف، وحُرموا ما وعد اللَّه المؤمنين من النصر؛ لأنهم انسلخوا من مجموع ما وصف اللَّه به المسلمين.

ولم يكن في القرن الأول شيء من هٰذه التقاليد والأعمال التي نحن عليها ـ بل ولا في القرن الثاني ـ، ولا يشهد لهٰذه البدع كتاب ولا سنة، وإنما سرت إلينا بالتقليد أو العدوىٰ من الأمم الأخرىٰ، إذ رأىٰ قومنا عندهم أمثال هٰذه الاحتفالات؛ فظنوا أنهم إذا عملوا مثلها كان لدينهم عظمة وشأن في قلوب تلك الأمم. فهٰذا النوع من اتخاذ الأنداد كان من أهم أسباب تأخر المسلمين وسقوطهم فيما سقطوا فيه.

وهناك نوع آخر لم يكن أثره في الفتك بهم بأضعف من أثر الأول، وهو ترك الاقتداء بالكتاب والسنة، واستبدالهما بأقوال الرجال».

إلىٰ أن قال: «ونحن لا نطعن في أولٰئك القائلين أو المرجحين علىٰ اختلاف تاريخهم، بل نحسن بهم الظن، ونقول: إنهم قالوا بما وصل إليه علمهم، ولم يجعلوا أنفسهم شارعين، بل باحثين، وإنا نسترشد بكلامهم علىٰ أنهم دالُّون ومبيِّنون، لا علىٰ أنهم شارعون، بل نقول: إنه يجب علىٰ ذي الدين أن ينظر دائمًا إلىٰ وحي اللَّه حتىٰ لا يختلط ولا يشتبه عليه شيء من الأحكام، ولا يجوز لأحد أن يرجع في شيء من عقائده وعباداته إلا إلىٰ اللَّه. فيجب علينا أن نعتقد أن الحكم للَّه وحده، لا يؤخذ الدين من غيره، كما يجب علينا أن نعتقد بأن لا فعل لغيره تعالىٰ، فلا نطلب شيئًا إلا منه، وطلبنا منه يكون بالأخذ بالأسباب

التي وضعها وهدانا إليها، فإن جهلنا أو عجزنا فإننا نلجأ إلىٰ قدرته وحده، ونستمد غايته التي لا يغلبها غالب». انتهىٰ كلامه باختصار وتصرف بسيط.

وقد أغفل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ابتُلي به المسلمون من الخلاف العقائدي الذي فرقهم شيعًا، وأضاع طاقات أعمارهم في الجدل، والسبب فيه تحكيم قوانين المنطق اليوناني، وجعلها أصلًا للنصوص، والواجب الديني يقضي عليهم أن يجعلوا النصوص الشرعية النقلية هي الأصل؛ يكيفون ما سواها بها، ويخضعونه لها ـ بدلًا من إخضاع النصوص والجناية عليها بالتأويل ـ، حتىٰ غرهم الشيطان وجرأهم علىٰ تأصيل أخبث أصل وأشنعه، وهو أن النصوص النقلية لا تفيد اليقين ـ والعياذ باللَّه ـ.

فماذا يبقىٰ لدىٰ المسلمين من مرجع إذا كانت نصوص الوحي لا تفيد اليقين؟ وما الفائدة من إرسال المصطفىٰ ﷺ بشيء لا يفيد القطع واليقين؟ إذًا لم يكن إرساله رحمة للعالمين، وكان أرسطو وأشكاله هم الرحمة الذين جاؤوا بمصطلحات تفيد اليقين!!! إنا للَّهِ وإنا إليه راجعون.

بمثل هٰذه القاعدة الملعونة جعلوا كلام شيوخهم ـ المنبثق من المنطق ـ أعلىٰ وأولىٰ من وحي اللَّه تعالىٰ، كما هو مشهور منهم في مباحث الصفات والتوحيد الذي يعتبر تعطيلًا للَّه، فقد اتخذوا شيوخهم أندادًا من دون اللَّه، وجعلوهم بسبب هٰذه القاعدة رسلًا غير محمد ﷺ.

هٰذا وقد أغفل الإمام فئةً أخرىٰ، تدعي الأخذ بالحديث وتعادي التقليد، ولٰكنها أفرطت في معاداة التقليد إفراطًا جعلها تزدري الفقهاء، وتحط من أقدارهم، وتحظر قراءة كتب الفقه، حتىٰ حرمت نفسها ما فيها من خير ونفع عظيم، وحتىٰ صارت تصف المذاهب الأربعة في مصاف المذاهب المبتدعة أو اليهودِ والنصارىٰ والمجوس، كما قاله بعضهم في شرحه لحديث: «**كلُّ مولودٍ يُولَدُ علىٰ الفطرة...**»(١): «أو يحنِّفانه،

---

(١) تقدم تخريجه.

أو يملِّكانه، أو يشفعانه، أو يحنبلانه»!! فكيف بلغ بهم الأمر إلىٰ هٰذه الحال؟ وكيف جرَّهم الحقد علىٰ المذاهب حتىٰ يصفُّونها في مصاف الكفرة الفجرة، وهم مع ذٰلك يقلدون الشَّتَّام اللعان للفقهاء وهو ابن حزم الظاهري؛ الذي هو معتزلي في القرآن، جهميٌّ في الصفات، مطعون في أخلاقه حسب اعترافاته، قد أخرج نفسه من الإيمان بشهادة المصطفىٰ ﷺ: «**لا يكون المؤمن لعانًا**»، فقد جعلوه إمامًا لهم، وقلدوه أمرهم، في حين أنهم يحاربون التقليد، وأغلاطه في العقيدة كثيرة شنيعة، وقد قاس في أصول الدين قياسًا يرد به حديث رسول اللَّه، كإنكاره أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، وهو ينكر القياس في الفروع، ويشنعُ علىٰ أهله، ولو لم يحصل منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا إباحة المعازف وجميع آلات اللهو لكفىٰ، فقد فتح لأهل الأهواء والطَّغام بابًا؛ بل أبوابًا كثيرة يبثون منها جميع صنوف الشر! فهل خفي عليه أن هٰذا يخالف الحس الديني ويفسد القلوب؟ هل خفي عليه أن المولع به لا يقل سوءُ حاله عن متخذ الأنداد؟ أيخفىٰ عليه أن القلب إما أن يكون مستودَعًا لحب الرَّحمٰن، أو لحب ما يريده الشيطان؟ أيخفىٰ عليه أن الحب خير حارس للقلب، وأنه إذا حل فيه محبة شيء حرسته ومنعته عن ضده؟ فإذا حل فيه حب اللَّه ورسوله منعه وحرسه من محبة ما يخالف محبتهما، وإذا حل فيه حب اللهو وغيره من المعشوقات حرسه ومنعه مما يحبه اللَّه ويطلبه ـ والعياذ باللَّه ـ؟ أيخفىٰ عليه أنه لا يجتمع في القلب حب القرآن حب ألحان الشيطان؟ وهو عالمٌ جدلي يعلم أن الضدين لا يجتمعان.

إن أخطاءه ـ مع ضخامتها ـ قد تسهُلُ أمام هٰذه الفتنة الكبيرة التي أقامها، وقد اتخذه أعداء المذاهب ندًّا من دون اللَّه؛ لا يستطيع أحد أن يقنعهم بكلام إمام غيرِ هٰذا الذي اتخذوه إمامًا؛ إذا قلت: «قال الإمام الفلاني، أو: قال الصحابي»، لجُّوا عليك، حتىٰ إذا قلت لهم: «قال ابن حزم» خرسوا وخنسوا؛ فنسأل اللَّه لنا ولهم العافية، وأن يعامل ابن حزم بفضله لا بعدله، ويوفق من يرغب اتباع الحديث للاعتدال وعدم الغلو والجفاء.

حقًّا؛ إن علىٰ المسلم أن يتحرىٰ ما صح دليله بلا إفراط ولا تجنٍّ علىٰ أحد، وما أحسن تكرار قراءة رسالة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» ـ وهي للشيخ ابن تيمية ـ، حتىٰ لا يكون في قلبه غل للذين آمنوا، ولا ضغينة علىٰ الفقهاء.

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾:

﴿إِذْ﴾ حرف ظرف متعلق بقوله: ﴿يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ في الآية السابقة، والكلام متصل لاحقه بسابقه في موضوع اتخاذ الأنداد.

وقد صرحت الآيةُ السابقة أن عذاب اللَّه سيحل بمتخذي الأنداد من دونه، وبالأنداد ـ أيضًا ـ علىٰ اختلاف أصنافهم.

وقد أورده سبحانه بصيغة الماضي لتحقق وقوعه ـ كما أسلفنا ـ، وقد رأوا العذاب ـ الذي هو جزاؤهم المحتوم ـ، فتبرؤوا من أتباعهم.

ولٰكن هيهات هيهات! أنىٰ ينفعهم التبرؤ منهم في ذٰلك اليوم، وقد أصروا في الدنيا أن يكونوا متبوعين مطاعين، يتلذذون بالزعامة علىٰ غيرهم والسيادة الباطلة؛ إنه لا ينفعهم التبرؤ، ولٰكن ليس لهم حيلةٌ سواه، فيتبرؤون من التابعين، وتنقطع بينهم أسباب الوصل التي كانت قائمةً في الدنيا لما رأوا العذاب.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يعني: الروابط التي كانت بينهم وبين أتباعهم في الدنيا؛ لأنها لم تكن علىٰ حق.

و«الأسباب»: جمع سبب، وهو ما يتوصل به إلىٰ المقصود، فلما انقطعت هٰذه الأسباب الكاذبة لم يبق أمام الأتباع إلا التمني الذي هو رأس مال كل مفلس؛ فلذا قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾:

يعني نتمنىٰ لو أن لنا رجعةً إلىٰ الدنيا فنتبرأ من هٰؤلاء الدجالين والمضللين ولا نتبعهم، بل نتنصل منهم، ونرفض رئاستهم، ونسلك سبل التوحيد والدين الخالص حتىٰ نعود إلىٰ الدار الآخرة. نتبرأ منهم كما تبرؤوا منا الآن، فنسعد بأعمالنا وهم أشقياء بضلالهم، ولٰكنها الأماني الفارغة.

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ يُظهر اللّٰه لهم سوء نتائج أعمالهم التي يؤمّلون نفعها، فانقلبت حسرةً في قلوبهم، حيث جعلوا أنفسهم في الدنيا مستذلةً مستعبدةً لغير اللّٰه، فأورثها ذٰلك سوء المنقلب ـ من الذلة والعذاب الشديد ـ ما كان حسرةً وشقاءً عليهم؛ بسبب انصياعهم إلىٰ أولٰئك الزعماء ومذاهبهم، وإعراضهم عن وحي اللّٰه ﷻ. ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ إلىٰ الدنيا صحيحي العقيدة، ليصلحوا أعمالهم، فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وزعمائهم الذين اتخذوهم أندادًا، ولا إلىٰ الجنة؛ لأن سبب دخولهم النار هي أنفسُهم بما طبعتها عليه خرافات الشرك، وبذٰلك بطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بخيبة آمالهم التي يؤملون فضرتهم غاية الضرر.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ دليل علىٰ أن متخذي الأنداد من دون اللّٰه في الحب، والطاعة، والانقياد، والبذل، والفداء من أي شخص أو مذهب أو مبدأ أو نِحلةٍ أو وطن أو غير ذٰلك ـ كما أسلفنا تفصيله ـ أنهم ليسوا عصاةً مذنبين، وإنما هم كفار مشركون؛ لأن العصاة المذنبين لا يخلدون في النار، بل يطهرون من ذنوبهم فيها، ثم يخرجون، وهٰؤلاء نص اللّٰه عليهم أنهم ليسوا بخارجين من النار، ولا يخلد فيها إلا المشرك الكافر.

وذكر ابن جرير أن في قوله سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تكذيبًا من اللّٰه للزاعمين انتهاء عذاب الكفار في النار؛ لأنه أخبر عن هٰؤلاء بصفاتهم من اتخاذ الأنداد، ثم ختم الخبر عنهم بأنهم غير خارجين

من النار بغير استثناء منه وقتًا دون وقت، فذٰلك إلىٰ غير حد ولا نهاية.

قلت: نعم؛ هٰذه الآية فيها دليل واضح صريح علىٰ خلود هٰؤلاء في النار وعدم خروجهم منها ما دامت باقيةً، وليس فيها دليل علىٰ عدم فناء النار ـ كما ذهب إليه بعض العلماء من السلف والخلف ـ؛ لأنه قال في سورة «هود»: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود]. وقال في أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]، فقطع بدوام الخلود لأهل الجنة بقوله سبحانه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وهٰذا قطع ببقاء الجنة ونعيمها أبد الآبدين، بخلاف النار فلم ينص علىٰ القطع ببقائها أبد الآبدين، فيجوز فناؤها حسبما يشاء اللَّه، ويجوز بقاؤها، إليه يرجع الأمر كله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

ذكر بعض المفسرين أن هٰذه الآيات نزلت فيمن حرم السوائب والبحيرة ونحوها، وليس الأمر كذٰلك، فإن لمعالجة تحريم ذٰلك آيات في سورة «الأنعام» و«المائدة» مختصة بذٰلك ومناسبة لموضوعه، وأما هنا فالأمر بخلاف ذٰلك، فإن هٰذه الآيات متصلة بما قبلها أتم الاتصال، فإن الآيات الأولىٰ بينت حال متخذي الأنداد وما سيلاقونه من عذاب اللَّه الشديد المتواصل.

وقد أوضحت في تفسيرها أن الأنداد علىٰ أقسام:

ـ قسم يستجلب منه النفع، ويُستدفع به الضرر من أنواع الأحياء أو المقبورين.

ـ وقسم يُعتمد عليه في حلول المشاكل وكشف المعضلات، ويحظىٰ بالحب والمودة والبذل والغذاء والتضحية والتعظيم والتقديس، ويعتبرونه المنقذُ الهادي في الشؤون السياسية والثقافية وغيرها، كما هو حاصل

قديمًا وحديثًا؛ يجعلونه مشرِّعًا يتقبلون ما يصدر من أنظمته وتشريعاته أعظم من تشريعات اللَّه، وقسم ديني يعتبرونه شارعًا يؤخذ برأيه في التحليل والتحريم من غير أن يكون مبلغًا عن اللَّه ودالًّا علىٰ نصوصه، بل يجعلون قول كل من القسمين وفعلَه حجةً بذاته، لا ينظرون إلىٰ مأخذه ولا يسألونه عنه؛ لأنهم اتخذوه ندًّا من دون اللَّه قد يحظىٰ بالحب وتوابعه ما لا يحظىٰ به اللَّه منهم ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقد أوضحت ما ذكره اللَّه سابقًا من تبرؤ المتبوع من التابع، وانقطاع الأسباب بينهم، وأن الأسباب هي المنافع التي يَجْبيها الرؤساء من أتباعهم والمصالح الدنيوية التي تصل بعضهم ببعض. ثم إن اللَّه سبحانه يبين في هٰذه الآيات أن تلك الأسباب محرمة؛ لأنها ترجع إلىٰ استحلال الخبائث وتحريم الطيبات من الرزق، كتحجير التجارة أو منعها، وكتحجير الزراعة أو تحديدها بمقدار من الأرض، وشل الصناعة والأعمال الفردية، وإباحة الخمور ولحم الخنزير والقمار ونحوه؛ مما هو من سيرتهم التي هي اتباع لخطوات الشيطان، ويندب اللَّه فيها الأمة إلىٰ أكل الطيبات، وينهىٰ عن اتباع خطوات الشياطين، وينعىٰ علىٰ الجامدين علىٰ الباطل والضَّلال ثقةً بآبائهم أو اتباعًا للدهماء من غير هدًىٰ ولا بصيرة؛ فالكلام في هٰذه الآيات متمم للآيات السابقة قطعًا.

فقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ خطاب للناس كلهم ـ مؤمنهم وكافرهم ـ، وامتنان منه سبحانه عليهم بإباحته لهم جميع ما في الأرض من الطيبات، طيبات المآكل والمشارب وسائر الاستثمارات والمكاسب التي يحرمها شياطين الإنس ـ ممن اتخذه بعض الناس أندادًا ـ، ﴿كُلُواْ﴾ منه ﴿حَلَٰلًا﴾ محللًا لكم مما ليس بسرقة أو مغصوب ولا محصلًا علىٰ وجه محرم، ﴿طَيِّبًا﴾ ليس بخبيث، كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير والمُهلَكةِ بالخنق ونحوه، كالمغموس بالماء الحار من الدجاج والطيور حتىٰ يموت، وكـ«الموقوذة» المُهلَكة بالضرب، أو صعق الكهرباء وغيره، و«المتردية» الساقطة من مكان عال، و«ما ذُبح

لغير اللَّه» ما هو رجس ونحو ذٰلك ممَّا يفعل في المسالخ الحديثة علىٰ طريقة كفار أوروبا وأمريكا، مما ليس علىٰ طريقة الذبح الإسلامي؛ فإنه خبيثٌ ليس بطيب، ولابد فيه من الضرر الحسي أو المعنوي في الصحة والسلوك الخلقي.

✍ **وفي هذه الآية عدة فوائد:**

أحدها: أن الأصل في الأعيان الإباحة، فهي كالآية السابقة في أول السورة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وأن تحريم البشر ليس له أثر ولا قيمة، وإنما هو جناية علىٰ دين اللَّه وعلىٰ خلقه.

ثانيها: أن المنصاعين لتحريم غير اللَّه ممن اتخذوهم أندادًا هم مشركون ـ كما يأتي بيانه في الآية (١٢١) من سورة «الأنعام» ـ. فالمطيع لهم في التحريم أو التحليل بغير برهان من اللَّه يكون كافرًا.

ثالثها: أن علىٰ الإنسان وجوب أكل ما يقيم صلبه وينجيه من ضرر الجوع والهلاك لظاهر الأمر؛ بل قالوا: إن علىٰ المضطر إلىٰ المحرم ـ بفقده الأكل الحلال الطيب ـ؛ يجب عليه أن يأكل من الميتة أو يشرب من الدم ما يسد رمقه استبقاء لحق اللَّه في حياته.

رابعها: تقييده حِلَّ الأكل بالطيب منه يفيد تحريم النجس، كما يفيد تحريم المحرم والخبيث، وكم في النجس من جراثيم وأضرار، بعضها اكتشف، وبعضها لم يكتشف، أو لم يعترف به لحاجات في نفوس الكفرة الفجرة.

خامسها: من الحرام الخبيث أكل الرؤساء من المرؤوسين بلا مقابل سوىٰ أنهم المسيطرون، وكذٰلك أكل المرؤوسين بجاه الرؤساء، فإن كلًّا منهما يُمِدُّ الآخر ليستمد منه في غير الوجوه المشروعة التي يتساوىٰ فيها جميع الناس.

سادسها: يَظهر من تقييد إباحة الأكل بالحلال والطيب تحريم السحت الذي ذم اللَّه بني إسرائيل بأكله، وذٰلك كالرشوة والربا والغش

وسائر أنواع النصب والتلصص، وكذٰلك تحريم ما خَنز(١) وأنتن من اللحوم والأطعمة؛ لخروجه عن معنىٰ الطيب النافع إلىٰ معنىٰ الخبيث الضار.

ثم أتبع اللّٰه أمره الحكيم ـ الذي فيه الخير والنفع ـ بالنهي ـ الذي فيه الخير والنفع ـ أيضًا ـ؛ فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، والخُطوات ـ بضم الخاء ـ جمع خُطوة، وهي ما بين قدمي الماشي، وبفتح الخاء وهي المرة الواحدة من حركة الرِّجل، تقول: «خطوت خَطوةً واحدة». والمعنىٰ: لا تتبعوا طريقة الشيطان وهمزاته ووساوسه، فلا تسلكوا طريقته، ولا تتبعوا سبيله وسيرته في الإغواء والإغراء علىٰ الفاحشة؛ فإن له أساليبَ عديدةً في تزيين الشر للناس، أساليب تدخل القلوب وتأخذ بالألباب؛ فاحذروها، وحاذروا منها، لا تتبعوا منها شيئًا يغويكم فيرديكم، ولا تقلدوه في إغواء الناس وتزيين الشر لهم بمختلف الأساليب الجذابة، خصوصًا ما تفاقم شره في هذا الزمان، فتكونوا من جنده وأعوانه المجندين لخدمته ـ والعياذ باللّٰه ـ؛ فإن من سلك مسالك الشيطان، وسار علىٰ سيرته وطريقته؛ كان شيطانًا مثله ـ أو شرًّا منه ـ؛ لأن فتنة شيطان الإنس أشد وأفتك من فتنة شيطان الجن، وقد تقدم في تفسير الاستعاذة أن مسمىٰ «الشيطان» ليس مقصورًا علىٰ إبليس وذريته، وإنما يشمل كل من تشيطن ـ يعني: ابتعد عن أمر اللّٰه وطاعته في دينه ـ؛ لأنه يزين طريقته للناس، وقد يسعىٰ لاحتلال الصدارة في أي شأن من شؤون الحياة؛ لتنفيذ مطالبه وفرض مقاصده، فاسم الشيطان عام في كل من يسعىٰ لإبعاد الناس عن دين اللّٰه الحنيف وتنفيذ أوامره، أو يسعىٰ لتزيين المحرمات وإباحتها.

وقد اعتنىٰ اللّٰه بهدايتنا؛ فكرر تحذيرنا من الشيطان في عدة مواضع من القرآن، وكرر تذكيرنا بعداوته لنا، حتىٰ قال في سورة «فاطر»: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فأوجب علينا أن نتخذه عدوًّا، فكل

---

(١) خنز: تعفَّن.

من صاحبَ شيطانًا من شياطين الجن أو الإنس كان عاصيًا للَّه ﷻ، مخالفًا لأمره، منابذًا لهدايته.

وقد أوضحت في بادئ التفسير أن «الشيطان» اسم جنس يعم كل من تشيطن بالابتعاد عن أمر اللَّه ووحيه، وأنه مشتق في اللغة من الشَّطَن، يعني: الابتعاد، وذكرت شواهد عديدةً من أشعار العرب وكلامهم، وأن أول المتشيطنين وإمامهم إبليس اللعين، وأن كل من قلده وسار علىٰ طريقته في الابتعاد عن اللَّه برفض أمره وترك طاعته فهو شيطان، سواء كان من الجن أو الإنس.

وقد أوضحت في عدة مناسبات أن شياطين الإنس شر وأضر من شياطين الجن، وأنهم أعوان لإبليس، بل أراحوا إبليس وذريته، ومن نظر إلىٰ البلاد التي جاس(١) خلالها المستعمِرون ـ شياطين الإنس ـ؛ جزم أنهم قد أراحوا الأبالسة بما وضعوه من وسائل الفتنة عن دين اللَّه، بما خططوه من برامج التربية والتعليم بأساليبَ ماديةٍ وثنيةٍ مختلفة، وما عملوه من إفساد الأخلاق وإبعاد ناشئة المسلمين عن ذكر اللَّه وطاعته، وإغرائهم علىٰ الفحشاء والمنكر بما أكثروه من المسارح والمراقص، وحوانيت الخمر ودور البغاء، وإباحة الزنا حال الرضا، وتشريع الأنظمة الديوثية المعفية لأهله من إقامة حدود اللَّه، وإباحة المسكرات والقمار وغيرها. وقد خَلَّفَ المستعمرون الشياطينُ شياطينَ أخرىٰ من تلاميذهم زادوا عليهم شيطنةً، فاللَّه يحذرنا من جنس الشيطان ـ أيَّ شيطان كان ـ، طالبًا منا أن نتخذه عدوًّا، فنعامله معاملة العدو، بالبغض والعداوة، والحذر منه، والابتعاد عنه بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوة ليست عداوته خفيةً فتلتبس، وإنما عداوته ظاهرة واضحة تستبين لكل مؤمن إبانةً واضحةً من سيرته وما يمليه، فسيرته مخالفة لدين اللَّه وسيرة عباد

---

(١) جاس: تخلل واجتاح.

اللَّه، وقد يكون فيها شيء من الموافقة، إما تلبيسًا ومكرًا، وإما شيئًا يعمله عملًا تقليديًّا من رواسب أخلاق أسرته يناقضه ما تجدد له من الأعمال الشيطانية.

وأما الذي يمليه على الناس فهو مخالف مخالفةً عامةً للحق والمعروف، ومعاكس لأوامر اللَّه، ولهٰذا عرف أبونا إبراهيم عليه السلام إبليس وهو متصور بصورة رجل وقور لما عرض له عند العقبة وهو ذاهب بابنه إسماعيل إلىٰ منىٰ ليذبحه امتثالًا لأمر اللَّه، عرفه بمنطقه الذي فيه التخذيل والتفنيد عن الامتثال، فإنه لا يصدر إلا من شيطان، وكلما عرض له بموضع آخر وشكل آخر ومنطق آخر عرفه بمفهوم نطقه الذي يحتوي علىٰ الصد عن أمر اللَّه وطاعته، فرجمه في ثلاث مواضع حتىٰ خسأه ويأَّسه[1]، فجعلها اللَّه من واجبات الحج، يرمون بها الجمار بِهٰذه المواقع التي عرض فيها الشيطان له، كي يأخذوا درسًا صحيحًا لمراغمة الشيطان ورجمه رجمًا معنويًّا، برفض همزاته وعداوته، والابتعاد عن خطواته، ولٰكن الاعتبار قليل.

هٰذا في شيطان الإنس ـ بأي ثوب ظهر، وبأي مذهب تقمص ـ، وأما شيطان الجن فكيده الوسوسة والإيحاء إلىٰ أوليائه من شياطين الجن؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

وأما وسوسته فيدفعها المؤمن بعدة أشياء:

أحدها: الإعراض عنها إعراض بغض عن وعي صحيح بسوء عواقبها.

ثانيها: الاستعاذة باللَّه منه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف]، وينبغي أن تكون استعاذته صادقة؛ فإن من استعاذ باللَّه صادقًا أعاذه، والصادقة هي التي يصحبها الرفض وشدة الإعراض عن بغض ووعي بسوء النتائج. وأما الذي يستعيذ

(١) أي: دحره وأذلَّه.

بلسانه وهو مصغ بقلبه إلىٰ وساوسه فهٰذا غير صادق في استعاذته بالله، وقد يكون فريسةً لتلك الوساوس.

ثالثها: طرده بذكر الله، فإن مداومة الذكر حصن حصين ومطردة للشياطين، كما في الحديث عنه ﷺ: «**وآمرُكم أن تذكروا الله، فإن مَثَلَ ذٰلك كمثل رجل خرج العدوُّ في إثره سراعًا، حتىٰ إذا أتىٰ علىٰ حصن حصين فأحرز نفسه منهم**»(١).

ثم قال تعالى حاصرًا مهمة الشيطان ـ كل شيطان ـ: ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ [البقرة]؛ هٰذه وظيفة الشياطين كلهم، ومهمتهم أجمعين؛ فإنهم لا يأمرون بحق ولا خير ولا صلاح ولا صدق، وإنما يأمرون بالسوء، وهو الذي يسوء صاحبه بسوء عواقبه.

ويأمر ـ أيضًا ـ بالفحشاء، وهي في أصل اللغة: قبح المنظر، ثم استعملت لقبح المعاني، فصارت تعني كل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، ولا تختص بنحو الزنا ـ كما قاله بعضهم ـ، وهي في الغالب أقبح وأشد من السوء.

📖 **وقوله سبحانه:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

يعني: وإذا قيل لمتبعي خطوات الشيطان من المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء وأندادًا ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، أي: اتبعوا وحي الله وقفوا عليه، ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، يعني: لا نعرف ما أنزل الله ولا نألفه، بل نتبع ما وجدنا عليه الآباء.

فاكتفوا بتقديس الآباء وتقليدهم، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء.

وهٰذه شبهة واهية لرد الحق، تدل علىٰ إعراضهم وعدم إنصافهم وقلة

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣).

فهمهم، ولهٰذا نجد اللَّه سبحانه لم يتوجه إليهم بالخطاب لإبطال ما هم عليه، بل حكىٰ عنهم ذٰلك حكايةً ليبين لنا فساد مذهبهم، وكأنه أنزلهم منزلة من لا يفهم الخطاب، ولا يستحق توجيه الخطاب إليه. وقد أوضح اللَّه حقيقتهم بالتمثيل الآتي في الآية (١٧١) وسيأتي إيضاحه ـ إن شاء اللَّه ـ.

فلو كان للمقلدين قلوب يعقلون بها، لكانت هٰذه الآية كافيةً بأسلوبها الحكيم لتنفيرهم من تقليد الشيوخ والرؤساء والزعماء، ليتوجهوا إلىٰ الاقتداء بالنبي ﷺ وخلفائه الراشدين، ولٰكن أنىٰ يكون لهم عقول استقلالية، وقد قيدوها بتقديس أولٰئك، وحسبك بِهٰذا شناعة في إضاعة العقل وحبسه.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وهٰذه حجة عقلية مطردة لا تنتقض. والهمزة للإنكار المشوب بالتعجب، وهي داخلة علىٰ فعل محذوف حذف للعلم به من القرينة. و«لو» هنا للغاية، ولا تحتاج إلىٰ جواب وجزاء، والتقدير: أيتَّبعون ما وجدوا عليه آباءهم في كل حال، وفي كل شيء؛ حتىٰ ولو كانوا لا يعقلون شيئًا من عقائد الدين، ولا يهتدون في أحكامه؟!.

وللمفسرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قولان في عود الضمير من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

فقال بعضهم: الهاء والميم في ﴿لَهُمُ﴾ عائدة علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ﴾، فيكون ذٰلك انصرافًا من الخطاب إلىٰ الخبر عن الغائب.

وهٰذا بعيد، والأولىٰ ما قاله الأكثر: من أن الضمير عائد إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ لارتباط الآيات هٰذه بعضها ببعض، ولكون حال متخذي الأنداد يأخذون بما يشرِّعونه من التحليل والتحريم دون الرجوع إلىٰ حكم اللَّه فيه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في كتابه علىٰ رسوله، فأحلوا حلاله،

وحرموا حرامه، واجعلوه لكم إمامًا تأتمون به، قالوا: بل نأتم بآبائنا، فنتبع ما وجدناهم عليه من التحليل والتحريم.

و«الآباء» هنا تشمل أجدادهم، وما هم عليه من اتخاذ الأنداد، وقد تكون عامةً في الرؤساء، وغيرهم من آباء الزعامة والتربية السياسية، والله أعلم.

وفي هٰذه دليل قوي ـ بل أقوىٰ دليل ـ علىٰ مهمة التشريع، وأن من نصب نفسه له، فحرم حلاله، وأحل حرامه، فهو شيطان من شياطين الإنس، متمرد علىٰ وحي الله، وطاغوت مشرع من دونه. كما أن فيها دليلًا علىٰ ذم التقليد، خصوصًا تقليد أمثال هٰؤلاء ممَّن لا يعقلون من أمر الله شيئًا، ولا هم يصيبون حقًّا، ولا يدركون رشدًا، فهٰذا تقليد في الجهل علىٰ الجهل.

وأما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين، وعصمةٌ من عِصَمِ المسلمين، يلجأ إليها الجاهل المقصر عن درك النظر، كما قاله القرطبي.

والتقليد في الحقيقة ليس طريقًا للعلم، لا في الأصول ولا في الفروع، ولٰكنه فرض العامي العاجز عن استنباط الأحكام من أصولها، فعليه أن يبحث عن أعلم أهل بلده فيسأله، لقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء]، وعليه الاجتهاد في البحث عن الأعلم فالأعلم، احتياطًا لدينه.

وأما الأصول فقال ابن عطية: أجمعت الأمة علىٰ إبطال التقليد في العقائد، وذكر غيره خلافًا لا يعتد به لهٰذه الآية.

والحقيقة أن اتباع شخص لذاته منكر يحرم فعله ممن يقول: «أنا أتبع فلانًا في كل ما يفعل»، فهٰذا حاله كحال متخذي الأنداد.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾:

هٰذا مثل ضربه الله لتقبيح شأن المشركين الذين كفروا باتخاذهم

رؤساءهم وآباءهم أندادًا من دون اللَّه يتبعونهم من غير نظر ولا استدلال، فشبه اللَّه صفتهم في هٰذا التقليد الأعمىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ يعني: كصفة راعي البهائم السائمة، ينعق لها ويصيح بها وليس لها علم بما يقول؛ بل تتبعه بمجرد الصوت والإشارة، وهي لا تدري هل يدعوها إلىٰ روض معشب وماء عذب، أو إلىٰ المجزرة، وإنما تستجيب له بما ألفت من تكرار صوته أو نعقه.

فهٰذا مثل ضربه اللَّه لهم لعدم انقيادهم لما جاءت به الرسل وردهم له بالتقليد. وحقيقة هٰذا المثل: أنهم ليس فيهم قابلية للحق ولا استعداد للاستجابة إليه، وأن حالهم كحال البهائم.

وقد روىٰ ابن جرير من طريق محمد بن سعد عن ابن عباس أنه قال في هٰذا المثل بِهٰذه الآية: «كمثل البعير والحمار والشاة إن قلت لبعضها: «كُل» لا يعلم ما تقول؛ غير أنه يسمع صوتًا، وكذٰلك الكافر إذا أمرته بخير أو نَهيته عن شر أو وعظته، لم يعقل ما تقول؛ غير أنه يسمع صوتك».

وروي عن مجاهد أنه قال: «كمثل البهيمة تسمع النعيق ولا تعقل».

وعن عكرمة أنه قال: «كمثل البعير أو الشاة؛ تدعوه فيسمع الصوت، ولا يفقه ما تقول».

وهٰذه الآية الكريمة مع آخر الآية التي قبلها: لا يقصد اللَّه بهما أن الكفار ليس لهم عقول أصلًا ـ كما هو ظاهر الآية من سياق النفي بصيغة النكرة ـ، فقد جاءت آيات أخرىٰ تدل علىٰ أنهم يعقلون في الدنيا، كقوله تعالىٰ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت]؛ فإنهم يعقلون أمور الدنيا عقلًا دقيقًا بتفكير عجيب، فهم يعقلون أمور الدنيا دون الآخرة، ولذا قال ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

فحصر اللَّه غفلتهم هنا في أمور الدين؛ وذٰلك أن الكافر يرىٰ الحق ويعرض عنه، ويصرف نفسه عن دلائله وآياته فلا ينظر فيها، فهو كالحيوان يرضىٰ بألَّا يكون له فهم ولا علم، بل يقوده غيرُه ويصرِّفه كيف

يشاء، فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعي، تُقبل بدعائه، وتنزجر بندائه أو نعيقه، فهي مسخَّرة لإرادته، بل قد تكون البهائم أحسن حالًا منه في الإحساس من جهة، ومن جهة أخرىٰ أنها ليس لها عقل؛ ولٰكنه له عقل معطَّل ومسلَّم لغيره، ومَن أحط ممن رضي بمصادرة عقله؟.

وقوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّ﴾، يعني: هم صم عن سماع الحق، فهم يسمعون الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولٰكنهم لا يفقهونه فقهًا ينفعهم؛ لعدم فهمهم وتدبرهم، فلهٰذا كانوا صمًّا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، وهم ﴿عُمْيٌ﴾ لا ينظرون في آيات اللَّه ـ في أنفسهم وفي الآفاق ـ نظر اعتبار وبصيرة، حتىٰ يتبين لهم أنه الحق، ثم إنهم ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون بما فيه خير لهم، فهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ مبدأ ما هم فيه ولا غايته، كما يطلب التفهم من الإنسان، وإنما ينقادون لغيرهم كشأن الحيوان، بل هم أضل سبيلًا، لتعطيلهم عقولهم ومواهبهم الروحية. والسبب الموجب لذٰلك كله أنه ليس لهم عقل فطري صحيح، بل هم أسفه الناس وأسفه السفهاء وأجهل الجهلاء.

فهل يستريب العاقل أن من عصىٰ داعي الرشاد الذي يأمره بما فيه الصلاح والفلاح والحياة الطيبة في الدارين، وينهاه عن الفساد، ويذوده عن اقتحام أسباب العذاب وسلوك ما يجلب الشر عليه، راغبًا في عكس ذٰلك، مشتريًا لخزي الدنيا وعذاب الآخرة بنفسه العزيزة وماله الغالي، ضاربًا بالنصح عرض الحائط: [هل يرتابُ] أن ليس عنده مسكةٌ من عقل؟! حقًّا لا يستريب العاقل بأن هٰذا كالبهيمة أو أسوأ حالًا منها ـ والعياذ باللَّه ـ.

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾:

هٰذا نداء خاص منه ﷻ بعد بيانه لحال الذين يتخذون الأنداد من

دونه لسبب ابتغاء حطام الدنيا، وارتباط مصالح المرؤوسين بمصالح الرؤساء في الرزق والجاه، ثم توجيهه الخطاب إلىٰ الناس كلهم أن يأكلوا مما في الأرض؛ حيث أباح لهم خيراتها مما علىٰ وجهها أو استخرج منها؛ بشرط كونه حلالًا طيبًا، ثم أوضح سوء حال الكافرين المقلدين الذين يقودهم الرؤساء الروحانيون أو السياسيون، كقيادة الراعي للبهائم، لفقدهم الاستقلال العقلي بسبب مصادرة أولٰئك لعقولهم.

ثم وجَّه نداءه الخاص هٰذا إلىٰ المؤمنين، لأنهم هم المنتفعون علىٰ الحقيقة بالأوامر والنواهي، وهم المستجيبون لنداء اللَّه سبحانه بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، فكأنه يقول: يا أيها الذين صدقوا باللَّه، ودانوا بعبوديته، وأذعنوا لطاعته، اطْعَموا من حلال الرزق الذي أحللناه لكم فطاب بتحليله منا لكم، وقد كان الكفار يحرمونه اتباعًا لأمر الشيطان؛ وتقليدًا لأسلافهم ورؤسائهم الذين أضلهم الشيطان؛ فجعلهم يفترون علىٰ اللَّه الكذبَ في ذٰلك وفي غيره؛ فأنتم ـ أيها المؤمنون ـ كلوا من هٰذه الطيبات التي أحللتها لكم، فإني ربكم الرحيم بكم، واشكروا لي شكرًا أرتضيه منكم علىٰ هٰذه النعم التي رزقتكم إياها وطيبتها لكم.

والأمر في هٰذه الآية للوجوب لا للإباحة ولا للإذن، فإن الذي للإباحة أو الإذن هو قوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، علىٰ خلاف فيه، وقوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك]. أما هنا فهو للوجوب مخالفةً للكفار الذين يحرمون ما أباح اللَّه من الطيبات، وقد نهَىٰ المؤمنين عن مشابهتهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [المائدة].

و«الطيبات»: هي كل ما طاب كسبه من الحلال، وكان طيبًا في ذاته، لا يعتريه الخبث في منظره، ولا في طعمه، ولا في ريحه، ولا في سوء

تأثيره، فما اعتراه الخبث في شيء من ذٰلك فهو مخالف للطيب الحلال من أي مطعم ومشرب حدث أو سيحدث إلىٰ يوم القيامة، هٰذا هو ضابط الطيب الحلال من الخبيث الحرام، فالمؤمن مأمور بالاستمتاع بالطيبات تدينًا، ومنهي عن الامتناع عنها تكبُّرًا أو تدينًا، أو طاعةً لشياطين الإنس والطواغيت الذين يفرضون نفوذهم علىٰ الناس.

وهٰذه الآية الكريمة فيها تنبيه من اللَّه لعباده المؤمنين إلىٰ عدم الالتفات إلىٰ أولئك الحمقىٰ الذين أبيحت لهم خيرات الأرض، فأخذوا يحرمون بعضها بوساوس شيطانية أو تقليد لزعامات عصبية أو كنسية، أو تعذيبًا لأنفسهم كبعض جهال الصوفية الذين لعب عليهم الشيطان لتعطيل طاقاتهم الروحية العظيمة، فإن كلًّا من هٰؤلاء عطلوا عقولهم الفطرية التي هي ميزان حق يزنون بها ما يرد عليهم من الخواطر الشيطانية والأوامر الطاغوتية، فما أقاموا وزنًا للدين الذي يبين لهم الحلال من الحرام، بل نفضوا أيديهم من عز الاستقلال، راغبين في الاستذلال. فيا له من تنبيه إلٰهيٍّ عظيم للمؤمنين!!.

فلذا أعقبه بقوله ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ يعني: اشكروا للَّهِ الذي خلق لكم هٰذه الطيبات، وسهل عليكم أسبابها باتباع سنته الحُكمية في طلبها واستخراجها. اشكروا اللَّه شكرًا عمليًّا بحسن التصرف باستعمال هٰذه النعم، وذٰلك أن تستعملوها في طاعته، تتقوون بها علىٰ طاعته، وتستعينون بها في حمل رسالته والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته وقمع المفتري عليه، وتحكيم شريعته مع الثناء عليه بما يرضيه من الحمد والذكر.

هٰذه هي حقيقة الشكر، فإنَّ شكر اللَّه لا يتحقق إلا بصدق النية وصلاح الأعمال للَّه، وليس الشكر بمجرد اللفظ. أرأيت لو أن رجلًا مثلك أسدىٰ إليك من المعروف الجميل شيئًا كثيرًا، فأخذت تُظهر له الاحترام وتكرر الشكر له بلسانك، ولٰكنك تؤذيه بأفعالك من ازدرائك نَهجه وطريقته، وتعادي أحبابه وتسخر منهم أو تشتمهم، وتوالي أعداءه

وتشجعهم، فهل تكون شاكرًا له علىٰ إحسانه وجميله ـ ولو كررت الشكر بلسانك آلاف المرات ـ؟! أو تكون كافرًا بنعمائه، ساخرًا منه، غير مبالٍ به ولا بما فعل معك من الجميل؟!.

طبعًا إن الأمر هو عدم الشكر، وحصول الكفر للجميل والإحسان بِهٰذا التنكر المشين، ولا يجوز لأحد أن يعتبرك شاكرًا قطعًا، هٰذا في معاملة المخلوق مع المخلوق، فاللَّه أعلىٰ وأجل وله المثل الأعلىٰ ﷻ.

إذًا فعلىٰ من يدعي الإسلام أن يحاسب نفسه حسابًا صحيحًا علىٰ الدوام في معاملته مع اللَّه؛ ليعرف هل هو شاكر له فيزداد من الشكر ليزيده اللَّه من فضله ونصره ومدده، أو هو مسيء غير شاكر؛ فيتحول عن طريقته اللئيمة ويعود إلىٰ الشكر حتىٰ لا يمسه اللَّه بسوط عذاب!.

إن الواقع سيئ في الحقيقة، وسببه الغزو الفكري المتنوع الذي دبرته الماسونية اليهودية بمكرها الملعون، فأحاط بالمسلمين من كل جانب، فجميع ما يسمعونه أو يُقذف عليهم في وسائل النشر المختلفة مسموم وملغم من كل ناحية، سُداه الغش ولُحمته التدليس، وفي جميع مناهج التربية في جميع المراحل، لذٰلك ينشأ الطفل ويشيب الكهل علىٰ الأفكار المنحرفة عن دينه القويم وصراطه المستقيم؛ حيث لا يبقىٰ من الدين إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه.

من أشغل نفسه من الكهول بقراءة الصحافة، فطُبع بها مُعْتَقِدًا أن الشعب يسلك ما يناسبه دون الرجوع إلىٰ اللَّه، أو التقيد بشيء من حكمه، ومن تربىٰ في المدارس؛ فهو مطبوع بالمذهب المادي ـ أو العصبي ـ الذي تريده دولته فتركزه في الأذهان، فمنهم المفرط في الإلحاد، ومنهم من هو الوسط، ومنهم السائر في طريقه، والقليل منهم مسلم جامد لا يعلم الكتاب الإلٰهي إلَّا أمانِيَّ، يعني: تلاوة مجردة عن الفهم العميق والتدبر؛ كشأن الذين ذمهم اللَّه من أهل الكتاب.

فالشكر للَّه سبحانه ليس بمجرد اللفظ والتمني، وإنما هو بعمارة

القلب والضمير بحب اللَّه وإجلاله وتعظيمه، وإشغال اللسان بذكره وتلاوة وحيه، برغبة وخشوع وبكاء وتحزن من خوف اللَّه، ثم بذل جميع القوىٰ البدنية في طاعته، والمسابقة في مرضاته، والتحمس لحمل رسالته، وتوزيع هدايته، وقمع المفتري عليه بالصدق في الجهاد لإعلاء كلمته وتحكيم شريعته؛ ولهٰذا قال ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾؛ يعني: إن كنتم تخصونه بالعبادة الناشئة عن الحب والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتؤمنون بانفراده بالسلطة والتدبير والتشريع؛ فاشكروه علىٰ ما خلق لكم من النعم وأباح أطايبها، ولا تجعلوا للَّه أندادًا تطلبون منهم ما لا يقدر عليه إلا هو، أو تتخذونهم وسائط، أو تقدسونهم في زعامتهم؛ فترجعون إليهم بالتشريع وحل مشاكل الحياة، أي تعتمدون عليهم في حل مشاكل الحياة أو التشريع من دون اللَّه؛ فإن هٰذا منكم يعتبر شركًا وعبادةً للشيطان والطاغوت.

وقد كفَّر اللَّه الذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، فكل من جهل معنىٰ عبادة اللَّه لابد من وقوعه في عبادة الطواغيت المختلفة والشياطين، ومن الشكر العظيم للَّه استعمال القوىٰ التي غُذِيتَ بتلك الطيبات في تقوية دين اللَّه بحمل رسالته وتوزيع هدايته والجهاد في سبيل ذٰلك.

وقد دلت الآية هٰذه علىٰ أن من لم يشكر اللَّه لم يعبده وحده، وأن من شكره شكرًا عمليًّا بتنفيذ جميع أوامره والغضب لحرماته فقد عبده.

وكذٰلك في هٰذه الآية دليل علىٰ أن أكل الطيبات سبب لحصول الأعمال الصالحات وقبولها، وأن أكل الخبائث وشربها سبب للحرمان من ذٰلك، كما يدل الأمر بالشكر علىٰ النعم أن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب المفقودة، وأن عدم الشكر يبعد النعم المفقودة وينفرها، ويزيل النعم الموجودة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم].

وقد اتضح مما ذكرناه من معنىٰ «الشكر»، وما ضربناه من المثل سابقًا: تقصير المسلمين في شكر اللَّه، وكفر بعضهم بنعمة اللَّه؛ لأن من ادعىٰ شكر اللَّه بلسانه وهو يحب أعداء اللَّه أو يواليهم باسم «الوطن» أو «الجنس» من النصارىٰ وغيرهم من الملاحدة، ويزدري أهل اللَّه من المسلمين، ويصفهم بالرجعية، أو يمتدح الكفار من دونهم لهٰذه المبادئ التي ينتحلها؛ فهو ممن بدل نعمة اللَّه كفرًا، وعلىٰ الأخص من يتهكم بالقرآن أو سنةِ المصطفىٰ ﷺ أو ينتقصهما، أو يزدري العامل بهما، كالذين يتهكمون بآية تعدد الزواج وتشريع الزواج والطلاق، بل يتهكمون بنصوص القرآن، ويصفونها بأنها «تشريعات بدائية»، و«أفكار كهنة»، و«أحذية صينية» تشل نمو مجتمعهم النامي جدًّا، ويسخرون بكل ما هو دعوة إسلامية، وعملوا ـ ويعملون ـ علىٰ تدمير القيم الدينية، وعزل الدين عن الحياة العامة، واستئصال كل وجود له من السياسة والتربية والحياة الفكرية للعرب خاصة وغيرهم عامة.

هٰؤلاء ما أبعدهم عن شكر اللَّه! وما أفظع كفرهم باللَّه! وما أعظم جريمة من بدل نعمة رسالة الإسلام العظيمة بالرسالات الشيطانية من مادية وعصبية! فالشكر معناه عظيم، يتطلب حقيقة الحب للَّه، وعمق الإخلاص له، والصدق معه ببذل أقصىٰ مجهود في تنفيذ أوامره وشريعته وحمل رسالته.

ثم إن اللَّه سبحانه بعدما ذكر إباحته للطيبات؛ ذكر الخبائث فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ فحصر المحرمات في هٰذه الأشياء، وما زاده المصطفىٰ ﷺ عليها من تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير؛ فالميتة محرمة بنص القرآن لرداءتها وخبثها في نفسها؛ لأن الأغلب في سبب موتها أن يكون عن مرض أو جوع أو عطش، فيكون زيادة مرض، وذٰلك باستثناء ميتة السمك والجراد، لورود النص النبوي بإباحته لطيبه وعدم خبثه.

وقد فصل اللَّه في سورة المائدة ما يُلحق بالميتة من الموقوذة والنطيحة والمتردية مما لم يلحق علىٰ ذبحه ذبحًا شرعيًّا، ومضىٰ تفصيله قريبًا، وتمثيله بما يعمل في المسالخ الغربية الحديثة.

وقد أطلق اللَّه «الدم» في هٰذه الآية، وقيده في سورة «الأنعام» بالدم المسفوح. وقد ورد في الحديث الصحيح: «**أُحِلتْ لنا مَيتتانِ ودَمَانِ: السمكُ والجَراد، والكَبِدُ والطِّحال**»(١).

وقرئت ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ بتخفيف الياء وبالتشديد، والأفصح التخفيف؛ لأن التشديد يستعمل في الموت المعنوي دون الحسي، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنما المَيْتُ ميتُ الأحياءِ

إنما المَيْتُ مَن يعيشُ ذليلًا ... كاسفًا بالُه قليلَ الرجاءِ

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ المقصود به المذبوح لغير اللَّه، كالذي يُذبح للأصنام والأوثان والقبور والجن ونحوها، كما ذُكر عليه غير اسم اللَّه، أو ذبح من أجل الطواغيت، أو لقدوم زعيم أو شفائه علىٰ وجه التقرب إليه والتحبب لديه.

وهٰذه الأشياء المذكورة في هٰذه الآية ليست حاصرةً للمحرمات؛ لأنه يعمها اسم «الخبائث»، فكل خبيث وجد أو سيوجد من أي صنع ونبات فهو حرام، وإنما ذكرت هٰذه الأشياء لبيان بعض أجناس الخبائث المدلول عليها مما هو مضر في العاجل والآجل.

وقوله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يعني: فمن ألجأته الضرورة إلىٰ أكل شيء من هٰذه المحرمات المذكورة ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير طالب لها، راغب فيها لذاتها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز للحد في تناول ما أبيح له منها حسب الضرورة التي لا ملجأ له منها، بأن كان جائعًا، أو عادمًا للطيب الحلال، أو حصل له نزيف دم فصار مضطرًّا

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٢١٨).

إلىٰ حقن دم، فإنه يتناول ما دعت إليه ضرورة الحياة غير مستزيد علىٰ ذٰلك؛ ومن كانت هٰذه حاله من الاضطرار إلىٰ المحرم فإنه مغفور له، ولا إثم عليه فيما أكل من المطعوم المحرم أو احتقن من الدم حال مراعاته حدود الحاجة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وذٰلك لأن المرجع في تحديد تناول المحرم عند الضرورة والقدر الكافي منه منوط باجتهاد المضطر، ويصعب عليه تقدير المقدار المباح للضرورة، فإن أخطأ في التقدير ولم يتعمد؛ فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾:

لا يبعد أن يكون لهٰذه الآية ارتباط بالقسم الأول من هٰذه السورة الذي فيه شأن القرآن والرسالة وأحوال المنكرين من اليهود والنصارىٰ والمشركين، ولا يبعد أن يكون ارتباطها بالقسم الثاني الذي هو سرد الأحكام وبيانها من الآية (١٦٨) إلىٰ الآية (٢٤٢)، فإن هٰذه السورة الكريمة احتوت علىٰ ثلاثة أقسام عظام من مواضيع الهداية والإرشاد الرباني المنقطع النظير، وفي آياتها من التناسب ما يبهر العقول.

وقد أوضح اللَّه في الآيات السابقة حالة الرؤساء والعلماء المنحرفين عن صراط اللَّه، كيف يتاجرون بالأمم، ويلعبون بمقدراتهم، ويحرِّمون عليهم ما شاؤوه مما أحله اللَّه، ويبيحون لهم ما حرم اللَّه، ويكتمون الحق إما بإنكاره أو بتأويله وتحريفه تلبيسًا علىٰ الناس، ومن طبيعة العالم المادي من أي ملة أنه إذا اصطدمت أهواؤه بنصٍّ من وحي؛ حاول كتمانه إن اقتدر علىٰ ذٰلك، فإذا لم يمكنه الكتمان سطا عليه بالتأويلات التي تصرف معناه إلىٰ ما يريده من موافقة أهوائه وأطماعه؛ فلذٰلك جاء الوعيد الشديد من اللَّه علىٰ أولٰئك الذين يحتلون الصدارة بين الناس، فيصرفونهم عن الحق، ويحرمونهم أنوار هداية اللَّه وخيراتها،

فجاء في الآية (١٥٩) النص علىٰ لعنة اللّٰه والملائكة والناس أجمعين لأولٰئك الكاتمين.

وفي هٰذه الآية نص علىٰ أنهم ما يأكلون في بطونهم من ثمن الكتمان أو التحريف إلا النار، يعني أن الكاتمين لوحي اللّٰه حرمانًا لغيرهم عن العلم والهداية، أو المغرضين الذين يحرِّفونه بأنواع التأويل؛ ليخضعوا معانيه لمبادئهم ومذاهبهم التي انتهجوها، ويربحوا من ورائها المال والجاه، أو الذين يمشون في ركاب أولٰئك، لينالوا المناصب التي يبتزون بها المال، أو يأخذون الرشوة، أو يأخذون الجُعْل علىٰ الفتاوىٰ الباطلة، أو علىٰ ما يزعمون تحصيله للناس من اللّٰه بأنواع الدجل والشعوذة، وغير ذٰلك من المنافع التي يأكلها المتاجرون بالدين والمتاجرون بعقول الناس؛ فإن جميع ما يأكلونه من ذٰلك يكون سببًا لدخول النار وتحصيل عذابها بسبب مطامعهم، فلا يأكلون في دار الجزاء إلَّا طعام النار من الضريع والزقوم.

وتعبيره ﷻ عن المنافع التي يحصلون عليها بالأكل لأنه أعم، وذكره «البطون» لأن الأكل لا يصير إلا إلىٰ البطن، فهي نكتة من نكت بلاغة القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾؛ تقليله سبحانه للثمن الذي يأخذه الكاتمون للهداية أو المتلاعبون بالنصوص ـ وإن كانوا يرونه كثيرًا ـ؛ لأن كل ثمن يؤخذ عوضًا عن الحق فهو قليل، بل كل ما في الدنيا من ذهب وفضة، وجواهرَ ومعادن، وبترول وعقارات، ونخيل وبساتين، وزينة ومتاع لا يعتبر شيئًا بالنسبة إلىٰ ما يُحرَمُه صاحبه من نعيم الآخرة، فإن الكفرة والظلمة لو حصل لهم يوم القيامة أضعافُ الدنيا لافتدوا بها من سوء العذاب، كما ورد ذٰلك في الآية (٣٦) من سورة «المائدة»، والآية (٤٧) من سورة «الزمر»؛ فلو عقلوا قيمة أنفسهم وسوء عاقبتهم لما استبدلوا بآيات اللّٰه جميع ما في الدنيا من الأثمان، فإن ثمن الباطل ـ مهما كان كثيرًا في عين صاحبه ـ فهو قليل جدًّا بالنسبة إلىٰ ما يفوت أخذه من سعادة الحق الثابتة الأبدية، وما ينال

صاحب الباطل من الشقاء السرمدي.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، يعني: يعرض عنهم سخطًا وغضبًا عليهم، وإعراضه عنهم أشد عليهم من عذاب النار، وهٰذا الإعراض لا يعني أنه لا يكلمهم أبدًا، فقد ورد أنه سبحانه يكلم أهل النار؛ لٰكنه لا يكلمهم بما يحبُّونه ويشتهونه من الكلام المثْلِج للقلوب، وإنما يكلمهم بما يسوؤهم ويحزنهم ويزيد في حسرتهم وعذابهم، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يعني: لا يطهرهم من أرجاسهم؛ لأنها أرجاس كفر لا يتطرق إليها التطهير بالمغفرة؛ لأن ما فعلوه من كتمان آيات اللَّه والجناية علىٰ وحيه ـ بالتأويل الفاسد غشًّا وتلبيسًا للعامة، وطمعًا فيما يحصلون عليه من الرشوة أو جاه المنصب، والراتب الفخم أو الجُعل الذي يأخذونه من المستفتي لإصدار فتوىٰ تخالف الحق، ونحو ذٰلك ـ كله محاربة للَّه، وشراءٌ للنار بحطام الدنيا الفاني، فجريمتهم لا يمحوها شيء حتىٰ يحصل لهم التطهير، فلا مطهِّر لهم سوىٰ نار الجحيم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يعني: موجع شديد الألم.

قال المفسرون: إن هٰذا الوعيد الشديد، وهٰذا الحكم الإلٰهيَّ ليس خاصًّا بطواغيت الكفر من أحبار اليهود وكهنة النصارىٰ القسيسين ونحوهم من طواغيت الوثنية الأخرىٰ، وإنما هو عام يشمل كل من انحرف من علماء المسلمين عن توضيح الحق أو مقاومة الباطل، طمعًا في إبقائه علىٰ منصبه، أو فيما يحصل له من العامة علىٰ إقامة البدع وتأييد الخرافات، أو فيما يحصل له من الأغنياء أو الولاة علىٰ الفتاوىٰ الباطلة، أو رغبةً في الوجاهة وحسن السمعة، ليقال: هٰذا عالم متحرر متطور، ونحو ذٰلك من محبوبات الدنيا التي يشتري بها النار ـ والعياذ باللَّه ـ، فإن من ابتغىٰ الثروة بالمتاجرة في دين اللَّه، أو ابتغىٰ العزَّة وعلو المكانة في كتمان هداية اللَّه، أو رفض دعوة اللَّه؛ فإن مصيره

الخزي في الحياة الدنيا، ثم يحصل له هٰذا الوعيد بِهٰذه الآية في الآخرة؛ مع أن أهل هٰذا النوع لا ثبات لعزهم ولا بقاء لثروتهم إذا قاومهم أهل الحق، وإنما يعيشون إذا نام أهل الحق عنهم، فأما إذا جاهدوهم نالوا الذل والخزي والخسران، سواء جاهدوهم بسلاح الوحي أو بسلاح الحديد، وكلاهما سلاحان غالبان بإذن اللَّه، وكل مؤمن مأمور بالتسلح بهما، والجهاد في سبيل اللَّه بنية صالحة وجَنان ثابت؛ فإن الحق هو المنصور مهما امتحن أهله، ما داموا معتصمين به، مجتمعين عليه، والباطل زَهُوقٌ مهما كثر أهله إذا قابلهم أهل الحق ولم يناموا.

فالجُناة علىٰ وحي اللَّه بالكتمان أو التحريف؛ ينالهم عذاب في الدنيا قبل الآخرة إذا صارعهم أهل الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور].

وقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾:

يعني: أولٰئك الكاتمين لما أنزل اللَّه بكتمان حقيقته، أو بتحريف معانيه لتضليل التابعين، أو ممالأة الحاكمين، أو لقصد الاتجار به عندهم أو عند الأغنياء ـ كما أسلفناه ـ قد ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾، أي: تعوضوا الضلالة عن هداية وحي اللَّه مختارين العماية علىٰ الهداية، فأخذوا الضلالة وتركوا الهداية، وأخذوا ما يوجب لهم غضب اللَّه وعذابه، وتركوا ما يوجب لهم رضوانه وغفرانه، فاشتروا ـ أيضًا ـ العذاب بالمغفرة في الآخرة، كما اشتروا الضلالة في الدنيا التي لا تهديهم إلا إلىٰ أسباب العذاب، فكانوا بطبيعة الحال قد اشتروا العذاب بأغلىٰ ثمن، وإن ربحوا في الدنيا ربحًا خسيسًا، فإنَّ ربح الدنيا مهما تضخم لا يساوي شيئًا بالنسبة إلىٰ نعيم الآخرة، بل جميع نعيم الدنيا وملذاتها لا تقابل نقطة من حميم جهنم ـ والعياذ باللَّه ـ.

وكل عمل له آثاره المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، فمتبع الهدىٰ

والداعي إليه له العقبىٰ الحسنة في الدنيا والآخرة، ويغفر اللَّه له ما فرط من زلاته وما ألمَّ به من السوء دون إصرار عليه، ومتبعُ الغواية بفعل الضلال أو الدعوة إليه بالتحبيب والإغراء، أو بكتمان الحق، أو تلبيسه؛ له سوء العاقبة في الدارين لاختياره الضلالة، فهٰذا محروم من المغفرة، وتضاعف عليه سيئاته لسوء مقاصده، فلذا حكم اللَّه عليه بِهٰذا الوصف أنه قد اشترىٰ الضلالة والعذاب؛ فكان الجاني علىٰ نفسه.

وبأي ثمن اشتروا العذاب؟ ألا إنه بأغلىٰ ثمن، إنهم اشتروا العذاب الأليم المقيم بأعمارهم الغالية التي لا تعدلها الدنيا ثمنًا، ولهٰذا قال ﷻ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾! وهٰذا للتعجب، فاللَّه سبحانه يُعَجِّبُ عباده المؤمنين بإظهار خبر القوم الذين يكتمون ما أنزل اللَّه بما يأخذون علىٰ كتمانهم إياه من السحت والرشوة، أو يحصلون علىٰ الجاه والرئاسة، فيختم هٰذه الآية الكريمة بقوله؛ ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾! علىٰ وجه التعجب من إقدامهم علىٰ ذٰلك، مع علمهم بأنه موجب عليهم سخط اللَّه ودخول النار، فكأنه يقول: ما هٰذا الذي صبَّرهم علىٰ النار حتىٰ جرأهم علىٰ العمل بِهٰذا، بأن تركوا الحق الواجب من بيان ما أنزل اللَّه ونشره وتوضيحه وتوزيعه إلىٰ اتباع الباطل الذي هو كتمان بيان الحق؟! فما أجرأهم علىٰ العمل الذي يزجهم في النار وهم لا يصبرون عليها، ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، يعني: ما أجرأهم علىٰ عذاب النار!.

ويجوز أن تكون «ما» استفهامية، وحكمها في الإعراب كحكمها في التعجب، فهي في موضع رفع، ومن قال: إنها للنفي يعني: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فكلامه بعيد من الصواب. والصحيح أنها للتعجب وليست للنفي، لأنهم فعلوا ما هو مثار العجب، حيث فعلوا ما يسوقهم إلىٰ النار، واشتروها بأغلىٰ ثمن، وهم لا يطيقون عذابها ولا يصبرون عليها؛ فلا شك أنها للتعجب، ولٰكن هل هو صيغته تعجيب من اللَّه للمؤمنين علىٰ فعل أولٰئك؛ لأن اللَّه ليس عنده شيء غريب أو مجهول

سببه فيتعجب منه، بل هو العالم بجميع الأشياء ما ظهر منها وما بطن، أو أن العجب منه ليزيد المؤمنين منه عجبًا في حالة هٰؤلاء؛ لأن ما أعجب اللَّه أعجب غيره بطريق الأولىٰ؟.

وقد ورد الحديث الصحيح في إسناد العَجَب إلىٰ اللَّه سبحانه[1]، وطريقة السلف أن يؤمنوا بأنه عجبٌ يليق بجلاله، وليس كعجب البشر مما يكون أمره أو سببه مجهولًا عندهم، بل عجبه سبحانه لا نعرف كنهه، كما لا نعرف كنه ذاته العلية، بل نثبت ما أثبته اللَّه لنفسه في القرآن وعلىٰ لسان رسوله في السنة من غير تأويل ولا تعطيل.

وقد أخطأ من تأول عَجَب اللَّه بالرضا من المتعجَّب منه لمخالفته الواقع، إذ لا يرضىٰ اللَّه من حال الكفار.

وقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾:

يعني: أن ما حكم اللَّه به علىٰ كاتمي الهداية في الآيتين السابقتين سببه أن اللَّه نزل الكتاب لهداية الخلق، وتوضيح الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال؛ فلا هداية في أمور الدنيا والآخرة إلا بكتاب اللَّه وتفسيره من سنة المصطفىٰ ﷺ، وما عداه فهو ضلالةٌ وعمايةٌ لا يهتدىٰ بها؛ لأنها اتباع للهوىٰ ولآراء الرجال في الدين. وليس لأحد أن يقول في الدين برأيه؛ لأن الأهواء والآراء لا ضابط لها ولا حدود؛ فأهلها دائمًا في شقاق، جَرَّهُم إليه الاختلاف في الكتاب، والذين اختلفوا فيه ـ فكتموا بعضه، أو آمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر، أو حرَّفوه، وصرفوا معانيه علىٰ وفق أهوائهم، فكانوا في شقاق بعيد، يعني: جعلوا أنفسهم في حدٍّ بعيد عن الحق والهدىٰ الذي جاء به الكتاب، فالكتاب مزيل للاختلاف، وهادٍ من الضلالة، فمن شرد عن صراطه وهدايته بسلوك أبواب غير

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

بابه؛ وقع في الضلال والاختلاف الموجب للشقاق.

ومعنىٰ «الشقاق»: الخلاف والتعدي، وحقيقته: أن يكون كل واحد من الخصمين في شِقٍّ غير الشِّقِّ الذي فيه خصمه، والمختلفون في الدين يبتعد كل واحد منهم عن الآخر، فيكون الشقاق بينهم بعيدًا جدًّا، ولهٰذا لا يمكن التوفيق بينهم بأي مبدأ أو نظرية كالقوميات وغيرها، والتي فشلت في جمع المسلمين ووحدتهم.

وفي الآية دليل واضح علىٰ أنه لا يجوز لأهل الوحي الإلٰهي ـ من كتاب وسنة ـ أن يكونوا علىٰ خلاف في الدين يقيمون عليه بلا رجوع، ولا أن يكونوا شيعًا، وقد برأ اللّٰه نبيه ﷺ من ذٰلك بقوله في الآية (١٥٩) من سورة «الأنعام»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ وذٰلك لأن الشقاق أثر طبيعي للاختلاف.

ولما كان اختلاف الفهم ضروريًّا ـ لأنه من طباع البشر ـ؛ أوجب اللّٰه عليهم أن يتحاكموا فيه إلىٰ الكتاب والسنة حتىٰ يزول الخلاف، ولم يبح اللّٰه لهم الإقامة عليه، كما قال تعالىٰ في الآية (٥٩) من سورة «النساء»: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وفي هٰذا حسم للنزاع، ووقاية للأمة المحمدية من الاختلاف الذي وقع فيه غيرها من الأمم، فلا عذر للمسلمين أبدًا في الاختلاف في دينهم.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

قوله ﷻ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾: ٣١

قوله ﷻ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾: ٣٤

قوله ﷻ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾: ٣٦

قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾: ٣٨

قوله ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة]: ٤٣

قوله ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾: ٤٤

قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾: ٥٦

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾: ٥٩

📖 قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: ٧٢

📖 قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: ٧٦

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾: ٨٠

📖 قوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾: ٩٠

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾: ٩٤

📖 قوله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾: ٩٩

📖 قوله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾: ١١٠

📖 قوله ﷻ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾: ١٢٣

📖 قوله ﷻ: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾: ١٢٦

📖 قوله ﷻ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾: ١٣٣

📖 قوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾: ١٣٧

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩﴾: ١٤١

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾: ١٤٦

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٢﴾: ١٥٤

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝٥٣﴾: ١٥٨

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٦﴾: ١٦١

📖 قوله ﷻ: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧﴾: ١٦٣

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩﴾: ١٦٥

📖 قوله ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ

مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾: ١٦٨

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾: ١٧٢

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾: ١٧٩

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾: ١٨٤

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾: ١٨٩

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾: ١٩٣

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾: ٢٠٥

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾: ٢١١

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾: ٢١٨

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ

كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾: ... ٢٢٢

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٧﴾: . ٢٢٦

قوله ﷻ: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾: ٢٢٨

قوله ﷻ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾: ٢٣٠

قوله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾: ٢٤١

قوله ﷻ: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾: ٢٤٣

قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾: ٢٤٨

قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾: ٢٥٦

قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾: ٢٥٨

قوله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾: ٢٦٣

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾: ٢٦٧

قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾: ٢٧٦

قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾: ٢٨٠

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾: ٢٨٣

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾: ٢٨٧

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾: ٢٨٩

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾: ٢٩٣

قوله ﷻ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ

﴾ (١٢٩) ﴿: ٤١٣
قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾: ٤١٩
قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾: ٤٢١
قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾: ٤٢٢
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾: ٤٢٣
قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾: ٤٢٧
قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)﴾: ٤٣١
قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)﴾: ٤٣٣
قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾: ٤٣٦
قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾: ٤٣٩
قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا